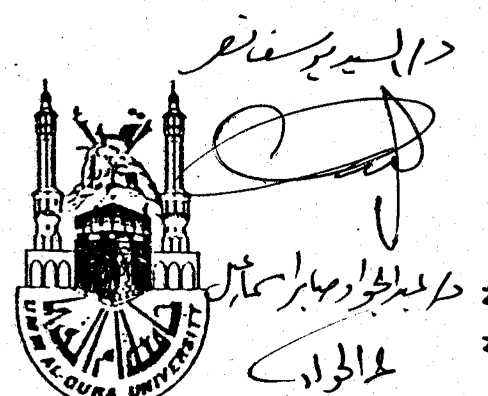
قام الطالب بالتعديل المطلوب

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية
مكة المكرمة



د/ السيد يوسف نصر
د/ عبدالجواد صابر إسماعيل
د/ يوسف الثقفي

العثمانيون والجهاد الإسلامي

في شرق إفريقية

١٠٣٤ - ١١٢٣ هـ / ١٦٢٤ - ١٧١١ م

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي الحديث

إعداد

عبدالرحمن بن علي بن عبدالله السديس



إشراف

أ . د . يوسف بن علي بن رابع الثقفي



١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

ملخص الرسالة

العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية

١٠٣٤ - ١١٢٣هـ / ١٦٢٤ - ١٧١١م

تبرز أهمية هذه الرسالة في معالجتها لحركة الجهاد الكبرى التي قام بها اليعاربة العمانيون ضد البرتغاليين في شرق إفريقية، والتي تحقق بسببها طردهم (أي البرتغاليين) من مناطق شرق إفريقية ومن ثم تأسيس حكم إسلامي امتد على جزء كبير من سواحل الشرق الإفريقي مما كان له أكبر الأثر في نشر الإسلام في أعماق القارة الإفريقية.

تتكون الرسالة من أربعة فصول صدرتها بعد المقدمة بتمهيد قدمت فيه عرضاً موجزاً لنشأة المدن والإمارات الإسلامية في ساحل شرق إفريقية وعلاقتها بعمان قبل وصول البرتغاليين، كما قدمت فيه أيضاً عرضاً موجزاً للأوضاع في الساحل العماني والخليج قبيل الاستعمار البرتغالي.

أما الفصل الأول فقد تحدثت فيه عن دوافع الاستعمار البرتغالي لساحل شرق إفريقية وعمان وآثار ذلك الغزو على العلاقات العربية الأفريقية وعلى المؤثرات العربية والإسلامية في ساحل شرق إفريقة، ومنها عرقلة حركة انتشار الإسلام، إضافة إلى سلب العرب والمسلمين حقوقهم السياسية والتجارية في تلك المناطق. وفي الفصل الثاني تحدثت عن العمانيين ودورهم في تصفية الوجود البرتغالي، تطرقت فيه إلى مراحل بناء الوحدة العمانية بقيادة الإمام (ناصر بن مرشد اليعربي ١٠٣٤ - ١٠٥٩هـ / ١٦٢٤ - ١٦٤٩م) وجهاده في سبيل تخليص عمان من الاستعمار البرتغالي ذلك الجهاد الذي أسفر عن استعادة عدد من الموانئ والنقط الساحلية العمانية.

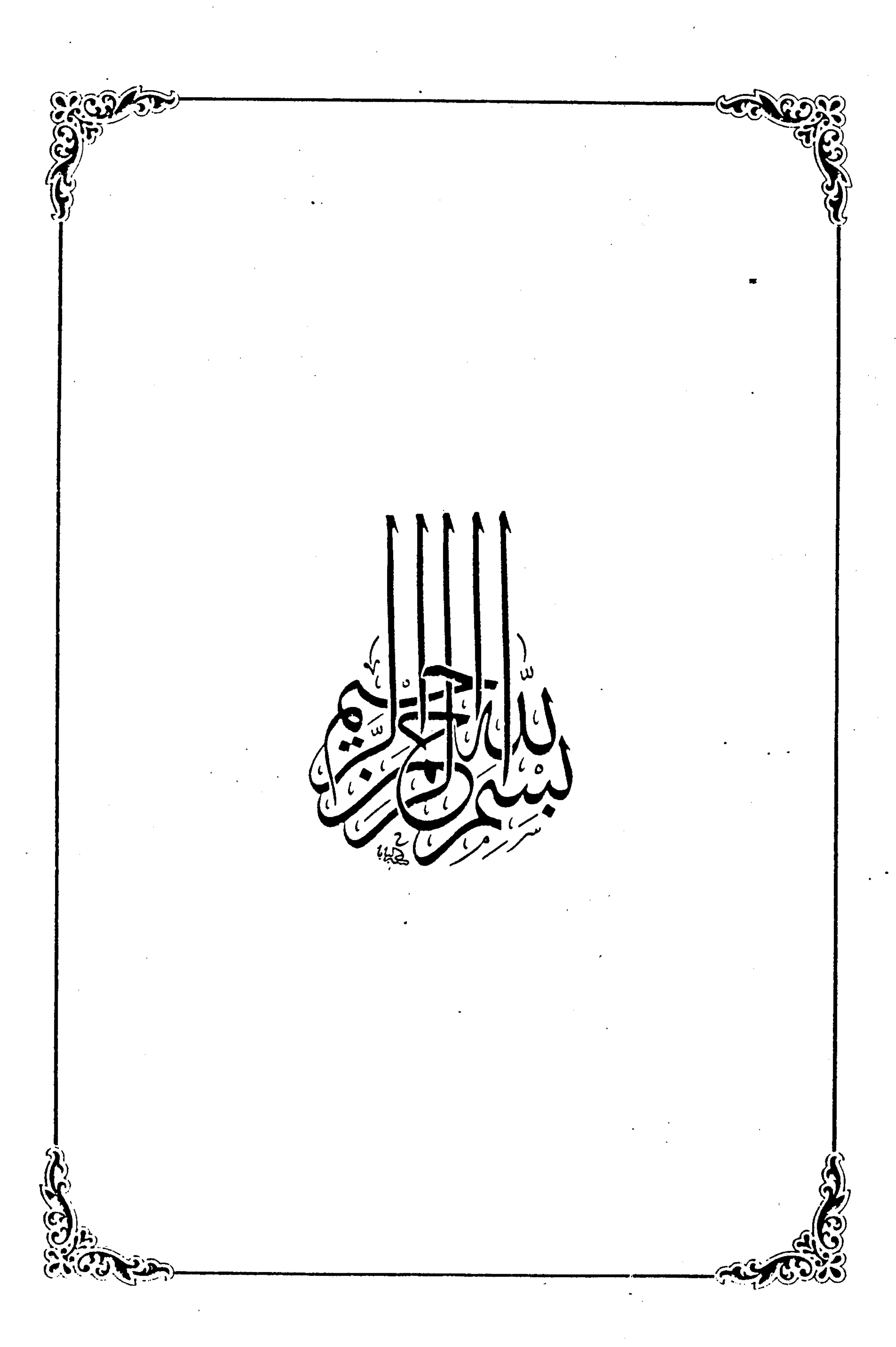
وفي الفصل الثالث تحدثت عن جهاد الإمام (سلطان بن سيف الأول ١٠٥٩ - ١٠٩٠هـ / ١٦٤٩ - ١٦٧٩م) والذي استهله بطرد البرتغاليين من بقيّة أقاليم عمان وتتبعهم في الهند وشرق إفريقية، وتجريده لعدد من الأساطيل العمانية لمساعدة المسلمين في ساحل شرق إفريقية، كما جاهد البرتغاليين في عدة أماكن مثل السواحل الجنوبية للجزيرة العربية والبحر الأحمر، وكان لهذا الإمام دوراً مهماً في إثارة الحماس وروح الجهاد في صفوف المسلمين في ساحل شرق إفريقية.

أما في الفصل الرابع فقد تحدثت عن جهاد الإمام (سيف بن سلطان الأول ١١٠٤ - ١١٢٣هـ / ١٦٩٢ - ١٧١١م) تطرقت فيه إلى دعم البحرية العمانية في المحيط الهندي، ومطاردة السفن البرتغالية في المحيط الهندي وشرق إفريقية، وإرسال اسطول إلى ساحل شرق إفريقية وطرد البرتغاليين من كافة القسم الشمالي في الساحل وإعادة حكم المسلمين إلى هناك، كما تحدثت عن تصفية الوجود البرتغالي في شرق إفريقية وأثره في تركيز دعائم الإسلام في تلك المناطق.

أما الخاتمة فهي تتضمن أهم نتائج هذه الدراسة، تليها بعد ذلك الملاحق الضرورية ثم قائمة المصادر والمراجع.

والله ولي التوفيق ،،

الباحث	المشرف	عميد الكلية
	الأستاذ الدكتور	الأستاذ الدكتور
عبدالرحمن علي عبدالله السديس	يوسف بن علي بن رابع الثقفي	عنه عابد بن محمد السفياني
		١٤١٤/١/١٠


بسم الله الرحمن الرحيم

العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق
إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي
في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد
الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية
العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق



المقدمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين .. وبعد :

شهدت بحار الشرق الإسلامي في أوائل القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي طلائع الاستعمار الأوربي في العصر الحديث والمتمثل بالغزو البرتغالي الذي تعرضت له السواحل الشرقية الإفريقية، وسواحل الهند الغربية والخليج العربي والبحر الأحمر، ومما لاشك فيه أن نجاح البرتغاليين في اكتشاف رأس الرجاء الصالح والسيطرة على المحيط الهندي ومعابر التجارة الإسلامية واحتكارهم لتجارة الشرق، يشكل نهاية عصر قديم وبداية عصر جديد، يختلف اختلافاً جذرياً عن العصر الذي سبقه، ذلك أن مدن وإمارات ساحل شرق إفريقية ومنطقة الخليج العربي كانت تعيش عصراً ذهبياً في الملاحة والتجارة خلال الفترة التي سبقت مجيء البرتغاليين إلى بحار الشرق، لم تلبث أن فقدت أهميتها التجارية بتحول التجارة إلى الطريق البحري المباشر حول إفريقية إلى موانىء الأطلنطي في غرب أوربا، وانتقلت المناطق التي سيطر عليها البرتغاليون إلى مرحلة من التدهور والانكماش، منذ بداية العصور الحديثة، بل إن هذا التدهور كان له تأثير على بقية أجزاء العالم العربي والإسلامي، وبصفة خاصة المناطق الإسلامية والعربية التي كانت تمر من خلالها تجارة الشرق عبر بحارها وموانئها وتستفيد من وراء ذلك فوائد كبيرة.

إن الغزو البرتغالي لبحار الشرق هو في حقيقته امتداد لحروب

صليبيّة تعرضت لها حواضر العالم الإسلامي في الشام ومصر ، ومن ثم سواحل الشمال الإفريقي والمغرب العربي والتي وضع البرتغاليون أقدامهم على أرضها واتخذوها مرتكزاً ينقضّون منها على أهدافهم التي حددوها.

لقد أتى الغزو البرتغالي لبحار الشرق بمرحلة جديدة من تاريخ الشرق الإسلامي وهي المرحلة التي يمكن أن يطلق عليها مرحلة التوسع الأوربي الأول، إذ إن المجال لم يترك للبرتغاليين وحدهم وإنما نافسهم العديد من القوى الأوربية وبخاصة هولندا وانجلترا وفرنسا حيث حرصت كل واحدة منها على بسط نفوذها في الشرق الإسلامي وتدعيمه، ولاتكمن أهمية هذه المرحلة في تنافس القوى الأوربيّة فيما بينها فحسب، وإنما في جهود القوى الإسلامية والعربية للتخلص من نفوذ البرتغاليين وسيطرتهم، وقد بدأ العثمانيون الذين تصدوا لزعامة العالم الإسلامي منذ السنوات الأولى من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، صراعهم ضد البرتغاليين على غرار مافعله المماليك قبل زوال دولتهم، ولكن الصراع العثماني البرتغالي لم يكن صراعاً متكافئاً من حيث موازين القوى البحرية والعسكرية.

ولاغرو في ذلك فقد أثبتت مناطق شرق إفريقية والخليج العربي بحكم طبيعتها البحرية وفي مختلف عصورها التاريخيّة أن القوة البحرية هي القوة الوحيدة القادرة على السيطرة على ضفافها، ومما يؤكد ذلك أنه على إثر انتهاء العصر الذهبي للملاحة والتجارة الإسلامية في المحيط الهندي، تمكنت القوى الأوربيّة التي تميزت بتفوقها في المجال البحري كالبرتغاليين والهولنديين والانجليز من السيطرة على مقدرات المنطقة.

ولقد كان ساحل شرق إفريقية إحدى تلك المناطق التي استقر فيها

العرب والمسلمون مكونين مدناً وامارات إسلامية نمت وازدهرت وكانت إيذاناً ببداية عهد جديد، اتّسم بظهور تغيرات في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بل أصبحت تلك المنطقة مركز إشعاع حضاري إسلامي لنقل الحضارة الإسلامية إلى مجاهل القارة الإفريقية، حيث قامت هذه المنطقة بدور الوساطة في مجال العلاقات الحضارية والاقتصادية بين عرب سواحل الخليج العربي والجزيرة العربية، وبين شعوب شرق ووسط إفريقية، ولكن نصيبها أن كانت أولى مناطق الشرق الإسلامي التي تعرضت للغزو البرتغالي في وقت كانت فيه على أبواب مرحلة انتقالية ذات حضارة مزدهرة.

والواقع أنه قد تثار أمامي نقطة عاطفيّة وهي أنه قد يصعب على الباحث العربي أن يبدأ التاريخ الحديث لأحد أجزاء الوطن الإسلامي بالغزو والاستعمار، هذا فضلاً عن أن الفترة الزمنيّة موضوع الدراسة، هي في مجموعها فترة انكماش في الوطن الإسلامي وتسلط استعماري، ومع ذلك فإن مما يخفف ذلك الشعور، تلك الصفحات المشرقة التي أمكن تسجيلها لأبناء عمان في جهادهم ضد البرتغاليين، ليس لتحرير بلادهم فحسب، بل مد يد العون والمساعدة للمناطق الإسلامية الأخرى لتخليصهم من السيطرة البرتغالية وبخاصة ساحل شرق إفريقية.

وعليه فقد تم اختياري لموضوع (**العمانيون والجهاد الإسلامي في ساحل شرق إفريقية ١٠٣٤ - ١١٢٣هـ / ١٦٢٤ - ١٧١١م**) محاولاً إبراز حركة الجهاد الكبرى التي قام بها اليعاربة العمانيون. ذلك الجهاد الذي أدى إلى طرد البرتغاليين من سواحل عمان وإلغاء دورهم السياسي والتجاري والعسكري في الخليج العربي، وتحرير ساحل شرق إفريقية من السيطرة البرتغالية، والذي يعتبر بحق نقطة تحول في تاريخ الإسلام في تلك

المناطق، حيث تم وضع الأساس لحكم عربي إسلامي امتد على جزء كبير من سواحل شرق إفريقية وأسهم في تغلغل الإسلام إلى أواسط القارة الإفريقية، ومحاولاً كذلك إبراز الدور الرائد للجزيرة العربية وعلاقتها بساحل شرق إفريقية وهي علاقة وثيقة ومتينة ومتصلة.

ويأتي عدم وجود دراسة تاريخيّة عن الجهاد العماني ضد البرتغاليين واثره في انتشار الإسلام وتركيز دعائمه في ساحل شرق إفريقية، في طليعة الأسباب التي دفعتني إلى اختياري لهذا الموضوع، إضافة إلى إبراز هذا الجهاد وأهميته في مقارعة الاستعمار الأوربي للبلاد الإسلامية في العصر الحديث، وأيضاً افتقار المكتبة العربية إلى المصادر والمراجع العربية والإسلامية التي تتناول الجهاد الإسلامي ضد البرتغاليين، وإن وجدت مقالات متناثرة عن ذلك فإنها أحجمت عن إبراز العامل الديني في صراع العمانيين ضد البرتغاليين، وعالجت الموضوع كصراع حربي وتجاري حول حقوق السيادة، وربما ذلك عائد إلى أنها استقت مادتها العلمية من مصادر أجنبيّة لم تخضعها للتمحيص والتحليل.

وتجدر الإشارة إلى دراستين تاريخيتين لدولة اليعاربة في عمان، إحداهما لعائشة السيّار (دولة اليعاربة في عمان وشرق إفريقية ١٦٢٤ - ١٧٤١)، والذي ركزت فيه البحث على قيام الدولة وتنظيماتها وأوضاعها الاجتماعية والحياة الفكرية، وعلاقاتها الخارجيّة، والغزو الفارسي لعمان، وتدهورها ثم سقوطها، علماً إنها لم تتطرق لموضوع دراستنا هذه - الجهاد العماني ضد البرتغاليين وبخاصة في ساحل شرق إفريقية - إلاّ بالقليل من الدراسة والتحليل فضلاً عن كونه يفتقر إلى تحديث معلوماته وتوثيقها.

أما الدراسة الثانية فهي : (أسرة اليعاربة في عمان The Yarubi Dynasty of Oman, (Oxford, 1967)) لـ (باثرست R.D, Bathurst).

والذي تطرق فيها لقيام الدولة ودور الإمامة الإباضية في ذلك، كما تطرق إلى التجارة والعلاقات التجارية بين الدول الأوربية في المنطقة، وأفسح حيزاً كبيراً من الدراسة للحديث عن الدور الانجليزي والتنافس مع الهولنديين، وتحدث في إحدى جزئياته عن التعارك العماني البرتغالي وأثره على التجارة الدولية تحت عنوان : الحرب فيما وراء البحار والتوسع الإقليمي، والذي وصفه بالقرصنة العربيّة والحرب في سبيل التجارة، حيث أفرد فصلاً كاملاً حاول من خلاله اثبات أن القرصنة هي المحرك الرئيس للعمانيين في حربهم ضد البرتغاليين والقوى الأخرى متهماً إياهم بإعاقة التجارة الدولية، والقى باللائمة على الإنجليز الذين كان يتعين عليهم - حسب قوله - وضع حدٍ لهذه المهزلة التي ترعاها حكومة الإمامة في عمان.

وبالرغم من أن هاتين الدراستين ركزتا على دراسة الدولة ونواحيها المختلفة، ولم تقدما دراسة خاصة ومتميزة عن الدور الجهادي لأئمتها، بل قدما عرضاً لهذه المرحلة في أثناء تناولهما دراسة دولة اليعاربة في عمان، إلاّ أنه - احقاقاً للحق - فقد استفدت منهما في تلمس بعض نواحي طريقي.

هذا ولايخفى على باحث التاريخ أن يلاحظ مدى صعوبة البحث في هذا المجال، حيث لمست بنفسي ذلك منذ الشروع في وضع مخطط عام لموضوع الرسالة عند التسجيل، فقد واجهت صعوبة تحديد أبعاده وإطاره العام نظراً لارتباطه وتداخله في كثير من فتراته بمواضيع ومناطق شتى، مثل ارتباطه بالأوضاع في الخليج العربي ارتباطاً مباشراً، أو السواحل

الجنوبية للجزيرة العربية أو سواحل الهند الغربيّة، وقد احتاج مني ذلك إلى الكثير من الجهد في توزيع فصول الرسالة وجزئياتها المختلفة بما احتوته من معلومات.

لقد اقتضت طبيعة البحث ودراسته تقسيمه إلى أربعة فصول، صدرتها بتمهيد عن الأوضاع في ساحل شرق إفريقية قبل وصول البرتغاليين إضافة إلى عرضٍ موجزٍ للهجرات العربية والإسلامية ونشأة المدن والإمارات الإسلامية في تلك المناطق وعلاقتها بعمان، كما تحدثت فيه بشيء من الايجاز عن الأوضاع في عمان والخليج قبيل السيطرة البرتغالية.

أما الفصل الأول فقد خصصته لدراسة الاستعمار البرتغالي لساحل شرق إفريقية وساحل عمان (٩٠٤ - ٩١٣هـ - ١٤٩٨ - ١٥٠٧م)، تحدثت فيه عن الدوافع الدينيّة والاقتصادية للاستعمار البرتغالي باعتبارهما الدافعين الرئيسين لهذا الاستعمار، ثم تتابع الحملات البرتغالية على ساحل شرق إفريقية، وتأكيد السيطرة البرتغالية على تلك المناطق وترسيخها، ثم السيطرة البرتغالية على الساحل العماني، ومارافق ذلك من ممارسات دينيّة وتعسفيّة وموقف الأهالي منها، كما أشرت في ثنايا هذا الفصل للجهود المملوكية والعثمانية للحد من خطره.

وفي الفصل الثاني تحدثت عن العمانيين ودورهم في تصفية الوجود البرتغالي جهاد الإمام (ناصر بن مرشد اليعربي ١٠٣٤ - ١٠٥٩هـ / ١٦٢٤ - ١٦٤٩م) ناقشت فيه توليته الإمامة معلناً بذلك قيام دولة اليعاربة في عمان، ثم جهوده في تحقيق الوحدة الوطنية ولمّ شمل القبائل العمانية المختلفة تحت قيادة واحدة، ثم بدء مرحلة الجهاد العماني ضد البرتغاليين، والتي تحدثت فيها عن أوضاع البرتغاليين في الشرق قبيل بدء الجهاد العماني



ضدهم وتركز الوجود البرتغالي في الساحل العماني، ثم المواجهة العسكرية المباشرة بين العمانيين والبرتغاليين والهجوم الأول على (مسقط) وتحرير (جلفار ومنطقة الصير وحصار صحار) ومعاهدة الهدنة الأولى حول (مسقط) عام ١٠٤٢ - ١٠٤٣هـ / ١٦٣٢ - ١٦٣٣م، ثم تطور الأوضاع الداخلية، واحتدام الصراع بين الإمام (ناصر) وبني جبر، والذي تمخض عن كبح جماحهم وزوال تهديدهم، بعد ذلك تحدثت عن تجدد الجهاد العماني ضد البرتغاليين والهجوم على (مسقط) وتحرير (صحار) عام ١٠٥٠ - ١٠٥٣هـ / ١٦٤٠ - ١٦٤٣م، ثم الهجوم الكبير على (مسقط) ومعاهدة الهدنة عام ١٠٥٨هـ /١٦٤٨م، ووفاة الإمام ناصر بن مرشد عام ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م.

أما في الفصل الثالث فقد تحدثت فيه عن جهاد الإمام (سلطان بن سيف الأول ١٠٥٩ - ١٠٩٠هـ / ١٦٤٩ - ١٦٧٩م) تطرقت فيه لتوليته الإمامة، وطرد البرتغاليين من بقية أجزاء الساحل العماني ودوره في إذكاء روح الثورة والجهاد ضدّ البرتغاليين في ساحل شرق إفريقية، ثم استنجاد المسلمين هناك بالإمام (سلطان)، الذي أرسل قوة بحرية هاجمت البرتغاليين في كل من (زنجبار وبته)، وبعض المدن هناك، وذلك عام ١٠٦٣هـ / ١٦٥٢م.

أيضاً تحدثت في هذا الفصل عن جهود الإمام سلطان بن سيف حتى انه قاد بنفسه حملة بحرية إلى ساحل شرق إفريقية، قام خلالها بمحاصرة البرتغاليين في (ممباسه) ثم سقوطها، وهاجمت قواته البرتغاليين في معظم أجزاء الساحل، وذلك خلال الفترة من ١٠٧١ - ١٠٧٦هـ / ١٦٦٠ - ١٦٦٥م، ثم تطرقت في هذا الفصل أيضاً إلى مطاردة البرتغاليين في ساحل الهند الغربي والهجوم على (ديو) عام ١٠٧٩هـ / ١٦٦٨م ثم العودة إلى ساحل شرق إفريقية والهجوم على قلعة البرتغاليين في (موزمبيق) وحصارها عام

١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م، وتحدثت عن الجهاد العماني ضد البرتغاليين في سواحل جنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر، وأثره على الجهاد في ساحل شرق إفريقية، ثم مواصلة الجهاد العماني في ساحل شرق إفريقية، والهجوم على (بتّه) عام ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م ووفاة الإمام (سلطان بن سيف الأول).

وفي الفصل الرابع تحدثت عن جهاد الإمام (سيف بن سلطان الأول ١١٠٤ - ١١٢٣هـ / ١٦٩٢ - ١٧١١م) ناقشت فيه توليته الإمامة والتنافس على الإمامة بينه وبين أخيه (بلعرب بن سلطان)، وأثر ذلك على حركة الجهاد العماني، ثم الأوضاع في ساحل شرق إفريقية قبيل تولي الإمام (سيف بن سلطان)، وجهوده في دعم البحرية العمانية في المحيط الهندي، ومحاولاته استعادة الهيبة البحرية العمانية وذلك بمطاردته للسفن البرتغالية في الخليج العربي والمحيط الهندي، ثم بلوغ الجهاد العماني ضد البرتغاليين ذروته وذلك بإرسال أسطول عماني إلى ساحل شرق إفريقة وحصار (ممباسه) ثم سقوطها عام ١١١٠هـ / ١٦٩٨م وطرد البرتغاليين من بقية أجزاء الساحل، وتعيين والٍ عماني على (ممباسه) وإعادة حكم المدن الأخرى إلى الأسر التي كانت تحكمها قبل وصول البرتغاليين والتي تنحدر من أصول عمانية، ثم ردود الفعل البرتغالية على سقوط (ممباسه)، وكذلك تطور الأوضاع في الخليج العربي وأثرها على حركة الجهاد العماني في ساحل شرق إفريقية، ووفاة الإمام (سيف بن سلطان الأول)، ثم تصفية الوجود البرتغالي في ساحل شرق إفريقية وأثره في تركيز دعائم الإسلام وانتشاره في تلك المناطق.

وقد ختمت الدراسة بخاتمة ضمنتها أهم النتائج التي توصلت إليها، وذيّلت دراستي بعدة ملاحق رأيت ضرورتها لتوضيح بعض جوانب الدراسة.

وعن المادة العلمية التي قامت عليها فصول الدراسة، فقد اعتمدت فيها على عدد لابأس به من الوثائق غير المنشورة والمنشورة، والمصادر المخطوطة والمطبوعة، والمراجع والبحوث والرسائل الجامعيّة، حيث استفدت من هذه المصادر في القاء الضوء على عدد من الجوانب التي عالجتها الرسالة.

ومن الوثائق غير المنشورة : وثائق سجلات مكتب الهند (بلندن) والمعروف إختصاراً بـ (IOR) (India Offic Library and Records) والتي تنقسم إلى قسمين : وثائق برتغالية تمت ترجمتها إلى الإنجليزية، ووثائق انجليزية، كما رجعت إلى بعض وثائق وزارة الخارجية الفرنسية.

أما الوثائق البرتغالية فهي عبارة عن مراسلات بين نائب الملك البرتغالي بالهند وملك البرتغال، ومراسلات قادة البرتغاليين بمناطق الشرق المختلفة ونائب الملك، والتي تلقي الضوء على الأوضاع البرتغالية بالشرق في تلك الفترة، وعلاقتهم بالأمم الأخرى، ومن بينهم العمانيين، حيث تحدثت عن تنامي القوة العمانية وموقف البرتغاليين منها، ومدى الإرتباك الذي أصاب القيادة البرتغالية أمام النجاحات التي حققتها البحرية العمانية ضدهم في الميادين المختلفة وأثر ذلك في ساحل شرق إفريقية والخليج العربي، كما أن فيها وصفاً لبعض المعارك التي وقعت بين الجانبين وموقف القوى المختلفة منها، وتجدر الإشارة إلى أن الأرشيفات البرتغالية تحفل بمادة تاريخية كبيرة، خاصة وان

البرتغاليين كان لهم سبق الاتصال بمناطق الشرق الإسلامي المختلفة منذ السنوات الأولى للقرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، واستمرت إلى مايقرب من قرنين من الزمان، ولكن مشكلة عدم معرفة اللغة البرتغالية قد حال دون الرجوع إلى تلك الأرشيفات، إلا أنني حاولت جاهداً سد هذه الثغرة بالرجوع إلى طائفة من الوثائق البرتغالية التي تمت ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية منذ زمن بعيد.

أما الوثائق الإنجليزية فهي وثائق شركة الهند الشرقية البريطانية المتعلقة بالخليج العربي والمحيط الهندي وبصفة خاصة (رسائل من الهند Letters from India) و (سجلات الوكالات Factory Records) وهي عبارة عن رسائل خاصة وأصليّة من الوكلاء التجاريين والمبعوثين في مناطق الشرق المختلفة، وفي مقدمتها الخليج العربي، إلى مديري الشركة في (سورات Surat)، على ساحل الهند الغربي أو (بمباي Bombay)، أو رسائل مديري الشركة في الهند إلى إدارة الشركة في (لندن)، وتحفل هذه المجموعة بالعديد من المراسلات الخاصة عن المنافسات التجارية في المنطقة، وعن علاقة الشركة بمنطقة الخليج العربي، والأحداث السياسية والعسكرية فيها، وبخاصة تقارير الوكلاء في كل من (أصفهان وجمبرن (بندر عباس) وجاسك)، والوكلاء المتنقلين على السفن التجارية، وقد تم العثور بين هذا الكم الهائل على وثائق غاية في الأهمية، حيث قامت برصد الصراع الدائر بين العمانيين والبرتغاليين ومراحله المختلفة، كما ألقت الضوء على القوى المحلية والأجنبية في المنطقة، وعلاقات بعضها ببعض، والملاحظ على هذه الوثائق أو المراسلات، أنها ظلت تصف أحداث الجهاد العماني ضد البرتغاليين بشيء من الواقعية والحياد حتى أواخر عهد الإمام (سلطان بن سيف الأول)، وذلك عندما برز العمانيون قوة بحريةً لها وزنها في الخليج العربي والمحيط الهندي،

عندها بدأت تلك المراسلات تحذر من تصاعد القوة العمانية وتصف العرب بالقراصنة. وأخذت في حث المسؤولين في شركة الهند الشرقية الانجليزية والحكومة البريطانية على ضرورة الحد من نشاط العمانيين وإضعاف قوتهم، وبالرغم من ذلك، فقد كانت خير معين لي على تتبع بعض مراحل الجهاد العماني ضد البرتغاليين.

ومن الوثائق غير المنشورة أيضاً: (وثائق أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية Archives des Affaires Etrangeres) وبخاصة المراسلات السياسية الخاصة بفارس (Correspondance Politique, Perse) والتي تلقي الضوء على تطور الأوضاع في الخليج العربي والتحديات المحلية والأجنبيّة التي بدأت تواجه العمانيين وذلك في عهد الإمام (سيف بن سلطان الأول).

والواقع أن هذه المجموعة من الوثائق المختلفة، تقدم مادة علميّة غنيّة عن الأوضاع في الخليج العربي والمحيط الهندي في تلك الفترة لاغنى للباحث عنها، وقد استفدت منها بما يخدم موضوعي مع التزامي جانب الحيطة والحذر عند الاعتماد عليها. وجدير بالذكر أن هذه الوثائق تصعب قراءتها بسبب قدمها وطريقة الكتابة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ونعني بذلك اختلاف أشكال الحروف اللاتينية عن الحروف الحالية المستخدمة في الكتابة إلى جانب نسخها باليد، كما أنها غير مرتبة حسب الموضوعات ولكنها جمعت على أساس تتابع السنوات.

أما الوثائق المنشورة فأهمها (وثائق الآباء الكرمليين بفارس Achronicle of the Carmelites in Persia) والتي نشرت غفلاً في جزئين في

لندن عام ١٩٣٩م، وهي غنيّة بالمادة العلمية وبخاصة فيما يتعلق بالمسلمين، وقد كان منصرو هذه الطائفة منتشرين في جميع أنحاء الخليج العربي وبخاصة ساحل عمان، وكانوا شهود عيان لما وقع بين العمانيين والبرتغاليين من حروب على طول الساحل العماني، وفي مياه الخليج العربي المختلفة.

ومن الوثائق المنشورة أيضاً (مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي) نشرها (أحمد بوشرب) الذي قام بجمع كثير من الرسائل والمعاهدات المحفوظة في الأرشيف الوطني البرتغالي، والمتعلقة بمراحل الغزو والسيطرة البرتغالية على المناطق المذكورة، وفيها معلومات عن تعسف البرتغاليين وطغيانهم، وتسمح هذه الرسائل أيضاً بدراسة المخططات البرتغالية لإغلاق البحر الأحمر والخليج العربي بوجه الملاحة الإسلامية، فضلاً عن الدوافع المختلفة التي حدت بالبرتغاليين لاكتساح مناطق الشرق الإسلامي، وبرغم ماتحمله هذه الوثائق من وجهات نظر موالية للبرتغاليين فإن بالمستطاع اعتمادها لسد الكثير من الثغرات التي تركتها المصادر العربيّة، إذا مااستخدمت بشيء من الحيطة والحذر، وقد استفدت منها انطلاقاً من هذا الإطار. وجدير بالذكر أن الدكتور (بوشرب) قد نشر هذه الوثائق عدة مرات، إذ ظهرت لأول مرة في مجلة (المناهل المغربيّة)[1]، وظهرت للمرة الثانية في مجلة (الخليج العربي)[2] وأخيراً قامت مجلة (الوثيقة)[3] البحرانية بنشرها وهي النسخة التي اعتمدت عليها.

---

١) العدد السادس والعشرين، السنة العاشرة، ١٤٠٣هـ / مارس ١٩٨٣، ص ٣٢ - ٨٣.

٢) المجلد السادس عشر، العدد الأول، البصرة ١٤٠٤/١٩٨٤، ص ٣١ - ٤٦.

٣) العدد العاشر، السنة الخامسة، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص ١٤٤ - ١٨١.

ومن الوثائق المنشورة كذلك (حوليات شركة الهند الشرقية Annals of the Honorable East India Company) والتي صنفها (جون بروس John Bruce) ونشرت في (لندن عام ١٨١٠)، والتي حوت كثيراً من المعلومات عن البرتغاليين وأوضاعهم في الشرق، وعلاقتهم بالأمم الأخرى وبخاصة العمانيين، والعلاقات مع فارس، كما أنه يلقي الضوء على تذمر المسؤولين في شركة الهند الشرقية البريطانية من تنامي القوة العمانية في أوائل القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي.

والواقع أنني اعتمدت على جزء لابأس به من هذه الوثائق غير المنشورة والمنشورة، مع إيماني أن هذه الوثائق الاجنبيّة لايمكن أن تكون عمدة الباحث العربي المسلم وسلاحه الوحيد، بل لابدّ من البحث عن وثائق ومصادر عربيّة تصحح معلوماتها أو تكمّلها، أو على الأقل تمكن من مراقبة مدى صحتها ودقتها وموضوعيتها.

ولعل أهم عيب تحتوي عليه هذه الوثائق الاجنبيّة هو عدم تغطيتها للمناطق العربيّة والإسلامية تغطية كاملة، فهي لاتتحدث إلاّ عن أشياء لها صلة بمصالح الدول المستعمرة، فهي بذلك تعبر عن وجهة نظرها، إضافة إلى أنها حررت على يد أناس كانوا يهدفون من ورائها تمجيد أنفسهم ودينهم وبلادهم الأمر الذي يجعلها تفتقر إلى الموضوعية في بعض الأحيان افتقاراً لايحتاج إلى إثبات، ومع هذا، فهي تبقى في غياب وثائق ومصادر عربيّة مادتها العلمية الوحيدة.

وبالإضافة إلى تلك، فقد اعتمدت الدراسة على عدد من المصادر المخطوطة والمطبوعة، يأتي في طليعتها المصادر العمانية التي كان من

المتوقع أن تمدنا بمعلومات وافية عن الاستعمار البرتغالي وعن الجهاد العماني بصورة لاتقل أهمية عن المعلومات التي زودتنا بها المصادر البرتغالية، إلاّ أنها - للأسف الشديد - جاءت مخيبة لآمال الباحثين. ذلك لأن المصادر العمانية قد تجاهلت وبشكل يكون تاماً، أحداث الغزو البرتغالي للشرق وبخاصة منطقة الخليج العربي حتى مجيء الإمام (ناصر بن مرشد اليعربي) حيث توافر بعد ذلك الكثير من المعلومات، ولكن على وفرتها النسبيّة نجدها في مصدر يكاد يكون واحداً، والذي يعتبر بحق أهم المصادر العمانية وهو: (سيرة الإمام ناصر بن مرشد)، لعبد الله بن خلفان بن قيصر (ت بعد سنة ١٠٥٠هـ)، وتأتي أهمية هذا المصدر من أن المؤلف كان معاصراً للأحداث التي وقعت في عهد الإمام (ناصر بن مرشد)، ولذا أعطانا صورة واضحة عن الجهود التي بذلها الإمام لتحقيق الوحدة الوطنيّة في عمان، وجهاده للبرتغاليين في الساحل، ولكن الملاحظ عليه أنه لايعطي تفصيلاً للمعارك التي خاضها الإمام ضد البرتغاليين مماثلاً للتفصيل الذي حظيت به جهود الإمام لتوحيد البلاد، وصراعه مع المعارضين وهذه سمة غلبت على كافة المصادر العمانية، كما أنه لايهتم بذكر تاريخ وقوع الاحداث، إضافة إلى إكثاره من استعمال الكلمات الدارجة وتكلف السجع.

وقد استقت المصادر التي تلت (ابن قيصر) معلوماتها عنه خصوصاً فيما يتعلق بالعقدين الأولين من عهد الإمام (ناصر بن مرشد) وعن ذلك يقول السالمي: «وانما كتبنا من سيرة هذا الإمام مالم نكتبه في سيرة غيره لأن بعض أصحابه (أي ابن قيصر) قد أرخوا بعض سيرته.»[1]

---

١) نورالدين عبدالله بن حميد السالمي، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، تحقيق وتعليق ابراهيم طفيش الجزائري الميزابي، ج ٢ ، مطبعة الشباب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٥٠هـ ، ص ٢١.

ومن المصادر العمانية الهامة (تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة) لسرحان بن سعيد الأزكوري،[1] الذي يعتبر من المصادر الرئيسة للتاريخ العماني، وقد اعتمد إلى حد كبير خلال تدوينه لفترة دراستنا على كتاب (ابن قيصر)، بيد أن الأزكوري قد عدل من بعض روايات (ابن قيصر) وأضاف إليها وحذف منها، ولكنه لم يشر إلى مصدرها، ومع هذا فإن هذا المصدر الذي استمر بحوادثه حتى عام ١١٤٠هـ / ١٧٢٨م يعد مصدرنا الأول فيما بعد الإمام (ناصر بن مرشد) وبخاصة تحرير (مسقط) من الاستعمار البرتغالي على يد الإمام (سلطان بن سيف الأول).

وهناك مصدران آخران يكادان يكونان صورة طبق الأصل لكتاب (كشف الغمة) الأول كتاب (قصص وأخبار جرت في عمان) لأبي سليمان محمد بن عامر بن راشد المعولي (ت بعد سنة ١١٩٨هـ) والثاني (تاريخ أهل عمان) لمؤلف مجهول، والفارق الوحيد بين هذين الكتابين وكتاب (كشف الغمة) هو أن كشف الغمة يقف في اخباره عند عام ١١٤٠هـ / ١٧٢٨م، في حين يمضي هذان الكتابان إلى أبعد من هذا قليلاً فيصلان إلى حوالي عام ١١٥٩هـ / ١٧٤٦م.

---

١) تجدر الإشارة إلى أن السيد (روس Ross)، والذي كان معتمداً بريطانياً في (مسقط)، قد نشر ترجمة للقسم العماني من هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية، وذلك في مجلة الجمعيّة الآسيوية في البنغال عام ١٨٧٤م، تحت عنوان (حوليات عمان).
انظر :

Ross, E.C., Annals of Oman by Sirhan Bin Said, from old days until 1728, The Journal of the Asiatic Society of Bengal, vol. XLIII, (Calcutta, 1874).

ومن المصادر العمانية أيضاً، والتي تناولت الأحداث في هذه المرحلة، كتابان هما (الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين)[1] و (الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان) لحميد بن محمد بن رزيق (ت سنة ١٢٧٤هـ)، وقد اعتمد المؤلف في الكتاب الأول على المصادر التي سبقته، وينفرد أحياناً بمعلومات عن الصلات بين العمانيين والبرتغاليين والمعارك التي جرت بينهما، أما الكتاب الثاني فهو مجموعة قصائد وأبيات نظمها المؤلف في أحداث عمان، وكرّر كثيراً من الأحداث التي أوردها في الكتاب الأول.

ونجد في ثنايا هذين الكتابين بعض المعلومات المتناقضة أحياناً مثل أسماء القادة، أو تواريخ بعض الحوادث، مما يستدعي التروي عند الاستفادة منها والاعتماد عليها.

ويعد كتاب (تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان)، لنور الدين عبدالله ابن حميد السالمي (ت ١٣٣٢هـ) من أشهر ماكتب عن عمان في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وقد تميز بالدقة في نقل الروايات التاريخية ونقدها، إلاّ أنه ذكر بعض الروايات ذات الطابع الأسطوري، وليس هناك شك في أنه اطلع على المصادر العمانية التي سبقته واستفاد منها، ويميل - على مايبدو - إلى الأخذ عن (كشف الغمة) - فيما يخص موضوعنا على

---

١) لقد نشر (جورج بادجر Badger)، وهو أحد الباحثين الانجليز في تاريخ عمان هذا الكتاب الذي تناول تاريخ الأئمة والسادة البوسعيديين، نشره باللغة الإنجليزية، وأضاف له مقدمة تاريخية تحليلية. انظر :

Badger, G., History of the Imams and Seyyids of Oman, by salil Ibn Razik, (London, 1871).

الأقل - أكثر من اعتماده على (ابن قيصر)، وذلك عائد إلى سهولة لفظ (كشف الغمة) وأمانته في النقل، إلاّ أن ذلك أدى إلى وقوعه في الأخطاء نفسها التي وقع فيها مؤلف (كشف الغمة)، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال مقارنة النصوص في الكتابين، وقد تحفظ كثيراً في الأخذ عن (ابن رزيق) رغم أنه اعتمد عليه في بعض الروايات، وذلك عائد إلى عدم ثقته فيه، حيث يمثل (ابن رزيق) وجهة نظر السلاطين، وأطنب في مديح أسرة البوسعيديين، أما (السالمي) فقد تعرض لتاريخ عمان من وجهة نظر الأئمة الإباضيين، ويمكن للقارىء أن يتعرف منه على ميول واضح في آرائه السياسية فهو يميل إلى المذهبي الإباضي.

ومن الجدير بالذكر أن المصادر العمانية برمتها لم تتطرق بالتفصيل إلى الجهاد العماني في الخليج أو في ساحل شرق إفريقية والمحيط الهندي كتفصيلها الذي درجت عليه في ذكر الصراعات القبليّة والمشاكل الداخلية في عمان، بل اكتفت بإشارات مقتضبة عن ذلك الجهاد الذي يعد صفحة مشرقة في التاريخ العماني.

وإلى جانب المصادر العمانية، فقد قمت بالرجوع إلى عدد من المصادر العربية والإسلاميّة، ومن تلك المصادر (السلوة في أخبار كلوة) لمؤلف مجهول (ت بعد سنة ٩٦٠هـ)، والذي يتميز بأنه يلقي الضوء على البدايات الأولى للاستعمار البرتغالي لساحل شرق إفريقية، ورغم أنه يتحدث عن تاريخ (كلوة) إلاّ أنه ربطه بكل التيارات السياسية التي كانت تدور في ساحل شرق إفريقية والخليج العربي والبحر الأحمر، كما تتبع بعض الحوادث إلى الهند، وبتحليل نصوصه، نستطيع التعرف على نوع وطبيعة العلاقات التي كانت سائدة بين مدن وإمارات الساحل، والملاحظ عليه أنه تحدث عن الحوادث التي وقعت باختصار شديد في بعض الأحيان.

ومن تلك المصادر أيضاً (تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين، للشيخ أحمد بن زين الدين المعبري الملباري (ت بعد سنة ٩٩١هـ) [١]، ويعد من أهم المصادر العربية الإسلامية ومن أقدمها من حيث تناوله لامتداد النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي، وتوضيحه للأهداف الصليبيّة والاقتصادية التي دفعت البرتغالين بالتوجه إلى الشرق، ويدوّن بدقة وصول البرتغاليين إلى ساحل الهند الغربي، والأعمال التي قاموا بها، وتصالحهم مع بعض اماراتها، كما تطرق إلى الحملات التي كان قد بعث بها المماليك والعثمانيون لمقارعة البرتغاليين في الهند، وأفسح حيزاً كبيراً لأعمال البرتغاليين التي تسيء إلى الإسلام واضطهادهم المسلمين، كما أنه دوّن الأحداث التي جرت في ساحل (ملبار) بدءاً من سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م حتى سنة ٩٩١هـ / ١٥٨٥م، ومع أن هذا الكتاب يمتاز بدقة الملاحظة والتحليل إلاّ أنه لم يتطرق إلى الخليج العربي والجزيرة العربيّة إلاّ بإشارات قليلة.

ومن المصادر الهامة أيضاً (بدائع الزهور في وقائع الدهور) لمحمد بن أحمد بن إياس (ت سنة ٩٣٠هـ) والذي يعتبر من المصادر الهامة فيما يتعلق بالسنوات الأولى لقدوم البرتغاليين، حيث كان معاصراً لها، فقد أسهب في وصف تدهور الحالة الاقتصادية في بعض البلدان الإسلامية نتيجة الغزو البرتغالي وبخاصة في مصر، وكذلك تحركات البرتغاليين في المحيط الهندي والخليج العربي، وجهود المماليك في مواجهة البرتغاليين، ويستطيع المتتبع لكتاب (ابن إياس)، أن يلحظ أنه إنفرد في ذكر بعض الحوادث مثل موقف الصفويين من البرتغاليين وهجوم

---

١) قام محمد سعيد الطريحي بتحقيق هذا المخطوط والتعليق عليه كما قدم له بمقدمة ضافية أوضحت بعض جوانب الغموض فيه، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

البرتغاليين على البحرين واستيلائهم عليها.

ومن تلك المصادر (طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى) لعبدالله ابن علي الوزير (ت سنة ١١٤٧هـ)، والذي تعود أهميته إلى كونه يؤرخ لفترة من فترات التاريخ لم يتناولها الباحثون بصورة وافية، وهي الفترة التي أعقبت جلاء العثمانيين عن اليمن وبخاصة الفترة من ١٠٤٦ - ١٠٩٠هـ / ١٦٣٦ - ١٦٧٩م وهي التي تناولها هذا المصدر، مسجلاً الكثير من الاحداث ليس في بلاده اليمن فحسب، بل حظيت البلدان الإسلامية المجاورة باهتمامه، فسجل الكثير من الأحداث التي دارت في تلك الفترة، ويأتي في طليعتها الجهاد العماني ضد البرتغاليين الذي اتخذ من سواحل جنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر ميداناً له في فترة من فتراته. ويكاد يكون المصدر الهام إن لم يكن الوحيد - حسب علمي - الذي رصد تلك الاحداث، كما اهتم بأحداث العالم الإسلامي الأخرى، كالصراع العثماني الفارسي، والنشاط العثماني في البحر المتوسط، وصراع الأشراف فيما بينهم بمكة وعلاقتهم بالعثمانيين، والأوضاع في الحجاز خلال مواسم الحج، ورغم شموليته وتعدد مواضيعه إلاّ أن الملفت للنظر فيه هو تعصبه الشديد للإمامة في اليمن وللمذهب الزيدي، لدرجة أدت به إلى توجيه الانتقاد إلى المذاهب الأخرى، كابتذاله لأهل السنة الأتراك وامتعاضه من انتصار الإمامة في عمان على البرتغاليين، ورغم ذلك فإنه يظل من المصادر الهامة التي استفدت منها بما يخدم موضوعي.

ومن المصادر أيضاً (مخطوط تاريخ ولاية المزارعة في إفريقية

الشرقية). [1] للأمين بن علي المزروعي (ت سنة ١٣٦٦هـ) والذي يحتوي على عدد من الموضوعات التي تتعلق بالوجود العربي الإسلامي في ساحل شرق إفريقية في فترة من أدق الفترات التي شهدت الصراع الاستعماري وتكالبه على تلك المنطقة، كما يلقي الضوء على الجهاد العماني وطرد البرتغاليين من ساحل شرق إفريقية، وتكمن أهمية هذا المخطوط، في أن مؤلفه واحد من أبناء ساحل شرق إفريقية، وينتسب إلى أسرة لعبت دوراً بارزاً في تاريخ المنطقة، ورغم أنه يعتبر حديثاً، إلا أنه استمد تلك الأهمية من أن المؤلف قام بنقد وتفنيد بعض الروايات التي وردت في بعض المصادر الأجنبية اعتماداً على مخطوطات ووثائق تحتفظ بها أسرته وكذلك روايات كبار السن، إلا أنه لم يشر إلى تلك المخطوطات أو الوثائق.

يضاف إلى ذلك بعض المصادر المخطوطة والمطبوعة التي استفدت منها في بعض جزئيات هذه الدراسة.

وينبغي الإشارة إلى أن كثيراً من المصادر الأجنبيّة أغفلت الدور الهام الذي قام به العمانيون في انهيار الأمبراطورية البرتغالية في بحار الشرق، وذلك يعزى في - تقديري - إلى عدة اعتبارات من أهمها: أن تلك المصادر اعتمدت - إلى حد كبير - على تقارير الشركات الأوربيّة ومذكرات وتقارير مستشارين عسكريين وسياسيين ورحالة ينقصهم الحياد من ناحية والاطلاع العميق على أحوال البلاد وعاداتها، أيضاً كان معظم هؤلاء المؤلفين أسرى للون سياسي معيّن حكم نظرتهم للأمور وبالتالي

---

١) تجدر الإشارة إلى أن الدكتور ابراهيم الزين صغيرون، قد أجرى دراسة أولية لهذا المخطوط في مجلة عالم الكتب، المجلد السادس، العدد الثاني، الرياض ١٤٠٥/١٩٨٥.

نتائج أبحاثهم، ولذا فقد كانت أحكامهم بعيدة كل البعد في كثير من الأحيان عن الحياد الضروري لمعالجة القضايا التاريخية، ولاننسى حقيقة هامة وهي أن من حاول من هؤلاء الكتاب الاستفادة من المؤلفات المحليّة كانت تنقصهم الدراية والمعرفة باللغة العربيّة بصفة عامة، واللهجات المحلية بصفة خاصة، مما أثّر على محدودية ثقافتهم.

ويأتي في طليعة تلك المصادر الأجنبية التي اعتمدت عليها المصادر البرتغالية التي تشكل أساساً هاماً لدراسة تاريخ السيطرة البرتغالية في الشرق الإسلامي، وذلك لأنه في الوقت الذي شحت فيه المعلومات عن أحداث هذا الغزو، وبخاصة في المصادر العمانية، فإن الباحث لايجد بداً من الرجوع إلى هذه المصادر، سواء ماكان منها بشكل مذكرات أو رحلات، أو كتباً أصليّة مستندة على هذا أو ذاك.

ومن أهم هذه المصادر : (مذكرات أو تعليقات الفونسودي البوكيرك) والتي صدرت مترجمة إلى الإنجليزية بعنوان (The Commentaries of Great Alfonso De Albqerque) ويعد هذا المصدر في مقدمة المصادر البرتغالية ذات الصلة بأحداث الغزو البرتغالي، حيث إن (البوكيرك) من أكبر القادة البرتغاليين في الشرق، وتولي منصب نائب الملك بالهند منذ عام٩١٥هـ / ١٥٠٩م وحتى وفاته عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م، كما يعد (البوكيرك) المؤسس الحقيقي للأمبراطورية البرتغالية في الشرق، ولذا جاءت هذه المذكرات تحمل روح المبالغة في إظهار أفضال أبطالها، فهي تشيد بالانتصارات الكبيرة والأحداث الضخمة التي قام بها البرتغاليون في الشرق ، وتتضمن وصفاً عن حالات الحصار والمعارك وذبح الأعداء وإحراق المدن، ونهب الأموال والسفن، كما أن فيها معلومات عن المخططات البرتغالية للهيمنة على بلاد الشرق الإسلامي،

وهو عمل يحمل روح القسوة والتعصب لدى البرتغاليين، ورغم ذلك فإنها لاتخلو من الفائدة الكبيرة للباحث، وبخاصة عن بداية السيطرة البرتغالية على سواحل الخليج العربي.

ومن المصادر البرتغالية أيضاً (كتاب باربوسا The Book of Durate Barbosa) لمؤلفه (دوارتي باربوسا)، والذي ترجم إلى اللغة الإنجليزية، ويتميز هذا الكتاب بأنه من أول الكتب البرتغالية الذي سجل لنا تاريخ البرتغاليين بعد سنوات قليلة من دخولهم المحيط الهندي، حيث رحل المؤلف إلى الشرق مع إحدى الحملات البرتغالية، ومحتمل أنها حملة (كابرال) عام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م، وعمل في خدمة الحكومة البرتغالية بالشرق، كما أنه عمل مع (البوكيرك) شخصياً، وعاد إلى البرتغال عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م، وقد قدم لنا وصفاً دقيقاً لكل المناطق التي زارها، ومنها ساحل شرق إفريقية والخليج العربي، كما تحدث عن الحوادث التي وقعت فيها في تلك الفترة، ورغم أن هذا الكتاب يركز بصورة أساسية على النواحي الجغرافية والبشرية، إلاّ أن إرشاداته التاريخية على جانب كبير من الأهمية، ولكن القارىء يلمس تغافله عن بعض الحقائق التي تمس البرتغاليين، ومروره السريع على بعض الحوادث التي لاتشرّف القيادة البرتغالية، ورغم ادعائه بأنه ألف هذا الكتاب من أجل اكتشاف الحقيقة، إلاّ أنه ظل يعبر عن وجهة النظر البرتغالية الاستعمارية شاء أم أبى.

ومن المصادر البرتغالية الهامة (آسيا البرتغالية The Portuguese Asia) لفاريا سوزا Faria Sousa، والذي ترجم إلى اللغة الإنجليزية، وصدر لأول مرة في (لندن ١٦٩٥)، ويقدم عرضاً شاملاً للنفوذ البرتغالي في ساحل شرق إفريقية والخليج العربي والمحيط الهندي، ويحمل معلومات على

جانب كبير من الأهمية، ويتميز عن غيره من المؤلفين البرتغاليين بكثرة تدوينه للحوادث التاريخية، وشموله مناطق عدة من الشرق الإسلامي، وقد دون في هذا الكتاب الأساليب التي كان ينتهجها البرتغاليون ضد أهالي الشرق، سواء في المعارك الحربيّة أم على السواحل،أو ضد السفن الإسلامية، كما أعطانا صورة واضحة عن حالة البرتغاليين في مستعمراتهم، وعلاقة بعضهم مع بعض، وأسلوب حياتهم، بيد أن مما يؤخذ عليه تصويره للأعمال الوحشية والقتل والتمثيل بالأسرى الذين قام بأسرهم البرتغاليون، بالبطولة، مما يعكس تعصبه الشديد، وحقده على المسلمين وتفسيره لبعض الوقائع تفسيراً أبعد مايكون عن الحياد الذي يجب أن يكون عليه الباحث التاريخي.

ومن المصادر البرتغالية كذلك (رحلة بدرو تكسيرا The Travels of Pedro Teixeira). التي ترجمت إلى الإنجليزية ونشرت في (لندن ١٩٠٢)، وقد أقام المذكور مدة طويلة بالهند من عام ٩٩١هـ / ١٥٨٧ إلى ١٠٠٩هـ / ١٦٠٠م، حيث غادرها، ولكنه عاد إليها عام ١٠١٣هـ / ١٦٠٤م، ثم غادرها عن طريق البر بعد مدة وجيزة، ونظراً لأن المؤلف قد مرّ بمنطقة الخليج عدة مرات برفقة الأسطول البرتغالي، فقد حظيت هذه المنطقة بمعلومات وافية في هذا الكتاب، وتحدث عن مشاهداته للأحداث التي وقعت في سواحل الخليج وجزره، وأعطى صورة واضحة عن السكان وعلاقتهم بالبرتغاليين، وقد استفدت منه بما يخدم موضوعي.

وإلى جانب ذلك فقد اعتمدت على عدد من المصادر الأجنبيّة الأخرى منها : (الفترة البرتغالية في شرق إفريقية The Portuguese Period in East Africa) (لجوستوس ستراندز Strandes, J) نشر مترجماً إلى الإنجليزية لأول مرة عام (١٨٨٨) ثم نشر للمرة الثانية بواسطة (جي - كيركمان)، بعد

أن علق عليه وكتب حواشيه (نيروبي ١٩٦٨)، وهي النسخة التي اعتمدت عليها، وقد ركز المؤلف على دراسة الوجود البرتغالي في ساحل شرق إفريقية، وأولى اهتماماً كبيراً بالصراع العماني البرتغالي في تلك المناطق، وقد جاء عاماً وشاملاً فيما يخص ساحل شرق إفريقية في تلك الفترة، كما تطرق بشكل مختصر إلى النشاطات البرتغالية في بعض المناطق الأخرى، مثل البحر الأحمر والخليج العربي.

ومن تلك المصادر (البرتغاليون في الهند The Portuguese in India لفريدرك شارلز دانفرز .Danvers, F، الذي صدر في (لندن ١٨٩٤)، وتحدث عن الغزو البرتغالي للشرق، من القرن الخامس عشر وحتى الثامن عشر الميلادي، وتطرق إلى الصراع العماني البرتغالي، كما تحدث بشكل مفصّل - إلى حد ما - عن بعض المعارك البحرية التي حدثت بين الطرفين، وقد استقى معلوماته عن وثائق شركة الهند البريطانية وبعض المصادر البرتغالية، ويعد من المصادر الهامة لدراسة الوجود البرتغالي بالشرق وعلاقته بالأمم الأخرى، ويؤخذ على المؤلف عدم حياده في معرض سرده للأحداث ومناقشتها، وعبّر عن وجهة النظر الغربية إزاءها.

ومن تلك المصادر كتاب (وثائق تاريخيّة وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية) لشارلز جيان، أو جوليان، والذي صدر في (باريس ١٨٥٦) وترجمه إلى العربيّة مختصراً : يوسف كمال (سنة ١٩٢٧)، والمؤلف هو أحد ضباط البحرية الفرنسية الذي زار ساحل شرق إفريقية والخليج العربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، وقد تحدث عن الغزو البرتغالي لتلك المنطقتين، ويفيض بمعلومات قيمة عن طرد البرتغاليين من ساحل شرق إفريقية، وعن العلاقات التي كانت قائمة بين الخليج العربي

وساحل شرق إفريقية، واعتمد في كتابه على بعض الوثائق التي يذكر أنه حصل عليها من ساحل شرق إفريقية ومن (لشبونه)، ورغم القيمة العلمية لهذا الكتاب إلاّ أنه لايخلو من الأخطاء ، وبخاصة في معرض حديثه عن الوقائع العسكرية التي وقعت بين العمانيين والبرتغاليين سواء من حيث تاريخ وقوعها أو في عهد أي من الأئمة حدثت.

ومن المصادر الأجنبية أيضاً (الخليج بلدانه وقبائله) لصموئيل مايلز Miles والذي ترجم إلى العربيّة، ورغم أنه صدر في أوائل القرن العشرين الميلادي إلاّ أنه يعد من أشهر المؤلفات الأوربيّة للباحثين في تاريخ الخليج الحديث، وبالذات الدراسات التي تتناول الغزو البرتغالي، واستمد شهرته من اعتماده على المصادر البرتغالية الأساسيّة، وهو يحتوي على معلومات قيّمة بالرغم من عدم تنظيمها، وقد أغفل المترجم بعض المعلومات التي وردت في حواشي النسخة الأصليّة، وأعطى وصفاً للجهاد العماني ضد البرتغاليين، وبعض الحملات البحرية العمانية إلى ساحل شرق إفريقية.

ومن المصادر كذلك (تاريخ الخليج) لأرنولد ولسون [1]، والذي يعد واحداً من أبرز المصادر الهامة عن الخليج العربي، وذلك لأن مؤلفه الذي كان قد عمل لدى حكومة الهند البريطانية، وأحد مسؤوليها في الخليج قد أفرد ثلاثة فصول عن وصول البرتغاليين إلى الخليج والمحيط الهندي، والصراع بينهم وبين الإنجليز والهولنديين، ودور العمانيين وغيرهم في طرد البرتغاليين من الخليج، ومما يزيد من قيمة هذا الكتاب ،

---

١) يوجد ترجمتان لكتاب (الخليج العربي) لأرنولد ولسون، واحدة قام بها عبدالقادر يوسف، الكويت، بدون تاريخ، والأخرى قام بها محمد أمين عبدالله، مسقط، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، وهي النسخة التي اعتمدت عليها.

أنه احتوى على قائمة فريدة من المصادر الوثيقة الصلة بالأحداث، بيد أن هذا الكتاب قد خلا من قائمة المصادر تلك في ترجمته العربيّة.

ومن المصادر التي اعتمدت عليها في بعض جزئيات البحث، كتب بعض الرحالة، ومن أهمها (رحلات جون فراير: رواية جديدة لتاريخ شرق الهند وفارس استغرقت تسع سنوات ١٦٧٢ - ١٦٨١ .Fryer, J)

A New Account of East India and Persia being Nine years, travel 1672 - 1681, 3 vols (London, 1915)

وكتاب رحلة كاري (رحلات الأب كاري في الهند ١٦٧٢ - ١٦٧٤ - Carre, (A:

The Travels of the Abbe Carre in India 1672 - 1674, 3 vols

والذي ترجم إلى الإنجليزية ونشر في (لندن ١٩٤٨).

ورحلة مارتن (مذكرات فرانسوا مارتن موسس بوند شيري ١٦٦٥ - ١٦٩٦

(Martn , A: Memoires de Francois Martin Fondateur de Pondichery 1665 - 1696, 3 vols, (Paris, 1932)

ورحلة ديلا فالى (إلى شرق الهند والصحراء العربية

(The Travels of Pietro della Valle a Noble Roman, into East Indies and Arabia Deserta, (London, 1665.)

وإلى جانب تلك المصادر ، فقد قمت بالرجوع إلى عدد من المراجع التاريخية، فشكلت هذه المراجع رافداً مهماً لما اعتمدت عليه من مصادر،

وكان من أهمها (العمانيون وقلعة ممباسا) لمبارك بن علي الهنائي وهو من أبناء ساحل شرق إفريقية، و (جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار)[1] لسعيد بن علي المغيري، و (عمان عبر التاريخ، أربعة أجزاء) لسالم بن حمود بن شامس السيابي، و (إفريقية الشرقية والاستعمار الأوربي) للسيد رجب حراز، و(عمان وشرق إفريقية) لأحمد حمود المعمري، و (دكالة والاستعمار البرتغالي) لأحمد بوشرب، و(الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي الأول ١٥٠٧ - ١٨٤٠) لجمال زكريا قاسم.

وإلى جانب ذلك فهناك بعض المراجع والدراسات المعربة ومن أهمها (آسيا والسيطرة الغربية) لبانيكار، و (البندقية جمهورية أرستقراطية) لشارل ديل، و (في طلب التوابل) لسونيا هاو، و(الاستعمار البرتغالي في إفريقية) جمس دفي، و (تاريخ عمان) لفليبس وندال، و (سطور من تاريخ البحرين والخليج اعتماداً على الوثائق الهولندية) سلوت - ج - ب، و (التهديد العماني ونتائجه في أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر) لورنس لوكهارت، و (التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق إفريقية) كيركمان - جي.

كما أن هناك بعض المراجع والدراسات الأجنبيّة التي لاغنى للباحث عنها لسد بعض الثغرات ومن أبرزها :

---

١) أصل هذا الكتاب مخطوط أتمَّه مؤلفه (سعيد بن علي المغيري) عام ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م، وحقق مرتين الأولى بواسطة عبدالمنعم عامر وصدر بالقاهرة ١٩٧٩/١٣٩٩، والثانية محمد علي الصليبي، مسقط ١٩٨٦/١٤٠٦. وهي النسخة التي اعتمدت عليها؛ ويعتبر من أهم المراجع عن تاريخ ساحل شرق إفريقية رغم أنه يحتاج إلى المزيد من الدراسة لإبراز أهميته بشكل أكبر، كما ينقصه التحقيق لكثير من النصوص التي تحتوي على معلومات غاية في الأهمية تتصل بجوانب كثيرة من تاريخ المنطقة.

- ساحل شرق إفريقية - وثائق مختارة Select Documents the East Africa Coast. لفريمان جرنفيل Grenvill, F.
- وتاريخ شرق إفريقية History of East Africa لروش Reush.
- وتاريخ بتّة بالسواحلية A Swahili History of Pate لورنر Warner.
- والبرتغاليون في الساحل العربي الجنوبي The Portuguese of the South Arabian Coast لسارجنت Sergeant.
- و ..... East Africa and its invaders لكوبلاند Coupland.
- و Vasco De Gama and His Successors 1460 - 1580 لجينه Jayne ... وغير ذلك من المراجع والدراسات والبحوث التي كانت عوناً لي على إتمام هذه الدراسة.

وتجدر الإشارة إلى بعض البحوث العربية والتي كانت خير معين لي على إتمام هذه الدراسة ومنها : (المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية) لعبدالعزيز الشناوي، و (الاستعمار البرتغالي وأثره على الروابط العربية الإفريقية) لجمال زكريا قاسم، و (موقف المماليك ودول الخليج من الاستعمار البرتغالي) ليوسف الثقفي، و (نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسيّة) لعبد اللطيف الحميدان، و (دور عرب عمان في إقصاء البرتغاليين عن الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر) لطارق نافع الحمداني، و (نظرة جديدة للإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية) لعبد الأمير أمين، و (دور العرب الحضاري في شرق إفريقية) لشوقي الجمل، و(تحرير ساحل عمان وانهيار الأمبراطورية البرتغالية في الشرق) لصالح العابد، و (معركة تحرير مسقط) لغانم محمد رميض، و (دور عمان في بناء حضارة شرق إفريقية) لرأفت غنيمي الشيخ.

وقد حاولت الاستفادة من هذه المصادر والمراجع والبحوث فيما يتصل بموضوع بحثي، أو ببعض من جزئياته، وهناك مصادر ومراجع وبحوث أخرى كثيرة لايعني عدم ذكرها التقليل من قيمتها العلمية، سيجدها القارىء في ثنايا البحث وقد استفدت منها كثيراً.

والواقع أن الباحث العربي يشعر بالامتعاض عندما يرى هذا الكم الهائل من المصادر والمراجع والبحوث الأجنبيّة التي كتبت عن تاريخ الاستعمار لهذه المنطقة، سواء لساحل شرق إفريقية أو الخليج العربي، وهي المنطقة التي تعد من أول المناطق العربية الإسلامية التي تعرضت للغزو والسيطرة الأوربية في العصر الحديث، وآخر منطقة تتخلص منه، في وقت تعاني فيه المكتبة العربية من شح في المصادر والمراجع الإسلامية التي تعالج تلك الأحداث أو بعضها.

وتجدر الإشارة إلى الجهد الذي بذلته وزارة التراث والثقافة في عمان في الاهتمام بتجميع المخطوطات المتعلقة بتاريخ عمان بصفة خاصة وتاريخ الخليج العربي بصفة عامة، وكذلك في إصدار سلسلة تراثنا والتي عالجت جوانب مختلفة من تاريخ عمان وعلاقته بساحل شرق إفريقية، وقامت بترجمة العديد من الكتابات الخاصة بذلك.[1]

هذا وقد تطلب مني جمع المادة العلمية لهذه الرسالة بذل المزيد من الجهد والعناء، فقد أدى ذلك إلى ضرورة البحث عن المصادر والمراجع اللازمة من جهات مختلفة، فسافرت إلى كل من سلطنة عمان ومصر والمملكة المغربيّة، وكذلك بريطانيا والتي قضيت بين مراكزها

---

١) انظر : حصاد ندوة الدراسات العمانية، عشرة مجلدات، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

التاريخيّة فترة ليست قصيرة، حيث أمكنني ذلك من الإطلاع على بعض المصادر الهامة والتي كانت معاصرة للأحداث وأخذت حاجتي منها، وتمكنت كذلك من تصوير عدد لابأس به من الوثائق التي تتعلق بموضوع الرسالة.

وبعد فقد جمعت هذه المتفرقات المستخرجه من عدد كبير من المصادر والمراجع في موضوع واحد، أرجو أن أكون قد وفقت في دراسته وعرضه على الوجه المطلوب، وحقيقة فانني لم أقصد بتعداد هذه الصعاب التي واجهتني أثناء عملية البحث أن أستدر عطف القارىء، أو أعطيه صورة مبالغاً فيها عن الجهد المبذول في هذا البحث، فهذا أمر متروك لأفق القارىء وتقديره، وإنما قصدت أن التمس العذر فيما عسى أن يظنه موضعاً للنقد أو مكاناً للتقصير.

وفي الختام أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى أستاذي الدكتور يوسف بن علي بن رابع الثقفي أستاذ التاريخ الحديث المشارك بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى - الذي أشرف على الرسالة وكان لتوجيهاته السديدة وملاحظاته القيمة وتعاونه البنّاء وتشجيعه المستمر خير معين لي بعد الله سبحانه وتعالى على انجاز هذا البحث.

كما أتقدم بالشكر والامتنان لجامعة أم القرى، ممثلة في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، عميداً وأساتذة، وإلى الدراسات العليا التاريخية والحضارية الذين أتاحوا لي فرصة الالتحاق بالدراسات العليا في هذه الكلية العريقة التي أفتخر بأن أكون أحد خريجيها، والشكر موصول لعضوي لجنة المناقشة اللذين تفضلا بقبول

الاطلاع ومناقشة الرسالة مقدراً ماسوف أتلقاه منهما من توجيهات سديدة وارشادات وملاحظات قيّمة، كما يسعدني أن أشكر الدكتور حمود محمد النجيدي أستاذ التاريخ المساعد بكلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بالقصيم وفاء لمساعدته لي خلال البحث، كما أشكر كل من الأستاذ ابراهيم بن محمد المعمّر مدير شئون الموظفين في وزارة التعليم العالي، والأستاذ فيصل عبدالرحمن المعمّر مدير مكتبة الملك عبدالعزيز بالرياض على مساعدتهما لي أثناء جمع المادة العلميّة. وأخيراً أرجو من الله العلي القدير أن تكون هذه الدراسة قد حققت الهدف العلمي المنشود وأرجو المعذرة عن النقص والخطأ فالكمال لله وحده والخلل من سمات البشر، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباحث

عبدالرحمن علي السديس

قائمة بالاختصارات المستعملة

في كتابة الوثائق والمجلات العلميّة في حواشي البحث

❋ ❋ ❋

١ - سجلات مكتب الهند بلندن :

IOR = India Office Records

٢ - أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية :

A.A.E = Archives des Affaires Etrangeres

المذكرات والوثائق الخاصة بفارس :

Mem. et Doc. Perse = Memoires et Documents, Perse

المراسلات السياسية الخاصة بفارس :

Corr. Pol. Perse = Correspondance Politique. Perse

٣ - جمعية الكنيسة التنصيرية بلندن :

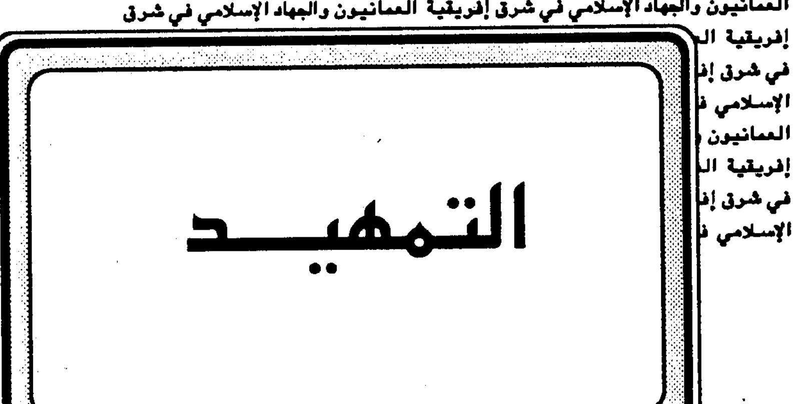
C.M.S. = Church Missionary Society.

٤ - مجلة التاريخ الإفريقي :

J.A.H. = Journal of African History.

٥ - معهد الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن :

S.O.A.S. = School of Oriental and African Studies.



التمهيد

التمهيد

١ - الأوضاع في ساحل شرق إفريقية قبل وصول البرتغاليين.
عرض موجز لنشأة المدن والإمارات الإسلامية في ساحل شرق إفريقية وعلاقتها بعمان.

٢ - الأوضاع في عمان والخليج قبيل السيطرة البرتغالية.

* الأوضاع في ساحل شرق إفريقية قبل وصول البرتغاليين :

أطلق الجغرافيون المسلمون (ساحل الزنج) على الساحل الشرقي لإفريقية من رأس (غردفوي Gourdafui) على خط عرض (٥٠ر١١) شمالاً إلى خليج (دلجارو Delgaro) على خط عرض (١٠) جنوباً وهو ماعرف أيضاً باسم (زنجبار Zanzibar) وهي كلمة فارسية تعني ساحل الزنج،[1] وهو مايشمل حالياً الجزء الجنوبي من جمهورية الصومال، وكلاً من جمهوريتي كينيا - تنزانيا.

ويعتبر عرب جنوب الجزيرة العربية وعمان[2] أهم وأقدم الشعوب

---

١) الإدريسي أبو عبدالله محمد بن محمد ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ١، عالم الكتب، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص ٥٨ - ٥٩؛ محمد محمد أمين، تطور العلاقات العربية الإفريقية في العصور الوسطى، بحث في كتاب (العلاقات العربية الإفريقية، دراسة تحليلية في أبعادها المختلفة) معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٨م.

٢) ذكر بعض الباحثين وجود اتصالات قديمة بين ساحل شرق إفريقية وشعوب وادي الرافدين ووادي النيل، حيث كشفت الحفريات والنقوش عن وجود تأثيرات سومرية وآشورية ترجع إلى عهد سرجون الآكدي الذي حكم العراق حوالي عام (١٧٠٩ ق. م)، كما علل بعض المؤرخين أيضاً التشابه في طراز البناء والتقاليد وبعض المعتقدات في ساحل شرق إفريقية مع ماكان من عادات وتقاليد لدى السومريين والآشوريين دليل على تلك الإتصالات، كما ذكر أيضاً أن الفراعنة في مصر سجلوا على معابدهم رحلات سفنهم إلى شرق إفريقية منذ عهد الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ - ٢٤٢٠ ق.م) والواقع إن ماذكر حول تلك الإتصالات لايزال بحاجة إلى مزيد من البحث والتقصي.

لمزيد من التفصيل انظر:

Hollingsworth, L.W., Ashort History of the East Coast of Africa, (London, 1929), p. 10.;

جورج فاضلوا حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م، ص ٢٤.

العربية إتصالاً بساحل شرق إفريقية، وذلك بحكم الجور الجغرافي من ناحية، وبتأثير الرياح الموسمية من ناحية ثانية، حيث كان لها أثر بارز في قيام تلك الاتصالات، إذ مكنت السفن الشراعية المعروفة باسم (الداوات Dhows)[1] من القيام برحلتين على الأقل في العام، ففي الخريف تدفعها الرياح الموسمية الشمالية الشرقية من سواحل جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي نحو ساحل شرق إفريقية، بينما في فصل الربيع تدفعها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية من سواحل شرق إفريقية نحو قواعدها على الخليج العربي، حيث يتم التعامل التجاري خلال دورة الرياح تلك.[2] ولم تقتصر الاستفادة من تلك الرياح على العرب فقط، بل استفاد منها الهنود أيضاً، حيث تواجدوا في ساحل شرق إفريقية في وقت مبكر من تاريخه.[3]

لقد كان لقيام دولٍ عربية في اليمن ذات حضارات زاهرة منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهي دول (معين، سبأ، حمير) التي قامت حضاراتها وثرواتها أساساً على العمليات التجارية البرية مع أنحاء متفرقة من شبه الجزيرة العربية والشام والعراق والبحرية عندما كان أهلها يجلبون السلع من الهند وشرق إفريقيه، ثم تنقلها القوافل إلى بلاد الشام ومصر والعراق وأقاليم شبه الجزيرة العربية، كان لها دور في تنمية الاتصالات بين الجزيرة العربية وساحل شرق إفريقية، ومع ازدهار تلك التجارة وتقدم فنون الملاحة زاد اتصال العرب بساحل شرق

---

١) الدوات جمع داو وهي المراكب الصغيرة ذات الشراع الواحد والمستعملة قديماً في المحيط الهندي. انظر: حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص ٢٣٩.

٢) المرجع نفسه، ص ٢٤٠.

٣) المقدسي محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٩، ص ٩٧ ومابعدها؛

Coupland, R., East Africa and its Invaders, (London, 1938),p. 17.

إفريقيـــة.[1]

وعن تلك الفترة يؤكد مؤلف كتاب الدليل الملاحي للبحر الارتيري[2] (Periplus Maris Erythræn) على كثرة السفن العربية في ساحل شرق إفريقية واختلاط العرب وتزاوجهم مع القبائل الإفريقية، وإن بعض زعماء الساحل يدينون بالولاء لدولة حمير في اليمن، ويذكر عن العرب أنهم يألفون الساحل ويعرفون اللغة.[3]

---

١) الحموي شهاب الدين ياقوت، معجم البلدان، ج ٣ - ٥، دار بيروت، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ١٨١ - ١٦٠؛

محمد حسين الزبيدي، هجرة العرب والمسلمين إلى شرق إفريقية، مجلة المؤرخ العربي، العدد الثالث والعشرون، بغداد ١٩٨٣، ص ١٠٢.

٢) من المرجح أن مؤلفه أحد الأغريق الذين عاشوا في الإسكندرية في مصر في القرن الأول الميلادي، ويبدو أنه كان تاجراً أو ربان سفينة شاهد بنفسه المناطق التي تحدث عنها، وتوجد ترجمة انجليزية لهذا الكتاب نشرها Schoff, W.H. بعنوان :

The Perplus of the Erythrean sea. (New York, 1912).

3) Coupland, R., op.cit, p.19.

والواقع أنه لم يحدث توغل فعلي وعلى نطاق واسع للعرب والمسلمين إلى داخل القارة الإفريقية إلاّ في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، وذلك عندما نشأت المراكز الإسلامية على خطوط القوافل الممتدة من الساحل إلى داخل القارة ومنطقة البحيرات مثل (تابورا) و (أوجيجي) وغيرها، ومنها دخل الإسلام إلى كل من (أوغندا) و (الكنغو) وغيرها.

لمزيد من التفصيل انظر :

سليمان ناصر اللمكي، حميد بن محمد المرجبي، فاتح الكنغو، مجلة الهلال، يوليو ١٩٠٦، ص ٥٧٣؛

يواقيم رزق مرقس رزق، حميد بن محمد المرجبي (تيوتيب) رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة رقم ٢٣، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٦؛

Mellaud, F. H., The heart of Africa, (London, 1912), p. 67;
Soghayroun, I.E., Islam in Uganda: Traders and Trade Routes and the Establishment of Islam in Bugauda Kingdom, (RIYADH, 1979).

ويعتقد أن العرب في هذه الفترة لم يتوغلوا إلى داخل القارة الإفريقية، وإنما اكتفوا بإقامة بعض المراكز التجارية على الساحل حيث يفد إليهم مندوبو القبائل الإفريقية ليقوموا بعملية التبادل التجاري معهم بما يحملونه من ذهب وعاج ورقيق مع مالدى العرب من بضائع جلبوها من بلادهم، حيث يتم نقل تلك البضائع إلى الأسواق العربية.

دفع انهيار سد مأرب في اليمن عام ١٢٠م بهجرات عربية إلى كافة الأنحاء داخل الجزيرة العربية وخارجها، ونظراً للجوار الجغرافي بين اليمن وساحل شرق إفريقية فقد اتجه بعض تلك الهجرات إلى تلك المناطق، مما زاد من التأثير العربي في سكان الساحل من القبائل الإفريقية، ويعتقد البعض أن الاختلاط الذي تم بين العرب والقبائل الإفريقية في تلك الفترة كان بداية لظهور ثقافة مميزة المعالم أخذت من كلا الشعبين، وكان من مظاهرها استخدام اللغة السواحلية لغة تخاطب وتفاهم بين المجموعتين.[١]

أخذت حركة التعامل التجاري بالنشاط وانتعشت إلى درجة كبيرة وبخاصة تجارة الذهب والعاج والرقيق، وشهدت الجزيرة العربية وفود أعدادٍ من الزنوج الذين جاء بهم العرب من شرق إفريقية للاستفادة منهم في شتى ميادين العمل كحراسة القوافل والزراعة مثلاً ، كما تزاوجوا

---

١) ترمنجهام، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ترجمة محمد عاطف النووي، مكتبة الأنجلوالمصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٧٣م، ص ٤٠ ؛
محمد حسين الزبيدي، هجرة العرب والمسلمين إلى شرق إفريقية، ص ١٠٤.

فيما بينهم وتناسلوا أيضاً،[1] وعلى الرغم من أن المعلومات عن حالة العرب في ساحل شرق إفريقية في الفترة التي أعقبت رحيل صاحب الدليل الملاحي ليست وافية لدينا حتى ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، إلاّ أن الأمر الذي لاخلاف فيه هو أن الصلات لم تنقطع، وظلت قائمة إلى أن بدأ الإسلام يحدث تغييراً جذرياً في حالة العرب بوجه عام، وفي تاريخ ساحل شرق إفريقية بوجه خاص.

وفي فجر الإسلام عندما لمس نبينا محمد ﷺ مايلقاه المسلمون من عنت واضطهاد أوعز إليهم بالهجرة إلى الحبشة، وهذه الخطوة تؤكد الارتباط الوثيق بين شرق إفريقية والجزيرة العربية، فالشرق الإفريقي - كما أسلفنا - قريب، والوصول إليه ميسور، ولعل في إيعاز الرسول ﷺ إلى أصحابه بالهجرة إلى الحبشة إدراكاً مسبقاً بأنهم سيلقون استقبالاً طيباً هناك، وهذا ماحدث بالفعل، فالصلات العربية الإفريقية ذات جذور موغلة في القدم، والمهاجرون العرب في القرن الأول الهجري وجدوا من سبقهم من العرب في الهجرة إلى تلك الديار، كما وجدوا مجموعات عربية ترتبط معهم عرقياً وثقافياً،[2] وبالرغم من أن هذه الهجرة كانت إلى الحبشة إلاّ أنه لايستبعد أن تكون ذات تأثير كبير على ساحل شرق إفريقية لاسيما أنه من

---

١) جمال زكريا قاسم، إستقرار العرب في ساحل شرق إفريقية، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس، العدد العاشر، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٧٦؛

سيد حامد حريز، المؤثرات العربية في شرق إفريقية، مجلة البحوث والدراسات العربية، العدد الحادي عشر، القاهرة ١٩٨٤، ص ١٣.

٢) الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ج ١، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

الواقدي أبو عبدالله محمد بن سعد الطبقات الكبرى، ج ١، دار بيروت، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

بين المجموعة التي هاجرت إلى الحبشة شخصيات من وجهاء قريش الذين يحتمل أنهم كانوا معروفين لدى اليمنيين من ذوي العلاقة الدائمة بساحل شرق إفريقية.

لقد شهد ساحل شرق إفريقية بعد ظهور الإسلام نشوء كثير من المدن والإمارات الإسلامية والعربية في هيئة سلسلة متصلة، تبدأ من سواحل الصومال شمالاً وحتى موزمبيق ومصب نهر الزمبيزي جنوبا، بالإضافة إلى الجزر المتناثرة في مواجهة الساحل.[1] وبهذا أصبح لدى العرب دوافع جديدة غير الدافع التجاري وهي محاولة الاستقرار في تلك المناطق، وإقامة كيانات سياسية عربية إسلامية، وعليه فقد زاد تدفق الهجرات التي لم تقتصر على عرب شبه الجزيرة العربية فحسب بل من المناطق الإسلامية كافة.[2]

كانت المنازعات السياسية بين المسلمين - وبخاصة في عهد الدولتين الأموية والعباسية - من العوامل التي ساعدت على تدفق الهجرات العربية إلى ساحل شرق إفريقية، حيث انتقلت جماعات عربية من سواحل شبه الجزيرة العربية - وبخاصة من اليمن وحضرموت وعمان والإحساء - حاملة معها الدين الإسلامي الحنيف، الأمر الذي أدى إلى انتشاره في

---

١) المغربي أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد، كتاب الجغرافية، تحقيق اسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م، ص ٨١ - ٨٢ - ٨٣؛

جمال قاسم، الروابط العربية الإفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية، بحث في كتاب (العلاقات العربية الإفريقية - دراسة تاريخية للآثار السلبية للإستعمار) معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٢.

٢) كوثر عبدالرسول، دراسات في الهجرات الحديثة إلى إفريقية، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس، العدد الثاني عشر، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٢٥٠ - ٢٥١.

تلك المناطق بالإضافة إلى إنشاء المنازل والمراكز التجارية هناك.[1] وقد تحولت تلك المنازل والمراكز التجارية مع مرور الزمن إلى مدن عربية إسلامية يسكنها المهاجرون العرب، ومن ثم أصبحت مراكز التقاء حضاري واختلاط سكاني بين العرب والأفارقة.[2]

إن هذا الانتشار العربي الإسلامي ماهو إلاّ مرحلة من مراحل التوسع الإسلامي وإن كان يختلف عن حركة الفتوح الإسلامية المشهورة، حيث إنه لم يكن من تدبير خلافة أو دولة إسلامية، بل جاء نتيجة جهود جماعات وفدت إلى تلك المناطق بقصد التجارة والاستقرار.[3] وقد حتّم عامل الجوار على تلك الجماعات أن مدت تجارتها وحضارتها إلى تلك المنطقة.

لقد انجذب العمانيون والحضارمة على وجه الخصوص إلى ساحل شرق إفريقية بأعداد كبيرة في تلك الفترة، وقد كان للعامل البيئي أيضاً دور في ذلك، حيث يسكن هؤلاء في بيئة ظهيرها طارد فكان من الطبيعي أن يفدوا إلى هناك في مجموعات انتشرت واستطاعت أن تطبع مناطق واسعة بلغتها وديانتها، وأن تندمج مع السكان المحليين،[4] ففي عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان ٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥م جاءت أولى الهجرات الجماعية إلى ساحل شرق إفريقية، وذلك على إثر اتباعه سياسة

---

١) عبدالرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، مطبعة يوسف، القاهرة ١٣٩٠ / ١٩٧٠، ص ٧.

٢) المغربي، كتاب الجغرافية، ص ٨٢ - ٨٣.

٣) شوقي عطاالله الجمل، تاريخ كشف إفريقية واستعمارها، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م، ص ٣٦.

٤) محمد صفي الدين أبو العز، إفريقية بين الدول الأوربية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م، ص ٥٢ - ٦٧؛
محمد محمد أمين، تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى، ص ٤٧.

متشددة تجاه القائمين بالحركات المناوئة للدولة الأموية، حيث خرجت إلى هناك هجرة عربية بأعداد كبيرة، وعندما علم الخليفة عبدالملك بن مروان بذلك أرسل أخاه حمزة إلى تلك المناطق لنشر الدين الإسلامي ومد نفوذ الأمويين، وقيل إنه حكم منطقة (كيوابو) جنوب مقديشو في أرخبيل لامو.[1]

ولقد لعب العمانيون دوراً بارزاً في تنمية التجارة في المحيط الهندي، ولعل أنعزال إقليم عمان عن قلب الجزيرة العربية جعله لايشارك في حركة الفتوح الإسلامية مشاركة فعليّة، بالإضافة إلى انشغالهم في منازعات داخلية بين القبائل.[2] كما أن موقع عمان البحري كان له أثره في توجه سكانه إلى الملاحة والتجارة، حيث عرفت عمان بخصوصيتها في النشاط التجاري بين الخليج العربي وشرق إفريقية بإعتبارها قاعدة الخليج التي تستقبل السفن القادمة إليه والذاهبة منه إلى مختلف الأقطار وبخاصة شرق إفريقية، بل إن الموانىء العمانية تعتبر مخازن للبضائع التجارية الواردة للخليج.[3] وقد ظهرت مهارة العمانيين في صناعة السفن وإتقانهم فن الملاحة الشراعية بإعتبارها الوسيلة الوحيدة لسكان الساحل العماني.

وتعتبر هجرة الأخوين سليمان وسعيد إبني عياد الجلندي من الأزد، من أهم الجماعات التي خرجت من عمان خلال الفترة من ٧٥ - ٨٥ / ٦٩٥ -

---

١) المرجع نفسه، ص ٤٦.

٢) جمال قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، ص ٥٨.

٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٩٢.

محمد أبو العلا محمد، موقع عمان الجغرافي وعلاقاتها المكانية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٧٠٥م وهما من شيوخ العرب الذين حكموا عمان في أيام الدولة الأموية، حيث ثارا على الخليفة الأموي عبدالملك إبن مروان وقد تغلبت عليهما جيوش الخليفة وذلك عام ٧٥هـ / ٦٩٥م، حيث خرجا مع جماعتهما إلى ساحل شرق إفريقية، ولايعرف على وجه الدقة المكان الذي نزلا فيه بالرغم من أن البعض يشير إلى أنهما نزلا في (بتة)[١] إحدى جزر أرخبيل لامو، وقيل أنهما نزلا في (مافيا).[٢] [٣]

وتبع هذه الهجرة هجرات أخرى استقرت في أماكن متفرقة من ساحل شرق إفريقية، فقد وفدت إلى هناك هجرة زيديّة من اليمن عام ١٢٢هـ / ٧٤٠م ويتزعم هذه الطائفة من الزيدية (زيد) أكبر أحفاد الإمام علي بن أبي طالب الذي ثار على الدولة الأموية عام ١٢٢هـ ٧٤٠م وقتل في إحدى المعارك معها، ففر أتباعه، وهاجر بعضهم إلى شرق إفريقية.[٤] ويبدو أن نجاح الهجرة

---

١) بتة أو باتا : هي احدى الجزر المقابلة للساحل الإفريقي الشرقي وتقع إلى الشمال من (ممباسة) وتضم بعض القرى التابعة لها مثل (فازا) و (سيو) وهي الآن تابعة لجمهورية (كينيا) انظر الملحق رقم (٦- أ).

٢) مافيا : إحدى الجزر المواجهة لساحل شرق إفريقية، تقع إلى الجنوب من جزيرة (زنجبار) وهي الآن تابعة لجمهورية تنزانيا. انظر الملحق رقم (٦- أ).

٣) السالمي نور الدين عبدالله بن حميد، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، صححه وعلق عليه أبو إسحاق إبراهيم طفيش الجزائري الميزابي، ج ١، مطبعة الشباب، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م، ص ٦١ - ٦٢؛

محمد عبدالله السالمي، ناجي عساف، عمان تاريخ يتكلم، الطبعة الأولى، دمشق ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م، ص ١٠١؛

فاروق عمر فوزي، مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني، الطبعة الأولى بغداد، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ٣٢؛

خولة محمد شاكر الدجيلي، العلاقات العربية الإسلامية مع الساحل الإفريقي الشرقي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد ١٩٨٠، ص ١٣٠ - ١٤٠.

٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٧، ص ١٨٠ ومابعدها؛

المسعودي أبو الحسن بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد

العمانية بزعامة الأخوين الجلندي كانت دافعاً للزيديّةإلىالهجرة إلى تلك المناطق.

وقد تبعت تلك الهجرة هجرات أخرى من الزيدية في الفترة من عام ١٤٠ - ١٤٣هـ / ٧٥٧ - ٧٦٠م فانتشروا في ساحل بنادر بالصومال، وتوغلوا قليلاً إلى الداخل، واتسع ملكهم حتى ضم منطقة(1) مقديشو.(٢) كما لعب الحضارمة دوراً بارزاً في عمليات الاتصال بساحل شرق إفريقية وإن اقتصر نشاطهم على النواحي التجارية، إلاّ أن ذلك لم يمنع من استيطان عدد كبير منهم في تلك المناطق، حيث ارتبطت مصالحهم هناك، وأصبحوا فيما بعد عنصراً رئيساً من العناصر التي انقسم إليها السكان العرب في ساحل شرق إفريقية إبان قيام سلطنة زنجبار في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، كما كان لهم جهود مشكورة في الدعوة إلى الدين الإسلامي في تلك البقاع.(٣) كما اهتم الخليفة العباسي (هارون الرشيد ١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩م) بساحل شرق إفريقية عندما علم بشهرة عبدالملك بن مروان هناك، لذا شجع الهجرة إلى تلك المناطق، حيث أرسل بعض رجاله من أجل التشييد والبناء، وربما وصلت سفنهم إلى

محي الدين عبدالحميد، ج ٢، دار الفكر العربي، الطبعة الخامسة، القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م، ص ٢١٧ ومابعدها.

1) Strong, A., The History of Kilwo, (London, 1877), p.98.

٢) مقديشو هي العاصمة الحالية لجمهورية الصومال

٣) توماس آرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م، ص ٣٢٨؛

Sergeant, R.B., The Portuguese of the South Arabian Cost, (London, 1967) p. 9.

(زنجبار، وبمبا Pomba)[1] المعروفة بالجزيرة الخضراء.[2]

في القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي إستقبل ساحل شرق إفريقية هجرة جديدة من إقليم الاحساء[3] في شرق الجزيرة العربية، حيث خرج سبعة أخوة من أهل السنة من قبيلة الحارث أو الحرث على رأس جماعة من أنصارهم، وكان خروجهم على أثر نزاع بين الدولة العباسية

---

1) (زنجبار) ثاني أكبر جزر ساحل شرق إفريقية بعد جزيرة مدغشقر وتبلغ مساحتها ٦٤٥ ميلاً مربعاً ولاتبعد عن الساحل أكثر من خمسة وعشرين ميلاً وتشتهر بخصوبتها الزراعية، كما أنها أكبر منتج ومصدر للقرنفل في العالم. وهي الآن تابعة لجمهورية تنزانيا، بعد اتحادها مع تنجانيفا بعد سقوط الوجود العربي فيها عام ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م، وأطلق على البلدين بعد التوحيد اسم جمهورية تنزانيا. أما (بمبا) فهي جزيرة صغيرة تقع إلى الشمال من (زنجبار) لايفصلها عنها إلاّ بضعة أميال. وتقدر مساحتها بحوالي ٣٨٠ ميلاً مربعاً. انظر الملحق رقم (٦-أ).

2) محمد أمين، تطور العلاقات العربية الإفريقية في العصور الوسطى، ص ٤٧ - ٤٨.

3) الحسا أو الاحساء بالقصر والمد، جمع حسي وهي الأرض يستنقع فيها الماء، أو كثبان الرمل يجتمع حولها المطر، وهي احدى المناطق التي تدخل في التسمية القديمة للبحرين، والتي تشمل جزيرة (أوال) وهي دولة البحرين الحالية، وكل من (القطيف، هجر، والاحساء)، وغيرها من المدن والدول الواقعة على الضفة الغربيّة للخليج العربي، والاحساءالآن احدى مناطق المملكة العربية السعودية، ويعرف بالمنطقة الشرقية للمملكة، ورغم شهرة هذا الإقليم في الوقت الحالي بالبترول إلاّ أنه يشتهر بالعيون المائية الكثيرة، ومزارع النخيل الواسعة، والحبوب والفاكهة وغيرها.

لمزيد من التفصيل انظر :

الهمداني حسن بن أحمد ، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الاكوع، أشرف على طبعه حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤، ص ٣٤٧.

آل عبدالقادر محمد بن عبدالله، تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد، أشرف على طبعه وعلق على بعض حواشيه، حمد الجاسر، الطبعة الأولى، الرياض ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م، ص ٣ - ٤ - ٥ ومابعدها.

والقرامطة [1] ونزلوا على شاطىء بنادر في شرق إفريقيه وامتد نفوذهم حتى جنوب (ممباسة)،[2] وفي ذلك المكان إصطدموا بجاماعات الزيدية الذين اضطروا إلى الإنسحاب إلى الداخل حول أودية نهر جوبا.[3] وكان لهجرة هؤلاء الأخوة آثار بعيدة المدى حيث يرجع إليهم الفضل في تأسيس إمارة (مقديشو) التي تزعمت ساحل شرق إفريقية لفترة طويلة، كما يرجع إليهم الفضل أيضاً في تأسيس مدينة (براوة) والتي تقع إلى الجنوب من (مقديشو). [4] وكان تأثيرهم كبيراً على حركة انتشار الإسلام في تلك المناطق.

---

1) القرامطة فرقة ادعت الإنتساب إلى العلويين، وتظاهرت برغبتها في القضاء على الظلمة والمفسدين، ويذكر المؤرخون أن ابتداء ظهورهم بالبحرين كان سنة ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م، وقد بلغت حركتهم من القوة والخطورة حداً عظيماً، وشملت العراق والشام والحجاز ومصر، فقد انشبت أضفارها في جسم العالم الإسلامي، وعاثوا في الأرض فساداً، وأخافوا السبل، وقتلوا الحجاج، واعتدوا على حرمة المسجد الحرام، وقتلوا الناس فيه، ونقلوا الحجر الأسود إلى (هجر) وأرعبوا الناس، ورغم أن حركة القرامطة ضعفت في العقد الأخير من القرن الرابع الهجري إلاّ أنها لم تنته إلاّ في العقد السادس من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي. انظر:
الطبري، الرسل والملوك ج ٧، ص ٦٣٠، اليماني محمد بن مالك الحمادي، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ، ص ١٩٢؛
ابن كثير عماد الدين أبي الفدا اسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، ج ١١، مكتبة المعارف، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م، ص ٨١ - ٨٣ - ٨٥.

2) (ممباسة) تقع على مسافة مائة ميل إلى الشمال من جزيرة زنجبار، وقد لعبت دوراً ريادياً في تاريخ شرق إفريقية في الماضي، وهي الآن من الموانىء الهامة لجمهورية كينيا على المحيط الهندي، وهي اليوم عبارة عن جزيرة صغيرة على الساحل الكيني ويربطها بالساحل جسر طويل. انظر الملحق رقم (٦-أ).

3) حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٣، ص ٣٥٩.

4) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٢٧؛ جمال قاسم، الأصول التاريخية، ص ٦٠.

كما أدى انسحاب الجماعات الزيدية إلى اختلاطهم وتزاوجهم مع بعض القبائل الأفريقية مما نتج عنه شعب عرف بإسم (الأموزيدج)، ويبدو أن هذا الإسم تحريف سواحلي لكلمة الزيدية.[1] بات واضحاً تدفق الهجرات إلى ساحل شرق إفريقية وبأعداد كبيرة في ذلك الوقت مما يدل على عمق الصلاة بين الجزيرة العربية والخليج العربي وبين ساحل شرق إفريقية. ففي عام ٣٦٥هـ / ٩٧٥م حلّت في شرق إفريقية هجرة فارسيّة شيرازيّة بزعامة (الحسن بن علي) وأولاده الستة، يرافقهم حوالي ألف ومائتي رجل، ويقال أنهم نزلوا في عدة أماكن من ساحل شرق إفريقية، كما يعزى إليهم تأسيس إمارة أو مملكة الزنج التي امتدت إلى عدة مدن على الساحل، كما يعزى إليهم أيضاً تأسيس مدينة (كلوة[2] Kilwa)[3] واتخذوها

---

١) ابن بطوطة أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي، تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق علي المنتصر الكناني، ج ١، مؤسسة الرساله، الطبعة الثالثة، بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ص ٢٧٩ ومابعدها؛
خولة الدجيلي، العلاقات العربية الإسلامية مع الساحل الإفريقي الشرقي، ص ٨٥.

٢) كلوة مدينة تقع على ساحل شرق إفريقية إلى الجنوب من (مافيا) كان لها دور كبير في تاريخ ساحل شرق إفريقية منذ القرن الخامس الهجري وحتى قدم البرتغاليون في أوائل القرن العاشر الهجري، وهي الآن تابعة لجمهورية تنزانيا. انظر الملحق رقم (٦-أ).

٣) المؤلف - مجهول، السلوة في أخبار كلوة، تحقيق محمد علي الصليبي، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ٢٧ - ٣٠.
وينسب كثير من الباحثين المعاصرين تأليف هذا المخطوط إلى (عبدالله بن مصبح الصوافي). والواقع أن المذكور كان قد كلفه السيد (برغش بن سعيد بن سلطان) سلطان زنجبار خلال الفترة ١٢٨٧ - ١٣٠٦هـ/ ١٨٧٠ - ١٨٨٨م، كلفه بنسخ العديد من الكتب ومنها هذا المخطوط، وعلى هذا يكون الصوافي قد عاصر حكم السيد (برغش بن سعيد) بينما صاحب المخطوط ينسب إلى نفسه أنه قد ولد عام ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م أي عند قدوم البرتغاليين، وعلى هذا يستبعد أن يكون (الصوافي) هو مؤلف

عاصمة لحكمهم، وإليهم يرجع الفضل في قيام عدة مدن إسلامية في ساحل شرق إفريقية، ولايمكن أن ننكر ماتركه هؤلاء الفرس من تأثير كبير على الأدب السواحلي والفنون المعمارية، وطريقة المأكل والملبس ومظاهر الحضارة المختلفة.[1] أما عن أسباب ودوافع هذه الهجرة فيُذكر أن (الحسن بن علي) من أم حبشيّة، وكان قد اختلف مع إخوته الذين هم من أم فارسيّة، ويظهر أنهم قللوا من شأنه نسبة إلى أمه مما دفعه إلى حمل أهله وحاشيته وهاجر إلى ساحل شرق إفريقية، بينما رواية أخرى تقول إنه كان حاكماً (لشيراز) وفرّ منها إلى شرق إفريقية بعد أن قام (طغرل بك) السلجوقي بغزوها عام ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م،[2] وبناء على هذا الرأي فإن هجرتهم قد تمت في الفترة مابين عامي ٤٤٧ - ٤٩٣ هـ / ١٠٥٥ - ١١٠٠م، بينما يذكر صاحب (السلوة في أخبار كلوه) أن هذه الهجرة قد تمت في منتصف القرن الثالث الهجري.[3]

المخطوط، وقد أشار المحقق إلى ذلك، والجدير بالذكر أن السيد (برغش) قد أهدى هذا المخطوط إلى (جون كيرك Kirk) القنصل البريطاني العام في (زنجبار) والذي أهداها بدوره إلى المتحف البريطاني (بلندن) وهي تحمل اليوم رقم (٢٦٦٦) وعليها اسم (الصوافي).

انظر : السلوة في أخبار كلوة، ص ١٠ - ١١ - ٥١.

١) جيان، وثائق تاريخة وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ترجمة يوسف كمال، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م، ص ٨٨؛

أحمد علي أحمد محمد، كلوة تاريخها وحضارتها من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٨٣، ص ٥.

٢) محمد عبدالله النقيره، انتشار الإسلام في شرق إفريقية ومناهضة الغرب له، دار المريخ، الرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ٩٠؛

أحمد علي أحمد محمد، كلوة تاريخها وحضارتها، ص ٢٣.

٣) السلوة في أخبار كلوه، ص ٣٠.

ومهما كانت أسباب ودوافع هذه الهجرة فقد نجح (الحسن بن علي) في تأسيس مملكة إسلامية زاهرة، سيطرت على أجزاء واسعة من الساحل، واستمرت حتى بدأت طلائع الغزو البرتغالي تصل إلى هناك في أوائل القرن العاشر الهجري، الخامس عشر الميلادي،[1] ورغم مالهذه الهجرة من تأثير على مختلف أوجه الحياة في ساحل شرق إفريقية، إلاّ أنها لم تبلغ القدر الذي بلغته التأثيرات العربية بل لانبالغ إذا ماذكرنا أن تلك المؤثرات الفارسيّة لم تلبث أن ضاعت في غمار غلبة الحياة العربية في تلك المناطق.

وتتوالى الهجرات العربية إلى ساحل شرق إفريقية، فقد تمخضت الأحوال السياسية المضطربة في عمان عن هجرة عمانية كبيرة عام ٦٠١هـ / ١٢٠٤م وكان يرأس هذه الهجرة (سليمان النبهاني)[2] الذي استقبله العرب

---

١) السيد رجب حراز، إفريقية الشرقية والاستعمار الأوربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م، ص ٥؛

أحمد علي أحمد محمد، كلوه تاريخها وحضارتها، ص ٤.

٢) النبهانيون أو النباهنة : هم من الأسر التي حكمت عمان في فترة من الفترات، ولايعلم على وجه الدقة تاريخ توليهم الحكم وبخاصة ملوكهم المتأخرين، ويُذكر أن حكمهم امتد حوالي خمسمائة سنة ولكن ليس من المؤكد أنه شمل جميع أنحاء عمان، فقد عاش حكمهم صراعاً مع الإمامة الإباضية التي انتصرت عليه في بعض الأوقات، ولكن المؤكد أن منهم من ظل يسيطر على بعض أجزاء عمان ومدنه حتى قيام دولة اليعارية في عمان عام ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م أو قبل ذلك بقليل وهم مايرمز لهم بملوك بني نبهان المتأخرين.

لمزيد من التفصيل انظر :

الأزكوري، سرحان بن سعيد، تاريخ عمان المقتبس من كشف الغمّة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق عبدالمجيد القيسي، الطبعة الثانية، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ؛

السالمي، تحفة الأعيان، ج ١؛

سالم بن حمود بن شامس السيابي، عمان عبر التاريخ، ج ٣، الطبعة الثانية، مسقط ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

في (بتة Patta)[١] إستقبالاً كبيراً، واستطاع (سليمان النبهاني) بعد ذلك أن يصاهر حاكم (بتة) - وهو من سلالة الشيرازيين حكام (كلوة) - ويرث عنه حكم المدينة، قيل بتنازل حاكم المدينة له عن الحكم وقيل بعد وفاة الحاكم، وبذلك أصبح (سليمان النبهاني) أول حكام أسرة بني نبهان في ساحل شرق إفريقية. [٢] وقد كان لهذه الهجرة أثر كبير في تاريخ المنطقة، حيث استطاعت أن تحقق انتعاشاً كبيراً في ساحل شرق إفريقية، ولم يأتِ القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، إلا وقد ضمت هذه الأسرة عدداً من مدن الساحل إلى حكمها، بل استطاعت في بعض الفترات أن توحد معظم أجزاء الساحل تحت لوائها.[٣] وانتعشت في ظل ذلك الحركة التجارية، وأصبح هذا الإزدهار عامل جذب نشط لعدد كبير من التجار العرب، وبخاصة من عمان وحضرموت، كما أدخلت الزراعة في بقاع كثيرة، وظل النباهنة يحكمون (بتة) حتى خضوع ساحل شرق إفريقية خضوعاً مباشراً لعمان في ظل الحكم البوسعيدي[٤] في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي.[٥]

---

1) Stigand, C.H., The Land of Zing. (Cambridg, 1913) P.30;

جمال قاسم، استقرار العرب في ساحل شرق إفريقية، ص ٣١٢.

2) Warner, A., Aswahili History of Pata, J.A.H, No. 14, January, 1913-14, p. 148;

حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، ص ٤٠٠.

3) Granvill, F., The Medival History of the Coast of Tanganiyka, (Oxford, 1962) p. 242;

شوقي عطا الله الجمل، دور العرب الحضاري في شرق إفريقية، مجلة الوثيقة، العدد الثالث عشر، السنة السابعة، البحرين، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص ٥٦.

٤) لمزيد من التفصيل عن دولة البوسعيديين والتي خلفت دولة اليعاربة على حكم عمان عام ١١٥٦هـ / ١٧٤٤م وامتد سلطانها إلى ساحل شرق افريقية انظر: جمال قاسم، دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقية ، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

٥) جمال قاسم، الروابط العربية الأفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية، ص ١٨.

ويشير بعض الباحثين إلى أن هجرة (سليمان النبهاني) لم تكن عام ٦٠١هـ / ١٢٠٤م وإنما كانت بعد هذا التاريخ بمدة طويلة تمتد حتى عام ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م ويعزون ذلك للصراع على السلطة في عمان في تلك الفترة. والواقع أنه لايمكن الأخذ بهذا الرأي لأن هجرة (سليمان النبهاني) لو حدثت على هذا النحو وفي ذلك الوقت المتأخر لتعذر عليها إحداث الأثر الكبير في المنطقة وضمها عدداً من مدن الساحل تحت لوائها، والذي تحدث عنه أصحاب الرأيين معاً، وكان نفوذ هذه الأسرة موجوداً أثناء قدوم البرتغاليين، بل يُذكر أنه كان لها سلطان يسمى (أبا بكر) حكمها في الفترة من عام ٨٢٤ - ٨٥٥هـ / ١٤٢١ - ١٤٥٥م أي قبل التاريخ الذي أشار إليه أصحاب الرأي الأخير الذي نفنده الآن.[1]

كما يذكر (المغيري) أن حكام (بتة) قبل عام ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م كانوا من أهل (بتة) الأصليين وليسوا من المهاجرين إليها، ويستند في ذلك إلى أنه وجد حجراً قد كتب عليه أن السلطان (عمر بن محمد بن السلطان أبا بكر) البتّاوي مات يوم الاثنين ١٢ شعبان سنة ٥٠٠هـ وأن هذا الحجر موجود الآن في إدارة الآثار في (ممباسة) وأنه وجده في (بتة) وذلك دليل على أن حكام (بتة) كانوا من (بتة) نفسها وليسوا من النباهنة.[2] وباعتقادي أنه لايمكن الأخذ بهذا الرأي، لأن تاريخ وفاة السلطان الذي ذكره (المغيري) كان قبل قدوم هجرة النباهنة بحوالي قرن كامل من الزمان والتي تمت عام

---

1) Reusch, R., History of East Africa, (Stuttgart, 1954) p. 18;
رجب محمد عبدالعليم، العمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام منذ ظهوره حتى قدوم البرتغالين، الطبعة الأولى، مسقط ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص ٢٢٥.

٢) سعيد بن علي المغيري، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق محمد علي الصليبي، وزارة التراث والثقافة بعمان، الطبعة الثانية، مسقط ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ١٧١.

٦٠١هـ مما يدل على أن حكام (بتة) الذين أشار إليهم كانوا قد زال أمرهم عند قدوم النباهنة في بداية القرن السابع الهجري، كما أن البتاويين المشار إليهم لايستبعد أن يكونوا من سلالة (إبني الجلندي) الذين هاجروا إلى تلك المناطق في أواخر القرن الأول الهجري، وقد تطرق (رويش Reusch) إلى هذه النقطة حيث أشار إلى أنه كان (لبتة) حاكمان مختلفان، واحد من بيت) الجلندي) الذي حكم من حوالي عام ٨٠ - ٥٦٥هـ / ٧٠٠ - ١١٧٠م حينما عزله (سليمان حسن الكبير) سلطان (كلوة)، والثاني أسسه النباهنة على يد (سليمان بن مظفر البنهاني)، حيث أصبح هذا الأخير أول حاكم (لبتة) من البناهنة، وقد حكم من هذا البيت حوالي اثنين وثلاثين سلطاناً حتى عام ٩١١هـ / ١٥٠٦م عندما قدم البرتغاليون.[١] وعلى هذا فإن البناهنة يكونوا قد حكموا (بتة) منذ أوائل القرن السابع الهجري.

وفي النصف الثاني من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي تدفقت موجات كبيرة من الهجرات إلى ساحل شرق إفريقية على إثر اجتياح المغول للعراق، حيث لحق هؤلاء بمن سبقوهم من المهاجرين إلى هناك.[٢] وترتب على ذلك آثار بعيدة المدى في تطور العلاقات والإتصالات بين ساحل شرق إفريقية والجزيرة العربية، وأوجدت الأرضية الصالحة لانتشار الإسلام والحضارة العربية في تلك المناطق.

ونتيجة لاندماج المهاجرين العرب بالأفارقة، فقد أصبحنا نجد جنساً تبدو عليه كثير من الصفات والعادات والتقاليد العربية، حيث أصبحت الإمارات والمدن الإسلامية في ساحل شرق إفريقية مزيجاً تجمع في

---

1) Reusch, R., op.cit, p.149.

٢) جمال قاسم، الروابط العربية الإفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية، ص ٢١.

أنظمتها بين الأصالة الإفريقية وأخرى عربيّة إسلامية. إن هذا الجنس الذي تبدو عليه الصفات الزنجيّة المعدّلة هو الجنس السواحلي، الذي جاء ثمرة الزيجات التي نمت على المدى الطويل بين قبائل البانتو الإفريقية وبين الجاليات العربية والفارسية التي استقرت في تلك المناطق.[١]

لقد اعتنق السواحليون الإسلام وصاروا يقلّدون المسلمين في كل مايتعلق بحياتهم الاجتماعية، وبمرور الزمن وبإستمرار عملية التكامل والهجرة نشأت لغة جديدة إفريقية في بنائها ولكنتها، متأثرة تأثراً كبيراً بالعربية في مفرداتها، وتختلف بإختلاف القبائل التي يحتك بها العرب احتكاكاً متفاوتاً بين القوة والضعف وقد كتبت بحروف عربية، وهي اللغة السواحلية. [٢] ومن الجدير بالذكر أن اللغة السواحلية انتشرت انتشاراً واسعاً نتيجة لازدياد الحركة التجارية، كما حملت القوافل التجارية اللغة السواحلية إلى داخل القارة الإفريقية إبان سلطنة زنجبار، حيث تمتد طرق القوافل إلى البحيرات الإستوائية وحوض الكنغو، والتي أصبحت فيما بعد لغة التخاطب في المعاملات التجارية بين مجموعات السكان المتباينة في ساحل شرق إفريقية[٣]

والواقع أن اللغة السواحلية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالإسلام الذي

---

1) Salim, A.I., The swahili speaking peoples of Kenya Coast, (Neirobi, 1973) p.76.

2) Knappert, J., swahili Islamic Poetry, (London, 1971) pp.24-30;

باتيبو - هـ - م، إسهام اللغة العربية في إنماء اللغة السواحلية وتطويرها، مجلة الإسلام اليوم، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، العدد الثاني، الدار البيضاء، ١٤٠٤/١٩٨٤، ص ٤٤-٤٥.

٣) حريز، المؤثرات العربية في شرق إفريقية، ص ٣٦.

أصبح فكراً محلياً وثقافة وطنيّة يسّرت انتشاره في تلك المناطق[1] إن إقامة العرب في ساحل شرق إفريقية إقامة دائمة كان إيذاناً ببداية عهد جديد في تلك المنطقة، اتّسم بظهور تغيرات في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأدى إلى ظهور المدن والإمارات الإسلامية تحت رئاستهم، وكان لهم أكبر الأثر في انتشار الدين الإسلامي بين القبائل والشعوب الإفريقية.

ومع إطلالة القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، استكملت مدن وإمارات ساحل شرق إفريقية مقوماتها وسماتها العربية الإسلامية، كما أدت الهجرات العربية المتوالية إلى طمس معالمها الفارسيّة، واستحالت إلى مدن عربية صرفة، وشكّلت سلسلة ازدان بها الساحل والجزر المواجهة له.[2] وهذه المدن من الشمال إلى الجنوب هي (براوة، قسمايو، بتة، لامو، ماليندي،[3] ممباسة، يمبا، زنجبار، مافيا، كلوة، موزمبيق، سفالة).[4] وفي خلال تلك الفترة كان الإسلام قد انتشر في تلك المدن والمراكز وأصبح لكل مدينة مسجدها الخاص بها. بل أصبحت مراكز اشعاع إسلامي واضطلعت بدور رائد في حركة انتشار الإسلام في شرق وأواسط إفريقية.

---

١) محمود طه أبو العلا، التأثيرات العربية في شرق إفريقية، مجلة الجمعية الجغرافية المصرية، مايو ١٩٦٠، ص ١٤٠.

٢) حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، ص ٤٣٩.

٣) ماليندي تقع إلى الشمال من ممباسة، وهي الآن إحدى موانيء جمهورية كينيا، وقد لعبت دوراً كبيراً في تاريخ ساحل شرق إفريقية، وبخاصة إبان السيطرة البرتغالية حيث تحالف حاكمها مع البرتغاليين عند مقدمهم للوهلة الأولى وظل حليفاً لهم طوال فترة وجودهم في المنطقة. انظر الملحق رقم (٦-أ).

٤) انظر الملحق رقم (٦-أ).

ويعطينا ابن بطوطة الذي زار المنطقة عام ٧٣٢هـ / ١٣٣١م وصفاً دقيقاً عن ازدهار ورخاء المدن والإمارات الإسلامية هناك، إذ يُعتبر ابن بطوطة من الرحّالة العرب الذين كتبوا عن شرق إفريقية، حيث ذكر في وصف كلوة أنها من أفضل وأحسن المدن وأتقنها عمارة، وذكر بأنها على اتصال بمدينة سفالة بالجنوب التي تعتبر مخزناً للتبر[١] ، كما ذكر أنها ذات ثروات ضخمة، وأهلها على جانب كبير من الثراء وسعة العيش، وأيضاً ذكر في وصفها أنها من أكبر مدن ساحل شرق إفريقية.[٢]

كانت المدن والإمارات الإسلامية في ساحل شرق إفريقية رغم ازدهارها ونموها تفتقر إلى القوة الحربية المنظمة، وقد يكون عذرها في ذلك أنها صرفت اهتماماتها إلى التجارة، ولم تعر النواحي العسكرية اهتماماً كبيراً، حيث إن العرب المهاجرين هم الذين أسسوها وامتلكوا الأراضي فيها، كما تولّوا تصريف السلع التجارية التي تأتي من داخل القارة إلى الأسواق العالمية،[٣] ولهذا السبب كان نموها بطيئاً، فحظيت التجارة باهتمامهم ورعايتهم حيث كانت مضمونة مأمونة، وتعايشوا مع الوطنيين الأفارقة تعايشاً سلمياً ولم يستعملوا معهم القسوة والظلم[٤] لذا

---

١) التبر : يطلق على خام الذهب والفضة قبل صهره واستعماله، غير أنه بالذهب أعرف منه بالفضة. انظر : يوسف الحكيم ابن الحسن علي، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، دار الشروق، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ٣٧.

٢) ابن بطوطة، تحفة النظار، ج ١، ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

٣) حراز، إفريقية الشرقية والإستعمار الأوربي، ص ١٠.

٤) جلال يحيى، العرب في شرق إفريقية، مجلة نهضة إفريقية، العدد الثاني والعشرون القاهرة، ١٩٥٩، ص ٨-٩؛ دولت أحمد صادق، شرق إفريقية ، دراسة في جغرافية الإسلام، بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، لجنة انتشار الإسلام، جامعة

لم يجد البرتغاليون عند أول قدومهم إلى ساحل شرق إفريقية صعوبة تذكر في إخضاع تلك المدن نظراً لافتقارها إلى القوة العسكرية والتنظيم الحربي.

قام العرب الذين هاجروا واستقروا هناك بدور كبير في تغيير معالم الاقتصاد في تلك المناطق، حيث جلبوا معهم العديد من المحاصيل الزراعية مثل زراعة قصب السكر والسمسم والبهارات وغيرها من المزروعات، كما علّموا الأفارقة حرفة الزراعة، وقاموا كذلك بغرس عدد من الأشجار المثمرة.[1] كما قام العرب أيضاً باستخراج المعادن كالذهب والفضة والحديد والنحاس.[2] وكانت كميات من الذهب ترد إلى الدول الإسلامية من (سفالة) حتى سميت (سفالة الذهب) وكذلك أدخل العرب تربية الإبل واعتنوا بتربية الماشية والأغنام وصارت الجلود والمواد العطرية والعاج والصمغ من أهم صادرات المنطقة.[3] ومن الجدير بالذكر أنه رغم نمو بعض المدن في ساحل شرق إفريقية وتوسع سلطتها إلاّ أن الملاحظ أن الساحل لم يخضع على امتداده لنفوذ إمارة واحدة، وإنما شهد كثيراً من الوحدات الإسلامية على طول الساحل تتفاوت سلطاتها ونفوذها من إمارة أو مدينة لأخرى.

وقد اندهش البرتغاليون من تحضر المدن في ساحل شرق إفريقية عند وصولهم إليها، وقد عبر عن ذلك الرحالة البرتغالي (باربوسا Barbosa, D)

الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، ج ١، الرياض ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، ص ١-٢.

١) حراز، إفريقية الشرقية والإستعمرا الأوربي، ص ٦.

٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج ١، ص ٦١ - ٦٢؛ المغربي، كتاب الجغرافية، ص ٨٣ - ٨٤.

٣) المسعودي، مروج الذهب، ج ١، ص ١٠٧ - ١٠٨؛ أبو الفدا اسماعيل بن محمد بن عمر، تقويم البلدان، ج ١، باريس ١٨٤٠، ص ١٥٦.

بقوله : «عندما وصلت مراكب فاسكودي جاما Vasco De Gama إلى سفاله فوجئت مفاجأة كبيرة، حيث وجدوا موانيء تطن كخلايا النحل ومدناً ساحلية عامرة بالناس لاتقل نشاطاً عن مدنهم في البرتغال، ورأوا تجارة بحرية نافعة في الذهب والحديد والعاج والخرز والأقمشة والجلود، حتى السفن التجارية التي وجدها البرتغاليون كانت أكبر وأضخم حجماً من سفنهم.»(١)
وعلى الرغم من إعجاب وإشادة الملاحين والمؤرخين البرتغاليين بازدهار مدن وإمارات ساحل شرق إفريقية إلاّ أنهم لم يتوانوا في تدميرها وإحراقها وإيقاف عجلة التقدم فيها.

وكما أسلفنا فقد كانت علاقة ساحل شرق إفريقية بعمان علاقة وثيقة ومتصلة، وترجع إلى أزمنة قديمة، وقد توطدت هذه الروابط بحكم التعامل والتبادل التجاري أولاً ثم بانتشار الإسلام ثانياً، وتوثقت تلك الروابط أيضاً بعد ظهور المراكز الاستيطانية والتي تحولت إلى مدن يسكنها العرب من جميع أجزاء الجزيرة العربية وبخاصة عمان.(٢) وكانت هذه المراكز الاستيطانية هي الأساس الذي قام عليها الحكم العماني في شرق إفريقية فيما بعد، وبخاصة بعد نجاح عمان في عهد الأسرة اليعربية، وكذلك في عهد الحكم البوسعيدي في توحيد تلك الكيانات وتجميعها تحت زعامتها، وثمة ملاحظة أخرى تؤكد عمق العلاقة بين ساحل شرق إفريقية

---

1) The book of Durate Barbosa : An Account of the Countries bordering on the Indian Ocean about the year 1518 A.D Translated from the Portuguese text by Mausal Iengworth Dames, (London, Haklyt Society, 1918), vol. I, pp. 4 - 7.

٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ١، ص ١٠٧؛
جمال قاسم، عمان في شرق إفريقية، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٣، مسقط ١٤٠٠هـ/١٩٨٠، ص ٧٩ - ٨٠.

وعمان، وهي أننا نجد أن المجموعات التي هاجرت من عمان إلى هناك كانت هي الأكثر تأثيراً ونفوذاً،[١] وتأتي هجرة الجلندي والنباهنة من عمان إلى ساحل شرق إفريقية مثالاً على ذلك، كما أن دافعهما إلى الهجرة هناك دليل على أنه كانت توجد روابط قديمة بين عمان وتلك المناطق، إذ لايعقل أن يلجأ أبناء الجلندي والنباهنة ومن معهما وهما من حكام عمان ويفرا بنفسيهما وبمن معهما إلى أماكن خالية من الوجود العماني.[٢] ومما يؤكد عمق الارتباط الحضاري بين شرق إفريقية وعمان، هو تطلّع سكان ساحل شرق إفريقية في وقت الشدة إلى الوطن الأم وبخاصة عمان عندما قدم البرتغاليون، وبدأوا في تخريب وهدم المدن والإمارات الإسلامية هناك، بل نستطيع القول إنه ترتب على تلك الصلاة ظهور دور عمان واضحاً في تحضير ساحل شرق إفريقية وهو دور كبير إذا قيس بمساحة عمان أو حجم سكانها، ولذلك يعتبر هذا الدور من أهم الأدوار التي سجلها التاريخ لعمان.[٣]

لقد ظل ساحل شرق إفريقية ينعم بدرجة كبيرة من الرخاء والرفاهية حتى أوائل القرن العاشر الهجري، أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، على أنه لم يقدر لهذه الحالة أن تبقى طويلاً، فقد جاء البرتغاليون الذين غزوا الساحل، ومن ثم سلبوا ماكان يتمتع به العرب

---

١) المرجع نفسه، ص ٨٠.

٢) سعيد بن علي المغيري، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩. انظر المقدمة، ص ، ط.

3) krapf, J. L., East Africa Travels and Missionary Labours, (London, 1860) p.529.;

رأفت غنيمي الشيخ، دور عمان في بناء حضارة شرق إفريقية، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٣، مسقط، ١٩٨٠، ص ١٥٣.

والمسلمون من سيطرة على تجارة المحيط الهندي، وأدت السياسات البرتغالية التجارية والعسكرية إلى خراب تلك المدن وتدهورها، وقدّر لتلك المناطق أن تقضي مايقرب من قرنين من الزمان تحت الحكم البرتغالي قبل أن ينجح العمانيون في طرد هؤلاء الغزاة وتصفية وجودهم في أوائل القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي.

* الأوضاع في عمان والخليج قبيل السيطرة البرتغالية :

تقع عمان في الجزء الجنوبي الغربي من الخليج العربي، وقد كان ساحل عمان يمثل مركزاً هاماً في تجارة الشرق، حيث يحتوي على عدة موانىء هامة مثل (مسقط، ومطرح، صحار، وقلهات، وقريات)[1] والتي تعتبر من أهم مراكز التجارة في الخليج العربي آنذاك، وحيث إن الطابع المميز لعمان هو الطابع البحري الجبلي الذي تفصله عن شبه الجزيرة العربية صحراء شاسعة هي صحراء الربع الخالي.[2] لذا فقد ألقى الموقع الجغرافي الذي تتميز به أهمية خاصة على ذلك الإقليم الذي يحتل مركزاً هاماً بالنسبة للطرق الموصلة إلى الهند والبحر الأحمر وشرق إفريقية، وقد أتاح هذا الموقع للعمانيين أن يقوموا بدور هام في تجارة الشرق منذ القدم، بل أصبحوا رواداً في علوم البحر وشئون التجارة، يساعدهم في ذلك طبيعة أرضهم الخصبة ذات المنتجات الزراعية الوفيرة،

---

١) انظر الملحق رقم (٦-د).

٢) الأصطخري، المسالك والممالك، تحقيق محمد الحيني، القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م، ص ٢٧.

وينابيع المياه العذبة مما جعلها مركزاً لتموين السفن أيضاً.[1] وتتمتع عمان بسواحلها الطويلة، وهي سواحل منيعة، بعضها صخري كثير النتوءات والجزر وأشباه الجزر، الأمر الذي أدى إلى قيام عدة موانىء عليه وفرت حماية طبيعية للأساطيل العربية منذ عهود بعيدة،[2] ويعتبر ساحل عمان إبان الغزو البرتغالي مركزاً تجارياً مزدهراً، وتمثل الموانىء العمانية مخازن تجارة الشرق، وتأتي في طليعتها (مسقط) التي تعتبر من أقوى المعاقل العمانية والتي وصفها ابن ماجد بقوله: «مسقط بندر مشهور لم يكن له مثيل في الدنيا، وجبل مسقط المشهور يراه أصحاب السفن الداخلة للخليج مما يسهل رسو السفن فيه ليلاً ونهاراً، كما أنه يصدر التمر والخيل، ويستقبل السلع المختلفة من الهند وإفريقية.».[3]

إن سعة إقليم عمان والتباين في تضاريسه، قد أديا إلى وجود اختلاف في الطريق الذي سار فيه تاريخ كل جزء من أجزائه في بعض الفترات، ويمكن لنا أن نميز بين قسمين رئيسين لإقليم عمان، وهما عمان الداخل وعمان الساحل، واللذين يصعب الاتصال بين معظم أجزائهما إلا من خلال

---

١) الحميري، محمد عبدالمنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، بيروت، ١٤٠٤هـ / ١٩٧٤م، ص ٤١٣.

٢) السيار، دولة اليعاربة في عمان وشرق إفريقية، دار القدس، الطبعة الأولى، بيروت ١٣٩٥/١٩٧٥، ص ١٧؛

عبدالرحمن العاني، دور العمانيين في الملاحة والتجارة الإسلامية حتى القرن الرابع الهجري، الطبعة الأولى، مسقط ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص ٦.

٣) كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق إبراهيم خوري وعزة حسن، دمشق، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م، ص ٢٨٣.

الأودية والمسالك التي تخترق جبال عمان،[1] إن هذين القسمين قد مرا بتغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية متفاوتة في أشكالها ومظاهرها، وكان ذلك بفعل الطبيعة الجغرافية لكل من هذين القسمين والنشاط الاقتصادي الذي يمارس بينهما إضافة إلى ماتعرضا له من تيارات بشرية، سلميّة كانت أم حربية من داخل الجزيرة العربية أو من خارجها، على أنه يجب ألاّ يفهم أن التواصل الحضاري والاجتماعي والسياسي والاقتصادي كان مقطوعاً بين عمان الداخل وعمان الساحل، بل بالعكس كان التواصل فيما بينهما قائماً ومستمراً إلى درجة كبيرة.[2] على أنه يمكن القول بأن عمان الساحل كانت أكثر تأثراً بالمؤثرات الخارجية وأكثر توجهاً نحو الساحل والجهات الساحلية المجاورة لها في الخليج العربي وبحر العرب، بينما كانت عمان الداخل أكثر تأثراً وتفاعلاً بالمؤثرات القادمة من داخل الجزيرة العربية، وجدير بالقول أن عمان لم تصل إلى درجة من القوة والنهوض السياسي والعسكري إلاّ عندما كان هذان الجزءان متحدين في سلطة سياسية واحدة، وقبيل الغزو البرتغالي كان ساحل عمان يشكل جزءاً أساسياً من أراضي مملكة هرمز، بينما كان جزء كبير من داخل عمان يخضع لسلطة أمراء النبهانيين الذين يعانون من الضعف والانحلال ويعيشون صراعاً مريراً مع معارضيهم الذين يسعون لبعث الإمامة الإباضية على أسسها الصحيحة.[3]

---

١) محمد متولي، حوض الخليج العربي، القاهرة، مكتبة الانجلو، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م، ص ٨٤؛

أريكو. د. اى، المباني التاريخية الحربية في عمان منذ القرن السادس عشر، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٥، مسقط، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ٢٣١ - ٢٣٢.

٢) عبداللطيف ناصر الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، العدد السادس عشر، ١٩٨٠، ص ٤٥.

٣) المرجع نفسه، ص ٥٤.

شهدت عمان منذ الربع الأول من القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي محاولة الأئمة الإباضيين[1] استعادة نفوذهم السياسي السابق على عمان مستفيدين من حالة التذمر التي تعتري السكان تجاه

---

١) إن مذهب الإباضة حسب قول بعض المؤرخين هو فرع من فروع الخوارج الذين رفضوا موافقة علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - على قبوله لفكرة التحكيم التي اقترحت من جانب أنصار معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه، وكان هؤلاء يضمون الكثير من أبناء عمان الذين بدأوا يبنون هناك دعائم مجتمع جديد، والإباضيون من أشد الفرق الإسلامية تمسكاً بنصوص الشريعة وينفون عن أنفسهم، بل يتبرمون من نسبتهم للخوارج، ولايقبلون وصفهم بالخوارج حسب المفهوم الشائع لهذه التسمية، وتوصف الإباضية بالاعتدال في آرائها وواقعيتها في المواقف السياسية، اللذين أبعداها عن التزمت والمثالية سمات حركات الخوارج الأخرى، كما أنها نقلت ثورات الخوارج من حركات عنيفة غير مخطط لها إلى دعوة سرية تميزت بتنظيماتها الدقيقة، مكنتها من الحصول على فرص واسعة للنجاح، وتنسب الإباضة إلى عبدالله بن أباض - أحد علماء - النصف الثاني من القرن الهجري الأول، وهو من بني مقاعس من عمان، لجأ إليها بعد خلافه مع عبدالملك بن مروان، الخليفة الأموي، ونشط في نشر تعاليم الحركة الإباضية بها، وقد استطاعت الحركة الإباضية تأكيد وجودها في عمان، ونجحت في معظم الفترات في بسط نفوذها وزعامتها الدينية والسياسية على معظم القبائل العمانية.
لمزيد من التفصيل انظر :
السالمي، تحفة الأعيان في تاريخ عمان، ج ١، ص ٥٠؛
عامر الموهوبي، عمان قبل وبعد الإسلام، وزارة التراث والثقافة بعمان، سلسلة تراثنا، العدد الثاني عشر، مسقط، ١٤٠٠/١٩٨٠م، ص ٣٤
علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م، ص ٢٨٨.
عوض خليفات، دراسات في النظم والعقائد الإباضية، مجلة المؤرخ العربي، العدد السابع، بغداد، ١٩٨١، ص ٢٠٤؛
مهدي طالب هاشم، الاباضية في المشرق العربي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، رقم ٦٧٢، بغداد، ١٩٧٧، ص ٧٥ - ١٦٩.

النفوذ الهرمزي المتحكم في الموانىء العمانية، وكذلك نحو الحكام النبهانيين الذين إشتد ضعفهم وفسادهم وجورهم، لذا فقد اشتد الصراع بين النباهنة والإباضيين، وأدى ذلك إلى تدخل قوي من خارج عمان في هذا الصراع، وقد تزايد هذا الصراع في النصف الثاني من ذلك القرن، فعندما نجح إمام الإباضية (عمر بن الخطاب الخروصي) في انتزاع الحكم من النباهنة وتمتع بالسلطة عدة سنوات قام ضده (سليمان بن سليمان النبهاني) وأطاح به.[1] وعاد النباهنة إلى سياسة البطش والتنكيل بالإباضيين المعارضين، الذين رموا بثقلهم مرة أخرى خلف (عمر بن الخطاب الخروصي) الذي وجد نفسه مضطراً إلى طلب المساعدة من بني جبر في الاحساء التواقين إلى ممارسة نوع من النفوذ في عمان، وقد بعث شيخ الجبور[2] قوات كبيرة إلى عمان عام ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م نجحت في طرد

---

١) الأزكوري، كشف الغمة، ص ٧٢؛ الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور، ٥٥.

٢) تشير بعض المصادر إلى أن قيام إمارة الجبور في الاحساء كان عام ٨٤٣هـ / ١٤٣٩م تحت زعامة (زامل بن حسين الجبري) الذي فرض سلطانه على كل من الاحساء والقطيف، كما بسط - بعد ذلك - نفوذه على أجزاء واسعة من نجد وبلاد البحرين، وأقام صلة من الروابط والمصالح المشتركة بينهما، ويعزى لإبنه (أجود بن زامل) الفضل في تعاظم قوة الجبور وتوسعهم. وبخاصة في سواحل الخليج وعمان، ويذكر أن شهرة الجبور قد عاصرت طلائع الغزو البرتغالي للخليج العربي، وقد تحدث بعض المؤرخين والقادة البرتغاليين عن قوة الجبور وسطوتهم، وقد خاض البرتغاليون صراعاً مريراً مع الجبور في بعض الأحيان وبخاصة حول السيطرة على جزيرة البحرين، وقد استمرت قوتهم حتى نهاية الربع الأول من القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي وبخاصة في بلاد الاحساء والقطيف والبحرين، حيث بدأت تفقد قوتها ونفوذها في تلك الأقاليم في التاريخ المذكور في الوقت الذي لاتزال بعض فروعهم قوية ومؤثرة في عمان.
لمزيد من التفصيل عن إمارة الجبور انظر :
آل عبدالقادر، تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد، ص ١٢٠.
الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور، ص ٤٤ - ٤٥ - ٤٧ - ٩٥.

(سليمان النبهاني) وساهمت مع العمانيين في اعادة تنصيب (عمر بن الخطاب) اماماً لعمان الداخل،[1] ويذكر (إبن ماجد) أن هذه المساعدة كانت مشروطة بأن يحصل الجبور على جزء من الحاصلات الزراعية العمانية كل عام، وأن يمنحوا فرصة رعي ابلهم ومواشيهم في الأراضي العمانية. [2] إن هذا التدخل العسكري للجبور في عمان وماتضمنه من شروط كان بداية لظهور الجبور كقوة سياسية تمارس نفوذاً واسعاً في عمان، والذي أخذ يزداد مع الزمن، مستغلاً تدهور الأوضاع الداخلية واضطرابها في عمان والتي كانت عاملاً مساعداً على توسيع نطاق هذا النفوذ وتقويته. وسيتجلى ذلك واضحاً عندما يقوم الإمام (ناصر بن مرشد) بحركة توحيد عمان في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي.

لم يتمتع (عمر بن الخطاب) بالسلطة بعد عودته إليها ثانية، إذ توفي عام

---

١) المراجع نفسه، ص ٥٥.

٢) كتاب الفوائد، ص ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣.

والجدير بالذكر أن المصادر العمانية لم تشر إلى دور الجبور في الأحساء في تنصيب عمر بن الخطاب الخروصي اماماً لعمان رغم تطابقها في تاريخ تلك الأحداث مع رواية ابن ماجد، وليس من المستبعد أنها تجاهلت ذلك على اعتبار أن جبور الأحساء في نظرهم قوة خارجيّة فضلاً عن كونهم غير اباضيّة، وقد دأبت المصادر العمانية على تجاهل الأحداث التي لاتشرّف التاريخ العماني في نظرهم. انظر :

الأزكوري؛ كشف الغمة، ص ٧٢؛

ابن رزيق حميد بن محمد، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبدالمنعم عامر، ومحمد مرسي عبدالله، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ص ٢٥٨؛

السالمي، تحفة الأعيان، ج ١، ص ٣٢١ - ٣٢٦.

٨٩٤هـ / ١٤٨٨م الأمر الذي أدى إلى عودة الفوضى إلى داخلية عمان مرة أخرى واستمرارها وظهور عدد من الزعماء الطموحين، الذين أخذ كل واحد منهم يسيطر على جزء من البلاد، الأمر الذي هيأ الفرصة لعودة (سليمان النبهاني) إلى السلطة مرة أخرى.[1] ولكنه قتل عام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م على يد زعيم الإباضية (محمد بن إسماعيل الحاضري اليحمدي)، الذي لايستبعد أنه قد استعان بالجبور من أجل الوصول إلى السلطة، على أنه يصعب القول بأن (محمد بن إسماعيل) هذا قد نجح في بسط نفوذه على جميع أجزاء عمان الداخل رغم أنه استمر بالسلطة حتى عام ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م، وفي عهده استولى البرتغاليون على ساحل عمان.[2] وقد بقيت عمان الداخل مجزأة إلى مايشبه حكومات المدن، إلا أن الساحل كان بعيداً عن تأثير ذلك الصراع حيث إنه - كما ذكرنا سابقاً - كان خاضعاً لسلطة حكام هرمز، لذا فإن دور سلطة المقاطعات الداخلية تجاه الغزو البرتغالي لساحل عمان يكاد يكون منعدماً، وفي خضم تلك الأحوال السياسية المضطربة في داخلية عمان استولى البرتغاليون على الساحل العماني.

أما الوضع السياسي العام في منطقة الخليج العربي إبان السيطرة البرتغالية فيرتبط بوجود مملكة هرمز وهيمنتها على معظم أجزاء الخليج وجزره، فمنطقة الخليج العربي كانت تنتظم - منذ القدم - مراكز تجارية هامة وبخاصة عند مداخله، وتعتبر (سيراف) من أقدم تلك المراكز التي

---

١) السالمي، تحفة الأعيان، ج ١، ص ٣٢٨؛
الحميدان، التاريخ السياسي لامارة الجبور، ص ٥٧.

٢) الأزكوري، كشف الغمة، ص ٧٣ - ٧٤؛
السيابي، عمان عبر التاريخ، ج ٣، ص ١٢٠ - ١٣٤.

تمتعت بهذه الشهرة لمدة تزيد عن قرنين من الزمان[١] ونعني بذلك منذ أواخر القرن الثالث الهجري / بداية القرن العاشر الميلادي وحتى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، عندما انتقل المركز التجاري إلى مكان آخر مجاور هو (هرمز) وهي - أي المدينة - ميناء رئيس لبلاد فارس، وتقع على المضيق الذي يحمل الاسم نفسه، وترجع أهميتها إلى كونها مركزاً تجارياً للسلع الشرقية، كما أنها كانت نقطة التقاء القوافل المحملة بالتجارة من السند وأواسط آسيا وفارس.[٢] ولقد فقدت هذه المدينة أهميتها في أثناء الغزو المغولي لفارس والذي دمّرها عام ٧٠١هـ / ١٣٠١م، فانتقل تجارها وأقاموا مركزاً تجارياً في جزيرة (جروان)، المقابلة للساحل، وأطلقوا عليها الاسم نفسه، وقد نمت وازدهرت حتى أصبحت دولة عظيمة الثراء، كما أصبحت تمثل حلقة هامة في نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب،[٣] وذاعت شهرتها فاستطاعت أن تبسط سيطرتها وسلطانها السياسي على أجزاء مترامية من شواطىء الخليج العربي ومعظم جزره، ومنها الساحل العماني، وهيمنت على التجارة في الخليج وفرضت الرسوم الجمركية على الموانىء التابعة لها.[٤]

---

١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٤٢٦؛

نوار عبدالوهاب القيسي، الأهمية الأستراتيجية وملامح السياسة البرتغالية، مجلة الوثيقة، العدد الرابع عشر، السنة الثانية، ١٤٠٩/ ١٩٨٩، ص ١٥٨ - ١٥٩.

٢) الأصطخري، المسالك والممالك، ص ٩٩.

٣) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ٣٣٩؛

ابن بطوطة، تحفة النظار، ج ١، ٢٩٩ - ٣٠٠؛

Dennis, R., obock Muscat, Bauchair, Bassorah, (Paris, 1883) p. 102.

٤) ابن بطوطه، تحفة النظار، ج ١، ص ٢٩٩ - ٣٠٠

لقد كانت (هرمز) مملكة مستقلة[1] يغلب عليها الطابع العربي الإسلامي، وكانت تضم مختلف الأجناس الإسلامية التي تسكن حول شواطىء الخليج العربي وغيرها، بل أنها مع مرور الوقت اكتسبت صبغة عالمية عندما أخذ يخالط سكانها الكثير من التجار الفرس والهنود والزنوج والترك والبلوش والأرمن والأوربيين إلى الحد الذي بدت فيه وكأنها منطقة تجمع عالمية محتفظة - مع ذلك - بطابعها العربي الإسلامي.[2] كما كانت الدولة الصفوية ٩٠٥ - ١١٣٥هـ / ١٤٩٩ - ١٧٢٢م قائمة في فارس، ومدت نفوذها وسيطرتها على العراق، وانصرفت إلى فتوحات الشمال، وإلى حروب ضد العثمانيين، ولم تول أمور الخليج اهتماماً كبيراً، ولم يسجل التاريخ لهذه الدولة أية مواقف إيجابية ضد البرتغاليين، بل أن الشاه (إسماعيل

---

١) هناك خلاف بين الباحثين بالنسبة لهوية مملكة (هرمز) فالكتاب الإيرانيون يغالون في إصباغ الهوية القومية على (هرمز) فيصفونها بأنها مملكة فارسية، على حين يؤكد الباحثون العرب على الصبغة العربية (لهرمز) باعتبار أن اللغة العربية كانت هي السائدة، وأغلب سكانها من العرب، وانتماء ملوكها إلى أصول عربية فضلاً عن تبعيتهم للمذهب السني وذلك على خلاف المذهب الشيعي الذي كان سائداً في فارس، أما المصنفون المسلمون القدامى فقد أكدوا على أن (هرمز) تتصف بالعالمية نسبة إلى أنواع الأجناس التي تسكنها، ولكن اللغة العربية هي لغة التعامل فيها مع غلبة الطابع العربي الإسلامي. انظر:
ابن بطوطة، تحفة النظار، ج ١، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.
جمال قاسم، الخليج العربي، دراسة لتاريخ الامارات العربية في عصر التوسع الأوربي الأول، دار الفكر العربي، القاهرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص٢ - ٣٠٠

٢) إبن بطوطة، تحفة النظار، ج ١، ص ٣٠٠ - ٣٠١؛
ابن ماجد، كتاب الفوائد، ص ٣٠٢؛ عبدالعزيز الشناوي المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية، مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، ج ٢، الدوحة ١٣٩٦/١٩٧٦، ص ٦٢٦.

الصفوي ٩٠٥- ٩٣٠هـ / ١٤٩٩ - ١٥٢٤م)[١] لم يجد غضاضة من طلب التحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين.[٢] وبذلك فإنه يمكن القول بأنه لم يكن للدولة الصفوية في فارس أي دور في مكافحة الغزو البرتغالي، بل إن موقف شاه فارس أسهم في توطيد النفوذ البرتغالي في الخليج العربي.

أما على الجانب الغربي للخليج العربي فبالإضافة إلى الأوضاع في عمان - التي سبق ذكرها - كانت توجد إمارة الجبور بزعامة (محمد بن أجود بن زامل الجبري) والتي تسيطر على إقليم (الحسا والقطيف) بالإضافة إلى جزيرة (البحرين) وقد أبلوا بلاء حسناً في مكافحة الغزو البرتغالي، كما كانوا من أوائل المتصدين لهم، وتمثل ذلك في أنهم أرسلوا بقواتهم عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م لنجدة ميناء (مسقط)، كما حشدوا

---

١) إسماعيل الصفوي : هو مؤسس الأسرة الصفوية التي حكمت فارس خلال الفترة ٩٠٥ - ١١٣٥هـ / ١٤٩٩ - ١٧٢٢م، وقد كان يجمع في نفسه صفة الشاه والمرشد الأكبر لدعاة المذهب الشيعي الاثني عشري، فهو زعيم روحي ودنيوي في آن واحد، اتخذ من السيف والقلم والدعوة باللسان أساليب متكاملة لتحقيق أهدافه الخاصة والعامة، وقد اتخذ من المذهب الشيعي الاثني عشري مذهباً رسمياً للدولة، وأخذ يوطده في داخل فارس، ثم أخذ يتطلع إلى اشباع حماسته الدينية بنشر المذهب الشيعي على حساب القوى المناهضة له، فإصطدم بالعثمانيين وغيرهم، وقد أبدى استعداده للتحالف مع البرتغاليين واضعاً مصالحه الخاصة وحقده الشديد على العثمانيين في مقدمة أي تسوية أو تحالف مع البرتغاليين، وهكذا وبينما كان البرتغاليون يخشون من وجود جبهة إسلامية قوية ضدهم، وجدوا أن هناك من يريد أن يتعاون معهم. توفي عام ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م. انظر:
عبدالعزيز سليمان نوار، الشعوب الإسلامية، دار النهضة العربية،بيروت ١٣٩٣/ ١٩٧٣، ص ٢٢٢ - ٢٢٦.

٢) صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الانجلو المصرية، الطبعة الثانية ، القاهرة، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م، ص ١٧.

حوالي سبعة آلاف مقاتل لمساعدة أهالي (صحار) والدفاع عنها.[1] وقد لجأ البرتغاليون إلى ضرب تجارة بلاد (البحرين) للضغط على الجبور واضعافهم، وقد واكب الضغوط البرتغالية تلك تحد جديد من مملكة (هرمز)، بعد أن أصبحت مقاليد الأمور بيد الوزير (خوجه عطار) فانتزع منهم (البحرين) عام ٩١٧هـ / ١٥١١م، ورغم أن الجبور استعادوها إلا أن تأكيد السيطرة البرتغالية على (هرمز) عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م، جعلهم وجهاً لوجه مع البرتغاليين المتفوقين عليهم بقواتهم البحرية، إضافة إلى أنهم أخذوا يتخفون خلف ادعاءات مملكة (هرمز) بحقوقها في البحرين والقطيف.[2]

والواقع أن المستجدات التي أخذت تفرزها الأحداث في أوائل القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي في منطقة الخليج العربي خاصة، وفي المشرق بوجه عام كان لابد لها أن تترك أثرها على الوضع السياسي والاقتصادي لإمارة بني جبر، إذ كانت هذه الأحداث أكبر من أن تستطيع هذه الإمارة التغلب عليها. وفي ظل هذه الأوضاع السياسية المضطربة والمعقدة، والتي تفتقر إلى سلطة سياسية قادرة على حمل عبء الدفاع عن المنطقة، استغل البرتغاليون تلك الأوضاع وسيطروا على تلك المناطق دون مقاومة تذكر، وتعرضت شعوبها لأفظع عوامل الإستغلال والعسف والجور.

---

1) Albuquerque Afonso : , The Commentaries of The Great Afonso De Albuquerque, H Translated from the Portuguese Edition by Walter De Gray Birch, vol. I, (London, 1884), pp.77 - 80.

الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور، ص ٧١.

٢) المرجع نفسه، ص ٧١.

العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق
إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي
في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد
الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية
العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق

الفصل الأول

الفصل الأول
الاستعمار البرتغالي لساحل شرق إفريقية وعمان

(٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م)

* الدوافع الدينية.
* الدوافع الإقتصادية.
* البرتغاليون في ساحل شرق إفريقية.
  (٩٠٤هـ - ١٤٩٨م).
* تأكيد السيطرة البرتغالية على ساحل شرق إفريقية.
* البرتغاليون وبناء قلعة (يسوع) في ممباسة.
* إقامة نظام جمركي.
* السيطرة البرتغالية على الساحل العماني.
  (٩١٣هـ / ١٥٠٧م).

لقد عرفنا فيما تقدم الازدهار والنمو اللذين تمتعت بهما الإمارات والمدن الإسلامية في ساحل شرق إفريقية، ولكن ذلك الازدهار لم يدم طويلاً، إذ بدت طلائع الغزو البرتغالي تفد إليهم، فقد استطاعت البرتغال أن تخرج من عزلتها وتتغلب على صغر مساحتها وبناء أسطولها البحري الذي يعد بداية لبناء إمبراطورية بحرية، حيث امتد النفوذ البرتغالي على معظم سواحل غرب إفريقية، في أواخر القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي - ونظراً للنجاح الذي حققوه في غرب إفريقية، فقد بدأ اهتمامهم بالتوجه إلى الشرق والهند.

يرتبط الغزو البرتغالي للعالم الإسلامي بسلسلة من الغزوات والنكبات التي توالت على العالم الإسلامي كله آنذاك، سواء في مركزه (العراق - الشام - مصر) أو في أطرافه، في آسيا وإفريقية وشبه جزيرة أيبيريا، ومنها: الغزو المغولي[1] الذي استهدف الوجود الحضاري

---

١) تعرضت مراكز الحضارة الإسلامية في القرنين السابع والثامن الهجريين - الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين - لأعنف حملات المغول ..... إثر قيام دولتهم الكبرى التي كانت تضم الصين وفارس ومابين النهرين وآسيا الصغرى وشرق اوربا، وقد صحب ذلك وتبعه ضروب القسوة البالغة التي أدت إلى انقراض دول، وذهاب عروش، وقتل مئات الآلاف من الأبرياء، وقد دخل المغول بغداد في يوم الأحد ٤ صفر سنة ٦٥٦هـ / ١٠ فبراير ١٢٥٨م - حيث خرج الخليفة العباسي وسلم نفسه وعاصمته للمغول دون قيد أو شرط.

للمزيد من التفصيل انظر :

ابن الوردي أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر، تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، ج ٢، دار المعرفة، الطبعة الأولى، بيروت ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م، ص ١٩٦؛

فؤاد عبدالمعطي الصياد، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، ج ١ ، بيروت، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ١٢ - ٢٦٣.

الإسلامي نفسه، والذي يصفه ابن الأثير «بالحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عتّمت الليالي عن مثلها»[1] ومنها الخطر الصليبي في بلاد الشام الذي سبقه وعاصره ثم عاش بعده، وبالرغم من انتهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م) إلاّ أن العداء الصليبي قد استمر في الغرب المسيحي عامة، وفي شبه جزيرة أيبيريا بوجه خاص، حيث كان للإسلام وجود هناك.[2]

إن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح قد أفاد البشرية، إلاّ أن إقامة الحصون والمحطات التجارية على السواحل الإفريقية والعربية والآسيوية، وتجنيد المرتزقة، وقتل الأهالي وإرغامهم على العمل بالسخرة، وتهجيرهم واصطيادهم بالقوة إلى خارج القارة الأفريقية (تجارة الرقيق) كان من صلب الإستعمار البرتغالي.

إذن ماهي دوافع البرتغاليين إلى القيام بحركة الإلتفاف تلك والتوجه إلى الشرق ؟ وسنركز على الدافعين الديني والإقتصادي، على اعتبار أن هذين الهدفين هما اللذان سعى البرتغاليون لتحقيقهما، بل كرّسوا جهودهم لخدمتهما.

الدوافع الدينيّــة :

قامت البرتغال بدور أساسي في سلسلة الحروب الصليبية الطويلة ضد المسلمين في الأندلس حتى فرّ عدد كبير منهم إلى الشمال الإفريقي،

---

١) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم الشيباني، الكامل في التاريخ، ج١٢، نشر المطبعة الدمشقية والمكتبة التجارية، القاهرة ١٣٤٨هـ / ١٩٥٨م، ص ١٣٨.

٢) حسين مؤنس، رحلة الأندلس (حديث الفردوس الموعود). الشركة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م، ص ٣٩٤ - ٣٩٥.

فلاحقهم البرتغاليون واستولوا على (سبتة)[1] ٨١٨هـ / ١٤١٥م، وكانت النتيجة أن وضع البرتغاليون أقدامهم لأول مرة على الأرض الإفريقية الإسلامية، مما زاد من حماستهم لمواصلة الزحف والالتفاف على العالم الإسلامي، ثم إزدادوا عصبيةً وحقداً في فترة كثرت فيها مخاوف البابوية بعد سقوط (القسطنطينية)[2] في يد العثمانيين عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م [3] وقلقها من تقدمهم في البحر المتوسط ووسط أوربا، في وقت كان البابا (نيقولا الخامس ٨٥١ - ٨٦٠هـ / ١٤٤٧ - ١٤٥٥م) يجد صعوبة في جمع كلمة الدول المسيحية ضد المسلمين، وبهذه الخطوة أعطت البرتغال البابوية نوعاً من الاطمئنان من الناحية الغربية، كما شكّل الاهتمام البابوي حافزاً للبرتغاليين وضماناً معنوياً ومادياً مكنهم من مواصلة زحفهم على البلاد

---

١) إحدى مدن المملكة المغربية، وتقع إلى الشمال منها على مضيق جبل طارق، وتعيش الآن تحت وطأة الإستعمار الإسباني.

٢) كانت القسطنطينية قبل سوقطها تشكل قلعة مسيحية في بحر عثماني، وقد تأخر سقوطها نسبة إلى موقعها الجغرافي، حيث تقع عند نقطة التقاء القارتين الآسيوية والأوربية على مضيق (البسفور) والذي يصل بين البحرين الأبيض والأسود، وأقصى عرض لهذا المضيق يصل إلى كيلومتر واحد، ولذا فهي من أهم المعابر الرئيسه بين القارتين، والحد الفاصل بين المسلمين في الشرق والنصارى في الغرب، ولكن العثمانيين تجاوزوها وتوسعوا في البلقان وشرق أوربا، وظلت شوكة في الجسم العثماني حتى تمكن السلطان العثماني (محمد الفاتح ٨٥٥ - ٨٨٦هـ / ١٤٥١ - ١٤٨١م) من فتحها عام ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م وقد سبب سقوطها هلعاً في الأوساط الأوربية. انظر: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العليّة العثمانية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص ١٥٩ ومابعدها.

٣) صلاح العقاد، المغرب العربي، مكتبة الأنجلوالمصرية، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٧٤، ص ١٤٠؛ ابراهيم شحاته حسن، وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب، دار الثقافة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ٢٥؛ جلال يحيى، المغرب الكبير، العصور الحديثة وهجوم الإستعمار، ج ٣، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص ١٤.

الإسلامية.[1]

لقد جسد المؤرخون البرتغاليون المعاصرون للغزو البرتغالي الروح الصليبية لدى البرتغاليين، وأهدافهم التي يسعون إلى تحقيقها فها هو ذا (أنطونيو بوكارو .Bokaro, A) يقول: «عندما نجح البرتغاليون في نهاية المطاف في إيجاد طريق بحري إلى الهند، وأقاموا حصونهم ومحطاتهم التجارية، لم يكن لديهم أي شك في أنهم يقومون بشيء ذي أهمية كبيرة بالنسبة للعالم.... ويستطرد قائلاً: «فقد كانوا ينظرون لإنجازاتهم على أنها عكسٌ للفتوحات الإسلامية في القرنين السابع والثامن، فالعرب في انطلاقهم نحو الغرب وتوسعهم سيطروا على شبه جزيرة أيبيريا، وهاهم أولاء البرتغاليون الآن يهاجمون شواطىء جزيرة العرب نفسها، ويهددون مدينة مكة المقدسة، ويخضعون الأمراء المسلمين لهم»[2] والواقع أن المؤرخين البرتغاليين أكدوا على الأهمية القصوى للعامل الديني، بل جعلوا منه المحرك الرئيس لأحداث للكشوف الجغرافية.

---

1) قام الراهب البلجيكي (ويتي Witte, Ch.M) بنشر ودراسة عدد من القرارات البابوية التي صدرت لدعم البرتغال مادياً ومعنوياً لحثهم على محاربة المسلمين، وبيّن الدوافع التي أدت بالبابوية إلى دعم البرتغال، وجاء في مقدمتها خوف البابوية من التوسع العثماني في أوربا. وذلك في المجلة الدينية البلجيكية (Revued'historie Ecclesiastgue) انظر :

Les Bulles Pontificales et Iexpansion Portugaise Auxv. Siecle, XLIII, (Bruxl, 1953), p,687.

2) Decado XIII De Historis De India, Vol, I,(Lisbon, 1876) p.321., نقلاً عن :

بكنجهام، س. بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٦، مسقط، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ١٨٦.

وتتجلى أهمية الدافع الديني بوضوح عند البرتغاليين من حرص ملوك البرتغال على محاربة المسلمين بالمغرب في المرحلة الأولى من توسعهم، وذلك عندما حثوا على العمل على محو الإسلام منه، وإحلال النصرانية مكانه، وتحويل المساجد إلى كنائس، وإنشاء الاسقفيات، وإرسال الكهّان والرهبان للعمل بها، كما تتجلى هذه الروح في الشعائر والطقوس الدينيّة التي تسبق كل هجوم على بلاد المسلمين، وفي محاولة ملوك البرتغال دفع ملوك المسيحية الآخرين إلى الإقتداء بهم.[1] بل عملت الكنيسة والملوك على إذكاء روح العداء للمسلمين عند البرتغاليين، فأصبحت محاربتهم مسألة مصيرية عند عامة الناس وخاصتهم.

كانت الإنعامات البابوية الكاثوليكية على ملوك البرتغال تؤجج تلك الروح الصليبية المتوقدة في نفوسهم، ومكّن هذا الاهتمام البابوي البرتغاليين من موارد كبرى كان لها دورها في حروبهم مع المسلمين، ومكنت البابوية ملوك البرتغال من رفع وارداتهم المالية، فلقد طلب الملك البرتغالي (إدورد Adoard ٨٣٧ - ٨٤٢هـ / ١٤٣٣ - ١٤٣٨م) من البابا اعتبار الحزوب الصليبية ضد المسلمين حروباً مشروعة،[2] وأصدر البابا (اوجينوس الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧م) قراراً مؤرخاً في ١٩ ديسمبر عام ٨٤٦هـ / ١٤٤٢م ضمن فيه الغفران لمن حج إلى البلدان الإسلامية التي استولى عليها البرتغاليون، ولمن تصدق بماله لتغطية المصاريف العسكرية.[3] كما

---

١) رسالة الملك يوحنا الأول إلى ملك الأرغون، وخطاب سفير البرتغال لدى المجمع الديني سنة (١٥١٦م) انظر: أحمد بوشرب، دكالة والإستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور، ١٤٨١ - ١٥٤١، دار الثقافة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، والمذكور اعتمد في بحثه هذا والذي نال به درجة الدكتوراه على عدد كبير من الوثائق البرتغالية المنشورة وغير المنشورة، كما اعتمد أيضاً على سلسلة طويلة من المصادر البرتغالية.

٢) أحمد بوشرب، دكالة والإستعمار البرتغالي، ص ١٥١.

٣) المرجع نفسه، ص ١٥٠.

مكنت البابوية ملوك البرتغال من التصرف - دائماً للأغراض الصليبّيه في واردات الجماعات العسكرية الاربع[1] التي لم يكن لهم فيها حق، الأمر الذي مكنهم من أموال طائلة نظراً لغناها وكثرة اقطاعاتها، كما ضمنت البابوية كذلك للبرتغاليين مساهمة كل البلاد المسيحية في مجهودهم العسكري. فلقد أصدر البابا أيضاً قراراً في يناير عام ٨٤٦هـ / ١٤٤٣م تم بمقتضاه تحديد وسائل تموين الحروب الصليبيه البرتغالية، حيث أصبح بموجبه لملك البرتغال حق التصرف في عشر واردات كنائس بلاده، وتنازل له البابا عن خمس واردات دولته، وارغم (الكردينالات) على التنازل عن عشر واردات مناطقهم.[2] ولهذا يؤدي الحصول على مزيد من الأموال والإمتيازات مزيداً من الحروب وإظهار النية والعزم على الاستمرار في محاربة المسلمين وغزو بلدانهم.

في عام ٨٦٩هـ / ١٤٦٤م أصدر البابا قراراً تم بمقتضاه تخصيص عشر

---

١) كانت هذه الجماعات العسكرية الأربع قد تكونت في فترات مختلفة للدفاع عن البرتغال، وصد أي هجوم إسلامي عليه، وكانت تستفيد من إقطاعات شاسعة تضمن لها أعداد هائلة من الفرسان، وهذه الجماعات هي :

١ - جماعة المسيح Ordre Christ ، أقدمها وأقواها التي أسست عام ٧١٨هـ /١٣١٨م، والتي أصبحت وقت بداية الكشوف الجغرافية تحت رئاسة الأمير هنري الملاح.

٢ - جماعة «أفيزا Avis» التي تعززت بعد وصول أسرة (أفيزا) إلى حكم البرتغال بعد ثورة عام ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م.

٣ - جماعة Stjacgue L'Epee.

٤ - جماعة St Jean ou de L'Hopital.

لمزيد من التفصيل عن تلك الجماعات انظر :

أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي، ص ١٦٦.

٢) المرجع نفسه، ص ١٥٠.

واردات كنائس البلاد المسيحية لمحاربة المسلمين، على أن يعود النصف للبرتغال، وأن تخصص النصف الثاني لمحاربة العثمانيين، ولكن كل شيء عاد في نهاية الأمر للبرتغاليين وذلك لإخفاق البابا في تجهيز حملة ضد العثمانيين.[1]

لقد التقت مصالح البابوية والبرتغال، حيث كان هذا البلد الصغير سبّاقاً إلى إعلان الحزوب على المسلمين في فترة كثرت فيها مخاوف البابوية من التقدم العثماني في حوض البحر المتوسط ووسط أوربا بعد فتح (القسطنطينيّة) وفي وقت كان البابا يجد صعوبة في جمع كلمة الدول المسيحية ضد المسلمين، لذا فقد أعطى البرتغاليين نوعاً من الاطمئنان للبابا من الناحية الغربية عندما قاموا بحملاتهم الصليبية ضد المسلمين في الأندلس والمغرب، كما أن لجوء ملوك البرتغال إلى البابوية أفادهم كثيراً حيث وفّر لهم الدعم المادي اللازم والغطاء الديني.

استمرت البابوية في منح البراءات للقادة البرتغاليين الذين نذروا أنفسهم لمحاربة المسلمين، فمنح البابا (أوجنيوس الرابع) البراءة الأولى للأمير (هنري الملاح Henry Navigator ٧٩٧ - ٨٦٥هـ / ١٣٩٤ - ١٤٦٠م)[2] ومن سيخلفه حق ملكية البلدان التي تم اكتشافها والتي يمكن

---

١) أحمد بوشرب، دكالة والإستعمار البرتغالي، ص ١٥١؛ ابراهيم شحاته حسن، وقعة وادي المخازن، ص ٢٩.

٢) هو الإبن الثالث للملك (يوحنا الأول Jean I ٧٨٧ - ٨٣٧هـ / ١٣٨٥ - ١٤٣٣م) ملك البرتغال، كان والده قد أرسله في الحملة التي احتلت (سبتة)، والتي كانت معقلاً للمجاهدين المسلمين، ومن ثم عين حاكماً عليها، وكان له برنامج مليء بالمشروعات الصليبية، فقد أراد غزو بلاد المغرب والقضاء على المجاهدين المسلمين، ولكنه أخفق، لذلك ركز على إخضاع الساحل الإفريقي الغربي، ثم الإستيلاء على بلاد غانة ونشر النصرانية، وكان يرى أن الوصول إلى مصادر تجارة التوابل التي هي مصدر

اكتشافها مهما كان اتساعها، أما البراءة الثانية فقد منحها البابا (نيقولا الخامس) للتاج البرتغالي والذي أعطاه حقاً أبدياً في أي أرض يمكن أن تكتشف نظير تخليص الشعوب المكتشفة من الخطيئة (على حد قوله) وغزو جميع البلدان والشعوب التي يسودها أعداء المسيحيين.[1] كما اقتفى أثرهم سائر البابوات في تحمسهم وتشجيعهم ومباركتهم لتلك الجهود. وقد كان من النتائج الأولية للبراءات البابوية الاندفاع الحماسي للبرتغاليين بإحتلال الثغور المغربية.

وقد علق المؤرخ البرتغالي المعاصر (باروس) وكاتب سيرة (هنري الملاح)، والذي أطلق عليه اسم (الأمير المقدس) علق على قرارات البابوية ومنحها البراءات لملوك البرتغال وذلك عندما ذكر إن البابوات هم أرباب كونيون مفوضون بتوزيع البلدان التي لاتخضع لطاعتهم على المخلصين للكنيسة الكاثوليكية.[2]

قوة المسلمين أمر ضروري سيؤدي حتماً إلى إضعافهم، ومن ثم القضاء عليهم. انظر: الشنّاوي، المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية، ص ٦٨٩.

١) أصدر الباب (نقولا الخامس) هذا المرسوم عام ٨٥٨هـ / ١٤٥٤م، ليضع حداً للنزاع الأسباني البرتغالي حول ملكية بعض المناطق المتنازع عليها بينهما من غير أن يحدد موقفه من قضية الملكية تلك، حيث قبل بالصيغة البرتغالية القائلة بأحقيتهم بجميع المناطق غير المعروفة قبل اكتشافات (هنري الملاح). انظر:

Denvers, F.C., The Poruguese in India, vol.I, (London,1894),p.21;

بانيكار. ك. م.، آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبدالرزاق جاويد، دار المعارف، القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م. ص ٢٧.

٢) علي غنّام، البرتغاليون والدين في غزوهم للشرق، مجلة الخليج العربي، المجلد العشرون، العدد الثالث، البصرة ١٩٨٨، ص ١٤.

لقد شكّل هذ ا الدعم المادي والروحي من البابوية حافزاً ل (هنري الملاح) لتنفيذ رغباته وطموحاته التي يأتي في مقدمتها معرفة الأراضي الواقعة خلف جزر الكناري، واستطلاع إمكانية وجود أي ميناء مسيحي أو عاهل مسيحي يمكن بواسطته أن يحقق تجارة مربحة،وتقصّي إمتداد أراضي المسلمين وتتبعهم،واكتشاف أي حاكم مسيحي يرغب في تقديم العون له في حروبه ضد الكفار (أي المسلمين)،والعمل على نشر النصرانية وجلب كل النفوس الراغبة في النجاة من الخطيئة إليها (على حد قوله).[1]

ولبلوغ تلك الأهداف قام (هنري الملاح) بإنشاء مدرسته الملاحية الشهيرة، وفيها أحاط نفسه برجال البحر من ربابنة الملاحة ورسامي الخرائط وعلماء الفلك، وبناة السفن، كما قام بإنشاء المراصد وترجمة التقارير، وتعهد القيام بحملات سنوية تخترق كل منها مجالاً جديداً من العالم المجهول فيما وراء البحار،[2] إن الرغبة في استكشاف أراضٍ جديدة جنوباً على طول الساحل الغربي لإفريقية لأهداف تتعلق بالتجارة والغزو ونشر النصرانية، وكذلك الرغبة في اقتباس أسلوب العدو

---

١) علي غنّام، البرتغاليون والدين في غزوهم للشرق، ص ١٢؛
شوقي عطا الله الجمل، تاريخ كشف افريقية واستعمارها، ص ١٣١؛
نوال حمزة صيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري، منشورات دارة الملك عبدالعزيز، الرياض ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ٧٤ - ٧٥.

2) Strandes, J., The Portuguese Period in East Africa, transletd. J.F. Wallwork ed. J.S. Kirkman, (Narobi, 1961) pp.29-30;
يسري الجوهري، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ص ١٥٩؛ يوسف بن علي الثقفي، دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب على مر العصور، الطبعة الأولى، مكة المكرمة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص ٥٨.

ووسائله في نشر الإسلام ومعرفة مدى هذا الانتشار، هي مجموعة آمال تعلق بها فكر هذا الأمير البرتغالي ودعمتها أسطورة غامضة ذكرت أن هناك امبراطورية مسيحية تقع في وسط إفريقية أو آسيا تسيطر على أراضٍ واسعة، يمكن التحالف معها حتى يتم تطويق بلاد الإسلام والوصول إلى منتوجات الشرق التي تدر على المسلمين أرباحاً طائلة.[1] بذلك تكون الخطط البرتغالية تشمل معظم القارة الأفريقية.

وضع البرتغاليون تلك الخطط موضع التنفيذ، ففي غرب إفريقية استطاع (هنري الملاح) اكتشاف بعض المناطق الساحلية هناك، والتي كانت مرتكزاً لإنطلاقة المستكشفين والمغامرين البرتغاليين إلى داخل القارة، ومحاولة الوصول إلى مملكة مالي المزدهرة تجارياً، والوصول إيضاً إلى مناجم الذهب لتحقيق حلم (هنري الملاح)، وبالتالي نجاحهم في القضاء على تجارة القوافل بين غرب إفريقية وشمالها، وتحويل مسارها من الداخل إلى الساحل حتى يمكنهم السيطرة عليها، وإضعاف المسلمين في تلك المناطق بالسيطرة على تجارتهم.[2] ورغم أنهم أخفقوا في بداية الأمر إلاّ أن جهودهم استمرت حتى بعد وفاة (هنري الملاح)، حيث زادت معرفتهم بالساحل الإفريقي الغربي، واكتشافهم أن إفريقية من المحتمل أن تهيء

---

١) عبدالمجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربي، القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م، ص ١٦٩؛ جمال قاسم، الإستعمار البرتغالي وأثره على العلاقات العربية الإفريقية، بحث في كتاب (العلاقات العربية الأفريقية، دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار، معهد البحوث والدراسات العربية) القاهرة ١٩٧٧، ص ٥٩.

٢) جمس دفي، الإستعمار البرتغالي في إفريقية، ترجمة الدسوقي حسنين، مكتبة الانجلوالمصرية، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م، ص ٣٥؛ جمال قاسم، الاستعمار البرتغالي، ص ٦٠ - ٦١.

لهم مورداً غنياً للرق[1] فقد عبروا خط الاستواء عام ٨٧٦هـ / ١٤٧١م، ووصلوا إلى رأس (كاترين Cape Catherine) عام ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م، كما اكتشفوا مصب نهر الكنغو، واستمروا في استكشافاتهم حتى أصبحوا على مقربة من نقطة التقاء السواحل الإفريقية الغربية بسواحلها الشرقية من خلال رحلة (بارثليمو دياز Barhelomew Diaz) عام ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م.[2]

أما محاولتهم الوصول إلى الامبراطورية المسيحية أو مملكة القس (يوحنا) كما جاء في بعض المصادر، فإذا كان المقصود بها الحبشة وهو الراجح، فقد كان لهم ما أرادوا وذلك عندما وصلت أساطيلهم إلى المحيط الهندي، ونستطيع أن تقف على حجم وأبعاد تلك الاتصالات من خلال الرسالة التي بعث بها (الفونسو دي البوكيرك Avonso De Alboquerqu)[3]

---

١) عرف البرتغاليون الرقيق من خلال بحّارة (هنري الملاح) الذين لجأوا إلى اصطياد الرقيق وبيعه لتغطية تكاليف الحملات التي كانوا يخرجون بها، كما جلبوا هذا الرقيق معهم وبيعه في الأسواق الأوربية التي عرفته لأول مرة رقيقاً مجلوباً من السواحل الإفريقية الغربية، انظر: جمس دفي، الاستعمار البرتغالي في إفريقية، ص ٦٦.

٢) سعيد عاشور، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ج ١، الطبعة الخامسة، القاهرة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، ص ٥٧٠؛ سونياهاو، في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م، ص ١٢٦ - ١٣١.

٣) البوكيرك : هو المؤسس الحقيقي للامبراطورية البرتغالية في الشرق، قدم أول مرة إلى هناك مع احدى الجملات التي جاءت عام ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م، وأثناء إقامته في الهند توصل إلى نتيجة فحواها أنه لايمكن للبرتغاليين فرض سلطتهم وهيمنتهم على تلك المناطق وتحقيق سيادتهم البحرية إلاّ بإحتلال الموانىء التجارية على طول الطريق البحري من رأس الرجاء الصالح والهند و تحصينها. وقد عاد إلى البرتغال يحمل معه هذا التصور الذي عرضه على الملك البرتغالي الذي وافق عليه إضافة إلى سد منافذ التجارة الإسلامية في البحر الأحمر والخليج العربي، ثم عاد إلى الشرق عام ٩١٢هـ / ١٥٠٦م يحمل تفويضاً سرياً بتحقيق تلك الأهداف، وقد بدأ بتنفيذ ذلك عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م فأحتل الساحل العماني وجزيرة هرمز، ثم تولى منصب نائب

نائب الملك بالهند في ١٥١٢/١٢/١٦ إلى ملك البرتغال يطلعه فيها على الأوضاع في الهند، ويخبره بأن الاتصالات جارية مع الحبشة بشأن توحيد الجهود للقيام بعمل مشترك للسيطرة على البحر الأحمر والهجوم على مدينة (مكة) وتخريبها، وبأنه استقبل مبعوث الحبشة وتباحث معه في هذا الشأن، كما يذكر بأنه ليس هناك عقبات تذكر في سبيل الوصول إلى (مكة) لاسيما وأنها ضعيفة وقليلة المحاربين (على حد قوله)، ويعوّل في رسالته على أهمية مساندة الحبشة له في تنفيذ مخططه.(١)

والواقع أن الأتصالات مع الحبشة على هذا النحو قد شجعت البرتغاليين على محاولة تنفيذ مخططاتهم في البحر الأحمر. ففي رسالة أخرى من (البوكيرك) إلى الملك البرتغالي في ١٥١٣/١١/٣٠م يخبره فيها بعزمه على الالتحاق بالبحر الأحمر، والهجوم على ميناء (السويس) لتدمير السفن التي يُذكر أنها تتجمع هناك.(٢) وإذا كان (البوكيرك) قد أخفق

الملك بالهند عام ٩١٥هـ / ١٥٠٩م خلفاً لفرنسسكو دالميدا، ثم بدأ بمهاجمة البحر الأحمر ،وبذلك تكون البرتغال قد قذفت بأعتى رجالها تعصباً ضد الإسلام. والجدير بالذكر أن البوكيرك قد عمل منذ كان صغيراً على محاربة البلاد الإسلامية، وذلك باشتراكه في الحملا ت البرتغالية على السواحل المغربية، وقد توفي في (جوا) عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م. انظر:

Sousa, F., The Portuguese Asia or the History of the Discovery and conquest of Indi by the Portuguese , translated into English by Cap John Stevens, vol. I, (London, 1695 - 1894). p. 139;

آرنولد ولسون، تاريخ الخليج، ترجمة محمد أمين عبدالله، وزارة التراث والثقافة بعمان، الطبعة الثانية، مسقط ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص ٦٤ - ٦٥.

١) أحمد بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي، مجلة الوثيقة، العدد العاشر، السنة الخامسة، البحرين، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧، ص ١٦٠.

٢) المصدر نفسه، ص ١٦٧.

بالتعمق في البحر الأحمر أو الوصول إلى (السويس) فقد نجح بالهجوم على (زيلع) في إطار مساندته للحبشة.

وتشير المصادر إلى أن مبعوث الحبشة الذي استقبله (البوكيرك) هو (ماثيو Mathiou) الذي كان مبعوث ملكة الحبشة (هيلانة Hilana) إلى نائب الملك البرتغالي بالهند، ويحمل رسالة أيضاً إلى ملك البرتغال، والتي عرضت فيها الملكة (هيلانة) تقديم العون والمساعدة بالرجال والعتاد للقضاء على الكفار (أي المسلمين)، وشكت له من خطر الإمارات الإسلامية المحيطة بالحبشة، كما حذرته من أن المسلمين في مصر سيهاجمون البرتغاليين وإنها على استعداد لمساعدتهم، وأيضاً ذكرت في رسالتها أنه قد آن الأوان لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك مسيحي يستطيع أن يبيد الأمم الإسلامية المتبربرة.[1] وهذه الرسالة توضح مدى رغبة الجانبين في تحقيق تحالف بينهما ضد المسلمين، كما أن حرص البرتغاليين على إقامة مثل هذه الإتصالات، وما أحدثه وصول (ماثيو) إلى البرتغال[2] من صدى يعكس فرح البرتغاليين بقرب تحقيق الحلم القديم

---

١) عبدالمجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، ص ٩١ ؛ سعيد عاشور، أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مجلد ١٤، القاهرة ١٩٦٨، ص ٤٢؛ محمد عبداللطيف البحراوي، فتح العثمانيين، عدن، دار التراث، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ٦٥ - ٦٦.

٢) توجه (ماثيو) من (جوا) بالهند إلى (لشبونه) على متن إحدى السفن البرتغالية، وهناك قابل ملك البرتغال، وقد أحدث وصوله إلى (لشبونه) صدىً كبيراً في الأوساط البرتغالية، حيث كانوا يعتقدون أنهم بذلك باتوا على وشك تحقيق هدفين هما: تحويل الحبشة إلى المذهب الكاثوليكي، وتحقيق أهدافهم الصليبية والاقتصادية في البحر الأحمر عن طريق التعاون مع الأحباش، ولذا فقد وافق ملك البرتغال على تقديم المعونة للحبشة في صراعها مع المسلمين، انظر: البحراوي، فتح العثمانيين عدن، ص ٦٦ ، ٦٧؛ غسان علي الرمّال، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، الطبعة الأولى، جدة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م، ص ٨٣، ٩٠.

برؤية مبعوث خاص من القديس (يوحنا) يعطينا دلالة أكيدة على قوة الدافع الديني للكشوف الجغرافية البرتغالية.

ولذا فقد تعهد البرتغاليون بدعم الحبسة ضد المسلمين والهجوم على (زيلع)[1] والقضاء على المسلمين المتمركزين فيها، وقد يكون هجوم القائد البرتغالي ونائب الملك بالهند (لوبو سواريزLopo Soirz) على ميناء (زيلع) وإحراقه عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م يدخل ضمن الاتفاق بين الطرفين، وكان (سواريز) قد حاول الهجوم على ميناء (جده) عدة مرات ولكن الرياح العاتية لم تمكنه من بلوغ هدفه.[2]

وتجدر الإشارة إلى أنه سبق الجهود البحرية البرتغالية في الشرق جهودٌ سريّة لجمع المعلومات عن أوضاع الشرق، ودراسة ومعرفة مصادر تجارة التوابل، وطرق تلك التجارة عبر العالم الإسلامي، لذا فقد أرسل ملك البرتغال (يوحنا الثاني ٨٨٦ - ٩٠١هـ / ١٤٨١ - ١٤٩٥م) إثنين من أتباعه

---

١) زيلع : تقع على الساحل الغربي لباب المندب، وقد كانت إبان الغزو البرتغالي تابعة لإحدى امارات الطراز الإسلامي، وكانت من المراكز التجارية الرئيسة في البحر الأحمر، والتي تصل إليها بعض تجارة المحيط الهندي، وكانت تمثل قاعدة جيدة لتموين السفن ولهذا فكر البرتغاليون في احتلالها، حيث إن بناء قلعة برتغالية فيها سوف يمكّن البرتغاليين في البحر الأحمر وكذلك الأماكن الإسلامية المقدسة في مكة والمدينة المنورة، انظر :

Sousa, F., Op.cit, vol, I, p.233;

البحراوي، فتح العثمانيين عدن، ص ٨٠.

٢) ابن الحسين يحي بن القاسم، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عاشور، ج ٢، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م، ص ٦٤٠ ؛

Trimingham, S., Islam in Ethiopia, (London, 1952), p.84.

إلى بيت المقدس، ولكن عدم معرفتهما باللغة العربية أدى إلى إخفاق تلك المهمة، ثم أرسل الملك أمين سره (كوفلهام Covilham) على رأس بعثة غادرت (برشلونه) عام ٨٩٢هـ / ١٤٨٦م قيل إلى (نابولي) بإيطاليا، وقيل إلى جزيرة (رودس)، حيث انطلقت تلك البعثة إلى (القاهرة) ثم اتجهت إلى (عدن)، ومن هناك انقسمت البعثة إلى قسمين، قسم توجه إلى الحبشة، والآخر إلى الهند، وترأس هذا القسم (كوفلهام) نفسه، حيث زار أهم الحواضر على ساحل الهند الغربي.[1] ثم عرج في طريق عودته على (هرمز)، ومنها توجه إلى البحر الأحمر حيث زار (زيلع) على الشاطىء الإفريقي وسار بمحاذاته حتى وصل (سفالة) في أقصى الجنوب، ثم توجه بعد ذلك إلى (القاهرة) حيث بعث بحصيلة معلوماته إلى بلاده. عاد بعدها إلى (هرمز) ثانية ومنها إلى (عدن) ثم إلى الحبشة حيث انقطع ذكره.[2]

وهكذا تمكنت هذه البعثة من الحصول على ظروف وطبيعة تجارة الشرق من حيث حجمها وأنماطها، وليس من المستبعد أنها حصلت على خارطات عربية عن المحيط الهندي، ومعلومات مفصّلة عن طرق الملاحة والرياح الموسمية في هذا المحيط، ويعزز هذا القول ماذكره (الفاريز Alvarez) من أن (كوفلهام) سأله عمّا إذا كان للخرائط التي أرسلها مع المبعوث اليهودي (يوسف لاميجو) قبل ثماني عشرة سنة بعض الفضل فيما تحقق للبرتغاليين من مكاسب في الشرق، وقد كان ذلك أثناء تمثيل (الفاريز) لبلاده في بلاط ملك الحبشة خلال الفترة من ٩٢٧ - ٩٣٣هـ /

---

1) Alvarez, F., Narrative of the Portuguese Embassay in Abyssinia during the years 1520 - 1527, Transl. F. Stanly, (London, 1881), p. 268;

جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٢١٤ - ٢٤٣.

2) Alvarez, F., op.cit, pp. 270 - 96.

١٥٢٠ - ١٥٢٦م.[١]

إن بعثة (كوفلهام) لها أهمية بالغة، حيث إنها تمثل الطلائع الأولى للغزو الصليبي إلى البحار الشرقية، كما أنها فتحت عيون الأوربيين وبخاصة البرتغاليين على مناطق كانوا يجهلونها في السابق، وإلاّ فكيف يجرؤ أسطول برتغالي لايملك الوسائل الكافية للدفاع عن نفسه أن يدخل البحار الإسلامية لولا علمه بخلو تلك البحار من أي قوة بحرية إسلامية، وبالتأكيد فإن رسائل (كوفلهام) إلى ملك البرتغال وماتضمنته من وصف لبلاد الشرق وثرواته قد شحذت الهمم وقوّت العزيمة، وقد أسهمت تلك الجهود في نجاح البرتغاليين في الوصول إلى بحار الشرق، وتهديد الأماكن الإسلامية المقدسة واحتكار التجارة.

لقد كشف ملك البرتغال (عما نويل الأول ٩٠١ - ٩٢٨ هـ / ١٤٩٥ - ١٥٢١م) وهو يودّع أول حملة بحرية متجهة إلى الشرق عن وجهه الصليبي السافر، وحدد في خطبة طويلة أغراض الحملة قائلاً: (إن الغرض من اكتشاف الطريق البحري الجديد إلى الهند هو نشر المسيحية والسيطرة على تجارة الشرق وثرواته وحرمان المسلمين منها).[٢]

وهنا نرى أن أي تقليل من شأن الدوافع الدينية لحركة الكشوف

---

1) Ibid.

الجدير بالذكر أن (الفاريز) أُرسل في سفارة من ملك البرتغال إلى بلاط الحبشة حوالي عام ٩٢٧هـ / ابريل ١٥٢٠م ولبث فيها ست سنوات تقابل خلالها مع (كوفلهام) الذي قص له أخباره وزوده ببعض المعلومات، وهذه السفارة تمثل أول بعثة معروفة من أوربا قد وصلت إلى بلاط الحبشة وعادت بسلام، ذلك لأن مثل هذه السفارات لم يكن يسمح لها في الغالب العودة إلى بلادها مرة أخرى، كما حدث (لكوفلهام) الذي بقي في الحبشة قرابة ثلاثين سنة وتوفي فيها.

٢) جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٢٠٩.

الجغرافية البرتغالية لهو أمر ينافي الواقع، بل يتعارض مع الحوادث التاريخية في تلك الفترة.

وقد علق (جيان) على أول رحلة بحرية برتغالية تصل إلى المحيط الهندي بقوله: «إن الغرض من حضور فاسكو دي جاما إلى بحر الهند هو أن يحارب الصليب الهلال في أقصى بقاع المعمورة، أو أن تحارب روما مكة في مكان يبعد بأكثر من ألف وخمسمائة فرسخ من الميادين المألوفة لاقتتالهما.»[١] ولذلك عندما طلب السلطان المملوكي آنذاك من البابا أن يكف البرتغاليون عن حرب المسلمين الذي قام بدوره بتقديم هذا الطلب إلى ملك البرتغال مضيفاً عليه أن ذلك فقط ريثما تتحسن العلاقات بين المماليك ودول البحر المتوسط، رد عليه الملك البرتغالي (عمانويل) أنه سوف يجعل (مكة) هدفاً لمدافعه وجنوده، بل أكد للبابا أنه يتعين على الدول الأوربية النصرانية إن هي أرادت تخليص الأماكن المسيحية المقدسة أن توحد صفوفها تحت قيادته.[٢] وباعتقادي أن طلب السلطان المملوكي هذا يظهر مدى الضعف الذي يعانيه المماليك في مصر لاسيما أن البابوية كما ذكرنا سابقاً قد تعهدت الجهود البرتغالية برعايتها الروحية والمعنوية، كما أنه يعكس حجم الأخطار التي بدأت تتهدد النفوذ السياسي والتجاري المملوكي في المحيط الهندي والبحر الأحمر، ناهيك عن الأخطار التي بدأت تتهدد الأماكن المقدسة الإسلامية.

---

١) وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٢٥٠.

2) Budje, W., A History of Ethiopia, vol. I, (London, 1928) p.189; محمد مصطفى زيادة، مصر والحروب الصليبية، من رسائل الثقافة العسكرية رقم ٣٩، القاهرة ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م، ص ١٦؛ أحمد السيد دراج، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري، دار الفكر العربي، القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م، ص ١٣٦.

وتظهر الروح الصليبيّة البرتغالية بصورة عملية في سلوك البرتغاليين مع المسلمين في المناطق الإسلامية التي سيطروا عليها، وقد أشار إلى ذلك مؤرخون مسلمون معاصرون، فقد ذكر (زين الدين المليبادي) ذلك بقوله: «إن بغيتهم العظمى وهمتهم الكبرى قديماً وحديثاً تغيير دين المسلمين وادخالهم في النصرانية، وفعلوا فعائل قبيحة شنيعة لاتحصى من ضربهم للمسلمين والاستهزاء بهم وإحراق بلادهم ومساجدهم ووطي المصاحف والكتب بأرجلهم واحراقها بالنار، وهتك حرمات المساجد، وإجبار المسلمين على السجود لصليبهم، كما عطّلوا أسفار الحج.»[1]

إن البرتغاليين لم يكن لديهم من سبيل إلى تحقيق أحلامهم في بناء حضارة نصرانية في الشرق يدمرون من خلالها عصب الاقتصاد الإسلامي، إلاّ أن يجدوا طريقاً يوصلهم إلى الهند دون أن يمر بديار المسلمين، الأمر الذي دفعهم إلى الدوران حول القارة الإفريقية والسيطرة على المداخل التقليدية للبحار العربية - البحر الأحمر - الخليج العربي ، وبذلك وضعوا حداً للتجارة العربية والإسلامية، بل حرموا المسلمين من المورد الاقتصادي الذي كانوا يستطيعون عن طريقه تكوين وتمويل قواتهم العسكرية التي يحاربون بها الصليبيّة سواء في المحيط الهندي أو في سواحل إفريقية الشرقية والغربية.[2] لذا فقد نظر البرتغاليون ومنذ

---

١) المليباري أحمد زين الدين بن عبدالعزيز المعبري، تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين، حققه وعلق عليه، محمد سعيد الطريحي، مؤسسة الوفاء، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ٢٦٢.

2) Low. C.R., History of the Indian Navy 1613-1863, vol.I, (London,1877) pp.34-9;

يوسف الثقفي، موقف المماليك ودول الخليج العربي من النفوذ البرتغالي في القرن السادس عشر، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، ج ١، رأس الخيمة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص ١٤٧؛ محمد عارف الكيالي، الأسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالي في الخليج العربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر، مجلة الوثيقة، العدد الرابع عشر، البحرين ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص ١٠٩.

الوهلة الأولى إلى كل من يخالفهم في العقيدة على أنه عدو للسيد المسيح تجب محاربته و القضاء عليه.

لقد كانت محاربة المسلمين وتحطيم تجارتهم وتدنيس مقدساتهم هي الهدف الرئيس للحروب الصليبية البرتغالية، بل كان المسلمون في نظر البرتغاليين هم الأعداء الحقيقيين إن لم يكونوا الوحيدون، ويرى الفرد البرتغالي ولافرق في ذلك بين الملك والنبيل أو الشخص العادي، أن محاربة المسلمين ضرورة يحتمها الدين والوطن، ويعقّب (بانيكار) - وهو أحد الباحثين في تاريخ التوسع الأوربي في آسيا - على هذا الأمر قائلاً: «سيظل الشيء الكثير من تصرفات البرتغاليين في آسيا غامضاً لاسبيل إلى تفسيره مالم نتذكر هذه الحقيقة على الدوام.»[١] وعندما نجح (فاسكو دي جاما) في الوصول إلى الهند وعاد إلى البرتغال، أثار إنجازه هذا موجة عارمة من الفرح والتفاؤل، وأعتبر ذلك نصراً مبيناً للنصرانية على الإسلام، وهذا مادفع البابا (اسكندر السادس ٨٩٨ - ٩٠٩هـ / ١٤٩٢ - ١٥٠٣م)[٢] أن يصدر قراراً منح فيه (عما نويل) ملك البرتغال الحق المطلق في غزو وقهر وفتح جميع البلدان الواقعة تحت أعداء المسيح مسلمين كانوا أم وثنيين.[٣]

---

١) آسيا والسيطرة الغربية، ص ٢٥.

٢) كان هذا البابا من أصل اسباني، وقد أظهر ميلاً نحو أسبانيا في أعقاب اكتشاف (كولمبس) لأمريكا، وخصّها بكل الأراضي المكتشفة أو التي ستكتشف على بعد أكثر من (١٠٠) فرسخ غربي أو جنوب جزر الرأس الأخضر، ولهذا ثارت ثائرة البرتغاليين، لأن هذا المرسوم حرمهم من حقهم المعترف به من قبل البابوات السابقين منذ أمد بعيد، وعندها تحرك ملك البرتغال (جوا الثالث) لمفاوضة القشتاليين، وبفضل الحجة والرشوة حصل على تسوية مغايرة تماماً لذلك المرسوم البابوي. انظر: علي غنّام، البرتغاليين والدين في غزوهم للشرق، ص ١٩.

٣) بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، ص ٢٥ - ٢٦.

إن الهدف البعيد للصليبية المتمثلة في الغزو البرتغالي، هو قص جناحي العالم الإسلامي في محاولة ماكرة للإجهاز على المقومات الروحية والقضاء على لغة القرآن.

ونختتم حديثنا عن الدوافع الدينية للغزو البرتغالي بالرسالة التي بعث بها الملك البرتغالي (عما نويل الأول) إلى أسقف (برافا) في ١٥٠٨/٨/١٦م والتي بشّره فيها بالانتصارات الهائلة التي حققها البرتغاليون في ساحل شرق إفريقية، ويخبره بنتائج هذا النجاح المبكر الذي سيؤدي حتماً (على حد قول الملك) إلى حرمان التجار العرب من أرباح الهند والشرق الأقصى التي تساعدهم على حربنا، كما ذكر له في تلك الرسالة أيضاً بالضربة التي ستواجه المسلمين نتيجة هذا الانتصار وهذا النجاح، الذي لابد وأن يودي إلى انتصار كبير على الإسلام.[1] ورغم أن هذه الرسالة تتعرض لعمليات الربح والتجارة، إلاّ أنها تعطي أولوية للعامل الديني، كما تعطي أيضاً للتوسع البرتغالي في الشرق صبغةً صليبيّةً محضة.

الدوافـع الاقتصاديـة :

ترتبط الدوافع الاقتصادية للغزو البرتغالي ارتباطاً وثيقاً مع الدوافع الدينية لدرجة يصعب التفريق بينهما، فقبل وصول البرتغاليين كانت تجارة الشرق الأقصى والهند بيد المسلمين وأغلبهم من العرب - من جنوب وغرب الجزيرة العربية والخليج العربي -، وكانت الطرق الرئيسة البرية والبحرية تمتد من الهند إلى (هرمز) وأعالي الخليج العربي ووادي الرافدين ثم (حلب) في الشام، أو عبر الخليج جنوباً وغرباً إلى (عدن

---

١) أحمد بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية، ص ١٦٣.

وجدة) ثم مصر عبر البحر الأحمر ومن ثم نقلها إلى أوربا.[1] كما اضطلع العرب بتوزيع منتجات الشرق الأوسط وأوربا وسواحل شرق إفريقية بين موانى المحيط الهندي.[2]

لقد كانت البرتغال مدركة تماماً بأنها لن تستطيع المشاركة في أرباح التجارة الشرقية والغاء وساطة المسلمين لتلك التجارة طالما أن الحركة الدائمة لها تمر عبر الأراضي الإسلامية وتقوي من شوكتهم بما تدر عليهم من أرباح.[3] لأجل ذلك فكر البرتغاليون بجدية ونشاط في البحث عن طريق آخر يوصلهم إلى الهند، ليتمكنوا من السيطرة على تلك التجارة بغرض الحصول على فوائد مزدوجة، وهي تقوية مركزهم سياسياً واقتصادياً إضافة إلى إضعاف المسلمين بحرمانهم من تلك التجارة تمهيداً للقضاء عليهم.[4] والواقع أن الموقع الجغرافي للبرتغال، حيث تتميز بشواطئها الطويلة

---

١) ابن إياس محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ج ٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ٩٠ ؛ نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ط٢، القاهرة، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م، ص ٣٠٠؛ حمود محمد النجيدي، الموارد المالية لمصر في عهد الدولة المملوكية الأولى، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص ٦٢.

2) Serjeant, R.B., op.cit, p.11.

٣) إبراهيم طرخان، مصر في عصر المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م، ص ٢٩٣؛ جمال حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الهلال القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م، ص ٦٥؛ بشير حمود كاظم، الكشوف الجغرافية البرتغالية، مجلة الوثيقة، العدد الثاني عشر، السنة السادسة، البحرين ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص ١٢ - ١٤.

٤) لوبينز. د، التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية في الغرب، ترجمة توفيق اسكندر، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م، ص ١٤١.

على المحيط الأطلسي، واتصالها المبكر بالمراكز التجارية الإيطالية ذات العلاقة التجارية مع الشرق، بالإضافة إلى تقدمهم في فن الملاحة جعلها مؤهلة للقيام بدور رئيس في حركة الكشوف الجغرافية.[1]

إن انغلاق الاقتصاد الأوربي وبخاصة بعد الفتح العثماني للقسطنطينية حيث باتوا يسيطرون على الطريق البري الوعر، والذي كان يمتد عبر أواسط آسيا وحتى الأناضول، والذي كان الأوربيون يعتمدون عليه في تجارتهم مع الشرق في حالة الإضطرابات السياسية التي كانت تتعرض لها معابر التجارة الرئيسة الأخرى البحر الأحمر - والخليج العربي،[2] إضافة إلى إقصاء الكارمية[3] عن تجارة البحر الأحمر، أدى إلى خسارة المدن التجارية الإيطالية مركزها الاقتصادي، يضاف إلى ذلك سياسة المماليك الإقتصادية التي افقدت ماتبقى لتلك المدن من أفضليّة في

---

١) نوال صيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج، ص ٧٥.

٢) شارل ديل، البندقية جمهورية أرستقراطية، ترجمة توفيق إسكندر وأحمد عزت عبدالكريم، دار المعارف، القاهرة، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م، ص ١٤٨.

٣) الكارميّة مجموعة من التجار الذين سيطروا على تجارة التوابل من الهند والشرق الأقصى، واكتسبت هذه السلعة أهميتها نظراً لكونها من السلع الرئيسة التي تستوردها أوربا عن طريق مصر، كما أن نسبة الربح فيها كانت عالية، لذا فقد اشتهر عن المتاجرين بها الثروة والمال، وقد أدى ذلك إلى فرض ضريبة على هذه السلعة والمتاجرين بها من قبل الدولة المملوكية، رغم أن من سبقوهم كانوا يفرضون ضرائب على هذه التجارة، ولكن المماليك استحدثوا ضرائب أخرى عليها، حتى وصل الأمر إلى نقل تلك التجارة إلى سلطة الدولة أثناء حكم السلطان المملوكي الأشرف برسباي.

لمزيد من التفصيل عن هذه الطائفة انظر :

المقريزي تقي الدين أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٤٢، ص ٢٦٧ ؛ الشاطر بصيلي عبدالجليل، الكارميّة، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الثالث عشر، القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ص ٢١٨.

التعامل مع تجارة الشرق، وذلك بفرضها رسوماً عالية على تجارة التوابل المارة بالأرضي المصرية.[1] كل ذلك دفع الدول الأوربيّة إلى التطلّع إلى طريق آخر يوصلهم إلى مصادر تجارة الشرق، ويتخلصون به من وساطة المسلمين في تلك التجارة، فضلاً عن تعرض تجارتهم للأخطار في أحيان كثيرة بسبب الإضطرابات السياسية التي كان يتعرض لها الشرق الإسلامي أحياناً، وأيضاً بسبب ماكان يقوم به تجار البندقية من مغالات في وساطتهم التجارية، حيث تصل تلك التجارة إلى أوربا بأثمان باهظة.[2]

والواقع أن سلاطين المماليك في تلك الفترة لم يقدّروا الدور الاستراتيجي الذي كانت تقوم به مصر في التجارة الدولية، وأهمية هذه التجارة للاقتصاد المصري وإلاّ ماذا يعني أن يفاجأ المماليك بوصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي ويهدّدوا مصادر التجارة الشرقية الهامة لمصر ومن ثم يتم تحويل مسارها إلى طريق رأس الرجاء الصالح في ظل غياب عسكري وأمني مملوكي في تلك المناطق ؟ لقد كان من المفترض أن يكون للمماليك وجود عسكري فاعل في البحر الأحمر يحافظ على سلامة وأمن مصادر تلك التجارة ومرورها من معابرها الرئيسة،[3] وقد يقول قائل

---

١) القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد، ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر، مطبعة الواعظ، القاهرة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م، ص ٢٥٣؛ نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية، ص ٣٠٦؛ منى إبراهيم عبدالرحمن، السفارات الأجنبية في مصر في عهد سلاطين المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، رقم ١٤٣٦، جامعة القاهرة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، ص ٣٧ - ٣٨.

٢) شارل ديل، البندقية جمهورة أرستقراطية، ص ١٤٩.

٣) يجدر بالذكر أن الدولة المملوكية الأولى ٦٤٨ - ٧٨٤هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢م أدركت أن مصر معبراً تجارياً هاماً فيما بين أوربا وإفريقية والهند، وشجع سلاطينها هذه التجارة بشكل كبير، كما قاموا باتخاذ عدد من الخطوات التي أهلت دولتهم لأن تلعب دور الوسيط بين تجارة الشرق والغرب، وكان من بين تلك الخطوات التي اتخذها

إن مصر لم يسبق أن تعرضت للخطر من الجنوب. فالخطر دائماً يأتيها من الشمال والشرق، وأقول إن المماليك كان يتعين عليهم في تلك الفترة أن يكونوا على علم ودراية بالجهود البحرية البرتغالية ومحاولاتها المتكررة للدوران حول القارة الإفريقية لاسيما أن لهم علاقات تجارية مزدهرة مع أوربا وغرب إفريقية وعن طريق ذلك كان من الممكن العلم بالجهود البرتغالية المحمومة، وفي يقيني أنه لو كان للمماليك اسطول عسكري في البحر الأحمر قبل وصول البرتغاليين لأمكنهم إجهاض الحملات البرتغالية قبل تعاظمها، وقبل أن تبدأ بالتتابع إلى الشرق وترسيخ وجودها، أو على الاقل أن يؤدي هذا الوجود المملوكي إلى عرقلة التقدم البرتغالي ريثما يتم التقاط الأنفاس، ولكن الوضع المتردي الذي كانت تعيشه الدولة المملوكية في تلك الفترة أدى إلى هذه النتيجة.

لقد كان من الضروري أن يشعر البرتغاليون قبل غيرهم بفداحة الأسعار والرسوم التي كان يفرضها المماليك وتجار البندقية، وبخاصة أن البرتغال بعيدة عن الأسواق الإيطالية ومن ثم كان واضحاً أن اكتشاف طريق بحري مباشر بين أوربا والهند سيدر أرباحاً عظيمة ويهيىء مكانة مرموقة لمن يستطيع ذلك، وكان للبرتغاليين الدور الريادي في اكتشاف ذلك

سلاطين المماليك ماقام به (الظاهر بيبرس) من حماية لطرق التجارة القادمة إلى مصر من الجنوب حيث تسكن قبائل الأعراب، وماقام به ضد حاكم (سواكن) و (دهلك) من حملات وفّرت الحماية للتجارة العابرة إلى مصر مما أدى إلى نشاط التجارة القادمة من الشرق إلى الموانىء المصرية عبر البحر الأحمر.

لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نسخة مصورة عن مطبعة الأميرية مطابع كوستاتوماس وشركاه ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م، ج ١١، ص ٤١ - ٤٢؛ عبدالعزيز الخويطر، الملك الظاهر بيبرس، دار الأصفهاني، الطبعة الأولى، جده ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، ص ١٤٠ - ١٤١ ؛ حمود النجيدي، الموارد المالية لمصر في عهد الدولة المملوكية الأولى، ص ٤٩ - ٥٠.

الطريق.

إن البرتغال هي الدولة البحرية الأولى التي حاولت الحصول على أكبر قدر ممكن من الارث الإسلامي في اسبانيا، وجهود العلماء المسلمين في ميدان الملاحة والفلك، وصناعة السفن، وكذلك التجارة البحرية،[1] كما تخلصوا من الخرافات والأساطير التي كانت تطغى على علومهم البحرية وتغلف أذهانهم، وبذلك بدأ التحول المريع في سير تجارة الشرق، فمنذ سيطرة البرتغاليين على بحار الشرق، بدأوا في تطبيق سياسة الاحتكار، حيث عمدوا إلى حرمان القوى البحرية الإسلامية من المشاركة بنصيب في تلك التجارة، وصارعهم البرتغاليون بعنف وقسوة.[2] لذا فإن وصول البرتغاليين إلى بحار الشرق يعد خاتمة العصر الذهبي للملاحة الإسلامية في تلك الجهات والتي أشار إليها (ابن إياس) عندما ذكر أن وصول هؤلاء

---

١) زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة كمال الدسوقي وفاروق بيضون، دار النهضة العربية، بيروت ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م، ص ٤١٨ - ٤١٩؛

Grenville, F., Select Decuments the East African Coast;
(Oxford, 1962), .53;

علي غنّام، أحداث فاصلة في إحلال النفوذ الأجنبي في الخليج، مجلة الخليج العربي، العدد الثالث، البصرة ١٩٨٥، ص ١٠.

وتجدر الإشارة إلى أن البرتغاليين قد وجدوا في اليهود وسيلة لنقل علوم العرب الملاحية إليهم، فعندما قام الأسبان بطرد اليهود من غرناطة بعد سقوطها عام ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م، لجأ هؤلاء وعددهم يقارب (١٢٠ ألف) إلى البرتغال، ونقلو معهم علوم العرب الملاحية، التي كانوا قد ترجموها إلى العبريّة، والتي اشتملت على كثير من علوم الملاحة وبخاصة الجداول الفلكية وعلم المرشدات الملاحية، وكان لذلك أثره في تقدم البحرية البرتغالية. انظر: أنور عبدالعليم، ابن ماجد الملاح، أعلام العرب، العدد ٦٣، القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ص ٥٧؛ الرمّال، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص ٦٢.

٢) المليباري، تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين، ص ٢٧١.

وصراعهم مع المماليك أدى إلى الإضرار بثروات البلاد، كما عادت أساليبهم بالخسارة الكبيرة على موانئ البحر الأحمر، وكذلك على التجار بمصادرة تجارتهم.[1]

لقد انبهر البرتغاليون منذ البداية لمّا رأوا ضخامة الأرباح التي يمكن أن يحققوها من وراء اشتغالهم بتجارة الشرق، وقارنوا بين أسعار التوابل في ساحل الهند الغربي، وبين أسعارها في سوق الإسكندريّة.[2] فدفعهم رخص أسعار البضائع الهندية في مصادرها الأصلية إلى أن يواصلوا جهودهم لاحتكار هذه التجارة وانتزاعها من أيدي المسلمين، فحرصوا على تكثيف حملاتهم البحرية إلى هناك، وعندما عرضوا تلك البضائع في أسواق (لشبونة) بأسعار رخيصة، انجذب التجار الأوربيون

---

١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٨٥؛
ولمزيد من التفصيل عن تدهور الأوضاع الاقتصادية في نهاية العصر المملوكي انظر: سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م؛ حمود النجيدي، النظام النقدي المملوكي ٦٤٨ - ٩٢٢هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٢) بدأت الأسواق الأوربيّة تزخر ببضائع الشرق الرخيصة الثمن عن طريق لشبونة، فقنطار الفلفل الذي يباع بالإسكندرية بـ (٨٠) دوكاً عرضته البرتغال في أسواقها بـ (٤٠) دوكاً، وبذلك تمكن الأوربي من الحصول على مايحتاجه من التوابل بثمن رخيص جداً إذا ماقورن بالثمن الذي كان يعرضه تجار ايطاليا. و (الدوكات) هي العملة الذهبية لجمهورية البندقية، وكانت سائدة في أسواق مصر والشام نظراً للعلاقة التجارية بين تجار البندقية وأقاليم الدولة المملوكية، كما أنها معروفة أيضاً في أنحاء أوربا المختلفة نسبة إلى نشاط البندقية التجاري. انظر: شارل ديل، البندقية جمهورية أرستقراطية، ص ١٤٦؛ أحمد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ١٤٦ ومابعدها؛ حمود النجيدي، النظام النقدي المملوكي، ص ٤٧٩.

إليها، وحقق البرتغاليون أرباحاً طائلة نتيجة ذلك.[1] لذا أصيبت التجارة العربية والاسلامية بأضرار فادحة نتيجة تحويل مسار التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح، ولحقت هذه الأضرار بالمدن الإيطالية أيضاً.

لهذا شرع البرتغاليون حال وصولهم إلى بحار الشرق مبتدئين بالإمارات والمدن الإسلامية في ساحل شرق إفريقية، شرعوا في بناء مراكزهم التجارية هناك وكذلك في الهند، وأضحت السيطرة في المحيط الهندي من نصيبهم، وذلك بالاستيلاء عنوة على معظم موانئها الرئيسة، ودأبوا على مهاجمة السفن العربية التي تعمل بالتجارة هناك ونهب بضائعها واغراقها وقتل من فيها.[2] وليس أدل على ذلك من قصة السفينة (مريم) العائدة من الحج وهي تحمل (٣٨٠) راكباً متوجهةً إلى الهند عندما اعترضتها بعض السفن البرتغالية قرب ساحل (ملبار)[3] ومن ضمن ركابها عدد كبير من النساء والأطفال، فسلب البرتغاليون مافيها ثم أحرقوها بمن فيها، ويصف أحد البرتغاليين هذه المأساة بقوله: لقد استولينا على السفينة (مريم) العائدة من مكة والتي كان على ظهرها (٣٨٠) راكباً، وكان بينهم كثير من النساء والأطفال، واستطعنا سلب (١٢،٠٠٠) دوكاً منها نقداً، كما سلبنا ماقيمته (١٠،٠٠٠) دوكات من السلع، ثم أحرقنا السفينة مع جميع

---

١) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية، ص ٧٦.

٢) ابن الديبع أبي الضياء عبدالرحمن بن علي، قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ج ٢، القاهرة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، ص ٢٠٦.

٣) يحتل إقليم مليار الجزء الجنوبي الغربي من ساحل الهند الغربي، وهو اقليم خصب تكثر فيه التوابل، وبه كثير من الموانىء الهامة مثل (كاليكوت - كوشين - كنانور)، وينقسم الساحل في ذلك الوقت إلى عدد من الوحدات السياسية الصغيرة، وهو يشرف على ساحل بحر العرب، ويعرف الآن باسم (كيرالا KERALA) انظر: أحمد الساداتي، المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، ج ١، مكتبة الآداب، القاهرة، بدون، ص ٢١٨، ٢٢٥.

من كان على ظهرها.[1]

وهذا يعكس القسوة البرتغالية المتناهية ضد السفن الإسلامية دون تفريق بين التجارية منها وغير التجارية.

لقد أخذ البرتغاليون يسعون إلى إغلاق منافذ البحار الهندية في وجه التجارة العربية والإسلامية، وبذلك سيطروا على مراكز المسلمين في الشاطئين الإفريقي والهندي وفي (هرمز) على الخليج العربي، ومنافذ البحر الأحمر، توطئة لتحويل التجارة تدريجياً إلى مراكزهم التجارية، ولذا تكون خطتهم دفع العرب إلى بحارهم الداخلية وإغلاقها عليهم.[2]

أما بالنسبة إلى شرق إفريقية، فإفريقية كلها لم تكن في البداية هدفاً برتغالياً من الناحية الاقتصادية يماثل الهند بالرغم من كونها هدفاً دينياً، وإنما بالنسبة إلى البرتغاليين وسيلة للوصول إلى الهند، غير أن نظرة البرتغاليين تجاه شرق إفريقية قد تغيّرت تغيراً جذرياً بعد وصولهم إليها، إذ رأوا فيه أنه يتيح لهم مزايا اقتصادية ودينية،[3] فقد وجدوا فيه إسلاماً ذا جذور عميقة، ومجتمعات إسلامية ترفض الولاء لهم فقرروا القضاء عليه، وشرعوا في نشر النصرانية بكل السبل حتى يخلقوا لهم مراكز تدين بالولاء لهم فأنشأوا الكنائس والمراكز التنصيريّة، وتدفق المنصرون في

---

1) Jayne, K.G., Vasco De Gama and His Successors 1460-1580, (London, 1970), p.65.

٢) حراز، افريقية الشرقية والإستعمار الأوربي، ص ١٤؛ يوسف الثقفي، دراسات متميزة بين الشرق والغرب، ص ٦١-٦٢.

٣) جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٣٢٢؛ بازل دافدسن، إفريقية تحت أضواء جديدة، ترجمة جمال أحمد، دار الثقافة، بيروت ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م، ص ٢٦٣.

ركاب الحملات العسكرية.[1] وكان هذا بالنسبة لهم مكسباً دينياً.

كما وجد البرتغاليون أيضاً في ساحل شرق إفريقية اقتصاداً مزدهراً وتجارة راقية في مختلف السلع، فاحتكروا تلك التجارة، وفرضوا على السكان عدم التعامل مع غير البرتغاليين، كما استحوذت عليهم فكرة نقل الأفارقة إلى البرتغال والعالم الجديد، والتي تطورت فيما بعد بطرق استغلالية بشعة فيما عرف بتجارة الرقيق.[2] وكان هذا مكسباً اقتصادياً وسياسياً، فقد كان اهتمام البرتغاليين بتجارة الرقيق كبيراً جداً منذ بداية حركة الكشوف البرتغالية، فقد كان (هنري الملاح) يوليها اهتماماً خاصاً، وكان حريصاً على تسلّم عشر مايدخل للبرتغال من رقيق نتيجة احتكاره للمناطق المصدرة، فمنذ البداية تهافت البرتغاليون على الرقيق والأسرى وقنص الرجال على طول سواحل غرب أفريقية بما فيها المغرب، ويتجلى حرصهم على هذه (السلعة) في تنازلهم عن الغنائم في أثناء الحروب للقبائل الحليفة، على أن تتخلى عن الأسرى،[3] حيث كان هؤلاء الأسرى يباعون في الأسواق المغربية ثم يتم نقلهم بعد ذلك إلى البرتغال وأنحاء أوربا الأخرى، وعمل الملك البرتغالي نفسه في بداية التوسع على الحصول على بعض أولئك الأسرى،[4] وقد شغلت هذه التجارة بال المسؤولين البرتغاليين على إختلافهم، كما أن الكنيسة تورطت في هذه التجارة، وقد ذهب أحد الباحثين إلى الحد الذي اعتبر فيه أول قنص نظم لسواحل إفريقية

---

1) عبدالرزاق عثمان، البرتغاليون في شرق إفريقية، مجلة الوثيقة، العدد الرابع عشر، السنة السابعة، البحرين ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص ٣٤.

2) جمال قاسم، الإستعمار البرتغالي، ص ٦٦ - ٦٨؛
عبدالرزاق عثمان، البرتغاليون في شرق أفريقية، ٣٤.

3) شوقي الجمل، تاريخ كشف إفريقية واستعمارها، ص ١٥٦.

4) أحمد بوشرب، دكالة والإستعمار البرتغالي، ص ١٥٦.

الغربية بمثابة العامل والمحرك الإقتصادي للكشوف[1] وكانوا ينهجون في ذلك شتى الطرق البشعة للحصول على الأسرى، وفي عمليات القنص، وقد ساهمت الحاجة الأوربيّة الكبيرة إلى اليد العاملة، في تهافت البرتغاليين على مختلف فئاتهم التجارية في الحصول على هذه السلعة، لذا فإن البرتغاليين قد استمروا في التعامل مع هذا الوباء.

لقد اتسمت التجارة البرتغالية في الشرق منذ بدايتها بطابع القرصنة والعنف، فعندما سأل التجار المسلمون (فاسكو دي جاما) عن سبب مجيئه إلى هذه البلاد النائية ؟ أجاب (المسيحية والتوابل) فقيل له ولماذا لم يقم بذلك ملك (فشتاله)، أو ملك (فرنسا) ؟ أجابهم بأن ملك البرتغال لايوافق على ذلك ولن يسمح لهم به لأن هذا العمل من حقه هو.[2] وهذا الطابع المتسلط للتجارة البرتغالية في الشرق يبدو واضحاً في كل خطوة من خطواتهم، ويكفي أن نشير إلى ذلك اللقب الكبير الذي أطلقه ملك البرتغال على نفسه (سيد الفتوحات والملاحة والتجارة مع بلاد العرب والحبشة والهند وفارس) كان ذلك عام ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩م، أي قبل أن يحقق البرتغاليون أي وجود سياسي أو عسكري ذي شأن لهم في الشرق.[3] لقد كانت التجارة ملكيّة، وكان الملك البرتغالي أكبر مزود للأسواق الأوربيّة بالسلع، وأعطى اهتماماً كبيراً لتقلبات الطلب والأثمان، كما حرص على احتكار السلع الأكثر رواجاً، وكان البعض يتعامل معه في هذا الباب لازعيماً أو رجل سياسة ولكن واحداً من كبار التجار.[4] وفي تلك الفترة

---

١) شوقي الجمل، تاريخ كشف إفريقية واستعمارها، ص ١٥٧.

٢) عبدالأمير أمين، الإنجازت السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية، مجلة الوثيقة، العدد الثالث عشر، البحرين،١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ١٠٨.

٣) المرجع نفسه، ص ١٠٩.
علي غنّام، البرتغاليون والدين في غزوهم للشرق، ص ١٩.

٤) أحمد بوشرب، دكاله والإستعمار البرتغالي، ص ١٥٦.

قدّم أحد تجار البندقية النصح للبرتغاليين قائلاً لهم: إذا كنتم ترغبون حقاً في تجارة ناجحة فعليكم أن لاتنهبوا سفن منافسيكم.[1] وعندما تأكد وجودهم عملوا عكس ذلك، حيث بادروا إلى ضرب منافسيهم سياسياً وعسكرياً واقتصادياً لضمان نجاح الاحتكار لتجارة الشرق التي كانوا يخططون لها.[2]

لقد عمد البرتغاليون إلى حصار معابر التجارة الإسلامية في البحر الأحمر والخليج، وأبعدوا الأوربيين عن رأس الرجاء الصالح قبل أن يحاولوا الأستفادة من اكتشافاتهم عن طريق المنافسة النافعة، ولم يعتبر البرتغاليون رأس الرجاء الصالح اكتشافاً فنيّاً يمكنهم الاستفادة منه، ويعطيهم ميزة على منافسيهم، ولكن اعتبروه احتكاراً لايستند إلاّ على القوة الغاشمة.

مارس البرتغاليون القرصنة والسلب والنهب، واستخدم قسم منهم من قبل السلطات الملكيّة لجمع الضرائب، ومنح فريق آخر منهم امتيازاً ملكياً خاصاً لمزاولة التجارة لحسابهم الخاص، لقد كان هدف الكل الربح السريع بمختلف الوسائل المشروعة وغير المشروعة. ونستطيع أن نقف على ذلك من تقرير بعث به (جواو دي أرياز Joao De Arriaz) أحد المسؤولين البرتغاليين في الشرق إلى الملك (جوا الثالث) حول مصادر الدخل وايرادات جمارك (هرمز) مؤرخ في ١٥٢٨/٧/١٠م، ذكر فيه أن (هرمز) تشهد أكبر رواج تجاري في ثلاثة شهور هي: إبريل، مايو، يونيو، حيث توفر إيرادات مختلفة، منها الضريبة التي يدفعها حاكم (هرمز)، وإيرادات الجمارك التي تبلغ حوالي (٧٠) ألف إلى (٨٠) ألف دينار

---

١) عبدالأمير أمين، الانجازات السياسية والعسكرية البرتغالية، ص ١١٠.
٢) أحمد بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية، ص ١٦٨.

أشرفي،[1] تدفعها السفن القادمة من الهند وإفريقية، وكذلك القوافل التجارية التابعة لشيخ فارس والتي يرسلها سنوياً، وكذلك البضائع الواردة من (البصرة)، وضرائب تجارة الخيول، والغنائم البحرية التي نحصل عليها من مطاردة السفن التجارية اعتماداً على أسطول خاص بمراقبة الخليج وبحر الهند مكون من (٢٢) مركباً عليها مابين (١١٠٠) إلى (١٢٠٠) جندي، كما ذكر أن قيمة تلك الغنائم البحرية خلال السنة التي يغطيها هذا التقرير مبلغ (٢٠) إلى (٢٥) ألف أشرفي.[2]

وتبرهن هذه الرسالة على هيمنة البرتغاليين على التجارة واحتكارها، وذلك بالنظر إلى حجم الضرائب التي فرضها البرتغاليون على السلطات في المنطقة، إضافة إلى المداخيل التي توفرها نقط الجمارك التي أقامها البرتغاليون في أماكن عدة من الشرق، كما وصف هذا التقرير عمليات المطاردة والسلب والنهب بالغنائم البحرية. والواقع أن البرتغاليين دأبوا على مطاردة السفن التجارية الإسلامية في المحيط الهندي وقد وصف صاحب التقرير أنهم يعتمدون في ذلك على أسطول خاص، إذن فهم

---

١) الدينار الأشرفي، سمِّي بذلك نسبة إلى السلطان المملوكي (الأشرف برسباي ٨٢٥ - ٨٤١هـ / ١٤٢٢ - ١٤٣٨م) الذي قام بضرب الدينار الأشرفي في صفر ٨٢٩هـ / ديسمبر ١٤٢٥م، عندما أبطل التعامل بالنقود الذهبية البندقية، وأمر بصهر الكميات الموجودة منها في أسواق الدولة، وتحويلها إلى نقود ذهبية مملوكية، تحمل الوزن الذي كانت عليه الدوكات، وهو ثلاثة جرامات وخمسون في المائة من الجرام (٥٠ر٣جم)، ولقد حققت تلك النقود شهرة كبيرة، وانتشر التعامل بها، وحازت على ثقة المتعاملين ورضاهم، بعد أن عدمت الثقة بالعملة المحلية مدة طويلة، وتمكنت من الوقوف في وجه الدوكات الذهبية، التي انتشر التعامل بها، والاعتماد عليها في عملية التبادل، دون غيرها. لمزيد من التفصيل انظر: حمود النجيدي، النظام النقدي المملوكي، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

٢) بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية، ص ١٠٩.

مستعدون لذلك استعداداً تاماً.

عمد البرتغاليون إلى جمع الضرائب بوسائل عديدة منها تلك التي كانت تأتي من المواقع والموانىء البرتغالية وفي مقدمتها (جوا، هرمز، ممباسه) ولعل نظام التصاريح أو الجوازات (Cartaze Systom) كان من أهم مصادر الدخل الذي يلزم كل سفينة غير برتغالية وبخاصة السفن الإسلامية الحصول على تصريح عن طريق دفع ضريبة معينة في أحد الموانىء أو المراكز البرتغالية، ويحدد في هذا التصريح حجم ونوع البضاعة التي ستحملها السفينة، كما أن جميع السفن غير البرتغالية عرضة للتفتيش في عرض البحر، وأي سفينة لاتحمل مثل هذا التصريح فإن مصيرها المصادرة والتدمير.[١] وقد بادر البرتغاليون بتطبيق هذا النظام فور سيطرتهم على مناطق الشرق ومصادر التجارة وهذا مايؤكد على قوة الدوافع الإقتصادية للغزو البرتغالي.

إن تلك التصاريح لم تكن مجرد وسيلة للحصول على الدخل فحسب، بل لتوجيه التجار إلى المراكز التجارية البرتغالية، بل لها أهداف أبعد من ذلك حيث استخدمت لغرض الهيمنة على التجارة وقطع خطوط مواصلات المسلمين في الشرق، وإضعاف القدرات الاقتصادية والعسكرية للعالم الإسلامي. ويتضح ذلك من رسالة بعث بها ملك البرتغال (عمانويل الأول) إلى ملكي أرغوث وقشتاله، وقد جاء فيها: «إن المسيحيين الذين اكتشفناهم[٢]

---

١) بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية، ص ١٧٥؛
Boxer, C.R., Portuguese Conguest and Commerce in Sowthern Asia, (London, 1985) pp. 415-28.

٢) يقصد بالمسيحيين الذي تم اكتشافهم الهندوس في الهند، فقد ظن البرتغاليون في بداية الأمر أنهم نصارى ولكن من فئة أخرى.

ووصلنا إليهم هنا ليسوا على درجة كافية من قوة العقيدة ورسخوها، بل ينقصهم الايمان الكامل الصحيح، وعندما يحين الوقت ويتحصنون بالإيمان المسيحي السليم، فسوف تتوافر لنا الفرصة لتدمير المسلمين في هذه البلدان بل ونحن لانزال نأمل بأكثر من هذا، فبعون الله ستقع في أيدينا هذه التجارة الكبيرة التي لايستمتع بفوائدها الآن سوى المسلمين. سوف ننتزعها منهم وسوف تعود الفائدة منها إلى رعايانا وسفننا»[1] وهذا يعكس الارتباط الوثيق بين الدوافع الدينية والاقتصادية للكشوف الجغرافية البرتغالية، لقد منعوا المسلمين من الاتصال بالمناطق المنتجة وحددوا للعرب نمط وأسلوب التجارة التي يجب أن يعملوا بها وهي التي ستعود بالنفع على البرتغاليين.

لقد احتفظ البرتغاليون بالخطوط التجارية القديمة بين ساحلي البحر المتوسط الأوربي والافريقي، وحلّوا محل تجار جنوب أوربا وتجار فرنسا، ولغرض سياسة الاحتكار فقد أحدثوا تحولاً كبيراً في المراكز التجارية الأكثر رواجاً، فبينما كانت (سبته) مدينة تجارية، استبدلها البرتغاليون بمدينة (أسفي)[2] في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، ومن ثم وسعوا التيارات التجارية التقليدية لتشمل كل المناطق التابعة لهم سواء في سواحل إفريقية أو في سواحل آسيا، وجعلوا الساحل الأفريقي الشمالي الغربي مخازن السلع لديهم، فهو يستقبل البضائع الآسيوية ليتم توزيعها في المناطق الأوربية، كما أنه يستقبل البضائع الأوربيّة ليتم توزيعها أيضاً على أسواق الشرق.[3] وبهذا تكون المنتجات

---

١) عبدالأمير أمين، الإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية، ص ١٠٧.

٢) آسفي : إحدى مدن المملكة المغربية الآن.

٣) أحمد بوشرب، دكاله والاستعمار البرتغالي، ص ١٥٧.

والتسويق شهدت تمركزاً مالياً واضحا. وعزز الملك البرتغالي هذا التحول بنظام الإحتكار.

وعلى الرغم من أهميّة الدوافع الإقتصادية للكشوف الجغرافية البرتغالية، إلاّ أن الأمر لم يقتصر على سلب التجارة العربية والإسلاميّة في شرق إفريقية والمحيط الهندي فحسب، وإنما عملوا على تدمير الحضارة العربية والإسلامية عن طريق تجميد أشكال الإنتاج الزراعي والصناعي السائد آنذاك، وعلى الرغم أيضاً من أن الاستغلال والاحتكار التجاري هو الذي طبع الامبراطورية البرتغالية وأعطاها سمتها المميزة، إلاّ أنهم لم يغفلوا الهدف الديني الذي جاؤا من أجله وبخاصة في الشرق، والذي تمثل - كما ذكرنا - بحرمان العرب والمسلمين من المشاركة في تجارة الشرق،[1] بالإضافة إلى التعسف والقسوة التي كانتا سمة بارزة للقادة البرتغاليين ضد المدن والسفن العربية، هذا إضافة إلى مارافق الإستعمار البرتغالي من نشاط تنصيري، تمثل في إنشاء المراكز الدينية

---

١) غي دي بوشير، تشريح جثة الاستعمار، ترجمة ادورد الخراط، دار الآداب، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م، ص ٤٤ - ٤٥. جمال قاسم، الإستعمار البرتغالي، ص ٧٢ ؛

ويجدر بالذكر أن الفتح الإسلامي كان ميزة وحسنة للبرتغال ولإسبانيا، إذ حقق ثورة اجتماعية واقتصادية كبيرة، فأزال سلطة الطبقات ونقل المجتمع الأوربي لأول مرة من مجتمع طبقي شبه عبودي (أقنان ونبلاء) إلى مجتمع لاطبقي بقضائه على الامتيازات للطبقات العليا الإقطاعية، وتوزيعه الأراضي على أكبر عدد ممكن من أفراد الطبقات المستغلة (الأقان)، ويشير المؤرخون إلى أن الإزدهار الذي عم أسبانيا بعد الفتح الإسلامي يعود إلى التقسيم الكبير لملكية الأرض، إذن أين موقف العرب المسلمين هذا من موقف البرتغاليين عندما جاءوا إلى الشرق ؟ لقد نزعوا كل سلطة من الملوك والأمراء والرؤساء التقليديين أصحاب البلاد الأصليين، ووضعوا البلاد في الموضع الذي أرادوه لها، واستحوذوا على ثرواتها الطبيعية وأدوات الإنتاج فيها، ودمروا الصناعات التقليدية والحرفية، وحولوا الشعوب التي استعمروها إلى أيدٍ عاملة ذليلة، وفرضوا عليها قوانين ومعايير تتفق وخصوصياتهم. انظر: محمد عارف الكيالي، الأسس الإقتصادية للإستعمار البرتغالي، ص ١١٠.

والكنائس جنباً إلى جنب مع المراكز التجارية والقلاع العسكرية، ومحاولاتهم الدائبة إلى الوصول إلى الأماكن المقدسة.

والواقع أنه مهما حاول بعض المؤرخين التقليل من العامل الديني بحجة غلبة العامل الاقتصادي عليه وانصراف البرتغاليين إلى تحقيق المكاسب التجارية على حساب العامل الديني، فإن الحوادث التاريخية أثبتت عكس هذا التصور، فالشيء المؤكد أن العامل الديني شكّل الإطار العام للسياسة البرتغالية في الشرق ويندرج تحته كل من العاملين الاقتصادي والإستراتيجي، أي أن العامل الديني شكّل مرتكزاً أساسياً لإنطلاق السياسة البرتغالية في الاتجاهات المختلفة، ولتحقيق الأهداف المتنوعة، فلو أخذنا بالرأي الذي يقول إن الدافع الديني قد انتهى بمجرد أن بدأ البرتغاليون يغرفون من معين تجارة الشرق الرابحة لأمكننا التساؤل لماذا إذن لم ينتهج البرتغاليون سياسة تجنبهم إثارة مشاعر المسلمين في الشرق وذلك بعدم التعرض إلى مقدساتهم الإسلامية وتدنيسها كما حدث في ساحل شرق إفريقية وفي الهند وفي الخليج عندما قاموا في فترات مختلفة بهدم المساجد وتدنيسها والدوس على المصاحف بسنابك الخيل؟ ثم لماذا هذا النشاط التنصيري الكبير الذي رافق الغزو البرتغالي منذ حملاتهم الأولى وإقامة المراكز التنصيرية ودعمها جنباً إلى جنب مع المراكز التجارية، إضافة إلى دفعها للعمل ومزاولة شعائرها وطقوسها المسيحية في أوساط المجتمعات المسلمة، والمجتمعات الإفريقية في ساحل شرق إفريقية، كذلك محاولاتهم المتكررة الوصول إلى الأماكن المقدسة في الحجاز، وجهودهم الدائبة للتحالف مع الحبشة النصرانية، كل ذلك تساؤلات ينبغي الإجابة عليها من قبل من يقلّلون من العامل الديني، لقد كان بإمكان البرتغاليين المحافظة على مكاسبهم الاقتصادية وتطبيق احتكارهم التجاري استناداً على أسطولهم البحري

المتفوق وعدم مواجهتهم لأية قوى بحرية بإمكانها أن تعرقل تحقيق مخططاتهم، إن الإسلام بالنسبة للأوربيين في الماضي والحاضر[1] يشكل شبحاً مخيفاً يقضّ مضاجعهم ويصيبهم بالارتباك، ويتضح ذلك من خلال الرسائل المتبادلة بين القادة البرتغاليين في الشرق وبين حكومة لشبونة.

---

[1] من الأمثلة الدالة على تخوف الأوربيين من الإسلام انه عندما ارتبطت اللغة السواحلية في ساحل شرق إفريقية ارتباطاً وثيقاً بالإسلام الذي أصبح فكراً محلياً وثقافة وطنية يسرت انتشاره، ونتيجة للدور الذي كانت تقوم به اللغة السواحلية في عملية انتشار الإسلام فقد تم رفضها من قبل الإرساليات التنصيرية في ساحل شرق إفريقية في ظل الإدارة الاستعمارية البريطانية أوائل القرن الرابع عشر الهجري - أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين الميلادي - حيث قامت الإرساليات التنصيرية بنصح الحكومة الاستعمارية البريطانية على أن تقف ضد تبني اللغة السواحلية لغةً رسميةً، هذه الحقيقة تنعكس في المكاتبات الإرسالية في تلك الفترة، حيث كتب القس (توكر Tucker) إلى السكرتير العام لجمعية الكنيسة التنصيرية في لندن بقوله :

«من المفضل جعل اللغة الانجليزية اللغة المحلية السائدة لمنطقة شرق إفريقية وحوض النيل..... يجب أن لاأكون آسفاً أن أجد بمرور الزمن أن اللغة الإنجليزية أصبحت لغة سائدة ومستعملة بأقاليم أخرى.... هذه الإمكانية كانت مختمرة في ذهني منذ زمن ... قبل فترة كتب العقيد سادلر Sadler في موضوع هذه اللغة واقترح علينا أن نشجع اللغة السواحلية. لقد أجبت بحزم منتقصاً من قيمة تلك الفكرة وعبّرت عن نيتنا أن أقوم بكل ماأوتيت من قوة بدعم وتطوير اللغة الانجليزية ودراستها.... إن اللغة السواحيلية مثلها مثل اللغة العربية تعني (المحمدّية) بكل ماتحمل من تأثيرات شرّيرة (على حد قوله) إذا كان لابد أن تكون هناك لغة رسمية للمواطنين في حكومة الوصاية، فإني أفضل - وبقوة - اللغة الانجليزية على اللغة السواحلية التي تعني الإسلام مثل مايفضّل اللورد كرومر اللغة الإنجليزية على اللغة العربية في منطقة حوض النيل. انظر :

C.M.S. Archives, G3A7/0. Tucker to Mr. Baylis, December 30,1904.

والحقيقة أن هذه السياسة هدفت في المكان الأول محاربة كل مايمت بصلة للثقافة الإسلامية ويتضح ذلك بجلاء من خلال النص الآنف الذكر.

ونخلص إلى القول إلى أنه مهما كانت أهمية العامل الإقتصادي والجهود البرتغالية التي بذلت في سبيل تحقيقه إلاّ أن العامل الديني يظل رائداً في مرتكزات السياسة البرتغالية في الشرق، وفي الوقت نفسه يبقى العامل الإقتصادي عاملاً عريضاً وكبيراً لايمكن تجاهله في أية دراسة جادة وموضوعية.

* **البرتغاليون في ساحل شرق إفريقية :**

يعتبر بعض المؤرخين والباحثين القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي بداية الإستعمار الأوربي الحديث للقارة الإفريقية، إذ بدأ البرتغاليون بإفتتاح هذه الصفحة من تاريخ الإستعمار بنزولهم في سواحل المغرب واحتلالهم لمدينة (سبتة) عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م - كما ذكرنا سابقاً - وقد تواصلت جهودهم في عمليات الاستكشاف البحري على طول السواحل الجنوبية الغربيّة للقارة الإفريقية، والتي توجت بوصول (بارثيلمو دياز Barthelemu Diaz) إلى رأس الرجاء الصالح عام ٨٩٥هـ / ١٤٨٩م، ولكنه لم يستطع اجتيازه أما بسبب العواصف التي واجهته أو بسبب المشاكل التي حدثت بينه وبين بحارته.[1]

لقد واصل البرتغاليون محاولاتهم الوصول إلى المياه الشرقية، فبعد وقت قصير من إخفاق (بارثيلمو دياز) في اجتياز رأس الرجاء الصالح، استطاع ملاح برتغالي آخر هو (فاسكو دي جاما Vasco De Jama) أن يعبر رأس الرجاء الصالح، ويصل إلى ساحل شرق إفريقية عام ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م، أي بعد حوالي عشر سنوات من محاولة (بارثيلمو دياز) التي لم يكتب لها النجاح، ووصل إلى (سفالة) على الساحل الإفريقي الشرقي وأقام فيها

---

1) Low, C.R., op.cit, vol.3, p.37;

يسري الجوهري، الكشوف الجغرافية، ص ٨٥ - ٨٦.

شهراً للراحة والتموين، ثم واصل سيره بعد ذلك حتى وصل (موزمبيق)،[1] ولقي وبحارته ترحيباً طيباً من أهالي البلاد ظناً منهم أنهم مسلمون أتراك أو مغاربة، وطلب (فاسكو دي جاما) من حاكم البلدة أن يمده بالأدلاء ليواصل رحلته إلى الهند التي هي هدفه الرئيس، فأنفذ معه من يرشده إلى ذلك[2] ولكن الحاكم والأهالي استطاعوا قبيل إقلاع الحملة أن يتعرفوا على هوية هؤلاء القادمين، الأمر الذي دفعهم إلى عدم التعامل أو التعاون

---

1) Sousa, F., op.cit, vol. I., p.63;

جمال قاسم، الإستعمار البرتغالي، ص ٦٣؛

وموزمبيق تقع في الجنوب من ساحل شرق إفريقية (أي جنوب رأس دليجارو)، وفي ذلك الوقت وأثناء وصول (فاسكودي جاما) يُذكر أنها كانت تابعة لسلطان (كلوة)، وقد كانت المعقل البرتغالي الوحيد في ساحل شرق إفريقية الذي لم يتمكن العمانيون من طردهم منه، وقد كان لها حاكم خاص يشرف على المستعمرات البرتغالية في القسم الجنوبي من الساحل والتي تكثر فيها مناجم الذهب، كما اتخذها البرتغاليون مركزاً لشحن الرقيق، وكان حاكمها في ذلك الوقت تابعاً لنائب الملك البرتغالي في (جوا) بالهند، وعليه أن يرفع التقارير إليه ليرفعها بدوره إلى (لشبونه) واستمر الحال على ذلك حتى عام ١١٦٦هـ / ١٧٥٢م عندما أصبح لها حاكم مستقل عن نائب الملك بالهند، ومربوط مباشرة (بلشبونة)، وقد ظلت البرتغال متمسكة بوجودها في (موزمبيق) حتى بعد أن اضطرت الدول الإستعمارية مثل انجلترا وفرنسا إلى الاعتراف بحق الشعوب الخاضعة لها بالاستقلال، ولم تظفر (موزمبيق) بالإستقلال إلاّ في عام ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م، والذي أعقبه قيام جمهورية (موزمبيق) الحالية. انظر: راشد البراوي، الرق الحديث في إفريقية البرتغالية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢، ص ٧٢ - ٧٣؛ شوقي الجمل، الصراع العربي البرتغالي في المحيط الهندي والتحرر الإفريقي من الاستعمار البرتغالي، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، ج ١، رأس الخيمة ١٩٨٧، ص ١٨٨ - ١٩٣.

٢) جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٢٠٨ - ٢٠٩؛ ابراهيم العدوي، التجار العرب في أوغندا، مجلة نهضة إفريقية، العدد التاسع عشر، القاهرة ١٩٥٩، ص ١٩.

معهم وبخاصة بعد أن عرفوا أنهم نصارى قادمون من أوربا.[1] وهذا الموقف من الأهالي يعكس نظرة المسلمين إلى نصارى أوربا، والتي تمخضت عن الغزو الصليبي لبلاد الشام، وليس مستبعداً أن سقوط الوجود الإسلامي في أسبانيا ومطاردة المسلمين هناك كان يلقي بظلاله على مسلمي شرق إفريقية.

تحرك (فاسكو دي جاما) متوجهاً إلى (كلوة) ولظروف ملاحيّة لم يتمكن من الرسو فيها رغم ماقيل له عن شهرتها التجارية، وأن السفن تأتيها من الجزيرة العربية والهند بقصد التجارة، وتوجه إلى (ممباسه) بعد أن أشار عليه الأدلاء الذين في معيته، لكنه غير رأيه وابتعد عن المدينة بعد أن كان على وشك الرّسو فيها.[2] ويُذكر أنه شك بمصداقية مشورة الأدلاء، أو كما يُذكر أنه قال: إنني أشم من هذه المشورة رائحة الخيانة، ولايستبعد أنه شعر بذلك عندما اقترب من الميناء، حيث شاهد مظاهر عدم الترحيب من الحاكم والأهالي.[3] ويحتمل أن أخباره وهويته قد وصلت إلى (ممباسه) قبل وصوله إليها الأمر الذي دعاهم إلى اتخاذ هذا الموقف.

واصل (فاسكو دي جاما) رحلته متوجهاً إلى (ماليندي)، وقد أستقبله حاكمها استقبالاً حسناً، وزوده بالمؤن والأدلاء لمواصلة رحلتهم إلى الهند، كما طلب حاكم ماليندي من (فاسكو دي جاما) أن يتوقف في (ماليندي) عند

---

١) دونالد وايدنر، تاريخ إفريقية جنوب الصحراء، ترجمة علي فخري وشوقي الجمل، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، ص ١٠٦.

٢) المؤلف مجهول، السلوة في أخبار كلوة، ص ٥٠ ؛ جمال قاسم، الإستعمار البرتغالي، ص ٦٤؛ بشير حمود كاظم، حركة الكشوف الجغرافية وأهدافها، ص ١٧ - ١٨.

3) Krapf, J.L., op.cit, p.522;

محمد الغول، الصراع بين العرب والبرتغال في شرق إفريقية، مجلة العربي، العدد ٤٤، الكويت ١٩٦٢، ص ١٠٠.

عودته من الهند.[١] ويذكر أن (فاسكو دي جاما) استطاع من خلال هذا الجو المفعم بالود أن يلتقي بعدد من التجار العرب في (ماليندي)، جمع منهم حصيلة خبراتهم وتجاربهم عن الإتّجار في المحيط الهندي.[٢] إن هذا التّباين في المواقف من حكام المدن التي مرت بها السفن البرتغالية، مابين مرحب به وساخط عليه متخوف منه، تلقي ظلالاً من الشك حول طبيعة ونوع العلاقات السائدة بينهم.

أبحرت السفن البرتغالية من (ماليندي) في أبريل ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م تحت توجيه مرشدين حصل عليهم من (ماليندي) وبأمر من حاكمها، والواقع أنه كثر الجدل حول الشخصيّة التي قامت بإرشاد (فاسكو دي جاما) وتمكينه من عبور المحيط الهندي، ففي الوقت الذي تسكت فيه المصادر العربية المعاصرة عن اسم ذلك الرجل بإستثناء (النهر والي) الذي أشار إلى أن (ابن ماجد)[٣] هو الذي أرشد فاسكو دي جاما، نجد المصادر الأجنبيّة

---

١) المؤلف مجهول، السلوة في أخبار كلوة ص ٥١ ؛ جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٢١٠.

2) Strandes, J., op.cit, p.20-21-30;

جمال قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص ٩٣؛ السر سيد أحمد العراقي، الإسلام والصليبيون في ساحل إفريقية، مجلة الوثيقة، العدد الثالث عشر، السنة السابعة، البحرين٨.ع|/١٩٨٨، ص ١٤١.

٣) إبن ماجد : هو شهاب الدين أحمد بن ماجد النجدي، عاش في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي، وعمّر حتى مطلع القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي، كان ملاحاً مشهوراً من أهالي (جلفار) (رأس الخيمة) على الخليج العربي، له عدة مؤلفات في فنون الملاحة، وعلم الفلك والبحار، كان مشهوراً في زمانه من رواد الملاحة في المحيط الهندي، يعود إليه الفضل في تطوير وتحسين نظم الملاحة في المحيط الهندي. لمزيد من التفصيل انظر: أنور عبدالعليم، ابن ماجد الملاح.

تلقفت رواية (النهروالي) ورددتها، بينما المصادر البرتغالية المعاصرة أشارت إلى أن ذلك الرجل هو مسلم ولكنها لم تشر إلى الإسم الصريح (لابن ماجد).[1] وباعتقادي أنه إذا كان (ابن ماجد) فعلاً قد قام بإرشاد البرتغاليين لعبور المحيط الهندي فهذا فضل يسجل للملاحة العربية الإسلامية ولابن ماجد شخصياً، مع العلم أنه من المؤكد أن (ابن ماجد) إذا كان هو الذي قام بذلك فإنه لم يكن يدرك أبعاد وخطورة مجيء هؤلاء، ولو أنني أميل إلى أنه ربما قام بذلك أناس آخرون كلفهم حاكم (ماليندي) ولايستغرب ذلك لأن المحيط الهندي وساحل شرق إفريقية بالذات مليء بالملاحين وربابنة السفن الذين من المؤكد أنهم تردّدوا مراراً فيما بين شاطىء المحيط الهندي الشرقي والغربي، ولكن الشيء الذي لايمكن انكاره أن (فاسكو دي جاما) لم يصل إلى ساحل (ملبار) إلاّ بواسطة أدلاء ومرشدين يعرفون طرق الملاحة في المحيط ومن أهالي المنطقة.

في مايو وصلت السفن البرتغالية إلى ساحل الهند الغربي أو ساحل (ملبار) على بعد عدة أميال من (كاليكوت)، واتصل بحاكمها (السامر)[2]

---

١) لمزيد من التفصيل عن الجدل الذي أُثير حول شخصية ابن ماجد، وأنه هو الذي قام بإرشاد فاسكو دي جاما من ساحل شرق إفريقية إلى الهند انظر: النهروالي محمد بن أحمد، البرق اليماني في الفتح العثماني، أشرف على طبعه حمد الجاسر، دار اليمامة، الطبعة الأولى، الرياض ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ص ١٨-١٩.؛ التاجر علي، الريان أحمد بن ماجد، دفاع وتقييم، مجلة العرب، ج ٣-٤، السنة الخامسة، رمضان وشوال، الرياض ١٣٩٠هـ؛ حسام الخادم، ابن ماجد ودوره في اكتشاف طريق الهند البحري ومظاهر التفكير العلمي في كتاباته، مجلة الوثيقة، العدد الثاني عشر، السنة السادسة، البحرين١٤٠٨/ ١٩٨٨.

٢) السامر : أو السامري، أو الزاموريين، هو لقب كان يطلق على حكّام امارة كاليكوت في ساحل ملبار، وكان حاكم كاليكون يمثل أقوى سلطة سياسية في ذلك الساحل، أما (راجات) الساحل الآخرين والذين ينفصلون بولايات ستة مستقلة، فهم يدينون

وحاول إقامة علاقة تجارية معه، ولكنه أخفق،[1] ويعزى ذلك إلى موقف التجار العرب والمسلمين الذي نبّهوا حاكم (كاليكوت) إلى خطورة الإقدام على عمل كهذا.[2] ويعود ذلك إلى أن التجار العرب والمسلمين قد شعروا بخطر هؤلاء القادمين الجدد ومنافستهم التجارية، فربما لاحظوا حرصهم على السؤال والتقصي وجمع المعلومات الأمر الذي أصبحوا فيه موضع شك، لذا اتخذوا موقفاً معارضاً لوجودهم منذ البداية، وسنرى فيما بعد تأثير هذا الموقف على تعامل الحملات الآخرى معهم.

إن إخفاق (فاسكو دي جاما) في إقامة علاقات تجارية مع حاكم (كاليكوت) قد يتمخض عن إنشاء مركز تجاري، لايقلل من أهمية تلك الرحلة التي كان هدفها الأول اكتشاف الطريق المؤدي إلى الهند، والتعرف على الأوضاع السائدة في تلك المناطق، وأحوال أهلها، فبعد أن مكثت الحملة في ساحل مليبار بعض الأشهر، عادت إلى ساحل شرق إفريقية، ويُذكر أن (فاسكو دي جاما) بدأ من شمال الساحل بالاعتداء على المدن هناك، حيث قصفها بمدافعه وروّع سكانها،[3] ثم رست الحملة في (ماليندي)، وهناك توطدت العلاقات بين حاكمها و(فاسكو دي جاما)، فقد تبادلا الهدايا فيما بينهما،

بالولاء (للزامورين) في كاليكوت، ولو أنه ولاء اسمي فقط.

لمزيد من التفصيل عن امارات ساحل مليبار. انظر: الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية.

١) المليباري، تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين، ص ٢٤٥ - ٢٤٦. والذي يذكر أن التجار العرب والمسلمين تربطهم علاقة قائمة على الود والإحترام المتبادل مع حاكم (كاليكوت)، وأنهم يتعايشون ورعاياه تعايشاً سلمياً قائماً على الاحترام والمصالح المشتركة، كما أنهم يزاولون شعائرهم بكل حريّة.

٢) الرمّال، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص ١٦٦.

3) Sousa, F., op.cit, vol. I, P.63;

جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٢٠٩.

وكان من بين الهدايا التي أعدها حاكم (ماليندي) كتلة من (العنبر) طولها يزيد عن المتر، كما أن (فاسكو دي جاما) قدّم له عدداً من الصناديق تحتوي على الهدايا التي كان قد أعدها قبيل قدومه من البرتغال.[1] ويظهر أن (فاسكو دي جاما) حرص على إقامة مثل هذه العلاقة وتوطيدها، حيث كانت الأساس للسياسة التي انتهجها البرتغاليون منذ البداية في ساحل شرق أفريقية، والتي تقضي بالاعتماد على عناصر محليّة، تدافع عنهم بطريقة عمياء، وتوفر لهم كثيراً من الجهد والمال.

ويُذكر أن خطة (دي جاما) في أول الأمر كانت استخدام سياسة اللين أو سياسة ودّية مع سكان المناطق التي يمر بها، ومحاولة عقد صداقات موقتة مع الحكام هناك، حتى يتيح له ذلك الوقوف عن كثب على طبيعة الأوضاع هناك ودراستها، كما يُذكر أيضاً أن حكومة البرتغال قد أوصت الملاحين المرافقين (لدي جاما) بالالتزام بهذه السياسة، وعدم استخدام القسوة والعنف، ريثما يجدون موطىء قدم لهم هناك.[2] وقد ضرب (سونيا هاو) مثلاً على تلك السياسة، حيث ذكر أن حاكم (كاليكوت) باعه أنواعاً رديئة من التوابل وبأسعار عالية، فقبلها (فاسكو دي جاما) لكي يظهر له أن معاملة البرتغاليين حسنه، وأسلوبهم مرضٍ مع التجار.[3] وقد أوافق (سونيا هاو) على السياسة التي انتهجها (دي جاما) والمتسمة باللين، وذلك فيما يختص بساحل (مليبار) في الهند، ولكن اختلف معه فيما يخص ساحل شرق إفريقية، حيث أكدت المصادر بأن البرتغاليين انتهجوا سياسة

---

١) سونيا هاو، في طلب التوابل، ص ٢٠٣.

٢) المرجع نفسه، ص ١٠٣.

٣) نفسه، ص ١٠٣. وفي هذا الصدد يذكر أحد الباحثين أن (فاسكو دي جاما) قام بجولة أمام ساحل ملبار، وتصادف أن التقى بسفينة تجارية عربية فأمر بمهاجمتها والإستيلاء على البضائع التي تحملها ثم أغرقها بركابها. انظر: الشناوي، المراحل الأولى للغزو البرتغالي لسواحل الجزيرة العربية، ص ٦٢١.

اتسمت بالقسوة معهم منذ البداية، سواء عندما أخفوا هويتهم عن سكان الساحل متظاهرين بأنهم أتراك، أو عندما قصف (دي جاما) بمدافعه مدن الساحل عند عودته من الهند وتوجهه إلى (ماليندي)، كما أشار إلى ذلك أيضاً (وايدنر) عندما ذكر أن (دي جاما) اتخذ موقفاً معادياً لمدن ساحل شرق إفريقية من الوهلة الأولى، ويعزو ذلك إما إلى التعصب الديني، أو إلى خوفه من قوة العرب والمسلمين هناك والعمل على كسر شوكتهم، وقتل روحهم المعنوية منذ البداية.[1] لذا فإن القول بأن (دي جاما) قد التزم سياسة اللين في المرة الأولى من رحلته إلى الشرق وبخاصة فيما يتعلق بساحل شرق إفريقية قول ينافي الحقائق التاريخية الثابتة.

تزودت الحملة بالمؤن اللازمة في (ماليندي)، ثم عادت إلى (لشبونه) التي وصلت إليها عام ٩٠٥هـ / يوليو ١٤٩٩م، بعد أن شحنت السفن ببضائع الشرق وبخاصة التوابل من مصادرها الأصلية، وأُستقبل (فاسكو دي جاما) استقبال الفاتحين، وقد عبّر لملك البرتغال عن دهشته لما شاهده من مدن تزخر بالحياة والعمران، والنشاط الإقتصادي في ساحل شرق إفريقية.[2] وهكذا حصدت البرتغال - ومعها أوربا كلها - فوائد الكشوف الجغرافية، وتحققت أحلام أوربا في الوصول إلى مصادر السلع الشرقية دون المرور ببلاد المسلمين.

إنّ ماجسّده (كوفلهام) من خلال الوصف والتخطيط، جسّده (فاسكو دي جاما) على الواقع العملي، فقد استطاع ربط (لشبونه) بالهند اعتماداً على طريق رأس الرجاء الصالح، وكانت رحلته تلك لها أهمية قصوى في بلاط

---

١) تاريخ إفريقية جنوب الصحراء، ص ١٠٦.

2) Sousa, F., op.cit, vol. I., p. 64;

الغول ، الصراع بين العرب والبرتغال في شرق أفريقية، ص ١٠٠.

الملك البرتغالي، فقد قدم له (فاسكو دي جاما) حصيلة ماشاهده ومايجب عمله في المستقبل في ضوء الظروف التي واجهته، وأهمها مسألة وجود العرب والمسلمين على شاطىء المحيط الهندي الإفريقي والآسيوي، وأن السفن في المحيط الهندي أقل كفاءة من السفن البرتغالية المزودة بالمدفعية، إضافة إلى أنه من الممكن القيام بتجارة رابحة مع الهند، وإقامة مراكز ومستعمرات على سواحل المحيط الهندي، استناداً على التفوق البحري العسكري.[1]

إن ماذكره (فاسكو دي جاما) في البلاط الملكي في (لشبونه)، ولد دافعاً عند الملك (عما نويل) بالتفكير الجدي في الاستيلاء على ساحل شرق إفريقية أولاً، وضمه إلى الحكم البرتغالي. ومنذ ذلك الحين ركز البرتغاليون جهودهم نحو الساحل، وخصته حملاتهم بجزء كبير من نشاطها الحربي للسيطرة عليه، واقتلاع الوجود الإسلامي من شواطئه.[2] ويعزى الاهتمام البرتغالي بساحل شرق إفريقية لسببين هما : الأول - القضاء على الوجود العربي الإسلامي هناك، والسيطرة على تجارته، أما الثاني - فهو تهيئة ساحل شرق إفريقية ليكون بمثابة محطة إمداد وتموين للسفن البرتغالية من وإلى الهند، وقاعدة توفر الأمن والحماية لهذا الخط الملاحي. [3] وبوصول (فاسكو دي جاما) إلى ساحل شرق إفريقية والهند، يكون بذلك قد وضع أول ركيزة للاستعمار الأوربي للشرق الإسلامي في العصر الحديث.

---

1) Strandes, J., op.cit, p.37-8 ;

سعد زغلول عبدربه، البرتغاليون والبحر الأحمر، مجلة دارة الملك عبدالعزيز، العدد الثاني، السنة السادسة، الرياض ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ١١٠.

٢) حراز، إفريقية الشرقية والإستعمار الأوربي، ١٢.

٣) جمال قاسم، الاستعمار البرتغالي، ص ٦٨.

أدى النجاح الذي حققته حملة (فاسكو دي جاما)، ومايحمله من اقتراحات حول طبيعة بلاد الشرق وسبل السيطرة عليها، أدى ذلك بملك البرتغال إلى أن يعد حملة كبيرة بقيادة (الفاريز كابرال Alvarez Cabarl) عام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م، مجهزٍ بكل آلات الحرب المدمرة، ويتألف من حوالي ثلاث عشْرة سفينة على متنها ألف وخمسمائة رجل، وأمام هذا الحجم الكبير لهذه الحملة التي تفوق بكثير حملة (فاسكو دي جاما)، يظهر للمرء حجم الأهداف التي كلفت بتحقيقها والتي تتمثل في إظهار سلطة البرتغال في المحيط الهندي، والحصول على قواعد للسفن ومراكز تجارية في سواحل المحيط الهندي سواء بالمفاوضات أو باستخدام القوة، ومنع العرب والمسلمين من المتاجرة في ساحل شرق إفريقية وساحل ملبار ومهاجمة سفنهم في عرض البحر والاستيلاء عليها باستثناء سفن (ماليندي)، والعمل على نشر النصرانية.[1]

تحركت هذه الحملة من (لشبونه) عام ٩٠٦هـ / مارس ١٥٠٠م، وفي يوليو وصلت إلى (موزمبيق)، ومنها اتجهت إلى (كلوة)، وكان (فاسكو دي جاما) قد أكد لحكومته أهمية السيطرة عليها، لأن سلطتها تشمل أجزاء عدة من الساحل، لذا فقد سلم (كابرال) حاكمها رسالة من ملك البرتغال تدعوه إلى عقد معاهدة معهم، ولكنه رفض هذا الطلب، ويقال أن فحوى هذه المعاهدة تعني قبول السيادة البرتغالية، فغادرها (كابرال) بعد أن استعدّ حاكمها

---

١) حرّاز، إفريقية الشرقية والإستعمار الأوربي، ص ١٣ ؛ بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، ص ٣٩؛ سعد زغلول عبدربه، البحر الأحمر في العهد العثماني، ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٠٧.

للدفاع عنها.[1]

ولكن (كابرال) تمكن من إنزال أحد رجاله بحجة المرض إلى المدينة، ليقوم بدراسة أحوالها عن كثب، وبمثابة جاسوس يسجل مايدور فيها، ودراسة امكانياتها العسكرية والبشرية، ومدى قدرتها على الصمود،[2] ويأتي تركيز البرتغاليين على (كلوة) لأنها - كما ذكرنا - كانت تسيطر على مجموعة من الجزر والمدن، فأراد البرتغاليون إخضاع حاكمها ليتم لهم السيطرة على المناطق التابعة لها بسهولة، غير أن التجار العرب تدخلوا في الأمر، وبيّنوا لحاكمها خطورة الإقدام على خطوة كهذه مع البرتغاليين الذين كما قالوا يهدفون إلى الإستيلاء على البلاد وتجارتها.[3]

توجه (كابرال) إلى (ماليندي) وهناك استقبله حاكمها استقبالاً حسناً، فسلمه (كابرال) هداياه من ملك البرتغال رداً على الهدية التي كان قد بعث بها إلى الملك مع (فاسكو دي جاما)،[4] ويعكس هذا الموقف المتخاذل من حاكم (ماليندي) طبيعة العلاقات السائدة بين حكام المدن والإمارات في الساحل، حيث يُذكر أن سبب اتخاذ حاكم (ماليندي) هذا الموقف يعود إلى رغبته في طلب المساعدة من البرتغاليين لتقوية مركزه ودعم نفوذه في

---

١) المؤلف مجهول، السلوة في أخبار كلوة، ص ٥١؛ جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٢١٣؛

Krapf, J.L., op.cit, p.523.

٢) يذكر صاحب السلوة في أخبار كلوة، أن هذا البرتغالي لم يتم إنزاله في كلوة، وإنما كان من ضمن سبعة أنزلوا في مالندي، وكلف حاكم مالندي بإرسال واحد منهم إلى كلوة، ويضيف أن هذا وصل إلى كلوة، وتشاوروا في أمره، وقرروا أنه أمانة لابد أن أهلها سيأتون في طلبها، ويؤكد أنه جاء للتجسس على المدينة وأحوالها. انظر: السلوة في أخبار كلوة، ص ٥١ - ٥٢.

٣) جمال قاسم، الاستعمار البرتغالي، ص ٦٤ - ٦٥.

٤) جمال قاسم، الأصول التاريخية، ص ٩٣.

الساحل ضد بعض المدن وأهمها (ممباسه)، حيث أن التنافس بين هاتين المدينتين على أشده في تلك الفترة، وقد ذكر (أوين Owen) أن ساحل شرق إفريقية كان يعاني قبيل الغزو البرتغالي من انقسام وتمزق شديدين، وأن المنافسة محتدمة بين مدن الساحل وبخاصة (ماليندي) و (ممباسة)، ودخل دائرة المنافسة باقي المدن الأخرى، وكان ذلك فرصة للبرتغاليين الذين استطاعوا استغلال تلك الخلافات وتعميقها.[1]

لقد تمكن (كابرال) خلال إقامته القصيرة في (ماليندي) أن يرسل الرسل إلى الحبشة، لتقصي المعلومات عن أهلها وحاكمها الذين يدين بالنصرانية.[2] ومن المعتقد أن هدف (كابرال) من البحث عن الحبشة هو محاولة الاتفاق مع حاكمها على تقويض نفوذ العرب في ساحل شرق إفريقية بعدما ظهر لـ (كابرال) نفوذهم المؤثر على حكام المدن في هذه المنطقة، ومتى ماعرفنا أن النصرانية هي التي تحكم الحبشة، فإنه سبق أن ذكرنا بأن التحالف معها حلم يراود البرتغاليين ليضعوا سياساتهم وأهدافهم موضع التنفيذ.

أبحر (كابرال) من (ماليندي) بعد أن تزود بالمؤن في ٩٠٦هـ / ٧ أغسطس ١٥٠٠م متوجهاً إلى الهند، ووصل في الشهر التالي إلى (كاليكوت)، وقد كان وصولهم مفزعاً لحاكمها الذي رحب بهم، وسمح لهم دخول البلاد، ونجح (كابرال) في إقامة مركز تجاري صغير فيها، ومن ثم بدأ في تنفيذ بعض الأهداف المناطة بحملته، والمتمثلة بمهاجمة السفن والمراكب

---

1) Owen, W.F., Narrative of Voyages to Explore the Shores of Africa, Arabia and Modagscar, vol.II, (London,1833),p.416.

٢) المؤلف مجهول، السلوة في أخبار كلوة، ص ٥١؛ حراز، إفريقية الشرقية والاستعمار الأوربي، ص ١٣.

التجارية العربية والإسلامية، حيث بدأ يتحرش بها.[1] وقاموا بمهاجمة تلك السفن المحملة بالتوابل، وطلبوا من حاكم (كاليكون) منع العرب والمسلمين من العمل بالتجارة وطردهم من بلده، ووعدوه بأن التعامل معهم سيكون أكثر فائدة من تعامله مع العرب، ولكن الحاكم رفض ذلك الأمر الذي أدى إلى وقوع خلاف بينهما، قام على أثره الحاكم بمساندة العرب والمسلمين بمهاجمة مركزهم التجاري وقتل حوالي ستين برتغالياً، كما منعوهم من تحميل سفنهم بالتوابل، فاضطر (كابرال) إلى الرحيل من (كاليكوت) بعد أن ضربها بمدافعه، وضرب السفن الراسية فيها وأحرقها.[2]

توجه (كابرال) إلى (كوشين وكنانور) في الجزء الجنوبي من ساحل مليار، واللذين يخضعان رسمياً لحاكم (كاليكوت)، وأبرم معاهدة مع حاكميهما، وأقام مركزين تجاريين في كل منهما، ثم عاد إلى (لشبونة) بعد أن شحن سفنه بالتوابل، ووصلها في عام ٩٠٧هـ / يوليو ١٥٠١م.[3]

والواقع أن حملة (كابرال) لم تحقق أهدافها بشكل حاسم، صحيح إنه

---

١) المليباري، تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين، ص ٢٤٧.

٢) المصدرنفسه ، ص ٣٧٤.

٣) نفسه، ص ٣٧٤؛

Barbosa, D., op.cit, vol.I, pp.113-14.

ويذكر أن نجاح (كابرال) في إقامة مركزين تجاريين في كوشين وكنانور بهذه السرعة يعود إلى الخلاف القائم بين هذين الإقليمين وبين كاليكوت، حيث استغل ذلك (كابرال) وساعدهم على التخلص من جميع مظاهر تبعيتهم لحاكم كاليكوت، تلك المساعدة التي أدت إلى نجاح البرتغاليين في النفاذ إلى الأقاليم الداخلية خلف ساحل مليبار، حيث قاموا بإرسال مندوبيهم لدراسة واستكشاف تلك المناطق. لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر : Ibid, pp.155-56 .

نجح في إقامة مركزين تجاريين في (كوشين وكنانور)، ولكنه أخفق في إبراز سلطة ملك البرتغال وهيبته في ساحل شرق إفريقية عن طريق عقد معاهدات مع حكّام المدن والامارات الإسلامية في الساحل، كما أنه واجه مقاومة عسكرية في (كاليكوت) كبرى الولايات الهندية في تلك الفترة، ويعزى إخفاق (كابرال) في ذلك إلى حجم القوة التي وصل بها إلى المحيط الهندي، حيث وصل في ست سفن من أصل ثلاث عشرة سفينة، وذلك عندما تعرضت سفنه لعواصف شديدة عند عبوره رأس الرجاء الصالح، فدمرت بعض سفنه، وعادت بعضها إلى (لشبونه) بعد أن تضررت، بينما ضلت بعض القطع الأخرى الطريق.[١]

إن ماواجهه (كابرال) من رفض لسلطته في ساحل شرق إفريقية، واخفاقه في عقد معاهدة مع حاكم (كاليكوت) ومواجهته مع المسلمين هناك، قد عجّل بعودته إلى (لشبونه) يحمل انطباعاً فحواه، أن ثروات الشرق الهائلة لايمكن السيطرة عليها بالحملات العسكرية المتقطعة، حيث إن المسلمين لايزالون أقوياء في مناطقهم، لذا يتعيّن على البرتغال - إن كانت تريد السيطرة على ثروات الشرق - أن تحشد لهذا الأمر قوة عسكرية كبيرة أو تصرف النظر عن ذلك.[٢] ويلاحظ أن نشاط البرتغاليين في هذه المرحلة ارتكز على محاولة إيجاد موطىء قدم لهم على شواطىء المحيط الهندي الإفريقية والهندية، كما يلاحظ أيضاً تركز هذا النشاط منذ البداية على مهاجمة ونهب السفن التجارية الإسلامية، وماقام به (كابرال) في هذا الصدد يعتبر أول إشارة تهديد للسفن الإسلامية في المحيط الهندي.

---

1) Barbosa, D., op.cit, vol.I, pp.56-7;

جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٢١٣؛

بانيكار، آسيا والسيطرة العربية، ص ٣٨.

2) Sousa, F., op.cit, vol.I, p.63.

والواقع أنه كلما زاد التوجه البرتغالي إلى الهند والحصول على مكاسب هناك ازدادت أهمية ساحل شرق إفريقية بالنسبة لهم أيضاً، لأنه بات واضحاً أن أي قوة أوربية تهدف إلى السيطرة على المراكز الإقتصادية والإستراتيجية في الهند وسواحل شبه الجزيرة العربية والخليج العربي لابدّ لها من تأمين خطوطها الملاحية والتموينية، ولن يتأتى ذلك إلاّ بسيطرتها على ساحل شرق إفريقية، أو ضمان ولائه لها مادام الطريق الوحيد لهذه القوة هو رأس الرجاء الصالح، إضافة إلى ماستحصل عليه من مكاسب دينيّة واقتصادية، لذا فإنه من المؤكد أن من مقترحات (كابرال) التي قدمها إلى ملك البرتغال هي ضرورة فرض السيطرة البرتغالية على مدن وإمارات ساحل شرق إفريقية، وسنلاحظ مصداقية هذا التصور في الحملات البرتغالية التي تلت حملة (كابرال)، وعليه فقد قدّر لسكان الساحل أن يدفعوا ثمن الفاتورة الأولى من فواتير الاستعمار والتسلط البرتغالي الباهظة، ولاشك أن ذلك فرضه الموقع الفريد، والأهمية الإستراتيجيّة لساحل شرق إفريقية بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح.

* تأكيد السيطرة البرتغالية على ساحل شرق إفريقية :

لقد برزت أهمية ساحل شرق إفريقية بعد أن تمكن البرتغاليون من ربط أوربا بالهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، وقد قدّرت البرتغال تلك الأهمية لاعتبارات دينية واقتصادية إضافة إلى الأهمية الإستراتيجيّة، التي ستجعلهم في موقع أفضل يمكنهم من السيطرة على الطريق الملاحي بين الشرق ورأس الرجاء الصالح، ويؤمن خطوط تموينهم، إضافة إلى قربه من مدخل البحر الأحمر، حيث يمكنهم استراتيجياً من مراقبته، ومنع المساعدات التي قد يقدمها السلطان المملوكي للمسلمين في الهند

وساحل شرق إفريقية، أو إرسال أسطول مملوكي إلى تلك الأنحاء.

لذا دفعت البرتغال بـ (فاسكو دي جاما) للمرة الثانية عام ٩٠٨هـ / فبراير ١٥٠٢م، في أسطول يتكون من عشرين سفينة حددت مهمته بالآتي: تأكيد السيطرة الرتغالية على ساحل شرق إفريقية، وإغلاق منافذ البحار المطلة على المحيط الهندي وبخاصة البحر الأحمر، وجعل التجارة في تلك المناطق حكراً على البرتغاليين، ومنع العرب والمسلمين من الإشتغال فيها، وتوفير الحماية للمراكز البرتغالية في (كوشين وكنانور) في ساحل مليبار، كما حددت مهمة جزء من هذا الأسطول بمهاجمة المراكب التجارية العربية والإسلامية في المحيط الهندي.[١]

وصل (فاسكو دي جاما) إلى (كلوة) وكان قد أدرك أهميتها من خلال رحلته الأولى، وفور وصوله إليها بدأ بقصفها بالمدافع بكل عنف، متبعاً في ذلك سياسة التخويف، ثم فرض حصاراً عليها، وهدد بحرقها إذا لم يستجب حاكمها لمطالبه، الأمر الذي دفع الحاكم إلى الاعتراف بسلطة ملك البرتغال على المدينة، وذلك بموجب اتفاقية أبرمت بينهما تعهد فيها حاكم (كلوة) بدفع ضريبة كبيرة قدّرت بـ (١٥٠٠٠) مثقال من الذهب.[٢] ولكن حاكم (كلوة) رجع عن اتفاقه مع (فاسكو دي جاما) بمجرد مغادرة الأسطول البرتغالي المدينة.[٣]

---

1) Sousa, F., op.cit, vol.I. p.64;
Gray, J., Early Portugese Missionaries in East Africa, (London, 1960), p.5;
حراز، إفريقية الشرقية والاستعمار الأوربي، ص ١٤.

2) Sousa, F., Op.cit, vol.I, p.64;
عبدالرزاق عثمان، البرتغاليون في شرق إفريقية، ص ٣٧.

٣) حراز، إفريقية الشرقية والاستعمار الأوربي، ص ١٤.

والواقع أن البرتغالي الذي نزّله (كابرال) في (ماليندي) والذي تم إرساله إلى (كلوة) - كما ذكرنا سابقاً - قد قام بدور فاعل في تلك الأحداث، ويشرح ذلك صاحب (السلوة في أخبار كلوة) بقوله: «في سنة الثامن بعد تسعمائة من الهجرة وصل نوخذا[1] المذكور أولاً[2] في عدة مراكب، فلما وصل طلع إليهم ذلك النصراني[3] وأخبرهم بجميع الأخبار وحال البلاد، وذكر لهم أنه لايصلح للولاية على كلوة سوى حاج محمدين ركن الدين[4] لأنه صاحب فضل ومروءة، وصاحب البلد الذي فيها (أي السلطان إبراهيم) ليس له مروءة مع كثرة أمواله، لكن إشترِطوا عليهم بأن يُطْلِعوا عليكم الأمير إبراهيم يحصل بذلك جزيل الهبات، فأرسل النصراني في طلب إبراهيم، فأرادوا أن يشخّصوا له شخصاً آخر فنبههم ذلك النصراني (أي الجاسوس) فلمّا لم يجدوا منه بد جهزوا الأمير إبراهيم، وطلّعوه إلى مركبهم.»[5] وعلى هذا النحو فمن المحتمل أن البرتغاليين لم يأخذوا ولو مؤقتا بنصيحة (جاسوسهم) بعزل السلطان (إبراهيم) وتوليه الحاج

---

١) نوخذا : أي قائد السفينة أو ربان السفينة.

٢) المذكور أولاً : أي الذي أول من جاء من قادة البرتغالين، ويلقبه المؤلف بـ (نوخذا المرتي) والمقصود به (فاسكو دي جاما)، حيث يشير المؤلف في ذكر أول من وصل من البرتغاليين بقوله: «وفي أثناء دولة الفضيل وصل خبر بأنه ظهر قوم من بلاد الافرنج، وهم ثلاثة مراكب واسم نوخذهم المرتي، انظر: السلوة في أخبار كلوة، ص ٥٠.

٣) النصراني : المقصود به الجاسوس.

٤) حاج محمد ركن الدين : لم يذكر المؤلف هل هو من العائلة الحاكمة أم لا، ولكنه يشير إليه بقوله : «قام النصراني في البلاد وتجسس على أحوالها والبحث عن جميع الأمور، وحاج محمد يعرف كل شيء ويخبره بكل أخبار من قليل وكثير، لأنه كان منطوياً على دغل وفتنة قديم» انظر: السلوة في أخبار كلوة، ص ٥٢.

٥) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(محمدين ركن الدين)، ويبدو أنهم بذلك لم يريدوا إثارة الأهالي، ففضلوا عقد معاهدة مع السلطان (إبراهيم)، ولكننا سنرى أن عزله سيتم، وذلك عند قدوم حملة (د الميد) كما سيأتي ذكره.

تحرك الأسطول البرتغالي متجهاً إلى (ماليندي)، وهناك قام بإحراق بعض السفن الإسلامية القادمة من الهند، واستولى على عدد منها، وقبل أن يتوجه الأسطول إلى الهند، قام (فاسكو دي جاما) بفصل خمس سفن من الأسطول وعيّن عليها (سودر Sodre) قائداً، وأوكل إليه مهمة الإبحار قبالة مدخل البحر الأحمر لمهاجمة السفن الخارجة منه والقادمة إليه من الهند،[1] كما ترك مجموعة أخرى من السفن قبالة ساحل شرق إفريقية مهمتها ملاحقة السفن الإسلامية ومصادرتها أو تدميرها، ثم واصل سيره إلى ساحل ملبار، وهناك وطد النفوذ البرتغالي في (كوشين وكنانور)، ثم قفل راجعاً إلى (لشبونه) حيث وصل إليها عام ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م.[٢]

لقد اتضح للمسلمين من خلال هذه الحملة حجم الخطر الذي يواجهونه وتواجهه تجارتهم في المحيط الهندي، من خلال الوحشية والعنف الذي انتهجه البرتغاليون، فقد قاموا بمطاردة السفن الإسلامية واحراقها أو الاستيلاء عليها، والاعتداء على المسلمين في المدن والمراكز التجارية دون تمييز.[٣] ويلاحظ أن البرتغالين أخذوا يركزون

---

1) Sousa, F., op.cit, vol.I, p.65.

٢) المليباري، تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين، ص ٢٤٨؛
حراز، إفريقية الشرقية والاستعمار الأوربي، ص ١٤.

٣) الشلّي : جمال الدين محمد بن أبي بكر بن أحمد، السنا الباهر بتكميل النور الساهر في أخبار القرن العاشر، مخطوط مصور على ميكروفلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٦٩٩، ورقة ٦٧.

على تحطيم وإضعاف سلطنة (كلوة) وسيظهر ذلك جلياً في الحملات القادمة، كما أنهم عزّزوا تحالفهم مع حاكم (ماليندي) الذي وفّر لهم محطة آمنة يمكنهم التوقف فيها والتزود بالمؤن، كما يلاحظ أيضاً اهتمام البرتغالين بدعم أساطيلهم وتعزيزها في المحيط الهندي، بحيث كانت الأساطيل تخرج تباعاً ودون انقطاع، الأمر الذي أعطى البرتغاليين الموجودين في الشرق نوعاً من الإطمئنان في مواقعهم، ومكنهم من المضي قدماً في تركيز وجودهم، وجدير بالذكر أن (فاسكو دي جاما) قد ترك جزءاً من أسطوله في المحيط الهندي لمراقبة السفن الإسلامية وتدميرها، وتوفير الحماية للبرتغاليين في (كوشين وكنانور) في الهند، وفي (ماليندي) في ساحل شرق إفريقية.

لقد كان تأثير هذه الحملة واضحاً على المبادلات التجارية التي كان يقوم بها المسلمون، ومما يدل على ذلك أن سفن البندقية لم تستطع أن تحمل في عام ٩٠٨هـ / أواخر ١٥٠٢م من موانىء مصر والشام سوى نصف الكميّة التي تعودت أن تحملها من قبل، وبدأت بذلك تقل أهمية مصر التجارية كمنطقة عبور عالمية.[١]

في العام التالي دفعت البرتغال بأسطول آخر بقيادة (لورانزو رافاسكو Loranz Rafasco)[٢] الذي أوكل إليه بعض المهام في ساحل شرق

---

١) يوسف الثقفي، موقف المماليك ودول الخليج العربي من النفوذ البرتغالي في القرن السادس عشر الميلادي، ص ١٤٧.

٢) هذا الأسطول جزء من أسطول كبير، أرسلته البرتغال عام ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م، وعند وصوله للمحيط الهندي قسم إلى أساطيل صغيره، لكل منها مهمة خاصة، حيث اختص (رافاسكو) بساحل شرق إفريقية، و(البوكيرك) بحماية المراكز البرتغالية في (كوشين وكَنانور)، و (سلادانا Soldana) أوكلت إليه مهمة مهاجمة السفن العربية والإسلامية في القرن الإفريقي بالقرب من مدخل البحر الأحمر. انظر :
Sousa, F., op.cit, vol.I, p.72.

إفريقية، حيث ظل يبحر قبالة الساحل لمدة شهرين، استولى خلالها على عدد من السفن الإسلامية المحملة بالعاج والصمغ والمنسوجات القطنيّة، وهاجم (زنجبار) وقصفها بمدافعه، وأرغم حاكمها على توقيع اتفاقية يدفع بموجبها ضريبة من الذهب، ويعلن خضوعه لملك البرتغال كما هاجم بعض المدن الأخرى.[1] ومن الملفت للنظر أن الحملات البرتغالية في هذه المرحلة ارتكزت على عاملين رئيسين هما : الأول - محاولة إقامة مراكز لهم في الشرق، إما عن طريق القوة أو عن طريق إبرام المعاهدات مع الحكام المحليين، ولكننا نلحظ عدم الجدّية التامة من البرتغاليين في تنفيذ ذلك رغم عدم مواجهتهم لمقاومة تذكر، بل أن حملاتهم تأتي وسرعان ماتعود محملة بالتوابل، وفي تقديري أنه السبب الذي يعجل بعودة السفن إلى (لشبونه) قبل تنفيذ كامل أهدافها، وبهذا يكونون قد وجهوا ضربة غير مباشرة للتجارة العربية والإسلامية عن طريق عرض بضائع الشرق في (لشبونه) وبأسعار أقل. أما الثاني - فهو : توجيه ضربة مباشرة للتجارة العربية والإسلامية عن طريق تدمير سفنهم ونهبها وإحراقها، وإثارة الفزع والخوف، واتباع مختلف أشكال الوحشية، ومن الملفت للنظر أيضاً ان البرتغاليين رغم مضي حوالي ثلاث سنوات على ظهورهم لأول مرة في الشرق، لم يواجهوا أي قوة اسلامية أو عربيّة، أو تكتل عربي إسلامي[2]

---

1) Ibid, p.74;

أحمد حمود المعمري، عمان وشرق إفريقية، ترجمة محمد أمين عبدالله، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ٥٠.

٢) يعزو بعض المؤرخين والباحثين العرب والمسلمين تفوق البرتغاليين المبكر في الشرق إلى تقدمهم في سلاح المدفعيّة كعامل أولي، بينما يأتي عدم وجود قوة إسلامية فاعلة في الشرق كعامل ثانوي. وفي تقديري أن عدم وجود قوة عربية إسلامية وعدم توحد وتكتل القوى الإسلامية المتناثرة في الشرق هي العامل الرئيس الذي أدى إلى تلك النتيجة، ويقع اللوم في المقام الأول على الدولة المملوكية والتي كانت تمر بأسوء حالاتها، وفي الوقت نفسه لايمكن اغفال التفوق البرتغالي في نظام التسليح.

مما يعكس طبيعة الأوضاع السائدة في المنطقة وعدم تماسكها وتوحدها رغم الخطر الكبير الذي كانت تواجهه مقدساتهم وتجارتهم.

اتخذت حكومة البرتغال عام ٩١١هـ / ١٥٠٥م قراراً يقضي بإقامة أول حكومة استعمارية في الشرق، وعُيِّن (فرانسسكو دا الميدا Fransisco Da Almeida) نائباً للملك في الشرق، الذي أبحر في العام نفسه يقود أسطول يتألف من عشرين سفينة و (١٥٠٠) جندي. وتوحي ضخامة هذا الأسطول وعدد جنوده بالمهمة التي يحملها على عاتقه، والتي من أهمها، إقامة عدد من المراكز والقواعد العسكرية التجارية في ساحل شرق إفريقية والهند، وتدمير القوى البحرية في المنطقة التي من الممكن أن تهدد سلامة وأمن هذه المراكز، وعدم اتاحة الفرصة لأي نشاط بحري مملوكي وتدمير الموانىء المتوقع استفادته منها.[١]

تركزت جهود (دالميدا) في ساحل شرق إفريقية على إقامة القلاع والمراكز التجارية، حيث بدأ بمهاجمة (سفاله) وسيطر عليها، وأمر ببناء قلعة فيها تضمن لهم السيطرة على مناجم الذهب فيها وإرساله إلى البرتغال.[٢] ثم توجه بعد ذلك إلى (كلوه)، ونظراً لأن حاكمها (إبراهيم) لم يلتزم بالمعاهدة التي كان قد عقدها مع (فاسكو دي جاما)، فقد قام (دالميدا) بإنزال عدد كبير من رجاله إلى المدينة، وبعد قتال عنيف في الشوارع والطرقات، واحراق المنازل والمساجد، تمكن البرتغاليون من عزل حاكم المدينة وتعيين حاكم آخر[٣] ولم يجد أهالي كلوة أمام هذه الوحشية خياراً

---

1) Coupland, R., op.cit, pp.43-44.

2) Sousa, F, op.cit, vol.I, p.103.

٣) من المحتمل أن يكون الحاج (محمد بن ركن الدين) كما أوصى بذلك الجاسوس الآنف الذكر. انظر الصفحة رقم (١٢٦)

سوى الموافقة على دفع ضريبة سنوية من الذهب والاعتراف بالسيادة البرتغالية عليهم، كما أقام البرتغاليون قلعة كبيرة على الساحل يسيطرون من خلالها على المدينة.(١)

في (كلوة) عمد البرتغاليون إلى إظهار بعض الطقوس النصرانية عند هجومهم عليها، ويشرح ذلك المؤرخ البرتغالي (باروس Barose) بقوله: «كان مقرراً أن ينزلوا إلى المدينة في عشية عيد القديس جمس، وعند الفجر وبأمر من دالميدا أُطلق نداء النفير، وعندما تجمّعوا قاموا بالإدلاء باعتراف عام لرئيس الكهنة الذي منحهم الغفران العام بموجب الأمر البابوي الذي يعطى لمن يهلك في سبيل العقيدة، وعندما تم الهجوم وسيطروا على المدينة هبط رئيس الكهنة ومعه بعض الآباء الفرنسيسكان إلى البر ومعهم صليبان وتوجهوا إلى القصر يرتلون تسبيحة الشكر، ووضعوا فيه صليباً على الورق، ثم أدى دالميدا الصلاة، وبعدها أمر جنوده بنهب المدينة وسلب كل مافيها من بضائع ومؤن.»(٢)

توجه (دالميدا) بعد ذلك إلى (ممباسه)، ودعا حاكمها إلى الإستسلام فلما رفض قام بقصف المدينة ثم أحرقها، بعد ذلك أخذ ببناء بعض الحصون، كما أرغم حاكم (لامو) على الاستسلام ودفع ضريبة سنوية.(٣) ومن رسالة كان قد بعث بها حاكم (ممباسة) إلى حاكم (ماليندي) بصفته حليفاً

---

١) جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٢٤٦؛ النقيره، انتشار الإسلام في شرق إفريقية ومناهضة الغرب له، ص ٣٠٩؛ المعمري، عمان وشرق إفريقية، ص ٥٠.

٢) نقلاً عن : فلبيس وندال، تاريخ عمان، وزارة التراث والثقافة بعمان، الطبعة الثانية، مسقط ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ٤٤ - ٤٥.

3) Sousa, F. op.cit, vol.I, p.103.

للبرتغاليين، يطلعه فيها على ما أحدثه (دالميدا) من دمار في مدينته، نقف على حجم المأساة التي تعرضت لها مدن وأمارات ساحل شرق إفريقية، وقد جاء في تلك الرسالة: (بارك الله فيكم ياسيّد علي، أكتب هذا لأبلغكم أن سيداً عظيماً قد مرّ بهذه البلدة وأحرقها وتركها خراباً... وقد جاء إلى البلدة بقوة ووحشية بالغة حتى أنه لم يترك رجلاً أو امرأة كهلاً أو شاباً... بل وأصغر طفل... حتى أولئك الذين فرّوا من ضرواته... وهو لم يكتف بقتل الرجال وإحراقهم، بل وأسقط حتى الطيور في السماء، إن رائحة الجثث في البلدة بلغت حداً شنيعاً حتى أنني لاأجرؤ على الذهاب إلى هناك، كما لم أستطع التأكد أو تقدير مدى مانهبوه من ثروات البلدة.)[1] إن هذه الرسالة النابضة بالحياة لاتتعدى كونها شعوراً بالمرارة من حاكم (ممباسه) مما حدث، وتذكيراً لحاكم (ماليندي) بوحشية حلفائه وهمجيتهم.

الجدير بالذكر أن وحشية البرتغاليين قد بلغت حداً كبيراً في (ممباسه) حيث قتل معظم سكانها، وفرّ الباقون إلى خارج البلدة، ونهب البرتغاليون كميات هائلة من ثرواتها بما فيها من ذهب وفضة وعاج لدرجة أن سفنهم لم تستطع حمل كل مانهبوه، واختتموا ذلك بإحراق البلدة كعادتهم.[2] ويلاحظ أن (دالميدا) ركز بشكل أساسي على مدينتي (كلوه) و (ممباسه)، فالأولى تعني السيطرة عليها أو إخضاعها السيطرة على مساحة شاسعة من ساحل شرق إفريقية، أما الثانية فنسبة إلى موقعها الإستراتيجي الهام بالنسبة للبرتغاليين، ولكونها مركزاً تجارياً للسفن القادمة من الهند وسواحل الجزيرة العربية والخليج العربي والذاهبة إليها، إضافة إلى أنه ليس من المستبعد أن الوحشية التي انتهجها (دالميدا) في (ممباسه) القصد منها تدميرها بحيث لاتستطيع تهديد (ماليندي) مركزهم الآمن، وذلك عطفاً على

---

١) فليبس وندال، تاريخ عمان، ص ٤٦.

2) Coupland, R., Op.cit, pp. 44-5.

الخلاف بين المدينتين.

لقد كانت السياسة البرتغالية الرسمية فيما يتعلق بساحل شرق إفريقية ترتكز منذ البداية على احتلال الساحل، والقضاء على الوجود الإسلامي فيه، والسيطرة على تجارته، ولم تفكر إطلاقاً في توسيع مستعمراتها نحو الداخل، لأن ذلك يشكل عبئاً عسكرياً ومالياً وإدارياً، إضافة إلى شعورهم بتعذر الدفاع عن مراكزهم إذا كثر عددها وتباعدت المسافة بينها،[1] وبخاصة أن البرتغال تعاني من قلة الإمكانات البشرية، ولهذا كانوا مدركين أن التوغل إلى الداخل عملية كثيرة التكاليف، فحصروا وجودهم في الساحل، الأمر الذي أدى إلى نمو القوى الوطنية في الداخل بعيداً عن قسوتهم وبطشهم».[2] والواقع أن هذه سياسة (دالميدا) الذي كان يرى أن البرتغال لاتستطيع التورط في شئون البر، لأن الإنفاق على الجيوش البرية والبحرية معاً سيكون عبئاً كبيراً تنوء تحته امكانيات البرتغال المادية والبشرية، ويرى أيضاً أن تكتفي البرتغال بإنشاء المحطات والمراكز الضرورية لتموين السفن وحماية خطوط الملاحة والأسطول، لتضمن عدم تشتيت القوى، وتجعل من المتعذر الدفاع عن المراكز والقلاع البرتغالية إذ كثر عددها وتباعدت المسافة بينها.[3] ونستطيع القول في ضوء هذه المعطيات إن حملة (دالميدا) قد تمكنت من تحقيق معظم أهدافها في ساحل شرق إفريقية، والتي كانت ترمي بصفة أساسية إلى إقامة المراكز التجارية، والقواعد العسكرية التي يستتند عليها الأسطول البرتغالي في تحركاته في المحيط الهندي، إضافة إلى فرض

---

١) جيان ، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٢٤٦.

٢) صلاح الدين حافظ، صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي، عالم المعرفة، الطبعة الأولى، الكويت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ٥٣.

٣) حراز، افريقية الشرقية والاستعمار الأوربي، ص ١٥.

سلطة البرتغال على معظم مدن وإمارات الساحل.

في عام ٩١٢هـ / ١٥٠٦م خرج أسطول برتغالي من (موزمبيق) للقيام بعملية تأديبيّة ضد بعض مدن الساحل، ولإحكام السيطرة عليها، حيث توجه إلى كل من (مدغشقر) و (كلوة)، ثم توقف في (ماليندي)، وبعدها توجه إلى (براوه) التي أضطرت إلى دفع ضريبة لهم.(١)

عمد البرتغاليون منذ البداية في ساحل شرق إفريقية إلى عزل الساحل عن الداخل، ومنع سكان الساحل من الاتصال بالقبائل الأفريقية، مانعين بذلك تدفق سلع الداخل إلى الساحل والتي يقوم التجار العرب بتصديرها إلى مواني الخليج والجزيرة العربية،(٢) كما عمدوا إلى إثارة المنازعات والحروب الأسرية بين سكان الساحل بقصد إضاعفهم ومن ثم الانقضاض عليهم، وأيضاً عمدوا إلى قطع الاتصالات القائمة بين سكان ساحل شرق إفريقية وعرب الخليج والجزيرة العربية، ومنع قدوم هجرات جديدة إلى الساحل.(٣)

إن هذا التطور السريع للوجود البرتغالي في ساحل شرق إفريقية والمحيط الهندي يعزى جزء منه دون شك إلى تفوقهم العسكري، حيث يملكون البنادق النارية، والسفن المسلحة بالمدافع وغيرها من الأسلحة

---

١) حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م، ص ١٧٨.

٢) بازل دافيدسن، إفريقية تحت أضواء جديدة، ص ٤١٦.

3) Boxer, C., Four Centuries of Portugese Expansion, (London, 1961), p.141;

جمال قاسم، الاستعمار البرتغالي، ص ٦٨.

النارية التي لم تكن معروفة من قبل في تلك المناطق،[١] كما استعمل البرتغاليون المدافع خارج السفن أحياناً، وكانت تحمل على عربات يدفعها الرجال أو تجرها الخيول في بعض الأحيان عند النزول إلى البر[٢] ولكن - كما ذكرنا سابقاً - فإنه يظل عامل التنازع والتناحر بين حكام ومدن وإمارات ساحل شرق إفريقية رائداً في إتاحة الفرصة لفرض السيطرة البرتغالية بسهولة، حيث كان كل من أولئك الحكام يحاول زيادة نفوذه على حساب المدن الأخرى.

ويمكن القول أيضاً إن الوجود الإسلامي في ساحل شرق إفريقية كان وجوداً حضارياً واقتصادياً قام على أكتاف المهاجرين والعلماء والتجار من العرب وغيرهم، ولم يعتمد على التوسع العسكري، وبذلك لم تكن لديهم قدرات عسكرية كبيرة يعتمدون عليها في حالات الخطر الخارجي، الأمر الذي سهل للبرتغاليين السيطرة عليهم،[٣] كما أدى انشغال القوى الإسلامية الكبرى وبخاصة المماليك بمشاكلهم وخلافاتهم إلى عدم تقديم العون والمساعدة الواجبة لاخوانهم في ساحل شرق إفريقية.[٤]

فقد كانت دولة المماليك في مصر أكثر الدول الإسلامية الكبرى آنذاك شعوراً بخطر البرتغاليين، وبخاصة فيما يتعلق بمحاولاتهم تحويل طرق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح، وتهديد الأماكن المقدسة، مما كان يعني توجيه ضربة قاصمة للمصالح الإقتصادية والعسكرية والسياسية للمماليك.[٥]

---

١) النهروالي ، البرق اليماني في الفتح العثماني، ص ١٩.

٢) أحمد بوشرب ، دكالة والاستعمار البرتغالي، ص ٢١٢.

٣) جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٢٤٦.

4) Jackson, M., European Powers and South East Africa,(London, 1942), p.7.

٥) محمد أمين صالح، تجارة البحر الأحمر في عصر المماليك الجراكسة، ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٦٥ - ١٩٦.

لذا فقد كان من الطبيعي أن يثير النشاط البرتغالي في المحيط الهندي ثائرة المماليك، الذين قاموا لمواجهة ذلك بنشاط سياسي وعسكري، حيث اتصلوا بالبندقية،[1] وبالعثمانيين، وبأمراء المسلمين في اليمن والهند،[2] كما قاموا بإستعداد عسكري، وشرعوا في بناء السفن في السويس، والتي تمخضت عن إرسال حملة بقيادة (حسين الكردي) لمواجهة البرتغاليين، والتي وصلت إلى (ينبع) ثم (جدة) ومنها إلى المحيط الهندي مروراً بالموانيء اليمنيّة، وفي عام ٩١٤هـ / أواخر ١٥٠٨م، أحرز

---

١) البندقية : احدى المدن الإيطالية التجارية، والتي على علاقة تجارية قوية مع الشرق عن طريق مصر، وبعد وصول البرتغاليين إلى الشرق، كانت البندقية من الذين تأثروا سلبياً بتحويل طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح، لذا فقد حثت البندقية المماليك بضرورة القيام بعمل من شأنه الحد من خطورة البرتغاليين، وقد بعثت بوفدين إلى القاهرة الأول عام ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م، والثاني ٩١٠هـ / ١٥٠٤م، وذلك لتحذير السلطان المملوكي من خطورة سيطرة البرتغاليين على تجارة المحيط الهندي وسيادته، وأنه لابدّ له من القيام بعمل يحد من تلك الخطورة، وعليه أن يتصل بأمراء الهند ليقوموا بقفل موانئهم بوجه البرتغاليين وغير ذلك من المقترحات، ولكن السلطان المملوكي أوضح لهم بأنه لوحده لايستطيع القيام بهذه المهمة، ويجب على البندقية مساعدته في هذا، ولكن البنادقة لم يستطيعوا مساعدة المماليك خوفاً من لوم أوربا لهم وتهديد ملك البرتغال لهم أيضاً، فأقترحوا على السلطان المملوكي تخفيض أسعار التوابل في مصر لكي يستطيعوا منافسة البرتغال في أوربا ولكن ذلك لم يجد، وبعد هزيمة المماليك في معركة (ديّو) الشهيرة عام ٩١٥هـ / ١٥٠٩م على يد البرتغاليين، لم يجد البنادقة بداً من التوجه إلى (الشبونه) لشراء التوابل كبقيّة الأوربيين.

لمزيد من التفصيل انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ٢٠١؛ شارل ديل، البندقية جمهورية أرستقراطيّة، ص ١٤٨ - ١٥٣؛ أحمد دراج ، المماليك والفرنج، ص ١٣٣.

٢) الكبسي : محمد اسماعيل بن يحيى بن بدر الدين الكبسي الحسني، مخطوط، اللطائف السنّية في أخبار الممالك اليمنيّة، مكتبة القاضي محمد الأكوع الخاصة بتعز، رقم ٢٣٦، ورقة ٥٨؛ أحمد دراج، المماليك والفرنج، ص ١١٥ - ١١٦.

(حسين الكردي) انتصاراً مؤقتاً على البرتغاليين في (شيول) على ساحل الهند الغربي جنوب (بمباي)، ولكن آمال المماليك ومعهم المسلمون قد تبددت بهزيمة الأسطول المملوكي في (ديو)[١] عام ٩١٥هـ / فبراير ١٥٠٩م على يد البرتغاليين بقيادة (د الميدا).[٢]

ورغم وقوع هذه المعركة في المياه الهندية، إلاّ أنها حدث ذو أهمية بالغة لتاريخ ساحل شرق إفريقية، فقد تمكن البرتغاليون إثر ذلك الانتصار من السيطرة على البحار الجنوبية والغربيّة للمحيط الهندي، وأصبح البرتغاليون قادرين على نقل جنودهم إلى أي جهة يريدونها براً وبحراً طالما أنه لم تعد هناك قوة بحرية تستطيع اعتراض سفنهم، الأمر الذي حقق لهم المزيد من المكاسب، وأعطاهم الفرصة من جديد لتحقيق كامل أهدافهم، وفرض الحصار على البحار العربية،[٣] وكان المسلمون في ساحل شرق إفريقية ينظرون إلى المماليك في مصر أنهم القوة الوحيدة التي تستطيع

---

١) ديو جزيرة تقع على ساحل الهند الغربي، وتشكل مع (دامان وجوا) ولاية اتحاد هندية ويعد من الاتحادات الساحليّة الهامة للهند الحديثة، وتبلغ مساحتها (٤٠كم٢)، وقد اتخذها (دالميدا) مقراً للحكومة البرتغالية في الشرق حتى عام ٩١٦هـ / ١٥١٠م عندما تم نقل مقر الحكومة إلى (جوا). انظر: المليباري، تحفة المجاهدين، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ من المقدّمة.

٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٥٦؛ المليباري، تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين، ص ٢٥٢ - ٢٥٣؛

Sousa, F. op.cit, vol.I, pp. 146-9;

يوسف الثقفي، موقف المماليك ودول الخليج من النفوذ البرتغالي، ص ١٥٠.

3) Barbosa, D., op.cit, vol.I, p.61;

حراز، إفريقية الشرقية والاستعمار الأوربي، ص ١٥؛ الرمال، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص ١٢٥ - ١٢٦.

الوقوف بجانبهم، ودرء الخطر عنهم، ولكن هزيمتهم في (ديّو) قد بددت الآمال التي كانوا يتطلعون إليها.

بعد إخفاق المماليك في معركة (ديو) اتخذوا خططاً دفاعية داخل البحر الأحمر، وذلك في (سواكن وزيلع) على الجانب الغربي من البحر الأحمر كخط دفاع أول، وسهل تهامه و (جدة) كخط دفاع ثان على جانبه الشرقي.[1] والواقع أن إخفاق المماليك في التصدي للبرتغاليين بث حالة من الرعب بين سكان ساحل شرق إفريقية، الذين اضطروا إلى الاستمرار في خضوعهم للبرتغاليين، حتى تمكن اليعاربه العمانيون من تصفية وجودهم هناك في القرن الثاني عشر الهجري - السابع والثامن عشر الميلاديين.

إن بداية القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي - يعد بداية انهيار العصر الذهبي لمدن وامارات ساحل شرق إفريقية على يد

---

١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ٢٨٦؛ شوقي عطا الله الجمل، دور مصر في إفريقية في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص ١٠٤. ومن الجدير بالذكر أن دولة المماليك تعرضت لفترة عصيبة من الاضطرابات الداخلية الدامية خلال السنوات الأولى التي تلت وصول البرتغاليين إلى الشرق، وذلك بسبب التنافس بين الأمراء، وقيام حركات التمرد والعصيان في أوساط المماليك الجلبان، ونزوعهم إلى الاستبداد والنهب، وقد انعكس ذلك على عرش السلطنة، واهتز مركز الدولة اهتزازاً عنيفاً، وقد تعاقب على عرش السلطنة خلال ثلاث سنوات ٩٠٤ - ٩٠٧هـ / ١٤٩٨ - ١٥٠١م أي منذ وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي أربعة سلاطين، ولم يجد هؤلاء متسعاً من الوقت لتسخير إمكانيات الدولة لحرب البرتغاليين، الأمر الذي أدى إلى عدم نجاح جهودهم في التصدي للبرتغاليين.
لمزيد من التفصيل عن هذه المرحلة انظر : حمود النجيدي، النظام النقدي المملوكي؛ محمود رزق سليم، الأشرف قانصوه الغوري، مجموعة أعلام العرب، عدد ٥٢؛ الشناوي، المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية، ص ٦٩٦.

البرتغاليين، حيث سيطروا على تلك المناطق في مدة زمنيّة محدودة، وانتقلت السيادة من أيدي المسلمين إلى أيدي الصليبيين، وانتهج البرتغاليون سياسة اتسمت بالبطش والتنكيل، أدت إلى فرار العرب والسواحليين المسلمين إلى المناطق الداخلية، الأمر الذي هيأ الفرصة في الوقت نفسه إلى انتشار الإسلام بين القبائل الأفريقية في الداخل.[1] وقد ركز البرتغاليون على القسم الجنوبي من الساحل القريب من مناجم الذهب، والذي يتمتع بإعتدال مناخه نظراً لبعده عن خط الاستواء، لذا فقد قاموا بإنشاء مركزاً لهم في (سفاله)، وهو أول مركز إداري، وأهم نقطة بدأ عنها نشاط البرتغاليين التجاري والتنصيري، ثم نقلوا هذا المركز إلى (موزمبيق) في مطلع القرن الحادي عشر الهجري - السابع عشر الميلادي، [2] حيث اهتموا بتحصينها واعدادها قاعدة تجارية، وأمنيّة وتموينيّة، تخدم أساطيلهم العسكرية والتجارية التي تعمل فيما بين (لشبونه) والشرق، وأصبحت بذلك (لشبونه) سوقاً تجارية هامة للسلع الإفريقية والشرقية، وقد مثلت (موزمبيق) آنذاك محطّةً لشحن الرقيق الإفريقي إلى (لشبونه) التي فيها سوق كبير للرقيق الإفريقي يمد العالم الجديد كله بحاجته منهم، وقد قدّر عدد العبيد الذي بيع في سوق (لشبونه) عام ٩٤٦هـ / ١٥٣٩م بحوالي (١٠ر٠٠٠) عبد.[3]

اكتفى البرتغاليون في شمال الساحل بمحالفة حاكم (ماليندي)، بينما

---

1) Serjeant, R., op.cit, pp.10-11.

2) Grenvill, F., the Medivel, op.cit, p.134;

صلاح العقاد، جمال قاسم، زنجبار، مكتبة الأنجلوالمصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩، ص ٢٢.

٣) شوقي الجمل، الصراع العربي البرتغالي في المحيط الهندي والتحرر الإفريقي من الاستعمار البرتغالي، ص ١٨٤.

وقعت المدن الأخرى تحت السيادة البرتغالية، والاعتراف بسلطتهم عن طريق دفع الضريبة، وكان البرتغاليون قد أنشأوا في بعض مدن الساحل مستعمرات رئيسة وقواعد بحرية،[1] مثل (سفاله وموزمبيق) كما ذكرنا، و(كلوة)، كما أنشأوا مستعمرات أقلّ شأناً في مدن الساحل الأخرى مثل: (ممباسه، زنجبار، بمبا، بته)، أما بقية المدن فقد احتفظت ببعض نظمها المحليّة مقابل قبول السيادة البرتغالية ودفع الضريبة،[2] والتي كان البرتغاليون يولونها أهمية كبرى، ويعتبرون أداءها دليلاً على الطاعة والخضوع، وكانت هذه الضرائب تؤدى عينيّة من الحبوب أو المواشي، ولكن غالباً ماتؤدي نقداً.[3] ونلاحظ أن الاستعمار البرتغالي إتخذ شكلاً إستيطانياً في الجزء الجنوبي من الساحل بخلاف إستعماره لبقيّة الأجزاء الأخرى.

بدأ البرتغاليون فور سيطرتهم على ساحل شرق إفريقية بتنفيذ أهدافهم الدينيّة، فقد عملوا على تضييق الخناق على المسلمين، وتمثل ذلك بالمشروعات البرتغالية التي سعت إلى القضاء على مظاهر الحضارة الإسلامية، كما عملوا على نشر النصرانية، وظهر ذلك فيما أنشأوه من مراكز تنصيرية في مناطق متعددة من الساحل، على يد الأباء الكاثوليك من طوائف (سان أغسطين)، وطائفة (الآباء الجزويت) و (الدمنيكان).[4]

---

١) المغيري، جهينة الأخبار، ص ١٦٥؛ حراز، إفريقية الشرقية والاستعمار الأوربي، ص ١٨.

٢) صلاح العقاد، جمال قاسم، زنجبار، ص ٢٣.

٣) أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي، ص ٢٦٦.

٤) الدمينكان : طائفة من الجزويت انتسبت إلى القديس (دومينيكا Dominic)، وبدأت نشاطها في أسبانيا، وانتقل نشاط جماعة منهم إلى البرتغال، وكان لها نشاط خاص في العمل التنصيري في الصين والهند واليابان، وحين بدأت السيطرة البرتغالية على بعض أجزاء القارة الأفريقية، أسرع الدومينكان لضم هذا الميدان لنشاطهم. انظر: شوقي الجمل، الصراع العربي البرتغالي والتحرر الأفريقي، ص ١٩٥.

والذين عرفوا بحماستهم الشديدة لنشر الكاثوليكية ليس في الساحل فحسب، بل حاولوا التوغل إلى الداخل.[1] ويبدو في أول الأمر أن البرتغاليين انتهجوا سياسة يعتبرونها أكثر طموحاً من سياسة التجار العرب فيما يتعلق باستغلال مناجم الذهب، الواقعة في المناطق الداخلية في القسم الجنوبي من الساحل، وبالتحديد في منطقة حوض الزمبيزي الداخلية، وكان التجار العرب والسواحليون قبل قدوم البرتغاليين ينتهجون سياسة إرسال القوافل إلى هناك بالتعاون مع مملكة (مونوموتابا)[2] التي تسيطر على مناجم الذهب والفضة هناك.[3]

أما سياسة البرتغاليين الطموحة فكانت تهدف إلى ضم حوض الزمبيزي بأكمله إلى نفوذهم، وإنشاء حاميات ثابتة بالداخل تضمن السيطرة على مناطق الثروات، مع وضع إدارة برتغالية على القبائل التي تسيطر على مناطق المعادن، وقد جاء ذلك بناء على مقترحات المنصر (جونسالو دي سيلفيرا Goncalo Da Silveira)، الذي كان أول برتغالي يتسلل إلى الداخل ويعمل في حاشية ملك (مونوموتابا)، حيث استمر هناك لعدة سنوات،

---

١) جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٢٧٣. الكيّالي، الأسس الإقتصادية للاستعمار البرتغالي، ص ١١٠.

٢) مملكة مونوموتابا : تقع في حوض الزمبيزي في المنطقة الداخلية الواقعة فيما بين موزمبيق وسفالة، وهي تتكون من مجموعة من قبائل البانتو المهيمنة على مناجم الذهب في تلك المنطقة، ولها ملك يتولى إدارة شؤونها، وقد سميت تلك المنطقة فيما بعد (روديسيا) والتي أصبحت في أوائل القرن العشرين مستعمرة بريطانية، استقلت وقامت بها حكومة ارتكزت على سياسة الفصل العنصري وتنحدر من أصل أوربي، وبعد إنهاء تلك الحكومة في أواخر السبعينيات من هذا القرن، قامت بها حكومة وطنية إفريقية، وسميت بعد ذلك (زمبابوي). انظر: وايدرنر، إفريقية جنوب الصحراء، ص ١٠٦ - ١٠٩؛ النقيرة، انتشار الإسلام في إفريقية، ص ٣٤٢.

٣) صلاح العقاد، جمال قاسم، زنجبار، ص ٢٤.

استطاع اقناع الملك ورجال حاشيته باعتناق النصرانية، ولكن وشي به لدى الملك الذي ارتد عن النصرانية، وقتل هذا المنصر وغيره من المنصرين الآخرين، كما نكّل أيضاً بمن اعتنق النصرانية من أتباعه، وقد جاء ذلك فيما بين عامي ٩٦٥ - ٩٩٧هـ / ١٥٥٧ - ١٥٨٨م،[١] واتخذ البرتغاليون تصرف الملك مبرراً لإعلان الحرب على (مونوموتابا)، فأرسلوا حملة بقيادة (فرانسسكو باريتو Francisco Barreto) الذي إستطاع أن يفرض على تلك المملكة الشروط التي تحقق الأهداف البرتغالية ومن أهمها: طرد العرب والمسلمين الموجودين في بلاط الملك والمملكة، واعطاء المنصرين الحرية للقيام بأعمالهم على الوجه الذي يريدونه، والتنازل على مناجم الذهب في المنطقة،[٢] ونظراً لأنه لم تكن لدى البرتغال القوة البشرية الكافية لإحتلال كل منطقة الزمبيري، فقد تعذر تنفيذ كامل الشروط البرتغالية، واعتبرت تلك الحملة فاشلة رغم تحقيق بعض الأهداف مؤقتاً. وكل ما استطاعت عمله تلك القوة العسكرية أنها حالت دون نمو قوة العرب والسواحلية المسلمين السياسية والاقتصادية المناهضة لهم.

لم يستطع البرتغاليون الوصول إلى مناجم الذهب إلاّ نادراً، كما أن القبائل الإفريقية حالت دون معرفة البرتغاليين واستغلالهم لتلك المناجم، كما أن جهود المنصرين لم تكن أوفر حظاً لأن البرتغاليين لم يستطيعوا توفير الأعداد الكافية من المنصرين الذين يرغبون الذهاب إلى الداخل لإحداث الأثر المطلوب، إضافة إلى نظرة الارتياب التي تكنها تلك القبائل للبرتغاليين، [٣] الأمر الذي أدى بالبرتغاليين إلى التدخل في المنازعات

---

١) جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٢٧٤.

٢) صلاح العقاد، جمال قاسم، زنجبار، ص ٢٣؛ شوقي الجمل، الصراع العربي البرتغالي والتحرر الإفريقي، ص ١٨٥ - ١٨٦.

٣) وايدنر، تاريخ إفريقية جنوب الصحراء، ص ١٠٨ - ١٠٩؛ جمس دفي، الاستعمار البرتغالي في إفريقية، ص٩٧ - ٩٨.

القبليّة التي جلبت لهم مشاكل معقّدة، وأدخلتهم في متاهات لايعرف لها نهاية، مما أدى بهم إلى سحب قواتهم، والاكتفاء بإقامة حاميتين صغيرتين لايتعدى تعداد الواحدة منها على المائة جندي،[1] ويعتقد أن الاحتفاظ بهاتين الحاميتين الغرض منه إيواء المنصرين، وتوفير الحماية للمستوطنين البرتغاليين رغم قلتهم، ونظراً لما تتعرض له تلك الحاميات من هجمات القبائل فقد اضطر البرتغاليون إلى عقد معاهدة جديدة مع (مونوموتابا) عام ١٠٢٤هـ / ١٦١٥م تعهدوا فيها بتقديم هدايا سنوية للملك، ليقوم بالحد من هجمات القبائل التابعة له على حامياتهم.[2] ورغم أن هذه المعاهدة وفّرت بعض الأمن لبعض المستوطنين والمنصرين هناك إلاّ أنها لم تؤد إلى شيء في سبيل تحقيق أحلام البرتغاليين في السيطرة على مناجم المعادن، وإقامة كيان برتغالي مستقل في المناطق الداخلية من الزمبيري، ولا نبالغ إذا قلنا إن المستوطنين البرتغاليين هناك لم يتركوا أثراً يذكر في ذلك الوقت.

وفي القسم الشمالي من الساحل، فبرغم النزاعات بين المدن والتي أدت إلى تسهيل مهمة البرتغاليين، إلاّ أن هذا لايعني أنهم لم يواجهوا مقاومة من الأهالي؛ فقد قام المسلمون العرب والسواحليون تحت قيادة حاكم (ممباسه) بإثارة بعض القبائل الأفريقية وكوّنوا جيشاً جديداً، وفي عام ٩٣٥ / ١٥٢٨م أخذ حاكم (ممباسة) يستحث سكان (زنجبار، وبمبا، وبته) وغيرهم لتنظيم حركة المقاومة، ولكنهم لم يستجيبوا، بل شكوه إلى (داكنها Dakenha) القائد البرتغالي الذي كان متوجهاً إلى الهند والمعين

---

١) جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٢٧٨.

٢) صلاح العقاد، جمال قاسم، زنجبار، ص ٢٤.

نائباً للملك في الشرق،[1] وكان في (زنجبار) ينتظر هبوب الرياح الموسمية، فاستغل ذلك وقام بضرب الحصار على (ممباسه)، وطلب من حاكمها التعهد بدفع فدية للبرتغاليين، والالتزام بدفع الضريبة السنوية، وعدم الاتصال بالعثمانيين، وعندما تلكأ حاكم (ممباسه) في الموافقة على ذلك، قام (داكهنا) بضرب المدينة بمدافعه وتدميرها.[2] والواقع أن هذا التدمير هو الثاني (لممباسه) بعد التدمير الأول الذي قام به (دالميدا) عام ٩١١هـ / ١٥٠٥م.

بعد أن حلّت الدولة العثمانية محل دولة المماليك في الشام ومصر والحجاز، ورثت عنها تركة ثقيلة فيما يتعلق بمواجهة البرتغاليين الذين سيطروا قبل أن يظهر العثمانيون في البحر الأحمر على مناطق شاسعة في شرق إفريقية، والهند، والخليج العربي،[3] ورغم أن العثمانيين وجّهوا معظم جهودهم نحو البلقان، إلاّ أنهم مع ذلك قاموا بجهود كبيرة لإحباط التحالف البرتغالي الحبشي، وحماية الأماكن الإسلامية المقدسة، وجعل البحر الأحمر بحيرة إسلامية.[4] ونظر البرتغاليون بقلق بالغ إزاء الجهود

---

1) Eliot, C.N., The East Africa Protectorate, (London, 1905), p.15;
المعمري، عمان وشرق إفريقية، ص ٥٠.

٢) صلاح العقاد، جمال قاسم، زنجبار، ص ٢٥.

٣) ابن طولون شمس الدين محمد بن علي بن محمد الصالحي، مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان، تحقيق مصطفى محمد، ج ٢، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة، القاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م، ص ٤٥ - ٤٦ ومابعدها؛ السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥، معهد البحوث والدراسات العربية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م، ص ٩٦ - ١١٤.

٤) الشاطر بصيلي عبدالجليل، الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال في المحيط الهندي وشرق أفريقية والبحر الأحمر، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، مجلد ١٢؛ القاهرة ١٩٦٥ - ١٩٦٦، ص ١٣٤؛ عبدالوهاب القيسي، المجابهة البرتغالية العثمانية في المياه العربية، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، ج ١، ص ١٧٠.
ومن الجدير بالذكر أن الدولة العثمانية حلت محل دولة المماليك في الشام ومصر إثر هزيمة الجيش المملوكي من قبل العثمانيين في معركتي مرج دابق في الشام عام

العثمانية في المياه العربية، ففي رسالة بعث بها برتغالي مقيم في البندقيّة إلى ملك البرتغال مؤرخة في ١٥٣١/١١/٢٤م، أخبره فيها بأن العثمانيين يبذلون جهوداً جبارة وجادة لإنشاء أسطول بحري با(السويس)، وذكر أن المدافع ترسل بأعداد كبيرة من العاصمة العثمانية إلى هناك، كما أنهم يحصلون على الأخشاب من لبنان اعتماداً على أسطول خاص ينزلها بمينائي (الإسكندرية ورشيد)، حيث يحملها (٤٠٠٠) جمل إلى السويس، وأيضاً ذكر في رسالته أن العثمانيين يواجهون مشاكل فيما يتعلق بالأشرعة.[١]

شرع العثمانيون في مواجهة الخطر البرتغالي، وقاموا ببناء قاعدة في ميناء (السويس) لعملياتهم الحربيّة في البحر الأحمر والمحيط الهندي، واتخذوا قواعد للانطلاق على طول سواحل البحر الأحمر الشرقية، وبخاصة (جدة) والسواحل اليمنيّة، وفي عام ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م أمر السلطان (سليمان القانوني ٩٢٧ - ٩٧٤هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦م) بإرسال أسطول حربي ضخم من (السويس) هدفه طرد البرتغاليين من (ديّو)، وعيّن (سليمان باشا

٩٢٢هـ / أغسطس ١٥١٦م، والريدانيه في سيناء ٩٢٣هـ / نوفمبر ١٥١٧م بقيادة السلطان العثماني سليم الأول ٩١٨ - ٩٢٧هـ / ١٥١٢ - ١٥٢٠م، ودخولهم كل من دمشق والقاهرة، ثم خضع الحجاز سلمياً لهم أثناء وجود السلطان سليم الأول في القاهرة، وفي عام ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م سيطر العثمانيون على الاجزاء الجنوبيّة للبحر الأحمر بعد فتحهم عدن في العام نفسه، وبذلك أصبحوا وجهاً لوجه مع البرتغاليين في المحيط الهندي.

لمزيد من التفصيل إنظر: الصديقي: محمد بن أبي السرور البكري والمعروف بابن ابي السرور، التحفة البهية في تملّك آل عثمان الديار المصرية، مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٢٤ تاريخ؛ النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني. السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن؛ عبدالكريم رافق، العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦، مكتبة أطلس، الطبعة الأولى، دمشق ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

١) أحمد بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية، ص ١٦٢.

الخادم) قائداً للأسطول[1] الذي ضم (٢٠) ألف شخص مع (٧٤) سفينة، والذي سيطر على عدن عام ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م، ثم توجه بعد ذلك إلى (ديّو) لمواجهة البرتغاليين، وضرب حصاراً على حصن (ديو) على ساحل الهند الغربي، ولكنه لم يكن ناجحاً.[2] والواقع أنه ترك انطباعاً لدى البرتغاليين عن الخطر المحتمل للقوة البحرية العثمانية في (السويس)، ولكن (ستربلنك Stripling) يعزو عدم نجاح العثمانيين في هذه الحملة إلى أنهم أدنى مستوى من البرتغاليين في السفن والسلاح.[3] وفي تقديري أن قيادة الحملة المتمثلة في (سليمان باشا الخادم) كانت سيئة وغير كفؤة، ولو توافرت لتلك الحملة قيادة مخلصة لكان هناك احتمال قوي لطرد البرتغاليين من الهند، فلم يكن يعوز تلك الحملة السلاح والرجال، بل تعوزها القيادة، وما الأساليب التي انتهجها (سليمان باشا الخادم) في اليمن أو مع جنوده إلا برهاناً على صدق ماذهبنا إليه.

عاد (سليمان باشا الخادم) بعد أن انسحب من الهند[4] إلى البحر

---

١) الموزّعي شمس الدين عبدالصمد، مخطوط الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان، مخطوط مصور محفوظ بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٢٣٧٥، ورقة ٧؛ النهروالي، البرق اليماني، ص ٧٨ - ٧٩.

٢) المصدرنفسه ، ص ٧٨ - ٨٤. عبدالوهاب القيسي، المجابهة البرتغالية العثمانية في المياه العربية، ص ١٧٠.

3) Stripling, G.W., The Ottoman Turks and the Arabs 1511 - 1574, (urbana: The university of Illinois Press, 1942), p.93.

٤) في أثناء حصار الأسطول العثماني لقلعة البرتغاليين في (ديو) على ساحل الهند الغربي، اتخذ (سليمان باشا الخادم) قراراً مفاجئاً ودون سابق انذار بسحب قواته والخروج من الهند عائداً إلى البحر، مما أحدث ارتباكاً بين صفوف حملته، ويعزى هذا القرار إلى عدة عوامل منها: تدفق الإمدادات البرتغالية على قلعة (ديو)، ضعف الجبهة الهندية وعدم تماسكها وتوحدها، ارتياب أمراء الهند من (سليمان) وعدم

الأحمر، حيث أكد السيطرة العثمانية على السواحل اليمنيّة، واتّبع العثمانيون بعد ذلك سياسة تقضي بغلق البحر الأحمر في وجه البرتغاليين، وإجهاض مشروع التعاون بينهم وبين الأحباش، وحماية السواحل العربيّة الجنوبيّة من الهجمات البرتغالية المتكررة.[1] هذه السياسة التي أدت أيضاً إلى إخضاعهم (سواكن، مصوع، زيلع)[2] وفي الوقت الذي نجح فيه العثمانيون في تخفيف الضغط على البحر الأحمر، وافشال المحاولات التي كان يقوم بها البرتغاليون، والرامية إلى تكوين جبهة نصرانية بينهم وبين الأحباش، إلاّ أن جهودهم في البحار الشرقية لم تؤد إلى نتائج حاسمة، كما أنهم لم يعملوا على تكوين جبهة متحدة من مدن وإمارات ساحل شرق إفريقية لمقاومة الوجود البرتغالي، ومن الواضح أن العثمانيين اتخذوا سياسة دفاعية أكثر منها هجوميّة، واستهدفت - كما ذكرنا - إغلاق البحر الأحمر في وجه البرتغاليين، وحماية الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

لقد تلقى ساحل شرق إفريقية مساعدة عثمانية غير مباشرة، تمثلت بقيام

الوثوق به والخوف من غدره، اتفاق أمراء الهند على الإيقاع به عن طريق رسالة مزورة بعثوا بها إليه، وتذكر تلك الرسالة المرسلة من القائد العام البرتغالي إلى الحامية في (ديوّ) أن هناك أسطولاً يتكون من ثلاثمائة مركب قادماً لنجدتهم.

لمزيد من التفصيل انظر: النهروالي، البرق اليماني، ص ٨٣ - ٨٤؛ السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص ١٤٦؛ الرمال صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص ٢٢٨.

١) النهروالي، البرق اليماني، ص ٨٥ - ٨٦؛ السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص ١٤٩ - ١٥٢ - ١٥٣.

٢) جمال قاسم، الصراعات المحلية والدولية في البحر الأحمر في النصف الأول من القرن السادس عشر، ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٣٤.

أحد القادة العثمانيين بمحاولة جادة لزعزعة الوجود البرتغالي هناك، وذلك في أواخر القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي، والذي قام به أمير البحر (علي ميرال بك)، والذي كان مدفوعاً من قبل العثمانيين، حيث وصل إلى (مقديشو) عام ٩٩٥هـ / ١٥٨٦م، وقام بإبلاغ أهلها أنه موفد من قبل السلطان العثماني، وقد نجح في تأليب بعض المدن على البرتغاليين، [١] وقد أوهم الأهالي هناك بأن أسطولاً عثمانياً في الطريق لنجدتهم، وذلك من أجل تشجيعهم على الثورة، فاشتعلت الثورة ضد البرتغاليين في (ممباسه، ولامو، وفازا، وبراوه) وغيرها من المدن، كما استولى على بعض السفن البرتغالية. ولايعرف إلى أي مدى توغل (علي ميرال) جنوباً. إلا أنه عاد من شرق إفريقية وبحوزته عدد من الأسرى البرتغاليين. [٢] ثم عاد إلى شرق إفريقية عام ٩٩٧هـ / ١٥٨٨م، بطلب من سكان الساحل الذين وعدوه بالمساعدة والعون، وكانت خطته أن يقوم أولاً بالقضاء على (ماليندي) حليفه البرتغاليين، ولكن حاكمها طلب النجدة من البرتغاليين، الذين هاجموه في (ممباسه) حيث كانت تتزعم الثورة، ومركز (علي ميرال بك)، في الوقت نفسه الذي قامت فيه بعض القبائل الإفريقية بمهاجمة (ممباسه) من البر فوقع أسيراً في يد البرتغاليين الذين بعثو به إلى (لشبونه)، واستعادوا نفوذهم على الساحل مرة أخرى، فعادت جميع المدن إلى الخضوع لهم. [٣]

---

١) جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٢٨٤؛ صلاح العقاد، جمال قاسم، زنجار، ص ٢٦.

2) Texeira, P., The Travels of Pedro Texeira, Translated and annoted by William F. Sinclair Hakluyt, (London, 1902), P.5-17;
Eliot, C.N., op.cit, p.16.

3) Sousa, F., op.cit, vol. I, p.40;
جمال قاسم، الإستعمار البرتغالي، ص ٧٣.

والواقع أن (علي ميرال بك) كاد أن يحقق نجاحاً كبيراً في ساحل شرق إفريقية، إذ لم تستطع القوة البرتغالية التي جاءت بناء على طلب حاكم (ماليندي) والتي كانت تحت قيادة (تومي كوتنهو Tomi Cutinho)، لم تستطع أن تحقق شيئاً في البداية لأن غالبية مدن الساحل كانت تقف خلف (علي ميرال) وتسانده، ولكن الأحداث سارت حسب رغبة البرتغاليين وحلفائهم في الساحل، حيث تعرّض الساحل لغزو عشوائي قامت به كبرى القبائل الإفريقية المتوحشة في تلك المنطقة، وهي قبيلة (الزيمبا Zimba)، والتي بدأت عمليات الاجتياح من جنوب الساحل متوجهة نحو الشمال، وعاثت فساداً وتخريباً بكل شيء تمر عليه من مدن وغيرها،[1] وكان الأهالي يتوقعون أن ينشغل البرتغاليون بالتصدي لتلك القبيلة، ليستغلوا هم ذلك بتحقيق بعض المكاسب، سواء بتدمير المراكز البرتغالية أو الهجوم على سفنهم بمساعدة القائد العثماني، ولكن الذي حدث العكس، حيث ترك البرتغاليون تلك القبيلة تواصل زحفها نحو الشمال حتى وصلت إلى (ممباسه)، فوجد (علي ميرال) نفسه في موقف لايحسد عليه، الأمر الذي سهل على البرتغاليين القبض عليه، ثم قام (كوتنهو) بعملية تطهير وتأديب واسعة ضد المدن التي تعاونت مع القائد العثماني،[2] وبخاصة (ممباسة) وأهالي (بته) الذين وقفوا مع حملة (علي ميرال)، ويذكر أن اثنين من أهل (بتّه) ذهبوا إلى الباشا العثماني في اليمن، وطلبوا منه مده بالمساعدة لحرب البرتغاليين، ولهذا تعرضت (بته) مثلها مثل (ممباسه) لانتقام (كوتنهو) القائد البرتغالي، وكذلك تم تدمير (ماندا وفاز) ولكن (فازا) بعد ذلك عقدت معاهدة مع البرتغاليين، وأصبحت من حلفائهم، وبذلك تم القضاء على ثورة الأهالي

---

١) جمال قاسم، الاستعمار البرتغالي، ص ٧٤.

2) Coupland, R, op.cit, p.61-2-3;

عبدالوهاب القيسى، المجابهة البرتغالية العثمانية في المياه العربية، ص ٧٢.

هناك، كما ضعف الأمل بقيام العثمانيين بمساعدتهم مرة أخرى.[1]

مما سبق نرى أن المساهمة العثمانية في الحد من الوجود البرتغالي في الساحل جاءت متأخرة قياساً على بداية الوجود العثماني الفعلي في البحر الأحمر، إضافة إلى أن تلك المساهمة لم تكن مباشرة، ومع ذلك فقد كانت إيجابية إلى حد ما، حيث كان مجرد ظهور العثمانيين في البحر الأحمر يعد عوناً معنوياً للمسلمين هناك، بل كان مصدر إلهام لهم للقيام بالثورات ضد البرتغاليين، واستمرارية هذه الثورات لاعتقاد المسلمين هناك بأن الدولة العثمانية سوف تأتي لنجدتهم يوماً ما. ولاشك أن محاولة (علي ميرال بك) تعتبر محاولة جادة لزعزعة الوجود البرتغالي في ساحل شرق إفريقية، ولكن في الوقت نفسه يتضح أن العثمانيين غير قادرين على إنزال أسطول كبير إلى المحيط الهندي، ولو أمكنهم ذلك لاستطاعوا الحاق أضرار فادحة بالبرتغاليين، أو القضاء على أسطولهم في المحيط الهندي في هذا الوقت بالذات، والذي شهد اندحار الأسبان والبرتغاليين في معركة الأرمادا البحرية عام ٩٩٧هـ / ١٥٨٨م أمام الانجليز، لكن على مايبدو أن ظروف الدولة العثمانية لم تمكنها من استغلال ذلك.

---

١) كيركمان، جي، التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق إفريقية، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٥، مسقط ١٤٠٠/١٩٨٠، ص ٢٨٨-٢٩٠ .

* البرتغاليون وبناء قلعة يسوع في ممباسة :

بعد القضاء على جهود (علي ميرال بك) أذعن سكان الساحل للبرتغاليين، على أن ذلك لم يستمر طويلاً، إذ مالبثت الحركات المناهضة أن عادت من جديد عام ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م، وذلك عندما قاد حاكم (ممباسه) حملة لمهاجمة (ماليندي)، التي أسهم حاكمها بالقضاء على جهود (علي ميرال بك) العثماني، [١] وفي أثناء زحفه على (ماليندي) سلط عليه حاكمها قبيلة (السججو Segogo) الإفريقية ذات العلاقة الوطيدة بأهل (ماليندي) والبرتغاليين، وقتل في هذا الهجوم حاكم (ممباسه) وعدد من أبنائه وجنوده، وهجمت هذه القبيلة على (ممباسه)، وعاثت فيها فساداً، حيث أسروا النساء والأطفال والشيوخ، وقتلوا عدداً كبيراً من الناس.[٢] وتجدر الإشارة إلى أن (ممباسه) في تلك الأثناء لم تخضع خضوعاً مباشراً للبرتغاليين، وإنما كانت تستكين لهم في معظم الأحيان عن طريق دفع الضريبة مع إقامة حامية برتغالية صغيرة لتأكيد التبعيّة لهم، لذلك كانت (ممباسه) تتزعم الحركات المناهضة للبرتغاليين في أحيان كثيرة، أما قبيلة (السججو) المذكورة فهي التي تولت كبح جماح قبيلة (الزيمبا) الآنفة الذكر، عندما توجهت إلى (ماليندي)، وذلك بتحريض من حاكمها والبرتغاليين.[٣]

سيطرت قبيلة (السججو) على (ممباسة) وبإيحاء من البرتغاليين أجبروا أحد أبناء حاكم (ممباسه) المقتول وعدداً من أعيان المدينة بالذهاب إلى (ماليندي) لتقديم فروض الولاء والطاعة لحاكمها، ونتيجة لذلك

---

١) مبارك بن علي الهنائي، العمانيون وقلعة ممباسة، ترجمة عبدالمنعم عامر، وزارة التراث والثقافة بعمان، سلسلة تراثنا، العدد التاسع، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ١٢ - ١٣.

٢) حراز، إفريقية الشرقية والاستعمار الأوربي، ص ٢٠.

3) Coupland, R., op.cit, p.65.

وضع حاكم (ماليندي) يده على (ممباسه)،[1] فكان ذلك فرصة للبرتغاليين بأن يطالبوا حليفهم حاكم (ماليندي) بنصيبهم من الغنيمة، لاسيما أنهم يطمعون ويخططون منذ فترة بإمتلاك (ممباسه)، فتم الاتفاق بينهما على أن يستفيد البرتغاليون منها بممارسة حقوق السيادة عليها،[2] والإشراف على إيرادات الجمارك فيها، وإنزال الحاميات البرتغالية، وبالمقابل يسمح لحاكم (ماليندي) أن يقيم في المدينة، أو ينيب عنه من يشاء، وأن يتولى حكم سكانها العرب والسواحلية، وأن يحصل على ثلث إيراداتها الجمركية.[3]

لقد أصبح مؤكداً لدى البرتغاليين أن سيطرتهم على ساحل شرق إفريقية من القلعة التي أقاموها في (موزمبيق) لم يعد أمراً كافياً، وأنه يتعين عليهم بناء قلعة أخرى في شمال الساحل، وإقامة حكومة جديدة تتولى إدارة هذا القسم، لذا قرروا اتخاذ (ممباسه) عاصمة لممتلكاتهم في ساحل شرق إفريقية، إدراكاً منهم لأهميتها الإستراتيجية، وسهولة تحصينها بحيث تشكل نقطة يمكن الدفاع عنها،[4] وقد تم بناء تلك القلعة التي أطلقوا عليها قلعة (المسيح) أو قلعة (يسوعFurt Josus) عند مدخل الميناء، وقد بدىء في بناءها عام ١٠٠٢هـ / ١٥٩٣م واستغرق سنتين، واستكمل مع إضافة نقط أخرى فيها عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م، وتعتبر أعظم حصون البرتغاليين في ساحل شرق إفريقية.[5] وبهذا ترسخت أقدامهم في (ممباسه)، وظهر معها

---

1) Coupland, R, op.cit, p.66.

٢) الهنائي، العمانيون وقلعة ممباسة، ص ١٢ - ١٣.

٣) حراز، إفريقية الشرقية والاستعمار الأوربي، ص ٢٠.

4) Marharat, M., Furt jesus mombasa, (Neirobi, 1934), p.6.

٥) المغيري، جهينة الأخبار، ص ١٨٦؛

Boxer, C.R., Fort Jesus and the Portuguese in mombasa 1593 - 1729, (London, 1960), p.

تأكيد سيطرتهم على القسم الشمالي من الساحل، ومن ثم الإجهاز على المقاومة الوطنية هناك.

إن بناء قلعة يسوع كان حلماً يراود البرتغاليين منذ أن بدأ الوجود العثماني في البحر الأحمر والقرن الإفريقي، وتأكدت الحاجة إلى ذلك بعد الجهود التي قام بها (علي ميرال بك) العثماني في ساحل شرق إفريقية، والتي - كما ذكرنا - أججت روح الثورة والتمرد على المستعمر.[1] ويمكن التساؤل : إذا كان من أهداف البرتغاليين في إقامة قلعة لهم في (ممباسه) الوقوف بوجه المد العثماني إلى ساحل شرق إفريقية، فلماذا إذن لم يقوموا بذلك عندما دخل العثمانيون اليمن، والقرن الأفريقي وعندما قدّموا المساعدة للإمارات الإسلامية هناك في حربهم ضد الأحباش ؟ وللإجابة على ذلك نقول: إن إخفاق (سليمان باشا الخادم) في الحاق هزيمة بالبرتغاليين في المحيط الهندي، وفي (ديّو) بالذات في منتصف عام ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م، وانسحابه إلى داخل البحر الأحمر وبدء العثمانيون بتحصين مداخله وموانئه، ومارافق ذلك من تذمر اليمنيين والهنود نتيجة الطريقة التي انتهجها معهم (سلميان باشا الخادم)، إضافة إلى انشغال العثمانيين في ميادين أخرى مثل فارس والعراق وأوربا.[2] كل ذلك ولد انطباعاً لدى البرتغاليين بأن العثمانيين لن يستطيعوا أن يقوموا بجهود عسكريّة أبعد من حدود اليمن، وإن قاموا بشيء من ذلك فسيكون موجهاً إلى الهند، كما أن العثمانيين استغرقوا وقتاً طويلاً في تثبيت وجودهم في اليمن، الأمر الذي لم تتح فيه الفرصة لسكان ساحل شرق إفريقية للإتصال بهم، أمّا وقد بدأ اتصال سكان الساحل بالعثمانيين، وتوجت تلك الاتصالات بوصول

---

١) الهنائي، العمانيون وقلعة ممباسه، ص ١١ - ١٢ ؛

Marharat, m., op.cit, p.7

٢) عبدالوهاب القيسى، المجابهة البرتغالية العثمانية في المياه العربية، ص ١٧٣.

حملتي (علي ميرال بك) ممثلاً للعثمانيين، مع ما أحدثه ذلك من إثارة روح الجهاد والثورة لدى سكان الساحل، فإن نظرة البرتغاليين ستتغير حتماً، وسيتبنون استراتيجيّة جديدة حيال تطور الموقف هناك، وهو ماتمخض عنه عزمهم على بناء قلعة لهم في (ممباسه)، والوقوف بوجه سكان الساحل، وإخماد الثورة التي قابلها البرتغاليون بالقمع الوحشي، وقد جاء اختيار (ممباسه) لأهميتها الإستراتيجية كما ذكرنا، ولكونها مركزاً لحركات المقاومة ضد البرتغاليين.

قام البرتغاليون بنقل حامياتهم العسكرية من (ماليندي) إلى قلعة (يسوع) في (ممباسه)، ولذلك بدأ نجم (ماليندي) بالأفول، واكتفى البرتغاليون بإستمرار حاكم (ماليندي) على حكم (ممباسه)، مكافأة له على جهوده معهم، وأناب بدوره أخاه (أحمد) الذي انتقل إليها وجعلها مقراً له.[1] وتجدر الإشارة إلى أنه بعد بناء قلعة يسوع استقدم البرتغاليون مستوطنين برتغاليين للإقامة في (ممباسه)، كما بدأت طوائف الدمينكان والجزويت التنصيرية تفد إليها، وقاموا ببناء عدد من الكنائس والمراكز التنصيرية في مدن كثيرة من شمال الساحل. كما أخذ البرتغاليون يشجعون الأوربيين على الاستقرار في (ممباسه) والقسم الشمالي من الساحل، وأمدوهم بالمساعدة لزراعة الأراضي والتنقيب عن المعادن.[2] وعلى هذا النحو يكون قد تم القضاء على آمال وتطلعات مسلمي الساحل بالتخلص من البرتغاليين، الذين بدأوا وكأنهم أقوى مما كانوا عليه سابقاً.

لم يكتف البرتغاليون ببناء قلعة يسوع في (ممباسه) بل شرعوا في بناء قلاع أخرى ولكن ليس على مستوى قلعة يسوع، وبخاصة في المدن التي

---

١) الهنائي، العمانيون وقلعة ممباسه، ص ١٣.

٢) جمال قاسم، الاستعمار البرتغالي، ص ٧٨.

تعاونت مع حملة (علي ميرال بك)، فقد قاموا ببناء قلعة في (بتّة) التي تم إخضاعها نهائياً لسلطتهم، وربطها بـ (ممباسه) وتعيين أحد مؤيديهم حاكماً عليها،[1] أما (بمبا) فقد قام البرتغاليون أيضاً ببناء قلعة بها، وذلك لتأكيد سيطرتهم عليها، ولقمع ثورة الأهالي فيها.[2] ونلاحظ أن البرتغاليين ركزوا سلطتهم وأكدوها في جميع المدن التي تعاونت مع العثمانيين، كما نلاحظ من جراء ذلك أن التأثير العثماني كان قوياً في تلك المناطق، كما أن تطلعات الأهالي لهذا التأثير كانت كبيرة أيضاً.

بعد أن وطدّ البرتغاليون سلطتهم على الساحل إثر بناء قلعة يسوع في (ممباسه) وغيرها من التحصينات الأخرى، شرعوا في إقامة نظام جمركي فيها، وصاروا يرغمون السفن القادمة من الهند محملة بالبضائع ومتوجهة إلى ساحل شرق إفريقية، يرغمونها على التوجه إلى (ممباسه)، لكي تدفع في مقر جمركها رسوماً تصل إلى (٦٪) من قيمة ماتحمله، وقد أقاموا منشآت الجمارك في (ممباسه) بعد عام من سيطرتهم عليها، أي في عام ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م، متخذين بذلك الخطوات اللازمة لتعزيز مركزهم الاقتصادي.[3]

كما أقام البرتغاليون نقطة للجمارك في (بتّة) وذلك عام ١٠٤٣هـ / ١٦٣٣م، وأصدروا تعليماتهم إلى السفن بالتوجه إليها، ولكنها أغلقت بعد إثني عشر عاماً من إقامتها بسبب تأثيرها الواضح على جمرك (ممباسه)، وقد كانت ايرادات ذلك الجمرك مناصفة بين البرتغاليين وبين حاكم (بتّة) الموالي لهم.[4] وبهذا يكون البرتغاليون قد عزّزوا مركزهم الاقتصادي إلى جانب

---

1) Marharat, m, op.cit, p.11.

٢) المغيري، جهينة الأخبار، ص ١٨٩.

٣) حراز، افريقية الشرقية والاستعمار الأوربي، ص ٢١؛

Coupland, R., op.cit, p.67.

٤) كيركمان، التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق إفريقية، ص ٢٩١.

سيطرتهم العسكرية والسياسية في الساحل.

إن هدف البرتغاليين من إقامة القلاع والمراكز الاقتصادية في القسم الشمالي من الساحل وبخاصة (ممباسه)، هو حرمان مسلمي الساحل من الاتصال بالعثمانيين، والقضاء على المقاومة الوطنيّة، والتي مثلت ملحمة رائعة من ملاحم الجهاد الإسلامي، حيث أن المسلمين هناك لم يستسلموا قط للحكم البرتغالي، بسبب ماكان يمثله ذلك الحكم من تهديد لعقيدتهم وحياتهم السياسية والاقتصادية، إضافة إلى رفضهم المطلق الولاء لحكام غير مسلمين، وغيرتهم من نشاط المنصرين البرتغاليين في مجتمعهم الإسلامي. ولولا المنافسات التي كانت قائمة بين المدن والإمارات الإسلامية بالساحل، والتي استغلها البرتغاليون ووجهوها لصالحهم، إضافة إلى تجنيد البرتغاليين بعض القبائل الأفريقية ضد المسلمين، أقول لولا تلك التناحر وتلك المنافسة لما تمكن البرتغاليون من البقاء في ساحل شرق إفريقية طوال تلك الفترة، ذلك أنهم لم تواجههم ثورة شاملة، وإنما كل مدينة تقوم بالثورة بمعزل عن المدن الأخرى، بإستثناء الثورة التي صاحبت قدوم (علي ميرال بك) العثماني، حيث اشتركت عدة مدن بالثورة، ولم تؤد محاولات حكّام (ممباسه) المتكررة في التودد إلى حكام (ماليندي) والمدن الأخرى، إلى توحيد الصف الإسلامي، ومع ذلك فلم تخمد الثورات الإسلامية هناك، بل ظلت مستمرة مما أرهق البرتغاليين.

كانت قلعة يسوع في (ممباسة) بداية الاحتكاك بين البرتغاليين وبين حاكم (ممباسه) الذي هو من سلالة حكّام (ماليندي) هذا الاحتكاك الذي بدأت معه مرحلة جديدة من مراحل التصدي للبرتغاليين، ويتلخص ذلك بأنه حصل خلاف بين الطرفين حول إيرادات جمرك (ممباسه)، حيث يرى البرتغاليون أن حاكم (ممباسه) لايستحق ثلث مداخيل الجمارك، إضافة إلى

تذمرهم منه بحجة أنه لم يعد متعاوناً معهم كما ينبغي.[1] وبلغت تلك الخلافات ذروتها عام ١٠٢٣هـ / ١٦١٤م. فأوعزوا لقبيلة (الوانيكا Wa-Nyika) الأفريقية والمتعاونة معهم بقتله، ثم أخذوا ابنه (يوسف) وكان صغيراً إلى مركز نائب الملك في (جوا)،[2] وعهدوا به إلى أحد الآباء الكاثوليك ليقوم بتنشئته على النصرانية، وأقام هناك زمناً، ثم أعيد إلى (ممباسه) وعيّن حاكماً عليها ليكون حليفاً لهم بعد أن صار نصرانياً، وسموه (دون جيرينمو شنجوليا).[3]

أخذ (يوسف) يعمل على التربص بالبرتغاليين، فاستغل احتفالاً أقاموه بمناسبة أحد أعيادهم، فقام بهجوم خاطف على القلعة، وقتل قائدها، وهجم هو ومجموعة من أتباعه على الجالية البرتغلية فيها وأعملوا فيهم القتل، حتى تمكن من القضاء عليهم، ثم بسط نفوذه على (ممباسه)،[4] ويبدو أن (يوسف) تظاهر بالتنصر لإيهام البرتغاليين، ومنتظراً الفرصة كي يثأر منهم،

---

١) جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٢٧٩.

٢) جوا : إحدى الجزر الواقعة على ساحل الهند الغربي، اتخذها االبوكيرك مقراً لحكومة البرتغال بالشرق بدلاً من (ديو) وذلك عام ٩١٦هـ / ١٥١٠م، بعد أن تولى البوكيرك منصب نائب الملك بالهند خلفاً لفرنسسكو دالميدا. وتمثل مع (دمان وديو) ولاية اتحاد هندية، والذي يعد من الاتحادات الهامة في الهند الحديثة وتبلغ مساحتها (٣٧٠كم٢) ومن أقرب مدن الهند إليها (بمباي)، وماتزال آثار القلاع البرتغالية موجودة حتى الآن، وغالبية سكانها الآن نصارى. انظر: المليباري، تحفة المجاهدين، ص ٢٠٠، تعليق المحقق، كما انظر الملحق رقم (٦-هـ).

3) Sousa, F., op.cit, vol.I., 402;

إبراهيم شعراوي، يوسف الذي قال لا للإستعمار البرتغالي، صحيفة عمان، العدد ٥٥٨، ٣١ ديسمبر، مسقط ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ص ٣.

٤) الهنائي، العمانيون وقلعة ممباسه، ص ١٢؛ المغيري، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، ص ١٨٦.

وكان ذلك عام ١٠٤١هـ / أغسطس ١٦٣١م، كما قام أيضاً بالقضاء على المتنصرين الوطنيين، كما قتل بيده قائد الحامية البرتغالية وزوجته، والقس الذي كان يقيم الصلاة.[1] وكان من نتيجة ذلك أن تقوى مركزه في (ممباسه)، وكانت البداية الفعليّة لحرب مريرة قادها ضد البرتغاليين.

جعل (يوسف) من (ممباسه) قاعدة له ضد البرتغاليين الذين حاولوا استعادة مركزهم والانتقام منه، ووجه جهوده للجهاد المقدس ضدهم،[2] وقد أرسل البرتغاليون حملة عسكرية من (جوا) لقمع حركته، إلاّ أنهم لجأوا للمناوشات خوفاً من استعدادات (يوسف) وأعوانه في القلعة، ثم عادوا إلى (جو)، ولكنهم واصلوا إرسال الحملات حتى تمكنوا من إحتلال القلعة بعد أن تركها (يوسف) عام ١٠٤٢هـ / ١٦٣٢م،[3] وقد كان يدرك عدم قدرته على مقاومة الأساطيل البرتغالية، لذا فقد قام بتخريب المدينة والقلعة قبل تركها، وأخذ جميع المدافع التي بها، بعد ذلك كرس نفسه للجهاد ضد البرتغاليين في البر والبحر، وهاجم سفنهم في المحيط الهندي، كما أدت حركته تلك إلى إشعال الثورة من جديد على طول الساحل، وتضامنت معه جميع المدن هناك ماعدا (فازا) و (زنجبار)، كما أثار بعض القبائل الإفريقية ضدهم.[4] واستمر (يوسف) على هذا النحو حتى عام ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م حيث توجه إلى الجزيرة العربية، وتوفي هناك، قيل في (مسقط) وقيل

---

1) Reush, R., op.cit, pp.293-5

٢) لقد تزامنت ثورة يوسف تلك مع الجهود التي كان يقوم بها الإمام ناصر بن مرشد لتوحيد عمان وجهاد البرتغاليين في مسقط. بحيث يمكن القول أنه لايستبعد أن هناك ثمة رابطاً بين الحركتين، وليس من المستبعد أيضاً أن ماقام به يوسف هو صدى لما يجري في عمان في ذلك الوقت. لمزيد من التفصيل انظر الفصل الثاني.

٣) حراز، إفريقية الشرقية والاستعمار الأوربي، ص ٢١.

4) Reush, R., op.cit, pp.265-6

في (جده).[1] وتمثل حركة (يوسف) تلك جانباً من جوانب الجهاد الإسلامي وسخط الأهالي على الاستعمار البرتغالي في ساحل شرق إفريقية.

بعد أن استرد البرتغاليون (ممباسه) قاموا بإعادة بناء القلعة، وإصلاحها وعيّنوا على المدينة حاكماً من سلاله حكام (ماليندي) حلفاء البرتغاليين وهو (الفقيه علي) كما نبهتهم حركة (يوسف) إلى ضرورة تشديد قبضتهم على القسم الشمالي من الساحل، من خلال قلعة (يسوع)، كما قاموا إثر ذلك بمنع حكام المدن من استقبال مهاجرين جدد من الخليج والجزيرة العربية.[2] وهذا يعزز ماذهبنا إليه بأنه لايستبعد أن حركة (يوسف) صدى لما كان يحدث في عمان في الوقت نفسه، ويأتي منع حكام المدن من استقبال مهاجرين جدد، القصد منه حجب الأخبار عنهم لما كان يحدث في عمان من جهاد ضد البرتغاليين وتقويض لمراكزهم هناك، وهذا يعكس الارتباط الوثيق بين عمان وساحل شرق إفريقية.

في عام ١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م عُيّن (فرانسسكو كابريرا Cabreira) حاكماً عاماً على قلعة (يسوع)، وأوكل إليه قمع ثورة الأهالي في الساحل من جراء حركة (يوسف)، فأصلح بناء القلعة، وأضاف إليهما بعض النقط الدفاعية، وقام بعملية تأديبية واسعة النطاق، حيث أخضع كل من (أوتوندا Otenda، وماندا Manda، ولوزوا Lwzewa، وجاكا Jaka) وهي مواقع تقطنها بعض القبائل الإفريقية والسواحلية التي تعاطفت مع حركة (يوسف)[3] كما عاقب كلاً من مدن (بتّة، وسيو، وبمبا) وأعدم الحكام الذين قاموا بالثورة تضامناً

---

١) الهنائي ، العمانيون وقلعة ممباسه، ص ١٢. صلاح العقاد، جمال قاسم، زنجبار، ص ٢٨.

٢) المرجع نفسه، ص ٢٨.

3) Marharat, M, op.cit, p.23.

مع تلك الحركة.[1] ويذكر المؤرخون أن الساحل تعرض لحركة تأديب وقمع وحشي لم يعرفه من قبل، حيث عاملوا السكان انطلاقاً من سياسة التخويف والبطش والتنكيل، والزموهم بدفع الضريبة التي منعوها أثناء حركة (يوسف)، كما منعوهم من استقبال مهاجرين جدد من الجزيرة العربية والخليج العربي لدرجة أن الحكم والوجود الاسلامي في الساحل أصبح مهدداً بالزوال، وأخذ النفوذ البرتغالي من جراء ذلك يزداد بقوة.[2] واستمر الحال على ذلك حتى قيّض الله للمسلمين في ساحل شرق إفريقية دولة اليعاربة في عمان لتخلصهم من الاستعمار البرتغالي.

وبعد فهناك سؤال يطرح نفسه وهو : كيف إستطاع البرتغاليون إدارة مستعمراتهم في ساحل شرق إفريقية لمدة قرنين من الزمان، هل بواسطة قواتهم العسكرية وحداثة تسليحهم؟ أم أن هناك عوامل أخرى ساندت تلك السيطرة ودعمتها؟ وللإجابة على ذلك نقول: إنه سبق أن ذكرنا أن الصراع بين حكام المدن والإمارات والتنافس فيما بينهم على النفوذ قد أوجد ثغرة نفذ منها البرتغاليون، حيث عمقوا تلك الخلافات وسيطروا من خلالها، ولكن هناك عامل آخر ساهم في استمرارية وجودهم، وهو استمالتهم بعض حكام المدن، وبعض شيوخ القبائل والأعيان، الذين اعتمدوا عليهم في إدارة مستعمراتهم إلى جانب قوتهم العسكرية

---

١) الهنائي، العمانيون وقلعة ممباسة، ص ١٣ - ١٤. المغيري، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، ص ١٨٧.

٢) كافأ ملك البرتغال حاكم قلعة (يسوع) فرانسسكو كابريرا على ماقام به من جهود في قمع حركة الأهالي وترسيخ الوجود البرتغالي في الساحل بأن منحه عدة أوسمه أعلاها وسام (المسيح) كما أعطاه منحة مالية قدرها (٥٠) ألف روبيّة، كما منحة إيرادات بعض المقاطعات البرتغالية طيلة حياته، ويسجل اسمه في لوحة شرف صاحب الجلالة. انظر: الهنائي، العمانيون وقلعة ممباسة، ص ١٤. المغيري، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، ص ١٨٧.

المتفوقة، وبذلك نهج البرتغاليون في ساحل شرق إفريقية السياسة نفسها التي انتهجوها في إدارة مستعمراتهم في الثغور والمناطق المغربية.

ففي المغرب اعتمد البرتغاليون في ترسيخ وجودهم اعتماداً كبيراً على بعض شيوخ القبائل وأعيان المدن وحكّامها الذين استمالوهم مستغلين رغبتهم في تعزيز مكانتهم وبقائهم، ويساندهم بعض التجار الذين يسعون إلى الربح من خلال التعاون مع المستعمر، حتى وإن كان ذلك مضراً ببلدهم، ويبدو ذلك جلياً في كل من مناطق (أسفي) و (أزمور) و (دكاله) وغيرها، حيث لعب شيوخ القبائل دوراً خطيراً داخل قبائلهم، إلى الحد الذي أصبحت معه القبائل مجرد دمى تحركها أيدي الشيوخ في الإتجاه الذي تريده.[1].

وفي ساحل شرق إفريقية نلاحظ ذلك من خلال تحالف البرتغاليين الدائم مع حكّام (ماليندي) طيلة سنوات وجودهم في شرق إفريقية، وكذلك إستمالتهم قبيلة (السجو) الإفريقية وإرضاء شيوخها، وهي القبيلة التي قضت على ثورة (ممباسه) ودحرتها عام ١٠٠٢هـ / ١٥٩٢م، حيث ربطتها علاقات وطيدة مع حكام (ماليندي) والبرتغاليين،[2] ، وتعاونهم مع حكام (بته) أيضاً، فقد حرص البرتغاليون على ضمان ولائهم، فبعد القضاء على حملة (علي ميرال بك) العثماني، والذي لقي مساندة من (بته)، عزلوا الحاكم وعينوا آخر مكانه والذي ظل متعاوناً معهم لدرجة أنه لم يتضامن مع حركة (يوسف) في (ممباسه)، وأجزاء أخرى من الساحل رغم تضامن أهالي (بتّة) معه، ولذا فإن (كابريرا) قام بحركة تأديب ضد الأهالي بينما ظل الحاكم دون أن يمسه شيء، واستمر ذلك حتى تم إلغاء نقطة الجمارك التي أقيمت فيها

---

١) مثال على ذلك رسالة أعيان مدينة (أسفي) المغربية إلى ملك البرتغال في ٢ يوليو عام ١٥٠٩م انظر: أحمد بوشرب، دكالة والإستعمار البرتغالي، ص ٢١٥.

2) Coupland, R., op.cit, p.61-4.

وذلك عام ١٠٥٥هـ / ١٦٤٥م، لذا فإن سلطة (بتّة) حالفت البرتغاليين ولكن على مراحل وفي أوقات متفاوتة.[1] والواقع أن إغلاق جمارك (بتّه) قد ترك أثراً على ميل حكامها وتطلعهم إلى العمانيين، كما أن ضياع الإيرادات الجمركية أجبر بعض الحكام فيما بعد على الإنصياع لرغبة الأهالي في (بتّه) وهي محاربة البرتغاليين، وهذا ماسنشاهده عندما تبدأ حملات الجهاد العمانية ضد البرتغاليين في ساحل شرق إفريقية، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري - السابع عشر الميلادي، حيث لعبت (بتّة) دوراً رئيساً في الجهاد ضد البرتغاليين، كما أنه لايستبعد أن يكون تولّي حكام مخلصين في المدينة هو السبب في تغيير سياستها وتوجهها وليس الأمر متوقفاً على خسارة أولئك الحكام إيراداتهم الجمركية.

أما (فازا) فقد ظلت معادية للبرتغاليين حتى حوالي عام ١٠٤٢هـ / ١٦٣٢م، حيث بعد هذا التاريخ أصبحت من أشد حلفاء البرتغاليين، وقد قام حاكمها بجهد بارز في الدفاع عن قلعة (يسوع) في (ممباسه) في أثناء الحصار العماني الكبير للقلعة عام ١١٠٨ - ١١١٠هـ / ١٦٩٦ - ١٦٩٨م كما سيأتي ذكره،[2] وأيضاً استمال البرتغاليون قبيلة (الزيمبا) المتوشحة والتي تجوب ساحل شرق إفريقية، وقد استخدمها بعض القادة البرتغاليين في تنفيذ بعض المهام،[3]
و (زنجبار) أيضاً تحالف بعض حكامها مع البرتغاليين في مراحل مختلفة، ولكن المؤكد أنهم كانوا على علاقات وطيدة مع البرتغال أثناء الحصار العماني لقلعة (يسوع) الآنف الذكر، وفي (كلوه) فكما مرّ بنا في المراحل

---

1) Strandes, J., op.cit, p.68-9.

2) Gray, J.m., op.cit, p.89;

كيركان، التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق أفريقية، ص ٢٨٩.

٣) وندال، تاريخ عمان، ص ٥٤ - ٥٥.

الأولى للغزو البرتغالي عندما قام (دالميدا) بعزل الحاكم وتعيين آخر موالٍ للبرتغاليين في المدينة.[١] ومن هذا يتضح أن البرتغاليين لم يكونوا بلا أصدقاء في ساحل شرق إفريقية، بل كان لهم بعض المؤيدين والمتعاونين الذين أسهموا بأشكال مختلفة في استمرار الوجود البرتغالي وتسلطه.

وكمثال على ذلك عندما استطاع العمانيون طرد البرتغاليين من (مسقط عام ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠ - كما سيأتي ذكره - وفي رسالة وجهها نائب الملك بالهند إلى ملك البرتغال يطلعه فيها على ظروف سقوط (مسقط)، تطرق فيها إلى موقف أصدقاء البرتغاليين من العرب وذلك عندما ذكر أن العرب الذين في خدمة ملك البرتغال انقسموا قسمين، قسم ساعد المهاجمين العمانيين وتعاون معهم، وقسم لم يعجبهم طرد البرتغاليين وحضر شيوخهم إلى (جوا) لبحث امكانية اخراج العمانيين من (مسقط) وإعادة البرتغاليين وذلك عندما قال: «وللحقيقة فإن بعض العرب لم يعجبهم هذا الحال وكان مصدر حزن لبعض شيوخ العرب الذين حضروا إليّ يطلبون الإسراع في استعادة مسقط.»[٢]

لقد ترتب على الاستعمار البرتغالي لساحل شرق إفريقية نتائج هامة: دينية واقتصادية وسياسية، فالنتائج الدينية ظهرت من خلال اضطهاد البرتغاليين للمسلمين في ساحل شرق إفريقية وهدم مساجدهم، وتدمير مقومات الحضارة الإسلامية في الساحل، كما حققوا حلمهم بالوصول إلى الحبشة والعمل سوياً على محاربة المسلمين، ومحاولاتهم المتكررة الوصول إلى الأماكن الإسلامية المقدسة في مكة والمدينة، ومطاردة سفن المسلمين التجارية وسفن الحجاج ونهبها وإحراقها بعد قتل من فيها، كما

---

١) انظر الصفحة (١٣٠).

2) (IOR), I/3/141, Documentos, 60, Fol. 331, Lettr Viceroy to the king 18 December 1650.

اقتفت البعثات التنصيرية البرتغالية خطى الرحّالة والتجار وجيوش الاستعمار، وأصبح طبيعياً أن نجد في كل قلعة أنشئت على طول الساحل واحداً أو أكثر من مراكز التنصير المختلفة، حيث حاول هؤلاء المنصرون مراراً التعمق إلى الداخل.

أما النتائج الإقتصادية، فقد وضع البرتغاليون أيديهم على طرق التجارة بين الشرق والغرب، واحتكروا تجارة الشرق، والتجارة في السلع الأفريقية وفي مقدمتها الذهب والعاج والصمغ والفضة، وكذلك الرقيق، وأصبحت (لشبونه) مركزاً رئيساً للسلع الإفريقية ومنتوجات الشرق، وتحول الطريق التجاري لهذه السلع إلى طريق رأس الرجاء الصالح، بدلاً من طريق البحر الأحمر والخليج العربي. وقد كانت الآثار الإقتصادية لوصول البرتغال لشرق القارة وحلولهم محل العرب والمسلمين في هذا المجال، ومحاولاتهم القضاء على نشاط المسلمين آثاراً بالغة السوء.

ومن الناحية السياسية، فقد افتتح الطريق أمام البرتغال لشرق القارة الإفريقية وبلاد الشرق، التي كانوا يطمعون في غلاّتها وثرواتها، وكانت الإمارات والمدن في ساحل شرق إفريقية أكثر المناطق التي تأثرت بذلك، فقد أصبحت للبرتغال السيادة في الطريق البحري المؤدي إلى الهند والشرق الأقصى، ارتكازاً على قواعدهم ومستعمراتهم في ساحل شرق إفريقية، والتي تعتبر نقط حماية وتموين هامة لسلامة وأمن هذا الطريق. لذا لم يكن أمام البرتغاليين أي خيار سوى السيطرة عليه وعزله عن بقية الأقاليم والمناطق الإسلامية عزلاً تاماً، كما استخدموا أسلوب القمع الوحشي ضد الأهالي عند محاولاتهم التحلل من القبضة الحديدية البرتغالية. الأمر الذي أظهر أن الوجود القوي للبرتغاليين في ساحل شرق إفريقية لايقبل المساومة أو التشكيك.

* السيطرة البرتغالية على الساحل العماني :

أدرك البرتغاليون أن بقاءهم في ساحل شرق إفريقية لن يخلو من تهديدات طالما بقيت الجزيرة العربية خارج مناطق نفوذهم، وذلك نسبة للارتباط التاريخي الوثيق بين ساحل شرق إفريقية والجزيرة العربية، التي كانت تمده عبر التاريخ بالإمداد البشري والحضاري والديني، لذلك اتجه البرتغاليون لإحكام سيطرتهم على البحر الأحمر، ومن ثم السيطرة على الخليج العربي من خلال الإستيلاء على مملكة هرمز والساحل العماني، والتي قال عنها (البوكيرك) نفسه : «هناك ثلاثة مراكز تعتبر المفاتيح الرئيسة لتجارة الشرق والهيمنة على التجارة العالمية، وهي (ملقا) والتي تتحكم في مضائق سنغافورة، و (عدن) عند مدخل البحر الأحمر، والمركز الثالث هو (هرمز) عند مدخل ومخرج مضايق الخليج الفارسي، والتي تعدّ أهم المراكز التجارية جميعها، ولو تمكن ملك البرتغال من السيطرة على (عدن) وتحصينها بقلعة قوية لأصبح سيد آسيا بدون منازع، ولو تمكن من السيطرة على هذه المراكز الثلاثة لأصبح سيد العالم.» (١)

لذا فقد تولى (البوكيرك) تنفيذ هذه السياسة، وبدأ تحقيق الأطماع البرتغالية في المناطق العربية عندما وضع بنفسه في عام ٩١٠هـ / ١٥٠٤م مشروعاً ضخماً للإبحار والتجارة والغزو في البحار الهندية، وتحقق له أمله عندما ولاه ملك البرتغال عام ٩١٥هـ / ١٥٠٩م أمور الشرق، وأعطاه حرية التصرف كيفما يشاء، وبالرغم من أن (دالميدا) نائب الملك في الشرق في تلك الفترة كان يرى تأسيس وكالات تجارية في السواحل للمحافظة على العلاقات التجارية والسيطرة على البحار دون الإهتمام

---

1) The Commentaries, of Afonso De Albuquerque, op.cit, vol.I, p.17-22.

بالداخل، إلاّ أن (البوكيرك) كان يهدف إلى إنشاء امبراطورية برتغالية عظيمة في الشرق، و بناء القلاع أينما أسس وكالة، لالحماية التجار وحسب، بل للسيطرة على الحكام الوطنيين وإجبارهم على الاعتراف بالبرتغال سلطة مسيطرة.[1]

أبحر (البوكيرك) على رأس أسطول برتغالي من (لشبونه) عام ٩١٢هـ / ١٥٠٦م، وتولى هو القيادة، ووضع الأسطول تحت الإشراف العام لـ (تريستاو دي كونها Tristao De Cunha) وكان خروجهما تأكيد من البرتغال بضرورة محاصرة السواحل العربية، وإغلاق البحر الأحمر والخليج العربي، وأوكل إلى تلك الحملة ضرورة السيطرة على جزيرة (سقطرة[2] Socatra).[3] وفي منتصف عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م ضرب (داكنها) حصاره على

---

١) ولسون، تاريخ الخليج، ص ٦٤؛ يوسف الثقفي، موقف المماليك ودول الخليج العربي من النفوذ البرتغالي، ص ١٤٨؛ أحمد بوشرب، مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، مجلة الوثيقة، العدد الرابع، السنة الثانية، البحرين ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ١٢١

٢) سقطرة : جزيرة تقع بالقرب من الساحل الجنوبي للجزيرة العربية إلى الشرق من عدن، وتبلغ مساحتها (١٤٠٠) ميلاً مربعاً، وهي جزيرة جبليّة وعرة وقليلة السكان، كما تكثر حولها الشعاب المرجانية، وكان البرتغاليون يهدفون من احتلالها أن تكون قاعدة مناسبة لشن الغزوات على البحر الأحمر، ولاعتراض السفن التجارية الإسلامية القادمة من الهند والمتوجهة إلى جدة والسويس، ولكن البرتغاليين تركوها بعد فترة من احتلالها أي في عام ٩١٧هـ / ١٥١١م نظراً لقلة أهميتها التجارية والحربية، وهي الآن تتبع جمهورية اليمن.

لمزيد من التفصيل انظر : حسين بن علي الريسي، اليمن الكبرى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م، ص ٧؛ الرمال، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص ١٧٨.

3) Sousa, F., op.cit, vol.I, p.129؛

ولسون، تاريخ الخليج، ص ٦٥.

(سقطرة)، وأنذر حاكمها الذي لم يمتثل، فقام بشن هجوم عليها حتى سقطت، وشرع البرتغاليون في إقامة قلعة فيها لتكون قاعدة للأساطيل البرتغالية التي تحاصر البحر الأحمر بغرض إعاقة التجارة العربية والإسلامية.[1]

توجه (داكنها) بعد ذلك إلى الهند، وسلم ستاً من السفن برجالها وعتادها وقوتها إلى (البوكيرك) الذي حاول في بداية الأمر التوجه إلى (عدن)، ولكنه أدرك أن القوة التي معه ليست كافية للسيطرة عليها، فاتجه إلى الخليج، وأغار في طريقه على سواحل جنوب الجزيرة العربيّة، ثم رسا الأسطول على شاطئ رأس الحد بالقرب من مدخل الخليج، حيث التقى بحوالي (٤٠) مركباً تجارياً عربياً قادماً من (هرمز) ومناطق الخليج المختلفة، فقام بحرقها وقتل ملاحيها.[2] ويذكر (ولسون) أن ملك البرتغال قد أبلغ (البوكيرك) سريّاً بأنه سوف يعيّن نائباً للملك في الشرق بدلاً من (دالميدا) وذلك عند انتهاء مدة هذا الأخير في نهاية السنوات الثلاثة القادمة أي في عام ٩١٥هـ / ١٥٠٩م.[3]

في الحادي والعشرين من أغسطس عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م ظهر البرتغاليون لأول مرة قبالة السواحل العمانية مبتدئين بذلك أعمالهم الوحشيّة ضدها، حيث اتجهوا إلى (صور)، فقاموا بإحراق المدينة وتدميرها، ومنها اتجهوا إلى (قلهات)[4] والتي تعتبر مستودع الشحن إلى

---

١) ابن المطهر عيسى بن لطف الله، (مخطوط) روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، نسخة بقسم التصوير العلمي والميكروفلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم ٢/٢٦٢، ورقة ٧؛ يوسف الثقفي، دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٦٤.

٢) مايلز. إس. ب، الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبدالله، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ١٥١ - ١٥٢؛ نوال صيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج، ص ١١٨.

٣) ولسون، تاريخ الخليج، ص ٦٥.

٤) عن صور وقلهات انظر الملحق رقم (٦-د).

الهند، فأمر (البوكيرك) بالرسو فيها، وجرت مفاوضات بينه وبين حاكمها، تمخضت عن عقد صلح بينهما يقضي بإمداد السفن البرتغالية بالمؤن مقابل تجنيب المدينة الدمار،[1] ولم يدمر (البوكيرك) البلدة، أو يقصفها بالمدافع، ويعلل هو سبب ذلك إلى الموقف الودي الذي اتخذه حاكم البلدة والأهالي، حيث أرشدوه إلى أن هذا الطريق يؤدي إلى جزيرة (هرمز)، وانهم تابعون لها، كما أبدوا استعدادهم للدخول في طاعة ملك البرتغال حتى لو لم تقبل به مملكة (هرمز) نفسها.[2]

اتجه الأسطول البرتغالي بعد ذلك إلى (قريات) التي استقبل فيها بصورة غير متوقعة، فقد وجد أهلها متأهبين للدفاع عنها، فبادرهم (البوكيرك) بالهجوم، وأظهر أهلها بسالة في الدفاع عنها، ولكن التفوق العسكري البرتغالي أدى إلى انتصارهم في النهاية، فدخل البرتغاليون البلدة، وقاموا بمذبحة كبيرة، وأعملوا السلب والنهب، وأحرقوا البلدة و (١٤) مركباً كانت راسية فيها.[3]

من (قريات) توجه البرتغاليون إلى (مسقط)، فوجدوها معززة بالمقاتلين الذين فرّوا إليها بعد حوادث (قريات)، وتعتبر (مسقط) أقوى وأهم المدن العمانية، وكانت مزودة بوسائل دفاع قوية، وعدد كبير من المحاربين الذين

---

1) Sousa, F., op.cit, vol.I, p.125;

علي أحمد الزبيدي، أصداء الغزو البرتغالي في أدب الخليج العربي، مجلة الوثيقة، العدد الرابع عشر، السنة السابعة، البحرين ١٤٠٩/١٩٨٩، ص ١٢٨.

2) The Commentaries of the Afonso De Albuquerque, op.cit, vol.I., P.60.

٣) ولسون، تاريخ الخليج، ص ٦٦ - ٦٧؛ نوال صيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، ١٢٠؛ صالح محمد العابد، تحرير ساحل عمان وانهيار الامبراطورية البرتغالية في الشرق، مجلة آفاق عربيّة، العدد الثالث، بغداد ١٩٨٥، ص ٤٠.

جاؤا من داخل البلاد، كما أنها ذات مناعة طبيعيّة، حيث تحيط بها الجبال من ثلاث جهات،[1] وأنشأ الأهالي سوراً من الأخشاب عرضه حوالي عشر نخلات وارتفاعه عشرون، وملؤه بالرمل، فكان قوياً جداً، ويتصل من كل جانب بسلسلتين من الجبال.[2] ولكن جميع تلك الاستعدادات والتحصينات في (مسقط) لم تشفع لها عند الهجوم البرتغالي الذي ألحقها بجاراتها كما سنرى.

أصبح الأسطول البرتغالي أمام ميناء (مسقط)، وقد بدا واضحاً (للبوكيرك) أن أهالي المدينة لايريدون الحرب رغم استعدادهم لها، وعبّروا عن ذلك عندما قاموا بإرسال وفد من الأعيان للتفاوض، وناشدوا القائد البرتغالي تجنيب المدينة الدمار، وأبدوا استعدادهم بدفع ضريبة للبرتغاليين تماثل الضريبة التي تدفع لمملكة هرمز، كما أبدوا قبولهم بإعلان التبعيّة لملك البرتغال.[3] ولكن يظهر أن أهالي (مسقط)كانوا يريدون كسب الوقت من خلال هذه المفاوضات ريثما يتم اكمال الاستعدادات ووصول التعزيزات، إذ ليس من المعقول أن تسلّم مسقط نفسها للبرتغاليين بهذه السهولة.

لم تنجح المفاوضات بينهما، إضافة إلى أن (البوكيرك) شعر أن هناك شيء في الخفاء يتم الإستعداد له، لذا فقد هاجم المدينة وقصفها

---

1) The Commentaries of the Afonso De Albuquerque, op.cit vol.I, pp. 77-8.

٢) وندال، تاريخ عمان، ص ٤٨؛ نوال صيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، ص ١٢٠.

3) Dennis, R., op.cit, p.114;

جمال قاسم، الخليج العربي، ص ٦٤.

بالمدافع، واستطاع أن يحقق إنزالاً بحرياً على جانبي الحصون، وناشده الأهالي بأن لايدمر المدينة فوافقهم على ذلك شريطة أن يقوموا بدفع مبلغ كبير من المال يتم تسليمه غداً،[١] ولم يستطع الأهالي دفع المبلغ قبل نهاية المدة المحددة لهم، الأمر الذي دفع (البوكيرك) بشن الهجوم النهائي على المدينة، حيث زحزح المدافعين عنها إلى خارجها، وقام بمذبحة مروعة كان نصيب النساء والأطفال والشيوخ فيها كبيراً[٢] واستولى على المدينة، وغنم منها مغانم كثيرة، من الأسلحة والأغذية والسفن، وأقام فيها ثمانية أيام يجهز أسطوله بالمؤن والمياه، وكان نصيب المساجد من الهدم والإحراق كبيراً.[٣]

لقد شهد الخليج العربي فظاعة الغزو البرتغالي وقسوته، ولم يقتصر (البوكيرك) على إحراق المدن والسفن، بل قام بإحراق الناس وهم أحياء، وقد تجلت هذه الوحشية في وصف المؤرخ البرتغالي (سوزا Sousa) بقوله: «عندما رأى الجنود عدم حاجتهم إلى مامعهم من الأسرى من الرجال والنساء وليس باستطاعتهم أخذهم معهم صلموا آذانهم وجدعوا أنوفهم ثم أطلقوا سراحهم.»[٤] ومن الجدير بالذكر أن المؤرخين البرتغاليين في معرض وصفهم لتلك الأحداث التي اتسمت بالوحشية والقسوة، ينعتونها بالشجاعة والإقدام، وصَنعتاً بعيد عن الحقيقة بكل المقاييس المعروفه .

---

١) ولسون، تاريخ الخليج، ٦٧؛ عبدالعزيز محمد عوض، الاحتلال البرتغالي لموانيء الجزيرة العربية، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٢٩، بغداد ١٩٨٦، ص ١٨.

٢) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٥٥ - ١٥٦؛ الشنّاوي، المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية، ص ٦٢٦.

٣) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ترجمة مكتب ديوان حاكم قطر، ج١، الدوحة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ، ص ١٢؛ قدري قلعجي، الخليج العربي، ج ١، دار الكتاب العربية، بيروت ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م، ص ٣٦٥.

4) op.cit, vol.I, p.125.

غادر (البوكيرك) مسقط بعد أن أضحت بلدة خراباً متوجهاً إلى (صحار) ذات الصلة القوية بمقاطعات عمان الداخلية، حيث قدم إليها مايزيد عن (٧٠٠٠) مقاتل من الداخل بدعم من شيوخ بني جبر،[١] وبدأ حاكمها من قبل مملكة هرمز يلوّح بقوة موقفه، ويستعرض قواته أمام الأسطول البرتغالي الذي انتحى جانباً أمام القلعة[٢] ويذكر (مايلز) أن حاكم (صحار) أرسل رسالة إلى (البوكيرك) يخبره فيها بأن المدينة تابعة لملك (هرمز) وبأنه لو فكر بالنزول فسوف يلقى استقبالاً لايروقه، غير أن (البوكيرك) طلب من الرسول بأن ينصح الحاكم بأن عليه أن يعدل موقفه ويعلن تبعيته لملك البرتغال، وإلاّ فإن المدينة ستتعرض للقصف والتدمير.[٣] ولم يجد الحاكم بدأ من الموافقة على شروط (البوكيرك) وعدم تعريض المدينة وسكانها للدمار والحرق والقتل، لذا فقد فرض (البوكيرك) عليها ضريبة سنوية، ورفع العلم البرتغالي في أعلى القلعة، وأبقى حاكم المدينة مسؤولاً عنها بعد أن اعترف بالولاء لملك البرتغال.[٤] وبذلك سلمت (صحار) من الحرق والتدمير.

---

1) The Commentaries of the Afonso De Albuquerque,op.cit, vol.I, p.78; مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٥٨.

2) Sousa, F., op.cit, vol. I, p.126.

٣) الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٥٨.

٤) ولسون، تاريخ الخليج، ص ٦٤؛ نوال صيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، ١٢٣؛ مديحة أحمد درويش، سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دار الشروق، الطبعة الأولى، جدة، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، ٢ ٢٧.
ومن الجدير بالذكر أن (صحار) ظلت على هذا الوضع حتى عام ١٠٢٥هـ ١٦١٦م عندما فرض البرتغاليون سيطرتهم المباشرة عليها وذلك عندما طلب المساعدة منهم أحد المتصارعين على السلطة فيها ضد خصمه. لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر: الأزكوري، كشف الغمة، ص ٩٠.

كانت (خورفكان) خاتمة المطاف أو المحطة الأخيرة من حملات (البوكيرك) على الساحل العماني، وذلك في عام ٩١٣هـ / أواخر ١٥٠٧م، وقد استعد السكان للمقاومة، وقاموا باستعراض القوة على ظهور الجياد، والتلويح بالأسلحة أمام الأسطول البرتغالي، ولكن السلاح الناري الذي كان بحوزة البرتغاليين كان أقوى،[1] فقد انتظر (البوكيرك) أن يقوم الحاكم بإيفاد مندوب إليه يوقّع شروط التسليم، ولكن ذلك لم يتم، لذا قام بدك المدينة بالمدافع، وواجه مقاومة في بداية الأمر، ولكن في النهاية استطاع السيطرة على القلعة، وهرب من استطاع الهرب إلى الداخل، وأسر عدد كبير من الناس، ولكن تم اطلاق سراحهم بعد التمثيل بهم.[2] وبسقوط (خورفكان) أتمّ البرتغاليون السيطرة على الساحل العماني الذي لم يجدوا كبير عناء بالإستيلاء عليه، وأنه لمن المؤسف حقاً أن وقوع تلك الجرائم الوحشية في مدن المسلمين لم يكن كافياً لردع المتكالبين على زعامات المدن والقرى الداخلية في عمان عن مواصلة نشاطهم المخرب ضد بعضهم بعضاً.

بعد الإستيلاء على (خورفكان) مضى (البوكيرك) لتحقيق الهدف الأساسي والحاسم من حملته في الخليج العربي، وهو الاستيلاء على (هرمز)، والتي قد علمت ما أصاب الموانىء الخليجية الأخرى من دمار، كما أنها أيقنت أنها سوف تقوم بمنازلة البرتغاليين لامحاله، وبذلك

---

1) Low, C.R., op.cit, vol.I, p.35;

قدري قلعجي، الخليج العربي، ج ١، ص ٣٦٥.

2) S.ousa, F., op.cit, vol.I, p.127;

المعمري ، عمان وشرق إفريقية، ٥٩. بدر الخصوصي، دراسات في تاريخ الخليج الحديث والمعاصر، ج ١، منشورات ذات السلاسل، الطبعة الأولى، الكويت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، ص ١٦.

استعدت استعداداً كاملاً، يساندها في ذلك عدد كبير من أهالي الساحل الغربي للخليج، والذين فرّوا إثر وحشية (البوكيرك)، ورغم ما أبداه بعض المؤرخين المتعصبين من التقليل من أهمية المقاومة العربية والإسلامية للبرتغال في (هرمز)، وعلى رأس هؤلاء (سوزا ولوريمر) اللذين أشارا إلى أن البرتغاليين تمكنوا من السيطرة على (هرمز) بيسر وسهولة ودون كبير عناء،[1] إلاّ أنه من الإنصاف القول أن البرتغاليين قد وجدوا صعوبة كبيرة في السيطرة على الجزيرة، وقد أشار إلى ذلك (ولسون) حيث ذكر أن البرتغاليين كانوا في خشية وتردد لعظم طبيعة الواجب الذي يتعين عليهم القيام به، ولأنهم حينما وقفوا في المنطقة، وشاهدوا عظم المدينة والحشد الكبير من المقاتلين على الشاطىء، والسفن الكثيرة الراسية، والمجهزة بالرجال والسلاح، أصيبوا بالخيبة والأسى،[2] ورغم ماحشدته (هرمز)[3] من قوات وسفن ومحاربين، فبعد معركة عنيفة دارت بينهم وبين البرتغاليين، استطاع (البوكيرك) بتفوق سلاح مدفعيته وخبرة أسطوله في الحروب البحرية، أن يفرض حصاراً على (هرمز) حتى وافقت على شروط التسليم،[4] والتي تقضي بدفع ضريبة سنوية واعفاء سلع البرتغاليين من الرسوم الجمركية، وللبرتغاليين حق منع السفن المحليّة من مزاولة التجارة في الخليج إلاّ بعد الحصول على تصريح منهم، والخضوع لملك

---

1) Sousa, F., op.cit, vol.I, p.128;

لويمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ١٣.

٢) ولسون، تاريخ الخليج، ص ٦٩ - ٧٠.

٣) كان يحكم هرمز في تلك الأثناء (سيف الدين) وهو ابن (١٢) سنة، تحت وصاية مربيه الشيخ (خوجه عطار) وهو رجل محنك، وقد عمل جاهداً على جمع أكبر قدر من القوات لحماية الجزيرة. انظر: نوال صيرفي، نفوذ البرتغاليين في الخليج، ص ١٢٤.

4) Barbosa, D., op.cit, vol.I, P.101.

البرتغال.[1] وبذلك لم يحتل (البوكيرك) الجزيرة احتلالاً مباشراً، بل فضّل سياسة الحكم غير المباشر وذلك بالاعتراف بسلطة التاج البرتغالي.

والواقع أن هناك غموضاً أكيداً فيما يتعلق بحقيقة ماحصل لدى اقتراب البرتغاليين من جزيرة (هرمز)، هل حصل قتال عنيف ومن انتصر فيه ؟ أو لم يحصل ذلك أصلاً ؟ هل سلمت (هرمز) بهذه السهولة ؟ وفي تقديري أنه يصعب الحصول على إجابة شافية لهذه التساؤلات طالما أن معظم المؤرخين والباحثين وبخاصة الغربيين أخذوا بالرواية البرتغالية، والشيء الذي لايمكن استبعاده هو أن هناك قتالاً عنيفاً فعلاً جرى بين الطرفين لم يتمكن أي منهما من إحراز نصر مؤزر، وإلاّ ماالذي منع (البوكيرك) من تدمير (هرمز) كما فعل في (مسقط) وغيرها ؟ هل يمكن أن يكون ذلك غير العجز الفاضح ؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا اذن شروط التسليم التي تم التوقيع عليها ؟ إن الحلقة المفقودة في هذا الموضوع هي بلا شك الدور الذي لعبه الشاه (اسماعيل الصفوي) شاه فارس، والذي يذكر أحد الباحثين أنه هو الذي اقنع (الهرامزة) بأن يردّوا كيد البرتغاليين بقبول صلح معهم، وربما يكون قد تكلم عن مزايا مالية أمام

---

1) Sousa, F., op.cit, vol.I, P.132;

أحمد بوشرب، مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين، ص ١٢١؛ أحمد العناني، البرتغاليون في البحرين وماحولها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، مجلة الوثيقة، العدد الرابع، السنة الثانية، ١٤٠٤هـ / يناير ١٩٨٤م، ص ٨٨ - ٨٩. ويجدر بالذكر أنه سبق هذا الصلح مفاوضات بين الطرفين عبّر فيها (البوكيرك) لملك (هرمز) بأنه يريد سلاماً معه مبني على المصالح المشتركة والتعاون ضد الأعداء، وإقامة صداقة بين الطرفين، يدفع خلالها ملك (هرمز) الضريبة لملك البرتغال، كما هدد بأنه إذا لم يتم ذلك فإنه سيدمر المدينة ويحرقها. انظر:

The Commentaries of the Afonso De Albouquerque,
op.cit, vol.I, p.84-92.

(البوكيرك) ليحمسه على المهادنة التي كانت في صالحه أي في صالح (البوكيرك) وكذلك ليشعره أن (هرمز) وغيرها إنما تطيع ملك فارس وتحارب وتسلم برأيه، ولكن الشاه الصفوي وجد البرتغاليين قد أحسنوا التفاهم مع (الهرامزة) ولذلك لم يقرّوا بشيء للصفويين.[1] والواقع أنني لم أعثر على مايؤيد هذا القول، ولكنني أميل إلى أنه ربما حدث فعلاً لاسيما أن شاه فارس حاول منذ البداية اقامة علاقات ودّية مع البرتغاليين لمساعدته ضد العثمانيين، كما أنه يريد أن يؤكد ادعاءه غير الصحيح أن (هرمز) وماحولها تابعة لفارس. ومهما يكن من أمر فقد كتب البرتغاليون السطر الأول في سيادتهم البحرية والتجارية على الخليج العربي، تلك السيادة التي ترسخت فيما بعد واستمرت مايزيد على قرن ونصف قرن من الزمان، وأصبحت موانىء الساحل العماني بعد سقوط (هرمز) محطات برتغالية تحميها وتدافع عن تجارتها.

إن الأعمال الوحشية والأسلوب التعسفي التي انتهجها (البوكيرك) لم تكن تلقى قبولاً من مساعديه وبعض جنوده في الأسطول البرتغالي، حيث أبدوا أكثر من مرة استعداداً للتمرد عليه، ونلمس ذلك من الرسالة التي بعث بها إلى ملك البرتغال بتاريخ ١٥٠٨/٢/٢م، حيث اشتكى فيها من فرار عدد من قباطنة السفن حينما كان محاصراً (هرمز) ورفضهم الانصياع لأوامره مما حال دون إنجاز بعض المهام التي كان ينوي أن يقوم بها مثل تحديد موقع القلعة البرتغالية المتفق على إقامتها مع حاكم (هرمز) في الجزيرة.[2] والواقع أن (البوكيرك) في ذلك التاريخ لم يكن إلاّ مجرد قائد لإسطول يتلقى الأوامر من نائب الملك بالهند (فرانسسكو دالميدا)، الذي

---

١) أحمد العناني، البرتغاليون في البحرين وماحولها، ص ٨٩.

٢) أحمد بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي، ص ١٦٦ - ١٦٧.

لم يكن على وفاق مع (البوكيرك)، بل كان يعارض المشاريع الاستعمارية الطموحة والتي تعتمد على المغامرة التي كان يقوم بها (البوكيرك). ولكن هذا الخلاف تمخض في النهاية عن إنتهاء خدمات (دالميدا) نائباً للملك بالشرق، وتعيين (البوكيرك)، وكان ذلك عام ٩١٥هـ / ١٥٠٩م، أي في أعقاب الانتصار البرتغالي على الأسطول المملوكي في (ديّو) والذي سبق ذكره.[١]

أخذ (البوكيرك) بعد تعيينه في منصب نائب الملك بالهند، أخذ في وضع إستراتيجية جديدة للاستعمار البرتغالي بالشرق، فقام بإحتلال جزيرة (جوا) على ساحل الهند الغربي، ونقل مقره من (كوشين) إليها، وبذلك أصبحت (جوا) مقراً للحكومة البرتغالية بالشرق، ثم أبدى اهتماماً خاصاً بالبحر الأحمر و (عدن)،[٢] ولم يحقق (البوكيرك) أي نجاح يذكر في ذلك، ولذا نجده في نهاية عام ٩٢٠ / ١٥١٤م يعدل عن سياسته تلك ويكتفي بإقامة نقط مراقبة

---

١) كانت الأنظمة البرتغالية تقضي بأن لايبقى نائب الملك بالهند أو الموظفين الكبار في مراكزهم أكثر من ثلاث سنوات، وذلك حتى لايغريهم بعد المسافة بتحقيق مكاسب شخصية والاستفادة من صعوبة مراقبة (لشبونه) لهم، و(فرانسسكو دالميد) قضى مايقرب من أربع سنوات في ذلك المنصب، ومثل هذه الفترة كانت تعد فترة طويلة بالقياس إلى الأنظمة البرتغالية، ولهذا فإن إنهاء خدماته ربما يكون قد جاء بمقتضى تلك الأنظمة. انظر: جمال قاسم، الخليج العربي، ص ٦٩ - ٧٠.

٢) أحمد بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي، ص ١٦٧.
ويعزى اهتمام (البوكيرك) بالبحر الأحمر إضافة لكونه شرياناً تجارياً ويؤدي إلى الأماكن الإسلامية المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، يعزى اهتمامه بذلك إلى محاولة قطع الاتصالات بين المماليك وبين مسلمي وأمراء الهند، حيث عبر عن مخاوفه تلك في إحدى رسائله إلى ملك البرتغال، وكان يدرك أن أي تعاون بين المماليك والمسلمين في الهند لن يخدم المصالح البرتغالية إطلاقاً، لذا فقد أكد أن البرتغاليين لن ينعموا بالاستقرار في الهند والخليج إلاّ إذا تمكنوا من السيطرة على البحر الأحمر، والإجهاز على قوة المماليك. انظر: أحمد بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي، ص ١٦٧.

في بعض الموانيء، ونلمس ذلك في إحدى رسائله إلى ملك البرتغال والتي شرح فيها له الطريقة التي يمكن بها احتلال (عدن)، كما أوصى بعدم تحصين البحر الأحمر، والاكتفاء بالاعتماد على ميناء (مصوّع) للتمكن من مراقبة مكة وجدة.[1] ولكنّ من جاء بعده من القادة البرتغاليين لم يتقيّدوا بسياسته تلك، حيث تعرض البحر الأحمر في العهد العثماني إلى هجوم ضار من البرتغاليين.

انشغل (البوكيرك) عن الخليج حتى أوائل عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م، وخلال تلك الفترة سعى إلى تركيز الوجود البرتغالي في البحر الأحمر والهند وجنوب شرق آسيا، وبينما كان (البوكيرك) يقود حملة باتجاه (عدن) جاءته أخبار بقيام ثورة في (هرمز) ضد البرتغاليين، فحوّل اتجاه هذه الحملة إلى الخليج، حيث استطاع القضاء على الثورة في (هرمز) معيداً

---

١) المصدر نفسه، ص ١٦٨.

ويعزو أحد الباحثين سبب عدول (البوكيرك) عن سياسته بإغلاق البحر الأحمر إلى أنه أي (البوكيرك) عاين معطيات التجارة بالمنطقة، فقد لاحظ أن العلاقات بين آسيا والعالم العربي عريقة وأن اغلاق البحر في وجه التجارة العربيّة لن يؤدي في نهاية الأمر إلاّ إلى تنشيط الطرق البريّة التي لايمكن للبرتغاليين مراقبتها، كما أن الهند لايمكنها الاستغناء عن مواد تعودت الحصول عليها من العالم العربي مثل الخيول والتمور والفضة. انظر : أحمد بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي، ص ١٧٤ - ١٧٥. والواقع أن السماح المحدود لابحار السفن العربية مرتبط بحصولها على تصريح برتغالي نظير ضريبة تدفعها السفن العربية والإسلامية وتكون في العادة باهظة، والسفن التي لاتحمل تصريحاً يكون مصيرها المصادرة والتدمير، وبذا تتجلى سياسة الإحتكار التجاري البرتغالية، ويمكن القول أن سياسة (البوكيرك) الآنفة الذكر كانت تهدف إلى تحقق زيادة في مداخيل الضرائب والجمارك أيضاً بعدم إغلاقها البحر الأحمر بوجه السفن التجارية.

بذلك فرض السيادة البرتغالية الشكليّة والموضوعية عليها،[1] وقد أشار إلى ذلك الرحالة البرتغالي (بدرو تكسيرا Pedro Teixeira) الذي زار

---

1) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ١٤. ولسون، تاريخ الخليج، ص ٧٦ - ٧٧.

وجدير بالذكر أنه ورد في ترجمة عبدالقادر يوسف لكتاب ولسون الصادر في الكويت صفحة (٢١٥) الحاشية (١) أن (البوكيرك) في أثناء وجوده في (هرمز) استقبل مبعوث الشاه، وعقدت إتفاقية بينهما نصت على أن يساعد البرتغاليون الفرس في غزو البحرين والقطيف، وأن يقدم البرتغاليون المساعدة للشاه إسماعيل لقمع ثورة في مكران، أن يقيم البرتغاليون والفرس اتحاداً ضد الأتراك. أما ترجمة محمد أمين عبدالله لكتاب ولسون والصادر في مسقط عام ١٩٨٨ الطبعة الثالثة، فيذكر أن ألبوكيرك استقبل مبعوث الشاه إسماعيل وتم التوصل إلى اتفاقية بينهما سمح بموجبها لملك (هرمز) بالإستمرار في ممارسة سلطاته باسم ملك البرتغال، ولم يشر إلى الإتفاقية التي تنص على تقديم المساعدة العسكرية لفارس لغزو البحرين والقطيف وغيرها. والواقع أن ماورد عن هذه الأتفاقية من خلال ترجمة عبدالقادر يوسف وبخاصة فيما يتعلق بتقديم المساعدة العسكرية لفارس لغزو البحرين والقطيف ليس لها وجود أصلا في مذكرات البوكيرك المصدر الوحيد للمفاوضات بين البرتغاليين والفرس، وإنما المذكور في تلك المذكرات هو عدة مطالب تقدم بها الفرس وعلى رأسها إقامة حلف مشترك ضد العثمانيين، أما مايتعلق بالبحرين والقطيف فقد طلب الشاه من البرتغاليين تسهيل تنقل رعاياه فيما بين هرمز والبحرين والقطيف بواسطة السفن البرتغالية، وقد قبل (البوكيرك) مبدئياً تلك المطالب شريطة أن لايؤدي ذلك إلى الإضرار بأراضي تلك البلدان. إن ماجاء في تلك المذكرات يدحض بعض ادعاءات الكتاب الفرس الذين دأبوا على إظهار ادعاءاتهم بأن أجزاء من الساحل الغربي للخليج كانت خاضعة لفارس منذ عهد الشاه (اسماعيل الصفوي) وبخاصة جزيرة البحرين. انظر:

The Commentaries of the Afonso De Albouquerque, op.cit, vol.IV, pp.153-176;

ولسون، تاريخ الخليج، ترجمة عبدالقادر يوسف، ص ٢١٥. ولسون، تاريخ الخليج، ترجمة محمد أمين عبدالله، ص ٧٧.

(هرمز) عام ٩٩٦هـ / ١٥٨٧م بقوله: «عمل البرتغاليون في هرمز على تدمير قدرات وإمكانيات التجار الوطنيين، وأخذوا يلقون القبض على بعضهم تحت أعذار واهية وبحجة خطرهم ومحاربتهم للنظام البرتغالي، وكانوا يداهمون المحلات التجارية وينهبونها، ويستولون على مافيها من بضائع وذهب ونقود، ودأبوا على الإساءة للمسلمين وذلك عندما منعوا إقامة الصلاة في جامع المدينة، وأن أي شخص يرفض التعاون مع البرتغاليين يكون مصيره الإعدام.»[١]

اتّبع البرتغاليون نظاماً يتيح لهم إحكام سيطرتهم السياسية والتجارية والعسكرية على مدن الساحل العماني، وذلك بإحكام قبضتهم على الحصون والموانيء، والسيطرة على الجمارك، كما تم تعيين قائد برتغالي تتبعه مجموعة عسكريّة مسلحة في المدن ذات الأهمية الإستراتيجيّة، تساندهم في ذلك دوريات أسطولهم البحري التي كانت تجوب المنطقة، وتزور المدن العمانية للتأكد من استمرارية ولائها،[٢] كما اتّبع البرتغاليون أيضاً سياسة تدمير السفن العربية والإسلامية في الخليج العربي، ومنعوها من العمل بالتجارة مع الهند والشرق الأقصى وشرق إفريقية، وليس لأي سفينة عربية أو إسلامية الحق في ممارسة التجارة إلّا بتصريح منهم.[٣] كما أنهم عطّلوا الفعاليات التجارية العربية على سواحل الخليج وضيقوا عليهم، وقد أشار إلى ذلك الرحالة البرتغالي (تكسيرا)، كما أشار أيضاً إلى أن سكان الساحل الشرقي للخليج وجزره مثل (نخيلو وريق) والمأهولة بالعرب كانوا ممتعضين من البرتغاليين، ويتحيّنون الفرصة للثورة ضدهم، وذلك

---

1) Op.cit, p.166.

2) Sousa, F., op.cit, vol.I, p.131;

مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٦٤.

٣) المصدر نفسه، ص ١٦٤؛ نوال صيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، ص ١٣٨.

بسبب المظالم التي يتعرضون لها من البرتغاليين،[1] كما عمد البرتغاليون أيضاً إلى تجريد المنطقة من الأسلحة، وذلك عندما قاموا بسحب الأسلحة المختلفة من ساحل عمان و (هرمز) وأجزاء الخليج الأخرى، كما قاموا على الدوام بتفتيش السفن في عرض البحر ومراقبة أماكن بنائها وذلك للتأكد من عدم تسليحها، وهذه السياسة ترمي إلى عدم إتاحة الفرصة لأهالي المنطقة لاستخدام هذه الأسلحة ضد البرتغاليين.[2]

والواقع أن سياسة البرتغاليين في الخليج القائمة على الاحتكار التجاري، وفرض الضرائب على السكان، وقسوتهم المتناهية معهم، والاعتداء على الكرامات والأعراض ونهب الأموال، وسحب الأسلحة، كلها عوامل قد هيأت الأجواء للثورة ضدهم ومقاومتهم، ففي عام ٩٢٨هـ / أواخر ١٥٢١م، انفجرت ثورة عارمة ضد البرتغاليين في طول الخليج العربي وعرضه،[3] وقد كانت مؤقته ومنظمة تنظيماً جيداً، حيث قامت بالهجوم

1) Teixeira, p., op.cit, p.24.

2) The Commentaries, of Afonso De Albouquerque, op.cit,, vol.IV, pp. 164-74.

٣) يمكن الربط بين هذه الثورة وبين استشهاد زعيم الجبور في البحرين والإحساء الشيخ (مقرن بن زمل) على يد البرتغاليين وحلفائهم حكام هرمز والذي حدث قبل شهور من هذه الثورة أي في شعبان ٩٢٧هـ / يوليو ١٥٢١م أثناء غزوهم جزيرة البحرين واحتلالها. ولربما قائل يقول إن (شهاب الدين) حاكم هرمز قد اشترك بالثورة وحرض عليها وهو متورط بغزو البحرين وقتل الشيخ (مقرن)، فأقول أن ذلك انعكس على فرع الجبور في عمان بقيادة الشيخ (حسين بن سعيد) والذي لهم موقف آخر من الثورة، وهذا يعود إلى عدم رضاهم عن موقف حاكم هرمز وأعوانه في المدن الأخرى باشتراكهم مع البرتغاليين لغزو البحرين واحتلالها. ولايستبعد أنهم شكوا من موقف حاكم (هرمز) الذي تولى الدعوة لهذه الثورة بأنه يريد أن يحقق مكاسب شخصيه، ولن يمكنوه من ذلك انتقاماً لقتل الشيخ (مقرن بن زامل)، كما أن هذا الموقف من بعض شيوخ بني جبر كان مبعثه أساساً هو أنهم كانوا يرون أن

على مراكز البرتغاليين في وقت واحد، وقد نجحت هذه الثورة في إيقاع خسائر كبيرة بالبرتغاليين، وتم قتل وأسر العديد منهم، وبعد عدة حملات استطاع البرتغاليون إخماد تلك الأنتفاضة، وذلك عندما قاد (لويز دي منزيس Luiz De Menezes) حملة إلى الخليج فأخضع بعض الموانىء الثائرة، ثم توجه إلى (هرمز) حيث قضى على الإنتفاضة هناك وأعاد حكم البرتغاليين إلى الجزيرة، ووضعوها تحت إشرافهم وحكمهم المباشر عام ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م،[١] وفي عام ٩٣٣هـ / ١٥٢٦م، قامت ثورة جديدة في الساحل العماني و (هرمز) ولكن البرتغاليين استطاعوا إخمادها، وبذلك بدأ تطلع سكان الخليج إلى الدولة العثمانية،[٢] التي لم تؤد جهودها في الخليج إلى نتائج

مأأصابهم من ضرر كان مصدره تخاذل وتواطؤ حكام (هرمز) مع البرتغاليين.

لمزيد من التفصيل انظر: الحميدان، التاريخ السياسي لامارة الجبور، ص ٨٠ - ٨١ - ٨٢ - ٨٣.

١) ولسون، تاريخ الخليج العربي، ص ٨٠ مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٦٥ - ١٦٦. والجدير بالذكر أن موضوع مقاومة أهالي الخليج للنفوذ البرتغالي قبل قيام دولة اليعاربة في عمان مازال بحاجة إلى مزيد من البحث والدراسة والتقصي.

٢) قلل كثير من المؤرخين وربما عن عمد من الدور العثماني ضد البرتغاليين وبخاصة في الخليج، ويقضي الإنصاف القول أن الدولة العثمانية قامت بجهود ملموسة في الخليج العربي لمواجهة البرتغاليين. ومن أهم حملات العثمانيين ضد البرتغاليين في الخليج حملة (بيري ريس) عام ٩٥٨هـ / ١٥٥١م، وحملة (مراد بك) عام ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م، وحملة (سيد علي ريس) عام ٩٦٢هـ / ١٥٥٤م، وجميع تلك الحملات احتوت عدداً كبيراً من السفن والمحاربين، ويعزى هذا الاهتمام العثماني إلى السلطان (سليمان القانوني ٩٢٧ - ٩٧٤هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦م) الذي أدرك فداحة الأضرار الدينية والسياسية والاقتصادية التي يمثلها الوجود البرتغالي، وقد ختم العثمانيون حملاتهم على الخليج بحملة (علي ميراك بك) والذي انطلق من سواحل اليمن عام ٩٨٩هـ / ١٥٨١م حيث هاجم (مسقط) وألحق أضراراً بالبرتغاليين، ومن ثم توجه لنجدة المسلمين في ساحل شرق إفريقية - كما ذكرنا سابقاً - وبرغم بعض النجاحات التي حققتها تلك الحملات إلاّ أن العثمانيين واجهوا صعوبات كثيرة حالت دون تحقيق

حاسمة.

لقد كان الاستعمار البرتغالي للخليج سبباً في التدهور الإقتصادي الذي أصابه، وقد عانت موانىء الساحل العماني من آثار ذلك التدهور، بعدما كان لها أهمية بالغة في تجارة المحيط الهندي، كما انتهك البرتغاليون في شرق إفريقية والخليج العربي أبسط حقوق الإنسان، إضافة إلى أن الاستعمار البرتغالي لفت أنظار القوى الأوربيّة الأخرى إلى تجارة الشرق، والتي أنشبت أظفارها في الشرق الإسلامي وإفريقية لعدة قرون، وتعزى سيطرة البرتغاليين على الساحل العماني إلى سوء الأحوال السياسية في عمان، التي أنهكها الصراع المستمر على السلطة بين الرؤساء والشيوخ والأمراء، وانتشار الفتن الدينيّة والحروب القبليّة، ولم يشفع له خضوعه لمملكة (هرمز) التي لاتعدو كونها كياناً تجارياً تفتقر إلى القوة العسكرية البحرية الضارية لمواجهة البرتغاليين، حيث إنها لاتحتفظ إلّا بأسطول عسكري متواضع غالبيته من السفن التجارية التي

نجاح حاسم في موانيء الخليج ومن أهمها : بعد القواعد البحرية العثمانية في موانىء الجزيرة العربية عن مركز الثقل للقوة البحرية العثمانية الرئيسية في البحر المتوسط، وعدم قدرة العثمانيين على حشد القوى العربية والإسلامية في جبهة واحدة ضد البرتغاليين بسبب استمرار الحرب العثمانية - الصفوية، وعدم تعاون بعض العصبيات القبليّة العربية ولاسيما البدوية منها مع الحكم العثماني، إضافة إلى مقاومة السلطات البرتغالية في (هرمز) و (جوا) للوجود العثماني في (القطيف والاحساء) وفي بعض الأحيان (البحرين)، وعدم إعطائه الفرصة لتثبيت وجوده هناك، وقد أسهمت تلك الصعوبات وغيرها في نجاح القوة البحرية البرتغالية في التصدي للحملات العثمانية.

لمزيد من التفصيل انظر: مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٧٤ ومابعدها؛ صالح أوزبران، الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي، ترجمة عبدالجبار ناجي، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، البصرة ١٩٧٩،ص ١٠٩-٢٠٥.

تستعمل أحياناً لنقل الجنود، ومهمة هذا الأسطول هو المحافظة على الأمن فقط في الأماكن التي تسيطر عليها (هرمز) في الساحل العماني، رغم افتقارها التام لسلاح مدفعيّة فعّال مقارنة لما لدى البرتغاليين من مدافع ضخمة، ولهذا لم تستطع القيام بأي عمل من شأنه صد الهجوم البرتغالي على موانىء ساحل عمان عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م.[١] وظل الأمر كذلك حتى بدأ العمانيون يحدثون تغييراً جذرياً ليس في عمان فحسب بل في الخليج العربي وساحل شرق إفريقية وذلك في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي.

---

١) علي عبدالرحمن أبا حسين، تاريخ البحرين خلال المخطوطات والوثائق، أبحاث الحلقة الرابعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية، أبو ظبي، نوفمبر ١٩٧٩، ص ٢٤٦؛ مصطفى عقيل الخطيب، التنافس الدولي في الخليج العربي، دار الجيل، بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص ٢٠؛ جمال قاسم، الأوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي، ندوة رأس الخيمة التأريخية، ج ١، رأس الخيمة ١٩٨٧، ص ٣٠.

الفصل الثاني

الفصل الثاني

« العمانيون ودورهم في تصفية الوجود البرتغالي »

* الإمام ناصر بن مرشد اليعربي

١٠٣٤هـ - ١٠٥٩هـ / ١٦٢٤ - ١٦٤٩م.

* جهوده في تحقيق الوحدة الوطنية وبناء القوة العسكرية.

* بدء مرحلة الجهاد العماني ضد البرتغاليين في الساحل ١٠٤٢هـ / ١٦٣٢م.

- أوضاع البرتغاليين في الشرق قبيل بدء الجهاد العماني ضدهم.
- تركّز الوجود البرتغالي في الساحل العماني.
- الهجوم الأول على (مسقط) وتحرير (جلفار ومنطقة الصير) وحصار (صحار) ومعاهدة الهدنة حول (مسقط) ١٠٤٢ - ١٠٤٣هـ / ١٦٣٢ - ١٦٣٣م.
- تطور الأوضاع الداخلية واحتدام الصراع بين الإمام ناصر بن مرشد وبني جبر.
- تجدد الجهاد العماني ضد البرتغاليين والهجوم على (مسقط) وتحرير (صحار) ١٠٥٠ - ١٠٥٣هـ / ١٦٤٠ - ١٦٤٣م.
- الهجوم الكبير على (مسقط) ومعاهدة الهدنة ووفاة الإمام ناصر بن مرشد ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م.

ذكرنا فيما تقدم في التمهيد أن داخل عمان قد خلص (لمحمد بن إسماعيل الحاضري اليحمدي) الذي تولى الإمامة عام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م وحتى عام ٩٤٢هـ / ١٥٣٠م، ثم خلفه ابنه (بركات بن محمد بن اسماعيل) الذي استقر في (بهلى)[١] ولكنّ الاباضيين تبرأوا منه وتخلوا عنه عندما بدأ بجباية الزكاة بالقوة، فساد البلاد بذلك حالةٌ من الفوضى وجد من خلالها بنو نبهان الفرصة للظهور على مسرح الأحداث مرة أخرى.[٢] وإلى جانب الإمامة الإباضية والنباهية كانت هناك سلطة أخرى تمارس الحكم في بعض المقاطعات العمانية وهم بنو جبر أو بنو هلال كما كانوا يعرفون بذلك الاسم في عمان حيث يرجع فرع بني جبر في عمان إلى (هلال بن زامل الجبري)، حيث استطاع زعيمهم في عمان آنذاك (محمد بن جيفر الجبري) انتزاع (بهلى) المقر الرسمي للإمامة الاباضية من (بركات بن محمد بن إسماعيل) وبيعه لآل (عمير بن حمير النبهاني) وذلك عام ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م،[٣] وبذلك فرض بنو جبر سيطرتهم على عدد من المقاطعات العمانية الداخلية، كما أصبحوا عاملاً هاماً في السياسة العمانية، وأصبحت عمان مقسمة إلى مناطق ومدن شبه مستقلة في معظم الأجزاء، وكان لليعاربة أيضاً جزء من هذا التقسيم.

لذا فقد كانت الأوضاع عشية قيام دولة اليعاربة[٤] كالتالي : كانت

---

١) بهلى : من مدن المنطقة الداخلية في عمان، تقع إلى الغرب من نزوى، وتشتهر بالصناعات الفخارية والمنتوجات الزراعية. انظر الملحق رقم (٦-د).

٢) الأزكوري، كشف الغمة، ص ٧٤ - ٧٥؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج١، ص ٣٢٨.

٣) إبن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٦٠؛ الحميدان، نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية ٩٣١/١٥٢٥ - ١٢٨٨/ ١٨٧١، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، العدد الثامن عشر، السنة الخامسة عشرة، البصرة ١٩٨١، ص ٢١٣.

٤) ارتكزت دولة اليعاربة على الفكر الإباضي الذي هو رمز الدولة، ويتم انتخاب الإمام في مجلس علني مكون من علماء الدين وزعماء المقاطعات وشيوخ القبائل، ويسبق انعقاد

(نزوى) (لسلطان بن محسن النبهاني)، وكانت (سمائل) لمانع بن سنان العميري)، وكانت (بهلى) (لسيف بن محمد. الهنائي)، وكان بنو جبر يسيطرون على كل من (إبرا، سمد الشأن، حصن الغبي، مقنيات، ينقل)، أما (الرستاق) فكانت تحت إمرة (مالك بن أبي العرب اليعربي)، وكانت (نخل)[1] يسيطر عليها (سلطان بن أبي العرب اليعربي)[2] أما المدن الساحلية المهمة مثل (مسقط، صحار، قلهات، صور، قريات) فكانت تحت السيطرة البرتغالية، أما منطقة الصير (رأس الخيمة)[3] فكان بها

هذا المجلس مشاورات بين تلك المجموعات ليتم التنسيق فيما بينهم، وقد تستغرق تلك المشاورات مدة طويلة، وأثناء الاجتماع يتم اختيار الإمام على أسس ومعايير معينة منها الاستقامة والتدين والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والفقه والأمانة والمروءة، ولكن يمكن غض النظر عن بعض تلك الشروط عندما يتم اختيار الإمام وهم في حالة حرب، حيث يتطلب أن يكون من مميزاته الكفاءة العسكرية فيكتفى بذلك على أن تكون إمامته مؤقته لفترة الحرب فقط ويعتبر إماماً للحرب، وبإستثناء الأمام (ناصر بن مرشد) الذي توافرت فيه معظم الشروط حتى الحربية منها فإن بقيّة أئمة اليعاربة تم اختيارهم نظراً لقدراتهم العسكرية، ومقدرتهم على منازلة خصومهم والتغلّب عليهم سواء في الداخل أو في الخارج، ولذلك فأغلبهم أئمة حرب غلب عليهم الطابع الوراثي للسلطة بصورة تتفق من حيث الشكل مع المذهب الإباضي.

لمزيد من التفصيل أنظر : عبدالله بن خلفان بن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، تحقيق عبدالمجيد حسيب القيسي، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٣٩٧/١٩٧٧، ص ١٣؛ الأزكوري، كشف الغمة، ص ٩٦؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج١، ص ٢٦٥؛ السيّار، دولة اليعاربة، ص ١١٢؛ فاروق عمر فوزي، حول طبيعة الإمامة لدى الخوارج الاباضية في عمان، مجلة آفاق عربية، العدد الرابع، بغداد ١٩٧٨، ص ١٥.

١) عن المدن والمناطق العمانية انظر الملحق رقم (٦-د).

٢) الأزكوري، كشف الغمة، ص ٩٣ - ٩٤.

٣) رأس الخيمة : تقع في ساحل عمان على الخليج العربي، وهي الآن إحدى الإمارات التابعة لإتحاد دولة الإمارات العربية المتحدة.

قلعتان إحداهما فارسية، والأخرى برتغاليّة، تقوم على حمايتها سفينتان برتغاليتان.[1] وعن تلك الأوضاع يقول (السالمي) : «وخربت عمان، وعاثت فيها الجبابرة، وقلّ فيها العلم، وذهب منها الخير، وارتفعت منها البركات، وانضمت العلماء في بيوتها ولازمت سربها.»[2] والواقع أن هذا التطاحن القبلي، والصراع على الزعامة، ووجود المستعمر البرتغالي، أوجد الحاجة إلى البحث عن زعامة جديدة تقوم بتوحيد البلاد، ونصب الجهاد، وتحقيق الأمن والاستقرار.

* تولية الإمام ناصر بن مرشد اليعربي :[3]

١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م

تعتبر تولية (ناصر بن مرشد) إماماً في عمان بداية مرحلة جديدة في التاريخ العماني، حيث استطاع هذا الإمام أن يفتح صفحة مشرقة في حياة العمانيين، ولم تعطنا المصادر العمانية خلفيّة عن حياته ونشأته قبل توليه منصب الإمامة، بل تجمع تلك المصادر على أن الأوضاع المترديّة في عمان دفعت بأهل الحل والعقد أن يتراسلوا فيما بينهم من كافة

---

١) ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٦٣.

٢) تحفة الأعيان، ج ١، ص ٣٤٩.

٣) هو ناصر بن مرشد بن سلطان بن مالك بن أبي العرب بن محمد بن يعرب بن مالك بن يعرب ابن مالك البصري الحميري الأزدي اليمني الإباضي، مؤسس دولة اليعاربة في عمان، كان إماماً عادلاً، عقدوا له الإمامة وهو ابن عشرين سنة، قام بجهد بارز في سبيل توحيد عمان وصنع هيبتها، مات عام ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م، ودفن في (نزوى)، ولم يعقب إلاّ ابنه واحدة، واليعاربة قبيلة يمنيّة قحطانية ترجع في أصولها إلى العرب العاربة، وهم من أوائل الذين هاجروا من اليمن واستقروا في عمان.

لمزيد من التفصيل انظر: ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ١٣؛ إبن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨، ص ٨٩.

الأقاليم، وكان يتزعمهم حينذاك الشيخ (خميس بن سعيد الشقصي الرستاقي) زوج أم (ناصر بن مرشد) وفيهم كل من الشيخ (مسعود بن رمضان النبهاني) من (نزوى) والشيخ (صالح بن سعيد الزاملي) من (نزوى) أيضاً، والشيخ (خميس بن رويشد المحروقي)، والشيخ (عبدالله بن محمد بن غسان)، وغيرهم من العلماء والأعيان الذين يزيدون عن الأربعين، واقترح عليهم الشيخ (خميس بن سعيد الشقصيى الرستاقي) تنصيب (ناصر بن مرشد اليعربي) إماماً، حيث أشار إلى أنه ربّاه في بيته، ويعرفه حق المعرفة، ووصفه بالإستقامة والشجاعة والنزاهة والتديّن، فرضي به الجميع، وعقدوا له الإمامة بـ(الرستاق) عام ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م.[١]

والواقع أن السهولة التي تم بها اختيار (ناصر بن مرشد) إماماً تطرح تساؤلاً مفاده : على أي شيء استند الذين اختاروه لمنصب الإمامة حيث لم نعثر له على أي خلفيّة تاريخية تخوّله لهذا المنصب، بل لم يرد اسمه إلاّ عند اختياره إماماً؟ ثم كيف تم ذلك في جو ملئ بالفتن والمشاحنات ؟ وللإجابة على هذا التساؤل نقول : إن قبيلة اليعاربة بطن من بطون بني نبهان حكام عمان السابقين، فهو إذن يمت بصلة إلى الأسرة الحاكمة السابقة، كما أن اليعاربة مستقلون في إدارة شئونهم الذاتية في ظل التقسيم الآنف الذكر والذ ي كان موجوداً عشية انتخابه، كما أن وجودهم با(الرستاق) يدل على أن اليعاربة كانت من القبائل البارزة في البلاد، لأنها كانت تعتبر مقراً للأئمة والحكومات التي يرتفع مستواها ونظرتها على المستوى القبلي نسبة إلى مكانتها الدينيّة، وأيضاً فإن قرابته من الشيخ (خميس بن سعيد الشقصي الرستاقي) الذي يتزعم دعاة النهج الإباضي للترفع عن النزاعات القبليّة وبعث الإمامة الاباضية قد كسبت له نفوذاً ومهدت السبيل له إلى منصب الإمامة وجذبت له الكثير

---

١) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ١٣؛ الأزكوري، كشف الغمة، ص ٩٦؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٧.

من الأنصار والمؤيدين.[1] ولايستبعد أن من هؤلاء الأنصار والمؤيدين زعماء بعض القبائل التي خسرت من جراء النزاع على السلطة ولم تتمكن من بسط نفوذها على بعض الأقاليم، أو بعض القبائل أيضاً التي خسرت مكانتها ونفوذها وتجارتها في ظل الإستعمار البرتغالي للمناطق الساحلية، وتبحث عن من يخلصها من ذلك، ومهما يكن من أمر فإن انتخاب (ناصر بن مرشد) إماماً يعد بداية عهد جديد، ومعلناً بذلك عن قيام دولة اليعاربة التي حكمت عمان قرابة مائة وعشرين عاما.

لقد تميزت فترة حكم الإمام (ناصر بن مرشد) بمرحلتين أساسيتين: الأولى: تحقيق الوحدة الوطنيّة وتأسيس حكم مركزي شامل على كافة التراب العماني. والثانية: مرحلة الجهاد ضد البرتغاليين.

* المرحلة الأولى : ناصر بن مرشد وجهوده في تحقيق الوحدة الوطنية :

تميزت هذه المرحلة بضراوتها وصعوبتها، وقد كان يتعيّن على الإمام في هذه المرحلة أن يواجه ثلاث قوى رئيسة في داخل عمان وهي (مانع بن سنان العميري) الذي كان يحكم (سمائل) و (سيف بن محمد الهنائي) في (بهلى)، وبنوجبر في الظاهرة[2] والظفرة، إضافة إلى القوى الأخرى المتناثرة في مختلف المدن والمناطق، والتي رفضت إجماع مشائخ البلاد

---

١) المؤلف مجهول، تاريخ أهل عمان، تحقيق سعيد عبدالفتّاح عاشور، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ١٢٤؛ عائشة السيّار، دولة اليعاربة، ص ٤٦.

٢) الظاهرة معناها الخارجة أو البارزة، وتقع شمال عمان إلى الغرب من الحجر الغربي، والتي تحاذي الآن الحدود الجنوبيّة لدولة الإمارات العربية المتحدة، ومن معالمها الوادي الكبير وعاصمتها (عبرى) وفيها يقع أحد أكبر الجوامع الاباضية، أما الظفرة فهي المنطقة التي تحاذي الظاهرة من جهة الشرق، انظر الملحق رقم (٦-د).

وأعيانها على إمامته، وأعلنت خروجها عن ذلك الإجماع.[1] وفضّل الإمام في البداية إخضاع تلك القوى المتناثرة ليوجد له قاعدة إقليمية عريضة يستند إليها، وأجّل صدامه مع القوى الرئيسة ريثما يتم النجاح في تكوين هذه القاعدة.

لذا فقد بدأ الإمام أولى خطوت التوحيد في البلدة التي ظهر فيها وهي (الرستاق) والتي كان يسيطر على معظم أحيائها ابن عمه (مالك بن أبي العرب اليعربي) ومعه مجموعة من مؤيديه، الذين لم يوافقوا على انتخاب (ناصر بن مرشد) إماماً، سار الإمام على رأس قوة كبيرة تكونت من مؤيديه من مختلف الأقاليم، وحاصر قلعة ابن عمه أياماً حتى استسلمت له فدخلها،[2] ثم توجه بعد ذلك إلى عمه (سلطان اليعربي) في بلدة (نخل)، حيث ضرب عليه الحصار حتى استسلم فدخل الإمام البلدة وسيطر على القلعة، ولكن عمه استطاع أن يعيد تنظيم قواته بعد أن التف حوله بعض المؤيدين، وضرب الحصار على الإمام في القلعة نفسها عدة أيام حتى جاءته نجدة من (الرستاق) ومعهم بعض المؤيدين من قبيلة اليحمد، ففكوا الحصار عنه، وفرّ المعارضون، وعيّن على البلدة والياً من قبله.[3] وبذلك يكون الإمام قد عزّز مكانته في كل من (الرستاق) و (نخل) ودعم مركزه فيهما، واتخذهما منطقة لتجمّع قواته.

بعد النجاحات التي حققها الإمام في (الرستاق ونخل) بدأت بعض القرى تنضم إليه طواعية، كما بدأت بعض الجماعات تفد إليه وتدعوه إلى حكم بلدانها، ومن هؤلاء أهالي بلدة (نزوى) والتي كان يحكمها (سلطان بن

---

١) الأزكوري، كشف الغمة، ص ٩٣ - ٩٤.

٢) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ١٣؛ المؤلف مجهول، تاريخ أهل عمان، ص ١٢٤.

٣) ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان، ص ٩٣ - ٩٤، السيّار، دولة اليعاربة، ص ٤٨.

محسن النبهاني)، فتحرك الإمام بقواته إليها وفي طريقة مرّ على (أزكي)، حيث دخلت في طاعته، وعاونه أهلها بالمال والسلاح، فواصل سيره إلى (نزوى) التي استقبله أهلها بالترحاب فدخلها بدون قتال،[1] إلاّ أنه وجد في (نزوى) معارضة من جماعة (الأبوسعيديين)،[2] ولكنه تصدى لهم وأمر بإجلائهم وتفريقهم في البلاد، فلجاء بعضهم إلى (مانع بن سنان) في (سمائل) وبعضهم إلى (سيف بن محمد الهنائي) في (بهلى)[3]

بدأ الإمام بعد ذلك بترسيخ سلطة الإمامة في المنطقة الشرقية، ولم يبق منها سوى (إبراء) أكبر مدن تلك المنطقة، والتي دخلت في طاعته بعد ذلك وبعد أن دعاه أهلها، ثم اتجه إلى (جعلان)، و(حزم) فدخلهما دون معارضة، ثم فتح (أرضون ومنح)، وبذلك دانت له كافة المناطق الشرقية ماعدا الساحلية منها والتي كانت تحت السيطرة البرتغالية.[4] وبذلك انصبت جهود الإمام (ناصر) نحو الداخل سالكاً بذلك وادي (سمائل) إدراكاً منه لأهميته الإستراتيجيّة وبخاصة للمنطقتين الوسطى والشرقية من عمان.

---

١) الأزكوري، كشف الغمّة، ص ٩٩.

٢) هذه الأسرة - يحتمل كما ذكر (بادجر Badger) - أن تكون هي التي عارضت سلطة اليعاربة في بداية حكمهم، ثم كانت هي نفسها التي خلفتهم على سيادة البلاد بعد سقوط دولتهم، ولكن المصادر العمانية التي بين أيدينا لم تشر إلى ذلك البتة.
انظر : Badger, G., P ر History of Imams and Seyyids of Oman and Original Sources by: Salil Bin Razik From A.D. 661 - 1856, (London, 1871).

٣) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ١٦.

٤) ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٦٦ -

والجدير بالذكر أن الإمام (ناصر) عمد إلى بناء الحصون والقلاع في كل البلدان التي تدخل في طاعته، ويعكس ذلك عزمه على تأكيد سلطة الإمامة وفرضها على جميع أجزاء عمان، وقد تميزت هذه المرحلة التي تعد البدايات الأولى من جهود التوحيد بالطابع السلمي، حيث نرى الإمام قد دخل أكثر تلك البلدان دون قتال يذكر، ولكنها لاتلبث أن تخرج عن طاعته، ويبدو كما ذكر (السيابي) أن الإمام (ناصر) كان يغلب عليه الحلم، ولذلك كان يعاهد الناس ثم يخونون حتى بدأوا يرون بريق السيف.[1] وفي ذلك إشارة إلى أن المرحلة القادمة ستكون أشد عنفاً وقسوة.

قتال مانع بن سنان العميري :

كان (مانع بن سنان العميري) إحدى القوى الثلاث التي كان على الإمام مواجهتها في سبيل فرض نفوذ الإمامة، وكان يحكم بلدة (سمائل)، وبعد أن رأى النجاح الذي حققه الإمام في بداية مرحلة التوحيد أعلن تأييده له، وبرهن على ذلك عندما انضم للإمام عند قدومه إلى وادي بني رواحه في طريقه إلى (نزوى) وأصبح بذلك من أقرب الناس إليه،[2] وتظاهر للإمام بالصداقة والطاعة، وبذلك أقره الإمام على حكم بلده (سمائل)، ودعمه بالمال والرجال، ولعل (مانعاً) بذلك يريد اختبار نوايا الإمام ليجعله أسير رغباته، أو أنه أراد بتأييده للإمامه أن يقوى بأعين أعدائه،[3] وتأتي أهمية بلدة (سمائل) من كونها تسيطر على وادي سمائل أو مايسمى أيضاً وادي بني رواحه، وهو الممر الإستراتيجي إلى داخل عمان، وقد ظل (مانع) على ولائه للإمام حتى دخل الإمام (نزوى) وأمر بإجلاء معارضيه من (الأبوسعيديين) الذين التجأ قسم منهم إلى (مانع) كما مرّ بنا، وبهؤلاء تقوى

---

١) عمان عبر التاريخ، ج٣، ص ١٨٨.

٢) مـؤلف مجهول، تاريخ أهل عمان، ص ١٢٥.

٣) السيابي، عمان عبر التاريخ، ج ٣، ص ١٩٣.

جانبه فتخلى عن العهود والمواثيق التي عقدها مع الإمام،[1] فسار الإمام إلى حربه، فلما وصل إليه استقبله (مانع) استقبالاً حسناً، وتصنّع للإمام بالأعذار والأكاذيب، وأظهر إذعانه للحق وتبعيته له، وطلب من الإمام أن يبقيه على حكم (سمائل)، وتصالحا على ذلك، فتركه الإمام وعاد إلى (نزوى).[2]

وبعد مدة قام (مانع) بمكاتبة (سيف بن محمد الهنائي) حاكم (بهلى) سابقاً، وذلك بعد أن أخرجه الإمام منها، وكان متحصناً في (بلاد سيت) كما سيأتي ذكره، واتفقا معاً على حرب الإمام، فسارا بجيشهما وفاجآءا الإمام في (نزوى) واستطاعا السيطرة على جميع القرى التابعة لها، وحوصر الإمام في إحدى الحصون، وكادا أن يسيطرا عليه،[3] ولكن الإمام استطاع أن يبعث برسول إلى بعض القرى يستنجد بها، فجاءه أهل (أزكى) وجموع غفيرة من (بهلى) وعدد من (بني ريام)، فقاتلوا عنه وفكّوا الحصار، بعد ذلك قاد الإمام عملية تطهير في (نزوى) من جيوب أعدائه، ثم توجه إلى (عامر بن سنان) في (سمائل)، فلما علم (مانع) بذلك هرب إلى (فنجا)، فدخل الإمام المدينة وهدم قلعتها.[4]

أخذ (مانع) يتنقل فيما بين (مسقط، وصحار، جلفار، ولوى) ينشد العون من البرتغاليين على الإمام، وبعد فترة من ذلك أدرك الإمام خطورة ذلك، فعزم على التخلص منه، فجهز سريّة أمر عليها (مداد بن هلوان)، وأوكل إليه مهمة القضاء على (مانع)، واستطاع (مداد) هذا أن يتفق مع والي (لوى) (حافظ بن سيف)، والذي عين والياً على البلدة بعد سقوطها - كما

---

١) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ١٦.

٢) السيابي، عمان عبر التاريخ، ج ٣، ص ١٩٣.

٣) السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ١١.

٤) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٣٣.

سيأتي ذكره - واستطاع (حافظ) أن يكسب (مانع) بالحيلة، وعن طريق ذلك تمكن (مداد) من قتل (مانع) وتخليص الإمامة من خطره.[1] وبدخول الإمام بلدة (سمائل) وتعيين والٍ عليها من قبله، امتدت سلطة الإمامة على جزء هام من داخلية عمان، وبذهاب (مانع بن سنان) للبرتغاليين لطلب المساعدة منهم، يتضح عمق وضراوة الصراع على الزعامة في داخل عمان، حيث وصل الأمر أن يلجأ المسلم لطلب المساعدة من العدو المستعمر ضد أخيه المسلم، كما يتضح أيضاً حجم العقبات التي واجهت الإمام (ناصر بن مرشد) في سبيل بسط نفوذ الإمامة على جميع أنحاء عمان.

قتال الهناني وبني جبر :

عمد الإمام (ناصر) إلى عدم مواجهة (بني جبر أو بني هلال) كما يسميهم العمانيون في بداية مرحلة التوحيد، نظراً لقوتهم وصلابة عودهم، أما وقد قطع الإمام مرحلة في هذا الاتجاه، فقد أصبح لزاماً عليه ملاقاتهم وبخاصة بعدما أصبحوا يشكلون ضغطاً على الإمام، ويمدون بعض المعارضين بالمساعدة، لذا فقد اتجه الإمام إلى حصن (الغبي) بين (العراقي وعبرى) حيث تجمعت فيه بعض قوات بني جبر مع بعض قبائل الظاهرة، فقاد الإمام الجيش بنفسه حتى نزل (بالصخبري)، حيث وفدت عليه بعض القبائل المؤيدة ودعموه بالمال والرجال، فزحف إلى حصن (الغبي)، وهناك دارت معركة بين الطرفين، وقتل فيها عدد كبير من الجانبين، ولم يستطع الإمام دخول الحصن، فرجع إلى (عبرى)، ودخل قلعتها وثبت الأمن فيها،[2] ثم رجع إلى حصن (الغبي) وحاصره لمدة شهرين، فاستسلمت له وخرج من فيها من بني جبر، وعيّن عليها الشيخ (خميس بن رويشد المحروقي) والياً، وفي رواية أخرى أن الحصن لم يستسلم ولكنّ بنو جبر

---

١) الأزكوري، كشف الغمة، ص ١٠٣؛ مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٩٩.

٢) الأزكوري، كشف الغمة، ص ٩٨ - ٩٩.

طلبوا الصلح فصالحهم الإمام على الخروج منه فخرجوا،[1] ثم اتجه الإمام إلى (بات) واستولى عليها، وعيّن (محمد بن أحمد الرستاقي) فيها والياً، وجعل معه (محمد بن سيف الحوقاني) وعهد إليهما بفتح مابقي من قرى الظاهرة.[2]

اجتمع (بنو جبر) مرة ثانية في بلدة (ضنك) وظلوا يغزون قرى الظاهرة، ولكن ولاة الإمام علي (عبرى والغبي وبات) فرّقوا جموعهم، فتحصنوا في (مقنيات) ، فحاصره جيش الإمام، فاتجه قسم آخر منهم إلى (بات)، حيث تقع في منتصف خطوط التموين بين البلدان المؤيدة للإمام وبين مواقع القتال معهم، والتقوا بجيش الإمام هناك، ودارت بينهما معركة عنيفة من صلاة الفجر وحتى منتصف النهار، انهزم فيها جيش الإمام ودخل (بنو جبر) بلدة (بات) فقويت شوكتهم.[3] وبذلك اتضح للإمام أن أمر القتال مع بني جبر ليس سهلاً، لذا أمر الإمام بوقف القتال معهم، وتحرك من (نزوى) على رأس قوة متوجهاً إلى (الهنائي) في (بهلى) حليف بني جبر، والذي ساعدهم في قتالهم الأخير ضد الإمام الذي عزم على التخلص منه، فهب بنوجبر لمساعدته، واستعدوا لحرب الإمام، فحاصره الإمام في (بهلى)، ودار بين الطرفين قتال شديد[4] قتل فيه أحد قواد بني جبر المشهورين وهو (قاسم

---

١) تجمع المصادر العمانية على أن الإمام ناصر بن مرشد قد فتح حصن (الغبي) عنوة وليس صلحاً ، ويوافقهم في ذلك (إبن رزيق) في الفتح المبين ويشذ عنهم في الشعاع الشائع باللمعان حيث يقول: «لما يأس آل هلال من الانتصار طلبوا الصلح من الإمام على خروجهم من الحصن فيما معهم من السلاح فأنعم الإمام لهم بذلك.» انظر: ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٢٥؛ الأزكوري، كشف الغمة، ص ٩٩؛ ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٦٧؛ ابن رزيق، الشاع الشائع باللمعان، ص ٢٠٩.

٢) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٢٥.

٣) الأزكوري، كشف الغمة، ص ١٠١؛ السيار، دولة اليعاربة، ص ٥٢.

٤) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٢٨.

بن مذكور الدهمشي) فانهزم بنو جبر، وتحصن (الهنائي) في القلعة، فحاصره الإمام حوالي شهرين، فطلب الأمن فأمّنه هو وماله وسلاحه، فخرج من (بهلى) ودخل الإمام القلعة، وعيّن على البلدة والياً من قبله ورجع إلى (نزوى)[1].

سبق أن ذكرنا أن (مانع بن سنان العميري) الذي كان يحكم (سمائل) قد كاتب (الهنائي) بعد خروجه من (بهلى) ولجوئه إلى (بلاد سيت)، حيث اتفقا على حرب الإمام، وحاصراه في (نزوى)، وقلنا أنه بعد انتصار الإمام عليهما سار إلى (سمائل) ودخلها بعد أن فرّ (مانع) منها، وبعد أن فرغ الإمام من أمر (سمائل) وجه جيشه إلى (بلاد سيت) للقضاء على (الهنائي)، وولى على هذا الجيش (عبدالله بن محمد بن غسان) الذي فرض الحصار على (الهنائي) في حصنه الذي بناه في هذه البلدة، وبعد مدة من الحصار أدرك (الهنائي) أنه لايستطيع الصمود ومواجهة جيش الإمام ففضل الهرب، واستولى قائد الجيش على الحصن، بعد ذلك ضاق الهنائي ذرعاً، فجاء إلى الإمام طالباً العفو مظهراً التوبة، فعفا عنه الإمام، فاستكان وأذعن وانتهى أمره[2] وربما كان (الهنائي) ينتظر مساعدة من بني جبر أثناء الحصار، ولكن الإمام عمد إلى مشاغلة بني جبر في تلك الأثناء، حيث ندب قائده (محمد بن سيف الحوقاني) وإلى (بات) إلى مشاغلتهم وقتالهم، وذلك حين ماتجمعوا في بلدة (الصخبري) إحدى قرى الظاهرة، تساندهم مجموعة من القبائل البدويّة، فدارت بين الطرفين عدة معارك منها وقائع (العجيفة، الغاية، المطهرة، الزيادة) قتل فيها عدد كبير من الجانبين، ولكن (الحوقاني) شتت شملهم، وفرق جمعهم بعد أن تلقى دعماً من وإلى (مقنيات)،

---

1) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٢٨؛ السيابي، عمان عبر التاريخ، ج ٣، ص ١٩٢.

2) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٣٤.

فأخذو يتجمعون من جديد في (ينقل).[1]

أخذت حصون بني جبر تتهاوى الواحد بعد الآخر وبخاصة في شمال عمان، حيث ركز الإمام جهوده على تلك المنطقة بعد أن استتب الأمن في المناطق الأخرى، فجهز جيشاً كبيراً قسمه إلى عدة أقسام، جعل على كل قسم منه قائداً أي بمثابة الفرقة بالمصطلح العسكري الحديث، وقادة الفرق هم (عبدالله محمد بن غسان الخروصي) و (خميس بن رويشد الضنكي) و (حافظ بن جمعة الهنائي) و (محمد بن علي الرستاقي) و (محمد بن سيف الحوقاني)[2] فإتجه إلى (الجو) إحدى مناطق (البريمي)[3] حيث تم فتحها وتعيين (محمد بن سيف الحوقاني) والياً عليها، ثم اتجه الجيش إلى منطقة (الشميلتة) الساحلية على طريق (وادي الجزي) شمال عمان، قاصداً بلدة (لوى) الساحلية والقريبة من (صحار) وتسمى (لوى صحار) حيث احتشد

---

١) الأزكوري، كشف الغمة، ص ١٠٠؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ١١.

٢) المصدر نفسه، ص ١٢.

٣) البريمي إحدى الواحات الخصبة التي تكثر فيها مزارع النخيل والحبوب وتتوافر فيها المياه، وتشكل منطقة البريمي في الوقت الحاضر مثلثا تقع فيه الحدود الشمالية لعمان، والجنوبية للإمارات العربية المتحدة، والشرقية للمملكة العربية السعودية، وتتكون واحة البريمي من عدد من القرى تنتشر في دائرة نصف قطرها ٢٥ كم ومساحتها ١٩٨٥كم٢ وذلك عند خط عرض ١٥°، ٤٥° ويزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة، ويقال أن اسمها مشتق من اسم احدى أنواع النخيل الذي اشتهرت الواحة بزراعته وقد نقل إليها من البصرة، وقد سبب موقع هذه الواحة مشكلة بين تلك الدول الثلاث بدأت عام ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م إبان الإستعمار البريطاني لكل من عمان وساحل الإمارات المتصالحة، ولكن تلك الدول نجحت في الاتفاق على حل النزاع على هذه الواحة وترسيم الحدود وبخاصة بعد اتحاد إمارات الساحل العماني تحت اسم الإمارات العربية المتحدة. لمزيد من التفصيل انظر: فيلبس وندال، تاريخ عمان، ص ١٦٥؛ عبدالرحمن صادق الشريف، جغرافية المملكة العربية السعودية، ج ١، ص ٢٤ - ٢٥.

فيها عدد كبير من بني جبر الذين لم يكوىوا على وفاق فيما بينهم مما سهل مهمة جيش الإمام.[1]

وكان بنوجبر قد اختلفوا فيما بينهم اختلافاً تمخض عنه قتل شيخهم (محمد بن محمد بن جيفر)، وتولى البلدة من بعده أخاه (سيف بن محمد بن جيفر) الذي فرّ عنه اخوته وانصار قومه ولجأوا إلى البرتغاليين في (صحار) خوفاً من جيش الإمام الذي تقدم إلى البلدة ونزل القائد (ابن غسان) بالجامع وضرب الحصار على القلعة.[2] وأخذ الفارين إلى (صحار) يمدون اخوانهم المحصورين بالطعام والسلاح بمساندة من البرتغاليين مما مكنهم الصمود ستة أشهر، الأمر الذي صعّب مهمة جيش الإمام الذي رأى قائده أنه يتعين عليه العمل على قطع تلك الامدادات، فأخذ جزءاً من جيشه وهجم به على موضع (منقل) القريب من حصن (صحار) والذي يستخدم معبراً لإمدادات (لوى) ودار قتال بين الطرفين الفارين إلى (صحار) ورجال الإمام، ورغم أن هذا القتال لم ينته بنتيجة حاسمه، إلاّ أن الإمدادات إلى (لوى) انخفضت بشكل كبير.[3] ومن الجدير بالذكر أن (ناصر بن قطن الجبري) في أثناء حصار (لوى) كان إلى جانب قوات الإمام ومشتركاً في هذا الحصار بعد إخراجه من بلدة (ينقل) وتصالحه مع الإمام، وهذا يعكس أن بني جبر في عمان لم تقف جبهة واحدة ضد نمو الإمامة الإباضية وطموحاتها، حيث إن (ناصر بن قطن) كان يتزعم إحدى فروع بني جبر.

---

١) السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ١٢؛ السيابي، عمان عبر التاريخ، ج ٣، ص ٢٠١.

٢) الأزكوري، كشف الغمة، ص ١٠١.

٣) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٣٧ - ٣٨؛ ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢١٤ - ٢١٥؛ سليمان بن محمد الغنّام، الوجود البرتغالي في عمان في المصادر العمانية، مجلة العرب، العدد، ١١ - ١٢، الرياض ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ص ٨٢٩ - ٨٣٠.

رأى (سيف بن محمد بن جيفر) صعوبة الصمود أمام جيش الإمام الذي يزداد تصميماً في حصاره للبلدة وأمام تناقص الإمدادات من الفارين إلى (صحار) أو انقطاعها، لذا رأى أن لامحالة من الاستسلام، فطلب من قائد الإمام الأمان فأمنه ومن معه وخرج من البلدة فدخلها جنود الإمام.[1] وبسقوط (لوى) يكون الإمام قد أنجز المرحلة الأساسية من جهود التوحيد لاسيما أن هذه البدة تمثل نقطة هامة حيث إنها ساحلية ومجاورة لمدينة (صحار) الميناء الهام والمحتل من البرتغاليين.

مما تقدم نرى أن الأمور لم تستقر للإمامة الإباضية بسهولة، فقد خاضت جيوشها صراعاً طويلاً من أجل توحيد البلاد وتحقيق الأمن والاستقرار في مناطق اعتاد سكانها على عدم الخضوع لسلطة مركزية لفترة طويلة، وتعد هذه الحملات أنموذجاً على الصعوبات والعراقيل التي واجهت الإمام (ناصر بن مرشد) لتوحيد البلاد ولتأخذ المدى الجغرافي المفترض لها، فخطوط مواصلاته المتباعدة والإخلاص المشكوك فيه من بعض القبائل المنتشرة على أطراف دائرة نفوذه، كل ذلك ربما جعل سيطرته على المقاطعات البعيدة تبدو متقطعة إلى حد ما.

ومادمنا قد علمنا القوى التي حاربها الإمام (ناصر بن مرشد) من أجل تحقيق الوحدة الوطنية، فإن السؤال المطروح هو: ماهي القوى الداخلية التي ساندت الإمام في تحقيق تلك الوحدة وترسيخها ؟ وماموقف البرتغاليين من سير الأحداث وتطورها في داخلية عمان، لاسيما أن الساحل العماني بالنسبة لهم قد أصبح مهماً أكثر من السابق وبخاصة

---

١) المؤلف مجهول، تاريخ أهل عمان، ص ١٣٣؛ الحميدان، نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية، ص ٢١٨.

بعدما فقدوا مراكزهم في الساحل الشرقي للخليج وفي جزيرة (هرمز) كما سيأتي ذكره؟

وللإجابة على ذلك نقول : إن الإمام (ناصر بن مرشد) لم يكن ليحقق تلك الوحدة بمفردة، وإنما استند إلى دعامتين أساسيتين هما : الأولى: المجلس المكون من علماء الدين وبعض شيوخ القبائل والذي قام بانتخاب الإمام نفسه، فقد تعهد هذا المجلس بالوقوف بجانبه وتأييده، مادام يحكم بالعدل ويهدف إلى تحقيق الأمن، بل إن عدداً من أعضاء هذا المجلس تولى قيادة جيوش الإمامة التي تحارب من أجل التوحيد، ولاشك أن هذا التأييد قد كفل له العديد من الأنصار والمؤيدين.

أما الثانية فهي بعض القبائل العمانية المختلفة والتي رمت بثقلها المادي والبشري لترسيخ سلطة الإمامة. ومثال على ذلك قبيلة (اليحمد) والتي ظلت سنداً للإمام منذ توليه منصب الإمامة.[1] والجدير بالذكر أن هذه القبيلة من كبرى القبائل العمانية وتتمتع بنفوذ واسع، وقد حكمت عمان في فترات متقطعة خلال الفترة من ١٧٥ - ٩٦٧هـ / ٧٩١ - ١٥٦٠م، وقد كان لهم نزاع مستمر مع ملوك بني نبهان ومن حكامهم (محمد بن عفان اليحمدي ١٧٥ - ١٧٧هـ / ٧٩١ - ٧٩٣م) وكذلك (الوارث بن كعب اليحمدي الخروصي، وعزان بن تميم) وغيرهم من الحكام حتى (محمد بن إسماعيل وابنه بركات) واللذين سبق ذكرهما.[2] وقد كان لهذه القبيلة ثقلها وسطوتها وبخاصة في (الرستاق ونزوى)، ومن القبائل التي ساندته أيضاً قبيلة (بنوريام) والتي لم تتخل عن تأييدها للإمامة طوال فترة جهود التوحيد ولم ينشق أحد من رجالها على الإمامة كما حدث في بعض القبائل الأخرى، ومثلها قبيلة (بني

---

١) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ١٣، السالمي، تحفة الأعيان، ج٢، ص ٠٧.

٢) ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٢٤ - ٢٣٣؛ سليمان الخروصي، دولة اليحمد في عمان، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ١، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ٣٠٧.

رواحة) التي تخلت عن زعيمها وانضمت إلى الإمام.[1] ولاشك أن مساندة القبائل التي في المنطقة الوسطى والشرقية لعمان قد وفّرت قاعدة صلبة للوقوف عليها.

أما موقف البرتغاليين من تطور الأحداث في داخلية عمان فقد نراه واضحاً في لجوء عدد من خصوم الإمام (ناصر بن مرشد) إليهم، مثل ماحدث مع (مانع بن سنان العميري) صاحب (سمائل) عندما لجأ إلى البرتغالين، وكذلك لجوء بعض بني جبر الذين في (لوى) عندما داهمهم جيش الإمام إلى البرتغاليين في (صحار) الذين دعموهم بالسلاح والمؤن، كما تعاون البرتغاليون مع الفرع الثاني من بني جبر بقيادة (ناصر بن قطن) ضد الإمامة.[2] وقد راقب البرتغاليون الصراعات بين الإمامة والمعارضين بإرتياح بالغ، وبذلوا مابوسعهم لتغذيتها وتشجيعها في وقت لم تدرك فيه بعض القبائل العمانية قيمة الوحدة وأهميتها في حركة تحرير البلاد. ويلاحظ ذلك من خلال تفاصيل المعارك عندما تغلبت النزعة الذاتية على بعض زعماء القبائل، فرفضو الولاء للإمامة ولجأوا في كثيرٍ من الأحيان إلى البرتغاليين لطلب المساعدة منهم.

بقي أن نقول إن وحدة عمان لم تتحقق عن طريق تجمع زعماء القبائل وقبولهم بالطاعة لشخص واحد فحسب، بل إن حركة الإحياء الديني التي قادها الإمام (ناصر بن مرشد) كان لها أثر كبير في تحقيق هذه الوحدة وتلاحمها، حيث إنه هو العامل المؤثر في قيام الوحدات في الجزيرة

---

١) المؤلف مجهول، تاريخ أهل عمان، ص ١٢٧؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٩ ومابعدها.

٢) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٥٣، الحميدان، نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية، ص ٢١٩.

العربية، فالحركة السلفية مثلاً فيما بعد هي التي وحدت نجد، والإمامة الإباضية هي التي حققت وحدة عمان، وفي تقديري أن العامل الديني كان رائداً في حركة الوحدة العمانية، وقد اقترن بعامل إضافي وهو الدعوة إلى الجهاد لتحرير المسلمين من الاحتلال البرتغالي.

ولنبرهن على أهمية الدعوة إلى الجهاد نقول : إن الاستجابة السريعة والدعم الذي لقيه الإمام (ناصر بن مرشد) لم يقتصر على القبائل التي على الطريقة الإباضية، بل لقي دعماً ومؤازرةً من معظم القبائل التي تتبع مذهب أهل السنة ومن ضمنها قبيلة (بني ريام) التي سبق الحديث عنها، وكذلك تجمع قبائل (بني بو علي) وغيرها من القبائل التي تتبع أهل السنة بالرغم من أن الصبغة الرئيسة للإمامة هي صبغة إباضية، ومتى ماعرفنا الإختلاف بين تجمعي (الغافريّة) السنة و (الهناوية)[1] الإباضيين فإن تلاحم هذين

---

١) الغافريّة يقصد بهم عرب الشمال أو النزارية أو العدنانية من بني غافر، كبني جابر في الهجر الغربية، وبني ريام في الجبل الأخضر، وبني بوعلي في جعلان، وآل نعيم في الظاهرة، ومعظم الغافريين من أهل السنة. أما الهناوية فهم من بني هنأة من عرب الجنوب أو اليمنية أو القحطانية، وهم أول من وفد على عمان في عصورها الأولى مثل: آل سعد سكان الباطنة، والهاجريين، والحبوس سكان الشرقية، والبوسعيد وبني رواق وآل يعرب والعوامر وبني علي سكان الظاهرة وبني بوحسن سكان جعلان ومعظم الهناوية على المذهب الإباضي. واقد اختلف هذان التجمعان في أواخر عهد دولة اليعاربة حول من يحق له تولي الإمامة، وكان هذا الإختلاف في بداية العقد الثالث من القرن الثاني عشر الهجري العقد الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، وترجع تسميته الغافرية إلى (ناصر بن محمد الغافري) الذي تزعم تجمع قبائل بني غافر، والهناوية إلى بني هنأة بزعامة (خلف بن مبارك الهناوي) أو الهنائي، وساهم اختلاف هذين التجمعين ومعارضة بعضهما لبعضٍ ساهم في تعجيل سقوط دولة اليعاربة. لمزيد من التفصيل انظر: الأزكوري، كشف الغمة، ص ١٢١ - ١٢٤؛ ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٣٠٦، جمال قاسم، دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقية، ص ٣٨ ومابعدها.

التجمعين وانصياعهما لسلطة الإمامة دليل على رغبتهما في تحقيق الأمن والوحدة والاستقرار.

وعلى الرغم من قوة العامل الديني إلاّ أن العامل الإقتصادي كذلك لعب دوره في حركة توحيد عمان، وهو يتمثل في الأضرار البالغة التي لحقت بالتجارة والملاحة العمانية من جراء سيطرة البرتغاليين على الموانيء الهامة، وتدخلهم في حرية الملاحة العربية والإسلامية وتتضح أهمية هذا العامل ودوره من صياغة شروط المعاهدات التي تمت بين العمانيين والبرتغاليين والتي سيأتي ذكرها، وذلك في المراحل الأولى من الجهاد العماني ضد البرتغاليين، فحين لم تتم السيطرة على ميناء (مسقط) الواقع تحت الإحتلال البرتغالي، كان يكتفى مؤقتاً بالنص على عدم الإضرار بالتجارة والملاحة العربية والإسلامية شرطاً أساسياً من شروط الهدنة[1]

وبإلقاء نظرة على الإستراتيجية التي انتهجها الإمام (ناصر بن مرشد) من خلال تنفيذه للعمليات العسكرية، يتبيّن لنا أنه انتهج سياسة دقيقة وواعية بحيث إنه جعل من (الرستاق) محور الارتكاز ومنطلق التحركات إلى الجهات المختلفة، ويلاحظ من مراحل خططه أنه أولى اهتماماً خاصاً بوحدة قواته والمحافظة عليها، ولذا فقد بدأ أول مابدأ بالمناطق القريبة من قاعدة تمركزه وهي (الرستاق).[2] وبهذا وسّع سلطته تدريجياً حيث تمكن من بسط نفوذه على مناطق البلاد الواحدة تلو الأخرى،

---

1) (10R). I/3/140,Documentos, 59, f01, 88;
معاهدة الهدنة بين الإمام (ناصر بن مرشد) والبرتغاليين عام ١٠٥٨هـ / ٣٠ اكتوبر ١٦٤٨.

٢) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ١٣؛
فالح حنظل، المفصل في تاريخ الامارات العربية، ج ١، نشر لجنة التراث والتاريخ بدولة الإمارات المتحدة، الطبعة الأولى، أبو ظبي ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ٦٢.

ولإدراكه لعوامل الضعف التي تعاني منها قواته وبخاصة في المراحل الأولى من جهود التوحيد فقد لزم جانب الحذر مع السرعة في التنفيذ بهدف حرمان خصومه من إستغلال تلك العوامل.

لقد أولى الإمام (ناصر بن مرشد) إهتماماً خاصاً باختيار قواده العسكريين وكذلك ولاة المدن والأقاليم الذين يتميزون بالكفاية والولاء أمثال: (خميس بن سعيد الشقصي، ومسعود بن رمضان، وعبدالله بن محمد بن غسان، وابن عمه سلطان بن سيف) وغيرهم من القادة والولاة، وكما كان الإمام يقود الجيوش بنفسه عندما تدعو الحاجة إلى ذلك مما كان له أبلغ الأثر في تحقيق الكثير من المكاسب.

كما انتهج الإمام (ناصر) مع الرعية منذ البداية سياسة اتسمت بالعدل والرحمة وتحقيق مطالبهم والإشراف المباشر على شؤونهم ودرء المظالم والأخطار عنهم،[1] وبهذه السياسة استطاع أن يضع أساساً متيناً لدولة قوية قادرة على الإضطلاع بمسؤولية الجهاد ضد البرتغاليين، وبهذه السياسة أيضاً استطاع أن يمد سلطة الإمامة على أهم الأقاليم والمدن والقلاع في عمان الداخلية والظاهرة.

والجدير بالذكر أن المصادر العمانية لم تورد تواريخ المعارك والوقائع التي خاضها الإمام (ناصر) مع القوى الداخلية في سبيل توحيد البلاد، ولكنها تشير إلى أنه بدأ بذلك فور توليه منصب الإمامة، كما أنها تشير أيضاً إلى أنه بدأ جهاده مع البرتغاليين فور انتهائه من جهود التوحيد، وعليه يمكن أن نقول أن الفترة الواقعة بين تاريخ انتخابه إماماً

---

١) لمزيد من التفصيل عن سياسة الإمام ناصر بن مرشد مع شعبه انظر: الأزكوري، كشف الغمة، ص ١٠٧ ومابعدها؛ ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٨٠ ومابعدها.

لعمان وبين أول مواجهة له مع البرتغاليين يمكن اعتبارها الفترة التي قضاها في توحيد البلاد، أي فيما بين عام ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م وهو تاريخ انتخابه إماماً وعام ١٠٤٢هـ / ١٦٣٢ وهو تاريخ بداية الجهاد ضد البرتغاليين.

*** المرحلة الثانية - الجهاد العماني ضد البرتغاليين في الساحل :**

بعد أن استطاع الإمام (ناصر بن مرشد) تحقيق الوحدة في عمان، بدأ يوجّه أنظاره إلى البرتغاليين المسيطرين على المدن الساحلية العمانية، وقبل الحديث عن ذلك - ولتكون الصورة أكثر وضوحاً - فإنه يجب إلقاء الضوء على أوضاع الأمبراطورية البرتغالية في الشرق أوائل القرن الحادي عشر الهجري - السابع عشر الميلادي، أي عشية قيام دولة اليعاربة في عمان وقبيل بدأ الجهاد العماني ضد البرتغاليين.

*** أوضاع البرتغاليين في الشرق قبيل بدء الجهاد العماني ضدهم :**

لقد أحرز البرتغاليون إنجازات عسكرية وسياسية كبيرة خلال العقدين الأولين من القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي، واستطاعوا السيطرة على مواقع استراتيجية مهمة على شواطىء المحيط الهندي والخليج العربي وجنوب شرق آسيا، وانتزعوا حقوقاً للإتجار في مناطق شاسعة في (تايلند) و (بورما) وكانت لهم قواعد تجارية مع (الصين) في (مكاو) وحتى في ميناء (تانكاشيما) الياباني، واحتفظوا طيلة القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي بهذه الامبراطورية المترامية الأطراف.[١] وقد يستغرب المرء من دولة بحجم البرتغال ذات المساحة الصغيرة والقدرات البشرية الضئيلة كيف استطاعت أن تقيم هذه الامبراطورية.

---

١) عبدالأمير أمين، الإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية، ص ١٠٣.

كان نائب الملك البرتغالي يتخذ من (جوا) على ساحل الهند الغربي مقراً رئيساً لهذه الامبراطورية التي قسمت إدارياً إلى سبعة أقسام هي : القسم الذي يمتد من رأس الرجاء الصالح إلى البحر الأحمر والذي يضم جميع ساحل شرق إفريقية، والقسم الذي يضم ساحل جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي، والقسم الذي يمتد من الخليج العربي إلى مصب نهر السند، والقسم الذي يشمل الساحل الغربي لشبه القارة الهندية، والقسم الذي يشمل الساحل الشرقي للهند وحتى البنغال، وكذلك القسم الذي يشمل الساحل الغربي لجنوب شرق آسيا والنصف الغربي لأرخبيل الملايو، وأخيراً القسم الذي يشمل جميع المناطق التي تقع إلى الشرق من القسم السابق ويضم جزر التوابل في (ملقاش Molucas) وجزر (فلورنس Florns) وتقع (مكاو) ضمن هذا القسم.[1]

ويظهر من هذا الوصف للأمبراطورية البرتغالية أن الأمر مذهل ومثير إذا أخذنا في الإعتبار ما أسلفناه من صغر مساحتها وقلة عدد سكانها، ولكن النظرة المتفحصة قد تزيل الكثير من الذهول، فالأمبراطورية البرتغالية في الواقع لاتتعدى كونها مواقع إستراتيجية وموانىء ونقطاً ساحلية وجزراً صغيرةً، شيدت فيها قلاع كبيرة وفرت لها حمايةً كافيةً، ولكنها متباعدةً ومعزولة بعضها عن بعض، وهي أقرب إلى وحدات سياسية إقطاعية منها إلى امبراطورية متناسقة التركيبة.[2]

لم يتعد سلطان البرتغاليين تلك النقط الساحلية والجزر الصغيرة إلى الأماكن الداخلية، ولم يكن لهم تأثير يذكر على الكيانات والامبراطوريات الشرقية القوية والقائمة في آسيا مثل الامبراطوريات (العثمانية

---

١) عبدالأمير أمين، الإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية، ص ١٠٣.

٢) المرجع نفسه، ص ١٠٤.

والصفوية) أو امبراطورية (المغول والصين) بل عاشت الامبراطورية البرتغالية على هامش تلك الامبراطوريات القوية والمتمكنة،[1] يضاف إلى ذلك طبيعة الوجود البرتغالي في الشرق الذي اتضح من خلال ممارساتهم السياسية والعسكرية من جهة وفي أساليبهم التجارية الاحتكارية من جهة أخرى،[2] بل لانبالغ إذا قلنا إن الامبراطورية البرتغالية في الشرق حملت بذور ضعفها وانحلالها معها منذ قيامها. إذن ماهي عوامل تدهور وانحطاط الوجود البرتغالي ؟

إن عوامل تدهور وانحطاط الوجود البرتغالي في الشرق يمكن أن يعزى إلى أسباب كثيرة، ولكنه يعود أساساً إلى: تعصب البرتغاليين الديني وقسوتهم وقلة العنصر البشري البرتغالي في المستعمرات البرتغالية وكذلك سوء السياسة التجارية التي طبقها البرتغاليون في المناطق المستعمرة وإفتقار البحرية البرتغالية إلى النظام مما أتاح الفرصة لوقوع حوادث خلاف وتمرد كان يقوم بها البحارة البرتغاليون ضد قادتهم،[3] وتغير وضع البرتغال في أوربا بعد اتحاد التاجين البرتغالي والأسباني عام ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م وتعرض البرتغال لضغوط خارجية كبيرة وظهور القوى البحرية الأوربية المنافسة إضافة إلى نمو قوة العرب العمانيين في عهد سلالة اليعاربة.[4]

---

١) عبدالأمير أمين، الإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية، ص ١٠٤.

2) Jayna, R.G., op.cit, p.60.

3) Della Valle, P., The Travels of Sig. Pietro dellavalle, anoble Roman, into East-Indies and Arabia Deserta, (London, 1665), p.235.

٤) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ٦٧ - ٦٨؛ ولسون، تاريخ الخليج، ص ١٢٤ ومابعدها؛ الخصوصي، تاريخ الخليج الحديث والمعاصر، ج ١، ص ٢٨.

فمن ناحية تعصب البرتغاليين الديني وقسوتهم ووحشيتهم، فلقد أوضح (جينه Jayna) موقف البرتغاليين من المسلمين منذ البداية بقوله: «كان شعار البرتغاليين في آسيا صداقة وود للمسيحيين وحرب لاهوادة فيها للمسلمين.». [1] لقد كان هذا موقف البرتغاليين من المسلمين. ولاعجب أن أثار ذلك حقد المسلمين وكرههم لهم في كل أنحاء الشرق، ولم تخف حدة هذا التعصب مع مرور الزمن بل زادت حتى شملت غير المسلمين من الطوائف الأخرى، مثل اعتبارهم للمسيحيين النساطرة هراقطة مرتدين. [2] أما قسوتهم ووحشيتهم ففيما أوردناه من أمثلة عديدة[3] مايوضح سياسة العنف والقسوة التي طبقها البرتغاليون ضد المسلمين، سواء بقتل الناس أو في احراق المدن وإغراق السفن ومصادرة الأموال، ومنعهم من مزاولة التجارة.

أما من ناحية قلة العنصر البشري البرتغالي في المستعمرات البرتغالية، فقد عانى البرتغاليون منذ البداية من قلة عددهم في الشرق، فلم يزد ذلك العدد في أي مرحلة من مراحل وجودهم في آسيا خلال القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي على عشرة آلاف رجل، وإذا أخذنا بعين الإعتبار اتساع امبراطوريتهم وكثرة قلاعهم وسفنهم[4] ومايحتاجون إليه من عدد الأفراد العاملين في مجال الحرب والملاحة والإدارة أمكن تصور قصور ذلك العدد، وعجزه عن تلبية الاحتياجات المطلوبة. ونتيجة لقلة العدد فقد اضطر البرتغاليون إلى استخدام الهنود، وكان المسلمون الهنود أمهر الملاحين وأكثرهم كفاءة ولكن

---

1) op.cit, p.62.

2) Ibid, pp. 62 - 3.

٣) لمزيد من التفصيل عن قسوة البرتغاليين ووحشيتهم انظر: الفصل الأول.

٤) عبدالأمير أمين، الإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية، ص ١٠٤.

العداء والحقد الذي يكنه البرتغاليون والمسلمون بعضهم لبعض حال دون الاستفادة والاستعانة بالمسلمين إلاّ في حدود ضيقة جداً.[1] الأمر الذي أدى بهم إلى الاستعانة ببعض الهنود الذين يفتقرون إلى الخبرة في شئون الملاحة.

لقد وجد البرتغاليون أنفسهم إزاء ذلك مضطرين إلى استخدام عدد كبير من الأوربيين من هولنديين وإنجليز وإيطاليين وفرنسيين في مجالات إدارية مهمة، وبغض النظر عن مدى اخلاص هؤلاء الأوربيين لمستخدميهم، فإن عملهم وفرّ لهم فرصة الاطلاع على وضع البرتغاليين في الشرق والتعرف على نواحي الضعف والانحلال التي كانت تشكو منه الامبراطورية البرتغالية،[2] ولايستبعد أن هؤلاء الأوربيين كانوا على اتصال مع بلدانهم، ومن المؤكد أنهم زودوها بتقارير عن حالة البرتغاليين، تلك التقارير التي تعتبر من العوامل المهمة التي شجعت الأمم الأوربية الأخرى على القدوم إلى الشرق ومنافسة البرتغاليين.

أما عن سوء السياسة التجارية التي طبقها البرتغاليون في المناطق المستعمرة، فقد اتسمت التجارة البرتغالية في الشرق منذ بدايتها بطابع القسر والعنف والإحتكار الغاشم، ولم يحاولوا إنشاء مؤسسات إقتصادية ذات طابع رأس مالي استثماري يستند إلى أسس إقتصادية راسخة وفوائد دائمة ومضمونة مثل مافعل الانجليز والهولنديون، بل ظلت التجارة البرتغالية حتى النهاية احتكاراً ملكياً جشعاً متسلطاً يسعى لجمع المال

---

١) عبدالأمير أمين، الإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية، ص ١٠٥.

٢) المرجع نفسه، ص ١٠٥؛
جمال قاسم، الإستعمار البرتغالي، ٨٥.

بأية طريقة ممكنة.[1] ومنذ البداية كانت مصادر دخلهم تأتي من نهب سفن المسلمين وأموالهم، إضافة إلى تشددهم في الضرائب والرسوم من السفن الآسيوية التي تستخدم مراكزهم التجارية، وكذلك الفوائد من التجارة الآسيوية الداخلية والتجارة الآسيوية الأوربيّة.[2]

لم يغيّر البرتغاليون من الأنماط التجارية التقليدية في آسيا، وظلت خلال سيطرة البرتغاليين صغيرة نسبياً في حجمها، وبجملتها مشروع ملكي سخرت له كل العناصر، الملاحة، السفن، والضرائب للاستغلال ولتوفير الفائدة المباشرة والسريعة.»[3] إذن فالبرتغاليون لم يقدموا عنصراً جديداً لتجارة الشرق خلال عهدهم الاستعماري.

وعن افتقار البحرية البرتغالية إلى النظام، فقد أتاح ذلك الفرصة لوقوع حوادث خلاف وتمرد كان يقوم بها البحارة البرتغاليون ضد قادتهم، وقد عمدت السلطات البرتغالية إلى إرسال أصناف من الناس من البرتغال إلى الشرق، ولايمكن أن يتصور المرء أنهم قادرون على أداء أي عمل نافع هناك. وفي أواخر القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي لم يرسل إلى الشرق في أغلب الأحيان جنود مدربون ومؤهلون، فقد فتح المجال للخدم وعمال الموانىء للإنضمام إلى صفوف الجنود الذاهبين إلى

---

١) انظر الفصل الأول، ص ٣٠-٤٠، حاشية ٢ -٤ .

٢) المقصود بالتجارة الآسيوية الداخلية هو : النشاط التجاري بين البلدان والموانىء الآسيوية بعضها مع بعض، والتي بقيت في جوهرها تبادلاً للسلع بين الموانىء الآسيوية نفسها، وترتكز في حمايتها على السفن الآسيوية والتجار الآسيويين. أما التجارة الآسيوية الأوربية فهي القائمة على التبادل التجاري بين البلدان والتجار الآسيويين والأوربيين. انظر: عبدالأمير أمين، الإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية، ص ١١٦ - ١١٧.

٣) المرجع نفسه ، ص ١١٠

الشرق دون إعداد أو تدريب.[١] بل كثيراً ماعمدت الحكومة البرتغالية إلى جمع الرجال من الشوارع والحقول ومن السجون أيضاً، إضافة إلى تجنيدهم الأحداث ومعتلي الصحة والمنحرفين.[٢] والواقع أن مثل أولئك الجنود ينقصهم التدريب ويعوزهم الشعور بالمسؤولية، الأمر الذي أسهم في تدهور وانحطاط مكانة البرتغاليين السياسية والعسكرية.

وفيما يتعلق بتغير وضع البرتغال في أوربا بعد اتحاد التاجين الأسباني والبرتغالي عام ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م وحتى عام ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م فقد استمر نفوذ البرتغال في الشرق دون اتصال مع (لشبونه) ولم يطرأ عليه تغيّر يذكر، حيث كانت السياسة البرتغالية في الشرق في تلك الفترة تخطط من قبل القادة العسكريين.[٣] وعلى الرغم من أن الأسبان تركوا تصريف أمور الشرق للبرتغاليين أنفسهم إلاّ أن الضعف البرتغالي جاء نتيجة تحمله لتبعات السياسة الأسبانية الطموحة والتوسعية في القارة الأمريكية. [٤] إن الحكومة الأسبانية بإعتراف أكثر المؤرخين انتهجت سياسة غير رشيدة فيما يتعلق بالبرتغاليين، فلم تكن تدرك حقيقة الاستعمار البرتغالي ولا أهميته، ومن ثم فلم تخطط لتثبيت دعائمة ولانشر إطاره من حيث التعامل المحلي والإقليمي، وقد أثر هذا في أوضاع البرتغاليين

---

1) Della Valle, p, op.cit, pp.235-6;

ولسون، تاريخ الخليج، ص ١٢٤.

2) Boxer, C.R., Portuguese, op.cit, p.250.

٣) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٩١؛ لاندن، عمان منذ ١٨٥٦ مسيراً ومصيراً، ترجمة محمد أمين عبدالله، مطرح ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩، ص ٢٧؛ محمود علي الداود، تاريخ العلاقات الهولندية في الخليج، مجلة كلية الآداب جامعة بغداد، العدد الثالث، نوفمبر ١٩٦٤، ص ٥٠٤.

٤) جمال قاسم، الخليج العربي، ص ٩٦-٩٧؛ عبدالعزيز عبدالغني، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، ص ٤١.

الأمر الذي أدى إلى إضعاف مركزهم وتدهور أحوالهم.

وبالنسبة لتعرض البرتغاليين لضغوط كبيرة طيلة القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي، فقد تعرضوا لضغوط من العثمانيين، فصراع البرتغاليين مع العثمانيين في البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي استنفذ كثيراً من طاقاتهم، بل كان عنيفاً ومكلفاً.[1] ولقد أدى الصراع العثماني البرتغالي بالفعل إلى تجدد نشاط المقاومة الإسلامية في المناطق المحتلة من البرتغاليين والتي كانت تتطلع على الدوام إلى عون العثمانيين وبخاصة في ساحل شرق إفريقية وماتركته آثار حملة (علي ميرال بك) إلى تلك المناطق خير دليل على ذلك.

وعن ظهور القوى البحرية الأوربية المنافسة للبرتغاليين، فقد شهد الخليج العربي والمحيط الهندي منذ أوائل القرن الحادي عشر الهجري - السابع عشر الميلادي ظهور قوى بحرية جديدة وبخاصة الإنجليز والهولنديين،[2] الذين مع مرور الوقت أسهموا في زحزحة البرتغاليين عن مكانتهم التي تمتعوا بها، فقد كان صعود نجم الشركات الانجليزية

---

1) Boxer, C.R., Portuguese, op.cit, p.258;

نوال صيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج، ص ١٨٧.

٢) قام الإنجليز بتأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية عام ١٠٠٩هـ / ١٦٠٠م بمقتضى مرسوم ملكي حصل عليه مجموعة من تجار لندن من ملكة بريطانيا، كما شجعت الحكومة الهولندية بعض التجار الهولنديين على تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٠١١هـ / ١٦٠٢م، وعلى إثر تأسيس هاتين الشركتين أخذت المنافسات تحتدم بين البرتغاليين من ناحية وبين الانجليز والهولنديين من ناحية أخرى، ومن الجدير بالذكر أنه سبق تأسيس هاتين الشركتين جهود قام بها بعض التجار والرحالة من البلدين مهدت للاتصال الرسمي المباشر. لمزيد من التفصيل انظر: ولسون، تاريخ الخليج، ص ٨٩ - ١٢٥ ومابعدهما؛ عبدالعزيز عبدالغني، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، ص ٤٣ - ٥١.

والهولندية يمثل انتصاراً لنظام فردي على نظام احتكاري تمارسه دولة،[1] وبذا أصبح البرتغاليون يواجهون خصماً من نوع آخر يختلف عن الآسيويين.

أما عن نمو قوة العرب العمانيين في عهد سلالة اليعاربة، فقد قدّر لهذه الدولة أن تحسم الصراع لصالح المسلمين، وعلى الرغم من أهمية العوامل السابقة والتي ساهمت في ضعضعة الوجود البرتغالي في الشرق، إلاّ أن العامل الأهم في تفكك وانهيار السيطرة البرتغالية هو تنامي قوة العرب العمانيين، وذلك نسبة لطول فترة هذا الصراع وضراوته، فقد أجهزوا على السيطرة البرتغالية لافي الخليج العربي فحسب، بل في المحيط الهندي وشرق إفريقية، حيث تحملوا عبء ومسؤولية الجهاد في تلك المناطق وحدهم دون مساعدة من أحد.[2]

مما تقدم نكون قد وقفنا على الأسباب التي عجلت بزوال النفوذ البرتغالي في الشرق، وقبل أن نختم حديثنا عن تلك العوامل هناك سؤال يطرح نفسه وهو: لماذا رغم هذا الضعف الواضح لم تستطع تلك الشعوب أن تواجه الاستعمار البرتغالي منذ البداية وبخاصة في مناطق الخليج وشرق إفريقية ؟ وللإجابة على ذلك نقول :

إن القوى التي واجهت الاستعمار البرتغالي ثلاث هي: الدولة

---

1) صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج، ص ٢١ - ٢٢؛ صالح محمد العابد، تحرير ساحل عمان وانهيار الامبراطورية البرتغالية، ص ٤٠.

2) Danvers, F., op.cit, vol,II, p.296;

جمال قاسم، دولة بوسعيد، ص ٢٥.

العثمانية، والدولة الصفوية، والعرب،[1] فإذا استبعدنا منذ البداية الجانب العربي الذي لم يحاول في أي مرحلة من مراحل الاستعمار البرتغالي أن يتكتل في إرادة وقيادة واحدة إلاّ في المرحلة الأخيرة فقط من مراحل ذلك الاستعمار، عندما استطاعت عمان أن تتوحد وتتحمل مسؤولية تصفية الوجود البرتغالي، كذلك العثمانيون فقد ركزوا اهتمامهم منذ البداية في البحر الأحمر، وتأخروا قليلاً في إدخال أساطيلهم إلى المحيط الهندي والخليج العربي، بالإضافة إلى أن موقع الدولة العثمانية وتركيبها لم يجعل منها في أي وقت من الأوقات قوة في المحيط الهندي والخليج العربي.

أما الصفويون فرغم بروزهم قوة إقليمية إلاّ أنها بدورها كانت تعاني من ثلاث تناقضات هي: إخفاق القيادة في بلورة نظرية واضحة للتعامل مع الأعداء من جانب، ثم عدم وجود قدرة عسكرية حقيقية وبخاصة بحرية من

---

١) استبعدنا من تلك القوى المماليك، فعلى الرغم من أنهم حاولوا قدر استطاعتهم التصدي للبرتغاليين، والذي توج بحملة حسين الكردي إلى (ديو) والتي انهزم فيها عام ٩١٥هـ / ١٥٠٩م - كما ذكرنا سابقاً - فعاد لتحصين البحر الأحمر - إلاّ أن استبعادنا لقوة المماليك جاء لسببين الأول : أنه واكب قدوم البرتغاليين ضعف الدولة المملوكية وكثرة مشاكلها إضافة إلى عدم وجود بحرية للدولة في البحر الأحمر ويدل على ذلك أنهم لم يتصادموا مع البرتغاليين إلاّ بعد حوالي عشر سنوات من وصولهم إلى الهند. أي بعد إقامة حكومة برتغالية في الشرق وتقوية مراكزهم في شرق إفريقية والخليج العربي، ويعزى سبب التأخر في المواجهة إلى المدة التي استغرقها بناء البحرية بالسويس. أما الثاني فهو: أن دولة المماليك لم تعط الفرصة لفترة أطول حيث سقطت على يد العثمانيين عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وبذلك لم تعاصر البرتغاليين إلاّ حوالي سبعة عشر عاماً.

جانب آخر، يضاف إلى ذلك اختلال حقيقي في القيادة من جانب ثالث.[١] ولعل أخطر مايمكن أن يعاب على هذه القيادة أنها لم تفهم أن واجبها يحتم عليها التحالف أو على الأقل التفاهم مع العثمانيين من ناحية ومع العرب من ناحية أخرى لطرد القوى الأجنبيّة الدخيلة من المنطقة، سواء في هذا البرتغاليون أو من جاء بعدهم. وعلى العكس من ذلك فقد وصل الأمر بشاه فارس أن يستجدي صداقة البرتغاليين في أكثر من مناسبة مبدياً غبته في التحالف معهم ضد العثمانيين تارة وضد العمانيين تارة أخرى.

مما تقدم يتضح أن البرتغاليين منذ قدومهم لأول مرة لم يواجهوا قوى وشعوباً تشكلت على هيئة جبهة واحدة، بل واجهوا أوضاعاً متردية وشعوباً متطاحنة رغم بذور الضعف التي رافقتهم.

* تركّز الوجود البرتغالي في الساحل العماني :

سبق أن ذكرنا أن من عوامل ضعف البرتغاليين ظهور القوى البحرية الأوربية المنافسة، ومن تلك القوى الإنجليز، الذين ركزوا اهتمامهم منذ البداية على الساحل الشرقي للخليج العربي، وتطلعوا تجارياً إلى المناطق الفارسية، ولهذا حصلوا على موطء قدم لهم في مينا (جاسك) الفارسي وأقاموا فيه مركزاً تجارياً.[٢] وكانوا يتطلعون إلى تعزيز هذا التواجد وقد تلاقت آمالهم مع طموحات الشاه (عباس الكبير ٩٩٦ - ١٠٣٩هـ

---

١) حامد ربيع، النظام الدولي الإقليمي في منطقة الخليج خلال فترة الاستعمار البرتغالي، مجلة الوثيقة، العدد الرابع عشر / السنة السابعة، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص ١٨٢.

2) Saldanah, J.A., Selections from State Papers Bombay Regarding the East India Company connection with the Persian Gulf 1600 – 1800, (Calcutta, 1908), p.8;

ولسون، تاريخ الخليج، ص ٩٨ - ٩٩.

/ ١٥٨٧ - ١٦٢٩م).[١] الذي كان يتطلع إلى طرد البرتغاليين من جزيرة (هرمز)، بعد أن تم طردهم من ميناء (جميرون) حيث سمي فيما بعد (بندر عباس)، فطلب الفرس من الشركة الإنجليزية الاشتراك بالهجوم على البرتغاليين في كل من جزيرتي (قشم وهرمز) ووعدوهم بإغراءات كثيرة وألمحوا لهم في الوقت نفسه إلى أنه إذا مارفض الانجليز مساعدتهم في تلك الحرب فإن الامتيازات الممنوحة لهم سوف تلغى كما ستصادر بالات الحرير التي تصل إليهم من (أصفهان).[٢]

وبعد مداولات متعددة بين رجال الشركة وضباط السفن في الشرق

---

١) الشاه عباس الكبير من أشهر حكام السلالة الصفوية في فارس، استطاع بسياساته الطموحة أن يوسع رقعة بلاده وأن يدرأ عنها الأخطار، أعاد تشكيل جيشه وزوده بمقومات جيوش العصر من الأسلحة الحديثة مثل المدفعية، أجبر العثمانيين على الخروج من الولايات الفارسية التي كانت قد استولت عليها وذلك عام ١٠١٢هـ / ١٦٠٣م، ثم بعدها دخل بغداد، كما يعتبر حليفاً أميناً للإنجليز واستطاع بمساعدتهم طرد البرتغاليين من هرمز عام ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م، وكانت له أحلام بالسيطرة على الساحل العماني والسواحل الغربية للخليج العربي، ثم وثّق علاقاته بالقوى الأوربية لدرجة كبيرة، ويعزى ذلك إلى رغبته بالتحالف معهم لضرب العثمانيين وإضعافهم وغزوا أراضيهم ولكن ذلك لم يتم، واشتهر بالتساهل الديني تجاه المسيحيين مراعاة لعلاقاته معهم في وقت كان فيه متعصباً تعصباً شديداً للمذهب الشيعي الإثني عشري، بنيت سياسته الخارجية على المصالح الإقتصادية والطموحات الشخصية ولهذا أخذ عليه احتضانه لكافة القوى الأوربية وتسهيل مصالحهم في وقت يعيش فيه صراعاً مع القوى الإسلامية مثل العثمانيين والقوى العربية على الساحل الغربي للخليج العربي.

لمزيد من التفصيل انظر:

Sykos, p., A History of Persia, 2 vols, (London, 1951);

عبدالعزيز سليمان نوار، الشعوب الإسلامية، ص ٢٥٣ - ٢٦٥.

٢) ولسون، تاريخ الخليج، ص ١٠٨.

وبين مسئولي الشركة في (لندن) اجتمعت الآراء بعد اختلاف على أن رفض التعاون مع الفرس يعني خسارة الشركة لتجارتها مع فارس التي كلف بناؤها كثيراً من الجهد ولم تكتمل بعد وبخاصة تجارة الحرير، ويعني أيضاً إتاحة الفرصة للبرتغاليين بتعزيز تفوقهم والتعرض للسفن والتجارة الانجليزية، ولذلك انتهى الأمر بموافقة الشركة على مساعدة الحكومة الفارسية في طرد البرتغاليين من (هرمز) وتم عقد تحالف انجليزي فارسي عام ١٠٣٢هـ / يناير ١٦٢٢م والمعروف باتفاقية (ميناب).(١)

لقد نصت هذه الاتفاقية على تقسيم الغنائم بالتساوي بين الطرفين المتحالفين عندما يتم احتلال الجزيرة، كما اتفق الطرفان على احتلال القلعة البرتغالية فيها، ثم تسلّم إلى الإنجليز، ثم تقسم العوائد بين الطرفين وتعفى البضائع الإنجليزية من الرسوم الجمركية إلى الأبد عند دخولها (هرمز)، وكذلك بعد انتهاء الحرب يسلّم الأسرى المسلمون للفرس والنصارى للإنجليز، كما تتحمل فارس نفقات تموين السفن ومرتبات الجند وثمن البارود المستهلك.(٢)

بدأت العمليات العسكرية بعد التوقيع على الإتفاقية المذكورة مباشرة أي في ١٩ يناير حيث قاموا باحتلال جزيرة (قشم) وطرد البرتغاليين منها وفي فبراير أبحرت السفن الانجليزية والمراكب الفارسية إلى

---

١) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ٤٢؛ جمال قاسم، الخليج العربي، ص ٩٩.

2) Low, C.R., op.cit, Vol.I, pp.41-3;
Sykes, p., op.cit, vol.1, p.191.

(هرمز) وبدأت العمليات العسكرية التي انتهت بسقوط الجزيرة[١] واحتلال القلعة وتسليمها للإنجليز الذي غنموا الكثير من السلاح وعدداً كبيراً من الأسرى، ثم أنجز الانجليز سيطرتهم على الجزيرة، وسلموها للفرس الذين نهبوها واستولوا على متاجرها وأموالها وأصبحت مثلاً حياً للخراب[٢]

والجدير بالملاحظة أن كثيراً من المؤرخين يعتبرون خسارة البرتغاليين (هرمز)[٣] وطردهم منها نقطة النهاية للسيطرة البرتغالية في

---

١) حاول البرتغاليون استرداد الجزيرة عدة مرات وكان أهمها محاولة عام ١٠٣٥هـ / ١٦٢٥م، ومحاولة عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م عندما قام نائب الملك البرتغالي في (جوا)، بعد تلقيه تعزيزات بمحاولة لإعادة احتلال (هرمز) غير أن المحاولة باءت بالفشل، وفي عام ١٠٤١هـ / ١٦٣١م أرسل ملك اسبانيا تعليمات إلى نائبه بضرورة الوصول إلى تفاهم مع حاكم (هرمز) حتى لو أدى الأمر إلى تقديم الرشوة إليه ولكن تلك المساعي لم تتم فصرف البرتغاليون النظر نهائياً عن الجزيرة. انظر: ولسون، تاريخ الخليج، ص ١١٠، ١١١، ١١٢.

2) Low, C.R., op.cit, pp. 42-43;

ولسون، تاريخ الخليج، ص ١١٦ - ١١٧؛ صلاح العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة الإستعمار البرتغالي في الخليج، دراسة مقارنة، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٤، مسقط، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ٨٤ - ٨٥.

٣) لم يتحمس الفرس كي يحلوا محل البرتغاليين في (هرمز) رغم معارضتهم لإقامة الانجليز فيها، حيث أصدر الشاه (عباس) أوامره بتدمير المدينة عن آخرها، وبذلك يحدد عام ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م انتهاء دور (هرمز) في التاريخ، وانتهاء مجدها التجاري الذي ظلت تتمتع به عدة قرون، وقد تم نقل النشاط التجاري منها إلى ميناء (جمبرون) الذي سمي (بندر عباس) والذي تم بناؤه حديثاً، وبذلك فقدت (هرمز) أهميتها كمركز تجاري يزخر بالثروة والشهرة. انظر: جمال قاسم، الخليج العربي، ص ١٠٢؛ صالح العابد، دور القواسم في الخليج، الطبعة الأولى، بغداد ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، ص ٢٥ - ٢٧.

الخليج، إلاّ أن حقيقة الأمر تبدو في تحول البرتغاليين بتحصيناتهم إلى السواحل الغربية للخليج وبدأت قلاعهم في (مسقط ومطرح) تلقى دعماً كافياً باعتبارها القلاع الرئيسة التي أصبحت لهم بعد سقوط قواعدهم في (هرمز) ويمكن القول إن السيطرة البرتغالية في الخليج بعد طردهم من (هرمز) قد ضعفت وإن لم يكنْ كثيراً.[١] وبذلك عوض البرتغاليون خسارتهم في (هرمز) حين اتخذوا (مسقط) مسرحاً لعملياتهم، فقد شيّدوا فيها حاميات بالغة المناعة، وقد كان (لمسقط) والموانىء العمانية كل المزايا التي تجعل لهم الريادة في الخليج.

إن خسارة البرتغاليين (لهرمز) لم تكن خسارتهم الأولى في الخليج العربي، فقد خسروا قبل ذلك (البحرين) وكانوا قد سيطروا عليها خلال المدة من ٩٢٨هـ / ١٥٢١م وحتى عام ١٠١١هـ / ١٦٠٢م، وعلى الرغم من ذلك إلاّ أن السيطرة البرتغالية لم تكن مستقرة في الجزيرة، حيث توالت حركات المقاومة التي قام بها السكان هناك ضد الوجود البرتغالي.[٢] وما اتسم به من تعسف في فرض الضرائب لدرجة أن السنوات الفعلية التي مارس فيها البرتغاليون سيطرتهم على (البحرين) لم تتعد أربعين عاماً من تلك الفترة، وتشير المصادر إلى أن السبب المباشر في طرد البرتغاليين من (البحرين) عام ١٠١١هـ / ١٦٠٢م هو الأسلوب الذي كان ينتهجه حاكمها المعيّن من قبل البرتغاليين الذي قام بقتل أحد تجار اللؤلؤ طمعاً في ثروته.[٣] ولكن شقيق القتيل تمكن من الانتقام لمقتل أخيه ونجح في

---

١) ولسون، تاريخ الخليج، ص ١١٥ - ١٢٠.

2) Sousa, F., op.cit, vol.II, p.258;

الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية، ص ٧٩.

٣) أحمد محمود صبحي، البحرين ودعوى إيران، الطبعة الأولى، الإسكندرية، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م، ص ٦٧ - ٦٨؛ أحمد العناني، البرتغاليون في البحرين وماحولها خلال

الاستيلاء على القلعة بمساعدة السكان، وطلب المساعدة من حاكم (شيراز) الذي أرسل قوة ساعدت أهل البحرين ضد البرتغاليين، وقد حاول البرتغاليون استرداد (البحرين) بكل الوسائل، وقد استمرت محاولاتهم تلك حتى عام ١٠٣٩هـ / ١٦٥٩م عندما فقدوا الأمل في ذلك.[١] ويعود اهتمام البرتغاليين بالبحرين إلى عهد (البوكيرك) الذي أكد على أهميتها الإستراتيجية والإقتصادية، حيث تكثر فيها مصادر اللؤلؤ، وكذلك قربها من إقليم الاحساء الغني بالمنتجات الزراعية.[٢] لذا وإزاء هذه الخسائر التي لحقت بالبرتغاليين فمن الطبيعي أن يركّزوا اهتمامهم على الموانىء العمانية وتحصينها لاسيما أنها أصبحت الأمل الوحيد المتبقي لهم للمحافظة على وجودهم، وعليه فمن المبالغة القول إن خسارة البرتغاليين (لهرمز) هي نقطة النهاية للسيطرة البرتغالية، بل بالعكس فلو أن البرتغاليين لايزالون في (هرمز) لما عناهم كثيراً أن يخسروا بعض الموانىء والنقط على الساحل العماني. ومايفترض أن يقال هو أن خسارة البرتغاليين (لهرمز) هي نقطة البداية لخساراتهم في الخليج.

بعد النجاح الذي حققه في (هرمز) تطلّع الشاه (عباس) إلى وراثة البرتغاليين في الخليج، وذلك عندما طلب من الإنجليز بعد سقوط الجزيرة العبور معه إلى الساحل الغربي للخليج والسيطرة على (مسقط) والموانىء العمانية الأخرى بإعتبارها تابعة (لهرمز) سابقاً، ولكن الإنجليز رفضوا هذا الطلب وامتنعوا عن تقديم المساعدة للفرس نظراً لأن موقف

القرنين السادس عشر والسابع عشر، ص ١٠٨.

١) المرجع نفسه، ص ١٠٨ - ١٠٩.

٢) أحمد بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين، ص ١٢٢.

حكومتهم من الإجراء السابق قد حدّ من حماستهم.[1] فقام الفرس بهذه المهمة وحدهم ولكنهم انهزموا من البرتغاليين،[2] وعلى الرغم من ذلك فقد عادت بعد فترة قصيرة العلاقات طبيعية بين الفرس والبرتغاليين، وسمح الفرس للبرتغاليين بتأسيس مركز تجاري لهم في ميناء (كونج) على الساحل الفارسي، وذلك عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م بشروط مماثلة لتلك التي يتمتع بها الانجليز. [3] ومهما يكن من أمر فستتضح رغبة الفرس وحرصهم في

---

1) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ٥٠؛ مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٨٧.

2) لم تكن الحكومة الإنجليزية على علم بما قامت به الشركة من إبرام تحالف مع الفرس والقيام بعمل عسكري بمنأى عن الحكومة، وترى الحكومة أن الهجوم على (هرمز) لم يكن له مبررات دبلوماسية واضحة لأن انجلترا واسبانيا كانتا على علاقات طيبة عندما عقدت الإتفاقية مع الفرس، وقد احتج العرش الأسباني على العملية، وأوشكت الحكومة الانجليزية أن تندد بذلك العمل علناً وتعتبره قرصنة قامت بها الشركة، ولكن تم تسوية الموضوع عندما قامت الشركة بتقديم مبررات تعزز موقفها تجاه حكومتها، ولعل هذا الموقف من الحكومة الانجليزية هو الذي أدى إلى عدم اشتراك الانجليز بتتبع البرتغاليين مع الفرس إضافة إلى عدم رضاهم عن عملية اقتسام غنائم (هرمز) مع الفرس. انظر ولسون، تاريخ الخليج، ص ١١٤.

3) يعود تحسن العلاقات بين فارس والبرتغاليين إلى سببين: الأول- هو رغبة حكام فارس في الحد من نفوذ الإنجليز وعدم إطلاق يدهم في الخليج وتجارة فارس وبخاصة بعد التعاون الذي حصل بينهما لطرد البرتغاليين من (هرمز)، ولذا أرادوا خلق نوع من التوازن في القوى عندما منحوا البرتغاليين امتيازات في ميناء (كونج) الفارسي. أما السبب الثاني فهو بوادر التعاون البرتغالي مع متصرف البصرة العثماني وبخاصة عندما ساعد البرتغاليون متصرف البصرة عسكرياً ضد الجيش الفارسي الذي دخل بغداد عام ١٠٣٣هـ / ١٦٢٣م وذلك عندما ظهرت خمس سفن برتغالية أسهمت في الدفاع عن البصرة، الأمر الذي اعتبرته فارس عملاً من شأنه التأثير على السياسة الفارسية التي طالما شكل العثمانيون هاجساً مخيفاً لها، وقد قام إثر ذلك تعاون بين البرتغاليين ومتصرف البصرة نلحظه في هذه الرسالة المؤرخة في ٥ يناير عام ١٦٢٩م من القيادة البحرية البرتغالية إلى قائد فصيل بحري جاء فيها : « لقد برهن علي باشا متسلم البصرة أنه مخلص في مساعدة حكومة صاحب الجلالة فهو قائم على شأن الحرب ضد فارس بتصميم واضح، وأنه لمن المناسب

السيطرة على الساحل الغربي للخليج وبخاصة (مسقط) عندما تأخذ البحرية العمانية مكانها ويكتمل نموها وتبدأ في مطاردة البرتغاليين في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري - أواخر النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي ومن ثم يبدأ الاحتكاك بين الفرس والعمانيين فيما بعد.

أما بالنسبة للوجود البرتغالي في ساحل شرق إفريقية، فعلى الرغم من أن البرتغاليين قد فقدوا مركزهم في الشرق الأقصى على يد الهولنديين، كما بدأ الانجليز بزحزحتهم من سواحل الهند، إلا أنهم ظلوا صامدين ومتمسكين بساحل شرق إفريقية، ولم يتأثر وجودهم هناك بتلك الخسائر، بل ظل مصدراً من مصادر ثروتهم، وظلت قلاعهم هناك تقوم بدورها في توفير الأمن والحماية للطريق البحري المباشر المؤدي إلى البرتغال، لذا فقد ظل ساحل شرق إفريقية إحدى الدعامات الرئيسة في قوة البرتغال الاستعمارية. وأصبحوا في تلك المناطق وكأنهم أقوى مما سبق.

جداً لنا أن نواصل مساعينا معه لإخلاء تلك الجزر من قوات العدو، كما أن بإستطاعة بوارجنا دعم سفنه في شن غارات متواصلة على الساحل الفارسي مما يؤدي إلى إيقاع خسائر فادحة بالشاه... ويختم الرسالة بقوله: «إنني لاأحتاج لأن أؤكد لسعادتكم كم هو هام أن نحافظ على هذا الباشا ولو لسبب واحد إن لم توجد أسباب أخرى وهو استعداده لتحمل نفقات السفن، وبذلك فنحن نوقع الأذى بعدونا الفارسي ونعرقل الملاحة في المضائق (هرمز) ونكبد أعدائنا خسائر كبيرة.» ولكن لايعلم هل هذا التبدل في السياسة العثمانية تجاه البرتغاليين نابع من القيادة العثمانية العليا أو أنه تصرف شخصي قام به متصرف البصرة العثماني مع أنني أميل مع الرأي الأخير. لمزيد من التفصيل انظر:

Docmentos Arabicos : Para A Historia Portugeze, Vol. II,
5 Jan 1629. Doha Palace;

نقلاً عن : أحمد العناني، البرتغاليون في البحرين وماحولها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، ص ١١٢ - ١١٣.

جمال قاسم، الخليج العربي، ص ٩٢؛ محمود علي الداود، العلاقات البرتغالية مع الخليج، ص ٢٥١.

* بداية الجهاد العماني ضد البرتغاليين ١٠٤٢هـ / ١٦٣٢م :

صرف الإمام (ناصر بن مرشد) السنوات الأولى من حكمه في شن حملات في الأقاليم الداخلية، وذلك لتحقيق الوحدة الوطنية، وقد استطاع خلال ذلك السيطرة على معظم الأقاليم الداخلية، ووضع يده على الممرات المهمة بين الأقاليم وبخاصة التي بين الحجر الشرقي و (جعلان)، كما بسط نفوذ الإمامة على منطقة الحجر الغربي[1] والمناطق الجبلية الممتدة من وادي (ضنك) باستثناء (إبرا) حتى (مقنيات وبهلى)، كما سيطر على (الرستاق ونخل) القريبة من الساحل، بينما بقيت الموانىء بيد البرتغاليين. [2] ولم يأت عام ١٠٤٢هـ - أواخر ١٦٣٢م إلاّ وقد تم له توحيد كافة القبائل العمانية التي رفضت الإنصياع له في البداية ولكنها أقرت واعترفت بسلطته. لذا فقد وجه اهتمامه نحو البرتغاليين مبتدئاً بذلك مرحلة الجهاد العماني ضدهم.

---

١) إقليم الحجر الشرقي يقع إلى الجنوب من الباطنة ومحاذياً للبحر أي إلى الجنوب من (مسقط) وهو عبارة عن منطقة جبلية، تنحدر فيها الجبال بشدة نحو البحر الذي جعل معظم شواطئها غير صالحة للسكنى، ومن أهم مناطقها وادي (سمائل) الذي يزيد طوله عن عشرة أميال وعرضه حوالي ميل واحد وهو من الممرات الاستراتيجية بين الأقاليم الداخلية والساحلية، وقاعدة هذا الإقليم (صور) أما (جعلان) فيقع إلى الجنوب الغربي من الحجر الشرقي ويمتد على ساحل البحر العربي. أما الحجر الغربي فيقع إلى الشمال من الحجر الشرقي وإلى الغرب من الباطنة، وهو منطقة جبلية تفصل الباطنة بينها وبين البحر، ويبلغ طول الحجر الغربي (١٦٠) ميلاً وعرضه يتفاوت من ٤٠ - ٥٠ ميلاً وأشهر معالمه الجبل الأخضر أعلى جبال عمان وقاعدته (الرستاق) التي تقع في وادي قارة. انظر: سعاد ماهر، الاستحكامات الحربية بسلطنة عمان، مجلة دارة الملك عبدالعزيز، العدد الثالث، السنة الثانية، الرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ١٨٧ ومابعدها؛ انظر الملحق رقم (٦-د)

٢) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٣٩.

وبالنسبة للبرتغاليين فكما أشرنا سابقاً فقد عزّزوا حامياتهم في (مسقط) بعد أن تم دحرهم من (هرمز) وجعلوها إلى جانب (البصرة)[1] مركزهم الرئيس للتجارة في الخليج. وبعد جلائهم من (هرمز) عملوا على تنصيب (محد شاه) ابن شقيق حاكم هرمز، الذي هرب مع البرتغاليين إلى (مسقط) وحاولوا إجبار العرب القاطنين في السواحل العمانية على قبول طاعته.[2] كما قاموا بإصلاحات جديدة في (مسقط) حيث رمّموا أسوار المدينة الممتدة من (بوماصالح) إلى (باب المثاعيب)، كما قاموا بحفر خندق خلف السور، وأنشأوا دائرة جديدة للجمارك، وأيضاً قاموا ببناء مرفأ صغير تحت القلعة الغربيّة، وزادوا من التحصينات عن طريق بناء أبراج جديدة على السور، وكذلك على الممرات المؤدية إلى (ريام وسيداب) لتعزيز وسائل الدفاع عن المدينة.[3] والواقع أن (مسقط) أصبحت مسرح العمليات البرتغالية الهام في الخليج، فقد شيدوا بها حاميات بالغة المناعة، وأصبحت مركز نشاطاتهم في الخليج سواء من حيث التجارة أو التعبئة البشرية، على أن هناك نقطة جديرة بالانتباه وهي أن (مسقط)

---

١) توجهت أنظار البرتغاليين بعد فقدهم (هرمز) إلى (البصرة) فاتخذوها مركزاً لنشاطهم التجاري والتنصيري إلى جانب (مسقط) وقد أسسوا فيها مركزاً تجارياً له نشاط كبير في مجال تجارة القوافل فيما بين (البصرة) والشام، ودخلوا في منافسة جديّة مع التجارة الإنجليزية، كما وضعوا خمس سفن في شط العرب للدفاع عن مكانتهم التجارية هناك، واستمر هذا المركز حتى أواخر القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي. انظر: الداود، العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي، ص ٢٥٣.

2) Della Valle, p., op.cit, p.233;

Danvers, F., op.cit, vol.II, p.134;

لويمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ٥٠.

٣) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٨٩ - ١٩٠؛ سعاد ماهر، الاستحكامات الحربية في سلطنة عمان، ص ٢٠٤.

تختلف عن (هرمز) من حيث إحكام الحماية والدفاع عنها، فحاميات (هرمز) ملاحية يمكن الدفاع عنها بسهولة بواسطة الأسطول البرتغالي المتفوق، بينما حاميات (مسقط) غير ذلك فقد كانت معرضة للضرب من الخلف، وقد أثبتت الحوادث فيما بعد الفرق بين الحاميات في كل من المنطقتين، وكما يقول ولسون : «وقد أثبتت تلك الحاميات (حاميات مسقط) بأنها مصدرٌ كبيرٌ للخطر من شعب عمان الثائر.».[1]

لقد كان الجهاد ضد البرتغاليين هدفاً أساسياً للإمام (ناصر بن مرشد)، لأن تعزيز مركز الإمامة وثباتها لايمكن أن يتحقق دون تحرير السواحل العمانية، ففي عام ١٠٤٢هـ / أواخر ١٦٣٢م تأكد للإمام (ناصر) ضعف الامكانات العسكرية والبحرية للقائد البرتغالي في (مسقط) (ري فرير Ruy Freir)، وذلك بسبب الصراع البرتغالي الهولندي في الهند، فإستغل الإمام هذه الفرصة وبدأ بتوجيه جهوده لمهاجمة الحصون البرتغالية على السواحل، حيث وجه قائده (مسعود بن رمضان) على رأس جيش كبير إلى قاعدة الوجود البرتغالي في (مسقط).[2]

التقى الجيش العماني بالبرتغاليين بمكان يقال له (الدويج) وقيل (بسيح الحرمل) القريب من (مطرح) احدى ضواحي (مسقط) وقد جوبه هذا الجيش بقوة برتغالية، ودارت معركة بين الطرفين، وطبقاً لما ذكره (ابن قيصر) مؤرخ الإمام وكاتب سيرة حياته فإن المعركة انتهت بهزيمة البرتغاليين وتدمير بعض حصون المراقبة المشرفة على (مسقط)، وقتل

---

١) تاريخ الخليج، ص ١٢٠.

٢) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٣٩؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ١٢؛ طارق الحمداني، دور عمان في اقصاء البرتغاليين، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، العدد الثالث، بغداد ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ٢٧٥.

العديد من البرتغاليين، ولاذ الباقون بالفرار، ثم بعثوا برسلهم إلى القائد العماني لطلب الصلح.[1] وقد حالت التحصينات البرتغالية حول المدينة دون استمرار العمانيين في القتال، إضافة إلى أن القائد العماني لمس رغبة أفراد جيشه بعدم الاستمرار وحاجتهم إلى الراحة بعد المعركة، لذا فقد وافق القائد العماني على طلب الهدنة التي تقدم بها البرتغاليون، والتي نصت بنودها على: أن يرفع البرتغاليون أيديهم عن أموال وحقوق العمور والشيعة في (صحار) عدم التعرض للمسلمين بالسوء ومعاملتهم معالمة حسنة[2] ويضيف (ابن رزيق) موافقة البرتغاليين على دفع جزية سنوية للإمام.[3]

وفي اعتقادي أنه من المشكوك فيه أن يكون الهجوم على (مسقط) قد حظي بهذا القدر من النجاح الذي ذكرته المصادر ،حيث لم يرد مايؤيد حدوث هذا من مصادر محايدة أو مستقلة، إضافة إلى أن وقائع الهجمات اللاحقة توحي بأن هذا الهجوم قد صد بشكل جيد خارج أسوار (مسقط) على أنه يمكن القول أن مجرد ذكر شروط إعادة الأملاك إلى أصحابها من (العمور والشيعة) وعدم التعرض للمسلمين بالأذى، يوحي بحدوث مفاوضات من نوع ما، بل أن مجرد قبول البرتغاليين بشروط هذه الهدنة يعد مؤشراً فعلياً على ضعفهم وقرب نهايتهم، كما أنها أعطت

---

1) سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٣٩.

2) المصدر نفسه، ص ٣٩ - ٤٠؛ الأزكوري، كشف الغمة، ص ١٠٢؛ المؤلف مجهول، تاريخ أهل عمان، ص ١٣٤.

3) ينفرد (ابن رزيق) في الفتح المبين بذكر شرط دفع الجزية للإمام، بينما لم تذكر ذلك المصادر العمانية الأخرى وبخاصة (ابن قيصر) المعاصر للأحداث، ويظهر أن حدوث هذا الأمر قد تم في وقت لاحق، بدليل أن (ابن رزيق) لايشير إليه في مؤلفه الآخر الموسوم الشعاع الشائع باللمعان. انظر: الفتح المبين، ص ٢٣٢؛ الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢١٥ - ٢١٦.

العمانيين دفعاً معنوياً لمواصلة تحرير بلادهم من الإستعمار البرتغالي.

وضع الإمام خطة بعيدة المدى تستند إلى تجريد البرتغاليين من قواعدهم على طول الساحل قبل شن الهجوم الكبير على قاعدة ارتكازهم الرئيسة في (مسقط) ويمكن القول إن حرب العمانيين في هذه الفترة كانت معارك الحصون والقلاع.[1] وهي مهمة عسيرة لأن البرتغاليين كانوا يبنون الأبراج العالية ويثبّتون فوقها المدافع الثقيلة والتي كانت بعيدة المرمى في ذلك الوقت، وتجبر العمانيين أحياناً على بناء حصون في مواجهة تحصينات العدو.

كانت الخطوة التالية للإمام بعد (مسقط) هي (جلفار)، (رأس الخيمة)، والتي يطلق عليها المؤرخون العمانيون (قرية الصير)، والتي تعتبر باب عمان الشمالي الغربي، وذلك لتحريرها من السيطرة البرتغالية الفارسية،[2] أمرّ الإمام على الجيش المتوجه إلى (جلفار) قائده (علي بن أحمد النزوي) وعززه بعدد من رجال اليعاربة، فبدأ القائد العماني بحصار قلعة (الصير) وهي القلعة الفارسية التي تدعمها نيران المدفعية من سفينتين برتغاليتين تقفان قبالة الساحل، ولهذا كان من المتعذر شن هجوم مباشر على القلعة.[3] مما دفع (علي بن أحمد) إلى استخدام خطة جديدة لتحاشي نيران العدو، وهي الهجوم ليلاً على أحد الأبراج المرتبطة بالقلعة، حيث

---

1) العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي، ص ٩٣.

2) سبق أن ذكرنا أن الفرس انهزموا من البرتغاليين في أثناء محاولاتهم إحتلال (مسقط) وذلك بعد طرد البرتغاليين من (هرمز) ورغم هذا الإخفاق، إلاّ أنهم نجحوا في السيطرة على أحد الحصون في (جلفار) واستمرت سيطرتهم عليه حتى أن البرتغاليين أقرّوا لهم بذلك بعد الصلح الذي أبرم بين الطرفين عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م.

3) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٤٤؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ٥، ص ١٣؛ السيابي، عمان عبر التاريخ، ج ٣، ص ٢٠٥.

تمكنت القوة المهاجمة من الاستيلاء على البرج، ثم اندفعت مقتحمة القلعة وبعد قتال عنيف استسلمت الحامية الفارسية وتم الاستيلاء على القلعة.[1]

دفع الإمام بتعزيزات جديدة إلى جبهة القتال، حيث وصلت إلى هناك قوة جديدة تتألف من قبيلة (الدهامش) بقيادة (خميس بن مخزوم) ومن ثم بدأوا حصار القلعة البرتغالية الواقعة في (دبا) إحدى قرى (جلفار)، وتمكنت القوات العمانية من دخول البلدة والإستيلاء عليها بما في ذلك مزارع النخيل، ثم قاموا بمحاصرة القلعة البرتغالية وبنوا أمامها حصناً لهم، فطلب البرتغاليون الصلح، فصالحهم والي الإمام على عقد هدنة بين الطرفين لحقن دماء المسلمين.[2]

والواقع أنه ليس واضحاً في المصادر العمانية عمّا إذا كان البرتغاليون قد تخلوا عن قلعتهم في (دبا) ورحلوا إلى (مسقط) أم لا، فـ(ابن قيصر) مؤلف سيرة الإمام (ناصر بن مرشد) والمعاصر للأحداث يذكر في هذا الصدد، أن المسلمين والبرتغاليين تصالحوا لحقن الدماء، ولم يذكر على أي شيء قام هذا الصلح، ولكنه يشير إلى أن المسلمين أقاموا بحصن (دبا) رجلاً من الثقاة آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر،[3] وهذا على مايبدو الذي دفع (باثرست Bathurst) إلى القول «أن البرتغالين ظلوا محتفظين بالقلعة وتصالحوا مع العمانيين على وقف الحرب، وأن

---

1) الأزكوري، كشف الغمة، ص ١٠٣؛ ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢١٧ - ٢١٨، مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٩١.

2) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٤٦.

3) المصدر نفسه، ص ٤٦.

يعيّن عالم دين يتولى الشؤون الدينية للمسلمين في (دبا).»[1] وهذا يعني استمرار الوجود البرتغالي في قلعة (دبا) أما (الأزكوري وابن رزيق) فإنهما اكتفيا بالقول إن النصارى طلبو الصلح فصالحهم الوالي فهبطوا من الحصن، ولم يشيرا إلى بقائهم أو رحيلهم،[2] بل إن عبارتهما لاتوحي بأن القلعة البرتغالية تقع في (دبا) والفارسية في (جلفار) ولكنها بدأت وكأن القلعتين توجدان في (جلفار) بينما الحقيقة أن قلعة الفرس في (جلفار) والبرتغاليين في (دبا)[3] وأمام ذلك كله فإن المصادر الانجليزية تشير إلى أن القلعة التي في (دبا) وهي القلعة البرتغالية كانت حتى عام ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م ماتزال في أيدي البرتغاليين حتى تخلّوا عنها مع غيرها من القلاع بموجب معاهدة السلام التي عقدت بين العمانيين والبرتغاليين التي عقدت في ذلك العام.[4] ومايعزز ذلك ماورد عن الأباء الكرمليين، عام ١٠٤٣هـ / ١٦٣٣م من أنه لدى وصول بعثة لهم في هذا التاريخ إلى (دبا) فوجئوا بأن العمانيين قد سيطروا على معظم أراضي (دبا) وماحولها وأنه

---

1) Bathurst, R.D., The yarubi Dynasty of Oman submitted for the Degree of Doctor of Philosophy, (Oxford, 1967), p. 87.

٢) كشف الغمة، ص ١٠٣ ؛ الفتح المبين، ص ٢٧٤.

٣) سليمان الغنّام، الوجود البرتغالي في المصادر العمانية، ص ٨٢٦؛ وبرغم أن (باثرست Bathurst) أشار إلى هجموم العمانيين على البرتغاليين في (دبا) وتطرق إلى ذلك آخذاً برواية (ابن قيصر) إلاّ أنه أخذ برواية (الأزكوري) التي تقول إن القلعتين الفارسية والبرتغالية تقعان في (جلفار) فبدا الموضوع له وكأن جيش الإمام واجه ثلاث قلاع إثنتين في (جلفار) وواحدة في (دبا). والحقيقة - كما ذكرنا - في المتن وكما أوضحه (ابن قيصر) أن القلعة الفارسية في (جلفار) والبرتغالية في (دبا).
انظر: Bathurst, R.D., op.cit, pp.87-8.

4) (10R). E/3/21.2089, Letter Gombroon to surat 4 the Dec 1648.

لم يعد بأيدي البرتغاليين سوى القلعة.[1] والواقع أن شروط معاهدة عام ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م كما وردت في المصادر البرتغالية تشير إلى تخليهم عن قلعة (دبا) شرطاً أساسياً من شروط تلك المعاهدة مما يعني أنهم بقوا هناك حتى هذا التاريخ.[2] وأمام هذه الروايات لانجد مناصاً من القول إنه لايستبعد أن البرتغاليين ظلوا محتفظين بقلعتهم في (دبا) حتى التاريخ المذكور، وفي الوقت نفسه فإننا نستغرب أن يتركوا فيها ويتم تحرير (صحار) الأكثر أهمية ومناعة عام ١٠٥٣هـ / ١٦٤٣م كما سيأتي ذكره، ومن المحتمل أن البرتغاليين يشترطون بقاءهم في قلعة (دبا) في جميع المعاهدات التي عقدوها مع العمانيين وهي معاهدات عام ١٠٤٣هـ / ١٦٣٣م، ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م، ١٠٥٣هـ / ١٦٤٣م. مما كفل لهم البقاء فيها. وبالسيطرة على القلعة الفارسية في (جلفار) والسيطرة كذلك على (دبا) باستثناء القلعة البرتغالية يكون العمانيون قد سيطروا على ساحل (الصير) بأكمله.

لقد كان سقوط القلعة الفارسية في (جلفار) الحافز الذي استثار حاكم (شيراز) إلى أن يقرر وبشدة الاستيلاء على (جلفار ومسقط)، وقدم طلباً للإنجليز لمساعدته في ذلك، ولكنهم لم يوافقوا بحجة سوء سياسة الشاه الفارسي تجاه تجارتهم في فارس.[3] ولكنهم سمعوا بعد ذلك بأن الهولنديين على استعداد لتقديم العون المطلوب للفرس، وعليه فقد اتخذ الانجليز قراراً فورياً بإرسال بعض السفن والقوارب إلى هناك، وعينوا قائداً لهذه المهمة وهو الكابتن (ويدل Weddell) وأعطي تعليمات بالتوجه إلى (جمبرون) والتفاوض مع فارس حول الشروط الضرورية لتنفيذ

---

1) Achronicle of the Carmelites in persia and the papal Mission of the XVIIth and XVIIIth centuries, vol,I, (London, 1930), p.329-35.

2) (10R).I/3/140, Documentos, 59, fol.88.

3) Dennis, R, op.cit, p.161.

المشروع، ولكن لم يتم شيء من ذلك بسبب مقتل حاكم (شيراز).[1]

ومن الملاحظ أن الفرس لايستطيعون القيام بذلك بمفردهم بسبب إفتقارهم إلى السفن الكافية لنقل الجنود وسلاح مدفعية فعّال للإغارة وإحتلالِ الساحل العماني، وافتقار الفرس إلى بحرية قوية سيظل هذا عائقاً أمام تحقيق طموحات القيادات الفارسية المتعاقبة للسيطرة على تلك المنطقة، وظلوا على الدوام يتطلعون إلى ترتيبات تتم مع الأسطولين الانجليزي والهولندي اللذين - كما يبدو - لن يقدما للفرس أية مساعدات تتعارض مع مصالحهما في المنطقة.

لقد شجعت هذه المكاسب التي حققها الإمام على مواصلة الجهاد لتحرير باقي المدن العمانية، وبخاصة بعد أن فقد البرتغاليون قائدهم في (مسقط) (ري فرير) الذي كان معروفاً بقدراته العسكرية.[2] ففي محرم عام ١٠٤٣هـ / أغسطس ١٦٣٣م كلف الإمام والي (لوى) (حافظ بن سيف) بالتوجه لقتال البرتغاليين في (صحار) وقبل البدء في ذلك أمره ببناء حصن حولها من جهة البحر وفي موقع متقدم هناك تمهيداً لشن هجوم عليهم، وقد حشد (حافظ بن سيف) قوة كبيرة من بني (خالد والعمور) وهم من أهل المناطق المجاورة (لصحار)، ووصلت هذه القوة إلى مشارف المدينة في الأيام الأولى من شهر أغسطس وعسكرت في مكان يقال له (البدعة) إحدى القرى التابعة (لصحار).[3]

---

1) (10R). E/3/14,1492 Letter sually to company 27th Jan 1633.

٢) بوكسر. س، ملاحظات جديدة عن الصلاة بين العمانيين والبرتغاليين، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٦، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ٢١٠.

٣) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٤٨؛ المؤلف مجهول، تاريخ أهل عمان، ١٣٦.

بدأ الحصار وأخذت القوات العمانية تشن بعض الهجمات المتفرقة وأخذ القائد العماني يعاني من بعض الخسائر الناجمة عن نيران المدفعية البرتغالية أثناء محاولة قواته اختراق تلك النيران، فتراجعت نتيجة ذلك القوات العمانية إلى الحصن الذي تم بناؤه، واستمرت المناوشات بين الطرفين لفترة طويلة.[1] وقد كان للمدافع التي وضعها البرتغاليون على أبراج القلعة تأثيرها البالغ في وقف زحف القوات العمانية.

وفي هذه الأثناء حاول الإمام - بعد أن تعذر عليه فتح (صحار) - حاول كسب الوقت ومشاغلة البرتغاليين في (مسقط) وحتى يكفّوا عن دعم قلعتهم في (صحار) فقام بفتح جبهة ثانية عند ضواحي (مسقط) حيث أرسل القاضي (خميس بن سعيد) ومعه قوة من رجال (اليحمد) وسارت هذه القوة حتى وصلت قرية (بوشر) على بعد سبعة أميال من (مسقط) حيث عسكروا هناك، وعندها استلم اقتراحات البرتغاليين بعقد هدنة وحدّدوا (مطرح) مكاناً تجري فيه المفاوضات،[2] ومن (بوشر) سار (خميس بن سعيد) إلى (مطرح) واجتمع مع المفاوضين البرتغاليين، وأدت تلك المفاوضات إلى عقد اتفاقية تقضي: بأن يوقف القتال بين الطرفين، أن يهدم البرتغاليون التحصينات التي أقاموها خارج أسوار (مسقط) وفي (مطرح) أيضاً، ضمان حرية التجارة في المناطق التي يسيطر عليها البرتغاليون وعدم تعرضهم لتجارة المسلمين.[3] ويتوسع (ابن رزيق) في هذا ويضيف الاستمرار والالتزام

---

١) ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢١٩؛ مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ٢٠٠.

٢) الأزكوري، كشف الغمة، ص ١٠٤.

٣) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٤٩؛ الأزكوري، كشف القمة، ص ١٠٤، السيابي، عمان عبر التاريخ، ج ٣، ص ٢٠٧.

بدفع الجزية،[1] كما يضيف (مايلز) على شروط الإتفاقية شرطاً يقضي بأن يرفع العمانيون الحصار عن قلعة (صحار) كما أنه يشير إلى أن الأمام لم يبعث القاضي (خميس بن سعيد) للقتال وإنما بعثه للتفاوض مع البرتغاليين حول شروط هدنه بينهما، أي أن العمانيين هم الذين طلبوا الصلح وليس البرتغاليين.[2]

ولم تشكّل المعاهدات التي كان يعقدها الطرفان عائقاً أمام استمرار عملية الجهاد، فقد أعدّ الإمام جيشاً كبيراً بقيادة (مسعود بن رمضان) وأمره بالتوجه إلى كل من (صور وقريات) إلى الجنوب من (مسقط) فحاصر هذا الجيش بلدة (صور) فشلّ قدرة البرتغاليين على مواصلة الحرب، ثم أجبرهم على إخلاء البلدة، توجه بعدها إلى (قريات) وحاصرها أيضاً مما إضطر البرتغاليين إلى التسليم والرحيل عن البلدة.[3]

وهكذا استطاع الإمام (ناصر بن مرشد) انتزاع هاتين البلدتين من أيدي البرتغاليين محققاً بذلك ضم معظم مناطق عمان الساحلية إلى سلطته باستثناء (مسقط ومطرح وقلعتي البرتغاليين في كل من صحار ودبا) وللوقوف

---

١) الفتح المبين، ص ٢٧٥.

٢) الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٩١؛ والواقع أن بعض الباحثين قد خلط بين معاهدتي ١٠٤٣هـ / ١٦٣٣م و ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م، فذكر المعاهدة الأولى التي أعقبت حصار (صحار) والتي أبرمها القاضي (خميس بن سعيد) على أنهاء الأخيرة في عهد الإمام (ناصر بن مرشد) ولم يذكر شيئاً عن الهجوم على (مسقط) عام ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م، ولاعن تحرير (صحار) عام ١٠٥٣هـ / ١٦٤٣م، ولاعن الهجوم الأخير في عهد الإمام (ناصر) على (مسقط)، ومعاهدة عام ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م، انظر: السيّار، دولة اليعاربة، ص ٥٦ - ٥٧.

٣) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٥١، السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٤١٤؛ الحمداني، دور عرب عمان في إقصاء البرتغاليين عن الخليج، ص ٢٧٧.

على حقيقة ذلك نورد ماذكره أحد الآباء الكرملين في تلك الفترة والتي تعكس صورة أكثر دقةً عن القوة النسبية لكلا الطرفين فقد كتب أحد الرهبان الذي وصل إلى (مسقط) عام ١٠٤٣هـ / ديسمبر ١٦٣٣م حيث قال: «لقد تبيّن لي أن كافة رعايا الإمام على خلاف مع البرتغاليين، وأن كل ساحل الجزيرة العربية في حالة حرب معهم، وأن العرب قد تمكنوا من استعادة أجزاء كبيرة من هذا الساحل. ولمّا وجد البرتغاليون أنفسهم عاجزين عن الاستمرار في الحرب، دخلوا في سلام مع العرب الذين أصبحوا سادة على جميع الأراضي المسترجعة، وانحصر نفوذ البرتغاليين على بعض القلاع القليلة الباقية.»[١]

ويجدر بالذكر أن الخسائر التي مني بها البرتغاليون قد تسببت في التخلي عن خطة كان الآباء الكرمليون ينوون القيام بها لنقل (المندائيين)[٢] من (البصرة) وإعادة توطينهم في الساحل العماني، ومنذ مطلع القرن الحادي عشر الهجري - السابع عشر الميلادي كان (المندائيون) محط إهتمام المنصرين الكرمليين، حيث كان يعتقد بأنهم نصارى، وأنهم والحالة هذه يمثلون تحدياً أمام المنصرين الذين كانوا عاقدين العزم على تخليصهم من طرق الهرطقة التي كانوا يتبعونها ومن ثم إصلاحهم، كما ذكر المنصرون أن هؤلاء كانوا يعانون في العقدين الثاني

---

1) the Carmelites, op.cit, vol, I, p.330.

٢) المندائيون Mondaens على الأرجح هم صابئة العراق، استوطنوا الجزء الجنوبي من بلاد مابين النهرين، وكانت عقيدتهم (النوستيكية Nosticisn) ممتزجة بالنصرانية واليهودية، وهم طائفة عرفوا أيضاً باسم (نصارى القديس يوحنا) و (النوستيكية) عقيدة غامضة تمثل الفكر والممارسة لفئات دينية متعددة، وقد سادت قبل مجيء النصرانية بقليل أو إبان المراحل المبكرة للنصرانية، وتميزت بإعتقاد أن المادة هي الشر وأن الخلاص في الحكمة المقصورة على الخاصة والمتعلقة بالروحانيات. انظر: لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ٦، ص ٣٤١٤.

والثالث من هذا القرن من مضايقات جيرانهم العرب.[1] وبعد عدة مراسلات مع (روما) تقرر إعادة توطينهم في مكان آخر، وقد تم اختيار منطقة (دبا) على الساحل العماني لهذا الغرض، وقد منحهم البرتغاليون أراضي خاصة لإقامتهم وتوطينهم فيها، وفي عام ١٠٤٣هـ / اكتوبر ١٦٣٣م أرسل عدة مئات منهم من (البصرة)إلى (دبا) ولدى وصولهم إلى (مسقط) علموا أن الأراضي التي منحهم إياها (نائب الملك البرتغالي) قد استردها العمانيون، لذا فقد نزل بعضهم في (مسقط) ورجع الباقون إلى (البصرة).[2]

والواقع أنه منذ الربع الأخير للقرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي شهد الخليج العربي نشاطاً ملحوظاً للبعثات التنصيرية الكاثوليكية، فقد جاء في عام ١٠١٣هـ / ١٦٠٤م إلى بلاد فارس ثلاثة من الآباء الكرمليين قادمين من (روما) منصرين وسفراء من لدن البابا (كليمنت الثاني) لدى بلاط الشاه (عباس) كما انشيء دير في (أصفهان) عام ١٠١٧هـ / ١٦٠٨م وآخر في جزيرة (هرمز) عام ١٠٢٢هـ / ١٦١٢م.[3] أما (الأغسطينيون) فقد كانوا نشطين قبل ذلك، إذ كانوا يقومون بدورهم تجاراً ومنصرين، وحتى قبل سقوط (هرمز) فإنهم كانوا يلقون مواعظهم على طول الساحل العماني، وبعد سقوطها، تراجعوا إلى (مسقط) و (البصرة) بينما استقر الكرمليون في بلاد فارس و (البصرة)، وقد كان للأوغسطينيين كنيستان في (مسقط) كما كان لهم أيضاً كنيسة في (صحار) وكذلك أديرة منتشرة في المواقع البرتغالية على طول الساحل العماني.[4] وهكذا

---

1) Bathurst, R.D., op.cit, p.93.

2) The Carmelites, op.cit, vol,I, pp.330-34.

٣) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ٦، ص ٣٤٢٠ - ٣٤٢١ - ٣٤٢٢.

4) Della Valle, p., op.cit, pp.232-37

وخلال عشر سنوات تقريباً من توليه إمامة عمان تمكن (ناصر بن مرشد) من طرد البرتغاليين من معظم أجزاء الساحل العماني، وأدت هجماته المتواصلة على المراكز والقلاع البرتغالية إلى تدهور معنوي كبير في أوساط حامياتهم، وكان بالإمكان إستغلال هذا التدهور والضغط على بقية قواعدهم وبخاصة في (مسقط)، إلاّ أن الإمام بدأ يواجه تطور واضطراب الأوضاع الداخلية المتمثلة بتجدد نزاعه مع (بني جبر) بزعامة (ناصر ابن قطن) والذي عرقل خطط الإمام وأجبره على توجيه اهتمامه للقضاء على تلك الإضطرابات كما سيأتي ذكرها.

ومايمكن ملاحظته خلال الفترة السابقة من جهاد العمانيين ماواكبه من ثورة عارمة في ساحل شرق إفريقية ضد البرتغاليين، وهي الثورة التي قام بها (يوسف) ابن حاكم (ممباسه) السابق، وقد مرّ بنا كيف استطاع قتل الحامية البرتغالية في المدينة واحتلال القلعة وتخريبها، ومن ثم أخذ بمحاربة البرتغاليين على طول ساحل شرق إفريقية، وتفاعلت شعوب الساحل مع تلك الحركة.[1] والشيء الذي يمكن قوله إنه لايستبعد أن تكون حركة (يوسف) وأهالي الساحل صدى لما كان يحدث للبرتغاليين في عمان، حيث لايستبعد أن الأهالي هناك تصل إليهم أخبار النجاحات التي حققها العمانيون ضد البرتغاليين في عمان، الأمر الذي شجعهم على الوقوف بوجه المستعمر ومحاربته.

---

١) انظر الفصل الأول، ص ١٥٧ – ١٥٨.

* تطور الأوضاع الداخلية واحتدام الصراع بين الإمام ناصر بن مرشد وبنو جبر :

اضطر الإمام (ناصر) إلى وقف جهاده ضد البرتغاليين، وذلك عندما بدأ يواجه تحدياً داخلياً جديداً، وهو تزايد هجمات بني جبر، وتدخلهم في الشئون العمانية، ومحاولة زعزعة بناء الوحدة الوطنيّة الذي لايزال هشاً - لاسيما أن البرتغاليين يدعمون تلك الحركات - لذا رأى الإمام (ناصر بن مرشد) أن تمادي الجبور وتدخلهم في الشئون العمانية يعرقل استمرار عمليات الجهاد، ورغم تأكيد المصادر العمانية أن قوات الإمام هي المنتصرة دائماً في نزاعه مع بني جبر، إلاّ أن التمحيص في تلك النصوص يظهر لنا أن الحرب كانت سجالاً وأن النصر كان يتأرجح بين الطرفين، وربما يرجع ذلك إلى أن الجبور قاموا بمناصرة خصوم الإمام وبدأوا يدخلون في التركيبة الطائفية لعمان.

لم يكن صراع الإمام ضد بني جبر من الامور السهلة، نسبة إلى كثرة أتباعهم من بدو وحضر بما فيهم بعض الهناويين، ومهما يكن من أمر فإن جبهة بني جبر بدأت تضعف لأنها منذ البداية لم تقف جبهة واحدة ضد الإمام (ناصر بن مرشد)، حيث أدى مقتل الشيخ (محمد بن جيفر الجبري) - كما أسلفنا - ووقوف قوات (ناصر بن قطن الجبري) إلى جانب قوات الإمام ضد الشيخ (سيف بن محمد بن جيفر) في بلدة (لوى) أدى إلى ضعفها[1].

إن نجاح الإمام (ناصر) في إخضاع كتلة الجبور التي تنحصر مشيختها في أولاد (جيفر بن علي بن هلال الجبري) قد جعله - فيما يبدو - يعيد النظر في علاقاته مع كتلة الجبور التي كانت تعيش في الأحساء، وتنحصر مشيختها في أولاد (قطن بن علي بن هلال الجبري) ومن المحتمل أنه قد

---

١) انظر صفحة (١٩٨) من هذا الفصل.

أراد أن يعاملها كتابعة له وليست حليفةً له، وهذا قد يكون السبب الرئيس الذي أوجد الخلاف بين شيخ هذه الكتلة (ناصر بن قطن الجبري) وبين الإمام بعد أن كانا قد تحالفا فيما بينهما كما مرّ بنا.[1] فلقد فضل الإمام (ناصر) أن يكون الجبور تابعين لسلطة الإمامة المركزية في عمان وليس كحلفاء، وفي اعتقادي أن نظرة الإمام تلك كان لها مايبررها من حيث تحقيق الهدف الأسمى وهو جهاد البرتغاليين، فإذا عاملهم الإمام كحلفاء فإن هذا الحلف سيقوم على أساس مصلحي وهذا ماتجنبه الإمام (ناصر)، حيث دأب الجبور على التدخل في الشئون العمانية انطلاقاً من مصالحهم، وهذا حسب وجهة نظر الإمام (ناصر) - على ما أعتقد - أنه سيؤدي إلى الإضرار بسياسة الجهاد المنتظرة ضد البرتغاليين، ولذا فإنه يتعين عليه إخضاعهم بشتى السبل الممكنة أو كسر شوكتهم، وهذا ماجعل فترة صراعه معهم تطول.

إن الصراع الذي خاضه الإمام (ناصر) ضد (ناصر بن قطن الجبري) كان طويلاً وقاسياً، فالشيخ (ناصر بن قطن) كان له نفوذ واسع في منطقتي الظاهرة والظفرة في شمال عمان، وكانت تسانده قبائل كثيرة من بينها (بنوياس) ومن قاعدته في الأحساء التي كانت في مأمن من وصول قوات الإمام (ناصر) إليها، كان يشن هجماته على داخلية عمان في كل سنة،[2] ويحمل مايستطيع حمله من إبل ومواشٍ وأموال، ويقتل من يتصدى له، وأن يحاول في كل هجماته استرجاع مافقده من حصون في منطقة الظاهرة، لكنه

---

١) الأزكوري، كشف الغمة، ص ١٠١؛ ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢١٥؛ الحميدان، نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية، ص ٢١٨.

٢) المرجع نفسه، ص ٢١٩.

لم ينجح في ذلك إلاّ في فترات قصيرة.[1]

لقد بذل الإمام (ناصر بن مرشد) جهوداً كبيرة لإضعاف هجمات (ناصر بن قطن) وذلك بهدم حصن (الجو) في الظاهرة والبريمي، التي كان يتحصن فيها، إلاّ أن ذلك لم يجد نفعاً، لأن (ناصر بن قطن) لجأ إلى محاولة الاستفادة من البرتغاليين في (صحار)،[2] فذهب إليهم عندما ضايقته قوات الإمام بقيادة (عبدالله بن محمد) الذي جاء على رأس جيش كبير من (نزوى) فأخذ (ناصر بن قطن) يهاجم منطقة الباطنة إلى الشمال من (صحار)، ويقطع الطرق ويغير على القرى، ويعاقب القبائل التي ساندت قوات الإمام هناك،[3] وفي إحدى هجماته تلك على (لوى)، تصدت له قوات الإمام وأوقعت به هزيمة كبيرة ساهمت في الحد من نشاطه،[4] ولعل لجوء (ناصر بن قطن) للبرتغاليين في (صحار) وطلب المساعدة منهم، إضافة إلى مايثيره من رعب للسكان في القرى والمدن من جراء هجماته الخاطفة والمتكررة وسلب المواشي والأموال، جعل الإمام (ناصر) يلقي بثقله ضده ويصمم على كسر شوكته أو القضاء عليه، ومن المحتمل أيضاً أن الإمام (ناصر) قد أدرك خطورة تفاهم وتعاون الجبور والبرتغاليين ووقوفهم جبهة واحدة ضد الإمام بحيث يصبحوا قوة يصعب عليه مواجهتها.

لذا لجأ الإمام (ناصر بن مرشد) إلى اتّباع خطط متغيّرة من أجل منع هجمات الجبور وشيخهم (ناصر بن قطن)، فبالإضافة إلى ماقام به من هدم

---

١) الحميدان، نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية، ص ٢١٩.

٢) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٥٣.

٣) المصدر نفسه، ص ٥٣.

٤) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ٢٠٠.

لحصونهم في الظاهرة من عمان، والإغارة على معاقلهم في (البريمي) لجأ أخيراً إلى تكوين قوة كبيرة مهمتها مواجهة أي هجوم مباغت يقوم به الجبور، غير أن ذلك لم يحقق للإمامة ماتصبو إليه[1] رغم أن عدداً من المعارك قد جرت بين الطرفين وسقط فيها عدد من القتلى، وأشهرها موقعة (الخروص) والتي تعرضت فيها قوات الإمام لكارثة كبيرة،[2] بعدها إهتدى الإمام (ناصر) إلى استراتيجية جديدة تجاه شيخ الجبور (ناصر بن قطن) وهي مباغتتهم خلال موسم رعي إبلهم ومواشيهم في منطقة الظاهرة والظفرة يسانده في ذلك قوات من الجبور أنفسهم بزعامة (عمير بن محمد بن جيفر)، إلاّ أن تلك الخطة لم تأت بالنتائج المرجوة منها، بل أنها أثارت (ناصر بن قطن) بحيث جعلته يكثف من هجماته تجاه مناطق عمان الشمالية لدرجة دفعت بسكان تلك المنطقة بالنزوح إلى مناطق أكثر أمناً.[3] وعلى الرغم من أن أمراء وحكام عمان السابقين على مدى قرن ونصف قرن من الزمان اعتادوا على كسب ود الجبور بالمال مقابل عدم اعتدائهم على المزروعات ومهاجمة القرى العمانية، إلاّ أن الإمام (ناصر بن مرشد) رفض الإقرار لهم بهذا الحق، وتطلّع لإخضاعهم لسلطته رغم تلميح شيخهم (ناصر بن قطن) له بذلك مع إشعاره له بقوة الجبور وسطوتهم.[4] ويبدو الإمام (ناصر) بذلك أكثر إدراكاً من غيره بخطورة التسليم ببعض مطالب الجبور وبخاصة في هذه الفترة التي قطع فيها شوطاً في سبيل توحيد عمان، وتطلّعه إلى تخليص الساحل العماني من الوجود البرتغالي، ويعني التسليم ببعض مطالب الجبور بالنسبة للإمام (ناصر) التنازل عن الخط الصلب والحازم

---

١) السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ١٤ - ١٥؛ مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ٢٠٠.

٢) ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٥٥.

٣) المصدر نفسه، ص ٥٨، ٥٩؛ المؤلف مجهول، تاريخ أهل عمان، ص ١٣٩ - ١٤٠؛ الحميدان، نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

٤) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ٢٠١؛ الحميدان، نفوذ الجبور، ص ٢٢١.

الذي انتهجه في مرحلة التوحيد مما قد يدفع بعض القبائل العمانية المطالبة ببعض التنازلات أيضاً، إضافة إلى أن الجبور في عمان في تلك الفترة على الأقل كان لديهم الإستعداد لتوظيف قدراتهم لعدد من القوى بما فيها البرتغاليين، وهذا هو مبعث إصرار الإمام (ناصر) على إخضاعهم أو كبح جماحهم، وفي تقديري أيضاً فإنه من المحتمل أن العامل المذهبي كان قد لعب دوراً في صراع الإمام (ناصر بن مرشد) مع شيخ الجبور (ناصر بن قطن) ضمن بقية العوامل الأخرى، حيث إنه من المحتمل أن (ناصر بن قطن) واتباعه وهم سنيو المذهب، لايروق لهم الخضوع لسلطة إباضيّة.[1]

إن الإمام (ناصر بن مرشد) لم يستطع كسر شوكة الجبور إلاّ بعد صراع مرير كلف الإمامة الإباضية غالياً، ومهما يكن من أمر فإن توقف هجمات زعيم الجبور (ناصر بن قطن) على عمان، ثم النهاية التي انتهى إليها، هما مسألتان يكتنفهما الغموض، فا (ابن قيصر) مؤلف سيرة الإمام والمعاصر للأحداث يذكر أن جنود الإمام تمت إبادتهم جميعاً من قبل جيش (ناصر بن قطن) في آخر موقعة بينهما، لكنه لم يذكر عن (ناصر بن قطن) شيئاً أو كيف انتهى،[2] أما (الأزكوري والسالمي) فيذكران أن شيخ الجبور

---

١) مايرجّح أن هذا العامل قد ساهم ضمن العوامل الأخرى المختلفة في حدة النزاع بين الإمام (ناصر بن مرشد) وبني جبر، أن الجبور كانوا من أقوى وأكبر القبائل التي انضمت إلى التجمع الغافري الذي كان يضم معظم قبائل أهل السنة تقريباً ضد التجمع الهناوي الذي معظم قبائله تقريباً على المذهب الأباضي وذلك إبان الانشطار القبلي في المجتمع العماني في أواخر عهد دولة اليعاربة في عمان.

لمزيد من التفصيل انظر: الأزكوري، كشف الغمّة، ١٢٣ - ١٣٧؛ المعولي ابي سليمان محمد بن عامر، قصص وأخبار جرت في عمان، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط بدون تاريخ، ص ١٢٣ ومابعدها؛ الحميدان، نفوذ الجبور، ص ٢٢٤.

٢) سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٦٠.

هذا كان قد انسحب إلى الأحساء بعد أن أحرز انتصاراً كبيراً على قوات الإمام في آخر هجوم شنّه على عمان ولم يسمع به بعدها،[1] ومن ناحية أخرى فإن (ابن رزيق) يذكر بأن جيش الإمام هو المنتصر وأنه أفنى قوات الجبور وذلك في آخر هجوم شنوه على عمان، وأما مصير شيخهم (ناصر بن قطن) فإن (ابن رزيق) سكت عنه في (الفتح المبين) لكنه ذكر في (الشعاع الشائع باللمعان) بأنه قد قتل في المعركة، وأنه بمقتله عم الأمان والسرور ربوع عمان.[2] وفي اعتقادي أن توقف هجمات (ناصر بن قطن الجبري) على عمان ربما تعود إلى افتقاره للمؤيدين له من بين القبائل العمانية التي آثرت الخضوع لسلطة الإمامة، ومن بينها بعض بني جبر الذين يقطنون عمان، ولذا فإنه من المحتمل أن (ناصر بن قطن) أدرك أن صراعه مع الإمامة الإباضية سيكون خاسراً في النهاية طالما أنه لم يلق تأييداً من تلك القبائل وبخاصة التي تقطن داخل عمان، حيث إن صراعه مع الأمامة يدور في الأطراف الشمالية من عمان، وإضافة إلى ذلك فإنه من الملاحظ أن بني جبر لايكون لهم دور مؤثر في داخل عمان إلاّ عندما تكون الإمامة ضعيفة، ولكن عندما تكون الإمامة قوية ومتماسكة فإنه يتعذر عليهم التدخل المباشر

---

1) كشف الغمة، ص ١٠٦ - ١٠٧؛ تحفة الأعيان ، ج ٢، ص ١٧.

2) الفتح المبين، ص ٢٧٩؛ الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢٢٦؛ ويجدر الذكر أن المصادر العمانيّة لاتعطي أية تواريخ لصراع الإمام (ناصر بن مرشد) مع بني جبر بزعامة (ناصر بن قطن الجبري)، بل أنها لاتورد أي تاريخ للفترة الواقعة بين الحصار الذي لم ينجح على (صحار) عام ١٠٤٣هـ / ١٦٣٣م وبين وفاة الإمام (ناصر) عام ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م، وبينما تذكر المصادر الأوربيّة هجوماً شنه العمانيون على (مسقط) عام ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠ م إلاّ أنه لاتوجد أية معلومات عن أنشطة الإمام (ناصر) ضد البرتغاليين خلال الفترة من ١٠٤٤هـ / ١٦٣٤م إلى ١٠٤٩هـ / ١٦٣٩م، ومن هنا فإنه من المرجح أن صراع الإمام مع بني جبر بقيادة (ناصر بن قطن) قد وقع خلال هذه الفترة، ومن المؤكد أنه حدث قبل الهجوم على (مسقط) عام ١٠٥٠هـ /١٦٤٠م، وكذلك قبل طرد البرتغاليين من (صحار) عام ١٠٥٣هـ / ١٦٤٣م كما سيأتي ذكره.

في الشؤون العمانية، وهذا ربما يكون السبب الذي أدى إلى توقف هجماته (ناصر بن قطن) وانزوائه في الأحساء.

إن توقف هجمات الجبور على عمان جعل (الإمام ناصر بن مرشد) يتنفس الصعداء لزوال التهديد المستمر لنفوذ الإمامة والمنبعث من بني جبر بزعامة (ناصر بن قطن الجبري) أخطر خصومه وأصلبهم عوداً وأكثرهم نشاطاً، حيث بدأ يتفرغ لشئون دولته، وكان بديهياً الآن أن يلقي بثقله لجهاد البرتغاليين.

والواقع أن صراع الإمام (ناصر) مع بني جبر قد أعطى الفرصة للبرتغاليين بأن يستردوا بعض ماخسروه قبل ذلك، وبخاصة (صور وقريات) كما أعادوا سيطرتهم على بعض المواقع والممرات الإستراتيجيّة حول (مسقط) ويبدو - كما ذكر المؤرخ البرتغالي (سوزا Sousa) - أنهم نعموا خلال تلك المدة بفترة من الراحة وبتأجيل المواجهة مع قوات الإمام، تم خلالها إجراء بعض الإصلاحات والترميمات لقلاع (مسقط) والمعاقل الأخرى.[1]

---

1) op.cit, vol.III, p.404.

* تجدد الجهاد العماني والهجوم على مسقط وتحرير صحار
١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م - ١٠٥٣هـ / ١٦٤٣م

بعد توقف هجمات الجبور بزعامة (ناصر بن قطن) على عمان، وتثبيت الأمن في داخلية عمان، عاود الإمام (ناصر بن مرشد) جهاده ضد البرتغاليين، ففي مطلع عام ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م أبلغ بعض العرب الذين يعملون في جمارك (مسقط) أبلغوا الإمام (ناصر) أن المدينة خالية من الجنود البرتغاليين نظراً لذهاب عدد كبير منهم في مهمة بحرية، وبأن القلاع ليست محمية حماية كافية، لذا فقد قام الإمام بشن هجوم مباغت على المدينة ولكن البرتغاليين صدوا الهجوم وتكبد جيش الإمام خسائر كبيرة.[1] ويذكر (مايلز) أن النجاح الذي حققه البرتغاليون في صد الهجوم العماني على (مسقط) وتكبيد جيش الإمام خسائر كبيرة قد ضاعف من ابتهاجهم ورفع معنوياتهم.[2] وباعتقادي أن الإمام قد تعجّل بالهجوم على (مسقط) ظناً منه أن الأمر هين لاسيما أن الجراح من جراء الحركات الداخلية وصراعه مع بني جبر لم تلتئم بعد، ومع ذلك فإنه بات من المحتم على البرتغاليين أن يتلقوا الهجمة تلو الأخرى، وأن تستمر هذه الهجمات إلى أن يتم طردهم من جميع مواقعهم على الساحل.

دفع هذا النجاح الذي أحرزه البرتغاليون على جيش الإمام في (مسقط) دفعهم إلى بذل الجهود لتشجيع ودعم الإنشقاقات الداخلية، حيث قاموا بدعم حركة (سيف بن محمد بن جيفر الجبري) والذي كان يسيطر على (لوى) قبل إخراجه منها، فقد قام المذكور تساعده قوة برتغالية بالإغارة على قرية (عمق) إلاّ أن قوات الإمام بقيادة (مداد بن هلوان) صدت الهجوم

1) Denvers, F., op.cit, vol, II, p.273

٢)ـ الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٩١.

وأجبرته على التراجع إلى (صحار).[1]

شجعت هذه الحادثة الإمام على مواصلة القتال ومحاولة طرد البرتغاليين من (صحار) الذي أصبحت مأوىً لأعداء الإمامة وحلفاء البرتغاليين سواء من العمانيين أو من بني جبر، ففي عام ١٠٥٣هـ / ١٦٤٣م أعدّ الإمام جيشاً كبيراً قاده بنفسه وتوجه إلى (صحار)، حيث قام بملاحقة المتمردين، ثم أتبع ذلك بحصار القلعة البرتغالية، وبعد مقاومة غير مجدية استسلمت حاميتها تحت ضغط الحصار، وكان الاستسلام في نوفمبر من العام نفسه، وقد قتل في أثناء الحصار عدد من البرتغاليين وأسر آخرون.[2]

---

١) العابد، تحرير ساحل عمان وانهيار الامبراطورية البرتغالية في الشرق، ص ٤١.

2) (10R). I/3/139, Documentos, 48., fol 290, p.5, Letter Viceroy to the king 15th February 1644;

The Carmelites, op.cit, vol, I, pp.356-8;

لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ٢، ٦٣٥؛ اندرويليامسون، صحار عبر التاريخ، ترجمة محمد أمين عبدالله، سلسلة تراثنا، وزارة التراث والثقافة بعمان، العدد الثاني، مسقط ١٩٧٩، ص ٥٥؛ ومن الجدير بالذكر أن المصادر العمانية لم تذكر لنا شيئاً عن فتح (صحار) رغم أهميتها وأهمية هذا الفتح، باستثناء (ابن رزيق) في (الشعاع الشائع باللمعان) والذي ذكر أنه بعد أن سلمت عمان من (ناصر بن قطن) وانطفأ الشر، ونما لعمان السرور ، إلى أن قال بعد ذلك «وقد خلص بعد ذلك للإمام حصن صحار من يد النصارى بالحصار.» ص ٢٢٦. وقد أشارت بعض الكتابات لبعض الباحثين إلى أن (ابن قيصر) مؤلف سيرة الامام (ناصر بن مرشد) قد أشار إلى فتح (صحار) بإيجاز، ولكن ذلك غير صحيح لأن (ابن قيصر) انتهى من تأليف كتابه في محرم عام ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م كما أشار هو نفسه بذلك وأشار محقق المخطوط أيضاً بذلك، أي قبل معركة تحرير (صحار) بثلاث سنوات، وربما عدم تمكن (ابن قيصر) من كتابة ذلك أو كتابة نشاط الإمام بعد هذا التاريخ يعود لكبر سنه أو لوفاته، كما أن ذلك قد يكون هو السبب الذي جعل المصادر العمانية الأخرى لاتذكر هذه الحادثة حيث أنها في الغالب تأخذ عنه. انظر: ابن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٧.

لقد كشف تحرير (صحار) عن مدى الصعوبات التي كان يواجهها البرتغاليون للمحافظة على مواقعهم في الساحل العماني، كما كشفت أيضاً عن مدى عزم وتصميم العمانيين في تطهير أراضيهم وتحريرها، ويتضح ذلك من الرسالة التي بعث بها (نائب الملك البرتغالي بالهند) إلى (الملك) في عام ١٠٥٤هـ / فبراير ١٦٤٤م أي بعد سقوط (صحار) مباشرة حيث قال فيها: «لقد إزداد نشاط الإمام حول مسقط والمواقع البرتغالية الأخرى، فقد تم له دخول قلعة صحار والتي كانت تتميز بوجود حامية قوية فيها، ولكن ذلك لم يجد نفعاً في إنقاذها، فقد قتل عدد من جنودنا، لذا فإنه من الضروري إرسال (نجدة) إلى مضيق عمان بأكثر مما تم إرساله حتى الآن وإرسال أكبر عدد من الجنود الذين يمكن توفيرهم وبأي وسيلة.»[1] إن تحرير (صحار) فتح الطريق لطرد البرتغاليين من كافة أجزاء الساحل، بل إن الوجود البرتغالي بعد ذلك إنحصر في (مسقط) وفي بعض التحصينات والمواقع القليلة على الساحل العماني.

لقد أعطت استعادة (صحار) والتي هي ميناء رئيس في تلك الفترة أعطت الفرصة لتنمية اتصالات تجارية طبيعية لعمان مع المناطق والأمم الأخرى، فتنمية وتطوير (صحار) كمركز تجاري سيؤدي إلى إرباك البرتغاليين في (مسقط) فهو من الممكن استعماله كمنفذ للتجار العمانيين ليقوموا بالتجارة لحسابهم الخاص، أو كمكان لالتقاء السفن الأوربية الأخرى والهندية التي تريد أن تتاجر أو أن تبادل حمولتها من البضائع.

وبعد تحرير (صحار) أصبح الإمام (ناصر) في نظر القوى الأجنبية الأخرى في المنطقة وبخاصة الانجليز والهولنديين أكثر من مجرد زعيم

---

1) (10R). I/3/139. Documentos, 48, Fol.290, pp.5-6.

قبلي، بل بدأوا ينظرون إليه على أنه شخص ذو نفوذ قوي، وقد كان الإمام (ناصر) مدركاً لهذه الناحية، حيث وجه الدعوة عام ١٠٥٥هـ / ١٦٤٥م، إلى الإنجليز ليمارسوا التجارة رسمياً في (صحار).[١]

لقد أبدت رئاسة الشركة الانجليزية موافقتها للتعامل مع الامام (ناصر) واضعة في اعتبارها الحصول على قاعدة لها في ساحل عمان، وقد تم إرسال (فيليب وايلد Philip Wylde) عام ١٠٥٦هـ / يناير ١٦٤٦م إلى (صحار) للتفاوض مع الإمام على عقد اتفاقية للصداقة والتجارة، وقد تم التباحث بين الجانبين، ودار النقاش حول بنود الاتفاقية المقترحة والتي يحملها (فيليب وايلد) والتي اشتملت بنودها على السماح للإنجليز بتجارة شاملة وحرة دون أي قيود ضمن الأراضي الخاضعة لسلطة الإمام، واعفائهم من الجمارك، والسماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية، وكذلك السماح لهم بحمل أسلحتهم.[٢] ولايعلم هل وافق العمانيون على الشروط الإنجليزية المقترحة وتم التوقيع على الإتفاقية أم لا، ففي الوقت الذي تشير فيه المصادر الانجليزية إلى هذه الاتصالات وإلى الشروط المقترحة لعقد الاتفاقية، إلا أنها لم تتطرق إلى الاتفاق النهائي بين الطرفين هل تم

---

1) (10R). E/3/19,. 1962, Lettr Gombron to surat 16 Nov 1645;
جمال قاسم، الخليج العربي، ص ١٠٩.

2) (10R). E/3/19. 1978, Letter Philip wylde to surat 19th February 1646
يذكر بادجر Badger في معرض تحليله في كتابه (أئمة وسادة عمان) بأن (صحار) قد احتفظ بها البرتغاليون حتى وقت متأخر، وأن الإنجليز ربما دعوا إلى (صور) وليست (صحار)، ولكن نص (سليل بن رزيق) الذي ترجمه (بادجر) وحققه يشير إلى أن (مسقط) فقط كانت في أيدي البرتغاليين ولم يذكر (صحار). والواقع أن (بادجر) كان مخطئاً لأن سقوط (صحار) مثبت في المصادر البرتغالية وفي مصادر الكرمليين، وهكذا فإنه من الثابت أن الإنجليز تم دعوتهم إلى (صحار) وليس إلى (صور)، كما أشارت بذلك المصادر الانجليزية. انظر: Badger, G. op.cit, p.15

أم لا، وفي الوقت نفسه فإن المصادر العمانية لاتشير إلى ذلك من قريب ولا من بعيد، ولكن هناك من يشير إلى أنه تم التوقيع على تلك المعاهدة عام ١٠٥٦هـ / فبراير ١٦٤٦م بين الطرفين، ويعزى عدم العمل بها إلى أن الانجليز لم يجدوا أي حافز لوضعها موضع التنفيذ، ولعل ذلك بسبب التدهور الواضح للتجارة الإنجليزية في الخليج العربي أمام اتساع نفوذ ونطاق التجارة الهولندية.[١]

ومهما يكن من أمر فإن مجرد اتصال العمانيين بالقوى التي خارج عمان يعد انطلاقة عهد جديد من الاتصالات التجارية العمانية مع العالم الخارجي، وكما شجعتهم هذه الترتيبات التجارية المستقلة على طرد البرتغاليين نهائياً من الساحل العماني، فالعمانيون ظلوا عرضة لبعض القيود طالما بقي البرتغاليون قادرين على تشغيل أسطولهم من الساحل العماني، إضافة إلى أنه لايمكن تحويل كل التجارة عن (مسقط) ومن ناحية أخرى فإنه بالرغم من أن الاتفاقية بين الإمام (ناصر) والإنجليز لم يكن لها أثر فعّال سواء من الناحية التجارية أو العسكرية إلاّ أنها أعطت الإمام دفعاً معنوياً واعترافاً به من قوة أجنبية.

بعد تحرير (صحار) أرسل الإمام قوة إلى (خورفكان) والتي تمت محاصرتها ومن ثم تحريرها بعد أن ظلت تحت السيطرة البرتغالية مدة طويلة، وبعد ذلك قام الإمام (ناصر بن مرشد) بتعيين ابن عمه (سلطان بن سيف الأول)[٢] قائداً عاماً لجيوش الإمامه، وكان قد كلفه قبل معركة تحرير

---

١) جمال قاسم، الخليج العربي، ص ١١٠.

٢) هو الإمام سلطان بن سيف بن مالك بن بلعرب بن سلطان بن مالك بن أبي العرب بن محمد بن سلطان بن حمير بن مزاحم اليعربي اليمني الحميري الأزدي الأباضي، وهو ابن عم (ناصر بن مرشد)، وخليفته في الحكم، تم انتخابه على أساس الكفاءة وليس

(صحار) بإستعادة (صور و قريات)[1] واللتين سبق أن استعادها البرتغاليون في أثناء انشغال الإمام بإخماد حركة (ناصر بن قطن الجبري). [2] وعليه فلم يبق للبرتغاليين من مواقع على الساحل العماني سوى (مسقط و مطرح والحصنين البرتغاليين في كل من قريات ودبا).

على أساس الوراثة، تولى الحكم بعد وفاة الإمام (ناصر بن مرشد) ، واستمر حكمه حوالي ثلاثين عاماً، كان له الفضل في طرد البرتغاليين من بقيّة أجزاء الساحل العماني، ومن ثم تتبعهم وجهادهم في الهند وشرق إفريقيه، كما قام بإصلاحات كثيرة في عمان وبخاصة في المجالين العمراني والزراعي وعم الأمان والرخاء في عهده ربوع عمان. لمزيد من التفصيل انظر: ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٩٠.

١) من غير المحتمل أن يكون العمانيون قد استعادوا (قريات) أو على الأقل الحصن البرتغالي فيها، فقد ورد تخلي البرتغاليين عن (قريات) كشرط من شروط هدنة عام ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م والتي سيأتي ذكرها، كما تشير بذلك اتفاقية الهدنة التي عقدت بين الطرفين، انظر: الملحق رقم (٢-أ)

٢) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ٢، ص ٦٣٥، حنظل، المفصل في تاريخ الإمارات العربية، ج ١، ص ٧٦.

* الهجوم الكبير على مسقط ووفاة الإمام ناصر بن مرشد ١٠٥٩ هـ / ١٦٤٩م :

بعد إسترداد (صحار) كان من الطبيعي أن تتجه أنظار الامام إلى (مسقط) قاعدة الارتكاز البرتغالي، فبدأ التحرش بهم في مطلع عام ١٠٥٧هـ / ١٩٤٧م عندما حثّ الإمام العرب المقيمين حول المدينة بشن هجمات عليها، وأصبحت بذلك (مسقط) كما ذكر الكرمليون هدفاً لحرب مرعبة حيث هوجمت وحوصرت من قبل جيرانها العرب.[١] وكان ذلك تمهيداً لشن هجوم رئيس على المدينة.

بدأ الهجوم الكبير على (مسقط) في عام ١٠٥٨هـ / أغسطس ١٦٤٨م، عندما ندب الإمام (ناصر) العمانيين للجهاد من كافة أنحاء البلاد، فرغم كبر سنه وضعف نشاطه فقد أعد جيشاً كبيراً تحت قيادة (مسعود بن رمضان، وسعيد بن خلفان) والجميع تحت إشراف القيادة العامة (لسلطان بن سيف)، وتوجه هذا الجيش إلى (مسقط) وفرض حصاراً محكماً عليها من السادس عشر من أغسطس إلى الحادي عشر من سبتمبر، حيث بدأت ذخيرة البرتغاليين بالنفاذ، ونجح العمانيون خلاله من انتزاع بعض التحصينات المهمة حول المدينة.[٢]

---

1) The Carmelites, op.cit, vol,I, p.358.

2) (10R).I/3/140, Documentos, 59, Fols, 68-70

محضر اجتماع القيادة البرتغالية في (مسقط) لمناقشة مقترحات التفاوض مع امام عمان في ١٢/١١ سبتمبر ١٦٤٨م؛

Denvers, F., op.cit, vol.II, p.296;

ولسون، تاريخ الخليج، ص ١٢١ - ١٢٢.

وفي سبتمبر اضطر البرتغاليون إلى الانسحاب من مواقعهم الأمامية في (ريام) و (كلبوه) والممر المؤدي إلى (سيداب) وفي ذلك اليوم عقد القائد البرتغالي (دوم خولياو دا نورنها Dom Juliao Da Noronha) اجتماعاً مع أعضاء المجلس الحاكم، واتخذ قراراً بمنح مراقب الحسابات والخزانة (فالنتين كوريّا Velentin Correa) صلاحيات إضافية لتمكينه من إجراء مفاوضات مع العمانيين، وذلك لكسب الوقت نظراً لتأخر وصول الدعم والذخيرة من (جوا) والذي كان يحول بينهم وبين الصمود لفترة طويلة، وهم يأملون من إجراء المفاوضات تخفيف زخم الهجوم العماني ريثما تصل قوات النجدة وتمكنهم بالتالي من استرداد أية تنازلات يمكن اعطاؤها للعمانين في أثناء المفاوضات.[1]

بعد ذلك طلب البرتغاليون فتح باب المفاوضات، إلاّ أن العمانيين فرضوا شروطاً صعبة في نظر القائد البرتغالي (دانورنها) الذي رفضها، فتجدد القتال وساءت حالة البرتغاليين المحاصرين، وانتشرت الأوبئة بينهم، واستمر ضغط العمانيين بإصرار متزايد على البرتغاليين تمكنت القوات العمانية خلاله من الاستيلاء على المرتفعات المشرفة على القلعتين الكبيرتين (الميراني - الجلالي)[2] واستمر الضغط لعدة أيام،

---

1) (10R).I/3/140, Document s, 59, Fols, 68-70;

لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ٢، ص ٦٣٥.

٢) تقع قلعة (ميراني) إلى الغرب من (مسقط) أنشأها البرتغاليون عام ٩٩٦هـ / ١٥٨٧م على يد القائد البرتغالي (بلكوير Belchair) في مكان القلعة التي كان قد بناها القائد البرتغالي (دون جوا Don Jooe) اللشبوني عام ٩٢٩ / ١٥٢٢، والتي هدمها القائد العثماني (بيرى ريس) في إحدى الحملات العثمانية على (مسقط) وهي من القلاع الحصينة، أما قلعة (الجلالى) فتقع في مقابلة (ميراني) في الجهة الشرقية من (مسقط)، وقد تم بناؤها بعد قلعة (ميراني) بعام واحد عام ٩٩٧هـ / ١٥٨٨م، ويرجع سبب بناء هاتين القلعتين إلى أنه عندما عاود العثمانيون مهاجمة (مسقط)

ووجد القائد البرتغالي نفسه مضطراً إلى عقد جولات من المفاوضات مع العمانيين يتم خلالها مناقشة بنود الهدنة المقترحة من الطرفين[1]

وعلى مدارسته أسابيع استمرت المفاوضات والقتال معاً وبشكل متقطع حتى الثلاثين من اكتوبر، حيث جرى التوقيع على اتفاقية الهدنة في (ريام) بين كل من (سلطان بن سيف اليعربي) القائد العام للقوات العمانية، والشيخ (سيف بن علي النزوي وراشد بن سالم وعلي بن عبدالله) ممثلين عن الجانب العماني، وبين (خلياؤ دانورنها وفالنتين كورّيا، ومانويل فارللا Manuel Varella، وانتونيو برابوزا Antonio Barbosa) ممثلين عن الجانب البرتغالي، وقد تعاقد الجانبان على أنه يجب المحافظة على السلام قوياً وثابتاً، وأن يستمرا في المحافظة عليه في جوٍ من الصداقة والاستقرار،

والمواقع البرتغالية على الساحل العماني عام ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م لم يجد البرتغاليون في (مسقط) بداً من أن يطلبوا من نائب الملك في (جوا) بالهند الإذن لهم ببناء قلعتين كبيرتين في (مسقط) للدفاع عنها وتزويدهما بكل ماتحتاجانه من وسائل الدفاع والحراسة فلما وافق أنشؤوا هاتين القلعتين، وقد اهتم البرتغاليون إهتماماً خاصاً بهما، ومنذ انشائهما أخذت تتوالى عليهما التجديدات والترميمات والإضافات، ففي عام ١٠١٩هـ / ١٦١٠م أقام البرتغاليون برجاً كبيراً على مستوى البحر بقلعة (ميراني)، وقد لعبت هاتان القلعتان دوراً كبيراً في خدمة الأهداف البرتغالية. أما الآن فإن قلعتي (ميراني، جلالي) فتتكون أسلحتهما من مدافع وبنادق بارودية قديمة تستعمل للتحية فقط. انظر: أريكو. د. أ، المباني التاريخية في عمان منذ القرن السادس عشر، ص ٢٢٥ - ٢٥٦؛ سعاد ماهر، الإستحكامات الحربية بسلطنة عمان، ص ٢٠٥، ٢٠٦.

1) (104). I/3/140, Documents, 59, Fols, 68-70;

لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٢، ص ٦٣٥؛ جمال قاسم، أثر الاستعمار الأوربي في تفكيك الروابط بين الخليج وشرق إفريقية، مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية، ج ٢، الدوحة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، ص ٨١٠؛ الداود، العلاقات البرتغالية مع الخليج، ص ٢٥٣.

وجرى التوقيع على الهدنة التي نصّت بنودها على: هدم القلاع البرتغالية في (قريات ودبا ومطرح)، كما يهدم العمانيون الحصن الذي بنوه حديثاً في (مطرح)، تنسحب القوات البرتغالية والعمانية المتمركزة في (مطرح) ليظل هذا المكان خالياً من قوات الطرفين ومحايداً في المستقبل، وكذلك حرية الملاحة للسفن العمانية والعربية وعدم خضوعها للتفتيش مع استمرار حصولها على تصريح بذلك من البرتغالين ولكن في رحلة العودة فقط، إعفاء العرب من دفع الضرائب الشخصية والتجارية عند دخولهم (مسقط) أو خروجهم منها، كما تكون التجارة حرة طليقة في هذه المنطقة لمختلف الأجناس، كما نصت بنود الهدنة أيضاً على أن يمتنع البرتغاليون عن إقامة أية تحصينات خارج (مسقط) مع امتناعهم عن القيام بأية أعمال عدوانية ضد رعايا الإمام.[١] ويضيف بعض الباحثين بنداً آخر هو: أن يتعهد البرتغاليين بدفع جزية سنوية للإمام نظير بقائهم في (مسقط).[٢]

والواقع أن تعهد البرتغاليين بدفع الجزية للعمانيين في أثناء

---

1) (10R). I/3/140, Documents , 59, Fol. 88

ولسون، تاريخ الخليج، ص ١٢٢؛

Foster, W., The English Factories in India 1618 - 69 , Vol.13,(Oxford, 1927). pp. 223-4;

عبدالعزيز محمد عوض، الاحتلال البرتغالي لموانىء الجزيرة العربية، ص ٢٠؛ ولمزيد من التفصيل عن هذه المعاهدة انظر الملحق رقم (٢).

٢) السيار، دولة اليعاربة، ص ٥٧، وقد خلطت بين المعاهدة التي أعقبت حصار (صحار) عام ١٠٤٣هـ / ١٦٣٣م، ومعاهدة عام ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م وذلك حسب بنود المعاهدة المدرجة بينما هي لم تذكر أية تواريخ لهذه المعاهدة. كذلك انظر: العابد، تحرير ساحل عمان، ٤٢؛ عوض، الإحتلال البرتغالي لموانىء الجزيرة العربية، ص ٢٠؛ أحمد شلبي، تاريخ عمان ونشاطها الداخلي من مطلع الإسلام حتى الآن، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج٢، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ٣٩.

معاهدات السلام التي عقدت بينهما تحيط بها بعض الشكوك، فإذا استثنينا (ابن رزيق) في (الفتح المبين) الذي ذكره مقروناً بالهجوم الأول على (مسقط) عام ١٠٤٢هـ / ١٦٣٢م، وبالصلح الذي أعقب حصار (صحار) عام ١٠٤٣هـ / ١٦٣٣م،[١] فإن جميع المصادر العمانية المتقدمة، وبخاصة (ابن قيصر)[٢] و(الأزكوري)[٣] لم تورد دفع البرتغاليين الجزية للإمام كشرط من شروط معاهدات الهدنة التي عقدت بينهما، كما أن جميع المصادر العمانية لاتأتي على أي ذكر لحملة الإمام على (مسقط) عام ١٠٥٨ / ١٦٤٨م، كما ذكرنا آنفا، ويبدو أن (ابن رزيق) وكأنه قد خلط بين ماقد سمعه مما تناقله الناس عن شروط معاهدة عام ١٠٥٨ هـ / ١٦٤٨م مع ماقام به (خميس بن سعيد) من تفاوض حول معاهدة الصلح التي أعقبت حصار (صحار)، أي أن (ابن رزيق) خلط معاهدة ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م مع الصلح الذي تفاوض عليه (ابن سعيد) عام ١٠٤٣هـ / ١٦٣٣م، وهو أمر استغرب وقوعه للفارق الزمني الكبير بين الحدثين، أما الروايات البرتغالية فلم يرد فيها ذكر دفع الجزية شرطاً من شروط السلام التي عقدت بين الطرفين، وكذلك المصادر الأوربية المعاصرة، باستثناء المصادر المتأخرة والتي على مايبدو قد اعتمدت على روايات (ابن رزيق) أما (السالمي) والذي ينقل عن (ابن رزيق) في بعض الاحيان لم يورد هذا الشروط في سياق حديثه عن حملات الإمام (ناصر) ضد البرتغاليين، ولكنه أشار في موضع آخر أن البرتغاليين قد نقضوا الإتفاق وامتنعوا عن دفع الجزية عندما توفي الإمام (ناصر بن مرشد)[٤] وفي هذا إشارة إلى معاهدة ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م.

---

١) الفتح المبين، ص ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، والواقع أن ابن رزيق لايذكر هذا الشرط في كتابه (الشعاع الشائع باللمعان) ص ٢١٥ - ٢١٩ - ٢٢٠.

٢) سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٤٠ - ٤٩.

٣) كشف الغمة، ص ١٠٢ - ١٠٤.

٤) تحفة الأعيان، ج ٢، ص ١٢ - ١٤، ٥٦.

وفي اعتقادي أنه ربما كان شرط دفع الجزية هذا من الشروط العمانية التي كانت تطرح للتفاوض، ولكنني أستبعد أن يكون قد أدرج في أية معاهدة سلام جرى التوقيع عليها بين الطرفين، إذ لايعقل أن يقبل البرتغاليون بدفع جزية للإمام في وقت كانوا فيه يتقاضون رسوماً على الجمارك، ويديرن احتكاراً للتجارة في (مسقط)، وأيضاً في وقت يظل فيه إبحار السفن التابعة للعمانيين مرهوناً بمنحهم تصاريح من البرتغاليين، بل إنه من المرجح أنها لم تدفع أبداً، ولو أنها دفعت لتسابقت المصادر العمانية إلى ذكرها وبخاصة المعاصرة للأحداث، أما أسباب عدم استمرار العمل بتلك المعاهدات والتقيد بها، فيرجع - في تقديري - إلى عدم تقيّد البرتغاليين ببنودها، وبخاصة فيما يتعلق بحرية التجارة في (مسقط)، والسماح للعمانيين بالدخول والخروج من وإلى المدينة دون ضرائب، إضافة إلى أن العمانيين يرتكزون في نزاعهم مع البرتغاليين على أساس ديني وينظرون إليهم كمغتصبين ومعتدين يلزم جهادهم وإجلاؤهم.

وتمثل شروط معاهدة الهدنة تلك، والتي فُرضت على (دوم خليؤ دا نورنها Dom Julia Da Norouha) القائد العام لحامية (مسقط) ومساعديه، تمثل أكبر ضربة للبرتغاليين حيث تؤكد بوضوح على عوامل الدمار للمواقع البرتغالية، لأنها أضعفت وجودهم التجاري والعسكري في الخليج.

والواقع أن المصادر العمانية لاتذكر شيئاً عن هذه الوقائع المهمة مع أنها تمثل صفحة مشرقة من صفحات الجهاد العماني، وقد سبق أن ذكرنا أن المصادر العمانية لم تذكر نشاط وجهود الإمام (ناصر بن مرشد) ضد البرتغاليين منذ المعاهدة التي عقدت بينهما والتي أعقبت حصار (صحار) عام ١٤٠٣هـ / ١٦٣٣م، وفي اعتقادي أن السبب يرجع إلى أن تلك

المصادر ربما كانت تنقل أو تعتمد على روايات (ابن قيصر) المعاصر للأحداث، والذي انتهى من تأليف كتابه هذا في عام ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م أي بعد زوال تهديد شيخ الجبور (ناصر بن قطن الجبري)، ولكن (ابن رزيق) في كتابه الموسوم (الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان) يؤكد أن البرتغاليين مازالوا في (مسقط) وأنهم متحصنين فيها بعد هذا التاريخ أي بعد عام ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠ على مايفترض.[١]

وكما ذكرنا سابقاً فإن قائد حامية (مسقط) كان قد بعث بطلب عاجل إلى نائب الملك بالهند، وإلى حكومة (لشبونه) يحثهم على إرسال مساعدات عسكرية عاجلة، وذلك قبل إبرام المعاهدة المذكورة والتوقيع عليها، وقد سارع نائب الملك بالهند (ماسكارنياس Mascarenias) إلى إرسال بعض قطع الأسطول إلى (مسقط)، ولكنها وصلت بعض أن تمّت التسوية بين قائد حامية (مسقط) والعمانيين.[٢] ومن رسالة كان قد بعث بها (نورنها) قائد حامية (مسقط) إلى نائب الملك بالهند يطلعه فيها على أسباب قبوله الهدنة مع الإمام يمكن الوقوف على حجم الضغوط التي كان يتعرض لها البرتغاليون في (مسقط) فقد جاء في تلك الرسالة: «أن الحكام العرب لن يرضوا إلاّ بالقضاء علينا ولكن الله نجّانا بمعجزة، حيث أن الأوضاع لم تكن في صالحنا، فالسلاح قليل، والمواد التموينية قليلة أيضاً، وحلفاؤنا من غير البرتغاليين وبخاصة العرب مشكوك في ولائهم، وقد عثرنا على رسالة موجهة إلى الإمام ولاتحمل اسماً تدعوه إلى مهاجمة مسقط وتطلعه على حقيقة الأوضاع داخلها، كما تدعو له بطول البقاء، وقد قمنا باعتقال عدد من المشكوك فيهم، ان أوضاعنا سيئة، ورجالنا يتساقطون صرعى، ولم يكن

---

١) الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

٢) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٩٢.

أمامنا من خيار سوى كسب الوقت ومهادنة العرب.»[1] وقد عزلت السلطات البرتغالية في (لشبونه) قائد حامية (مسقط) واتهمته بعدم الصمود أمام الحصار العماني والقبول بشروط مهينة وتم إيداعه السجن مع مسئول المالية والخزينة (فالنتين كوريّا Volentin Correa) كما أرسلت التعليمات إلى نائب الملك بالهند أكدت فيها على ضرورة اتخاذ كل مامن شأنه الحفاظ على (مسقط) وضرورة مرابطة قطع الأسطول بالقرب من المدينة، وعدم السماح للعرب بالإقامة فيها، وزيادة التحصينات حولها.[2] ويلاحظ أنه لم تجر أية محاولات برتغالية لاسترداد المواقع والحصون التي كانوا يسيطرون عليها حول (مسقط)، وبدا أن البرتغاليين جميعهم بما فيهم الملك قد تقبّلوا الوضع مرغمين لايملكون عنه بديلاً.

وتأتي التأكيدات من السلطة العليا البرتغالية بضرورة الحفاظ على (مسقط) دليلاً قوياً على أهميتها بالنسبة لهم، حيث كانت تقوم بدور قاعدة بحرية هامة طول فترة الاحتلال البرتغالي للموانىء العمانية، وبالرغم من أنه لم يكن للبرتغاليين مخططات توسعية في عمان الداخلية لأن هدفهم كان توفير الأمن للتجارة البرتغالية في الخليج والهند، وكذلك لضمان أمن الطريق البحري المؤدي إلى جزر الهند الشرقية، إلاّ أنه ليس هناك ثمة شك في أن (مسقط) بقيت أقوى القواعد الحصينة للبرتغاليين على السواحل الشرقية للجزيرة العربية، كما لعبت دوراً في الصراعات بين

---

1) (10R). I/3/140, Documents., 59, Fol, 47, pp.1-2, Letter Noronha from Muscat to the viceroy 7th December 1648.

٢) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٩٢؛ صلاح العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي، ص ٩٥؛ الحمداني، دور عرب عمان في اقصاء البرتغاليين عن الخليج، ص ٢٧٩.

البرتغاليين والقوى المناهضة لهم مثل العثمانيين والهولنديين والإنجليز ومن ثم العرب.[1]

هذا وقد إزدادت أهمية (مسقط) بالنسبة للبرتغاليين بعد أن فقدوا (هرمز) عام ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م كما مرّ بناء، وأصبحت منطلق عملياتهم العسكرية التي حاولوا من خلالها استرداد مافقدوه من نفوذ في (هرمز) و (البحرين) بقيادة قائديهما البحريين المشهورين وهما (ري فرير Ray Freyre) والأميرال (نونز الفاريز بثلهوا Nuns Alveres Botolho) اللذان اتخذا من (مسقط) قاعدةً لأساطيلهما، وقد وجه الأسطول الذي بعث به ملك البرتغال لتعزيز أمنها وحمايتها.[2] ولذا فليس من المستغرب أن يجد العمانيون صعوبة في تحرير هذه المدينة واستعادتها.

والواقع أن ماحققه العمانيون من انتصارات في جهادهم ضد البرتغاليين في السواحل العمانية جعلهم يزدادون ثقة بأنفسهم، وبدأ الإمام (ناصر بن مرشد) في هجـومه الأخير على (مسقط) وفرضه الهدنة التي أبرمت بينهما بالشروط العمانية إلى حد ما، بدأ وكأنه يريد تهيئة عمان وجعلها قاعدة للجهاد ضد البرتغاليين في الخليج والمحيط الهندي وساحل شرق إفريقية. وبالفعل فقد تم ذلك في عهد خلفه الإمام (سلطان بن سليف الأول).

---

١) ولسون، تاريخ الخليج، ص ١٢٠ ومابعدها، أريكو، المباني التاريخيّة الحربيّة في عمان منذ القرن السادس عشر، ٢٢٥.

٢) بوكسر، ملاحظات جديدة عن الصلات بين العمانيين والبرتغاليين، ص ٢١٠ - ٢١١؛ أريكو، المباني التاريخية الحربية في عمان، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

ولقد وقفت القبائل العمانية على اختلاف توجهاتها خلف الإمام (ناصر بن مرشد) فقد تحدث المؤرخ البرتغالي المعاصر (أنطونيو بوكارو Antoniuo Bokaroe) عن ذلك بقوله: «إن هذا الإمام بمناصرته للشريعة المحمّدية قد تبوأ مكانة مرموقة بين قومه، وأصبح منذ سنوات أقوى سلطان في جميع أنحاء الجزيرة العربية، وهو شديد التمسك بالشريعة المحمدية وتحت طوع هذا الإمام حوالي (١٤٠٠٠) إلى (١٥٠٠٠) من المقاتلين الأشداء ذوي المهارة العالية، ويستطيع أن يزيد العدد متى شاء من رعيته، إذ إنهم مكلفون دينياً وعرفاً بطاعته.»، ويستطرد قائلاً : «إن حالة الصداقة والسلام التي تقوم أحياناً بينه وبين البرتغاليين، هي محفوفة بالمخاطر دائماً وتتصف بالتذبذب، فنظراً لأنه يعلن للناس أنه يبعث ويصلح الشريعة المحمدية، فهو يقول أن دينه يُلزمَه بمحاربة البرتغاليين دائماً»[١]

وتجدر الإشارة إلى أن نائب الملك البرتغالي ومجلسه في (جوا)، عندما وصلت إليهم أنباء إعلان الإمام (ناصر بن مرشد) الحرب عليهم عام ١٠٤٢هـ / ١٦٣٢م، كانوا يميلون إلى قبول التأكيدات التي تقول بأنه كان فقط يسترد أراضيه وحقول نخيله التي هي من حقه، وأنه لن يهاجم الحصون البرتغالية إذا تركه البرتغاليون ينعم بأراضيه في سلام، ولذا ترك نائب الملك قرار الحرب والسلام لقائد حامية (مسقط) الذي إختار أن يدخل الحرب التي لم تسفر إلاّ عن فقدهم معظم مواقعهم على الساحل العماني

---

١) مقتبس من : بوكسر، ملاحظات جديدة عن الصلاة بين العمانيين والبرتغاليين، ص ٢١٢ - ٢١٣.

خلال الفترة من ١٠٤٢ - ١٠٥٨هـ / ١٦٣٢ -١٦٤٨م.[١]

لقد برهنت معاهدة عام ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م على فعاليتها، حيث بدأت الصلات بين عرب الخليج والجزيرة العربية وبين سكان ساحل شرق إفريقية، بدأت تعاود مسيرتها من جديد بعد إجبار البرتغاليين على كسر نظام الاحتكار التجاري والاعتراف بحرية الملاحة في الخليج والمحيط الهندي لمختلف الأجناس، والتي جاءت ضمن بنود الهدنة. وبعد هذا الانجاز الذي حققه، توفي الإمام (ناصر بن مرشد اليعربي) في العاشر من ربيع الآخر عام ١٠٥٩هـ / إبريل ١٦٤٩م.[٢] بعد أن حقق الاستقرار وعمق الوحدة الوطنية وانجز المرحلة الأصعب من مراحل الجهاد العماني ضد البرتغاليين.

---

١) بوكسر، ملاحظات جديدة عن الصلاة بين العمانيين والبرتغاليين، ص ٢١٣ - ٢١٤.

٢) الأزكوري، كشف الغمة، ص ١٠٧؛ ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٧٩ - ٢٨٠؛ الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢٢٩؛ المؤلف مجهول، تاريخ أهل عمان، ص ١٤١؛ أما (السالمي) في تحفة الأعيان، ج ٢، ص ١٧؛ وكذلك (السيابي) والذي يبدوا أنه يأخذ عنه في عمان عبر التاريخ، ج ٣، ص ٢١٧، فيذكران أن وفاة الإمام (ناصر بن مرشد)، كانت في العاشر من ربيع الثاني عام ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م ويذهبان إلى أن الإمام (ناصر)، قد حكم مدة ستٍ وعشرين سنة، وهو الأمر الذيلايبدو صحيحاً على وجه التقريب مادام قد انتخب عام ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م وعمره حينذاك عشرون عاماً، ولكن بما أن الإمام (ناصر بن مرشد) مذكور بالاسم في الوثائق البرتغالية المتعلقة بمعاهدة السلام التي عقدت عام ١٠٥٨هـ / اكتوبر ١٦٤٨م، وكما أن جميع المصادر العمانية تتفق على أن الذي استعاد (مسقط) عام ١٠٥٩هـ / ١٦٥٠م إنما هو الإمام (سلطان بن سيف الأول) كما سيأتي ذكره، لذا فإن وفاة الإمام (ناصر) ربما تكون قد وقعت فعلاً بين هذين التاريخين، وبناء عليه فإنني لاأرى سبباً يحول دون قبول العاشر من ربيع الثاني ١٠٥٩هـ / الثالث والعشرين من إبريل ١٦٤٩م تاريخاً لهذه الوفاة لاسيما وأن المصادر العمانية المتقدمة قد أشارت إلى ذلك.

فعندما انتخب الإمام (ناصر بن مرشد) كانت مهن ومصادر رزق أهالي الساحل العماني في مجالات التجارة والخروج للبحر والصيد جميعها عرضةً للسيطرة البرتغالية مما أثّر بشكل كبير على سبل اكتساب الرزق لدى القبائل التي كانت تمارس المقايضة على الساحل. لقد أُنكر على العمانيين أن يكون لهم نصيب في التجارة البحرية المزدهرة رغم أن الموانىء هي جزء لايتجزأ من أرضهم ووطنهم، وبدون السيطرة عليها، والاستفادة من الدخل الذي تجلبه فإنه لايمكن (للإمامة) القول بأنها السلطة العامة في البلاد. ومؤكد أن الإمام (ناصر) كان مدركاً لهذه الحقيقة عندما كان يصرّ دائماً على إدراج بند حرية التجارة ورفع الضرائب في كل معاهدة يعقدها مع البرتغاليين والتي ظهرت بشكل واضح وكبير في آخر معاهدة له معهم وهي معاهدة عام ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م.

لقد أدى النزاع بين البرتغاليين وخصومهم الأوربيين مثل الانجليز والهولنديين إلى تفاقم وضعف نفوذهم التجاري والعسكري في المحيط الهندي والخليج العربي، وهذا بدوره أدى إلى تعاظم الفوائد الناجمة عن هذا الوضع، والتي كانت تصبّ في مصلحة الإمام (ناصر بن مرشد) فقد مهدت استعادة قلاع (جلفار) ومنطقة (الصير) السبيل لحصار (صحار) عام ١٠٤٣هـ / ١٦٣٣م، والتي جلبت المزيد من التنازلات وبالتالي المزايا العديدة للإمام (ناصر).

ان استعادة ميناء (صحار) بعد ذلك بعشر سنوات كانت هي النذير بطرد البرتغاليين عن المياه العمانية، حيث أصبح بعدها العمانيون أحراراً في التجارة غير المشروطة مع الأمم والمناطق الأخرى، ولم يبق عليهم سوى طرد البرتغاليين من (مسقط) أما حملة عام ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م، فبالرغم من أنها لم تحقق الهدف النهائي، إلاّ أنها حجّمت البرتغاليين مما

اضطرهم إلى قبول شروط مهينة، وأصبح طردهم النهائي مسألة وقت، وإنه لمن سوء الحظ أن الإمام (ناصر بن مرشد) لم يعش ليرى ذلك بأم عينيه. إذن هذا هو التغيير الذي نهض به الإمام (ناصر) ونفذه بعناية، وأبدعه خلال فترة حكمه، فقد طوع بلداً كانت السلطة فيه حكراً على عدد محدود من القبائل القوية المستقلة، فأصبح بلداً ينعم بالسلام تحت سيطرة حكومة تستند على الشورى، إذن كان هناك دولة أوربية قوية وهي البرتغال، وكان لها السيطرة المطلقة على مايزيد على (٥٠٠) ميلٍ من الخطوط الساحلية، وأخذت هذه السيطرة تتضاءل وتبريها الضربات حتى تقلّصت إلى مجرد ميناء واحد هو (مسقط) واثنين أو ثلاثة من أماكن الرسو الصغيرة، وحتى هذه فإن استخدامها إنما كان تحت طائلة سماح الإمام بذلك على مضض، وبالتالي فهذا هو المقياس الذي يقاس به الجهد والإنجاز اللذان حققهما الإمام (ناصر بن مرشد).

الفصل الثالث

الفصل الثالث

« جهاد الإمام سلطان بن سيف الأول »

(١٠٥٩ - ١٠٩٠هـ / ١٦٤٩ - ١٦٧٩م)

* تولية الإمام سلطان بن سيف الامامة.
* طرد البرتغاليين من بقية أقاليم عمان.
* استنجاد المسلمين في ساحل شرق إفريقية بالإمام سلطان والهجوم على زنجبار وبتة عام ١٠٦٣هـ / ١٦٥٢م.
* حملة بقيادة الإمام سلطان والإستيلاء على ممباسة بعد حصارها عام ١٠٧١ - ١٠٧٦هـ / ١٦٦٠ - ١٦٦٥م.
* مطاردة البرتغاليين في الهند والهجوم على ديو عام ١٠٧٩هـ / ١٦٦٨م.
* العودة إلى ساحل شرق إفريقية والهجوم على موزمبيق عام ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م.
* الجهاد العماني في سواحل جنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر.
* مواصلة الجهاد في ساحل شرق إفريقية والهجوم على بتة ووفاة الإمام سلطان بن سيف الأول.

* تولية الإمام سلطان بن سيف :

لم ينتظر العمانيون طويلاً في اختيار خليفة للإمام (ناصر بن مرشد)، فقد أجمع أهل الحل والعقد على انتخاب (سلطان بن سيف الأول) إماماً لعمان في اليوم نفسه الذي توفي فيه الإمام (ناصر بن مرشد)،[1] فبالإضافة إلى أن العمانيين كانوا يدركون طبيعة الأوضاع التي تمر بها بلادهم، حيث أن موضوع البرتغاليين لم يحسم بعد في (مسقط)، مما حتّم عليهم سرعة ملء الفراغ الذي تركه الإمام (ناصر)، إلاّ أن شخصية (سلطان بن سيف) أهلته لأن يكون موضع احترام وثقة الجميع، وذلك لما يتمتع به من صفات، أهمها العدل والحزم والكفاية العسكرية، فقد كان الساعد الأيمن للإمام (ناصر) والقائد العام لجيوش الدولة.[2] ومما لاشك فيه أن اختيار الشخص الذي كان مسؤولاً مسؤولية كاملة عن الهجوم الناجح على (مسقط) إنما جاء ملائماً تماماً للجو التنافسي السائد بين العمانيين والبرتغاليين.

وفي عهد الإمام (سلطان) دخلت عمان مرحلة جديدة، وبدأت عهداً مجيداً، وبذرت فيه بذور الانطلاق المذهل الذي أعطى ثماره بعد فترة وجيزة، وقطعت البلاد شأواً بعيداً في الرقي والإزدهار، وبخاصة بعد نجاحها في فتح منافذها البحرية، كما وضع الإمام (سلطان بن سيف الأول) الخطط الكفيلة بتطوير ودعم البحرية العمانية، كما وضع خططاً عديدة ومتنوعة لحملات الجهاد ضد البرتغاليين في الهند وساحل شرق إفريقية، والتي عبر عنها المؤرخ العماني (الأزكوري) بقوله: «قام بالعدل وشمّر وجاهد في ذات الله وماقصر ونصب الحرب لمن بقي من النصارى بمسكد (مسقط) وسار عليهم بنفسه حتى نصره الله عليهم وفتحها له، ولم يزل يجاهدهم أينما

---

١) الأزكوري، كشف الغمة، ص ١١٠؛ المعولي، قصص وأخبار جرت في عمان، ص ١١٧.

٢) إبن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢٥١، ٢٥٢؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٤١.

يجدهم في بر وبحر، فاستفتح كثيراً من بلدانهم، وضرب كثيراً من مراكبهم، وغنم كثيراً من أموالهم.».[١]

لقد أدى اهتمامه بالتجارة إلى انتعاش الموانىء العمانية، وازدهار الحركة التجارية، الذي انعكس على الاقاليم الداخلية، حيث نشطت حركة التبادل التجاري، كما أولى الإمام (سلطان) اهتماماً خاصاً بالزراعة، فشق الأفلاج وقنوات الري واستصلح الأراضي، وعمل على صيانة موارد المياه. وقد تميز عهده بالأمن والطمأنينة ورغد العيش، وقد كان دمث الأخلاق مع الناس محبوباً من قبلهم، وكان من عاداته أن يخرج دونما حراس ويجلس مع الناس ويخالطهم، ويجاذبهم أطراف الحديث، وفي ذلك قال عنه (ابن رزيق): «إن عمان اعتمرت في أيام دولته وزهرت، واستراحت في عصره رعيته، ورخصت الأسعار، وصلحت الأسفار، وربحت التجارة، وسدت الأثمار، وكان متواضعاً للواحد القهار، رؤوفاً بالرعية صفوحاً عنهم عما جاز فيه الصفح شرعاً، ولم يكن متحجباً عن رعيته، ويجلس مع الناس ويحدثهم، ولم يزل آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر حتى مات.»[٢] لذا فتكون ولايته عام ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م.

---

١) كشف الغمة، ص ١١٠.

٢) الفتح المبين، ص ٢٩١ - ٢٩٢.

* طـرد البرتغاليين من بقية أقاليم عمان :

كانت أولى المهام التي التزم بها الإمام (سلطان بن سيف الأول)، هي تحرير بقيّة أراضي عمان من السيطرة البرتغالية، وكانت (مسقط) هي الهدف الرئيس والنهائي لهذه المرحلة من مراحل الجهاد العماني ضد البرتغاليين في عمان، ولم يكن طرد البرتغاليين من (مسقط) عمليةً سهلةً أبداً، إذ يستلزم ذلك السيطرة على ضواحي المدينة،[١] وأهمها (مطرح) التي وضع بها البرتغاليون نقطاً دفاعيّة بالغة المناعة، لتكون خط الدفاع الأول عن (مسقط) التي ضاعفوا تحصيناتها وذلك ببناء بروجٍ وأسوارٍ جديدة ونقطٍ دفاعية محكمة تعززها المدفعيّة بعيدة المدى،[٢] وكان البرتغاليون قد عزّزوا وجودهم العسكري في الساحل العماني، وأكدت (لشبونة) على نائب الملك بالهند وقائد حامية (مسقط) ضرورة الحفاظ عليها مهما كلف الأمر، كما أمرت بمرابطة بعض قطع الأسطول البرتغالي فيها بصفة دائمة، وأيضاً منعت إقامة العرب فيها ضمن إحتياطاتها الأمنيّة.[٣] ومهما كانت الإجراءات العسكرية البرتغالية في (مسقط) إلاّ أنها لن تكون كافية للاحتفاظ بالمدينة لفترة طويلة أمام تصاعد حركة الجهاد العماني.

يعتبر إعلان الجهاد ضد البرتغاليين في (مسقط) أول عمل باشره الإمام الجديد، فلبّت القبائل العمانية نداء الجهاد بابتهاج كبير، وتجمعت (بطوى الرولة إلى سيح الحرمل) بالقرب من (مطرح)، وكانت مستعدة للهجوم عندما تؤمر بذلك،[٤] ورغم أن الهدنة التي أبرمت في عهد الإمام (ناصر بن مرشد) مع البرتغاليين لم تمض عليها شهور، إلاّ أن تصميم الإمام (سلطان)

---

١) السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٥٦.

2) the Carmeltes, op.cit, vol.I, p.358.

٣) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ٦٧.

٤) ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٨٥؛ الحمداني، دور عرب عمان في إقصاء البرتغاليين عن الخليج، ص ٢٨٠.

على تصفية الوجود البرتغالي دعاه إلى عدم الالتفات إلى تلك الهدنة، مع أن بعض المصادر العمانية تلقي باللائمة على البرتغاليين، وذلك في عدم التزامهم بشروط الهدنة، حيث امتنعوا عن دفع الجزية، ومنعوا العمانيين من دخول (مسقط) وفي ذلك يقول (السالمي): «لمّا مات الإمام ناصر بن مرشد نكث النصارى العهد، وقطعت الجزية، ومنعت المسلمين من الوصول إلى مسقط، وعتوا عتواً كبيراً.»[1] ويشير البعض إلى قيام الإمام (سلطان) بذلك مواصلة لجهود من سبقه في طرد من تبقى من البرتغاليين في (مسقط ومطرح)،[2] وهو مايبدو واضحاً في سياسة الإمام المقبلة.

والواقع - كما يبدو - أن الجانبين لم يلتزما ببنود المعاهدة المذكورة، فالبرتغاليون وسعوا حزامهم الأمني حول (مسقط)، وكثفوا من تواجدهم العسكري، وعززوا نقطهم الدفاعية على رؤوس الجبال، وغير ذلك من الإجراءات التي توحي عدم التزامهم ببنود المعاهدة واستعدادهم للمواجهة. وربما في عدم التزام العمانيين بها رداً على عدم التزام البرتغاليين.

أدرك البرتغاليون ماترمي إليه تحركات الإمام، وأنه يعد العدة لمحاربتهم لامحالة، فاستعدوا لصد الهجوم، وعزّزوا نقطهم الدفاعيّة، وركزوا وحدات مدفعيتهم على رؤوس الجبال، يساعدهم في ذلك وحدات هندية، كما قاموا بمد سلسلة حديد من رأس الجبل الذي يشرف على (ميابين)، وعلى الوادي الذي يمر على (برزنجي) وهما موقعان يحيطان بـ (مسقط)، وتمتد السلسلة إلى جبل البرج المربع،[3] وهو الجبل المشرف على حلة (الأوغاد)، ورُبطت في هذه السلسلة أبراجٌ من حديد بداخلها مدافعون برتغاليون مهمتهم صد الجنود العمانيين ومنعهم من تسلق السور،

---

1) تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٥٦.

2) السيابي، عمان عبر التاريخ، ج ٣، ص ٢٢٣ ومابعدها.

3) السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٥٦.

كما ملأوا الخندق المحفور خارج السور بالمياه، وغمروا المنطقة التي حوله بالمياه أيضاً، وجهزوا النقاط الدفاعيّة على السور بعدد كبير من المحاربين،[١] أما (الميراني والجلالى) القلعتان الشهيرتان في (مسقط) فقد تم إحكام تحصينهما بالمدفعية الثقيلة وتخصيصهما لمقرات القيادة العامة ومخازن التموين.[٢]

لقد كان البرتغاليون يثقون بتحصيناتهم لدرجة كبيرة الأمر الذي دفعهم إلى عدم الاكتراث بالتحرشات العمانية المتكررة على نقط الدفاع المحصّنة، وعن ذلك كتب أحد الرهبان الكرمليين المقيمين في (مسقط) وهو الراهب (دومنيك Dominic) قائلاً: «تجري الآن الإستعدادات مرة أخرى لدى الجانبين لشن الحرب وفرض الحصار، وأمس مساءً وعلى مرأى من جميع رجالنا قام البرتغاليون بتركيز حراساتهم وخفاراتهم، ويبذل كل من العرب والبرتغاليين جهداً مضنياً لإحراز نصر، وعلى ما أظن فإن جهود العرب بدون جدوى حيث إن (مسقط) محصنة تحصيناً جيداً يصعب عليهم اجتيازها.»[٣]

في منتصف عام ١٠٥٩هـ / اكتوبر ١٦٤٩م بدأ الإمام (سلطان بن سيف) بفرض الحصار على (مسقط) يساعده في ذلك قائده (سعيد خليفة)، وبلغ معسكر الإمام حتى (روى) قرب (مسقط) من جهة الشمال الغربي، ثم تقدمت قوات الإمام حتى استولت على أولى أهدافها وهي تلال (بير الراوية) ولكنها صُدّت من قبل نيران البرتغاليين[٤] ومن ثم بدأت القوات العمانية

---

١) ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٨٥.

٢) حنظل، المفصل في تاريخ الأمارات العربية، ج ١، ص ٨١.

3) The Carmelities, op.cit, vol,I, p.358.

4) Ibid, pp. 358-9;

ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

بشن هجمات خاطفة على الأسوار الخلفيّة للمدينة تارة، وضرب البرتغاليين في (مطرح) تارة أخرى، إلاّ أن هذه الهجمات لم تؤد إلى نتيجة حاسمة نظراً لقوة وكثافة نيران البرتغاليين وبخاصة النقط الدفاعية التي أقاموها على رؤوس الجبال.[١] وبذلك أصبحت الحرب بينهما سجالاً كما ذكر (ابن رزيق) فلم يستطع البرتغاليون زحزحة القوات العمانية وإخراجها من معسكرها في (مطرح)، ولم يستطع العمانيون اختراق المواقع الدفاعية لهم، وبذلك وصلت الحالة بينهما إلى طريق مسدود، وإن كاد الإمام أن يفك الحصار عن (مسقط) لولا حدوث تطورات جديدة في الموقف.[٢]

وهذه التطورات الجديدة ترجعها بعض المصادر العمانية إلى قصة مفادها أن القائد البرتغالي في (مسقط) له وكيل هندي اسمه (سبيكة)[٣] وهذا له ابنة وصفت بأنها جميلة، فطلب القائد البرتغالي منه أن يزوجها إياه، ودفع له مالاً وذهباً كثيراً مهراً لها فرفض أبوها ذلك قائلاً : (لستم في

---

1) The Carmelities, op.cit, vol,I, p.359؛

ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢٥٢.

٢) الفتح المبين، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

٣) يشير (ابن رزيق) في الفتح المبين إلى أن اسم الوكيل الهندي (ناريتم) ولكنه في الشعاع الشائع باللمعان يشير إلى أنهم وكيلان إحداهما (ناريتم) والآخر (سبيكه) وأن القائد البرتغالي طلب الزواج من ابنة (سبيكة)، ونظراً لأن كتابه (الشعاع الشائع باللمعان) قد ألفه بعد كتابة الفتح المبين فإنه من المحتمل أن يكون قد عدّل بعض الروايات وأضاف بعض المستجدات حسب ماستجد له من معلومات، ولهذا فإنني أميل إلى الاعتماد في هذه الرواية على كتابة (الشعاع الشائع باللمعان) لاسيما وأن (السالمي) المؤرخ العماني قد اعتمد عليه في هذه الرواية.

انظر :

الفتح المبين، ص ٢٨٦؛ الشعاع الشائع باللمعان ، ص٢٥٣؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٥٧.

القديم ولا في الحديث تتزوجون بناتنا ولانحن نتزوج منكم)[1] فأرسل القائد أحد رجال الدين النصارى إلى (سبيكه) مهدداً له بأنه سيتزوجها بالقوة، ونصح القسيس أباها بضرورة الموافقة، ففكر (سبيكة) بحيلة تجنبه هذا المأزق، وطلب من القائد البرتغالي أن يمهله ريثما يتم أخذ الاستعدادات اللازمة لمثل هذا المناسبة من صياغة الحلي وغيرها، وهذا يتطب وقتاً طويلاً قد يصل إلى عام، فإذا أكملت الاستعدادات ووصلت إليَّ الحلي بعد صياغتها دفعت إليك ابنتي زوجة لك، فوافق القائد البرتغالي على المهلة، وقرّب (سبيكة) منه ورفع منزلته وأصبح بمثابة مستشاره الخاص.[2] وفي أحد الأيام قال له (سبيكة) إن ملك عمان مارفع عنك السيف فهو محاصر لك برجال كالصلال، يرجوك أن تبارزة وأنت متقهقر عنه، وصرت كالذليل وصار كالعزيز، فهو الآن على مايرجحه ظني يتحيّن الفرصة للهجوم على البلاد، فلا شك أنهم يبلغون فيك مرادهم، فيحصرونك حينئذٍ أشد الحصار، وتنقطع عنك مادة الانتصار لاسيما من قبل الماء العذب، وأشار عليه أن يقوم بتغيير الماء الذي في القلعتين الكبيرتين (ميراني وجلالى) وكذلك تغيير الطعام، كما أشار عليه أيضاً بإخراج البارود من مخازنه لفساده مما يستلزم إعادة دقه، فأوكل القائد إلى (سبيكة) القيام بذلك بعد موافقته عليها،[3] فلما أخرج (سبيكة) الماء والطعام والبارود من القلعتين أرسل إلى الإمام (سلطان بن سيف) كتاباً مع أحد خاصته سراً، وضمنه بما عمل بالقلعتين ومعاناتهما من قلة الماء والطعام، وأشار عليه بالهجوم على المدينة يوم الأحد الذي يوافق رأس السنة الميلادية، حيث إنهم في هذا اليوم لايحملون السلاح لإنشغالهم باللهو وشرب الخمر، وعندما تقوم بذلك ركّز على القلعتين الكبيرتين، وأحرق أبوابهما بالنار فإن البارود الذي فيهما قد

---

1) ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢٥٣.

2) المصدر نفسه، ص ٢٥٣؛ السيّار، دولة اليعاربة، ص ٥٩.

3) ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

أخرجته وأدخلت عوضاً عنه باروداً قد صب عليه الخل فلا يجدي شيئاً، كما أخبر (سبيكة) الإمام بالأسباب التي دفعته إلى ذلك، وقد نفذ الإمام هذه الوصيّة ودخل (مسقط) في الوقت المحدد.[1] والواقع أن هذه القصة التي انفردت بها بعض المصادر العمانيّة لايمكن الوثوق بها، وأرى عدم صحتها لأسباب منها: أنه من غير المقبول أن ينساق الإمام خلف رسالة هندي يعمل مع عدوه بهذه السهولة فالإمام (سلطان بن سيف) لاتنقصه الدراية بأمور الحرب ليسلّم بما جاء في تلك الرسالة، فقد يكون ذلك فخاً نصب له فيورد بذلك أفراد جيشه المهالك، كما أنه من المستبعد أن يقبل قائد أوكلت إليه مهمة ومسؤولية الدفاع عن مدينة وقلاع ويعيش حياة حرب هي بالنسبة له مسألة حياة أو موت أن يقبل بمشورة أحد العاملين معه من غير البرتغاليين بتفريغ القلاع من الماء والطعام والبارود التي هي وسائل الصمود الأساسية لقوة محاصرة منذ مدة طويلة، - فمن المستبعد - أن يقبل قائد بذلك مقابل أمله بالزواج من فتاة هندية أعجبته مهما كانت ثقته بتحصيناته وقواته، والذي عرف عن البرتغاليين خلال تاريخهم الطويل في المنطقة بأنهم لايثقون بأقرب المقربين لديهم، وإضافة إلى ذلك عدم وجود مايؤكد تلك القصة في المصادر المعاصرة وبخاصة البرتغالية وغيرها من المصادر الأجنبية، بل إنها - أي القصة - ستكون فرصة مناسبة لهم للتقليل من الانتصار العربي، وإنه تم بخيانة أحد المسؤولين في القوات البرتغالية.

بل إن بعض المصادر المعاصرة والقريبة من الأحداث تشير إلى أن الإمام (سلطان بن سيف الأول) إعتمد على بعض العرب القاطنين حول مدينة (مسقط)، ولايستبعد أن يكونوا قد زودوه بحقيقة الأوضاع داخل المدينة وبخاصة في نهاية شهر ديسمبر من عام ١٦٤٩م لاسيما وأن لهم نوعاً من التعامل مع البرتغاليين فمن المؤكد أنهم يعرفون وقت أعيادهم

---

١) ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢٥٤؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٥٧.

واحتفالاتهم.[1] ويتضح ذلك من خلال رسالة نائب الملك بالهند إلى الملك البرتغالي المؤرخة في ١٨ ديسمبر عام ١٦٥٠م والتي يشير بها إلى الظروف والملابسات التي أدت إلى سقوط (مسقط) حيث عزى بعض الأسباب إلى عدم إخلاص العرب الذين كانوا يعملون مع البرتغاليين داخل المدينة وتعاونهم مع العمانيين.[2] وهذا يبدو ممكناً لاسيما أن العمانيين قد جربوا هذه الطريقة مع الإمام (ناصر بن مرشد) عام ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م.

وتشير بعض المصادر إلى أن القائد البرتغالي قد ارتكب خطأ فادحاً بتركه كميات من الذخيرة والطعام في الوكالة بينما كان من المفترض أن يكون مكانها القلعة، ويتساءلون عن سبب وضعها في هذا المكان، ولكنهم لم يتطرقوا أبداً إلى أنه ربما تم ذلك عن طريق الخيانة، أو جرياً على العادة التي تقضي بإنزال الذخيرة والطعام من السفن في الوكالة ثم تنقل إلى القلعة.[3] بل أن نائب الملك أكد للملك أن النظام يقتضي أن توضع الذخيرة والطعام في القلعة وليس في الوكالة، وأنه تبين أن قائد حامية (مسقط) قد اعتاد على اغفال هذه الناحية والتهاون بها منذ مدة طويلة حيث يبقى على الذخيرة والأطعمة في الوكالة بدلاً من القلعة.[4]

قام العمانيون بشن الهجوم الواسع والنهائي على (مسقط) في أواخر عام ١٠٥٩هـ / ديسمبر ١٦٤٩م، وقد بدأ الهجوم باندفاع قوة فدائية بهجوم ليلي، حيث نصبت السلالم على الأسوار، ودخلت إلى المدينة محدثة

---

1) the Carmelities, op.cit, vol. I, p.358.

2) (10R). I/3/141. Documents:. 60, fol. 331, p.3, Letter viceroy to the king 18 December 1650.

٣) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ٢، ص ٦٣٦.

4) (10R). I/3/141, Documents., 60, fol. 331. p.1.

بذلك ارتباكاً وذعراً شديدين، وسيطرت خلال ذلك على جميع أبواب السور، بينما اتجه قسم من هؤلاء إلى تدمير الأبراج،[1] وبعد أن تم فتح الأبواب وبدأ تدفق الجيش العماني قسّم الامام (سلطان) قواته إلى قسمين، قسم لمهاجمة الحصن الغربي، والقسم الآخر لمهاجمة الحصن الشرقي، وقد تم حصارهما قرابة شهر من ٢٣ ديسمبر حتى أواخر يناير عام ١٦٥٠م، حيث استسلمت الحامية البرتغالية في ٢٣ يناير، وفي اليوم نفسه استسلم قائد الحامية (فرانسسكو دي تافوتا Francisco De Tavota)[2] أما مركز الذخيرة والسلاح فلم يستسلم إلاّ بعد ثلاثة أيام من استسلام قائد الحامية أي في ٢٦ يناير. وعندما نفذت مؤنتهم، وباستسلام الحامية والمركز يكون العمانيون قد سيطروا على جميع المواقع الاستراتيجيّة داخل (مسقط) ولم يتبق لدى البرتغاليين سوى برج (قاسم) تحت قيادة (كابريتا) ومعه عدد كبير من البرتغاليين الذين طاردهم العمانيون، ووقع بينهما قتال عنيف داخل الأسواق التجارية قتل خلالها (كابريتا) وعدد كبير من رجاله واستسلم الباقون.[3]

وأما بالنسبة للسفن الحربية البرتغالية الموجودة في ميناء (مسقط) فقد عادت إلى الهند بعد أن استطاع المهاجمون العمانيون تدمير سفينتين من تلك السفن كانتا تقصفان المناطق الداخلية في (مسقط)، ويبدو أن هذه

---

١) ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٨٩؛ غانم محمد رميض، معركة تحرير مسقط، مجلة الوثيقة، العدد الثاني عشر، السنة السادسة، البحرين، ١٤٠٨هـ / يناير ١٩٨٨م، ص ١١٠.

2) (10R). I/3/141, Documents., 60, fol, 331, p.3;
ولسون، تاريخ الخليج، ص ١٢٢؛ العابد، تحرير ساحل عمان، ص ٤٢.

3) (10R) I/3/141, Documents., 60, fol, 331, p.3-4;
ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٩٠؛ المعمري، عمان وشرق إفريقية، ص ٦٥.

القوة البحرية لم يكن بوسعها عمل شيء أمام زخم الهجوم العماني،[١] أما الحصن البرتغالي الذي في (مطرح) فقد استسلم قائده بدون قتال.[٢]

لقد تكبد العمانيون خسائر بشرية كبيرة في سبيل الاستيلاء على (مسقط) وتقدر تلك الخسائر بحوالي أربعة إلى خمسة آلاف قتيل، ولكن الإمام (سلطان بن سيف) استغل كل الفرص الممكنة في سبيل تحقيق هدفه، مستفيداً من طول مدة الحصار الذي ضربه على لمدينة، والذي أدى إلى نقص شديد في المؤن والذخيرة لدى البرتغاليين،[٣] وقد أورد لنا (الكسندر هملتون Alexandr Hamilton) المعاصر للأحداث وصف شاهد عيان للمرحلة الأخيرة من فتح (مسقط) وتطهيرها من البرتغاليين حيث قال: «وصلت الحماسة بالعرب إلى الحد الذي هدّدوا قادتهم بالرجوع إذا لم يقوموا بالهجوم واقتحام الأسوار، ووجد الإمام نفسه مضطراً إلى الاستجابة إلى طلبهم، فأصدر أمره بالهجوم فتقدم المقاتلون إلى الأمام رغم ماواجهوه من نيران المدافعين البرتغاليين الكثيفة، ولم يفكروا بالتراجع، كما لم يلقوا بالاً بالأعداد الكبيرة من زملائهم الذين قتلوا، بل إنهم استخدموا جثث القتلى لتسلق الأسوار، وقبيل الغروب أحكموا سيطرتهم على بعض أبواب المدينة، ودحروا المدافعين وطاردوهم داخل المدينة وباتجاه قلعة (الجلالي) بعزيمة كبيرة بحيث لم ينج منهم أحد، وبعد ذلك أجبروا المتحصنين في الحصون على الاستسلام بدون قيد أو شرط.» [٤]

---

١) ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢٥٥؛ مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٩٣؛ السيار، دولة اليعاربة، ص ٦٠.

٢) ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٩٠؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٥٨.

٣) أحمد شلبي، تاريخ عمان ونشاطها الداخلي، ص ٤٠.

4) A New Account of the East Indies, ed, sir W. Foster, vol. I, (London, 1930) pp. 59-62.

وتجدر الإشارة إلى أن ماذكره (هملتون) لم يحز على إعجاب (لوريمر) الذي قال عن ذلك: «تبدو الرواية التي ساقها هملتون عن سقوط مسقط غير معقولة رغم قوله بنقلها عن شاهد عيان.» ويظهر أن (لوريمر) غير راض عن انتصار المسلمين على بني جلدته، ونلمس ذلك في وصفه عندما قال: «في أواخر سنة ١٦٤٩م على وجه التقريب حوصرت مسقط مرة أخرى، ولكن لم تكن ثمة مراقبة دقيقة، فاستطاع بعض العرب أن يدخلوا المدينة بليل، وقتلوا عدداً من الأهالي (المسالمين)، واحتلوا الوكالة البرتغالية، وإحدى القلاع، وفوجىء القائد البرتغالي بهذا العمل مفاجأة تامة.»[١] فهو إذن يصف المحتلين البرتغالين بالأهالي المسالمين، حيث أنه لايوجد داخل المدينة إلاّ أعوان البرتغاليين وحلفاءهم، أما الأهالي الحقيقيون فكانوا يقطنون أطراف المدينة، أو يأتون إليها للعمل فقط، أما مسألة أن القائد البرتغالي فوجىء بالهجوم فهذا أمر مستبعد وبخاصة إذا علمنا أنه محاصرٌ منذ قرابة شهرين من أعدائه.

وقد وصف شاهد عيان آخر وهو أحد المنصرين الكرمليين تلك الأحداث بقوله: «كان أمراً يدفع بالمرء إلى النحيب فقد انتهكت حرمة الكنائس، وحطمت التماثيل، وجرى تدنيس الأشياء المقدسة، وقاموا بسبي النساء والأطفال، وقد كان نائب أسقف الأبرشيّة يساعد في الرماية وبإطلاق نيران المدافع بينما كان الصليب بيده الأخرى، وما أن دخل العرب المدينة حتى لجأ البرتغاليون إلى المركز والقلعة، وقد اجتاحهم غمرة رعب لم يتمكنوا خلالها من نقل المؤن والعتاد الذي كان موجوداً

---

١) دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ٢، ص ٦٣٦.

بالمركز مرتكبين في ذلك خطأ فاحشاً.»[1] ويقصد بالأشياء المقدسة هي المقدسة لدى النصارى.

بعد أن طهّر الإمام (سلطان بن سيف الأول) (مسقط) من الوجود البرتغالي عيّن عليها (سيف بن بلعرب اليعربي) والياً وقفل راجعاً إلى (نزوى)[2] التي اتخذها الإمام مقراً دائماً لحكمه، وبدأت الوفود العمانية تأتي من جميع أنحاء عمان لتهنئته بالإنجاز الكبير الذي تمخض عنه تحرير ساحل عمان من الإستعمار البرتغالي.[3] وهكذا أسدل الستار على الغزو البرتغالي للساحل العماني الذي بدأه (البوكيرك) عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م بعد احتلال دام قرناً ونصف قرن من الزمان، شهدت خلاله الموانىء العمانية والخليجية أعنف أساليب القسوة والإرهاب لاخضاع المسلمين للسيطرة البرتغالية بالقوة المسلحة وتسخيرهم لتحقيق أهداف البرتغال الدينيّة والإقتصادية من بناء المحطات التجارية والقلاع العسكرية والمراكز التنصيرية في الموانىء الإسلامية.

---

1) the Carmelities, op.cit, vol.I, p.359

٢) اتخذ الإمام (سلطان بن سيف) مدينة (نزوى) عاصمة لحكمة بدلاً من (الرستاق) ذات المكانة المميزة لدى علماء الدين الاباضية، ويُعتقد أن الإمام أقدم على ذلك نظراً لما تتميز به (نزوى) من موقع استراتيجي فريد، حيث تتوسط الأراضي العمانية، وترتفع عن سطح البحر بمقدار (١٩٠٠) قدماً، كما أنها تقع عند قدم الجبل الأخضر، وتتكون من قسمين هما (علايّة) و (سفاله) ويفصل بينهما وادي (كلبوه)، وتبعد عن (أزكى) عشرين ميلاً وعن (بهلى) أيضاً عشرين ميلاً، ولموقعها الفريد في الداخل نسبه إلى المدن العمانية وغناها زراعياً فقد فضّل الامام (سلطان) أن تكون المقر الرسمي لحكومة الامامة في عهده في الوقت الذي ظلت فيه (الرستاق) ذات أهمية دينية وسياسية. انظر: ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٩١؛ سعاد ماهر، الاستحكامات الحربيّة بسلطنة عمان، ص ٢١٣.

٣) السيابي، عمان عبر التاريخ، ج ٣، ص ٢٢٨.

أما الموقف البرتغالي فإن حكومة (لشبونه) لم تدرك عمق التغيرات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها عمان بإحياء الإمامة ، وقيام الدولة اليعربية، بل كان البرتغاليون يعتقدون أن وفاة الإمام (ناصر بن مرشد) كفيلة بإعادة البلاد إلى الفوضى والتفكك.[١] وعندما جاءتهم الضربة المجهزة من الإمام (سلطان بن سيف) حاولوا استدراك مافات، فمنذ وصول أنباء دخول العمانيين (مسقط) إلى نائب الملك بالهند (دوم فيليب Dom Filippe) عن طريق إحدى السفن التي نجت من هزيمة (مسقط) بعث على الفور برسالة إلى الملك يحمّل فيها قائد حامية (مسقط) مسؤولية الهزيمة، وقد زعم فيها نائب الملك بأن العمانيين لم يواجهوا عند دخولهم آية دفاعات، بل ولاحتى مجرد اليقظة والحذر، رغم حالة الحصار المفروضة، والتي بسببها تراجع القائد إلى القلعة مرتكباً بذلك خطأ جسيماً حيث ترك كميات كبيرة من المواد الغذائية وملح البارود والذخيرة والأسلحة في المركز، وأخبره بأنه سيرسل على الفور أسطولاً لاستعادة (مسقط) وانقاذ مايمكن انقاذه.[٢]

لقد جاء الرد البرتغالي على الفور وذلك عندما اتجهت سبع سفن برتغالية إلى الخليج عن طريق الشواطىء الفارسيّة، وتوقفت في ميناء (كونج) حيث على مايبدو أن البرتغاليين كانوا يريدون الحصول على مساعدة فارسيّة ضد العمانيين، ولكن تلك السفن توجهت دون إبطاء إلى (مسقط) ووصلت بعد فوات الأوان، ولم تستطع تقديم أية مساعدة، أو القيام بأي محاولة، فالعمانيون كانوا قد مكّنوا أنفسهم من المدينة، لذا لم

---

١) صلاح العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي، ص ٩٦.

2) (10R). I/3/141. Documents, 60, fol, 331, p.2

تجر أي محاولة لاسترجاع القلاع من قِبَل هذه القوة.[1]

وتكررت المحاولة بعد فترة وذلك عندما أرسل البرتغاليون أسطولاً آخر إلى الخليج لمحاولة استرداد (مسقط) وعن طريق (كونج) اتّجه الأسطول إلى (القطيف)، وبالقرب منه دارت معركة بحرية بين البرتغاليين وبين العمانيين الذين استخدموا في هذه المعركة بعض السفن الحربيّة البرتغالية التي استولوا عليها بعد تحرير (مسقط)، وتمكن العمانيون من قتل القائد البرتغالي (جودنهو) وعدد من جنوده وتراجع الأسطول البرتغالي بعد أن استولى العمانيون على ثلاث سفن برتغالية احداها تجارية.[2] ويُذكر أن هذا الأسطول قد زوّد بتعليمات أخرى في حالة عدم استطاعته استرداد (مسقط)، وتلك التعليمات تقضي بأن يبحث هذا الأسطول عن قاعدة جديدة على السواحل الفارسيّة، أو في سواحل الأحساء، ويظهر أن حكومة فارس قد عرضت على البرتغاليين جزيرة (هنجام) الواقعة إلى الشمال الشرقي من مضيق هرمز والقريبة من الساحل الفارسي، وأن تكون لهم حقوق تحصينها وتعزيزها، ولكن البرتغاليين رفضوا العرض الفارسي وذلك لتصورهم أن وجود قاعدة لهم في (خصب) على الساحل العماني أو في أي مكان آخر من هذا الساحل سيكون أفضل بالنسبة لهم.[3] ويذكر نائب الملك في احدى رسائله إلى

---

1) Ibid, p.6 ;
The Carmelities, op.cit, vol, I, p.359;
ولسون، تاريخ الخليج، ص ١٢٣؛ رميض، معركة تحرير مسقط، ص ١١١.

2) (10R). I/3/140, Documents., 61, fol. 578, p.I, Letter Viceroy to the king 26 December 1651;
رميض، معركة تحرير مسقط، ص ١١١.

٣) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ٦٧؛ ويشير (باثرست Bathurst) إلى ذلك بشكل مختلف حيث ذكر أن نية البرتغاليين كانت تتجه إلى التفاوض مع

الملك بأن والي (خصب) قد وعدهم بالتعاون معهم في بناء حصن لهم في بلدته، ولكنه يذكر أنه يشك في وعده، ويعوّل على مساعدة فارس.[١] وتجدر الإشارة إلى أن كثيراً من الباحثين يشيرون إلى أنه ليس لعمان أية قوة بحرية قبل تحرير (مسقط) وأن السفن البرتغالية التي تم الإستيلاء عليها في أعقاب استعادة (مسقط) هي التي شكّلت نواة الأسطول العماني، ولكننا نجد بعض الباحثين - وهم قلّة - يشيرون إلى نشاط البحرية العمانية قبل تحرير (مسقط) ومنهم (مايلز Miles) الذي ذكر أن الإمام (سلطان بن سيف) قام بزيارة سفنه قبل بدء الهجوم على (مسقط)[٢] وفي اعتقادي أنه ليس من المستبعد أن العمانيين كانوا يملكون قوة بحرية صغيرة قبل تحرير (مسقط)، فإذا كان العمانيون قد استعادوا (صحار) عام ١٠٥٣هـ / ١٦٤٣م، وهي من الموانىء الهامة، ومكّن لهم ذلك اتصالهم بالعالم الخارجي، وبدأت سفنهم التجارية تمخر عباب البحر إلى الهند وساحل شرق إفريقية، فإنه ليس من المستبعد كما قلت أن يحاول العمانيون امتلاك بعض السفن الحربية التي اقتصر نشاطها على السواحل العمانية، على أنه من المؤكد أن السفن الحربية البرتغالية الكبيرة التي تم الاستيلاء عليها قد شكلت العمود الفقري للبحرية العمانية.

لقد كان لطرد البرتغاليين من الساحل العماني آثار بالغة الأهمية، ليس

حاكم فارس حول التخلي عن جزيرة (هرمز) أو (لاراك) إلاّ أن كل ماتمخضت عنه المفاوضات لم يزد عن منحهم موقعاً على جزيرة (هنجام) لبناء تحصيناتهم شريطة أن يرسلوا عدداً من السفن لإحتلال هذا الموقع، ومأأن غادر الأسطول البرتغالي ميناء (كونج) الذي تمت فيه المفاوضات حتى وصلته قوة عمانية استولت على سفينة حربية وعدد من السفن التجارية البرتغالية واقتادتها إلى (مسقط. انظر: Op.cit, pp.112-13.

1) (10R). I/3/140, Documents, 61, fol. 578, pp. 3-4

٢) الخليج بلدانه وقبائله، ص ٢٠٧.

بالنسبة إلى عمان فحسب، بل أيضاً بالنسبة للتجارة الدولية عبر منطقة الخليج العربي، حيث لم يعد البرتغاليون في وضع يمكنهم من عرقلة هذه التجارة عن طريق القرصنة وفرض الرسوم الباهظة على مرورها، وأيضاً بالنسبة إلى الاتصال التجاري مع الهند وساحل شرق إفريقية، كما أدى ذلك إلى هجرة القبائل العربية والعمانية من الداخل إلى الساحل لاستئناف نشاطها القديم في الملاحة والتجارة،[1] وقد تحدث عن ذلك مؤرخون معاصرون، فقد قال (عبدالله بن علي الوزير): «لمّا ملك صاحب عمان بندر مسكت (مسقط) الذي في سواحل بلاده، وكان في أيدي الفرنج البرتكيس (البرتغاليين)، سلك الناس في البحار وأمن التجار من أولئك الفجّار.»،[2] كما بدأت أيضاً الإتصالات تعود إلى طبيعتها الأولى بين عمان وساحل شرق إفريقية، وقد أحس البرتغاليون بخطورة عودة تلك الإتصالات بالنسبة لوجودهم في ساحل شرق إفريقية، بل أصبحت مثار قلق لنائب الملك البرتغالي بالهند الذي كتب إلى الملك بعد سنة من تحرير (مسقط) قائلاً: «إن هذا العربي يبدو على درجة كبيرة من الكفاية الذاتية، الأمر الذي يستلزم أسطولاً ضخماً لتحطيم قوته وتخليص هذه البحار من خطره، ومنعه من التقدم نحو (ممباسه) في ساحل شرق إفريقية، وهو الأمر الذي يستطيع فعله بسهولة لو ترك له الحبل على الغارب، هذا بالإضافة إلى ضرورة عدم إتاحة الفرصة له كي يصبح قدوة لملوك وأمراء المناطق المجاورة فيحذون حذوه».[3]

---

١) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٩٤؛ أحمد شلبي، تاريخ عمان ونشاطها الداخلي، ص ٤٠؛ عبدالعزيز عوض، الإحتلال البرتغالي لموانىء الجزيرة العربية، ص ٢٠.

٢) طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى، تحقيق محمد عبدالرحيم جازم، ج ١، مركز البحوث والدراسات اليمني، صنعاء ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣، ص ٨٩ - ٩٠.

3) (10R). I/3/141. Documents., 61, fol. 578, p.2

والواقع أن طرد البرتغاليين من (هرمز) عام ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م ثم طردهم من (مسقط)، قد أضاع لقبين هامين من ألقاب ملوك البرتغال وهما (سيد الفتح والملاحة في جزيرة العرب وفارس) ولم يبق للبرتغاليين في منطقة الخليج سوى أثر بسيط هو عبارة عن وكالة تجارية في ميناء (كونج) الفارسي، ولقد كان للانتصارات العمانية على البرتغاليين في (مسقط) صداها عند المسلمين في ساحل شرق إفريقية، فما أن وصلت إليهم تلك الأخبار حتى حفزت الأهالي هناك وبخاصة (زنجبار وبمبا وممباسة وبتّة) إلى طلب النجدة من الإمام (سلطان بن سيف الأول) لمساعدتهم على التخلص من السيطرة البرتغالية، وعمت الثورة معظم المدن والجزر هناك.(١)

---

1) (10R). I/3/140, Documents, 56, fol, 466, p.5, Letter Viceroy to the king 28th January 1653

* استنجاد المسلمين في ساحل شرق إفريقية بالإمام سلطان والهجوم على زنجبار وبتة عام ١٠٦٣هـ / ١٦٥٢م :

لقد أصيب الوجود البرتغالي بخسائر وتدهورٍ في أوضاعهم في ساحل شرق إفريقية نتيجة الضعف العام الذي كانت تعانيه الامبراطورية البرتغالية في الشرق، حيث كانوا يفقدون سيطرتهم هناك بشكل مستمر وعلى مدى بضعة عقود، وقد جعلت الروابط الدينية والتجارية الراسخة والتي قامت منذ زمن بعيد بين العمانيين وسكان ساحل شرق إفريقية، جعلت من غير الممكن تجنب الصدام العماني البرتغالي واتساع نطاقه حتى شرق إفريقية.[1] على أنه تجدر الإشارة إلى التأثير العماني على سير الأحداث في ساحل شرق إفريقية الذي بدأ بعد استرداد العمانيين ميناء (صحار) عام ١٠٥٣هـ / ١٦٤٣م، وذلك عندما بدأت السفن التجارية العمانية تتردد إلى هناك. ومن المؤكد أنها كانت تنقل معها أخبار الانتصارات العمانية على البرتغاليين في عمان.[2] لذا نلاحظ أنه ابتداءً من عام ١٠٥٥هـ / ١٦٤٥م وحتى عام ١٠٦١هـ / ١٦٥١م أخذ المسلمون هناك والقبائل الأفريقية المنتشرة حول الساحل تشن حرباً على البرتغاليين، مما دفع حكومة البرتغال إلى تكليف (فرانسسكوا كابريرا Francisco Cabreira) لقمع تلك الحركات واستعادة السيطرة على الساحل، واستباق التدخل العماني واحباطه. [3] ولكن ذلك لم يجد، حيث تأكد حكام وأمراء المدن هناك من قدرة عمان على تحدي تحكم البرتغاليين وسيطرتهم على الساحل، الأمر الذي حثهم على خرق معاهداتهم مع البرتغاليين وطلب العون من عمان.[4]

---

1) Coupland, R. op.cit, p.66;

وندال، تاريخ عمان، ص ٦٢.

2) (10R). E/3/19, 1962.

3) Strandes, J., op.cit, pp. 226-7.

٤) صلاح العقاد، جمال قاسم، زنجبار، ص ٣٠.

شكّل طرد البرتغاليين من عمان نقطة الانطلاق للجهاد العماني خارج الأراضي العمانية، حيث استجاب الإمام (سلطان بن سيف) إلى طلب المساعدة الذي تقدمت به كل من (زنجبار وبتة) وذلك عندما شنت السفن العمانية هجوماً على الحامية البرتغالية في (زنجبار) في أوائل عام ١٠٦٣هـ / ١٦٥٢م، وتمكنت من قتل جميع أفرادها وبعض المنصرين، فذهبت جهود (كابريرا) أدراج الرياح،[1] ثم اتجهت القوة العمانية بعد ذلك إلى (بته) و (فازا) وحررتهما من السيطرة البرتغالية، كما جعل الخوف من العمانيين الكثير من الحكام المحليين يتبرأون من المواثيق والمعاهدات التي سبق وأن أبرمها معهم القائد البرتغالي (كابريرا)، كما عمت ثورة عارمة معظم مدن الساحل ضد البرتغاليين.[2]

لقد كان من نتائج تلك الحملة رغم تواضعها فشل مخططات (كابريرا)، والملاحظ أن العمانيين بادروا بإرسال نجدة لمساعدة المسلمين في ساحل شرق إفريقية في وقت لم يمض بعدُ عامان على طرد البرتغاليين من عمان، ولم يكتمل فيها بناء القوة البحرية العمانية القادرة على التصدي للقوة البحرية البرتغالية في تلك الفترة. وفي تقديري أن الإمام (سلطان بن سيف) هدف من وراء ذلك - في المقام الأول - إلى تأكيد الارتباط التاريخي والديني الوثيق بين ساحل شرق إفريقية وعمان، كما أن ذلك

---

1) (10R). I/3/140, Documents., 56, fol, 466, p.5;

السيابي، عمان عبر التاريخ، ج ٣، ص ٢٤٥.

2) (10R) I/3/140, Documents., 56, fol. 466, p.5;

Gray. J., op.cit, p.56;

عبدالرزاق عثمان، البرتغاليون في شرق إفريقية، ص ٤٧؛ عدنان الزبيدي، عمان وسياسة نادر شاه، رسالة ماجستير غير منشورة، المكتبة المركزية جامعة بغداد، رقم ٦٨٤/ب، بغداد ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ٢٩.

بمثابة رسالة موجهة إلى أهالي الساحل يطمئنهم فيها بأنهم لن يكونوا وحدهم بعد اليوم في مواجهة البرتغاليين، ويشكل ذلك أيضاً رسالة موجهة إلى البرتغاليين بأنه يتعين عليهم من الآن أن يواجهوا العمانيين في تلك المناطق.

أدت النتائج التي أسفرت عنها الحملة العمانية إلى حالة من القلق والخوف لدى البرتغاليين، فرأوا بعد إخفاق (كابريرا) في احباط التدخل العماني في ساحل شرق إفريقيه، رأوا أن ترتكز سياستهم العسكرية على مهاجمة عاصمة العمانيين (مسقط)، لتكون المواجهة بينهما في الخليج وابعادها عن ساحل شرق إفريقية، وإجبار السفن العمانية هناك على الانسحاب، إضافة إلى أنهم سيعملون على إستعادة سمعتهم في الخليج بعد خسارتهم (مسقط)، وذلك عن طريق إرسال قوة بحرية كبيرة لتعمل ليس على تدمير السفن العمانية فحسب، بل وعلى الحصول على موقع أكثر نفعاً من موقعهم في جزيرة (هنجام)، وإن لم يكون (مسقط) فقد يكون ميناء (خصب) العماني على مضيق هرمز.[1] لذا فقد توجه أسطول برتغالي إلى الخليج عام ١٠٦٣هـ / منتصف ١٦٥٢م بقيادة (أنطونيو سوسا كوتنهو Antonion Sousa Coutnho)، والتقى مع بعض السفن العمانية في (مسقط) وهناك دارت معركة بين الجانبين، قدّر للمدفعية العمانية من على القلاع المطلة على الميناء أن تلعب دوراً حاسماً، حيث أجبرت الأسطول البرتغالي على عدم الاستمرار في القتال بعد أن نجح في الإستيلاء على سفينتين عمانيتين أحداهما سفينة تموين والأخرى حربية.[2] والواقع أن الأسطول البرتغالي لم يغامر بالتوغل في الميناء فاتجه إلى أعالي الساحل العماني

---

1) Danvers, F., op.cit, vol. II, p.299

2) (10R). I/3/140, Documents., 56, fol. 466, p.I;

ولسون، تاريخ الخليج، ص ١٢٣؛ العابد، تحرير ساحل عمان، ص ٤٣.

ملتفاً حول (رأس مسندم) وألقى مراسيه بالقرب من ميناء (خصب) على ساحل عمان، وهناك شجعهم والي (خصب) على الإقامة فيها، وتعهد لهم بالمحافظة على أمن الطرق البرية المؤدية إلى الداخل، وعليه فقد شرع البرتغاليون في بناء حصن لهم وتسليحه بالمدفعية، وفي تلك الأثناء جاء الإمام (سلطان بن سيف) بقوة عسكرية عن طريق البر، وما أن عرف البرتغاليون ذلك حتى بادروا إلى سحب رجالهم وسلاحهم ولاذوا بالفرار.[١]
ومن الواضح أن ذلك قد تم بينما كان جانبٌ من السفن العمانية في ساحل شرق إفريقية، الأمر الذي أجبر الإمام (سلطان) على سحب تلك القوة لمواجهة الخطر البرتغالي على الساحل العماني.[٢] وبذلك يكون البرتغاليون قد نجحوا في عرقلة الجهاد العماني في ساحل شرق إفريقية، وفرض المواجهة على العمانيين في الخليج، وذلك لأن البرتغاليين كانوا يدركون سهولة تعزيز أساطيلهم في الخليج نظراً لقربها من مقر حكومتهم في الهند، وتموينها أيضاً من ميناء (كونج) على الساحل الفارسي الذي يعتبر ملاذاً للسفن البرتغالية نتيجة لتعاطف الحكومة الفارسية معهم، في الوقت الذي يصعب عليهم تحقيق ذلك في ساحل شرق إفريقية الذي كان يعيش في حالة غليان كبيرة ضدهم، ويلقى العمانيون فيه إسناداً قوياً.

بعد أن غادر الأسطول البرتغالي ميناء (خصب) اتجه إلى (كونج) حيث طالب القائد البرتغالي حاكم فارس بدفع حصتهم من عائدات الجمارك، وعند ذلك غادر البرتغاليون الميناء، وفي منتصف عام ١٠٦٣هـ / سبتمبر ١٦٥٢م وبالقرب من جزيرة (قشم) التقى مع قوة عمانية من تسع سفن متوسطة الحجم، وحوالي ثمانين قارباً شراعياً بقيادة (علي بن مسعود) وبالرغم من الشجاعة التي أبداها العمانيون، حيث أحرقوا عدد من السفن البرتغالية من بينها سفية (دي جاما)، إلا أنهم تلقوا هزيمة كبيرة، وارتطم

---

1) (10R). I/3/140, Documents., 56, fol. 466, p.2

2) Danvers, F., op.cit, vol. II, p.300-2

عدد من سفنهم بالشاطىء، وهرب الملاحون طلباً للنجاة، وقد أدى هذا النصر البرتغالي إلى منحهم بعض الثقة التي جعلتهم لايتحاشون المواجهة مع العمانيين،[1] كما أدى أيضاً إلى إحجام كثير من السفن التجارية المحلّية العمانية والعربية عن محاولة الخروج خارج نطاق (مسقط).[2]

وتشجع نائب الملك بالهند واعد قوة بحرية من ست سفن كبيرة تحت قيادة (نيدام دي بينتوNidam De Bineto) وعهد إليه التوجه إلى ساحل إفريقية، واخماد الثورات هناك، وتأديب الحكام الذين تعاونوا مع العمانيين، وتعزيز حامية (ممباسة).[3] ولكن اضطراب الأحوال في المستعمرات البرتغالية في الهند نتيجة الضغوط التي كانوا يتعرضون لها من الهولنديين وبعض ملوك المقاطعات الهندية قد حال دون ارسال تلك السفن الست، واكتفى نائب الملك بإرسال سفينة واحدة كبيرة وبعض القوارب الصغيرة.[4]

لقد أصيبت البحرية العمانية بأضرار كبيرة نتيجة هزيمتهم بالقرب من (قشم)، وأصبح الإمام (سلطان بن سيف) يحتاج إلى وقت كبير لتعويض تلك الخسارة، في الوقت الذي تعززت فيه البحرية البرتغالية، حيث وصلت إلى ستين سفينة تقريباً من مختلف الأحجام تجوب مياه الخليج خمسون منها

---

1) (10R). I/3/140, Documents., 56, fol. 466, p.3;

مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٩٥.

2) (10R). I/3/140, Documents , 56, fol. 466, p.4

3) ibid, p.5.

4) (10R). I/3/140, Documents., 56, fol. 491, p6, Letter viceroy to the king 4th March 1653.

قصرت تحركاتهاحول (مسقط)، وفارضةً حصاراً اقتصادياً، وذلك باغلاق جميع الطرق البحرية المؤدية إليها، وفي ظروف هذا الحصار المفروض على (مسقط) كانت هناك تقارير تفيد بأن الإمام (سلطان بن سيف) على استعداد لعقد هدنة مع البرتغاليين لرفع الحصار مقابل تنازلات في ميناء (مسقط).[1] والواقع أنه لم يتم شيء في هذا الصدد رغم تحدث بعض التقارير عن ذلك، والواضح أن الإمام (سلطان بن سيف) استطاع الصمود في وجه هذا الحصار إلى أن أجبرت الحرب الدائرة آنذاك بين البرتغاليين والهولنديين في شبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا أجبرت البرتغاليين على رفع الحصار، وقد تأثر ساحل شرق إفريقية بأحداث الخليج تلك، حيث اضطر العمانيون إلى عدم إرسال أي حملات إلى هناك ريثما تتحسن الأوضاع.

أدرك الإمام (سلطان بن سيف) أنه - يتعين عليه - إن هو أراد مواصلة جهاده ضد البرتغاليين في ساحل شرق إفريقية، أن يدعم ويعزز أسطوله البحري، حيث إن الصراع بالدرجة الأولى هو صراعٌ بحريٌّ، ولأن امتلاك قوة بحرية موازية لقوة العدو يعد أمراً حاسماً.[2] لذا بدأ العمانيون يعدون أماكن لبناء السفن وبخاصة في كل من مينائي (مطرح وصور)، وقد قاموا بجلب الأخشاب بمختلف أنواعها من ساحل الهند الغربي أما الأشرعة فكانت تصنع في (صحار) وبعض المدن العمانية، كما كانت أيضاً تجلب من البحرين،[3] كما أخذوا بتطوير أسلوب صناعة السفن على الطراز الأوربي، بالإضافة إلى شراء سفن أخرى من بعض

---

1) (10R). E/3/23. 2296, Letter Isfahan to company 10 December 1652

٢) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٩٥؛ وزارة التراث القومي والثقافة بعمان، عمان تاريخاً وعلماء، ترجمة محمد أمين عبدالله، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ٩.

٣) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص١٩٥؛ رميض، معركة تحرير مسقط، ص ١١١ - ١١٢.

الدول الأوربية مثل الانجليز والهولنديين، ويمكن تقسيم السفن العمانية من حيث حجمها ونوعها إلى نوعين يختلف أحدهما عن الآخر، فنوع (البدن) و (البغلة) مخصص للتجارة في البحار العالمية، وقد شكلت قطع الأسطول العماني، وهي ذات المؤخرة العالية، كما تم تسليحها بالمدافع، بينما يستخدم النوع الآخر وهو من السفن الصغيرة مثل (العبرة والبقارة)[١] وغيرها في التجارة المحلية، ونقل الركاب إلى مكان قريب، وبالإضافة إلى ذلك كانت السفن الكبيرة ومعظمها حربيّة تصنع في (سورات) على ساحل الهند الغربي، وكذلك على نهر السند في أحواض بناء السفن البعيدة عن أعين الأوربيين، ومزودة بالأسلحة والمدافع الثقيلة.[٢]

نجح العمانيون في التكيّف مع الأساليب الحديثة في صناعة السفن والأخذ بها، وقد مكّنهم هذا النجاح في اتقان هذه الأساليب من خلال السفن التي تم أسرها والاستيلاء عليها من البرتغاليين أو المتعاونين معهم، واستخدموها واستوعبوها دون وسيط،[٣] كما أدى اتصال البحرية العمانية بالأساطيل الأوربيّة إلى إدخال مظاهر جديدة وكثيرة في محيط الحياة البحرية العمانية. من أهمها استخدام المسامير الحديديّة في صناعة السفن بدلاً من الحبال، وكذلك تصميم مؤخرتها بشكل عريض،[٤]

---

١) حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص ٢٤٥؛ وزارة الإعلام بعمان، عمان وتاريخها البحري، مسقط ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ٦٤.

٢) لورنس لوكهارت، التهديد العماني ونتائجه في أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، ترجمة علاء الدين حسين، مجلة الخليج العربي، العدد العاشر، جامعة البصرة ١٩٧٨، ص ٩٠ - ٩١؛ أحمد شلبي، تاريخ عمان ونشاطها الداخلي، ص ٤٢ - ٤٣؛ جمال قاسم، الخليج العربي، ص ١١٤.

3) MArtin, F. A., Memoirs de Francois Mertin Fondateurde pondichery 1665 - 1696, vol. I, (Paris, 1931 - 1934), p.201;
لاندان، عمان منذ ١٨٥٦ مسيراً ومصيراً، ص ٥٠؛ وزارة التراث والثقافة بعمان، عمان في أمجادها البحرية، ص ٤٤.

٤) وزارة الإعلام بعمان، عمان وتاريخها البحري، ص ٦٢ ؛ وزارة التراث والثقافة بعمان، عمان في أمجادها البحرية، ص ٦٤؛ العابد، تحرير ساحل عمان، ص ٤٣.

ويضاف إلى ذلك توافر المهارات اللازمة للسفن الكبيرة واستخدامها للقتال، حيث إن العديد من العمانيين والعرب القاطنين على الضفة الغربيّة للخليج العربي كانوا قد عملوا على الأساطيل البرتغالية أسوة بغيرهم من الهنود وبعض الأوربيين، ومن المؤكد أن هؤلاء العمانيين وغيرهم من العرب أسهموا في بناء وتطوير الأسطول الحربي العماني اعتماداً على خبراتهم السابقة.[1] وبذلك شهدت تلك الفترة تحول عمان إلى قوة بحرية كبيرة تتطلع بدورها للسيطرة على منطقة واسعة في الخليج العربي والمحيط الهندي، وأصبح الأسطول العماني يضم بين جنباته سفناً كبيرة مزودة بالمدافع وقادرة على مقارعة البرتغاليين.

إن تطور القوة البحرية العمانية ونموها بهذا الشكل السريع بدأ يثير المخاوف لدى بعض القوى الأوربيّة في المحيط الهندي، وبخاصة الانجليز، فقدِ كتب (فرايرFryer) في أثناء وجوده في (سوارت) يحذر فيه من نمو القوة البحرية العمانية قائلا: «إن هؤلاء (أي العمانيين) قد جهزوا أنفسهم مؤخراً بسفن قوية في (سوارت) رغم أن بلدهم لايزودهم بالمواد اللازمة للبناء، لذا فقد بدأوا باعتراض التجار في البحار، وفرض الأسعار الأرخص التي يريدونها» ويضيف قائلاً: «ومالم يوضع حد لهذا التطور وايقافهم عند حدهم فإنهم سيكونون وباءاً في هذا المحيط وفي الخليج العربي الذي يتربعون على مداخله بارتياح.»[2]

---

1) Bathurst, R.D., op.cit, p.111;

أحمد جلال التدمري، الصراع الدولي حول الخليج، قراءة في الوثائق الهولندية، مجلة الوثيقة، العدد الثاني عشر، السنة السادسة، البحرين ١٤٠٨هـ / يناير ١٩٨٨م، ص ٥٨.

2) Fryer, J., New Account of East India and Persia being Nine years. Travels 1672 - 1681, ed. W. Crooke, Hakluyt Society, vol.I, (London, 1915) pp. 290-3.

* حملة بقيادة الإمام سلطان والإستيلاء على ممباسة بعد حصارها عام ١٠٧١ - ١٠٧٦هـ / ١٦٦٠ - ١٦٦٥م :

بعد النجاح الذي حققته الحملة العمانية في ساحل شرق إفريقية عام ١٠٦٣هـ / ١٦٥٢م، أبدى البرتغاليون انزعاجهم وقلقهم من أن يصبح ساحل شرق إفريقية في المستقبل ميدان مواجهة بينهم وبين العمانيين، لاسيما وأنه أصبح الملاذ الوحيد للبرتغاليين والبعيد عن تهديد نفوذ الدول الأخرى وبخاصة انجلترا وهولندا، لذا عمد البرتغاليون إلى القيام بحركة تأديبيّة واسعة النطاق في ساحل شرق إفريقية وبخاصة ضد المدن التي تعاونت مع الحملة العمانية وتواكب ذلك مع عملياتهم العسكرية ضد العمانيين في الخليج،[١] ورافق ذلك تعصب ديني صارخ، واستخدم البرتغاليون خلاله كافة أساليب القمع والوحشية، أما العمانيون فإنهم بعد الحملة الأولى أدركوا - كما ذكرنا - ضرورة تعزيز قدراتهم العسكرية البحرية في حالة قيامهم بعمل حاسم ضد البرتغاليين في ساحل شرق إفريقية.[٢] لذا فإنه من الواضح أن العمانيين بدأوا في هذه الفترة على الأقل انتهاج سياسة دفاعية تقضي بالدفاع عن الشوطىء العمانية وامتصاص الهجمات البرتغالية عليها، إضافة إلى تركيز وجودهم في الخليج

---

١) المعمري، عمان وشرق إفريقية، ص ٦٦؛

Gray, J., History of Zanzibar from the Middle Ages to 1856, (London, 1962), p.57.

٢) يعزو (دانفرز Denvers) و (جراي Gray) التعصب الديني والوحشية التي انتهجها البرتغاليون في عملياتهم التأديبية التي أعقبت حملة ١٠٦٣هـ / ١٦٥٢م إلى ماقام به العمانيون من قتل واضطهاد للمنصرين ورجال الدين المسيحيين أثناء تلك الحملة. انظر :

op.cit, vol, II, p.302;

History of Zenzibar, op.cit, p.15.

كقوة لها وزنها، وانتظار ماستسفر عنه النزاعات الدولية في المحيط الهندي وجنوب شرق آسيا وانعكاساتها على الأوضاع في عمان وساحل شرق إفريقية، وبخاصة النزاع البرتغالي الهولندي والبرتغالي الانجليزي، وهذا - في تقديري - أحد الأسباب التي دفعت العمانيين إلى التريث في إرسال حملة إلى ساحل شرق إفريقية بعد حملة عام ١٠٦٣هـ / ١٦٥٢ مباشرة.

وتجدر الإشارة إلى أن صراع البرتغاليين مع الهولنديين في الفترة ١٠٣٤ - ١٠٦٥هـ / ١٦٢٤ - ١٦٥٤م استنزف قوتهم، إذ شنت شركة الهند الهولندية حرباً مستمرة ضد البرتغاليين، وتعرضت المواقع البرتغالية في ساحل الهند الغربي إلى هجمات متتالية عرّضتها لخسائر فادحة.[1] فقد خسر البرتغاليون أربعين سفينة في احدى المعارك الحربيّة بينهما، ثم بعد ذلك ركز الهولنديون هجماتهم ضد البرتغاليين في جنوب شبه القارة الهندية فيما بين عامي ١٠٦٥ - ١٠٦٦ هـ / ١٦٤٤ - ١٦٥٥م، ولم يأتي عام ١٠٧٤هـ / ١٦٦٣م إلاّ والمواقع التي كانت للبرتغاليين في تلك المنطقة تحت السيطرة الهولندية.[2] والواقع أن خسائر البرتغاليين الفادحة في تلك المناطق قد أثرت على قدراتهم العسكرية بشكل كبير رغم احتفاظهم بمواقع مهمة في ساحل الهند الغربي، ومن الطبيعي - إزاء تلك الخسائر - أن يولوا مواقعهم ونفوذهم في ساحل شرق إفريقية اهتماماً خاصاً، لاسيما وأن تلك المناطق لاتزال بعيدة عن نفوذ الأساطيل الأوربية الأخرى.

---

1) (10R). I/3/139, Documents, 48, fol. 290, pp.I,2.

2) ibid, pp. 3-4-5-6-7;

سلوت - ج - ب، سطور من تاريخ البحرين والخليج اعتماداً على الوثائق الهولندية، مجلة الوثيقة، العدد الحادي عشر، السنة السادسة، البحرين ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص ٩٦.

وفي الوقت نفسه وجد البرتغاليون أنفسهم على درجة كبيرة من الضعف السياسي نتيجة المعاهدة التي فرضها عليهم الانجليز عام ١٠٧٢هـ / يوليو ١٦٦١م، والتي بموجبها تمت المصادقة على جميع المعاهدات السابقة بين انجلترا والبرتغال، وعلى ضوئها سلمت قلعة (تانجيرTongier) على الساحل الهندي، وميناء (بمباي) إلى ملك انجلترا وخلفائه إلى الأبد، رغم احتفاظ البرتغاليين ببعض المراكز في (بمباي)،[1] وبذلك أصبحت الامبراطورية البرتغالية في الشرق عرضة للتمزيق، ولم يبق لهم من نفوذ كبير إلاّ في ساحل شرق إفريقية.

إن هناك سبباً آخر إن لم يكن أقوى الأسباب التي دفعت بالإمام (سلطان بن سيف) إلى الإحجام عن إرسال قوة بحرية إلى ساحل شرق إفريقية بعد الحملة الأولى أو خلال الفترة التي أعقبتها وهو خطر التحالفات الفارسيّة الأوربيّة على (مسقط) حيث إنه بعد أن تمكن العمانيون من طرد البرتغاليين من (مسقط) نظرت فارس إلى ذلك على أنه بداية لتهديد محتمل أن تتعرض له من العمانيين عطفاً على علاقاتها الوديّة مع البرتغاليين، وفعلاً حدث ذلك عندما أصبحت القوة البحرية العمانية في الخليج قوة مؤثرة، وأخذ العمانيون ينظرون إلى فارس على أنها تتعاون مع الأعداء، وعليه فقد قدمت فارس في عام ١٠٦٧هـ / أغسطس ١٦٥٦م طلباً إلى كل من انجلترا وهولندا لمساعدتها بتوفير السفن لشن حملة على (مسقط) والموانىء العمانية الأخرى، وفي الوقت الذي تردد فيه الانجليز في تقديم هذا الدعم، وافقت هولندا على الفور، وأبدت استعدادها في تقديم خمس

---

1) Danvers, F., op.cit, vol. II, p.331.

عشرة سفينة حربية.[1] ولكن هذا التحالف لم يتم، ولم تنفذ خطة الاستيلاء على (مسقط) في تلك الفترة، ومن المحتمل أن سبب ذلك يعود إلى تردد كل من الإنجليز والهولنديين في تقديم عون فعّال بسبب عدم التأكد من نجاح هذه العملية من جهة، وعدم ثقتهم بوعود الحكومة الفارسيّة من جهة أخرى، إضافة إلى أنهم لايستطيعوا أن يضحّوا بعلاقاتهم من العمانيين بهذه السهولة.

ومن الجدير بالذكر أن العلاقات العمانية الهولندية خلال الفترة التي أعقبت طرد البرتغاليين من (مسقط) كانت علاقة وديّة، فقد كان الهولنديون تواقين إلى أن يحلّوا محل النفوذ البرتغالي في الخليج بأية وسيلة، الأمر الذي دفعهم في أحيان كثيرة إلى التعاون مع العمانيين،[2] وبالرغم من أن حالة الود تلك قد تلاشت بإتفاقهم مع فارس، إلاّ أنها عادت إلى ماكانت عليه بعد ذلك، فقد ذكرت بعض المصادر أن الهولنديين دأبوا على تزويد العمانيين بالذحيرة والأسلحة والنصائح البناءة في حربهم ضد البرتغاليين، الأمر الذي تمكن به العمانيون من زيادة قدرة أسطولهم العسكري [3]

1) (10R). E/3/24, 2560, Letter Isfahan to Company 20 August 1656;
الجدير بالذكر أن نائب الملك البرتغالي في الشرق قد أكد للملك في احدى رسائله المؤرخة في ٢٦ ديسمبر ١٦٥١م بأن الفرس يتعاطفون مع البرتغاليين وأنهم على استعداد للتعاون معهم. انظر:
(10R). I/3/141, Document., 61, fol. 578, p.3.

2) (10R). Haque Transcripts. A. Vol. 18t. p.11. Letter Governor General on council at Batavia to Dirctors 24 December 1652.

3) Carre, Abbe, The Travels of the Abbe Carre in India and the Near East 1672 to 1674, transl. by Lady Fawcett ed. Sir Charles Fawcett, vol.3, (London, 1947 - 48), p.830.

إن الإمام (سلطان بن سيف) لم يُرد لعمان أن تكون بمنأىً عن الأحداث التي تحيط بالمنطقة، كما أنه خشي من تحالف القوى الموجودة في المنطقة على بلاده، لذا فإنه استغل تردد الانجليز بالتحالف مع الفرس ضد عمان، وقبل أن يتخذ الفرس والهولنديون أي إجراء عسكري ضد عمان، كان الإمام قد قرر التفاوض مع الانجليز لإبرام معاهدة معهم.[1] وفعلاً بدأت المفاوضات عندما أرسل الانجليز مندوبهم السيد (رينز فورد Rains Ford) للتفاوض مع الإمام خلال عام ١٠٧٠هـ / منتصف ١٦٥٩م، وقد نتج وضع مقترحات معاهدة بين الطرفين، نصت على تسليم موقع في (مسقط) للإنجليز يحتفظون فيه بقوة تصل إلى مائة جندي، وتسليمهم أحد أحياء المدينة ليكون خاصاً بهم، كما نصت المعاهدة أيضاً على تقاسم عائدات رسوم الجمارك.[2] وتشير التقارير الهولندية عن المفاوضات، بأنه كان على الانجليز أن يبنوا حصناً لهم في الزاوية الشرقية من خليج (مسقط)،[3] وفي الوقت الذي أخذ فيه الانجليز يحثون الخطى لوضع هذه المعاهدة موضع التنفيذ، تراجع الإمام (سلطان بن سيف) عن موقفه، وأوقف العمل بالمعاهدة من جانب واحد، علماً بأنه لم يجر التصديق عليها بصفة نهائية، واكتفى العمانيون بدعوة الانجليز للتجارة في (مسقط) بصفتهم تجاراً فقط، وأن يقيموا مركزاً أو مكتباً تجارياً، ولكن لن يسمح لهم بامتلاك حصن أو قوة هناك.[4]

---

1) (10R). E/3/21, 2119 . Account by Robrt Cocks of voyage in courteenship friendship.
2) (10R). E/3/26, 2813, Letter Surat to company 30 September 1659.
3) (10R). Dutch Records, vol. 23t, p.17 Letter Governer General on Council for India to the Directors 16th December 1659.
4) (10R) G/36/85, p.14, Letter Surat to Company the January 1660;
لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ٢، ص ٦٤٠.

والواقع أن العمانيين لم يعطوا أي تبرير لهذا التغيير، وفي اعتقادي أن الإمام (سلطان بن سيف) قد رغب في البداية في عقد معاهدة مع الانجليز لمساعدته في مواجهة التحالف الهولندي الفارسي المحتمل، أو أنه أراد بذلك الضغط على الهولنديين من خلال اتفاقه مع الانجليز أعداء الهولنديين في تلك الفترة مستغلاً بذلك حاجة الشركة الانجليزية لتنمية تجارتها في المنطقة والتي كانت تواجه بعض الأزمات، بينما لايستبعد أن فكرة المعاهدة مع الانجليز، قد واجهت معارضة داخل عمان نفسها، وبخاصة فيما يتعلق بالسماح لهم ببناء حصن في (مسقط) بينما لم يمض سوى تسع سنوات على طرد قوة أوربيّة من هناك وبصعوبة بالغة بعد احتلال دام حوالي قرن ونصف قرن من الزمان، ومن الجائز القول أيضاً أن الهولنديين قد أعطوا الإمام وعوداً بعدم الهجوم على (مسقط)، أو التحالف مع فارس رغم أنه لاذكر لذلك في السجلات الانجليزية، ومن المحتمل أن يكون هذا السبب هو الذي أدى إلى عدم المضي بعقد هذه المعاهدة من جانب العمانيين.

هذا ومن الثابت أن الإمام (سلطان بن سيف) قدم للهولنديين عرضاً مماثلاً للعرض الذي قدمه للإنجليز وفي السنة نفسها، يتمثل بالإتجار مع (مسقط) وجعلها نقطة عبور بضائعهم إلى أعالي الخليج، ومن المحتمل أن الإمام (سلطان) يريد بذلك أن يجتذب الهولنديين إليه وإبعادهم عن فارس، كما يحتمل أيضاً أنه استغل العداء المرير الذي كان يكنه الهولنديون للبرتغاليين، إضافة إلى إحتمال طلب الهولنديين تلك التسهيلات مقابل عدم تنفيذ اتفاقهم مع فارس، وعدم إعطاء الانجليز تسهيلات واسعة.[1]

نتيجة لتلك الأحداث والتطورات، ونتيجة لزوال التهديد البرتغالي

---

1) Saldanaha. J., Selections from state papers Bombay, op.cit, pp. 548 – 50.

(لمسقط) في تلك الفترة - على الأقل - وذلك عندما اضطر نائب الملك البرتغالي بالهند إلى سحب معظم قطع الأسطول البحري البرتغالي الكبيرة من الخليج والتي كانت تفرض حصاراً على مسقط، وذلك لمواجهة الهجمات الهولندية ضد المواقع البرتغالية في (سيلان)، ومحاولة كبح جماحها، إضافة إلى قيام أحد ملوك المقاطعات الهندية في تلك الفترة بشن هجمات كبيرة ومتتالية على المراكز البرتغالية في (جوا) و (منجلور) وغيرها من تلك المراكز الواقعة على ساحل الهند الغربي [1] - وبعد أن استكمل العمانيون بناء أسطولهم البحري، - بدأوا بالتحول من سياسة الدفاع إلى الهجوم، وبالتحديد سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م حيث بدأت مرحلة جديدة من مراحل الجهاد العماني في ساحل شرق إفريقية، - فكما ذكرنا سابقاً - فقد تعرض الساحل إلى موجة من القمع البرتغالي بعد الحملة العمانية الأولى، تعرض الأهالي خلالها إلى الإضطهاد والظلم، الأمر الذي دفعهم إلى طلب المساعدة من الإمام (سلطان بن سيف) الذي جهز أسطولاً قاده بنفسه، حيث وصل ذلك الأسطول إلى ساحل شرق إفريقية في أوائل عام ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م، وبدأ فرض حصار على (ممباسة)،[2] حيث تم استعادة الحي الوطني من المدينة ومحاصرة القلعة، كما قام جزء من الأسطول العماني بشن هجمات متتالية على امتداد الساحل حتى رأس (دليجاروDelgare)، حيث استعادوا (فازا) و (ماليندي)، وظل الحصار مضروباً على قعلة(يسوع) في (ممباسه)، ولم يأت منتصف عام ١٠٧٣هـ / أغسطس ١٦٦٢م إلا والسفن العمانية قد فرضت سيطرتها على القسم الشمالي من الساحل بإستثناء

---

1) (10R). 1/3/140, Documents., 56, fol. 491, pp. 6-7.

2) Guillain, C., Documents sur l'historie, la geographie, et le commerce de l'Afrique orientale, vol, II, (Paris, 1856),p.513;

المغيري، جهينة الأخبار، ص ١٩٣ - ١٩٤.

(ممباسه) التي ظلت خاضعة للحصار.[1]

كانت القوات العمانية خلال الحصار تتلقى الدعم والمساندة من الأهالي والقبائل المحلية المندفعة والتواقة إلى طرد البرتغاليين، والتخلص من قائد القلعة في (ممباسه) (جوزيف دا سيلفا Joseph Da Silva) الذي كثيراً ما اشتكى السكان المحليون من جبروته وظلمه،[2] وبما أن (ممباسه) كانت تمثل نقطة الارتكاز للوجود البرتغالي في القسم الشمالي من الساحل، فقد كان الإمام (سلطان بن سيف) يدرك تلك الأهمية، ولذا أخذ يعمل على صد المحاولات التي ترمي إلى فك الحصار عنها وبخاصة القادمة من (جوا) بالهند، ومن أجل تحقيق ذلك رأى ضرورة مشاغلة القوات البرتغالية بالهند، ففي عام ١٠٧٢هـ / ١٦٦١م، توجهت قوة بحرية عمانية إلى (بمبايBombay) حيث شنت هجوماً على المراكز البرتغالية، وإضافة إلى ذلك فقد حصل العمانيون على غنائم كبيرة.[3]

ونتيجة لذلك لم تتمكن حكومة الهند من مساعدة المحاصَرين في (ممباسه)، ولم تجدي مطالبة قائد الحامية فيها (جوزيف داسيلفا) بإرسال نجدة عاجلة، والذي أيضاً أبدى امتعاضه الشديد من موقف القبائل المحليّة والأفريقية المساندة للعمانيين، وقد بررت حكومة الهند موقفها بعدم إرسال نجدة إلى (ممباسه) بسبب التهديد العماني لمراكزهم بالهند، إضافة إلى تعدد جباهات القتال مع الهولنديين في الهند وجنوب شرق

---

1) Strndes, J., op.cit, p.229 ;

كيركمان، جي، التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق إفريقية، ص ٢٩٢؛ عبدالرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ص ٨٩.

2) Bathurst, R.D., op.cit, p.120.

3) Law. C.R., op.cit, Vol.I, pp. 311-12.

آسيا،[1] فقد أكد نائب الملك على استحالة إرسال مدافع إلى (داسيلفا) في (ممباسه) لأن هذا كان يعني تجريد الأسطول الحربي الموجود في (جوا) من هذه المدافع.[2] وفي ظل ظروف كهذه فإن نتيجة الحصار باتت معروفة ولايمكن تجنبها.

لقد اضطر قائد الحاميّة البرتغالية في (ممباسه) إلى التسليم بعد استيلاء العمانيين على الميناء مباشرة، وتم دخول القوات العمانية إلى القلعة وذلك في عام ١٠٧٦هـ / ١٦٦٥م بعد حصار دام خمس سنوات،[3] ويُذكر أن الظروف لم تتح استمرار قيادة الإمام (سلطان بن سيف) للقوة العمانية فيشاهد بنفسه سقوط (ممباسه)، فقد عاد إلى عمان قبل سقوط القلعة واستسلام الحامية البرتغالية، وتعزى أسباب ذلك إلى الاضطرابات التي حدثت في عمان.[4] والواقع أن المصادر التي تحدثت عن عودة الإمام لم تشر إلى نوع وماهية الإضطرابات التي أشاروا إلى أنها حدثت

---

1) Owen, W.F., op.cit, vol. II, p.411;

غانم محمد رميض، الصراع البحري العماني البرتغالي في البحار الشرقية، مجلة الوثيقة، العدد الثالث عشر، السنة السابعة، البحرين ٦ ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص ٨٦.

2) Strandes.J., op.cit, p.230.

٣) الأمين بن علي المزروعي، مخطوط تاريخ ولاية المزارعة في إفريقية الشرقية، نسخة مصورة في قسم التصوير العلمي والميكروفلم بالمكتبة المركزية جامعة أم القرى بمكة المكرمة تحت رقم ٢٩٠٤، مأخوذ عن الأصل الموجود لدى ورثة السيد علي جعفر الوهط السقاف العلوي الحضرمي بمكة المكرمة، ورقة ١٦؛ المغيري، جهينة الأخبار، ص ١٩٣؛ حراز، إفريقية الشرقية والاستعمار الأوربي، ص ٣٥؛ المعمري، عمان وشرق إفريقية، ص ٦٦.

4) Owen, W.F, op.cit, vol.II, p. 414 ;

المعمري عمان وشرق إفريقية، ص ٦٦.

في عمان، كما أنها لم تشر أيضا إلى تاريخ عودة الإمام، ومما يؤسف له أشد الأسف أن المؤرخين العمانيين لم يكتبوا لنا أخبار جهاد العمانيين بالتفصيل الواسع الذي اعتادوا أن يكتبوا به معاركهم القبليّة المحليّة، كما أن تلك المصادر لم تشر إلى أي اضطرابات داخليّة حدثت في عمان إبان عهد الإمام (سلطان بن سيف الأول)، وفي اعتقادي أن عودة الإمام من ساحل شرق إفريقية طبيعية إذ لايعقل أن يغيب عن بلاده لمدة خمس سنوات وهو الحاكم العام فيها وتحتاج إلى من يرعى شئونها ويدافع عنها لاسيما وأن التهديد البرتغالي مازال قائما، بل لايستبعد أن الإمام عاد قبل سقوط (ممباسة) بسنوات.

ومهما يكن من أمر فإن القوات العمانيّة قد أجهدت من طول مدة الحصار، فلم يواصلوا تأكيد سيطرتهم على (ممباسه) وبقية أجزاء الساحل، وكان ذلك مؤلماً لأهالي الساحل، الأمر الذي مكن البرتغاليين من اعادة فرض سيطرتهم على (ممباسه) مرة أخرى،[١] ولايعرف على وجه التحديد تاريخ سيطرة البرتغاليين ثانية على (ممباسه) بعد ذلك الحصار الناجح الذي فرضه العمانيون، إلاّ أن المؤكد كما ذكر (أوين Owen) أن البرتغاليين قد عادوا بقوات لخوض المعركة مع العمانيين في (ممباسه) فقاتلوهم حتى تمكنوا من اخراجهم من القلعة، وأصبح البرتغاليون يسيطرون على المدينة سيطرة تامة، كما ذكر أنهم بدأوا بممارسة جبروتهم المعهود، فظلموا شعب الساحل، وحكموا عليهم بالموت بسبب لجوئهم إلى طلب المساعدة من العمانيين، الأمر الذي أدى إلى هروب عدد كبير من السكان خارج (ممباسه)،[٢] وقد أورد (جيان Guillain) ماذكره (أوين) إلاّ

---

١) المزروعي، تاريخ ولاية المزارعة في إفريقية الشرقية، ورقة ١٦؛

Guillain, C., op.cit, vol. 11, p.514;

Coupland, R., op.cit, p.67.

2) op.cit, vol. II, pp.414-15.

أنه يحدد استعادة البرتغاليين (لممباسه) بعد سنة من سقوطها بيد العمانيين، أي في عام ١٠٧٧هـ / ١٦٦٦م.[١]

لقد تلا ذلك عملية تطهير قام بها البرتغايون ضد مدن الساحل لتعاونها مع الحملة العمانية، ولكن السكان لم يذعنوا، بل زادوا من مقاومتهم وكراهيتهم للبرتغاليين الذين قاموا إزاء ذلك بتعيين بعض حلفائهم من المسلمين على بعض المدن هناك محاولة منهم لتخفيف حدة الغضب والكراهية ضدهم، ولكن ذلك لم يسفر إلا عن ازدياد الغليان والغضب بين السكان،[٢] وفي الوقت الذي استعاد فيه البرتغاليون سيطرتهم على (ممباسه) فإن سيطرتهم على بعض أجزاء الساحل الأخرى لم تتم بسهولة، فقد واجهوا مقاومة عنيفة في كل من (بتة - سيو - ماند) وظلت تلك المدن والقرى تقاوم حيث مازال تأثير العمانيين فيها كبيراً بإستثناء (فازا).[٣] والواقع أن هذه الحملة وفتح (ممباسه)، وقيام الإمام (سلطان بن سيف الأول) بقيادة هذه الحملة بنفسه، دليل على الاهتمام الذي كان يوليه

---

1) op.cit, vol, II, p.514;

ويذكر بعض الباحثين المحدثين أن البرتغاليين سيطروا على (ممباسة) ثانية عام ١٦٦١م وبناء عليه يكون حصار القلعة لمدة سنة فقط، كما يذكر أيضاً بأن العمانيين لم يستطيعوا السيطرة على القلعة بل سيطروا على المدينة فقط وذلك بسبب عودة الإمام (سلطان) إلى عمان بسبب الإضطرابات هناك، وهذا غير صحيح لأن أغلب المصادر التي تحدثت عن تلك الحملة تشير إلى أن الحصار دام خمس سنوات وأن القلعة سقطت عام ١٦٦٥م ومن المحتمل أن البرتغاليين استعادوها عام ١٦٦٦م. انظر: السيّار، دولة اليعاربة، ص ٩٦.

٢) المرزروعي، تاريخ ولاية المزارعة في إفريقية الشرقية، ورقة ١٦؛ السيار، دولة اليعاربة، ص ٩٧.

3) Coupland, R., op.cit, pp.66-7;

كيركمان، جي، التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في ساحل شرق إفريقية، ص ٢٩٢.

العمانيون لساحل شرق إفريقية، وهو اهتمام ينبع ولاشك من عمق الروابط الدينية والحضارية بين عمان وتلك المناطق، إذ لو كان غير ذلك مثل الأهداف التجارية لكان بمقدور العمانيين أن يزاولوا التجارة في تلك الفترة بكل حرية سواء مع ساحل شرق إفريقية أو مع الهند، مثلهم مثل الانجليز والهولنديين والأرمن والهنود والمصريين واليمنيين وغيرهم، ولكن من المؤكد أن الجهاد العماني في تلك المناطق لم يكن لأهداف استراتيجية وسيتضح ذلك فيما بعد.

والملاحظ أن البرتغاليين حتى ذلك الوقت تجنّبوا المواجهة المباشرة مع العمانيين في ساحل شرق افريقية، وهذا في اعتقادي عائد إلى عدة أسباب هي: الأول: أن البرتغاليين كانوا يعتقدون أن أية مواجهة مع العمانيين هناك ليست مضمونة النتائج نظراً للتأييد شبه المطلق الذي يحظى به العمانيون من سكان الساحل وثوراتهم المستمرة ضد البرتغاليين. والثاني: أن الهجمات العمانيّة نفسها تتم على شكل غارات متقطعة ومتباعدة أحياناً. أما الثالث فإن البرتغاليين مازالت تراودهم آمال استعادة (مسقط) وضرب الامامة العمانية في العمق، الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى انعدام تأثيرهم على ساحل شرق إفريقية. ولقد أدرك العمانيون هذا الواقع فاحتفظوا بالجزء الأكبر من أسطولهم في مياه الخليج تحسباً لأي هجموم برتغالي محتمل.

ويظهر ذلك بوضوح بعد سقوط (ممباسه) بيد العمانيين الآنف الذكر، فبالرغم من أن حكومة (جوا) لم ترسل تعزيزات إليها لمقاومة الحصار، فإننا نجد أن نائب الملك آنذاك (جوا دا كونها Joao Da Cunha) وبعد استعادتهم (لممباسه) مباشرة قد قرر تأديب العمانيين (على حد قوله)، ومنعهم من الاتصال بسكان ساحل شرق إفريقية أو تقديم المساعدة لهم، حيث أعد في عام ١٠٧٨هـ / ١٦٦٧م أسطولاً من ثمان سفن كبيرة وخمسين

سفينة صغيرة، وأبحر هذا الأسطول بنيّة مهاجمة (مسقط) ولكنه عرّج على (بمباي) ثم إلى (كونج) على الساحل الفارسي، ولم يصل منه إلاّ قليل من القطع البحرية التي لاتستطيع اكمال المهمة إلى (مسقط) ولذا عادت إلى (جوا) دون أن تقوم بأي مهمة قتالية.[1] وقد يكون هذا الإخفاق عائداً إلى التدهور المضطرد للقوة البرتغالية، إضافة إلى ضعف مهارات المرشدين وسوء تموين السفن، وبالتالي هبوط الروح المعنوية للجند البرتغاليين، وبالمقابل فإن العمانيين أجادوا قيادة السفن وفنون الحرب البحرية في فترة وجيزة من استعادتهم (مسقط).

من خلال هاتين الحملتين نستطيع القول إن الإمام (سلطان بن سيف الأول) بذل جهداً كبيراً في سبيل مد يد المساعدة للمسلمين في ساحل شرق إفريقية، وأوجدت حملتين عمانييتن فقط إلى هناك بالرغم من عدم تحقيقها لمكاسب كبيرة، أوجدت الأرضية التي قام عليها جهاد السكان المحليين هناك، حيث أذكت فيهم روح الجهاد والمقاومة، وأصبحوا في حرب شبه دائمة مع البرتغاليين، وأكدت أيضاً على الارتباط الديني والتاريخي بين هذين الإقليمين. والواقع أن تطور الأوضاع في الخليج والمحيط الهندي لم يمكّن الإمام (سلطان) من أن يحافظ على وجود عسكري دائم في تلك المناطق، الأمر الذي جعل الحرب هناك بين الطرفين سجالاً، فكل حملة عمانية تحقق جزءاً كبيراً من أهدافها، ولكن حال ماتعود تلك القوة إلى عمان، يعود البرتغاليون وتعود الأوضاع إلى ماكانت عليه بإستثناء ثورات السكان المتكررة ضدهم، إضافة إلى ذلك فإنه اتضح بجلاء أن سكان ساحل شرق إفريقية لوحدهم لن يستطيعوا القيام بأي شيء من شأنه الحد من تسلط البرتغاليين وسطوتهم، لذا فقد ظلوا على الدوام يتطلعون إلى مساعدة اخوانهم في عمان وطلب المعونة منهم.

---

1) Bathurst, R.D., op.cit, pp.121-22

* مطاردة البرتغاليين في الهند والهجوم على ديّو عام ١٠٧٩هـ / ١٦٦٨م :

بذل الجانبان العماني والبرتغالي جهوداً كبيرة من أجل الحصول على نصر حاسم، ففي الوقت الذي تبحر فيه السفن الحربيّة العمانية إلى ساحل شرق إفريقية، يقابله تهديد برتغالي على (مسقط)، فقد ظل البرتغاليون يحافظون على وجود بعض سفنهم الحربية في الخليج كلما أمكن ذلك، لتوفير الحماية لسفنهم التجارية المبحرة إلى (كونج) وأعالي الخليج، وانتهاز الفرصة لاستعادة (مسقط) ما أمكن ذلك، وعلى الرغم من عدم نجاح محاولتهم الأخيرة عليها عام ١٠٧٨هـ / ١٦٦٧م، وهي الحملة التي أعقبت استردادهم (ممباسه)، فإنهم استمروا بإرسال أساطيلهم إلى الخليج،[١] ففي عام ١٠٧٩هـ / ١٦٦٨م استولى القائد البرتغالي (جوزيف دي كاسترو Joseph De Castro) على عدد من السفن العمانية المحملة بالخيول والأرز، ومن ثم انضمت إليه بعض القطع الحربيّة فاتجه إلى ((مسقط) بغرض شن هجوم عليها، وتقابل مع قوة عمانية بالقرب من (رأس جاسك)، واستولى على عدد من السفن والقوارب العمانية، واقتادها جميعاً إلى ميناء (كونج).[٢]

لذا قرر الإمام (سلطان بن سيف) أن يكون الرد هذه المرة ضد معقل هام من معاقل البرتغاليين في ساحل الهند الغربي وفي (ديو)[٣] بالذات،

1) Bathurst, R., D., op.cit, p.123.

2) Ibid;

٣) يذكر (باثرست) أن العمانيين قاموا بهذه الحملة بتشجيع من الفرس، وبذلك يقع في تناقض واضح، حيث ذكر قبلها أن القوات البحرية للإمام (سلطان) من الضخامة لدرجة جعلته يعتزم القيام بعمليات حربية في أماكن متعددة إلى أن يقول : « فأعد بتشجيع من الفرس أسطولاً حربياً متجهاً إلى ديو بالهند» والحقيقة أن ماذكره (باثرست) لايمكن قبوله لسببين الأول: أن البحرية العمانية قد بلغت درجة كبيرة من

ويهدف الإمام العماني من ذلك تحقيق هدفين: الأول: توجيه ضربة للبرتغاليين في قاعدة من أهم قواعدهم العسكرية والاقتصادية والتجارية، والثاني هو محاولة الحصول على مكاسب اقتصادية أوغنائم من مستودعات البضائع البرتغالية هناك[1] رداً على مصادرة البرتغاليين السفن العمانية المحملة بالخيول والأرز، وكذلك السفن العمانية التي تم الاستيلاء عليها في (رأس جاسك)، وأيضاً يأتي ذلك نتيجة للسياسة التي اتبعها العمانيون بفرض حصار تجاري على البرتغاليين، تمثل بالهجوم على سفنهم ومواقعهم التجارية، ومصادرة مافيها من بضائع، وكذلك الهجوم والاستيلاء على السفن التي تتعامل معهم،[2] وقد وصف الرحالة (فارنسوا مارتنMartin Francois) ذلك قائلاً: «شهد النصف الثاني من القرن السابع عشر تنافساً حاداً بين عرب مسقط والبرتغاليين، ففي عام ١٦٦٩ وعندما عبرنا رأس الحد تقاطعت سفينتنا مع أسطول مؤلف من حوالي خمسة عشر سفينة، وهي لعرب مسقط مسلحة بأسلحة الحرب من أجل الذهاب لمواجهة أساطيل

القوة بحيث أصبحت تخشاها جميع القوى البحرية المتواجدة في المنطقة، والثاني: هو أن العلاقات العمانية الفارسية لم تكن على درجة من الوئام بحيث يكون هناك تعاون بينهما، بل على العكس من ذلك فقد دأبت حكومة فارس على التحريض ضد العمانيين فضلاً عن كونهم يتمتعون بعلاقات وديّة وتجارية مع البرتغاليين، وبخاصة في تلك الفترة، وفي هذا الصدد ذكر (لوريمر) أن العلاقات بين العمانيين وفارس خلال الفترة من ١٠٦١ - ١١٤٩هـ / ١٦٥٠ - ١٧٣٦م كانت علاقات عدائية، والواقع أن (باثرست) حاول باستمرار أن يظهر النجاحات التي حققها العرب العمانيون وكأنها جاءت بفضل دعم ومساندة القوى الأخرى الموجودة في المنطقة وبخاصة الانجليز والهولنديين. انظر: op.cit, p.123؛ لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٢، ص ٦٤١.

١) الأزكوري، كشف الغمة، ص ١١١؛ صلاح العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي، ص ١٠١.

٢) السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٥١.

البرتغاليين الذين هم في حالة حرب معهم، وقد واجهت سفناً لتجار سورات متعاونين مع البرتغاليين وذاهبة إلى البصرة، وعند إرسائها أمام مسقط سيطر عليها العرب وأنزلوا حمولتها وتم تسليحها حربياً.»[١]

لذا فقد أبحر الأسطول العماني المكون من تسع عشرة سفينة من مختلف الأنواع والأحجام، وتحمل حوالي أربعة آلاف مقاتل تحت قيادة (راشد بن علي)، متجنبة بذلك الأسطول البرتغالي الموجود في الخليج، ومتجهة إلى (ديو)، واقتربت من المدينة تحت جنح الظلام،[٢] وقد تربصت عند الأبواب إلى حين فتحها صباحاً حيث موعد الهجوم المقرر، وعند فتح الأبواب دخلت المجموعة الأولى وهي تخفي أسلحتها، ولكن تم اكتشافها، فهرع الناس إلى القلعة للتحصن فيها في الوقت الذي تتابع فيه دخول القوة العمانية،[٣] وأخذت مدفعيّة القلعة تطلق قذائفها على المهاجمين، الذين أخذوا ينقلون الغنائم التي حصلوا عليها، ولكن القائد العماني تراجع إلى السفن تحت ضغط قذائف المدفعيّة، وبعد أن رأى حجم الخسائر البشرية بين أفراده يزداد، حيث زاد القتلى من أفراد القوة العمانية عن ألف قتيل،[٤] ومن المحتمل أن يكون هذا الرقم مبالغاً فيه إلاّ أنه يعكس العدد الكبير للقوة العمانية، ويبدو كما ذكر (دانيس Dennis) أن للعمانيين هدفاً محدداً في المدينة تم الحصول عليه، ولم يكن في نيتهم البقاء فيها أو احتلالها رغم ماقيل بأنهم مكثوا فيها ثلاثة أيام.[٥] ومن

---

1) op.cit, vol. I, pp.201-2.

٢) الوزير، طبق الحلوى، ص ٤٧؛
Carre, M., op.cit, vol. I, p.132;
رميض، الصراع البحري العماني البرتغالي، ص ٨٦.

٣) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ٢٠٨؛ المغيري، جهينة الأخبار، ص ١٩٤؛ حنظل، المفصل في تاريخ الأمارات العربية، ج ١، ص ٨٦.

4) (10R). G/36/105, p.66, Lettr Flower to surat 14 August 1668;
حنظل، المفصل في تاريخ الامارات العربية، ج ١، ص ٨٧.

5) op. cit, p. 156.

المرجح أن يكون الأمر كذلك، لأن المهاجمين منذ البداية تحاشوا مهاجمة القلعة حتى لايتعرضوا لنيران المدفعيّة، وتفرّقوا في أنحاء المدينة، وقاموا بشحن سفنهم من الغنائم، ولم يخرجوا منها إلاّ بعد أن بدأ قائد القلعة بتنظيم هجوم مضاد تحت حماية مدفعيّة القلعة، حيث التحموا مع العمانيين وأجبروهم على الخروج،[١] ونتيجة لذلك شعر البرتغاليون بالخطر، فقاموا بالرد على ذلك سريعاً، وذلك بإرسال ثمان سفن حربيّة لتعقب العمانيين واسترداد ما أخذوه، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك، بل لم يستطيعوا الاقتراب من السواحل العمانية، فاتجهوا إلى قاعدتهم في (كونج) على الساحل الفارسي، ثم عادوا إلى (جوا).[٢] والحقيقة أن هذه الحملة قد سببت ذعراً كبيراً للبرتغاليين، وأصبحت القوة العمانية بعد ذلك قوة يحسب حسابها.

وجدير بالذكر أن بعض المصادر أشارت إلى أن تاريخ هذه الحملة كان عام ١٠٨١هـ / ١٦٧٠م بعد عامين من تولية (بلعرب بن سلطان)[٣] الإمامة في عمان.[٤] والواقع أن الحملة المذكورة كانت في عهد والده الإمام (سلطان

---

1) the Carmelities, op.cit, vol. I, p.421.

2) (10R). G/36/105, p.76, Lettr Gombron to surat 26 Novambar 1668.

٣) هو الإمام (بلعرب بن الإمام سلطان بن سيف الأول)، تولى الإمامة بعد وفاة والده عام ١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م، سار في بداية حكمه على النهج السياسي الذي اختطه والده، وظلت الإمامة العمانية مرهوبة الجانب حتى طرأ تغيّر جذري على سياسة هذا الإمام، وذلك عندما بدأ يولي اهتمامه إلى السياسة الداخلية وبخاصة الناحية العلمية على حساب السياسة الخارجية في وقت يحتدم فيه الصراع بين قوى مختلفة خارجية ومحلية في الخليج العربي والمحيط الهندي، الأمر الذي دفع أخاه (سيف بن سلطان الأول) إلى التدخل وانتزاع الحكم منه عام ١١٠٤هـ / ١٦٩٢م وتوفي (بلعرب) في السنة نفسها.

لمزيد من التفصيل انظر : الفصل الرابع.

٤) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ٢٠٨.

بن سيف) الذي نحن بصدده، حيث إن (بلعرب بن سلطان) لم يتولّ الإمامة إلاّ بعد وفاة والده عام ١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م، كما تشير إلى ذلك أكثر المصادر وأوثقها.

* العودة إلى ساحل شرق إفريقية والهجوم على موزمبيق عام ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م :

ظل ساحل شرق إفريقية في ثورة متواصلة منذ الحملة العمانية الأولى على الساحل، وتتزايد تلك الحركات والثورات ضد البرتغاليين كلما تصل إليهم أنباء عن انتصارات عمانية جديدة على البرتغاليين، كما أن إمام عمان (سلطان بن سيف) كان يتلقى دائماً طلبات مساعدة واستغاثات متواصلة من الأهالي هناك لنجدتهم، وقد عمت الثورات جميع أنحاء الساحل. [١] أما بالنسبة للعمانيين فقد ظلوا يولون ساحل شرق إفريقية اهتماماً دائماً، بل يعطونه الأولوية في مجهوداتهم العسكرية باستمرار، وعليه فقد أمر الامام (سلطان بن سيف) بتجهيز أسطول من ثمان وعشرين سفينة من مختلف الأنواع والإحجام. وتحمل عدداً كبيراً من المقاتلين متجهة إلى ساحل شرق إفريقية،[٢] ويعكس حجم هذه القوة، والمنطقة التي تريد مهاجمتها وهي (موزمبيق) البعيدة عن ميادين القتال المألوفة بين العمانيين والبرتغاليين، يعكس المدى الذي وصلته البحرية العمانية قياساً بعمرها الزمني، صحيح أن من بين تلك السفن سفناً أعدت خصيصاً للتجارة،

---

1) Strandes, J., op.cit, p.230;

2) Ibid;

الحجري، تاريخ العلاقات العمانية الإفريقية، ص ٧٨٥؛ السيار، دولة اليعاربة، ص ٩٧؛ وتذكر أن هذه الحملة تمت في عهد الأمام (بلعرب بن سلطان) والصحيح أنها في عهد والده الإمام (سلطان بن سيف) الذي توفي بعد تاريخ هذه الحملة باحدى عشرة سنة كما سيأتي ذكر ذلك.

ولكن تم تزويدها بمدافع وهُيئّت للأغراض الحربيّة، إلاّ أن النجاحات التي حققتها تبرهن على مدى ماوصل إليه العمانيون من قوة عسكرية مؤثرة في تلك الفترة.

وابتداءً من عام ١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م وهو العام الذي قام فيه البرتغاليون بقمع حركة الأهالي في ساحل شرق إفريقية من جراء حركة (يوسف) بن حاكم (ماليندي) والذي سبق الحديث عنه في الفصل الأول، ابتداء من ذلك أخذ البرتغاليون يعتمدون على قلعتهم وحاميتهم في (موزمبيق) لتكون ملاذاً لسفنهم وجنودهم نظراً لبعدها عن الحركات المناهضة لهم، كما أخذ البرتغاليون يرسلون منها قوات بين آونة وأخرى لتأكيد سيطرتهم على القسم الشمالي من الساحل، وهذا لايعني عدم اعتمادهم على قلعة (يسوع) في (ممباسه)، بل كان ذلك مسانداً لها ومصدراً للإمدادات في حالة حصارها.[1]

لذا رأى الإمام (سلطان بن سيف) ضرورة مهاجمة قلعة (موزمبيق) وتدميرها، ليتحول اعتماد الوجود البرتغالي في القسم الشمالي من ساحل شرق إفريقية وبخاصة قلعة (يسوع) في (ممباسة) بالذات على مركزهم الرئيس في (جوا) على ساحل الهند الغربي، وبذلك يكون قد حقق هدفين : الأول: إطالة خطوط التموين البرتغالية الذي يتعين عليها أن تقطع المسافة مابين ساحل شرق إفريقية وساحل الهند الغربي وهي مسافة بعيدة إذا ماقورنت بالمسافة بين (موزمبيق) و (ممباسة)،[2] والثاني: أن الأسطول البرتغالي الذي عليه أن يبحر من (جوا) لايتسنى له الإبحار في أي وقت، ولكن عليه أن ينتظر هبوب الرياح التي تمكنه من الابحار إلى ساحل شرق

---

1) Guillain, C., op.cit, vol.II, p.514.

2) Strandes, J., op.cit, p.231.

إفريقية، وهذا وقته معروف خلال شهور السنة، وليكون عرضه للهجوم عليه من البحرية العمانية وهو في طريقه.(١)

أبحر الأسطول العماني إلى (موزمبيق) عام ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م، وفي طريقه إلى هناك مرّ على (ممباسه) وبعض مدن الساحل، حيث تم تموين السفن، كما تطوّع عدد من أهالي الساحل وبخاصة من (بتّة) وانضموا إلى العمانيين، (٢) وفرض هذا الأسطول حصاراً طويلاً على الحامية البرتغالية وتعذر عليها الحصول على أية إمدادات من (جوا)، في وقت ظل العمانيون فيه يستبدلون بعض قواتهم بحرّية، وكادوا أن يسيطروا على القلعة، ولكنّ تقدّم البرتغاليين في السلاح الناري الذي كان يستعمل من ابراج القلعة حال دون تحقيق ذلك، الأمر الذي أدى بالحملة العمانية إلى العودة دون تحقيق الهدف المنشود وهو السيطرة على القلعة، كما أنه لايستبعد أن تحركات الأسطول البرتغالي في الخليج قد عجلت في فك الحصار.(٣)

لقد برهنت هذه الحملة للبرتغاليين أنهم أمام خصم قوي، بالأمس هاجم قاعدتهم في (ديو) بالهند، واليوم يهاجم مركزهم في (موزمبيق)، كما برهنت للبرتغاليين أيضاً أن السياسة العمانية تجاه ساحل شرق إفريقية سياسة ثابتة، وأنهم يسعون بجديّة وعزم على رفع الظلم والطغيان عن إخوانهم المسلمين هناك، وفي اعتقادي أن الحملة العمانية على (موزمبيق) هي

---

1) Warner, A., op.cit, p.166

٢) كيركمان. جي، التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق إفريقية، ص ٢٩٢؛ الغول، العرب والبرتغال في شرق إفريقية، ص ١٠٤.

3) Guillain, C., op.cit, vol. II, p.521;

Bathurst, R. D., op.cit, p.124;

عبدالرزاق عثمان، البرتغاليون في شرق إفريقية وطردهم منها، ص ٤٧.

بمثابة رد على بعض المؤرخين والباحثين الذين يصفون الجهاد العماني ضد البرتغاليين بأنه حرب في سبيل التجارة، فإذا كان ممكناً قبول ذلك إلى حدٍ ما في الهند فإنه من المستحيل أن ينطبق ذلك على ساحل شرق إفريقية، لأنه - كما ذكرنا - بإمكان العمانيين أن يزاولوا التجارة مع تلك المناطق دون حرب. وبعد هذا فإن الشيء الذي يمكن قوله هو أن الحملات العمانية على ساحل شرق إفريقية وإن لم تكن نتائجها حاسمة إلاّ أنها تعطي تأكيداً للأهالي هناك على عزم العمانيين المضي في جهاد البرتغاليين وطردهم من الساحل، كما أنها تذكي روح المقاومة والجهاد الدى السكان هناك.

أدت تحركات الأسطول البرتغالي في الخليج إلى عرقلة تحرك القوات العمانية في ساحل شرق إفريقية، فقد دأب البرتغاليون في تلك الفترة على إرسال أسطول إلى الخليج في الوقت الذي يرون فيه حملة عمانية متوجهة إلى ساحل شرق إفريقية، الأمر الذي يضطر القيادة العمانية - أحياناً - إلى العودة إلى عمان قبل استكمال مهامها.

ويتضح ذلك من الحملة العمانية على (موزمبيق)، حيث جاء الرد البرتغالي متزامناً معها، وذلك عندما أرسل البرتغاليون أسطولاً إلى الخليج بقيادة (كرينمو مانويل Ceronimo Manoell) مكوّناً من عشر قطع بحرية، واجتاز هذا الأسطول (جمبرون) متوجهاً إلى (كونج)، ومن (مسقط) تحرك أسطول عماني واتجه إلى (جمبرون) بحثاً عن الأسطول البرتغالي، ومإن تأكدوا من عدم وجود أحد فيها من البرتغاليين حتى غادروها، وتقابل الأسطولان العماني والبرتغالي في الممرات البحرية القريبة من (كونج)،[1] وقد وصفت المصادر الانجليزية ماحدث، بأنها معركة دموية سقط فيها حوالي خمسمائة قتيل من العمانيين، في الوقت الذي فقد فيه البرتغاليون

---

1) (10R). G/36/105, pp.112-117-118, Letters Gombroon to surat 27March 1669.

عدداً من رجالهم، ولكن انسحب العمانيون مهددين بالانتقام، كما عاد الأسطول البرتغالي إلى (جوا)، وبدأوا على الفور بإعداد أسطول كبير لمهاجمة (مسقط)،[1] وتعتبر تلك المعركة من أكبر المواجهات المكشوفة بين الجانبين، والتي استمرت حوالي ثلاثة أيام، ولم يحرز أي منهما نصراً حاسماً على الآخر، ولو أن بعض المصادر تشير إلى أن كفة البرتغاليين كانت هي الأرجح، ويعزون ذلك إلى انسحاب الأسطول العماني من ساحة المعركة أولاً، كما يذكرون بأن القائد البرتغالي عاد إلى (جوا) منتصراً،[2] بينما تشير بعض المصادر العمانية إلى أن الأسطول العماني حقق نصراً كبيراً في (كونج)، ويأتون على ذكر تلك المعركة دائماً، كما أن الإمام (سلطان بن سيف) يأتي على ذكرها من خلال مراسلاته، وأيضاً الشعراء العمانيون يتغنون بها في مناسباتهم،[3] وعنها قال (السيابي) «من معارك الإمام سلطان بن سيف للإفرنج وقعه كونج أكبر وقعه بين العمانيين والبرتغاليين، بلغ صداها أقصى بلاد الشرق، واهتز لها العالم، وسباهم الجيش، وقاد سفنهم إلى عمان، وساق الغنائم، وإليها يشير الشيخ خلف بن سنان حيث قال :

وَلَدَى كُنْجِ كَانَ مِنْهُ لَهُم مَا كَادَ مِنْه تَدَكْدَكُ الآكَام.»[4]

وأيضاً تشير الروايات الهولندية عن الحرب الدائرة بين العمانيين والبرتغاليين في هذه الفترة ومن ضمنها هذه المعركة إلى أن العمانيين

---

1) (10R). G/36/105, p.176, Letter Gombroon to surat 26 November 1669;

مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٩٥.

٢) المصدر نفسه، ص ١٩٥؛ صلاح العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي، ص ١٠١.

Bathurst, R.D., op.cit, pp. 125 - 26.

٣) السالمي ، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٥١.

٤) عمان عبر التاريخ، ج ٣، ٢٤٥.

يخوضون باستمرار مذابح بحرية مع البرتغاليين والتي خرج منها البرتغاليون عادة بأسوأ النتائج، فقلما حققوا أية انتصارات حاسمة على العمانيين.[1] ورغم تضارب الروايات حول تلك المواجهة إلاّ أنني أعتقد أن العمانيين ربما حققوا بعض النجاح في كبح جماح الأسطول البرتغالي، ويعود هذا الاعتقاد إلى أنه لو أخذنا بالرواية التي ترجح كفة البرتغاليين لأمكننا التساؤل لماذا إذن لم يقم الأسطول البرتغالي بتتبع الأسطول العماني وتحطيمه ؟ ومن ثم التوجه إلى (مسقط) التي هي هدفهم. وكذلك فإن المؤرخين العمانيين عادة مايحجمون عن ذكر المعارك التي يخسر فيها جيشهم، أما هذه المعركة فنراهم يسهبون بالحديث عنها، ويأتون على ذكرها دائماً مع عرض ماقاله الشعراء فيها، لذا فإنني أميل إلى أن العمانيين قد انتصروا في تلك المعركة ولو نصراً محدوداً.

* الجهاد العماني ضد البرتغاليين في السواحل الجنوبية للجزيرة العربية والبحر الأحمر :

كان البحر الأحمر والسواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية يمثل هدفاً مركزياً في السياسة البرتغالية منذ قدومهم إلى الشرق، فسيطرتهم على البحر الأحمر تمكنهم من غلقه تجارياً، كما تمكنهم من السيطرة على الأماكن المقدسة في (مكة المكرمة) و (المدينة المنورة)، وهذا هدف ديني استماتوا في سبيل تحقيقه ولكنهم أخفقوا،[2] وقد بدأت أولى محاولاتهم الجادة في ذلك بوصول (البوكيرك) إلى الشرق وتعيينه نائباً للملك بالهند، الذي قرر على الفور السيطرة على البحر الأحمر، وذلك عندما قاد حملة

---

1) (10R) Haguc Transcripts, vol. 29t, p.48, Letter, From India.

٢) لمزيد من التفصيل عن المحاولات البرتغالية للسيطرة على البحر الأحمر وعدن في القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي انظر : الرمّال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر.

على عدن عام ٩١٩هـ / ١٥١٣م، ولكنه أخفق في السيطرة عليها، وكانت آخر محاولاتهم في القرن العاشر الهجري الحملة التي قادها (ري دي كامارا Ryu De Camara) عام ٩٩٣هـ / ١٥٨٥م، حيث هاجم السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية ونهب بعض المدن والسفن.[١] وبعد فالسؤال المطروح الآن هو كيف أصبحت سواحل جنوب الجزيرة العربية ومدخل البحر الأحمر ميدان مواجهة بين العمانيين والبرتغاليين ؟ وماهي علاقة ذلك بالجهاد العماني في ساحل شرق إفريقية ؟ وللإجابة على ذلك نقول :

في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري - السابع عشر الميلادي طرأت مستجدات في تلك المنطقة أغرت البرتغاليين في محاولة البحث لهم عن مكانة هناك بعد توقف طويل، ومن تلك المستجدات ظهور قوى دوليّة أخرى بدأت تدخل منافسات تجارية في تلك المناطق، وذلك عندما بدأ التطلع الانجليزي والهولندي إلى البحر الأحمر.[٢] وقد نجح الانجليز في الحصول على تصريح بإقامة وكالة تجارية في ميناء (مخا) اليمني عام ١٠٢٨هـ / ١٦١٨م، في الوقت الذي ركز فيه الهولنديون على ميناء (الشحر)، ولكن الانجليز بدأوا يزاولون نشاطهم التجاري في الجزء الجنوبي من البحر الأحمر بحرية تامة، وأصبحت القوة الأوربية الوحيدة التي لها حق المتاجرة حتى ميناء (مخا)،[٣] وكان من الطبيعي أن يشعر البرتغاليون

---

1) Sousa, F., op.cit, vol. II, p.30 ;

حسن أحمد محمود، التهديد البرتغالي لسواحل جزيرة العرب، مجلة المؤرخ العربي، العدد الثاني عشر، بغداد ١٩٨٠، ص ٢٢٤ - ٢٢٩.

٢) جاد طه، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن، القاهرة، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م، ص ٢٥ - ٢٦؛ عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، النشاط التجاري في البحر الأحمر في العصر العثماني، مجلة دارة الملك عبدالعزيز، العدد الثاني، السنة السادسة، الرياض ١٤٠١هـ / يناير ١٩٨١م، ص ٩٤ - ٩٦.

٣) محمود كامل، اليمن شماله وجنوبه، تاريخه وعلاقاته الدولية، دار النهضة العربية، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م، ص ٢١٥؛ محمد أبو الفتوح الخياط، أهمية البحر الأحمر

بالإمتعاض وهم يرون منافسيهم يحصلون على تسهيلات تجارية في المناطق الجنوبية للجزيرة العربية في الوقت الذي كانوا يحاولون الحصول على ذلك قبل قرن من الزمان، ولكنهم كانوا يسعون إلى ذلك عن طريق تطبيق أسلوب الاحتكار التجاري والهيمنة السياسية والعسكرية.

أما المستجدات الأخرى في تلك المنطقة فهي خروج العثمانيين من اليمن عام ١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م وقيام الدولة القاسمية (١٠٤٥ - ١٣٨٢هـ / ١٦٣٥ - ١٩٦٢)،[1] وبجلاء العثمانيين وسّعت الدولة القاسمية نشاطها مع القوى

كبحيرة إسلامية عربية، مجلة دارة الملك عبدالعزيز، العدد الثاني، السنة السادسة، الرياض ١٤٠١/١٩٨١، ص ٨٦؛ يجدر بالذكر أن الباشا العثماني في اليمن كان قد أصدر تعليماته حوالي عام ١٠٢١هـ / ١٦١٢م بالسماح للأجانب بالمتاجرة بحريّة على الشاطىء اليمني، ومع السفن الهندية، وشراء مايرغبونه من بضائع من (مخا) بما في ذلك الدول المسيحية، وهذا يعد تحولاً في السياسة العثمانية التي كانت تقضي بمنع الدول المسيحية من المتاجرة في البحر الأحمر، ولكن هذا السماح يقتصر على السواحل الجنوبية للجزيرة العربية وميناء (مخا) اليمني فقط وليس إلى داخل البحر الأحمر.

لمزيد من التفصيل انظر :

محمود كامل، اليمن شماله وجنوبه، ص ٢١٥.

١) قامت الدولة القاسمية في اليمن بعد صراع مرير بين اليمنيين بزعامة (المنصور بالله القاسم بن محمد) وبين العثمانيين منذ عام ١٠٠٦هـ / ١٥٩٨م، ذلك الصراع الذي تمخض عن جلاء العثمانيين عن اليمن، واعلان قيام الإمامة الزيدية فيه وذلك عام ١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م، والتي اتكأت في حكمها على قاعدتين هما العدنانية كعرق والزيدية كمذهب، وظلت تحكم اليمن قروناً طويلة حتى سقوطها وقيام النظام الجمهوري الحالي عام ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م.

لمزيد من التفصيل انظر :

المطهر بن محمد بن أحمد بن عبدالله الجرموزي، سيرة الإمام القاسم بن محمد، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٤٩/ عن الأصل المحفوظ بمكتبة

الأوربية وبخاصة الانجليز وهولندا وفرنسا.[1] وتجدر الإشارة إلى أن السلع التي كان يتاجر هؤلاء الاوربيون بها من هذه المنطقة هي، البن، والبخور، والمر، وبضائع أخرى، كما أنهم يجلبون الملبوسات القطنية وغيرها من المنتوجات الأوربية،[2] ولكن ظل البرتغاليون فئة غير مرغوب التعامل معها على المستوى الرسمي، ولم يحظوا بأي تسهيلات تجارية في أي من الموانيء اليمنية في تلك الفترة.

لذا فقد اعتمدوا في تمرير تجارتهم إلى تلك المناطق على المتعاونين معهم من بعض التجار العرب والهنود ولكن الهولنديون أخذوا يعترضون سبيلهم، الأمر الذي أكد للبرتغاليين أنه يصعب عليهم الإعتماد على تعاون هؤلاء التجار، ولكن الأوضاع انقلبت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري - السابع عشر الميلادي، حيث حدث تحوُل خطير في نظر الإدارة البرتغالية وهو انحسار الوجود البرتغالي في الخليج في أعقاب طردهم من (مسقط)،[3] الأمر الذي جعل قلاعهم ومراكزهم في ساحل شرق

الجامع الكبير بصنعا تحت رقم ١٩ تاريخ، تشمل دراسة كاملة وقيمة للإمام القاسم بن محمد؛ عبدالله عبدالكريم الجرافي اليمني، المقتطف من تاريخ اليمن، منشورات العصر الحديث، الطبعة الثانية، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص ١٢٢؛ اميرة علي المداح، العثمانيون والإمام القاسم بن محمد بن علي في اليمن، مكتبة تهامة، الطبعة الأولى، جدة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ١٩٠.

١) الواسعي، عبدالواسع بن يحيى، تاريخ اليمن المسمى (فرجة الهموم والحزن في الحوادث وتاريخ اليمن) الدار اليمنية للنشر، الطبعة الثالثة، صنعاء ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ٣٢٣ ؛ يوسف فضل حسن، الصراع حول البحر الأحمر منذ أقدم العصور حتى القرن الثامن عشر الميلادي، مجلة دارة الملك عبدالعزيز، العدد الثالث، السنة الثامنة، الرياض ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ١٢٢.

٢) لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر : محمود طه أبو العلا، جغرافية شبه جزيرة العرب، ج١، ط٣، القاهرة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

٣) محمود كامل، اليمن شماله وجنوبه، ص ٢١٦.

إفريقية عرضة للهجمات العمانية، وهو مالاحظناه فيما سبق حين أقدم العمانيون على إرسال حملات عسكرية إلى هناك فور طرد البرتغاليين من (مسقط).

أما علاقة الجهاد العماني في سواحل جنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر بجهادهم في ساحل شرق إفريقية: فلقد سبق أن ذكرنا أن البرتغاليين كانوا يتحاشون الصدام المباشر مع العمانيين في ساحل شرق إفريقية نظراً للإسناد القوي الذي يلقاه العمانيون من السكان هناك. وقلنا إن البرتغاليين يردون على تلك الحملات العمانية إلى ساحل شرق إفريقية بالقيام بالهجوم على مراكز العمانيين في الخليج واعتراض سفنهم التجارية ومصادرتها الأمر الذي جعل الحملات العمانية إلى ساحل شرق إفريقية ذات تأثير محدود من الناحية العسكرية، نظراً لأن السفن العمانية لاتستطيع البقاء هناك لفترة طويلة، ومن خلال تلك الحملات التي أدت إلى سقوط (ممباسه) لفترة وجيزة بيد العمانيين، أدرك البرتغاليون حجم الخطر الذي يواجهه وجودهم هناك، لذا فقد قرروا انتهاج أسلوب القرصنة في البحر حيث ستكون من وجهة نظرهم أكثر نجاحاً من خوض المعارك على الساحل،[1] وعليه فإنه من المحتمل أنهم قرروا الحد من خطورة الحملات العمانية على ساحل شرق إفريقية عن طريق اعتراض تلك الحملات في أثناء عبورها خطوط الملاحة الممتدة من الخليج إلى ساحل شرق إفريقية، بالإضافة إلى ملاحقة السفن التجارية العمانية، وبذلك يمكن للبرتغاليين مع تحركات أسطولهم في الخليج قطع خطوط التموين العمانية في أثناء الحملات على الساحل الإفريقي، واشغالهم أيضاً في مشاكل جانبيّة عندما يتم عرقلة التجارة العمانية، وبذلك يمكن تقليل فعالية تلك الحملات أو الغاؤها.

---

1) Danvers, F., op.cit, vol.II, p.370.

وبالقاء نظرة على الطرق الملاحية الممتدة فيما بين الخليج العربي وساحل شرق إفريقية، نجد أن السفن تخرج من عمان محاذية للساحل فتنعطف يميناً باتجاه (الشحر) على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية، ثم (عدن) ثم تتجه جنوباً إلى ساحل شرق إفريقية وهذا هو الطريق الأول.(١) أما الطريق الثاني فتنطلق السفن من رأس الحد على ساحل عمان باتجاه جنوبي غربي إلى جزيرة (سقطرة) ومنها إلى رأس (غردفوى) في الجزء الشمالي من ساحل شرق إفريقية، ثم تتجه بمحاذاة الساحل جنوباً، وهذا الطريق لايخلو من المخاطر حيث يعترض قراصنة البحر السفن في هذا الطريق لبعده عن الأماكن الآهلة.(٢) وهناك طريق ثالث يبدأ من (الشحر) باتجاه جنوبي غرب ماراً برأس غردفوى إلى جزيرة (سقطرة)، ومن هذه الجزيرة تبحر السفن إلى ساحل شرق إفريقية، ثم إلى المدن الساحلية الواحدة تلو الأخرى،(٣) ولهذا كان أمراً متوقعاً لدى العمانيين أن يلجأ البرتغاليون إلى اعتراض السفن العمانية في تلك المناطق.

لقد أدرك العمانيون أهمية تلك المناطق في وقت مبكر من تحريرهم (مسقط)، وأهمية تأمين طرق الملاحة، مما جعلهم يضمون إقليم (ظفار)(٤)

---

١) ابن حوقل ابي القاسم محمد بن علي النصيبي، كتاب صورة الأرض، مكتبة دار الحياة، بيروت، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ٢٥؛ ابن الفقية أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني، مختصر كتاب البلدان، نشر دي غويه، ليدن ١٨٨٥، ص ١١ - ١٢.

٢) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٥١٥؛ حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص ٢٣٠.

٣) المسعودي، مروج الذهب، ج ١، ص ١٠٧ ومابعدها؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافية، ص ٨٥ - ٨٦؛ ابن بطوطه، تحفة النظار، ج ١، ص ٢٨٣ ومابعدها.

٤) يقع إقليم ظفار على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية أو ساحل بحر العرب، عند نهاية حدود عمان الجنوبية الغربيّة، وعند حدود حضرموت الشرقية، من رأس (بوس) إلى قرية (خريفوط) على ساحل البحر، يبلغ طوله (١٣٥) ميلاً وعرضه (٢٠)

إليهم، وذلك عام ١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م، وقد تطرق ذلك المؤرخ العماني، (السيابي) عندما قال: «إن ظفار قطعة من عمان، تولاها الإمام سلطان بن سيف، وجعل فيها حامية لئلا يتطرق عليها العدو إذ ذاك، فيتمركز فيها ويكون شره لعمان من الجسم العماني، ولمّا انتقل الحفّاظ على عمان إلى البحر الأحمر، وكانت ظفار من ضمن قلب المملكة العمانيّة، تركها الجيش العماني إذ لامحذور هنا والجيش قد ضرب أطنابه في البحر الأحمر مطارداً لأكبر دولة استعمارية كافرة بالله عز وجل.»[1] وفي اعتقادي أن هذا الاقليم كان هاماً بالنسبة لعمان في أيام الإمام (سلطان بن سيف الأول) حيث إنه كان يشكل عمقاً إستراتيجياً لدولته في ذلك الوقت، كما أنه يمنحها أهمية عسكرية وتجارية، فالأهمية العسكرية هي وقوع هذا الاقليم بالقرب من خطوط الملاحة المتجهة إلى شرق إفريقية، أما التجارية فإنه بإمكان عمان الاعتماد على موانئه الساحلية فيما لو تعرض الساحل العماني لحصار قوي وطويل من قبل البرتغاليين.

لقد بدأت السفن البرتغالية تظهر في مياه تلك المناطق إبتداءً من عام

ميلاً وقاعدته (صلاله)، ومعظم الإقليم يتكون من صخور جيرية قاحلة باستثناء رقعة صغيرة من الاقليم تشتهر بانتاج اللبان والتمور، وقد كان محط نزاع بين العمانيين في عهد اليعاربة وبين الإمامة القاسمية في اليمن في القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي، وقد تناوبت السيطرة عليه من قبل الدولتين على مر السنين، وقد استمر هذا النزاع حتى وقتنا الحاضر، حتى تمكنت كل من حكومتي البلدين الحاليتين من حسم النزاع الذي تمخض عنه ضم هذا الإقليم إلى عمان، ووقعت اتفاقية بين الطرفين بهذا الشأن ورسمت الحدود بين البلدين.

لمزيد من التفصيل انظر :

الوزير، طبق الحلوى، ج ١، ص ١٦٨؛ الجرافي، المقتطف من تاريخ اليمن، ص ٢٣٠ - ٢٣١؛ السيابي، عمان عبر التاريخ، ج ٣، ٢٤٠؛ سعاد ماهر، الاستحكامات الحربية بسلطنة عمان، ص ٢١٨ - ٢١٩.

١) عمان عبر التاريخ، ج ٣، ص ٢٤٠.

١٠٧٢هـ / ١٦٦١م، وذلك عندما توجهت قوة بحرية برتغالية من (جوا) إلى (عدن)، وقبل أن تصل إليها غيرت تلك القوة اتجاهها إلى ميناء (مخا) وأخذوا يقصفونها بالمدافع، فتصدى لهم نائب (المخا) آنذاك ورد عليهم بالمدافع أيضاً، كما قام بحشد عدد كبير من المحاربين في المدينة مخافة أن يقوم البرتغاليون بالنزول، إضافة إلى محاولة صدهم بواسطة السفن الموجودة في الميناء، ولكن البرتغاليين انتصروا عليهم، ودمروا السفن الراسية في الميناء، وأخذوا عدداً من الأسرى، ثم اتجهوا إلى باب المندب،[1] فمكثوا مدة هناك، ينهبون السفن المارة به، ثم اتجهوا إلى سواحل حضر موت وقاموا بعمليات نهب للمدن والسفن هناك.[2] ويظهر أن هجوم البرتغاليين هذا كان موجهاً إلى نائب (المخا) رداً على عدم سماحه لهم بالإتجار مع بلده مساواة بالإنجليز والهولنديين، إلا أنه من المؤكد أن تجدد النشاط البرتغالي في تلك المناطق حدث مهم بالنسبة للعمانيين لما يمثله من خطورة على تجارتهم مع تلك المناطق، وعلى أمن خطوطهم البحرية إلى ساحل شرق إفريقية.

استمر ظهور البرتغاليين بين آونة وأخرى في تلك المناطق، حتى جاء أواخر عام ١٠٧٨هـ / ١٦٦٧م حيث بدأوا يكثفون من وجودهم هناك، كما أخذوا يجبرون السفن عند باب المندب على دفع الضرائب، وبالمقابل بدأ العمانيون أيضاً يكثفون من وجودهم في تلك المناطق حتى تمكنوا من طرد البرتغاليين من باب المندب، وفي ذي الحجة عام ١٠٧٩هـ / أواخر ١٩٦٨م، وبينما كانت قوة بحرية عمانية تجوب السواحل الجنوبية للجزيرة العربية

---

١) باب المندب يقع إلى الجنوب من ميناء (مخا) اليمني بمسافة سبعين كيلاً، هو بوابة البحر الأحمر والمتحكم في مدخله الجنوبي، وإلى الغرب منه وعلى بعد خمسة كيلات تقع جزيرة (بريم) وتطل على باب المندب سلسلة جبال بركانية أعلاها جبل (الشيخ السعيد) بارتفاع ثلاثمائة متراً.
لمزيد من التفصيل انظر :
حسين بن علي الريسي، اليمن الكبرى، ص ٢٨.

٢) الوزير، طبق الحلوى، ج ١، ص ١٨٢ - ١٨٣.

تقابلت مع بعض السفن البرتغالية بالقرب من ميناء (مخا)، وحدث قتال بين الطرفين تمخض عنه مصادرة السفن البرتغالية وسقط منهم عدد من القتلى.[1]

في أثناء عودة العمانيين من (مخا) اتجهوا إلى جزيرة (سقطرة) وقد وصلت إليهم أنباء مفادها أن البرتغاليين يقومون بمحاولات لإحياء وجودهم السابق في تلك الجزيرة، لذا قبضوا على شيخها وأخذوه معهم، ثم هاجموا سواحل المهري،[2] وكانت جزيرة (سقطره) تابعة له، وقد أحدثوا بعض الفزع هناك.[3] لكن البرتغاليين ردوا على ذلك فبعثوا قوة إلى تلك المنطقة في منتصف عام ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م والتحموا مع العمانيين في معركة قبالة ساحل (مخا) أيضاً، كانت رياح النصر في أولها مع العمانيين، ولكن البرتغاليين استطاعوا انهاء المعركة لصالحهم بعد أن قتلوا حوالي مائتي جندي عماني، ثم أخذوا باعتراض السفن التجارية هناك وبخاصة الإسلامية. والجدير بالذكر أن نائب (مخا) في تلك الفترة هو (الحسن بن المطهر)[4] الذي وقف في صف العمانيين ضد البرتغاليين،[5] وفي المحرم عام ١٠٨١هـ / ١٦٧٠م شن البرتغاليون هجوماً على (مخا) انتقاماً من نائبها (الحسن بن المطهر) الذي ساند العمانيين في المعركة السابقة، والذي

---

١) المصدر نفسه، ص ٢٥١. السيابي، عمان عبر التاريخ، ج ٣، ص ٢٤٦.

٢) بلاد المهرة جزء من مقاطعة حضرموت، تحدها شرقاً عمان، وغرباً وادي حضرموت المعروف بوادي المسيلة، وشمالاً المناهيل والربع الخالي، وجنوباً البحر العربي. انظر: الريسي، اليمن الكبرى، ص ٦.

٣) الوزير، طبق الحلوى، ج ١، ص ٢٥١.

٤) هو الحسن بن المطهر بن محمد الجرموزي، وهو ابن المؤرخ الجرموزي صاحب سيرة الإمام القاسم بن محمد وأولاده، كان والياً على (مخا)، توفي عام ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م. انظر :
محمد بن محمد زبارة، نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف، ج ٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٣٧٦هـ، ص ٥٠٨.

٥) الوزير، طبق الحلوى، ج ١، ص ٢٦١؛ سارجينت. آر. بي، النشاط الملاحي العماني على الساحل العربي الجنوبي، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٦، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ١٢٠.

أخذ يفاوضهم ويغريهم بدفع المال، وهو بذلك يريد أن يكسب الوقت ريثما يتم حشد القوة اللازمة لمواجهتهم، فلما تم ذلك حدثت مواجهة بين الطرفين خسرا فيها عدداً كبيراً من القتلى، وانسحب البرتغاليون من الميناء، [1] ثم اتجه البرتغاليون إلى سواحل حضرموت وفاجأوا بعض التجار من الأحساء وعمان قبالة ميناء (بروم)، فهجموا عليهم وألجأوهم إلى الميناء الذي يوجد فيه في تلك الأثناء حوالي ثلاثمائة من الجنود العمانيين، الذين تمكنوا من صد البرتغاليين ومنعوهم من دخول البلدة رغم تمكنهم من حرق بعض المراكب هناك، وقد بعث الإمام (سلطان بن سيف) بعد ذلك بألفي رطل من الرصاص والبارود إلى نائب (مخا) (الحسن بن المطهر) مساعدة له في قتال البرتغاليين.[2]

هذا ونلاحظ زيادة الهجمات البرتغالية على (مخا) وذلك في اعتقادي يعود إلى أن ولاة (مخا) دأبوا على الدوام بعدم السماح للبرتغاليين بالاتجار أو التعامل مع هذا الميناء مباشرة الإّ ماكان بواسطة بعض العرب أو الهنود كما ذكرنا سابقاً، بالإضافة إلى رغبتهم في الانتقام من نائب(مخا) (الحسن بن المطهر) والذي أظهر ميلاً نحو العمانيين في صراعهم مع البرتغاليين في تلك المناطق.

في عام ١٠٨٢هـ / ١٦٧١م نجح البرتغاليون في الدخول إلى جزيرة (سقطرة) [3] فبعد مصالحتهم للمهري الذي تعلّل بأنه لايقوى على حربهم،

---

١) الجرافي، المقتطف من تاريخ اليمن، ص ٢٣٣.

٢) الوزير، طبق الحلوى، ج ٢، ص ٢٧٠ - ٢٧٦.

٣) كان أول مرة سيطر البرتغاليون فيها على الجزيرة عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م، ونظراً لفقرها وعدم جدواها في ذلك الوقت فقد تركها البرتغاليون عام ٩١٧هـ / ١٥١١م، ويأتي احتلالهم هذا للمرة الثانية. انظر : الفصل الأول ص (١٦٧).

وأخذوا في تركيز وجودهم في موضع يقال له (قشن)[1] في الجزيرة، وبدأوا من هذا المكان يشنون هجماتهم على كل من (مخا) وباب المندب وسواحل حضرموت، كما أنهم كانوا يدركون أهمية الجزيرة في ذلك الوقت، حيث كانت تقع على أحد الطرق الملاحية بين الخليج العربي وساحل شرق إفريقية، وتمخضت هجماتهم عن توقيع صلح بينهم وبين نائب (مخا) (الحسن بن المطهر) يقضي بالسماح لهم بالإتجار مع بلاده.[2]

ومن الملاحظ أن الصراع العسكري بين الجانبين في ساحل شرق إفريقية قد توقف منذ أواخر عام ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م وتحول إلى معارك عسكرية جانبيّة سواء في سواحل جنوب شبه الجزيرة العربية، أو في الخليج والمحيط الهندي، وقد رافق ذلك أيضاً حربٌ اقتصادية لاهوادة فيها تمثلت باعتراض ومهاجمة السفن والمراكز التجارية لكلا الطرفين، ومن ذلك ماحدث في ربيع الأول عام ١٠٨٣هـ / أغسطس ١٦٧٢م إذ نجحت حملة برتغالية خرجت من (كونج) في اعتراض ومصادرة عدد من السفن التجارية العمانية المتجهة من (مسقط) إلى (البصرة)،[3] وبعد هذه الحادثة تشير بعض المصادر إلى هدنة عقدت بين الطرفين، وقعها من الجانب البرتغالي القائد (دي ميلو De Mello) ومندوب عن الإمام (سلطان بن سيف الأول)، وقد تضمنت إيقاف العمليات العسكرية مدة ستة أشهر، ولكن نائب الملك البرتغالي بالهند لم يرض بذلك، وأمر بالقبض على (دي ميلو) وإرساله إلى (لشبونه) لمحاكمته بحجة أنه تصرف خلافاً لتوجيهات نائب الملك بالهند الذي صمم على ضرورة إرسال أسطول برتغالي كبير لتوجيه أقصى الضربات إلى

---

١) قشن ثاني قرى جزيرة سقطرة، يتكون خليجها من رأسين، وهي بمثابة العاصمة الثانية للجزيرة، انظر: حمزة لقمان، تاريخ الجزر اليمنيّة، ص ٣٥ - ٥٢.

٢) الوزير، طبق الحلوى، ج ٢، ص ٢٨٠ - ٢٨٢.

3) Carre, M., op.cit, vol.I, pp.110-118.

العمانيين في كافة ميادين القتال بينهما، وعدم توقيع أية اتفاقية معهم حتى يتم استعادة (مسقط).[1]

ويذكر (باثرست Bathurst) في هذا الصدد أن الإمام (سلطان بن سيف) هو الذي تقدم بطلب إلى البرتغاليين بعقد هدنة بين الطرفين، ويعزو ذلك إلى الوجود شبه المستمر لأسطول برتغالي ضخم في الخليج، والذي أدى إلى إرباك حركة التجارة العمانية بشكل خطير، وسبب خسائر فادحة للتجّار العمانيين، كما ذكر ... أن اعتراض الأسطول البرتغالي السفن التجارية العمانية في الخليج ومصادرتها كان بمثابة ضربة موجعة للعمانيين، أحدثت اضطراباً شديداً في (مسقط) اضطر معه الامام (سلطان) إلى تقديم طلب الهدنة المذكورة للقائد البرتغالي (دي ميلو)، الذي ماإن وصل (صحار) حتى بادر سكانها بالفرار، واخلاء المدينة خوفاً منه (على حد ذكر باثرست) ويذكر أيضاً.. أنه كان بإمكان (دي ميلو)، الاستيلاء على المدينة وعلى الحصن بقوة لاتزيد عن ثلاثين رجلاً، وأيضاً ذكر أن شروط الهدنة تقضي بإعطاء البرتغاليين حرية التجارة في (مسقط) وان يقوموا ببناء حصن لهم في (خصب)، إضافة إلى توقف العمليات العسكرية بينهما، الأمر الذي سيؤدي (حسب ذكر باثرست) إلى تحسن اتصالات البرتغاليين مع ساحل شرق إفريقية.[2]

وفي اعتقادي أن (باثرست) قد بالغ في حجم الضعف المفاجيء الذي عاناه العمانيون، وفي حجم التنازلات المقدمة منهم لصالح البرتغاليين، هذا الضعف الذي وصفه بأنه كان بإمكان (دي ميلو) الاستيلاء على (صحار).

---

1) Ibid, pp. 110–118 ;

الوزير، طبق الحلوى، ج ٢، ص ٢٩٤.

2) op.cit, pp. 128–29.

فلا أعتقد أن دي ميلو) أتيحت له فرصة كهذه ولم يستغلها لاسيما أن (صحار) ذات موقع استراتيجي فريد على الساحل العماني، كما أنه لو استولى عليها لأدى ذلك إلى تقوية مركزه التفاوضي بشكل كبير، ولجنبه المعاناة والعقاب الذي لقيه على يد نائب الملك في (جوا) خصوصاً وأن البرتغاليين كانوا يحاولون الحصول على موقع لهم على الساحل العماني طوال الفترة التي أعقبت طردهم من (مسقط) - فكما مرّ بنا - حاولوا الحصول على موقع لهم في (خصب) عدة مرات، وقد قدمت لهم شروط الهدنة المذكورة هذا الموقع مع امتيازات أخرى على الساحل العماني، ولكن نائب الملك البرتغالي بالهند رفضها.

إن ماتمخضت عنه المفاوضات هو في اعتقادي عكس ماذكره (باثرست) إذ لا أعتقد بأن البرتغاليين سيرفضون تنازلات بهذا الحجم، تمنحهم فرصة يستطيعون من خلالها السيطرة على الممر المائي عبر مضائق (هرمز)، وتوفير الحماية لمصالحهم في (كونج)، وتحسين اتصالاتهم بساحل شرق إفريقية، إضافة إلى تحسين موقفهم أمام الحكام المحليين في الهند وشرق إفريقية، واضعافهم سلطة الإمامة العمانية، والشيء الذي يتعيّن وضعه في الإعتبار هو أن العقاب الذي لقيه (دي ميلو) يثير شكوكاً حول طبيعة ونتيجة المحادثات التي من المحتمل أنها قد أدت إلى الإضرار بالمصالح البرتغالية وليست تنازلات عمانية، أما حجة نائب الملك البرتغالي التي ترتكز على أنه لايقبل إلاّ باستعادة (مسقط) فلا أعتقد أنه يجهل حجم الصعوبات التي تحول دون تحقيق ذلك.

لقد تأكد ذلك لنائب الملك عندما أصدر أوامره بتوجيه الاسطول البرتغالي إلى الخليج بأسرع مايمكن، مع أوامر مشددة تحدد كيفية التعامل مع العمانيين، بأن لايعطوهم حياً ولامسكناً في (مسقط) ولايعاملوهم

برحمة، ولاتعقد معهم أية اتفاقيات حتى يتم إجلاؤهم ليس عن (مسقط) فحسب، بل عن كافة الأماكن التي سبق أن استعادوها من البرتغاليين سواء في الخليج أو في ساحل شرق إفريقية، ولكن الأسطول البرتغالي لم يواجه العمانيين ولم يهاجم (مسقط).(١) ومن المؤكد أن استجابة العمانيين إلى التفاوض كما يُذكر قد أعطت نائب الملك البرتغالي انطباعاً خاطئاً ليس عن ضعف العمانيين فحسب كما كان يعتقد، بل عن القدرات البرتغالية في استعادة مكانتهم السابقة في الخليج أو احتلال (مسقط).

لقد أعاد البرتغاليون المحاولة مرة أخرى وذلك في شتاء عام ١٠٨٣هـ / ١٦٧٣م عندما أرسلوا أسطولاً لمهاجمة (مسقط) ولكنه لم يستطع تحقيق نجاح يذكر سوى نهب بعض المخازن واحراق الريف المحيط (بمسقط)،(٢) إلاّ أن الرد العماني جاء سريعاً، وذلك عندما قام لإمام (سلطان بن سيف) بإرسال أسطول مكون من عشر قطع بحرية لمهاجمة منطقة (باسين Basein) على ساحل الهند الغربي، والذي يقيم فيه البرتغاليون مستودعات لشحن البضائع، وذلك عام ١٠٨٤هـ / فبراير ١٦٧٤، وعندما وصلت السفن العمانية أنزل بعضها إلى المدينة، حيث تمكنت من احداث ذعر داخلها والبقاء فيها خمسة أيام، كما حصلوا على غنائم كبيرة، ولحقت بالمستودعات البرتغالية خسائر جسيمة.(٣)

بعد انحسار التهديد البرتغالي عن (مسقط) أخذ العمانيون يكثفون

---

1) the Carmelities, op.cit, vol. I, p.426.

2) Fryer, J., op.cit, vol.II, pp.190-4.

3) (10R). G/3/6, 19041. pp. 64-70, Letters Bomby to company 7 and 17 February 1674,

مايلز ، الخليج بلدانه وقبائله، ص ٢٠٩.

من حملاتهم على السواحل الجنوبية للجزيرة العربية، وبخاصة بعد تمركز البرتغاليين في جزيرة (سقطرة) ومصالحتهم لنائب (مخا)، ففي محرم عام ١٠٨٥هـ / ابريل ١٦٧٤م أبحرت قوة عمانية إلى جزيرة (سقطرة) حيث هاجمت القوة البرتغالية هناك، ودمرت مركزهم، وأخذوا بمطاردة سفنهم، كما حاولوا الدخول إلى ميناثي (مخاوعدن) ولكنهم لم يستطيعوا، فقد تصدى لهم نائباها، ثم اتجه العمانيون إلى باب المندب وأخذوا بمطاردة السفن البرتغالية هناك.[١] والواقع أن الإمام (سلطان بن سيف) كان يتطلع إلى مساعدة إمام اليمن آنذاك (إسماعيل بن القاسم)[٢] له في جهاده ضد البرتغاليين، ولكن امام اليمن لم يفعل، ويتضح ذلك من رسالة بعث بها الإمام (سلطان) إلى إمام اليمن شرح فيها امتعاضه من هذا الموقف.[٣]

رد البرتغاليون على الجهود الأخيرة للعمانيين بتكثيف حملاتهم على تلك المناطق، وأخذوا يرسلون الحملات إلى هناك طمعاً في استعادة ماكان لهم من نفوذ، وعن ذلك يقول (الوزير): «وفي هذه السنة فإن الفرتقال (البرتغال) قد اضطرم شرهم واستفحل أمرهم فضجت لذلك قلوب المسلمين وأصبح جهادهم أبدر مايكون.»[٤]

---

١) الوزير، طبق الحلوى، ج ٢، ص ٣٠٣ - ٣٠٧.

٢) هو الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم بن محمد، تولى الحكم بعد وفاة أخيه المؤيد محمد عام ١٠٥٤هـ / ١٦٤٤م ، ويعتبر من أنشط الأئمة اليمنيين في ذلك الوقت، يعزى إليه توسيع ممتلكات بلاده، توفي عام ١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م.
لمزيد من التفصيل :
الشوكاني محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج ١، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م، ص ١٤٦؛ عبدالله الحبيد، مؤلفات الجرموزي عن الدولة القاسمية، مجلة العرب، العدد الحادي عشر والثاني عشر، جماديان ١٣٩٧، ص ٩٥١.

٣) لمزيد من التفصيل انظر الملحق رقم (٥)

٤) طبق الحلوى، ج ٢، ص ٣٠٧.

وابتداءً من عام ١٠٨٥هـ / ١٦٧٤م ركز العمانيون جهادهم للبرتغاليين في تلك المناطق، فبالإضافة إلى الحملة التي سبق ذكرها، فقد أرسل العمانيون حملة أخرى في رجب عام ١٠٨٥هـ / نوفمبر ١٦٧٤م، رابطت في باب المندب فترة من الزمن تراقب السواحل اليمنية، وفي شعبان ١٠٨٦هـ / ١٦٧٥م وصلت قوة بحرية عمانية أخرى إلى باب المندب بعد مرورها بسواحل حضرموت.[١] وعلى مايبدو فقد أصبح مألوفا رؤية السفن العمانية المليئة بالجنود تجوب السواحل الجنوبية للجزيرة العربية، ويظهر أن العمانيين ابتداءً من عام ١٠٨٥هـ / ١٦٧٤م كانوا قد فرضوا سيطرة شبه تامة على مياه تلك المنطقة، الأمر الذي أدى إلى انحسار التهديد البرتغالي هناك، وسيتضح ذلك فيما بعد عندما أخذت السفن الحربية والتجارية العمانية تذهب إلى ساحل شرق إفريقية بكل حرية ودون خوف.[٢] ولم تذكر المصادر أي نشاط برتغالي يذكر في تلك المناطق، وفي الوقت الذي لم تفصّل فيه المصادر العمانية في حديثها عن الجهود التي قام بها العمانيون في تلك المناطق إلاّ أن شعراء عمان قد أطنبوا لتلك الأعمال ومجّدوها، وفي هذا الصدد نقتبس مما قاله الشاعر العماني (خلف بن سنان الغافري) المعاصر للأحداث من أبيات تشير إلى ذلك ومنها :

وكَذَا فِي مَخَا قَدْ إِمْتَحَّ مِنْهُم ... أَعْظُمَا قَبْلَ ظَيْحَةٍ لاَتُضَامِ
وَانْثَنَى مِنْهُم بِعِدْةِ أَفْلاَ ... كٍ تَرَآءة كَأنّها الاَعْلاَمِ
وَلَدَى بَابَ مَنْدَبٍ كَمْ دَمُ طَـ ... ـلْ وَمَالٌ آمَالَه الصَمْصَامِ.[٣]

---

١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٢٠؛ السيابي، عمان عبر التاريخ، ج ٣، ص ٢٤٦.

٢) سارجينت ، آر. بي. النشاط الملاحي العماني على الساحل العربي الجنوبي، ص ١٢١؛ وليد محمد جرادات، الأهمية الإستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر، دار الثقافة، الطبعة الأولى، الدوحة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ١٠٨ - ١٠٩.

٣) السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٥٥.

* موقف الإمامة الزيدّية من الجهاد العماني في سواحل جنوب الجزيرة العربية :

اتسمت العلاقة بين العمانيين والإمامة الزيدية في اليمن بالتوتر خلال هذه الفترة التي نعالجها، والواقع أن امام اليمن آنذاك اتخذ موقفاً معارضاً منذ البداية للوجود البحري العماني في تلك المناطق، وبخاصة بعد أن دخل العمانيون إقليم ظفار، ورغم خروجهم منه بعد ثلاث سنوات وبالتحديد في رجب ١٠٧٣هـ / ١٦٦٢م إلاّ أن العلاقات بين البلدين ظلت متوترة،[١] ففي عام ١٠٧٦هـ / ١٦٦٥م تلقى امام اليمن رسالة من شاه فارس ذكر فيها بأن العمانيين يشكّلون قوة تهدد كلاً من فارس واليمن، وطلب التحالف معاً ليقوما بالهجوم على عمان، فارس من البحر واليمن من البر، وبعد تريث أجاب إمام اليمن بأنه ليس باستطاعتهم القيام بذلك في الوقت الحاضر، ولكن الموضوع سيظل قيد الدرس في المستقبل، وأفاد بأنه عندما يكونوا مهيئين لغزو عمان فإنهم لن يترددوا في طلب المساعدة من فارس.[٢] إن رسالة شاه فارس ورد إمام اليمن عليها تعكس نوعية الخلافات الموجودة بين اليمن وعمان، وأنها خلافات واضحة تعدت حدود البلدين، الأمر الذي دفع بشاه فارس إلى محاولة الإستفادة من تلك الخلافات لتحقيق مكاسب لبلاده على حساب العمانيين. ولكن اليمنيين لجأوا إلى الحكمة وعدم التسرع في معالجة هذا الموضوع.

كما نستطيع أن نقف على حجم تلك الخلافات وعلى موقف الامامة الزيدية في اليمن من خلال رسالتين تبودلتا بين إمام اليمن وإما عمان (سلطان بن سيف الأول)، ففي ربيع الأول عام ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م تلقى امام

---

١) الجرافي، المقتطف من تاريخ اليمن، ص ٢٣٠ - ٢٣١.

٢) الوزير، طبق الحلوى، ج ١، ص ٢٠٧.

اليمن (إسماعيل ابن القاسم) رسالة من الإمام (سلطان بن سيف) يبدو أنها رد على رسالة كان قد بعث بها إمام اليمن ولكنها تلفت ووصل حاملها الذي نقل فحواها إلى إمام عمان، والمتضمن امتعاض امام اليمن من تحركات البحرية العمانية قبالة سواحل بلاده،[1] ورد عليه إمام عمان رسالة ذكر فيها أن وجودهم في تلك المنطقة ليس طمعاً في السيادة على اليمن أو تهديداً لأراضيه وحكمه أو تجارته، وانما جاء هذا الوجود لجهاد البرتغاليين وتدمير سفنهم، والذي عبر عنه بقوله: «لم نجهز مراكبنا، ونحشد مخالبنا، لسيادة رعيّتك، ولا لاستباحة دم أهل حكمك وقضيتك، لكن جهزنا الجيوش والعساكر، وأعددنا اللهاذم والبواتر، لتدمير عبدة الأوثان وأعداء الملك الديّان، تعرضاً منا لرضا رب العالمين، واحياءً لسنة نبيّه الأمين، ورغبة في إدراك فضل الصابرين المجاهدين، وحاش مثلك أن يغضب لقتال عبدة الأصنام، وأعداء الله والإسلام، وأنت تدري ماجرى بيننا وبينهم من قبل في سواحل عمان وفي سائر الأماكن والبلدان، من سفك الدماء، وتناهب الأموال والأملاك، وإنا نأخذهم في كل موضع تحل به مراكبهم وتغشاه.»[2]

لقد شرح إمام عمان بجلاء في هذه الرسالة هدف تحركاتهم البحرية قبالة السواحل اليمنيّة، وأنه يقتصر على مطاردة السفن البرتغالية، وليس لعمان أية أطماع في اليمن، كما أن إمام عمان دعا من خلال تلك الرسالة إمام اليمن إلى المصالحة وذلك في قوله: «إن في إصلاح ذات بيننا وبينكم طالبون، وفي استبقاء صحبتك راغبون.»[3]

---

١) المصدر نفسه، ص ٢٥٥.

٢) نفسه، ج ١، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ - ٢٥٧؛ السالمي، تحفية الأعيان، ج ٢، ص ٥٠ - ٥٢.

ولمزيد من التفصيل عن هذا الخطاب انظر الملحق رقم (٥).

٣) السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٥٢.

وقد رد إمام اليمن (إسماعيل بن القاسم) على خطاب الإمام العماني (سلطان بن سيف) بخطاب اتسم بلهجة غير وديّة، ذكر فيه من عبارات التهديد والوعيد مايعكس جو العلاقات السائد بين البلدين، ولم يظهر إمام اليمن من خلال هذا الخطاب أي عبارات تصالحية، بل إنه يعكس أيضاً مدى امتعاض الإمامة في اليمن من العمانيين.[1] والواقع أنه بقراءة هذين الخطابين يتضح موقف الإمامة في اليمن من الجهاد العماني هناك، وهو موقف اتسم بالسلبيّة وعدم التعاون مع العمانيين ضد البرتغاليين، فياترى ماهي أسباب هذا الموقف من الأئمة في اليمن ؟ وللإجابة على ذلك نقول :

منذ جلاء العثمانيين عن اليمن عام ١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م، أخذ الأئمة في اليمن يسعون جاهدين إلى الخروج من المأزق الإقتصادي الذي كانوا يعانون منه، ونتيجة لذلك فقد شهدت بعض الموانيء اليمنيّة نشاطاً تجارياً كبيراً مثل (مخاوعدن) وكما مرّ بنا فقد فازت بعض القوى الأجنبيّة بحق الاتجار مع تلك الموانيء مثل الانجليز والهولنديين والبرتغاليين في بعض الاحيان، كما كان لأمراء وتجار بعض المقاطعات الهندية جزء من هذا التعامل، ونتيجة للحضر العثماني على توغل السفن غير الإسلامية في البحر الأحمر، فقد ازدهرت عملية نقل البضائع بالسفن العربية والإسلامية ومن ضمنها السفن اليمنية من موانيء اليمن إلى داخل البحر الأحمر ومصر.[2] وقد شجع الضعف الذي طرأ على البحرية البرتغالية وانشغالها بالدفاع عن وجودها بالهند والشرق الأقصى وشرق إفريقية والخليج، شجع على عودة النشاط التجاي وازدهاره في البحر الأحمر في تلك الفترة، يضاف إلى ذلك ماأبداه أئمة اليمن من تسامح تجاه منح التسهيلات

---

١) لمزيد من التفصيل عن هذا الخطاب انظر الملحق رقم (٥).

٢) السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص ٤٢٦.

التجارية مع الموانىء اليمنية.[1] فقد كان من الطبيعي أن تتأثر تلك التجارة من جراء الصدام العماني البرتغالي، لدرجة أن ميناء (مخا) قد فقد أهميته التجارية في وقت من الأوقات نتيجة لذلك الصراع، الذي أثر سلبياً على الأرباح التي تجنيها حكومة اليمن من تلك التجارة.[2] ولذا فليس من المستبعد في اعتقادي أن يبدي الأئمة في اليمن نظرة عدم الارتياح من النشاط العماني في تلك المناطق بإعتباره عرقل النشاط التجاري الذي يوفر دخلاً كبيراً لخزينة الدولة، وأدى أيضاً إلى إحجام بعض التجار عن التعامل مع الموانىء اليمنيّة على اعتبار أنها غير آمنة. ولذا يمكن القول إن تأمين عمليات الشحن والتجارة التي تتم في موانىء اليمن تبدو للأئمة هناك أكثر أهمية من اعتبارات الدين أو الجنس وذلك بسبب حاجة الأئمة إلى عوائد الجمارك وبخاصة في ميناءي (مخا وعدن).

أما السبب الآخر للموقف اليمني فهو الخلاف المذهبي، فالحكم الإمامي في اليمن يعتمد على المذهب الزيدي نظرية للحكم جاهد الأئمة في سبيل تحقيقه وتوسيع نطاقه الجغرافي، أمّا العمانيون فيعتمدون على المذهب الإباضي أساساً للحكم الإمامي في عمان، وكان من الطبيعي أن يمتعض الأئمة في اليمن من انتصار الإباضية العمانية على الاستعمار البرتغالي، ظناً منهم أن يولد ذلك رغبة لدى العمانيين في التوسع على حساب الأراضي اليمنينة، وقد ظهر هذا الخلاف المذهبي في إحدى فقرات رسالة إمام اليمن إلى إمام عمان وذلك عند قوله : «ونحن من القوم الذين سقوا قومك يوم النهروان كؤوس الحتوف وأنتم أتباع من

---

١) يوسف فضل حسن، الصراع حول البحر الأحمر منذ أقدم العصور حتى القرن الثامن عشر الميلادي، ص ١٢٣ - ١٢٤.

٢) سارجنت، آر بي، النشاط الملاحي العماني على الساحل العربي الجنوبي، ص ١١٥.

سُقي.»[1]

إن عدم التعاون بين العمانيين وبين الأئمة في اليمن قد أطال فترة الجهاد العماني ضد البرتغاليين في السواحل الجنوبية للجزيرة العربية، حيث إمتد حوالي تسع سنوات أدت إلى تأخر الانجازات العمانية في ساحل شرق إفريقية.

ومهما يكن من أمر فقد ظلت السواحل الجنوبية للجزيرة العربية ذات أهمية بالغة لساحل شرق إفريقية، ففي الوقت الذي شاركت فيه الخليج في تدفق الدماء العربية الإسلامية إلى السواحل الإفريقية على مر العصور والأزمان والتي أسهمت في إثرائه سياسياً واقتصادياً وحضارياً، نجدها الآن تضطلع بالمهمة السابقة نفسها إضافة إلى توفيرها الأمن والحماية التي تحتاجها الأساطيل العسكرية والتجارية المتجهة من وإلى ساحل شرق إفريقية، فلك أن تتخيّل أن للبرتغاليين قواعد في (عدن) أو (مخا) أو سواحل حضرموت، هل تستطيع السفن العربية والإسلامية وبخاصة العسكرية الإبحار إلى ساحل شرق إفريقية دون اعتراض منهم، سيكون الجواب بالتأكيد لا. إذن فالسواحل الجنوبية للجزيرة العربية ظلت على الدوام حلقة من ضمن حلقات العلاقات بين ساحل شرق إفريقية والخليج العربي وبخاصة عمان، كما أنها ظلت ذات تأثير مباشر على نمط الحياة في السواحل الإفريقية.

---

١) السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٥٣.

* مواصلة الجهاد في ساحل شرق إفريقية والهجوم على بتّة ووفاة الإمام سلطان بن سيف ١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م :

لم تتغير الأوضاع في ساحل شرق إفريقية إبان الجهاد العماني في السواحل الجنوبية للجزيرة العربيّة، فكما ذكرنا فقد كانت آخر حملة عمانية إلى هناك عام ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م وهي الحملة التي وجهت إلى (موزمبيق)، والتي هاجمت أيضاً الحامية البرتغالية في (ممباسه)، وقدمت الدعم لبعض المدن الساحلية هناك، بل إن عدداً من تلك المدن اشتركت في تلك الحملة، وذلك بدعمها بالرجال مثل (ماندا - سيو - لامو) وبخاصة (بتّة)،[١] وخلال فترة الغياب العماني عن الساحل، وهي الفترة التي قضاها العمانيون بمطاردة البرتغاليين قبالة السواحل اليمنية، ظل ساحل شرق إفريقية في ثورة عارمة، وتزعم كل من أهالي (ممباسة) و (بتّة) تلك الثورة، وساندهما كل من مدن (لامو - سيو - ماندا).[٢] وفي الوقت الذي شهدت فيه تلك المناطق غياب الأساطيل البرتغالية لانشغالها بمحاولة استرداد (مسقط)، ومواجهة العمانيين في سواحل جنوب الجزيرة العربية، وشئون الخليج، فإن مدن ساحل شرق إفريقية لم تستطع تخليص نفسها من القبضة البرتغالية، صحيح أن بعض المدن مثل (بتّة - سيّو - لامو) استطاعت التخلص إلى حدٍ ما من نفوذ البرتغالين عليها، إلاّ أنها ظلت ضعيفة ومعرضةً لانتقام برتغالي في أية لحظة نظراً لافتقارها إلى القوة العسكرية.[٣] والواقع أنه طالما أن الحامية البرتغالية في (ممباسه) موجودة فقد ظلت مصدر تهديد لكل من

---

١) انظر الصفحة ٣٠٩ من هذا الفصل.

٢) رودلف سعيد رويتي، سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي، ١٧٩١ - ١٨٥٦، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسي، مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، البصرة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ٩٠ - ٩١؛ السيار، دولة اليعاربة، ص ٩٨.

3) Warner, A., op.cit, p.278.

أراد الخروج عن طاعة البرتغاليين، ورغم عدم احتفاظها بالقوة والهيبة السابقة إلا أن مدن الساحل مازالت تفتقر إلى المساعدات العمانية.

أصبح الموقف بعد نهاية أحداث السواحل الجنوبية للجزيرة العربية، وزوال التهديد البرتغالي للعاصمة العمانية كالتالي: بالنسبة للعمانيين فقد خرجوا من ذلك الصراع أقوى مما كانوا عليه نظراً للمكاسب العسكرية والاقتصادية التي حصلوا عليها، فالمكاسب العسكرية تمثلت بتأمين الطرق الملاحية التي يسلكها أسطولهم العسكري والتجاري من وإلى ساحل شرق إفريقية والبحر الأحمر، كما أدى استيلاؤهم على بعض السفن الحربية البرتغالية إلى دعم ذلك الأسطول وتقويته وخاصة المدافع الضخمة، والكميات الكبيرة من البارود، وأيضاً انحسار التهديد البرتغالي عن (مسقط) بعد عجزه السيطرة عليها.[1] أما المكاسب الاقتصادية فقد تمثلت بالغنائم التي حصلوا عليها نتيجة حربهم مع البرتغاليين، سواء بالاستيلاء على سفنهم التي تحمل البضائع ومصادرتها، أو سفن المتعاونين معهم، أو بالهجوم على مراكزهم التجارية، والتي تضم مستودعات لشحن البضائع مثل الهجوم على (بمباي) عام ١٠٧٢هـ / ١٦٦١م، وعلى (ديو) عام ١٠٧٩هـ / ١٩٦٨م، وأيضاً على (باسين) عام ١٠٨٤هـ / ١٦٧٤م، إضافة إلى توفير الحماية لتجارتهم في الخليج والمحيط الهندي.[2] ولاشك أن تلك المكاسب قد مكنتهم من استمرار عملية الجهاد ضد البرتغاليين.

---

١) السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٥٣ - ٥٤؛ العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج، ص ٩٨ - ٩٩؛ وليد جرادات، الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر، ص ١٠٩.

٢) انظر الصفحات (٢٩٧-٣٠٣ وما بعدها) من هذا الفصل؛

Low, C.R., op.cit, vol. I, p.377;

Coupland, R., op.cit, pp. 65-6-7

أما البرتغاليون فقد أدى كبح جماحهم قبالة السواحل الجنوبية للجزيرة العربية والخليج إلى زيادة ضعفهم، حيث لم يستطيعوا الحصول على أي نفوذ في تلك المناطق إضافة إلى فشلهم في السيطرة على الطرق الملاحية المؤدية إلى ساحل شرق إفريقة، وهي المنطقة الوحيدة التي كانوا يتمتعون بها بنفوذ كبير من خلال قلاعهم وحامياتهم العسكرية.[١] ولذا نراهم بعد أن يئسوا من تحقيق أي نفوذ لهم في البحر العربي سواء عسكرياً أو تجارياً، والذي تواكب مع اخفاقهم المتكرر في الوصول إلى (مسقط)، نراهم يهبون مسرعين إلى تدعيم سلطاتهم ونفوذهم في ساحل شرق إفريقية بناءً على تعليمات جديدة ومشددة وصلت إليهم من ملك البرتغال. [٢] ويبدو أنهم بذلك حاولوا إنقاذ مايمكن إنقاذه بعد خسارة نفوذهم الواسع في آسيا، حيث خسروا نفوذهم في جنوب شرق آسيا على يد الهولنديين، كما خسروا معظم نفوذهم في شبه القارة الهندية على يد الانجليز والهولنديين، وأيضاً خسروا نفوذهم في الخليج على يد العمانيين والانجليز والهولنديين، ولم يتبق لهم في تلك المناطق سوى نقط تجارية غير مؤثرة باستثناء مركز حكومتهم في (جوا) على ساحل الهند الغربي.[٣]

لذا ففي ربيع الأول عام ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م أرسل البرتغاليون أسطولاً يتكون من خمس عشرة سفينة من النوع الكبير وبعض السفن الصغيرة، باتجاه الخليج وذلك لردع العمانيين، وكان هذا الأسطول يعتمد عليه في تسيير حملة هامة ضد ساحل شرق إفريقية في السنة نفسها.[٤] وكان تحت

---

1) Warner, A., op.cit, p.292.

2) Fryer, J., op.cit, vol.II, p.338.

٣) محمود علي الداود، العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي، ص ٢٥٣ - ٢٥٤.

4) Fryer, J., op.cit, vol.II, p.338.

قيادة نائب الملك المعيّن حديثاً "بدرو دي الميدا Pedro De Almida" الذي صدرت إليه التعليمات من ملك البرتغال بالتوجه إلى ساحل شرق إفريقية، وقد شددت تلك التعليمات على ضرورة أن تكون أولوية الاهتمام لشرق إفريقية، لتدعيم الوجود البرتغالي هناك، خشية فقدان التجارة البرتغالية بين ساحل شرق إفريقية والهند وضياعها إلى يد الآخرين، ومن ثم تأمين الطريق المؤدي إلى (لشبونة)، كما أكد الملك لنائبه بأنه لن يتحقق ذلك مالم يتم استعادة البرتغاليين لمركزهم السابق في الساحل وإحكام قبضتهم عليه.[1] وفي تقديري أنه ليس أمام البرتغاليين من خيار في تلك الفترة سوى إحكام قبضتهم على ساحل شرق إفريقية قدر استطاعتهم، فهو يمثل الملاذ الوحيد لهم والبعيد عن أعدائهم وبخاصة العمانيين والهولنديين، ولهم فيه قلاع مازالت قوية، كما يمثل لهم أيضاً حلقة الوصل الآمنة فيما بين (لشبونة) والهند، إضافة إلى مقدراته الاقتصادية، وفوق ذلك كله فإن السلطة البرتغالية العليا كانت تدرك ان الطريق أصبح الآن مفتوحاً للقوات العمانية بالتوجه إلى تلك المناطق، وكذلك السخط والانتفاضة المتأججة في مدن الساحل ونداءتهم المتكررة إلى عمان لمساعدتهم.

وعليه فإن (بدرو دالميدا) لم يترك مجالاً للتسلح إلاّ طرقه، وأحاط نفسه بكل القوات المتوفّرة، وغيّر وجهة أسطوله إلى ساحل شرق إفريقية، وعند وصوله إلى هناك وضع تعزيزات في (ممباسه)، كما وُضعت تعزيزات في (موزمبيق)، وفي رجب ١٠٨٩هـ / أغسطس ١٦٧٨م وصل الأسطول البرتغالي إلى (فازا) واتخذها قاعدة انطلاقه للسيطرة على المدن والقرى الأخرى،

---

1) (10R). I/3/142. Documents., 156, fol. 481, p.7, Letter king to the viceroy 2th January 1978.

ويعود ذلك إلى محالفة أمير (فازا) لهم،[1] وفي هذه الأثناء وصلت إمدادات برتغالية من (جوا) بعدها قاتلت القوات البرتغالية على الشاطىء، وتم نشر المزيد من القوات في معظم أجزاء الساحل، كما تم الهجوم على (سيّو) وأسر حاكمها، ومن ثم ألقي القبض على كل من حاكم (لامو) وحاكم (ماند) بعد أن تم تدمير البلدتين.[2] وبما أن (بتة) كانت تتزعم تلك المدن بالثورة على البرتغاليين في تلك الأثناء، كما أنها قد قامت بمساندة العمانيين في الهجوم الذي شنوه على (موزمبيق)، فقد حشد لها البرتغاليون قوة كبيرة شقت طريقها إلى المدينة، وبعد مدة من الحصار استطاعت السيطرة عليها، وتم احراقها ومن ثم أسر حاكمها، ووضع مع كل من حكام (سيّو) و (لامو) و(ماندا) حيث تم إعدامهم.[3] ويُذكر أن (دالميدا) قد انتهج بذلك أسلوب اتّسم بالقمع والوحشية من قتل وحرق، وإهانة للمسلمين وتدنيس مساجدهم وهدمها، وكذلك نهب الثروات ومصادرة الأملاك.[4] ولم ينته العام إلاّ وقد أوشك (دالميدا) على فرض سلطة مطلقة على جميع أجزاء الساحل.

لكن قبل أن يتمكن الأسطول البرتغالي من توسيع عملياته العسكرية على كافة أجزاء الساحل فوجىء بقدوم أسطول عماني إلى الساحل وذلك في أواخر عام ١٠٨٩هـ / يناير ١٦٧٩م بقيادة (محمد بن مسعود الصارمي)، وكان الإمام (سلطان بن سيف) قد أرسل في مطلع عام ١٠٨٩هـ مجموعة من العمانيين برئاسة (سعد بن سعدي البلوشي) إلى ساحل شرق إفريقية، لتنظيم عمليات المقاومة، وليكون ضابط اتصال بين الحكومة العمانية وحكام

---

1) Martin, F.A.op.cit, vol. II, p.175.

2) Strandes, J., op.cit, p.231-32.

٣) كيركمان، جي، التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق إفريقية، ص ٢٩٠؛ السّيار، دولة اليعاربة، ص ٩٨.

٤) المرجع نفسه، ص ٩٨.

المدن هناك، إضافة إلى رصد تحركات البرتغاليين.[1] وصلت السفن العمانية إلى الساحل وأخذت طريقها إلى مدخل ميناء (بتّة)، ورغم قوة البرتغاليين الظاهرة إلاّ أن القوة العمانية استطاعت الرسو والنزول إلى البر، حيث كان هدفهم شن هجمات على المراكز والجنود البرتغاليين في الأماكن التي احتلوها، وأن يشكلوا مع السكان المحليين قوة يصعب على البرتغاليين السيطرة عليها.[2]

لم تمض أيام قليلة حتى بدأ الجنود العمانيون يساعدهم السكان المحليون بشن هجمات على المواقع البرتغالية، تساندهم في ذلك مدافع سفنهم، وركزوا جهودهم على (بتّة)، وتشير المصادر إلى أن الحرب بين العمانيين والأهالي من جهة وبين البرتغاليين من جهة أخرى حول السيطرة على (بتّة) قد جرت على نطاق واسع، حيث استمرت حوالي ستة أيام، أدرك البرتغاليون خلالها أنهم يواجهون ضغطاً عنيفاً، نتج عنه تحرير (بتّة) وإجلاء البرتغاليين عنها، ثم هاجمت القوات العمانية (فازا) ودخلت البلدة، وأُجبر البرتغاليون بعد ذلك على الانسحاب والهرب إلى (موزمبيق) عن طريق البحر، حيث مات قائد الحملة ونائب الملك (بدرو دالميدا) بعد ذلك بأربعة أسابيع.[3]

وبهذا أخفقت الحملة البرتغالية عسكرياً، واتضح ضعفهم وعدم قدرتهم في المحافظة على وجودهم هناك، وفي الوقت الذي قاموا فيه بعملية نهب

---

1) Martin, F.A., op.cit, vol.II, p.175;

السيابي، عمان عبر التاريخ، ج ٣، ٢٤٦.

2) Strandes, J., op.cit p.232.

٣) السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٦٣ - ٦٤؛

Warner, A., op.cit, p.297.

على نطاق واسع للمدن الاسلامية، وحصلوا على ثروات وبضائع كبيرة تم ارسالها إلى (لشبونة) إلاّ أن اخفاق هذه الحملة عسكرياً برهن على قرب نهايتهم.[1] وبالمقابل فإن العمانيين قد أدركوا بعد نجاحهم في هذه الحملة مدى الوهن الذي تعانيه القوة البرتغالية، ولذا يتعين عليهم مضاعفة جهدهم للإجهاز كلية على الوجود البرتغالي في ساحل شرق إفريقية.

إن هذه الحملة ليست الأولى للعمانيين إلاّ أنني أعتقد أنها من أهم الحملات العمانية التي جُردت إلى الساحل، فقد هزمت البرتغاليين هناك بشكل ذريع ومنعتهم من تحقيق كامل سيطرتهم وتنكيلهم بأهالي الساحل، كما أنها عكست روح التعاون والتفاهم بين العمانيين وبين الأهالي هناك، وعبرت عن عمق العلاقة الأخوية بين المنطقتين، كما نلمس أهميتها أيضاً من الصدى الواسع الذي تركته هذه الحملة في الأوساط العمانية التي تحدثت عنها باسم معركة (بتّه)، حيث تغنّى بها الشعراء العمانيون المعاصرون، وقد وصف قائد الحملة الشيخ (محمد بن مسعود الصارمي) تلك المعركة وصفها شعراً في قصيدة منها :

كَشَفْنَ عَنْ تِلْك الوُجُوهِ الصّباح	اذْ زَمّت العِيسُ لِيَوْم المَزاحْ
حَتّى إذا مَاصِرتُ فِي مَرْكَبِي	وَحَثّ بِي حَادِي ألْمَطَايا وَصَاحِ
أطْوِيَ ألفَلاَ وَاليَمّ فِي فَيْلَقٍ	يُطفِيءُ ضَوْء ألشّمْسِ وَالجَوُّ صَاحِ
حَتّى أتَيْنآ (بَتّة) بالضّحَى	ثُمّ نَزَلْنَاهَا بِأرْضٍ بَرَاحْ
فَقُلْتُ لإصْحَابِي لاَتَحْزَنُوا	مَنْ عِنْدَه الله فَلا يُسْتَبَاحْ
اصطنعوُ الصبرَ ولاتَجْبَنُوا	عِنْدَ الوَغَى فالجُبْنُ لَوْمٌ صَراحْ
فَأمْتَثِلُوا ألأمْرَ ولاَقَصّروُا	وجرِّدُوا أسْيافَهُم والرِّمَاحْ
فاقتَتَحموا السُّورَ كَأسْدِ الفَلاَ	واشْتَدّت الحربُ وضربُ الصفاحْ

---

١) أحمد شلبي، تاريخ عمان ونشاطها الداخلي، ص ٤٩؛ السيّار، دولة اليعاربة، ص ٩٨؛ الحجري، تاريخ العلاقات العمانية الأفريقية، ص ٧٨٥.

كأنما القتلى بأرْجَائها من فئةِ الأفرنجِ صَرْعَى طِراحْ
فانْهَزَمَ الإفْرَنْجِ من (بَتّة) بالذلّ والخزيِ والإفْتِضَاح
بُعْداً لَهُم بُعْداً وسُحْقاً لَهُم مِنْ قَومُ سُوءٍ ووجُوهٍ قُبّاحْ
بِعَزْم سلطانِ بن سيف الذي أبادَ آهلَ الكُفرِ يومَ الكِفاح.[1]

وتؤكد هذه القصيدة بجلاء الدور الكبير الذي قام به العمانيون في جهادهم ضد البرتغاليين في عهد الإمام (سلطان بن سيف)، كما توضح أيضاً حجم معركة (بتّة) وأهميتها، وعمق العلاقة بين ساحل شرق إفريقية وعمان، فقد قدم أهالي الساحل عدة طلبات إلى الإمام (سلطان بن سيف) منذ أول حملة عمانية حتى هذه الحملة، يطلبون منه أن يقيم حاميات عربيّة عندهم تحميهم من عودة البرتغاليين، إلاّ أن هذا الطلب رد عليه الامام بأن القوات العمانية لاتأتي إلى هناك إلاّ لمساعدة ونصرة اخوانهم في الدين والدم ولاتنوي الإقامة فيه، وهذا يعكس النوايا العمانية التي لاترمي إلى احتلال المنطقة أو ضمها.[2]

لقد كانت تلك الحملة أو معركة (بتة) هي آخر حملة في عهد الإمام (سلطان بن سيف الأول) حيث توفي في يوم الجمعة السادس عشر من شهر ذي القعدة عام ١٠٩٠هـ / الموافق التاسع عشر من ديسمبر ١٦٧٩م، وتختلف المصادر العمانية في وفاته، (فالأزكوري) يحدد وفاته في التاريخ المذكور،[3] و (السالمي) يذكر أن وفاته في السادس عشر من ذي القعدة

---

١) السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٦٣ - ٦٤؛ المغيري، جهينة الأخبار، ص ١٩٧ - ١٩٨.

٢) محمد أحمد مشهور الحداد، حقائق تاريخية عن العرب والإسلام في إفريقية الشرقية، دار الفتح، الطبعة الأولى، بيروت ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م، ص ١٢٠.

٣) كشف الغمة ص ١١٠.

عام ١٠٩١هـ الموافق ١٦٨٠م،[١] بينما (ابن رزيق) يذكر أن وفاته في يوم الجمعة السادس عشر من ذي العقدة عام ١٠٥٩هـ الموافق ٢٢ نوفمبر ١٦٤٩م، وهذا غير صحيح لأن الإمام (ناصر بن مرشد) كانت وفاته في العاشر من ربيع الأول عام ١٠٥٩هـ / الموافق ٢٤ إبريل ١٦٤٩م،[٢] وفي كتابه الآخر الشعاع الشائع باللمعان فيذكر أن وفاته كانت في يوم الجمعة الثاني عشر من شوال عام ١٠٧٩هـ / الموافق ١٦٦٨م،[٣] وقد أخذ برواية (ابن رزيق) هذه كثير من الباحثين العرب والأجانب لدرجة أصبح بها جزء من جهود هذا الإمام وجهاده ضد البرتغاليين سجلت باسم ولده (بلعرب) الذي خلفه، والواقع أن هناك بعض الخلط في تحديد التاريخ الفعلي لوفاة الإمام (سلطان بن سيف)، وإذا رجعنا إلى القصيدة التي ذكرناها، والتي قالها الشيخ (محمد بن مسعود الصارمي) في معركة (بتّة) نجده يشير إلى الإمام (سلطان بن سيف) في تلك الفترة، ومتى ماعلمنا بأن تلك المعركة بإجماع المصادر قد وقعت في أواخر عام ١٠٨٩هـ / أوائل ١٦٧٩ فهذا يؤكد أن الإمام (سلطان) كان مازال حياً حتى هذا التاريخ، لذا فإنني أستبعد روايات (إبن رزيق) حول تاريخ الوفاة، كما أن المصادر الأوربيّة لاتقدم مايهتدى به في هذه القضية، لذا نرجع إلى أقدم المصادر العمانية عن هذه الفترة وهو (الأزكوري) وأوثقها وهو (السالمي) والذي قال في ذلك : «قيل أن الإمام سلطان بن سيف توفي سنة ١٠٥٩هـ وعندي أن هذا غلط من قائله أو من كاتبه، وذكر لي بعض الأصحاب أن تاريخاً منقوشاً بالباب الذي كان بحصن (سناو) فأمرته أن ينقله لي فأرسل لي هذه الأبيات :

لَقَدْ صَنَعَ البَابَ الحَكِيْم مُحَمَّدٌ ... فَتَىً حمد نَسْل النَّدى والمَكَارِمِ
وَقَدْ كَانَ بالاثْنَيْنِ رخْميْ لِصُنعِه ... مِنَ الحَجُ ياذَا فَاسْمِعْ قَوْلُ نَاظِمِ

---

١) تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٤٢.

٢) الفتح المبين ، ص ٢٩٢.

٣) الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢٥٨.

وألفٍ وستٍ مع ثمانينَ حجّةٍ تُوَافي تَماماً في ٱلمَدى ٱلمُتَقادِمِ
وَقَيِّمَهُ ٱلوَلِي عَلي بْن رَاشِد وُقَاهُ إلَهَ ٱلعَرشِ شَرِ ٱلمَظَالِمِ
بِدَوْلَة سُلْطَانَ بن سيف بنْ مَالك إمامْ ٱلهدى الزَّاكي سَليل المكَارِمِ».

ويستطرد قائلاً : «فعلى هذا تكون إمامة سلطان بن سيف زمناً طويلاً تقارب مادون الأربعين عام.»[1] ويتضح من الأبيات المذكورة أن الامام (سلطان) كان حياً عام ١٠٨٦هـ، والفرق بين كل من روايتي (الأزكوري) و (السالمي) سنة واحدة، وفي هذه الحالة فإن المرء يجد نفسه مضطراً لقبول التاريخ الذي أوردته أقدم المصادر وهو (كشف الغمة للأزكوري).[2]

توفي الامام (سلطان) بعد حياة حافلة بالجهاد، ففي العقود الثلاثة التي تلت طرد البرتغاليين من (مسقط) تم مواصلة الجهاد ضدهم، ونقله إلى عقر مستعمراتهم في الهند وساحل شرق إفريقية، معارك بحرية عديدة قد جرى خوضها، ولم يكن النصر حليف العمانيين دائماً، إلاّ أنهم في عهد هذا الإمام استطاعوا أن يضاعفوا حجم أسطولهم البحري ونوعيته بانتظام وثبات.

لقد امتد حكم هذا الامام مايزيد قليلاً عن الثلاثين عاما، أمضاها في الجهاد ضد البرتغاليين وتعمير عمان، وكان لساحل شرق إفريقية نصيب وافر من جهود هذا الامام، ففي عهده ظهر التكامل واضحاً بين هاتين المنطقتين، فنلاحظ أنه قد بعث بمساعدة عسكرية للمسلمين هناك فور سقوط آخر معقل للبرتغاليين في عمان وهو (مسقط)، كما أن وفاته جاءت بعد أشهر من تحقيق إحدى حملاته نصراً على البرتغاليين في تلك المناطق وهي معركة (بتة)، وقد تميّز عهده بكثرة الحملات التي أرسلت لجهاد البرتغاليين في

---

١) تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٤٢.

٢) ص ١١٠.

ساحل شرق إفريقية، صحيح أنها لم تتمكن من القضاء على الوجود البرتغالي نهائياً، ولكن لاينكر أثرها في إضعافه لدرجة كبيرة، ومساهمتها في تخفيف الأضرار والاضطهاد الذي تعرض له السكان هناك، وأيضا إذكاؤها لروح المقاومة والجهاد لدى سكان الساحل، وعدم إعطائها الفرصة للبرتغاليين في عادة ترتيب وجودهم وتدعيمه هناك.

وتجدر الإشارة إلى أن الحملات العمانية إلى ساحل شرق إفريقية في عهد الإمام (سلطان بن سيف الأول) كانت على هيئة هجمات خاطفة باستثناء حصار (ممباسه) عام ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م والذي دام خمس سنوات، الأمر الذي أدى إلى عدم تحقيق نتائج مستديمة. وفي اعتقادي أن ذلك يعود في المقام الأول إلى تعدد ميادين القتال بين العمانيين والبرتغاليين، حيث نجدها تارة في ساحل شرق إفريقية، وتارة في الخليج العربي، وأخرى في السواحل الجنوبية للجزيرة العربية والبحر الأحمر، وأيضاً في ساحل الهند الغربي، ويضاف إلى ذلك حداثة تكوين الأسطول البحري العماني في وقت لايزال الأسطول البرتغالي قادراً على التقاط أنفاسه واحتفاظه ببعض جوانب التفوق أحياناً، علماً بأن هذا التفوق بدأ بالتلاشي التدريجي في أواخر عهد الإمام (سلطان)، وفوق ذلك كله استمرار تهديد البرتغاليين (لمسقط) الأمر الذي أجبر العمانيين في أكثر الأحيان على الاحتفاظ بجزء من أسطولهم الحربي لحماية الموانىء العمانية في الخليج وبخاصة (مسقط) ولاريب أن الإمام (سلطان) كان قد جعل من عمان العامل الحاسم في شئون ساحل شرق إفريقية.

إن جهاد العمانيين ضد البرتغاليين والمكاسب التي تحققت قد انعكست صور منها في شعر الشعراء، فهذا أحد الشعراء المعاصرين وهو الشيخ (خلف بن سنان الغافري) الذي قال قصيدة في جهاد الإمام

(سلطان بن سيف) نختار منها مايلي :

وَمُمْباسَةً أذاقهم باساً بئيساً سيئَت به الأصْنَام
وَلَقَدْ فَازَ فِي مفازَةَ مِنْهُم بِمَفَاز زَلت به الأزلام
وَغَزَا كَلْوَة بِكل كَمْيٍّ لَمْ يَنْن منه الغرار إنثلامُ
ولَدَى . زَنْجبار زَمْجَرَ فِيهُم رَعْد زَجر لَمْ يَنْجُ مِنه اعتصَام
وَبُمبَاي نَابَه فيه نابٌ لَمْ يَنبُه عَنِ المضي انهثام
وَانَثَنى عَنهُمْ بِعِدَة آفلاكَ تُرَى كَأنها أعْلامُ. [1]

ويقول (السالمي) في جهاد الامام (سلطان بن سيف) : «لم يزل الامام يجالد النصارى ويجاهدهم براً وبحراً، واستفتح كثيراً من أماكنهم مثل الدّيو وغيرها، وملك كثيراً من مراكبهم، وغنم كثيراً من أموالهم.»[2] كما علق (بادجر) على جهاد الإمام (سلطان) في ساحل شرق إفريقية وذلك في قوله: «بالرغم من أن الحملات المتعاقبة التي جرّدها إمام مسقط على البرتغاليين في شرق إفريقية لم تؤدِ إلى تصفيتهم من هناك، إلّا أنها أضعفتهم لدرجة كبيرة، بل جعلت وجودهم هناك كبناء آيل للسقوط ليس بحاجة إلى أكثر من ضربة قوية واحدة.».[3]

ومن الجدير بالذكر القول بأن تلك النجاحات التي حققتها جهود الإمام (سلطان) إنما كان وراءها عامل هام وهو تفاعل الشعب العماني وحماسته في جهاد البرتغاليين. وقد أدى ذلك بصورة غير مباشرة إلى إشاعة الأمن في داخلية عمان، وذلك لاندفاع القبائل العمانية على مختلف مشاربها وانتماءاتها الدينيّة من إباضية وغير إباضية إلى تلبية نداء الجهاد، ولم

---

١) تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٥٤ - ٥٥، المغيري، جهينة الأخبار، ص ٢٠١.

٢) السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٥٨.

3) op.cit, p.21.

يقتصر الأمر على القبائل الداخلية، بل شمل أيضاً قبائل الساحل العماني المختلفة مثل القواسم،[١] وقد كان هذا التماسك بين القبائل العربيّة في الحوض الغربي للخليج العربي وبين القبائل العمانية قوياً في مقارعة الاحتلال البرتغالي، وقد استطاع الإمام (سلطان) توجيه هذا التماسك واستغلاله في سبيل الجهاد ضد البرتغاليين، مما أضاف له قوة مكنته من إنجاز الكثير من المهام سواء في الخليج أو في ساحل شرق إفريقية.[٢] والواقع أن موقف القبائل هذا جاء نتيجة لتبني الامام (سلطان) سياسة تتوافق ورغباتها وهي الجهاد ضد الكفار، وهو الأساس الذي قامت عليه دولة اليعاربة، وإعادة الازدهار الإقتصادي للبلاد، إضافة إلى أن تلك القبائل كانت قد عاصرت الغزو البرتغالي وأهواله، علاوة على الأضرار الإقتصادية التي نجمت عنه، إذن فليس من المستغرب أن تذهب القبائل العمانية والعربية الأخرى بعيداً في مقارعتها وجهادها للبرتغاليين وهي

---

١) القواسم على أصح الروايات قبيلة عربيّة ترجع بأصولها إلى عدنان، وكانت تسكن نجداً قبل أن تحل منطقتها الحالية، وكانوا يعرفون في نجد ببني غافر، وهم يتبعون شيخهم في الشارقة ورأس الخيمة على الساحل الغربي للخليج، وقد لعبوا دوراً بارزاً في التاريخ العماني سواء في جهادهم ضد البرتغاليين، أو حين اشتركوا في الحرب الأهلية التي عصفت بدولة اليعاربة قبل نهاية النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري - الثامن عشر الميلادي، كما يُذكر أن الجيش العماني الذي حرر مدينة (جلفار) رأس الخيمة، من الإحتلال البرتغالي الفارسي في عهد الامام (ناصر بن مرشد) كان مدعوماً بالقواسم الذين شاركوا في تلك المعركة يتزعمهم شيخهم في ذلك الوقت (كايد بن عدوان) الذي اشترك في القتال.

لمزيد من التفصيل انظر :

صالح العابد، دور القواسم في الخليج العربي؛ أحمد جلال التدمري، الصراع الدولي حول الخليج - قراءة في الوثائق الهولندية، ص ٦٢؛ جمال قاسم، الإدعاءات الايرانية في الخليج العربي، أصول المشكلة وتطورها، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، المجلد العشرون، القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م، ص ١٩١

2) Dennis, R., op.cit, p.210.

التي كانت معروفة بعدم خضوعها لسلطة مركزيّة معيّنة لفترة طويلة، وإذا كان الإمام (سلطان) قد استند على تماسك القبائل العمانية والعربية في الخليج وتلامحها، فهو قد استند أيضاً على ولاء سكان ساحل شرق إفريقية ومساعدتهم، وذلك بثوراتهم المتواصلة ضد البرتغاليين، ودعواتهم المستمرة للإمام لمساعدتهم ومناصرتهم ضد البرتغاليين وسياساتهم الاستعمارية.

لقد أولى الإمام (سلطان بن سيف) اهتماماً كبيراً بالأسطول التجاري، فأصبحت عمان في عهده ملتقى التجارة بين الهند وساحل شرق إفريقية، وقد ازدهرت (مسقط) وأصبحت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي من أهم الموانىء التجارية في الخليج العربي،[1] وإن كان الفرق بين الاسطولين العسكري والتجاري لايبدو كبيراً في عهد هذا الإمام، فكثيراً ماكانت السفن التجارية تستخدم لمساعدة الأسطول العسكري، وبخاصة في أعمال التموين ونقل الجنود، كما أن سفن الأسطول العسكري تستعمل للتجارة في وقت السلم،[2] كما اهتم الإمام كذلك بالتبادل التجاري وتوثيقه بين عمان والعالم الخارجي كالهند والصين وشرق إفريقية، ولهذا ارتفعت أرباح التجارة، وتم توجيهها إلى شئون الدفاع، والجهاد في سبيل الله، وإقامة المساجد والمنشآت العسكرية كالقلاع، كما وزع جزء منها على الرعيّة،[3] وقد أسهم في توسع

---

1) Lockyer, C., An Account of the Trade in India, (London, 1711), p.209;

لاندان، عمان منذ ١٨٥٦ مسيراً ومصيراً، ص ٥١.

٢) السيّار، دولة اليعاربة، ص ١٢٦ - ١٢٧.

٣) ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان ص ٢٥٦، ٢٥٧؛

وازدهار التجارة العمانية آنذاك استيلاء العمانيين على سفن كبيرة خلال حروبهم البحرية ضد البرتغاليين، وكذلك بناء سفن تماثلها أو أكبر منها تصل حمولة بعضها إلى عدة مئات من الأطنان، والتي أصبحت تبحر في رحلات منتظمة إلى السوحل الهندية لجلب الأرز والتوابل والأخشاب، وكذلك إلى ساحل شرق إفريقية لجلب العاج والصمغ والمعادن والبضائع المختلفة، كما قامت السفن العمانية أيضاً برحلات إلى (مخا) لجلب البن والعقاقير الطبيّة لتسويقها في الخليج.[١] ورغم هذا التوسع الكبير في النشاط التجاري العماني الذي كان له أكبر الأثر في احياء العلاقة القديمة التي كانت بين عمان وشرق إفريقية، فقد ألقى جهادهم للبرتغاليين في عهد الامام (سلطان بن سيف) عبئاً ثقيلاً على موارد الدولة، بل أدى في أحيان كثيرة إلى توقف شبه كامل للتجارة العمانية.

كما اهتم الإمام (سلطان) بعمليات البناء والتعمير الداخلي، ومن أهم ماقام به بناء قلعة (نزوى)[٢] التي كلفته مبالغ كبيرة، واستغرق بناؤها حوالي اثني عشر عاماً، ويُذكر أنه خصص الغنائم التي حصل عليها من

---

1) (10R). G/36/104, 19045, p.222, Letter Karwal to Surat, 14 March 1665.

٢) تعتبر قلعة (نزوى) من أهم قلاع عمان وأكبرها، وتقع في الجزء المنخفض من المدينة، والمعروف (سفاله) إلاّ أنها بنيت فوق ربوة صخرية مرتفعة نسبة إلى من حولها في تلك المنطقة، وهي تتكون من مساحة كبيرة مربعة الشكل تتخللها الأبراج، وقد كلف بناؤها حوالي (٨٠) ألف دينار أشرفي، والجدير بالذكر أن أئمة اليعاربة أولوا بناء الحصون والقلاع اهتماماً خاصاً هدف إلى تدعيم نفوذ الدولة في سائر المناطق، ولصد أي عدوان خارجي، وأول من بدأ بذلك الإمام (ناصر بن مرشد) حيث أنشأ قلاعاً وحصوناً في كل من (صحار - سمائل - الرستاق). انظر: ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢٥٦؛ أريكو. د. أ، المباني التاريخية الحربية في عمان منذ القرن السادس عشر، ص ٢٣٣.

هجوم العمانيين على مركز البرتغاليين في (ديو) لبناء تلك القلعة،[1] وفي مجال التنمية الداخليّة للبلاد أيضاً قام بتشجيع الزراعة، وتحسين مصادر المياه، حيث أحدث الكثير من الأفلاج[2] لأغراض الري، كما أدخل العديد من المحاصيل الزراعية، وفي هذا يقول عنه (الأزكوري) : «واعتمرت عمان في دولته وزهرت واستراحت الرعيّة في عصره وشكرت، ورخصت الأسعار وصلحت الأثمار، وكان متوضعاً لرعيته ولم يكن محتجباً عنهم.»[3]

ومن ناحية أخرى فتشير بعض المصادر بأن الإمام (سلطان بن سيف) واجه انتقادات من الداخل بسبب انهماكه في الأمور الدنيوية وبخاصة التجارة دون الالتفات إلى الجوانب الأخرى، ومع حرصه على ابقاء العاصمة في داخل البلاد إلاّ أن انهماكه في التجارة كان كثيراً مايجر بلاطه وحاشيته بعيداً عن تأثر مراكز الأباضيّة المتشددين والموجودين في (الرستاق) والمناطق الجبليّة الأخرى،[4] ففي الوقت الذي تشير فيه بعض المصادر إلى أن للإمام (سلطان) وكلاء عرفوا بقيامهم بالبيع والشراء

---

١) السالمي، تحفة الأعيان، ج٢، ص ٤١.

٢) الأفلاج هي القنوات، ويعتمد العمانيون منذ القدم في نظام ريهم لأراضيهم الزراعية على الأفلاج، وهي نفق أفقي يمتد إلى مسافات مختلفة، تأتي بالماء المتدفق من طبقات صخرية يصل عمقها إلى (٢٠) متراً أو أكثر، ومن العيون الفوارة. ويعزى إلى الإمام (سلطان بن سيف الأول) الفضل في الاهتمام بتطوير الافلاج التي أدت إلى استصلاح وري مساحات واسعة من الاراضي وزراعتها.

لمزيد من التفصيل انظر :

ولكنسون. د. جي، نشأة الأفلاج في عمان، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٨، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ١٠٥ - ١٣١.

٣) كشف الغمة، ص ١١٠.

٤) المصدر نفسه، ص ١١٠؛

Bathurst, R.D., op.cit, p.137

لحسابه الخاص،[1] نجد مصادر أخرى وبخاصة (ابن رزيق) الذي ينفي حدوث ذلك ويؤكد أن أولئك الوكلاء كانوا يعملون من أجل خدمة الدولة والصالح العام حيث قال: "وربما تكلم متكلم ولم تصغ أذن إلى قوله في إمامته من أسباب التجارات كأن لم يسمع ذلك المتكلم أن الرجال الذين يبعثهم إلى بلاد الهند وأرض العجم وصنعاء والبصره والعراق لأجل شوكة المسلمين من خيل وسلاح وغير ذلك."[2]

ومن ناحية أخرى لم تذكر لنا المصادر العمانية شيئاً عما إذا كان الإمام (سلطان) قد واجه معارضة داخلية أثناء حكمه، إلاّ أن بعض المصادر الأجنبية أشارت إلى شيء من ذلك عندما تحدثت عن محاولة الانفصال التي قام بها والي (خصب) عام ١٠٦٣هـ / ١٦٥٢م مما دفعه إلى الترحيب بالبرتغاليين ومنحهم مكاناً لبناء حصن لهم، وتعهد بحماية حصنهم من الهجمات البرية، وقد ذكرنا فيما تقدم أن الإمام (سلطان) سيطر على الوضع وطرد البرتغاليين.[3]

كما يذكر (باثرست Bathurst) أن تمرداً قد وقع في خريف عام ١٠٨٣هـ / ١٦٧٢م وذلك إثر استيلاء البرتغاليين على سفن تجارية عمانية كانت في طريقها إلى البصرة، ويضيف أن التمرد كان قد وقع حينما أقدم العرب المقيمون في (مسقط) على إخبار الإمام بأنهم لن يستطيعوا الصبر على البؤس والشقاء التي آلت إليه أحوالهم بعد هذه السنين الطويلة وهم الذين أنهكتهم الحروب المتواصلة بما جلبته عليهم من دمار، وخسارة متواصلة، وتعطيل تجارتهم، الأمر الذي يتعذر معه صبرهم وتحملهم، ويضيف

---

١) الأزكوري، كشف الغمة، ص ١١٠؛ المؤلف مجهول ، تاريخ أهل عمان، ص ١٤٥.

٢) الفتح المبين، ص ٢٩١.

٣) انظر ص ٢٨٥ حاشية ٢ من هذا الفصل.

(باثرست) أيضاً أن الإمام استطاع أن يهدىء من روع الجميع، إما عن طريق الوعود المعسولة، أو بالهدايا النقدية، وهذا يبرز المهارات الدبلوماسية التي كان الإمام (سلطان) يتمتع بها والتي من المحتمل (على حد قول باثرست) أنها قد صُقِلَتْ من جراء اتصالاته مع الهولنديين والانجليز.[1] إن ماذكره (باثرست) من المحتمل أنه كان اختلافاً في وجهات النظر بين الإمام (سلطان) وبين بعض الفئات من رعيته ولم يكن تمرداً بالمعنى المفهوم ولو كان تمرداً كما ذكر لوجدنا له صدى في المصادر العمانية، والتي تركز عادة على الحوادث الداخليّة، ولكن جميع المصادر العمانية المتاحة لم تشر إطلاقاً إلى أي نوع من المعارضة لحكم الإمام (سلطان)، كما أن تخلّيه عن الأساس الديني للإمامة وانصرافه نحو الأمور الدنيوية لايجعل المصادر العمانية تلتزم الصمت حول ذلك وبخاصة مؤرخي الإباضية، ولكن الثابت أنه نهج نهجاً وسطاً في سياسته الداخلية بين الفكر الاباضي الذي قامت على أساسه الإمامة، وبين زعماء القبائل وطبقات التجار.

أما في مجال العلاقات الخارجيّة، ففي الوقت الذي لم يتمتع فيه

---

1) op.cit, p.136.

وباثرست كغيره من بعض المؤرخين والباحثين الأجانب، حاول في أكثر من موضع أن يكون للعامل التجاري الريادة في تحريك الأحداث، ولم يتطرق إلى الدافع الديني الجهادي إطلاقاً. كما حاول في مواضع أخرى أيضاً تصوير ماحققه العمانيون بأنه لم يكن ليتم لولا المساعدات الكبيرة التي كان يتلقاها إمام عمان من الانجليز والهولنديين، وفي الهجمات العمانية على المراكز البرتغالية ركز (باثرست) أيضاً على تعرض الرهبان للقتل وتدنيس الكنائس، وكغيره وصف عمليات الجهاد العمانية بالقرصنة وبخاصة في أواخر عهد الإمام (سلطان بن سيف) وأيضاً يوجه (باثرست) اللوم للانجليز الذين كان يتعين عليهم إيقاف العمانيين عند حدهم (على حد قوله)، وكأني به أيضاً يشفق على البرتغاليين ويختلق الأعذار لهزائمهم.

لمزيد من التفصيل انظر : Ibid, pp. 179 - 220.

العمانيون بعلاقات جيدة مع القوى المحلّية مثل فارس واليمن، لأسباب تم تناولها فيما سبق، نجدهم في ظل امامة (سلطان بن سيف) ينجحون في انتهاج سياسة الموازنة في العلاقات مع القوى الخارجية في المنطقة وبخاصة الانجليز والهولنديين،[1] رغم التنافس بين هاتين الدولتين للتسابق على النفوذ، مع حرصهما على تجنب المواجهة مع العمانيين، ويفسر البعض العلاقة الودية بين هاتين الدولتين من جهة وبين العمانيين من جهة أخرى إلى استفادة كل طرف من الآخر، حيث أسهمتا في إضعاف الوجود البرتغالي في الشرق، كما حظي العمانيون بالنصيب الآكبر في دحر البرتغاليين ووضع حد لتفوقهم.[2]

---

١) اتسمت العلاقات الانجليزية الهولندية منذ وصولهما إلى بحار الشرق بطابع العداء الصريح يضرمه التحاسد التجاري الدولي بصفة عامة، والتنافس فيما بينهما في الشرق بصفة خاصة، فقد سلك الهولنديون مختلف الأساليب للإبقاء على قوتهم التجارية وتطويرها على حساب الانجليز والبرتغاليين، يساعدهم في ذلك التفوق الواضح لأسطولهم العسكري والتجاري، وسعى كل منهما إلى كسب ود القوى الوطنية في الخليج وفارس، واستمر هذا التنافس حتى عام ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م، عندما أخذ النفوذ الهولندي في الخليج يتراجع بالتدريج، وطغى النفوذ الانجليزي عليه ، وبدأت هولندا تفقد مراكزها التجارية لصالح الانجليز الذين بدأوا بتطبيق مذهب (كرومويل Kromuil) الذي كانت غايته تجريد سائر الدول من ثرواتها والسيطرة على أسواقها وإرغام الآخرين عل الشراء من أسواق بريطانيا، والحيلولة بينهم وبين بيع منتوجاتهم.

لمزيد من التفصيل إنظر :

(10R). E/3/24, 2337 & 2339, Letter Isfahan to Company 10 September 1653' and Isfahan to surat 27 September 1653;

عبدالعزيز عبدالغني، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، ص ٦١ - ٦٢؛

محمود علي الداود، تاريخ العلاقات الهولندية مع الخليج العربي، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ - ٢٧١.

٢) حنظل، المفصل في تاريخ الأمارات العربية، ج ١، ص ٩٨.

لقد أدت تلك العلاقة الوديّة إلى أن يستغل البرتغاليون ذلك باتهام الانجليز بدعم العمانيين ومساعدتهم بالسلاح، وتولي البحارة الانجليز قيادة السفن العمانية، وهذا الاتهام يولد تساؤلاً مفاده : هل شارك الانجليز فعلاً في الحرب التي كانت بين العمانيين والبرتغاليين ؟ وأدع الإجابة على هذا التساؤل لـ (بوكسر Boxer) أحد الباحثين الثقات في المنافسات الدولية في المحيط الهندي في تلك الفترة حيث يقول : «صحيح أنه كان هناك تعاطف انجليزي مع العمانيين ضد البرتغاليين يرجع أسبابه إلى الصراعات المذهبيّة بين الانجليز (الانجليكان) وبين البرتغاليين (الكاثوليك) بالإضافة إلى سياسة الاحتكار التي كان يفرضها البرتغاليون، إلاّ أنني أعتقد بل أستبعد أن الانجليز قد قدموا أية مساعدات إلى العمانيين ونستثني من ذلك بعض البحارة الانجليز الذين عملوا في الأسطول العماني ومن قلتهم لم يلفتوا النظر، ولم يعملوا بصفة رسمية وإنما قاموا بهذه المهمة كأجراء لدى العمانيين، بل قد نصل إلى عكس هذه الفكرة تماما حين نعلم أن الانجليز كانوا ينظرون بقلق من تطور القوة العمانية، ويتضح ذلك من المعاهدة التي أبرمت بين الانجليز والبرتغالين عام ١٠٧٢هـ / ١٦٦١م والتي نصت إحدى موادها على أن يقدم الإنجليز مسقط إلى البرتغاليين إذا ماقدر لهم في أي وقت السيطرة عليها.»[١]

والواقع أن هذا التساؤل يجرنا إلى تساؤل أكثر أهمية ألا وهو : بما أن العمانيين أعلنوا الجهاد ضد الكفار النصارى فلماذا إذن اقتصر جهادهم على البرتغاليين في وقت يتمتعون فيه بعلاقات وديّة مع الإنجليز والهولنديين رغم أنهم نصارى أيضاً ؟ وللإجابة على ذلك نقول :

اعتمدت انجلترا وهولندا في دخولهما إلى البحار الشرقيّة على

---

١) نقلاً عن : جمال قاسم، الخليج العربي، ص ١١٢.

أسلوب تشكيل شركات تجارية خاصة أو مشتركة مع السلطات الحكوميّة في موطنها، حتى يكون تعاونها مع تلك البقاع مقبولاً ومرحباً به من الأهالي ومن زعماء تلك البلاد، في حين فشلت الأساطيل الحربيّة الغازية التي قصدت احتلال بلدان الشرق وجزره بشكل مباشر ومن ثم تسيير مصالحها التجارية كما فعل البرتغاليون، لذا فالفرق واضح بين البرتغاليين المستعمرين المتسلطين الذين أتوا لإذلال المسلمين واخضاعهم منذ البداية وبين من يريدون التعامل التجاري فقط مثل القوى الأخرى في تلك الفترة على الأقل، فقد تعودت شعوب المنطقة على التعامل مع مختلف الأجناس والديانات مادام ذلك يتم سلمياً، أما إذا كان العكس كما فعل البرتغاليون فيلزم جهادهم.

لهذا استطاع الانجليز والهولنديون التسلل إلى مناطق الشرق المختلفة بهذه الطريقة، رغم أنهم وفروا لسفنهم التجارية ولمقارّ وكالاتهم الحماية العسكرية، الأمر الذي حولهم فيما بعد إلى مستعمرين ومحتلين لبعض تلك المناطق، وقد استمرت علاقتهما الوديّة مع العمانيين حتى العقد الأول من القرن الثاني عشر الهجري - الثامن عشر الميلادي، وذلك عندما بدأت تتكشف سياساتهم التي كانوا يخفونها والمبنية على الاستعمار والسيطرة.[1]

ومهما يكن من أمر فقد أصبحت السفن العمانية تجوب سواحل المحيط الهندي والخليج دون أن تتعرض لها أي من السفن الانجليزية أو الهولندية، بل إن الانجليز رغم تحسن علاقاتهم بالبرتغاليين في بعض الفترات إلاّ أنهم أحجموا عن التدخل في الحرب التي كانت دائرة بين

---

١) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ٢١٠ - ٢١١؛ حنظل، المفصل في تاريخ امارات العربية، ج ١، ص ١٠٣.

العمانيين والبرتغاليين طالما أن العمانيين حتى ذلك الحين أي في عهد الإمام (سلطان) لم يقوموا بأية إساءة للسفن والتجارة الانجليزية.[1]

والواقع أن السياسة المتوازنة التي انتهجها الامام (سلطان بن سيف) تجاه كل من انجلترا وهولندا قد آتت ثمارها، حيث أعطت العمانيين فرصة لإرسال أساطيلهم لنجدة المسلمين في ساحل شرق إفريقية ومطاردة البرتغال. وهكذا توفي الإمام (سلطان بن سيف الأول) مخلفاً وراءه دولة مزدهرة ومكتملة البنيان في مختلف النواحي العسكرية والاقتصادية والسياسية.

---

١) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ٢، ص ٦٤٠ - ٦٤١.

العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق
إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي
في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد
الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية
العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق



الفصل الرابع

* ولاية الإمام سيف بن سلطان الأول والتنافس على الإمامة بينه وبين أخيه الإمام بلعرب بن سلطان وأثر ذلك على حركة الجهاد العماني :

هو الإمام سيف بن سلطان بن سيف بن مالك وبقية نسبه قد مضى فيه القول مع ترجمة أبيه (سلطان بن سيف الأول)، تولى الإمامة بعد نزاع مرير مع أخيه (بلعرب بن سلطان) وذلك عام ١١٠٤هـ / ١٦٩٢م، وقد لقّب بقيد الأرض نسبة لكثرة فتوحاته، واتصف بالعدل والإنصاف بين الرعيّة وأذعنت له القبائل العمانية، اهتم بتقوية الأسطول العماني العسكري والتجاري، وطارد البرتغاليين في الخليج والمحيط الهندي وساحل شرق إفريقية، وأصبحت عمان في عهده دولة مرهوبة الجانب، ويعتبر آخر الأئمة الأقوياء من السلالة اليعربيّة، توفي في (الرستاق) في الثالث من رمضان عام ١١٢٣هـ الخامس عشر من اكتوبر عام ١٧١١م بعد حياة مليئة بالجهاد.[١]

والواقع أنه عندما توفي الإمام (سلطان بن سيف الأول) عام ١٠٩٠هـ ١٦٧٩م، كان قد خلّف ولدين هما (بلعرب بن سلطان) و (سيف بن سلطان) وقد عقدت الإمامة (لبلعرب بن سلطان) في اليوم الذي توفي فيه أبوه.[٢] والحقيقة أن إنتقال الإمامة بهذا الشكل قد ثبت توارث الحكم أباً عن اب وظهرت بذلك سلالة حاكمة، وهي عادة كُتب لها أن تدق إسفيناً بين علماء الدين الإباضية المتشددين، وبين زعماء القبائل الذين شاركوا في مراحل التحرير والجهاد، والذين أصبحوا يميلون إلى الأسرة اليعربية الحاكمة.

سار الإمام (بلعرب) على نهج أبيه في الجهاد ضد البرتغالين حتى عام

---

١) الأزكوري، كشف الغمّة، ص ١١١ - ١١٢؛ ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٩٥.

٢) الأزكوري، كشف الغمة، ص ١١١؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٦٥.

١١٠٠هـ / ١٦٨٨م، وفي ذلك العام حدث تطور جديد بينه وبين أخيه (سيف بن سلطان) وخلافاً على الإمامة، وقد انقسم المجتمع العماني نتيجة ذلك، فمنهم من أيّد الإمام (بلعرب) ومنهم من أيّد أخاه (سيف).[١] وأصبحت عمان تتجه نحو المجهول الذي قد يعصف بكل المنجزات التي تم تحقيقها خلال الخمسين عاماً الماضية.

ولم تتطرق المصادر العمانية بكاملها وعلى إختلافها إلى أسباب ذلك الخلاف باستثناء إشارات بسيطة سنحاول من خلالها تلمّس الأسباب التي أدت إلى ذلك الخلاف الذي أثّر سلبياً على الدور العماني في ساحل شرق إفريقية، فإذا إستثنينا (السيابي) فإن المصادر العمانية لاتذكر شيئاً سوى أن (سيفاً) خرج على أخيه الإمام (بلعرب) وأجبر بعض أهل العلم على مبايعته فأضطروا إلى ذلك (تقية) وخوفاً من بطشه.[٢] وهذا مما يدل على أن له نفوذ قوي قد يكون سياسياً أو عسكري يفوق (بلعرب) وإلاّ لما اضطر أهل العلم إلى مبايعته.

أما (السيابي) فيذكر أن أمر الملك عظيم، وأن الدولة مدت باعها إلى البلاد النائية، وأن العهد قريب، والجراح جديد، وأعين العدو تنظر إليها شذراً، وأن القلوب تغلي كغلي المراجل براً وبحراً، فإن الدولة قطعت شوطاً عظيماً بهر العالم الشرقي، وخافه العالم الغربي، وهمت الأمم بها بكل المستطاع، وأن الإمام (بلعرب) لم يقبل على الممالك إقبال من ملك قلبه، واكتفى بإعمال العمال، ولم يرض بعض رجالات الدولة بذلك، لذا فقد دخلوا

---

١) المؤلف مجهول، تاريخ أهل عمان، ص ١٤٧.

٢) الأزكوري، كشف الغمّة، ص ١١٢؛ المعولي، قصص وأخبار جرت في عمان، ص ١١٩.

على أخيه (سيف) الذي يرى أن الخير في توسيع الملك فحدث ماحدث.[1] وبذلك نكون قد وقفنا على واحد من أهم أسباب الخلاف بين الأخوين وهو أن الإمام (بلعرب) انصرف عن تقوية الملك وحماية المكتسبات التي حققها أسلافه رغم التهديدات التي تواجه الدولة.

والجدير بالذكر أن الإمام (بلعرب) اهتم بالعلم اهتماماً كبيراً فأنشأ المدارس وشجع الناس على طلب العلم، واحتضن العلماء والأدباء، وجاء ذلك بعد أن زار عمان في تلك الأثناء أحد علماء أباضية المغرب[2] وهو

---

١) العنوان عن تاريخ عمان، ص ٢٨٢.

٢) نشط دعاة الخوارج وفرعهم من الإباضية بالدعوة لمذهبهم في بلاد المغرب وبخاصة في العقد الثاني من القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي واشتهر بذلك الداعيان (أبي عبدالله عكرمه مولى الحصين العنبري) وهو خارجي نتج عن دعوته ظهور الخوارج الصفرية في تونس الحالية وفي شمال المغرب الأوسط شمال الجزائر وجزء من المغرب الأقصى، أما الداعية الآخر فهو إباضي يدعى (سلمه بن سعد الحضرمي الإباضي) قام بالدعوة لمذهبه في المغرب الأدنى وبعض أجزاء المغرب الأوسط والأقصى، وعلى يديه سرعان ماانتشرت الإباضية إنتشاراً واسعاً في منطقة (ليبيا) الحالية، وفي جبل نفوسه في (تونس) وفي أغلب المغرب الأوسط من شرق مدينة (مليانه) إلى غربي (وهران) وبخاصة في وادي (ميزاب) في جنوب (الجزائر) الحالية، وقد حاولت كل من الدولتين الأموية والعباسية الحد من نشاط دعاة الإباضية هناك إلاّ أن جهودهما أخفقت، وتمخض عن الدعوة الإباضية هناك قيام الدولة الرستمية الإباضية (١٤٤ - ٢٩٦هـ / ٧٦١ - ٩٠٩م) والذي يعد أكبر انتصار للإباضية في العالم الإسلامي آنذاك، وتشهد المصادر القديمة بالصلة الدائمة بين إباضية شرق العالم الإسلامي في (البصرة) و (عمان) وبين إباضية بلاد المغرب، ولقد انضم إلى هذه الدولة كثير من الخوارج الصفرية الذين مع مرور الوقت تحولوا إلى الإباضية، كما انضم إليهم أيضاً المعتزلة الواصلية، وقد تركزت هذه الدولة في المغرب الأوسط في مدينة (تاهرت) لتكون بعيداً عن متناول جيوش الخلافة العباسية، واستمرت الدولة الرستمية هناك، وكانت تربطها علاقات مع بلاد الأندلس ومصر حتى سقطت

الشيخ (عمر بن سعيد بن زكريا الجربي) الذي سرّ بما شاهده من تطور الدولة في المجالين الإقتصادي والعسكري واتصالهما بالعالم الخارجي، ولكنه لاحظ عدم الاهتمام بالناحية العلمية، فكتب إلى الإمام (بلعرب) كتاباً يحثه فيه على ضرورة الاهتمام بالنواحي العلمية فصادف ذلك هوى لدى الإمام.[1]

لذا فقد انصرف الإمام (بلعرب) إلى تحقيق هذه الرغبة وتجسد ذلك بإنشاء مدرسة لطلاب العلم في قصره الذي أنشأه حديثاً في (جبرين) في منطقة (بهلى) شمال غرب عمان، وأصبح يتردد بين ذلك القصر وبين (نزوى)، فأقام المدرسة بالقصر حيث خصص الغرف العلوية فيه فصولاً دراسية، وانجذب كثير من طلبة العلم من جميع أنحاء عمان إلى هذه المدرسة، وكان الإمام (بلعرب) معهم ليلاً ونهاراً يوليهم عنايته ورعايته، وتهتم هذه المدرسة بالعلوم الدينية والأدبية.[2]

إن هذا يعد تحولاً جذرياً في سياسة الإمام (بلعرب) فبعد وفاة والده الإمام (سلطان بن سيف الأول) سار هذا الإمام على نهجه وبخاصة في جهاد البرتغاليين، والآن نراه وقد صرف اهتمامه عن الأسس السياسية التي ارتكزت عليها دولة اليعاربة وهي الدعوة إلى الجهاد في وقت كان بإمكانه التوفيق بين هذين الاهتمامين.

على يد الفاطميين عام ٢٩٦هـ / ٩٠٩م. انظر:
الدجيني أبو العباس أحمد، طبقات الإباضية، مخطوط محفوظ في دار الكتب المصرية تحت رقم ١٢٥٦ح، ورقة ٤ - ٨؛ محمد علي ديوز، تاريخ المغرب الكبير، ج ٣ ، دار المعارف، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م، ص ٢٥٤ - ٥٢٧ - ٥٤٠.

١) السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٦٩؛ السيابي، عمان عبر التاريخ، ج ٣، ٢٥٣.

٢) الأزكوري، كشف الغمة، ص ١١٢؛ المعولي، قصص وأخبار جرت في عمان، ص ١١٩؛ ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢٦٦.

ومهما يكن من أمر فإن أخاه (سيف) قد رأى انصراف الإمام إلى الحياة العلمية في وقت تنامت فيه أطماع القوى الأجنبية مثل الانجليز والهولنديين والقوى المحلية مثل فارس، وليس من المستبعد أن (سيفاً) إلى جانب طموحه لتولي الإمامة قد أدرك ماتنطوي عليه سياسة أخيه الإمام من أخطار، ومن المؤكد أنه لقي دعماً من بعض رجالات الدولة البارزين وشيوخ القبائل وبخاصة الذين شاركوا في قيادة الجيوش أو ساهموا بأشكال متعددة في صنع قوة الدولة ولن يروق لهم أن يروا ماحققوه للدولة من مكاسب وماحققوه لأنفسهم مهدداً بالضياع في وقت يمكنهم فيه المحافظة على تلك المكتسبات، ومن المؤكد أيضاً أن قطاعاً كبيراً من الشعب لايريد العودة إلى حياة التنافر والحروب الأهلية.

وعليه فقد انتهز (سيف) تردد الإمام (بلعرب) فيما بين قصره في (جبرين) وبين (نزوى) عاصمة الإمامة، فقام بحشد الأتباع والمؤيدين وسيطر على العاصمة، وعند عودة الإمام إليها منع من الدخول فعاد إلى (جبرين)، وكان أهل (نزوى) قد بايعوا (سيف بن سلطان) بالإمامة.[1] وتشير بعض المصادر العمانية أن هؤلاء كانوا قد بايعوا (سيفاً) تحت التهديد وخوفاً من بطشه، في حين أن هناك آخرين التفوا حول الإمام (بلعرب) في (جبرين) وهنا انقسم العمانيون، وبدأت الحروب وعمت الفتن جميع أنحاء عمان، وكثرت المواقع بين الأخوين، واستطاع (سيف) أن يحقق تقدماً على أخيه الإمام في الحرب الدائرة بينهما حتى سقطت الحصون في يده الواحد تلو الآخر.[2]

أدى التفوق الذي حققه (سيف بن سلطان) في الميدان العسكري إلى

---

١) الأزكوري، كشف الغمّة، ص ١١١؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٨١.

٢) المؤلف مجهول، تاريخ أهل عمان، ص ١٤٧؛ ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٩٤.

لجوء الإمام (بلعرب) إلى قصره المحصن في (جبرين) والاعتصام به، وقيل أنه آثر ذلك ليجنب البلاد مخاطر الفتن والحروب وإراقة مزيد من الدماء، ولكن (سيف) زحف بقواته إلى (جبرين) وفرض الحصار على الإمام مدة طويلة كان يتخللها بعض الهجمات المعتادة التي يشنها أعوان الإمام.[١] والحقيقة أن الصراع على السلطة بين الأخوة سمة تميز بها التاريخ العماني وستكون من أهم العوامل التي أسهمت في انهيار دولة اليعاربة في المستقبل.

بعد أن طال أمد الحصار ورأى أكابر أهل عمان عدم قدرة الإمام (بلعرب) على مواجهة أخيه، اجتمعوا وعقدوا الإمامة (لسيف بن سلطان) وفي تلك الأثناء توفي الإمام (بلعرب) داخل قصره في (جبرين) وكانت وفاته عام ١١٠٤هـ / ١٦٩٢م، فطلب أصحابه الأمان من أخيه (سيف) فأمنهم وخرجوا من القصر فدخله وغسّل أخاه وكفنه ودفنه داخل القصر.[٢] وابتداء من هذا التاريخ تولى الإمامة (سيف بن سلطان الأول) مبتدئاً بذلك عهداً جديداً في التاريخ العماني.

وابتداء من عام ١١٠٤هـ / ١٦٩٢م الذي تولى به الإمام (سيف بن سلطان الأول) تعيّن على من تبقى من السلالة اليعربية أن يجعلوا الإمامة بيد اليعربي الذي يجمع بين القوة مع الدعم القبلي بدلاً من ذلك الذي - بغض النظر عن سلالته - يستطيع أن يجمع بين الإستقامة في المسلك مع تأييد علماء الدين الإباضيّة، ومع عملية الإطاحة هذه التي حدثت لـ (بلعرب)

---

١) المعولى، قصص وأخبار جرت في عمان، ص ١١٩؛ أحمد شلبي، تاريخ عمان ونشاطها الداخلي، ص ٤٨.

٢) الأزكوري، كشف الغمة، ص ١١١؛ ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢٧٠؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٨٢؛ مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ٢٠٩.

يمكن أن يقال أن (سيفاً) كان يتمتع بدعم وتأييد زعماء القبائل إضافة إلى أفراد قبيلته، ونتيجة لذلك أصبح كبار اليعربيين يحتفظون لأنفسهم بمعظم مناصب الولاة، وبمنح الحصون التي تأتي معها، وهذه الحصون هي علاوة أو منحة يحصلون عليها مع المنصب، وهو تقليد دأبت عليه الأسر الحاكمة في عمان، فإذا ماراق لهم مساعدة الإمام مثلاً فإنهم يقومون بوضع هذه الحصون تحت تصرفه.

إن هذه الطريقة التي تمت بها تولية الإمام (سيف بن سلطان الأول) قد أدت إلى إزدياد الفجوة بين علماء الدين الإباضية الذين تمسكوا بمبادىء الانتخاب وبين زعماء القبائل الذين يحبذون استمرار السلالة اليعربية الحاكمة.

ومن الجدير بالذكر أن ساحل شرق إفريقية أصبح مرتبطاً ارتباطاً كبيراً بعمان، بل أصبحت آمال السكان هناك معلقة على ماسيفعله العمانيون تجاههم، ولذا فليس من الغريب أن يتأثر ساحل شرق إفريقية بما حدث في عمان، فعندما وقع الاختلاف بين الأخوين الذي استمر قرابة أربع سنوات من عام ١١٠٠ - ١١٠٤هـ / ١٦٨٨ - ١٦٩٢م، كانت القوة العمانية التي ترابط في تلك المناطق، قد تم سحبها[1] الأمر الذي هيأ الفرصة للبرتغاليين بأن يدعموا وجودهم هناك، ويعززوا قواتهم وحامياتهم،خاصة في (ممباسه) حيث عززوها بالسلاح والرجال، وأخذوا إلى جانبهم المعارضين من الأهالي إلى (جوا) ومنعوهم من الاتصال بالعمانيين لطلب المساعدة منهم.[2]

---

1) Warner, A., op.cit., pp. 398-99;
Coupland, R, op.cit., p.67.

2) Stigand, C.H., op.cit, p.61;
Gray, J., History Zanzibar, op.cit., pp. 50-3;
أحمد شلبي، عمان ونشاطها الداخلي، ص ٤٨.

لقد كان تأثير الصراع بين الأخوين كبيراً على مجمل الصراع العماني البرتغالي فقد توقفت نتيجة ذلك حركة الجهاد ضد البرتغاليين طيلة فترة ذلك الصراع، وأخذ البرتغاليون في مطاردة السفن العربية والإسلامية في الخليج، الأمر الذي أدى بالإمام (بلعرب) خلال عام ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م إلى فتح باب المفاوضات مع البرتغاليين، والتي عقدت بين (عبد الشيخ) مندوباً عن الإمام وبين (غونساليز سيمونزGoncales Simoens) المشرف العام البرتغالي على (كونج) مندوباً عن نائب الملك البرتغالي بالهند، وقد تم تزويد (سيمونز) بعد أن رفع إلى نائب الملك تقريراً بالتقدم الذي حققته المفاوضات بمسودة الشروط التمهيدية التي بنيت على معاهدة (دي ميلو) مع الإمام (سلطان بن سيف الأول) والتي ذُكر أنها أبرمت بين العمانيين والبرتغاليين عام ١٠٨٣هـ / ١٩٧٢م، ولم يعمل بها وقد سبق الحديث عنها.[1]

طلب نائب الملك من (سيمونز) أن يتخذ الترتيبات اللازمة كي يحضر مندوب مفوض من الإمام (بلعرب) إلى (جوا) لإكمال المعاهدة والتوقيع عليها، كما أكد له أيضاً أنه يجب استبعاد حاكم (بتّة) في ساحل شرق إفريقية وعدم تمكينه من الاستفادة من هذه المعاهدة بأي شكل، هذا وقد تضمنت هذه المعاهدة عدة بنود كان أهمها ايقاف العمليات العسكرية بين الجانبين لمدة ستة أشهر.[2] وسواء كان الأمر مجرد مناورة قام بها الإمام (بلعرب) أو كان غير ذلك فإنه لايعلم على وجه الدقة هل اتفق الجانبات على هدنة أم لا، ولكن الملاحظ أن البرتغاليين كانوا يدخلون أحياناً في معاهدات مع العمانيين ولكنهم كانوا دائماً يفشلون أما في

1) Danvers, F., op.cit, vol.II, p.370.

2) Ibid

إبرامها أو تنفيذها، لأن التاج البرتغالي كان يطلب دائما إلى جانب الضرائب تسليم (مسقط) أو الحرية في بناء حصن لهم فيها ووضع حامية عسكرية فيه مع فتح وكالة تجارية؛ وهذا بالتأكيد أمر لن يكون مقبولاً لدى العمانيين.

ومهما يكن من أمر فقد شعر البرتغاليون نتيجة ذلك بضعف موقف الإمام (بلعرب)، فركزوا هجماتهم على السفن التجارية العمانية، وزاد ذلك من غطرستهم تجاه الأساطيل العمانية، ففي أواخر عام ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م وجه أسطول برتغالي بقيادة (دييجو ميلو Diago Mello) ضربة إلى أسطول عماني بالقرب من (سورات) على ساحل الهند الغربي.[1] وبذلك بدأ البرتغاليون يأخذون زمام المبادرة في الحرب الدائرة بين الجانبين في وقت انشغل العمانيون فيه بمشاكلهم الداخلية والنزاع على السلطة.

* الأوضاع في ساحل شرق إفريقية قبيل تولية الإمام سيف بن سلطان الأول :

تحدثنا فيما سبق عن إرسال الإمام (سلطان بن سيف الأول) أسطولاً عمانياً إلى ساحل شرق إفريقية في أواخر عام ١٠٨٩هـ / أوائل ١٦٧٩م، وذلك لمواجهة الأسطول البرتغالي الذي توجه إلى هناك لإعادة فرض الهيمنة البرتغالية بعد أن تلقى نائب الملك بالهند أوامر من ملك البرتغال بضرورة المحافظة على الوجود البرتغالي في ساحل شرق إفريقية مهما كلف ذلك من ثمن، وقلنا إن تلك الحملة كانت هي آخر حملة عمانية إلى تلك المناطق في فترة حكم الإمام (سلطان بن سيف الأول) حيث توفي بعد ذلك.

---

1) Danvers, F, op.cit., vol. II, p.371;

مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ٢١٠.

وتولى الإمامة من بعده ابنه (بلعرب بن سلطان) كما ذكرنا، وممّا يذكر أن الإمام (سلطان) كان قد أوصى قبل وفاته بالإبقاء على بعض قطع الأسطول العماني الذي تم إرساله إلى ساحل شرق إفريقية والذي خاض معركة (بتّه) بناء على طلب تقدم به أهالي الساحل إليه، وإدراكاً منه أن البرتغاليين لن يتخلوا عن محاولة إسترجاع سيطرتهم التامة على تلك المناطق، كما أوصى أيضاً بدعم تلك القوة بالرجال.[١]

أخذت القوة العمانية المرابطة في (بتّه) تتحرش بالحامية البرتغالية في (ممباسه) الأمر الذي جعل قائد الحامية البرتغالية يقدم تقريراً إلى نائب الملك في (جوا) مفاده أن المحافظة على أمن حامية (ممباسه) لن يتحقق إلاّ بالإستيلاء على (بتّه) طالباً مده ببعض السفن والجنود.[٢] إلاّ أن نائب الملك كان دائماً يثبط همة قائد حامية (ممباسه) ويطلب منه التريث خشية أن يؤدي ذلك إلى إضعاف حامية (ممباسه) سواء عند مهاجمته (لبتّه) أو عند إضطراره للدفاع عنها والمحافظة عليها فيما بعد، ومهما يكن من أمر فقد اقترح عليه نائب الملك إن تمكن من احتلالها أن يقوم بتسليمها إلى أمير (فازا) المدعو (داود بن محمد) كاقطاعية له، وإرضاء له أيضاً كي يبقى تابعاً أميناً للبرتغاليين.[٣]

والجدير بالذكر أن الاستيلاء على (بتّة) يعني الاستيلاء على القرى التابعة لها مثل (سيّو) و (فازا) و (ماندا) ويصعب السيطرة على تلك القرى

---

١) كيركمان، جي، التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق أفريقية، ٢٩٢.

2) Strandes, J., op.cit, p.237.

أحمد شلبي، تاريخ عمان ونشاطها الداخلي، ص ٤٩.

3) Strandes, J., op.cit., p.236.

بدون السيطرة على (بتّه) نفسها، ومن ثم السيطرة على الجزيرة بكاملها، وقد أوجد أمير (فازا) المذكور ثغرة في هذا الجدار عند اقدامه على التحالف مع البرتغاليين للتخلص من سيطرة (بتّه) وكان خير معين لهم على حربها.[1] وقد دأب البرتغاليون في كثير من الاحيان - لأجل استمرار سيطرتهم على الأوضاع في ساحل شرق إفريقية - أن يتحالفوا مع بعض الحكام المحليين كما حدث مع أمير (فازا) وقبله حاكم (ماليندي) كما مر بنا.[2]

لقد استجاب نائب الملك في (جوا) في نهاية الأمر لإلحاح قائد الحامية البرتغالية في (ممباسه) حيث أمده بسفينتين كبيرتين محملتين بالمقاتلين والعتاد ترافقهما بعض السفن الصغيرة، ونتيجة لذلك فقد قام القائد البرتغالي في (ممباسه) في ذي القعدة من عام ١٠٩٧هـ / مارس ١٦٨٦م بهجوم للاستيلاء على (سيّو) ولكنه فشل في ذلك نظراً لنجاح السفن العمانية المرابطة في (بتّه) من صد ذلك الهجوم، وبعد شهر كرر البرتغاليون الهجوم ولكن الرياح لم تمكن سفنهم من الوصول إلى (بتّه) فرجع بعضها إلى (ممباسه) وبعضها الآخر إلى (جوا).[3] لذا قرر نائب الملك في (جوا) إرسال قوة كبيرة بقيادة (جواو أنتونيس بورتغال Joao Antunes Portugal) وذلك في رجب عام ١٠٩٩هـ / مايو ١٦٨٧م إلى ساحل شرق إفريقية لتحطيم القوة العمانية هناك والإستيلاء على (بتّه)، وعند وصول هذه القوة وجدت السفن العمانية ترابط في ميناء المدينة، فغيّر القائد البرتغالي اتجاهه

---

1) Warner, A., op.cit., p.392.

٢) انظر الفصل الأول.

3) Stigande, C. H., op.cit., p.53;

كيركمان، جي، التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق إفريقية، ص ٢٩٣.

إلى (ممباسه).[1]

ويبدو أن القائد البرتغالي كان ينتظر هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية كي يتمكن من مهاجمة المدينة انطلاقاً من (ممباسه)، والمعروف أن الرياح الجنوبية الغربية تهب خلال شهور يونيو، ويوليو، وأغسطس.[2] وبعد رحيل السفن العمانية من (بتّه) نتيجة النزاع على السلطة في عمان والتي سبق ذكرها، انتهز القائد البرتغالي (جواو ابتونيس بورتغال) تلك الفرصة فهجم على المدينة في شوال من عام ١٠٩٩هـ / أغسطس ١٦٨٧م، واستطاع الاستيلاء عليها وأسر عدداً من الأهالي ثم حملهم إلى (جوا).[3]

والواقع أن هناك شيئاً من الخلط بين الروايات عند وقوع تلك الحوادث في (بتّه) فلا يعلم على وجه الدقة ماهو موقف حاكم المدينة من البرتغاليين والعمانيين، وهل أرغم البرتغاليون الحاكم على عقد معاهدة معهم، أم أن الحاكم كان موالياً لهم أصلاً ولكن وجود القوات العمانية المرابطة في المدينة تمنعه من إظهار ذلك الولاء، فإذا أخذنا برواية (ورنر Warner) فإن حاكم (بتّه) في أثناء حوادث عام ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م وهي معركة (بتّه) في عهد الإمام (سلطان بن سيف الأول). كان (أبو بكر بن محمد) الذي توفي بعد تلك الحوادث مباشرة، وتولى بعدة (أبو بكر بن

---

1) Bathurst, R.D., op.cit., p.139.

٢) محمد محمود محمدين، علاقة الجزيرة العربية بشرق إفريقية، مجلة دارة الملك عبدالعزيز، العدد الثاني، السنة الثانية، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، ص ١١١.

3) (10R) I/3/142. Documentos, 156, fol. 489, Letter Viceroy to the King 4th Octoper 1688; Warner, A., op.cit., p.398.

موانا مكوو) الذي كان على علاقات طيبة مع البرتغاليين لكنه اختلف معهم فخططوا لإختطافه.[1] أما (ستيجاند Stigand) فيؤكد على أن العلاقات بين (أبو بكر بن موانامكوو) وبين البرتغاليين كانت جيدة، وظهر ذلك بعد أن قام أحد أبناء أخوته (بوانا مكوو) بالانقلاب عليه، حيث استطاع (أبو بكر) استعادة الحكم بمساعدة البرتغاليين، ويضيف أيضاً : أن (أبا بكر) زوّج ابنته من ابن أحد منافسيه، فأخذ زوج ابنته يتآمر ضده، وعندما علم (أبو بكر) بذلك اتفق مع البرتغاليين على إختطافه ونقله إلى (جوا).[2] وحسب رواية (ستيحاند) فإن حاكم (بتّه) كان متفقا مع البرتغاليين وتم عقد المعاهدة المذكورة في (بتّة).

أما الرواية البرتغالية فتذكر أنه تم عقد معاهدة مع الحاكم بعد الاستيلاء على المدينة مباشرة، ولكنه حاول أن ينقض هذه المعاهدة، واتصل سراً بالمجموعات العمانية الموجودة في الساحل، فأخذه البرتغاليون إلى (جوا) حيث توفي هناك عندما كان يقوم بمحاولة للهرب، وبالرغم من أن الرواية البرتغالية لم تذكر اسم السلطان كاملاً، حيث أشارت إلى أن اسمه (بانا فاما Bana fama) فليس من المستبعد أن تكون المعاهدة المذكورة قد فرضت على (بوانا مكوو) في أثناء توليه السلطة عندما انقلب على (أبي بكر) ومن ثم جرى استبداله بالمذكور ونقل (بوانا مكوو) إلى (جوا) حيث توفي هناك.[3]

على أية حال فإن نائب الملك في (جوا) نظر إلى احتلال (بتّة) بمنظار

---

1) Op.cit., p.399.

2) Op.cit., p.57.

3) Strandes, J., op.cit., pp. 236-37.

الاستحسان والرضى، فقرر إرسال قوة صغيرة لتقرير الموقف هناك وذلك في عام ١٠٩٩هـ / ديسمبر ١٦٨٧م، ولكن لم تمض بضعة أيام على وصول هذه التعزيزات إلى المدينة، حتى ظهرت قوة عمانية كانت قد أستدعيت من قبل أهل (بتّه)، وكانت تتألف من سفينة كبيرة وأربع سفن صغيرة تحمل مايزيد على خمسمائة رجل، وقد استطاعت هذه القوة أن تصل إلى أفضل الأمكنة وأكثرها ملاءمة له في ميناء (فازا) لترسو فيه وتصبح قادرة على انزال الرجال إلى البر، ولم يظهر البرتغاليون أي مقاومة، وأجبروا على التخلي عن (بتّه) ولم يجد القائد البرتغالي مناصاً من العودة إلى (ممباسه).[١]

والواقع أن الإجراءات البرتغالية التي أشرنا إليها تكشف لنا حقيقتين، الأولى: التأثيرات العمانية في ساحل شرق إفريقية، والدور الذي كانت تقوم به العسكرية العمانية في حماية تلك المناطق ودرء الخطر البرتغالي عنها، المتمثل في المحاولات البرتغالية المتكررة للاستيلاء على (بتة) منذ عام ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م. والثانية: هي ضعف القوة البحرية البرتغالية إذ يبدو أنهم لايستطيعون الإبقاء على أسطول لهم في ساحل شرق إفريقية بصفة مستديمة، ولذلك حاولوا الاعتماد على بعض الحكام المحليين الموالين لهم لبسط نفوذهم، أو ربط بعض الحكام الآخرين بمعاهدات تضمن لهم بقاء السيطرة البرتغالية عليهم، كما يتضح من ذلك أيضاً انحسار تأثير الحامية البرتغالية في (ممباسه) فلم تعد تعلب الدور الذي أقيمت من أجله وهو السيطرة على القسم الشمالي من الساحل، ولهذا نرى في الآونة الآخيرة أن الحملات التأديبية قلما تأتي من (ممباسه) بل تأتي من (جو)، أو من (موزمبيق) وهذا دليل آخر على ضعف

---

1) Strandes, J., op.cit., p.239;

كيركمان، جي، التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق إفريقية، ص ٢٩٣.

الوجود البرتغالي في تلك المناطق، ولكن بالتأكيد أن البرتغاليين قد سنحت لهم فرصة لتعزيز وجودهم في ساحل شرق إفريقية وتقويته إبان الخلاف على السلطة في عمان.

* دعم القوة البحرية العمانية في المحيط الهندي :

أدرك الإمام (سيف بن سلطان الأول) أنه يتعين عليه إذا أراد إتمام مابدأه أسلافه من الجهاد ضد البرتغاليين، وحماية التجارة والشواطىء العمانية، ومساعدة المسلمين في ساحل شرق إفريقية - يتعين عليه - دعم وإعادة بناء البحرية العمانية وبخاصة بعد الأضرار التي لحقت بها أثناء النزاع على السلطة في عمان.[١] فقد قام الإمام (سيف) بتخصيص الكثير من الموارد المالية المتحصلة من التجارة لبناء السفن الحربية والتجارية أو شرائها من الهند، كما أعاد بناء السفن الكبيرة التي تم الاستيلاء عليها من البرتغاليين في الماضي، الأمر الذي أدى إلى امتلاك عمان لعدد من السفن الكبيرة التي تم تزويدها بالمدافع.[٢]

ونظراً لحاجة عمان الماسة للأخشاب اللازمة لصناعة السفن فقد لجأ الإمام (سيف) إلى إقامة علاقات خاصة مع أمراء بعض المقاطعات الهندية لتزويده بالأخشاب، أو القيام بصناعة السفن المطلوبة في أماكن بعيدة عن

---

١) وزارة الاعلام بعمان، عمان وتاريخها البحري، ص ٦٧

2) Ovington, J., A Voyage to Surat in the year 1689, (London, 1696) p.207.

أعين الأعداء في الساحل الهندي بالإضافة إلى تسليحها تسليحاً حديثاً.[1]
واضطلعت بهذه المهمة مقاطعة (بجو) بالهند، وكذلك (نهر انداس)، وفي (سورات) في بعض الأحيان بعيداً عن أعين الإنجليز، الأمر الذي أصبحت فيه عمان قوة بحرية يحسب حسابها، ولاسيما أن بعض السفن تم بناؤها على الطراز الأوربي وبعضها الآخر عل الطراز العربي أو الشرقي، وقد تم إعدادها إعداداً جيداً لتحقق أهدافها الحربية وأهداف أخرى تجارية.[2]
وبذلك أصبحت عمان تسيطر على قوة بحرية وتجارية في منطقة تمتد آلاف الأميال عبر المحيط الهندي.

وقد وصف لنا الكابتن (تشارلز لوكير Charles Lockyer) عند زيارته إلى (مسقط) عام ١١١٨هـ / ١٧٠٥م ذلك الميناء والبحرية العمانية بقوله: «لقد تم تطوير هذا الميناء لدرجة كبيرة منذ أن انتزعه العرب من أيدي البرتغاليين، حتى أنه أصبح يشكّل خطراً على المتعاملين بالتجارة مع الهند، وتحيط بهذا الميناء السفن الحربية الكبيرة التي من المحتمل أنها صنعت (بسورات) على ساحل الهند الغربي، وقد شاهدت أربع عشرة سفينة حربية تحمل إحداها سبعين مدفعاً، وعشرين سفية تجارية، والمثير أنه لايوجد من بين السفن الحربية التي شاهدتها سفينة تحمل أقل من عشرين مدفعاً، وقد جُعلت مياسرها بحيث يمكن تنظيمها الواحدة بجوار الأخرى، كما أن هناك مايزيد على ست عشرة سفينة أخرى تبحر في الخارج، ويتوقع عودتها بعد اسبوعين لتحتمي بالميناء من هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الشرقية، رغم أنها مزودة بأطقم جيدة من البحارة.»

---

١) جمال قاسم، الخليج العربي، ص ١١٤؛ عمان وتاريخها البحري، ص ٧١.
٢) لورنس لوكهارت، التهديد العماني ونتائجه، ص ٦٢؛ السيّار، دولة اليعاربة، ص ٦٩ - ٧٠.

ويستطرد (لوكير) في وصف البحّارة حيث يظهر من خلال وصفه عنصريته الصليبية فيقول: «إلاّ أن أشجمع هؤلاء الأطقم وأقساهم قلباً لن يستطيع مواجهة طقس عاصف، ومما يظهر أيضاً أنهم يملكون كميات كبيرة من البارود، كما أن للأسطول العربي منظراً أخاذاً عند دخولنا الميناء.»[1] ويبدو أن مشاهدات (لوكير) اقتصرت على السفن الراسية في ميناء (مسقط) فقط دون السفن التي ربما كانت تؤدي مهامها خارج الخليج مما يعني أن الأسطول العماني من المحتمل أنه أكبر من وصف (لوكير) له.

أدى امتلاك العمانيين لمثل هذه القوة البحرية إلى الدخول في حروب خاطفة ضد أعدائهم من البرتغاليين، أو ضد السفن والتجارة الفارسية التي ينظر إليهم العمانيون على أنهم حلفاء للبرتغاليين.[2] وقد أكدت المصادر العمانية وجود مثل هذه القوة البحرية الضخمة في أثناء حكم الإمام (سيف بن سلطان الأول) بحيث أنها بلغت قبيل وفاته أربعة وعشرين مركباً أو ثمانية وعشرين مركباً على تقدير بعض المصادر العمانية، خمسة منها كبيرة الحجم هي (الملك، والفلك، والرحمن، وكعب الرأس، والناصري)، والباقي أصغر حجماً، وكانت هذه المراكب غاية في العظمة، وقد احتوى المركب المسمى الفلك ثمانين مدفعاً، أغلبها من المدافع ذات الحجم الكبير.[3]

---

1) *Op. Cit*, pp. 207-8.

٢) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ٢، ٦٣٧ - ٦٤١.

٣) الأزكوري، كشف الغمة، ص ١١٣؛ ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٩٥؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢ ، ص ٨٥؛ ويجدر بالذكر أن المؤرخين العمانيين أجمعوا على أن بعض مدافع السفن العمانية آنذاك يصل طوله إلى حوالي ثلاثمائة شبراً، والواقع أنه لو افترضنا أن الشبر يساوي خمسة سنتمرات رغم أنه يزيد عن ذلك لأصبح طول المدفع بالأمتار يساوي ستين متراً وهذا غير معقول وبخاصة في ذلك الوقت،

والحقيقة أن تطور الأسطول العماني وضخامته على هذا النحو لم يكن في صالح القوى الأوربية الأخرى ذات الطموح التجاري والإستعماري مثل الانجليز، وبخاصة بعد احرازه لنجاحات متعددة ضد البرتغاليين، وقد تحدث رئيس شركة الهند الشرقية الانجليزية بامتعاض عن نمو القوة البحرية العمانية حيث ذكر أن العمانيين شديدو الغطرسة ولايوجد مايثني عزمهم من القيام بهجمات على كافة السفن، ماعدا سفن الشركة معتمدين بذلك على أسطولهم الضخم، وذكر أيضاً بأنه عندما تعود الأوضاع إلى طبيعتها في اوربا، فإنهم - أي الانجليز - سيعدون السفن الحربية المسلحة لتطهير البحار، وقلع شوكة هجمات عرب (مسقط) من جذورها.[1] وهذا تأكيد آخر على قوة الأسطول العماني الذي دفع رئيس شركة الهند الانجليزية إلى إطلاق هذه التعبيرات الاستعمارية ذات المدلولات التوسعية في تلك المناطق. إن العداء للعرب والمسلمين وكرههم جعل الأوربيين لايشجعون أي تطور صناعي في المنطقة سواء في مجال السفن أو في مجالات أخرى، ويعملون دائما على عرقلة ذلك.

ونختتم حديثنا عن تعاظم القوة البحرية العمانية في عهد الإمام (سيف بن سلطان الأول) وأسلافه ودور هذا الأسطول في الجهاد ضد البرتغاليين بما ذكره الكابتن (الكسندر هملتون Homilton) من أن الأسطول العماني يتكون من سفينة تحمل أربعة وسبعين مدفعاً، وسفينتين تحملان ستين مدفعاً،

ولذا يمكن القول أن طول المدفع أقل من ثلاثمائة شبر بكثير ولربما يكون المقصود ثلاثون شبرا.

1) Bruce, J., Annals of the honourable East India Company, vol, 111, (London, 1810), pp.439-557.

وواحدة بخمسين مدفعاً، وثماني عشرة سفينة تتراوح ماتحمله بين اثني عشر مدفعاً واثنين وثلاثين مدفعاً، وعددٍ كبيرٍ من السفن الصغيرة التي تحمل مابين أربعة إلى ثمانية مدافع لكل منها، وبفضل هذه القوة البحرية فرض العرب هيبتهم وسيطرتهم على كافة السواحل البحرية الممتدة من رأس (قمران) حتى البحر الأحمر. ويستطرد في وصف الحرب التي كان يخوضها العمانيون حيث يقول: «وكان العرب غالباً مايشنون هجماتهم ضد المستعمرات البرتغالية على ساحل الهند، منزلين الدمار بالقرى والضياع، تاركين الكنائس في منجى من هجماتهم... ولم يقتلوا أعزلا... بل كانوا يعاملون أسراهم معاملة حسنة، وظلت الحرب مستعرة بينهم وبين البرتغاليين، ورغم أن النصر كان حليف العرب في أغلبها، فقد كانوا مكرهين على شراء السفن الحربية لمقارعة البرتغاليين في البحر وللحفاظ على سواحلهم من الاعتداءات، وكانت أساطيلهم غالباً ماتتقابل وتحدث مقارعات بحرية ومع ذلك فأن قليلاً من السفن الحربية لكلا الجانبين كانت تغرق أو تؤسر، أما السفن التجارية للجانبين فقد كانت عرضة للأسر».(١) وعلى الرغم من الأوصاف والتقديرات المتباينة للبحرية العمانية إلاّ أنها جميعاً تعكس قوة وضخامة هذه البحرية التي أجمع الأصدقاء والأعداء على فعاليتها وتأثيرها على مجريات الأحداث في ذلك الوقت.

وإذا كان الامام السابق (سلطان بن سيف الأول) قد وضع أسس البحرية العمانية لتحقيق أهداف محددة مثل الدفاع عن الشواطىء العمانية، ومساعدة المسلمين في ساحل شرق إفريقية، والجهاد العماني في السواحل الجنوبية للجزيرة العربية، فإن فترة حكم ابنه الامام (سيف بن سلطان الأول) تختلف عن فترة حكم أبيه من الناحية السياسية، لأنها شهدت

---

1) op. cit., Vol. I, pp.51-2.

نمو الأطماع الاستعمارية، والوجود المكثف للأساطيل الأجنبية في المحيط الهندي.[1] صحيح أن القوى الأجنبية تلك كانت موجودة في عهد والده، وصحيح أيضاً أن شركة الهند الشرقية البريطانية قد وضعت خطة ترمي إلى ضمان امتلاكهم لميناء (مسقط) عام ١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م وذلك بعد أن أخفقت الجهود التي كانت ترمي إلى إبرام معاهدة بين العمانيين والانجليز، إلاّ أن الانجليز تخلوا عن تلك الفكرة عندما أدركوا أنهم لن يضمنوا كسر القوة العمانية الناشئة، كما رأوا أن العمانيين يقدمون لهم خدمة جليلة وذلك بتحطيم قوة البرتغاليين المنافسة لهم.[2]

لذا فإن الإمام (سيف بن سلطان الأول) كان يدرك أنه لامجال لمواصلة الجهاد في هذا الخضم إلاّ بإمكانات بحرية متقدمة، كما أنه لايمكن تأمين مرور آمن للتجارة والسفن العمانية إلاّ في ظل تلك الامكانات العسكرية، ويجدر بالذكر أن العمانيين قد حرصوا على إخفاء مصادر تزويدهم بالسفن والذخائر حتى يتمكنوا من إقناع مختلف الأطراف بتقديم الخدمات لهم.[3] لقد كان النهج العملي الذي سار عليه الإمام (سيف) هو تقوية الاستعدادات العسكرية وتقوية الأسطول العماني وتحديثه ليجاري أحدث الأساطيل، وإذا كان الفضل يعزى لوالده الإمام (سلطان بن سيف الأول) في تأسيس البحرية العمانية، فإن تحديث هذا الأسطول وتطويره وزيادة عدده يُعزى لإبنه الإمام (سيف بن سلطان الأول) ليبدأ به مرحلة جديدة من مراحل الجهاد ضد البرتغاليين.

---

١) لاندن، عمان مسيراً ومصيراً، ص ٥١.

٢) لوكهارت، التهديد العماني، ص ٩٠.

٣) المرجع نفسه.

* مطاردة السفن البرتغالية في الخليج والمحيط الهندي :

ذكرنا فيما تقدم أن الخلاف على السلطة في عمان والذي حدث بين الأخوين الإمام (بلعرب بن سلطان) وأخيه (سيف بن سلطان) قد أتاح الفرصة للبرتغاليين أن يلتقطوا أنفاسهم ويعيدوا ترتيب قواتهم، ولمّا كان ساحل شرق إفريقية قد خلا من أي وجود عسكري عماني نتيجة ذلك الخلاف، فليس للبرتغاليين مايخشون منه هناك، لذا فقد أخذوا يتحرشون بالعمانيين بعيداً عن تلك المناطق وفي الخليج بالذات، أو بالقرب من ساحل الهند الغربي، وكانت أولى المواجهات بينهما في عهد الإمام (سيف بن سلطان) عام ١١٠٥هـ / ١٦٩٣م عندما خسر الأسطول العماني معركة دارت بين الجانبين بالقرب من (سورات) على ساحل الهند الغربي،[1] ويتضح أن الإمام (سيف) قد بدأ عملياته العسكرية ضد البرتغاليين في الساحل الهندي، ولعله يسعى إلى تحقيق هدفين: الأول كثرة المراكز البرتغالية هناك بما فيها مقر حكومتهم في (جوا) تلك المراكز التي مافتئت تعرقل التجارة العمانية، والثاني: حماية السفن التجارية العربية والمصالح العمانية وبخاصة مصادر الأخشاب اللازمة لبناء السفن، وكذلك أيضاً إعادة البحرية العمانية إلى موقعها الصحيح في المحيط الهندي بعد الأضرار التي لحقت بها أثناء النزاع بين الأخوين في عمان.

لذا ففي عام ١١٠٦هـ / ١٦٩٤ أرسل الإمام أسطولاً كبيراً لمهاجمة البرتغاليين في (سالست Salsette) إحدى المراكز الواقعة جنوب (بمباي) واستطاعت القوات العمانية النزول إلى البر، حيث سيطرت على الجزيرة

---

1) Low, C., op.cit., vol, I, pp.310-12;

فالح حنظل، المفصل في تاريخ الإمارات العربية، ج ١، ص ٩٨.

وأسرت ١٤٠٠ رجل واستولت على غنائم كبيرة. وتأتي هذه الحملة رداً على هزيمة الأسطول العماني أمام ميناء (سوارت) في العام الماضي.[١] بعد (سالست) تابع الأسطول العماني تحركاته هناك ففي أوائل عام ١١٠٧هـ / ١٦٩٥م انحدرت السفن الحربية العمانيه محاذية ساحل (كانارا) ومتجهة إلى كل من (بارسيلور Barcelor) والتي تعتبر المدينة الأولى التي تزود (جوا) بالأرز وكذلك (منغلور Mangulore) التي تعتبر أكبر أسواق مستعمرات (كانارا) وكان للبرتغاليين فيها مصنعهم الخاص بتعبئة الأرز.[٢]

لقد اكتسحت السفن العمانية ساحل (كانارا) وأحرقت المدينتين وعادت بكميات ضخمة من الغنائم، ورغم أن القيام بهذا الهجوم على الساحل (الكاناري) قد عُزي إلى خلاف بين العمانيين وحاكم ولاية (كانارا) إلاّ أن البرتغاليين دفعوا الثمن الأكبر، فالمصنع البرتغالي لتعبئة الأرز قد أحرق ودمر تماماً، كما دمرت سفنهم المعدة لنقل الأرز، كما استولى العمانيون أيضاً على سفن أخرى محملة بالأرز، وأيضاً هاجموا السفن التي كانت موجودة في هاتين المدينتين ومن ضمنهما سفينة إنجليزية وأخرى فرنسية. وقد نُفذ هذا الهجوم بواسطة سفينتين عمانيتين كبيرتين إحداهما مزودة بثمانين مدفعا والأخرى بخمسين، ويرافقهما عدد كبير من السفن الأصغر حجماً والمزودة بالمدافع، وبرغم هذا النجاح الذي حققه هذا الهجوم إلاّ أن المصادر الانجليزية تصف خسائر العمانيين بالأرواح

---

1) Hamilton, A., op.cit., vol, I, p.105.

2) Ibid, p.109;

السيار، دولة اليعاربة، ص ٧٥ - ٧٦؛

عوض، الإحتلال البرتغالي موانىء الجزيرة العربية، ص ٢١.

بأنها كانت جسيمة.[1] والواقع أن الفترة من عام ١١٠٥هـ / ١٦٩٣م ومابعدها شهدت سلسلة من الاشتباكات البحرية بين العمانيين والبرتغاليين، ويبدو أن الإمام (سيف) يريد بذلك أن يستثمر عودة الهدوء والاستقرار إلى بلاده كما أنه يريد أيضاً أن يستفيد من طموح القبائل العمانية ونزعتها إلى الجهاد.

ومن المعتقد أن الهجمات العمانية على المراكز البرتغالية في سواحل الهند كانت هجمات خاطفة لم يكن الغرض منها فرض نوعٍ من السيادة العمانية على تلك المناطق. بينما يذكر بعض الباحثين أن الإمام (سيف بن سلطان الأول) تمكن من ضم جميع مقاطعات (سالت، وبارسيلو، ومنغلور) الهندية إلى ممتلكاته،[2] والواقع أنني لم أجد في المصادر العربية والأجنبية مايؤيد هذا القول، والمعروف أن الأسطول العماني كان قد شن هجمات متتالية على تلك المناطق ولم يترك بها أي وجود عسكري، ومستثني من ذلك ما أورده المؤرخ العماني (ابن رزيق) الذي ذكر أن نصارى (بمباي) صالحوا الإمام وبنى قلعة هناك،[3] وباعتقادي أنه لو كان للسلطة العمانية وجود دائم هناك سواء سياسي أو عسكري ، لأمكن العثور على مايثبت ذلك في المصادر الانجليزية المعاصرة التي يهمها مثل هذا الأمر لأن ساحل الهند الغربي في ذلك الوقت مقر شركة الهند الشرقية الانجليزية وبخاصة في (سورات) و (بمباي)، وقد يكون الأمر على

---

1) (10R). E/3/51. 6035, Letter Surat to Company 13 May 1695; Low, C, op.cit., vol. I, p.312.

٢) العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة الإستعمار البرتغالي، ص ١٠١؛ السيار، دولة اليعاربة، ص ٧٦.

٣) الشعاع الشائع باللمعان، ص ٢٨٠.

ما أعتقد هو أن بعض المقاطعات الهندية المذكورة قد ارتبطت بعلاقات وطيدة مع العمانيين ارتكزت على الأخوة في الدين في بعضها وعلى المصالح المشتركة في بعضها الآخر، الأمر الذي قد فُسّر من قبل بعض الباحثين على أنه نوع من السيادة العمانية على تلك المناطق.

بل إن بعض المصادر تشير إلى أن العمانين كانوا يهدفون من تلك الهجمات إلى إلحاق ضربات بالبحرية البرتغالية، وسحب الأسطول البرتغالي الذي كان متمركزاً في الخليج، وفي ميناء (كونج) الفارسي، إضافة إلى فك الحصار البرتغالي عن مصادر التجارة العمانية، والحصول على الغنائم.[1]

إن الجهاد العماني في سواحل الهند الغربية قد سبب قلقاً في أوساط شركة الهند الشرقية الانجليزية، وأصبحوا ينظرون إلى هذا النمو المتزايد للقوة العمانية نظرة حذر لاسيما أنهم يحاولون في ذلك الوقت تعزيز وجودهم في الساحل الهندي، وأشارت تلك الأوساط إلى أن استمرار قوة العمانيين بهذا الشكل سيؤدي حتماً إلى عرقلة التجارة الإنجليزية في الخليج العربي.[2] ونتيجة للوجود المتكرر للسفن العمانية قبالة السواحل الهندية إضطر البرتغاليون إلى سحب بعض قطع أسطولهم من (كونج) على الساحل الفارسي إلى هناك، وهي خطوة كان ينتظرها العمانيون، ففي العام نفسه ١١٠٧هـ / ١٦٩٥م، أمر الإمام (سيف) بالهجوم على (كونج) مركز البرتغاليين الرئيس في الخليج، حيث اتجهت خمس سفن عمانية تحمل حوالي ألف وخمسمائة رجل إلى هناك، وشنت هجومها على الميناء، وتمكنت من تدمير المركز البرتغالي وأسر سفينة أرمنية تحمل

---

1) Low, C.R., op.cit., vol, I, p.312;

مايلز، الخليج بلدان وقبائله، ص ٢١٠؛ الزبيدي، عمان وسياسة نادرشاه، ص ٣١.

2) (10R). E/3/51, 6039, Letter Bombay to London 13 May 1695.

بضائع تقدر بثمن كبير.[1]

ومن الجدير بالذكر أن الجهاد العماني ضد البرتغاليين في الخليج العربي والسواحل الهندية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بجهادهم في ساحل شرق إفريقية، فالعمانيون من جهة لايمكن لهم تحقيق أي نجاح دائم في ساحل شرق إفريقية إلاّ بعد تأمين مركزهم في الخليج وتقويته وكذلك تأمين خطوط ملاحتهم في المحيط الهندي، وكذلك البرتغاليون لايمكن لهم المحافظة على وجودهم في ساحل شرق إفريقية وحمايته من التدخل العماني إلاّ بمشاغلة العمانيين في الخليج والسواحل الهندية ومواجهتهم في مناطق بعيدة عن الساحل الإفريقي الشرقي، وكذلك تأمين مراكزهم ووكالاتهم التجارية. لذا يمكن القول إنه مهما كان الجهاد العماني في الخليج والساحل الهندي بعيداً عن ساحل شرق إفريقية إلاّ أنه ذو فائدة كبيرة في الوقت نفسه، لأن إضعاف القوة البحرية البرتغالية في تلك المناطق سينعكس سلبياً على القوة البرتغالية، ووجودهم في الساحل الإفريقي، ولأن أغلب الإمدادات العسكرية البرتغالية إلى ساحل شرق إفريقية والتي كانت تأتي من مركز حكومتهم في (جوا) قد تأثرت بتلك المواجهات. ولهذا أدى الجهاد العماني ضد البرتغاليين في الخليج والساحل الهندي الغربي إلى تخفيف الضغط إلى حد ما عن ساحل شرق إفريقية، حيث اضطر البرتغاليون في أكثر من مناسبة إلى سحب بعض سفنهم من هناك إلى الهند، الأمر الذي ساعد العمانيين وأتاح لهم الفرصة في القيام بعمل عسكري حاسم في تلك المناطق وهم أكثر إطمئناناً على مركزهم في الخليج ومصادر تجارتهم في الهند.

---

1) Bruce, J., op.cit., vol. III, p.169;لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ١٣٢.

* إرسال أسطول عماني إلى ساحل شرق إفريقية وحصار ممباسه ثم سقوطها عام ١١١٠هـ / ١٦٩٨م :

منذ أول حملة عمانية لمساعدة المسلمين في ساحل شرق إفريقية والتي أرسلها الإمام (سلطان بن سيف الأول) عام ١٠٦٣هـ / ١٦٥٢م أصبح سكان الساحل يرتبطون إرتباطاً قوياً بعمان،[١] ويتطلعون إلى العمانيين على أنهم القوة الإسلامية الوحيدة التي بإمكانها تخليصهم من الاستعمار والجور البرتغالي،[٢] ولذا فليس من الغريب أن نجد أن الأوضاع في ساحل شرق إفريقية كانت تتأثر بأية حوادث تجري في عمان ومن شأنها أن تؤدي إلى غياب السفن العمانية عن الساحل، ومن تلك الحوادث النزاع على السلطة في عمان بين الأخوين (بلعرب بن سلطان) و (سيف بن سلطان)

---

١) انظر الفصل الثالث، ص (٢٨٢).

٢) تطلّع سكان ساحل شرق إفريقية إلى (فارس) بعد تمكنها من طرد البرتغاليين من جزيرة (هرمز) بالتعاون مع الانجليز عام ١٠٣٣هـ / ١٦٢٢م، وأخذوا ينظرون إليها على أنها القوة الإسلامية التي بإمكانها مساعدتهم، ولكن آمالهم تلك ذهبت أدراج الرياح مع أنه كان يتوفر لفارس في تلك الفترة قوة بشرية وتقدم نسبي في إنتاج وسائل للتبادل التجاري ولكنهم لم يفعلوا شيئاً تجاه إخوانهم في المناطق الأخرى بعد تحرير شواطئهم، والواقع أن الدور الفارسي يختلف عن أسلوب الدور العربي وأهدافه في مناهضة البرتغاليين، ففي حين كان يهدف العرب العمانيون والخليجيون إلى الجهاد ضد البرتغاليين، أخذ الفرس اعتبارات أخرى إزاء هذا الموضوع، فقد شرعوا في الإرتباط بالسياسات الدولية الأوربية، كما أن الشركات الأوربية نظرت إلى فارس من زاوية المصالح التجارية فهي على خلاف المناطق العربية شكلت سوقاً استهلاكية لتصريف المنتجات الأوربية كما كانت مصدراً لبعض السلع وبخاصة الحرير.

لمزيد من التفصيل انظر :

العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج، ص ٧١ - ٩٨ - ١٠٢.

والذي أدى إلى سحب السفن الحربية العمانية التي كانت ترابط في ساحل شرق إفريقية، الأمر الذي أدى بالبرتغاليين إلى تعزيز قبضهم على الساحل، كما أدى ذلك النزاع أيضاً إلى توقف الحملات العسكرية والتجارية العمانية عن تلك المناطق من بداية النزاع بين الأخوين عام ١٠٩٩هـ / ١٦٨٧م وحتى عام ١١٠٨هـ / ١٦٩٦م.

والواقع أنه كان بإمكان الإمام (سيف بن سلطان) مواصلة الحملات العمانية إلى ساحل شرق إفريقية أو تقديم المساعدة لهم قبل ذلك التاريخ إلاّ أن تطور الأحداث في الخليج قد حال دون ذلك، حيث إنه في أثناء النزاع على السلطة في عمان بين الأخوين والتي سبق ذكرها أتيح لبعض القوى الأجنبية والمحلية تعزيز قوتها وأصبحت مصدر تهديد لعمان نفسها، وبخاصة بعد التقارب البرتغالي الفارسي فـ (سيف بن سلطان) عندما خلصت له الإمامة عام ١١٠٤هـ / ١٦٩٢م استغرق حوالي سنتين في إعادة ترتيب البيت العماني من الداخل ثم وجه نظره بعد ذلك وبعد تطوير قواته البحرية إلى توجيه ضربات إلى المراكز البرتغالية الحيوية في الهند والخليج العربي؛ ومن ثم تحجيم الدور الفارسي والقضاء على إمكانية التحالف بينهم وبين البرتغاليين،[1] ولم يأت أواخر عام ١١٠٧هـ / ١٦٩٥م إلاّ وقد تم له انجاز القسم الأعظم من تلك السياسة كما مرّ بنا، وأصبحت عمان بعد ذلك قوة مرهوبة الجانب كما أصبحت الأوضاع مهيأةً للتوجه صوب الساحل الإفريقي الشرقي وكذلك كانت الامكانات متاحة لتحقيق ذلك.

وفي تلك الأثناء وفي خِضَمّ النجاحات التي حققها العمانيون في الخليج والمحيط الهندي، وأيضاً في ظل الغياب العماني عن ساحل شرق إفريقية وصل إلى عمان وفد من سكان الساحل لتقديم الولاء للإمام (سيف بن

---

١) انظر ص (٢٧٩) حاشية (٢).

سلطان) ولطلب المساعدة منه ضد البرتغاليين، وقد كان الوفد يمثل بعض حكام المدن وأعيانها وشيوخ القبائل السواحلية والإفريقية، ويذكر أن الإمام قد بث عيونه في تلك المناطق لجمع المعلومات عن البرتغاليين ورصد تحركاتهم، وهذا مايعطي دلالة على أن شئون الساحل لم تغب عن السلطة العليا في عمان، بل كان العمانيون يتحينون الفرص للانقضاض على البرتغاليين في تلك المناطق.[1]

ومن ضمن الأشخاص الذين أرسلهم الإمام إلى هناك رجل من البلوش[2] أطلق عليه (الجمادارجوت)، وكان مكلفاً بمراقبة ودراسة القوة العسكرية البرتغالية هناك، وقد أشار هذا على أهل (ممباسه) وبعض مدن الساحل أن يكتبوا للإمام (سيف بن سلطان) يطلبون منه المساعدة، فكتبوا كتاباً وأرسلوه مع الوفد السابق ذكره، حيث وصل الوفد إلى عمان ورحب بهم الإمام وقابلهم بالحفاوة ووعدهم بتحقيق مطلبهم.[3] ولاشك أن وصول

---

١) رودلف سعيد رويتي، سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان، ص ٩٠؛ المعمري، عمان وشرق إفريقية، ص ٦٦.

٢) البلوش نسبة إلى (بلوشستان) التي تطلق بمعناها الواسع على الإقليم الذي ينتشر فيه الجنس البلوشي في جنوب شرق الهضبة الإيرانية، وأغلب سكان (بلوشستان) مسلمون من أهل السنة، ومعظمهم من المهاجرين المشتغلين بالتجارة، وقد عمل بعضهم بالجندية لدى العمانيين، كما هاجر بعضهم إلى شرق إفريقية حيث اشتغلوا بالتجارة، والجندية.

انظر :

حراز، إفريقية الشرقية والإستعمار الأوربي، ص ٤٠؛

Pearce, F.B, Zanzibar; The Island Metropolis of Eastern Africa (London, 1920), p.105.

٣) المغيري، جهينة الأخبار، ص ١٠٥؛ أحمد شلبي، تاريخ عمان ونشاطها الداخلي، ص ٥٠؛

ويذكر (المغيري) أن الوفد الذي جاء من ساحل شرق إفريقية لطلب المساعدة من

هذا الوفد قد شكل حافزاً لدى الإمام على مواصلة الجهاد ضد البرتغاليين في تلك المناطق.

لذا فقد خطط الإمام (سيف بن سلطان الأول)، مستفيداً من تماسك الموقف، ومن الدعم الذي وفرته له نجاحاته في الهند ومتشجعاً بموقف أمراء وأهالي ساحل شرق إفريقية ومتأثراً بأحكام الإعدام التي نفذها نائب الملك البرتغالي في (جوا) بالعمانيين والعرب المأسورين لديه. خطط لشن هجوم حاسم على المواقع البرتغالية في ساحل شرق إفريقية، مع التركيز على قلعة (يسوع) في (مباسه) باعتبارها محور الارتكاز للنفوذ البرتغالي في شمال الساحل، فإذا أمكن السيطرة عليها فإن ذلك سيكون مفتاحاً للسيطرة على بقية أجزاء الساحل.[1]

عمان يتكون من (شيخ بن أحمد المليندينى، وتموت بن موترغو الكلنيدنى، وموشال بن ندار التجاني، ومن كل طوائف الزنوج مندوب وهم اوريبي دشوني، وكامه روكوما، ووجبانه ووربای، وجريابه، ودورمه)، وقد أخذ برواية المغيري تلك عدد من الباحثين، ولكن (الأمين بن علي المزروعي) يذكر أن هذا الوفد تشكل من أهالي (ممباسه) وطوائفها، وقد جاء إلى عمان وقابل الإمام (سيف بن سلطان الثاني) عام ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م وذلك بعد أن تمكنوا من طرد البرتغاليين الذين عادوا إلى (ممباسه) عام ١١٤١هـ / ١٧٢٨م ولبثوا فيها حتى عام ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م، وجاء هذا الوفد إلى عمان لعرض ماجرى في (ممباسه) على الإمام (سيف بن سلطان الثاني) ولتقديم الولاء والطاعة له، وباعتقادنا أن رواية (المزروعي) أرجح لاسيما وأنه من سلالة المزارعة حكام (ممباسه) آنذاك وولد وعاش فيها، ومخطوطه يتحدث عن حكم تلك السلالة، كما أنه أقدم من (المغيري) الذي لايستبعد أنه أخذ منه كما أن أهالي الساحل أرسلوا وفداً إلى إمام عمان (سيف بن سلطان الأول) لطلب المساعدة ولكن لم نعثر على أسماء لذلك الوفد. انظر :
المزروعي، تاريخ ولاية المزارعة، ورقه ٢١ - ٢٢؛ المغيري، جهينة الاخبار، ص ١٠٥.

1) Bathurst, R.D., op.cit, p.143.

وعليه فقد أعد أسطولاً بحرياً يتكون من سبع عشرة سفينة حربية من مختلف الأنواع والأحجام، وتحمل مابين (٣٠٠٠) إلى (٤٠٠٠) مقاتل، ويذكر بعض الباحثين أن عدد المقاتلين العمانيين ثلاثمائة تحملهم سبع سفن كبيرة وعشرة قوارب،[1] بينما تذكر بعض المصادر الأخرى أن القوة العمانية تقدر بثلاثه إلى أربعة آلاف مقاتل.[2]

وبالنظر إلى عدد السفن العمانية فإنه لايعقل أن هذا العدد الكبير من السفن لايحمل سوى ثلاثمائة مقاتل، إضافة إلى حجم المهمة المناطة بهم وهي السيطرة على قلعة (يسوع) وفتح (ممباسه) وطرد البرتغاليين من بقية أجزاء الساحل، ولذا فإن الرواية التي تقول إن عدد المقاتلين العمانيين يتراوح مابين ثلاثة إلى أربعة آلاف مقاتل أقرب إلى الحقيقة نسبة إلى عدد السفن وحجم المهمة، ومن خلال نتائج الحملة فيما بعد تظهر واقعية تلك المصادر فيما يتعلق بعدد المقاتلين، ومن المؤسف أن المصادر العمانية لاتعطي تفصيلاً عن تلك الحملة أو حجمها لا من بعيد ولا من قريب.

أسندت قيادة تلك الحملة إلى (مبارك بن غريب المزروعي)[3] ووصلت

---

١) السيّار، دولة اليعاربة، ص ٩٩.

2) Strandes, j., op.cit., pp. 240-50.

حراز، إفريقية الشرقية والإستعمار الأوربي، ص ٣٦؛

Coupland, R., op.cit., p.67-8

٣) يذكر بعض الباحثين أن الإمام (سلطان بن سيف الأول) بعد أن فتح (ممباسه) بعد حصارها عام ١٠٧٦هـ / ١٦٦٥م والذي سبق ذكره، عيّن عليها (محمد بن مبارك بن غريب المزروعي) والياً، وبعضهم يشير إلى أنه (مبارك بن غريب المزروعي) والحقيقة أن الشخص الذي تردد اسمه كثيراً في المصادر هو (مبارك بن غريب المزروعي) الذي تولى قيادة القوة البحرية التي أرسلها الإمام (سيف بن سلطان الأول) لطرد البرتغاليين من (ممباسه) وبقية أجزاء الساحل خلال الفترة ١١٠٨

إلى ساحل شرق إفريقية في عام ١١٠٨هـ / الثالث عشر من مارس ١٦٩٦م ولكنها لم تتعجل فرض الحصار على (ممباسه) حال وصولها، بل اتجهت إلى كل من (لامو) و (بتّه)، حيث أنزلت مجموعة من المحاربين في كلا المدينتين، وهذا دليل على التأييد القوي الذي يحظى به العمانيون في الساحل رغم المحاولات البرتغالية لصرف السكان عنهم، اتجهت الحملة بعد ذلك إلى (ممباسه) حيث ألقت السفن مراسيها في (كيلينديني) مينائها الرئيس.[1]

وتجدر الإشارة إلى أن البرتغاليين كانوا يراقبون تحركات الأسطول العماني منذ البداية، وعندما علموا أنه يتوجه إلى ساحل شرق إفريقية قاموا بتجهيز قوة بحرية من (جوا) لتعزيز وحماية مراكزهم وحامياتهم هناك، وكانت كل من الأساطيل العمانية والبرتغالية تصل إلى تلك المناطق مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية، وفي تلك الأثناء تمكن الأسطول العماني هذا من الوصول إلى الساحل قبل أن يصل أسطول التعزيزات

- ١١١٠هـ / ١٦٩٦ - ١٦٩٨م، ويشرح ذلك (الأمين بن علي المزروعي) في مخطوطه بقوله : «يقول شيوخ المزارعة الذين نقلنا منهم كثيراً من أخبار أسلافهم الماضية أن الإمام سيف بن سلطان الأول أمّر على هذا الجيش مبارك بن غريب المزروعي وأسند القيادة إليه، وعيّن ناصر بن عبدالله المزروعي والياً على ممباسه يتولّاها بعد إجلاء العدو منها.» ويستطرد قائلاً : .... «هذا ماأورده لنا شيوخ مزارعة السواحل، ولذا فحكم المزارعة يبتدىء من يوم فتحها الإمام (سيف بن سلطان الأول) الفتح الثاني بعد فتح والده الإمام (سلطان بن سيف الأول) والجدير بالذكر أن أسرة المزارعة تلك وهي قبيلة عمانية كانت قد لعبت دوراً بارزاً في تاريخ (ممباسه) وتاريخ ساحل شرق إفريقية منذ ذلك التاريخ وحتى منتصف القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي. انظر :

المزروعي، تاريخ ولاية المزارعة في إفريقية الشرقية، ورقة ١٦ - ١٧؛ جمال قاسم، دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقية، ص ٨٢؛ السيّار، دولة اليعاربة، ص ٩٦.

١) الهنائي، العمانيون وقلعة ممباسه، ص ١٤؛ المغيري، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، ص ١٩٢.

البرتغالي المذكور.[1]

عندما وصل الأسطول البرتغالي وجد العمانيين، قد أرسوا سفنهم في ميناء (كيلينديني) الهام، ولذا اضطرت السفن البرتغالية إلى الطواف في البحر وأحياناً القاء مراسيها خارج الميناء، ودخول ميناء (سان أنطونيو) الأقل إغراءً والقريب نوعاً ما من (ممباسه) وفي كلتا الحالتين لايستطيع هذا الأسطول تقديم أية معونة تذكر للحامية البرتغالية في قلعة (يسوع) علاوة على عدم استطاعته مهاجمة الأسطول العماني الذي تمكن من أن يتخذ لنفسه مواقع قتالية فاعلة.[2]

لم يواجه العمانيون في بداية الأمر مقاومة تذكر من البرتغاليين نظراً لضخامة أسطولهم وتمركزه، إضافة إلى أن السفن البرتغالية التي كانت موجودة هناك لاتستطيع مواجهة القوة العمانية دون مساعدة ولهذا انسحبت من الميناء، كما أن العمانيين أيضاً قاموا كما ذكرنا بتعزيز كل من (لامو وبتّه) بالسلاح والمقاتلين لمحاصرة الحاميات البرتغالية هناك ومنعها من تقديم أية مساعدة للبرتغاليين في (ممباسه)، ثم تقدم بعد ذلك الأسطول العماني وفرض حصاراً محكماً على (قلعة يسوع) استمر حوالي ثلاثة وثلاثين شهراً.[3] كان من الواضح أمام القوات العمانية أن الاستيلاء على (قلعة يسوع في ممباسه) من الأمور الصعبة ولما كان الهدف هو احتلال القلعة ومن ثم الانطلاق نحو كافة أجزاء الساحل، فقد تعين

---

1) كيركمان، جي، التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق إفريقية، ص ٢٩٤.

2) المرجع نفسه، ص ٢٩٤.

3) جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٣٢١؛
Krapf, J.L, op.cit., pp. 529 - 30;
المعمري، عمان وشرق إفريقية، ص ٦٦.

عليهم اتخاذ كافة الاحتياطات اللازمة لتحقيق هذا الهدف ومنها على مايبدو عزل الحاميات البرتغالية الموجودة في المدن الأخرى عن القلعة المحاصرة وعدم الاستعجال في مهاجمة القلعة بل فضّلوا حصارها باتباع حرب النفس الطويلة.

وقد أخفقت خلال مدة الحصار الطويلة محاولات البرتغاليين المتعددة لكسره، وعند إتمام عملية الحصار بدت مدافع السفن العمانية تقصف المناطق المحيطة بالقلعة في محاولة لعزلها والحيلولة دون وصول الامدادات إليها، مما اضطر البرتغاليين وأعوانهم من الوطنيين والسواحليين وبعض المرتزقة الذين يزيدون على الألفين اضطروا إلى اللجوء إلى القلعة وانحصروا فيها، ومن ثم سيطرت القوات العمانية على الممر الوحيد الذي يربط القلعة بالمدينة، وبذلك إزداد موقف المحصورين داخل القلعة حرجا[١] وأصبحت بذلك مسألة تقديم مساعدة لهم بالغة الصعوبة إن لم تكن معدومة.

لم يستطع الأسطول البرتغالي الذي جاء من (جوا) بعد وصول القوات العمانية بوقت قصير، لم يستطع أن يفعل شيئاً وبخاصة بعد السيطرة على ميناء (كيلينديني) الاستراتيجي، فاضطر هذا الأسطول بعد مدة إلى الإبحار نحو (موزمبيق) ومن ثم محاولة العودة ثانية إلى (ممباسه) مع الرياح الجنوبية الغربية، وفي هذه المرحلة كان وضع المحاصَرين داخل القلعة يائساً حيث أخذت المؤن تتناقص.[٢]

---

1) Coupland, R., op.cit., pp.67-68.

2) Grenvile, F., Select Documents, op.cit., p.142.

السيّار، دولة اليعاربة، ص ١٠٠.

في أغسطس من العام نفسه جاء أسطول النجدة البرتغالي من (موزمبيق) ولكنه أقل حجماً من السابق، فلم يأت إلاّ عدد قليل من السفن تحمل بعض الإمدادات للمحاصَرين، وتمكنت تلك السفن من الإبحار داخل ميناء (سان انطونيو) ولكنها لم تفلح في مهمتها حيث بذل العمانيون جهوداً كبيرة لمنع وصول تلك الإمدادات، وفي الوقت نفسه، فإن القوات العمانية اكتفت بفرض الحصار على الطريقة العربية، حيث يكتفي كل من المحاصِرين والمحاصَرين بمراقبة بعضهما بعضاً شهوراً عديدة.(١)

لقد ازداد وضع المحاصَرين داخل القلعة سوءً وبخاصة بعد وفاة قائد الحامية البرتغالي (جوادي رودريغر Jaoa De Rodriguer) في اكتوبر ١١٠٨هـ / ١٦٩٦م مما أضعف الروح المعنوية لدى أفراد الحامية، ومما له دلالته وقوع حالات هروب عديدة من صفوف البرتغاليين ومعاونيهم، وتناقص عدد الموجودين داخل القلعة من حوالي ٢٥٠٠ إلى ١٥٠٠ رجل، ولم يبق من الجنود البرتغالين سوى خمسين أو يقلون عن ذلك. وفي نوفمبر من العام نفسه تلقى العمانيون تعزيزات من (بتّه) ممثلة بوصول أحد عشر مركباً من مراكب (الدهو) تحمل عدداً من العرب وعدداً كبيراً من السكان المحليين.(٢) وأمام كل ذلك فلم يشن العمانيون الهجوم ليبلغ مداه بالرغم من أنه من غير المتوقع أن تصل أية إمدادات برتغالية قبل حلول موسم هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية.

وقد قام الشيخ (داود) أمير (فازا) بجهود كبيرة وبارزة في الدفاع عن القلعة يساعده في ذلك عدد من الموالين للبرتغاليين من وطنيين ومرتزقة،

---

1) Bathurst, R. D, op.cit, p.143.

2) Strandes, J. op.cit., p.251;

أحمد شلبي، تاريخ عمان ونشاطها الداخلي، ص ٥١.

ويرجع الفضل إليه بدرجة كبيرة في صمود القلعة تلك المدة الطويلة تحت الحصار، في وقت لاتكاد تصل إليها إمدادات برتغالية تذكر، ومن الجدير بالذكر أن الشيخ (داود) يعد من أوثق حلفاء البرتغاليين في الساحل.[1]

ومع استمرار الحصار فقد تواصلت التعزيزات من كلا الجانبين، حيث دفع العمانيون بتعزيزات جديدة إلى الساحل من عمان، كما قاموا أيضاً باستبدال بعض قواتهم بقوات أخرى، وفي أواخر ديسمبر من العام نفسه ١١٠٨هـ / ١٦٩٦م وصل أسطول برتغالي مكوّن من سبع قطع حربية يحمل حوالي ٧٧٠ رجلاً أغلبهم من الوطنيين الذين تم جمعهم قسراً، وحاولت تلك القوة التسلل إلى القلعة لمدها بالمؤن والذخير، ورغم أنها نجحت في بداية الأمر في إنزال بعض المؤن والجنود الذين يقدر عددهم بمائة رجل إلاّ أنها اضطرت للانسحاب تحت ضغط المدافع العمانية،[2] ونتيجة لذلك ثقل الأمر على البرتغاليين بسبب إحكام الحصار العماني على القلعة إضافة إلى تفشي الأوبئة ونقص الإمدادات.

ويحمّل بعض المؤرخين قائد أسطول النجدة البرتغالي اللوم في عدم جديته لمساعدة المحاصَرين داخل القلعة، ويذكرون أنه عندما استطاع إنزال بعض الجنود والمؤن وفشل بإنزال الباقي، قرر أن مهمته قد انتهت ورحل رغم احتجاجات المحاصَرين واعتراضاتهم، ومن ثم تبعه الأسطول بكامله، ويعزى ذلك التصرف إلى أن هذا القائد كان قد عُيِّن حاكماً على (موزمبيق) وأسرع بالذهاب إليها للإستفادة من تجارة الذهب هناك وتحقيق

---

١) كيركمان، التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق إفريقية، ص ٢٨٩.

٢) جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ص ٣٢٤؛ صحيفة عمان، العدد ٥٥٨، ١٩٨٧/٣/٢٥، ص ٣.

مكاسب شخصية.[1] وأياً كانت الأسباب التي اضطرت القائد البرتغالي إلى الرحيل فإن المكاسب المتواضعة التي حصلت عليها الحامية البرتغالية قد تضاءلت أمام الخطر الداهم في وباء الطاعون الذي جلبته تلك التعزيزات والذي بدأ المحاصرون العمانيون يعانون منه أيضاً.[2]

وأمام التعزيزات البرتغالية المتباطئة فإن العمانيين يساندهم أهالي الساحل يسعون دائماً إلى تبديل قواتهم ودعمها، فقد وصلت إليهم تعزيزات في عام ١١٠٩هـ / الثامن عشر من فبراير ١٦٩٧م تتألف من سفينتين من نوع (جاليوت) من الهند محملتين بالذخيرة، وبعد شهر من ذلك أي في مارس وصلت تعزيزات عمانية أخرى حيث وصلت ثلاث سفن محملة بالمقاتلين والمؤن قادمة من (مسقط).[3]

وبرغم إحكام الحصار على قلعة (يسوع) في (ممباسه) من قبل العمانيين إلاّ أن الملاحظ أن البرتغاليين رغم مضي أكثر من سنة على الحصار أنهم لم يدفعوا بقوات كبيرة إلى هناك لفك الحصار عن القلعة، وهذا في تقديري راجع إلى أن البرتغاليين قد لايستطيعون توجيه كل مالديهم من قوات إلى هناك خشية تعرض مراكزهم في ساحل الهند الغربي إلى هجمات قد يشنها العمانيون أو غيرهم، لذا فقد اضطروا إلى الاحتفاظ بجزء من قواتهم هناك وأيضاً بجزء آخر في الخليج لحماية تجارتهم، وليس من المستبعد أيضاً أن احتفاظهم بهذه القوات وعدم إرسالها إلى شرق إفريقية قد يشكل عامل ردع للعمانيين أيضاً لكي لايدفعوا بكل قواتهم إلى اخوانهم في تلك المناطق، وبالرغم من أهمية ساحل شرق إفريقية بالنسبة

---

1) Strandas, J, op.cit., p.256; Coupland, R, op.cit, p.68.

2) Ibid.

3) Bathurst, R.D., op.cit, p.144.

للبرتغاليين وفي هذه المرحلة بالذات، ورغم ماتعانيه حاميتهم في (ممباسه) من حصار محكم ونقص في الامدادات إلاّ أن الملاحظ أنهم لم يطلبوا تعزيزات عسكرية من (لشبونه) حتى ذلك الحين رغم مضي هذه الفترة الطويلة من الحصار وفشل المحاولات المتكررة لكسره، وربما ذلك راجع إما لاستهانتهم بالبحرية العمانية، أو رغبة نائب الملك بالهند في عدم إظهار ضعفه وفشله بالتصدي للعمانيين أمام الملك البرتغالي.

ولقد مضى الحصار بطيئاً ومتثاقلاً دون أن يقدم أي من الجانبين على أخذ زمام المبادرة بشن هجوم، ومع نهاية شهر أغسطس من العام نفسه مات قائد القلعة، وآلت القيادة بعد ذلك مؤقتاً إلى أمير (فازا)، وحينئذٍ قام حاكم (موزمبيق) بإرسال نجدة إلى (ممباسه)، ولكنها لم تستطع تقديم أي شيء فاتجهت إلى (زنجبار)،[1] ولتجنب التوبيخ الذي قد يوجه إليه من (جوا) قام حاكم (موزمبيق) بإرسال نجدة أخرى إلى (ممباسه)، وتمكن هؤلاء مع أولئك الذين تلكأوا في (زنجبار) من حشد قوة كبيرة دخلت إلى ميناء (ممباسه) في سبتمبر من العام نفسه، ونشب قتال ضار تحت قيادة (جوزيف دي بريتو Joseph De Brito) الذي أصبح حاكماً على البرتغاليين، بينما احتفظ أمير (فازا) بلقبه قائداً وحاكماً للقلعة.[2]

وقد واكب الجهود البرتغالية العسكرية لفك الحصار جهود دبلوماسيّة على أعلى المستويات فقد قامت (لشبونه) في أواخر عام ١١٠٨هـ / اكتوبر ١٦٩٦م بإرسال (جريجوريو فيدالجوGregorio Fidalgo) إلى ملك فارس (سلطان حسين ١١٠٦ - ١١٣٥ هـ / ١٦٩٤ - ١٧٢٢م) للإتفاق معه بهدف تكوين

---

1) Eilot, C., op.cit., pp.18-19.

2) Struandes, J. op.cit., p.260;

أحمد شلبي، تاريخ عمان ونشاطها الداخلي، ص ٥١.

حلف لمهاجمة العمانيين الأمر الذي سيؤدي حتماً - حسب وجهة النظر البرتغالية - إلى تخفيف الضغط العسكري العماني عن ساحل شرق إفريقية، وإبعاد شبح سقوط قلعة (يسوع في ممباسه)، ولكن مهمة ذلك المبعوث لم تنجح.(١)

كما حاول البرتغاليون أيضاً الضغط على العمانيين وذلك بتطبيق سلاح العقوبات الاقتصادية على عمان محاولين في ذلك استغلال عقدهم معاهدات مع أمراء بعض الولايات الهندية، ففي عام ١١٠٨هـ / سبتمبر ١٦٩٦م وافق حاكم (كلكتا) على أن يوقف السفن التي تتاجر مع (مسقط)، أو مع أي ميناء من الموانىء التابعة للعمانيين، وفي عام ١١٠٩هـ / أواخر عام ١٦٩٧م عقدت اتفاقية بين مندوب حاكم مقاطعة (سوندا) الهندية ونائب الملك البرتغالي في (جوا) وكان من بين شروطها أن لايسمح حاكم المقاطعة الهندي لأي سفينة بالذهاب إلى (مسقط) سواء للتجارة أو لأي غرض آخر.(٢) والواقع أن إرسال المندوبين إلى البلاط الفارسي أو تطبيق الحظر الاقتصادي لوضع العراقيل أمام التجارة العمانية مع الموانىء الهندية، إنما كان ذا جدوى ضئيلة طالما أن العمانيين كانوا يملكون آنذاك أقوى أسطول في المنطقة.

وعلى الصعيد العسكري كرر البرتغاليون محاولاتهم لفك الحصار المضروب على (ممباسه) ففي منتصف عام ١١٠٩هـ / نوفمبر ١٦٩٧م أرسل البرتغاليون من (جوا) بعض السفن الحربية إلى (ممباسه) واستطاعت التسلل إلى القلعة وإنزال بعض الجنود والمؤن وأخذت معها بعض من

1) The Carmelites, op.cit, vol.II, p.477.

2) Danvers, F, op.cit., vol.II, pp. 371-72.

بقي على قيد الحياة من الجنود البرتغاليين المحاصَرين.[1] واعتبر قائد هذه الحملة (فارنسسكو بيريرا دي سلفا Francisco Pereira De Silva) أن مهمته بذلك قد انتهت وقرر العودة، ورفض مطلب المحاصَرين الذين أوضحوا له بأن بإمكان أسطوله هذا مواجهة القوات العمانية ولو لتخفيف الضغط عن القلعة، ولكنه رفض وابحر في يناير عام ١٦٩٨م إلى (زنجبار) ومنها إلى (جوا).[2]

وبذلك يتضح أن القادة البرتغاليين غير راغبين في استثمار الفرص التي تلوح لهم أحياناً لتحقيق شيء ما أمام هذا الحصار، وقد يكون ذلك فرصة لهم لإنقاذ القلعة أو تأخير سقوطها على الأقل، والملاحظ أن قادة الحملات البرتغالية التي أرسلت لإنقاذ القلعة كانوا غير جادين في تنفيذ ما أوكل إليهم من مهام. إما لجبنهم أو لعدم ثقتهم بما لديهم من قوات، وبالمقابل نجد إصراراً عجيباً وتصميماً واضحاً من العمانيين على تحقيق هدفهم، ويبرهن على ذلك طول مدة الحصار التي فرضوها على قلعة (يسوع في ممباسه).

كانت السلطات البرتغالية في (جوا) على إطلاع بالحالة البائسة للمحاصَرين في (ممباسه) فقد أصاب الحامية الطاعون، وأخذ المحاصَرون يموتون بصورة مضطردة سواء من الأوبئة أو من سوء التغذية، وبالرغم من ذلك ورغم تناقص عدد المدافعين إلا أنهم أصروا على عدم التسليم، وقد رفضوا عروض التسليم والضمانات التي قدمها العمانيون مع التعهد

---

1) Granville, F, Select Documents, op.cit, p.143.

السيّار، دولة اليعاربة، ص ١٠٠.

2) Bathurst, R.D, op.cit, p.145-46.

بتوفير مخرج آمن لهم.[1] ويرجع هذا الإصرار على عدم التسليم في اعتقادي ليس إلى البرتغاليين الذين لم يبق منهم إلاّ القليل فحسب بل إلى أمير (فازا) وأعوانه من بعض السواحليين من أهل (فازا) والذين بذلوا جهوداً كبيرة في الدفاع عن القلعة وقد كانوا أوفياء للبرتغاليين مثل ماكان لحاكم (ماليندي) إبان المراحل الأولى للغزو البرتغالي، تدفعهم إلى ذلك مصالحهم الشخصية.

وقد حاول البرتغاليون بعد ذلك التأثير على العمانيين من خلال إزعاجهم في الممرات البحرية ومدخل الخليج، وذلك عندما قامت بعض السفن البرتغالية وعلى رأسها فرقاطتان بالمرابطة في (رأس الحد) عند مدخل الخليج وذلك في أواخر عام ١١٠٩هـ / مايو ١٦٩٨م، فأرسل العمانيون بعض السفن بقيادة (والي مطرح) لمهاجمة الأسطول البرتغالي الذي أخذ يعترض السفن العمانية وغيرها من السفن المتوجهة إلى (مسقط) ونشبت بينهما معركة انتهت بهزيمة العمانيين ومقتل قائدهم وعدد كبير من رجالهم، وكانت خسائر البرتغاليين قليلة مقارنة بالخسائر العمانية.[2] والواقع أن هذه الخسارة لم يكن لها أي تأثير على مجرى الأحداث في ساحل شرق إفريقية، وظل الحصار مضروباً على (ممباسه) وظلت التعزيزات العمانية تتدفق إلى هناك.

شعر الإمام (سيف بن سلطان الأول) بالضعف الواضح الذي بدأ

---

1) Coupland, R, op.cit, p.69.

صلاح العقاد، جمال قاسم، زنجبار، ص ٣٢.

2) (10R). I/3/141, Documentos, .43, fol. 271, Letter Viceroy to the King, 16 May 1698;

لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ١١٧.

يعانيه البرتغاليون سواء في ساحل شرق إفريقية أو في مقر حكومتهم في (جوا)، واتضح ذلك بفشل كافة محاولاتهم لفك الحصار عن (ممباسه) وضآلتها، لذا فقد قام بإرسال عدد جديد من القوات إلى ميدان القتال، وأصدر تعليماته بشن الهجوم النهائي على القلعة، وقد وصلت التعزيزات العمانية الجديدة عام ١١١٠هـ / اكتوبر ١٦٩٨م حيث تم الإنزال وبوشر بالهجوم النهائي.[١] واستمر الهجوم حوالي شهرين تم خلاله السيطرة على اللسان البري الذي يفصل القلعة عن المدينة، كما تم خلاله أيضا تدمير واجهة القلعة المطلة على البحر والتي كان فيها مقر القيادة البرتغالية، وفي التاسع من جمادى الثانية ١١١٠هـ / الرابع عشر من ديسمبر ١٦٩٨م استسلمت الحامية البرتغالية، ودخل العمانيون القلعة فاتحين وارتفع بعد ذلك العلم العماني على برج القلعة.[٢]

وفي تلك الأثناء وصلت قوة برتغالية من (جوا) تتكون من أربع سفن كبيرة ترافقها بعض السفن الصغيرة وتحمل حوالي ٥٠٠ رجل من قوات الإنزال البري، إضافة إلى (٧٠٠) بحار كطواقم للسفن وذلك في منتصف ديسمبر ١٦٩٨م، وما أن وصلت حتى رأت العلم العماني الأحمر يرفرف خفّاقاً فوق القلعة، ومإن رأى قائد الأسطول ذلك حتى أبحر إلى (زنجبار) دونما تحرٍ للأمر، وعبثاً حاول حلفاء البرتغاليين ومنهم حاكمة (زنجبار) وأمير (فازا) إقناع قائد الأسطول بالعودة إلى (ممباسه)، للتأكد من حقيقة

---

1) Strandes, J, op.cit, pp.266-67.

٢) الهنائي، العمانيون وقلعة ممباسه، ص ١٤؛ المزروعي، تاريخ ولاية المزارعة في إفريقية الشرقية، ورقة ١٧؛ الأزكوري، كشف الغمة، ص ١١٣؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٨٤؛

Strandes, J, op.cit, p.67;

جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية، ص ٣٢٤؛ لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ١١٧.

الوضع إلاّ أن محاولاتهم تلك كانت دون جدوى، حيث أبحر إلى (جوا) ومن المعتقد أن القلعة قد سقطت بأيدي العمانيين قبل وصول هذا الأسطول بيوم أو يومين.(١)

لقد كانت الحملة انتصاراً كبيراً للعمانيين، فلم يفقدوا أي سفينة، كما أن خسائرهم في الأرواح لم تكن كبيرة، أما البرتغاليون فقد خسروا بعض السفن الحربية، كما خسروا أيضاً خمساً من سفن النقل الكبيرة، وأكثر من ألف قتيل على مدى ثلاث السنوات التي هي سنوات الحصار، وهذا ماكان كثيراً بالنسبة لهم، وبسقوط قلعة (يسوع) في (ممباسه) أصبح للعمانيين الكلمة الفصل في شئون ساحل شرق إفريقية.(٢)

وقد أظهر حصار (ممباسه) بأن البرتغاليين لايملكون الموارد الكافية ولايتحكمون بالدعم الكافي الذي يمكنهم من خوض الحرب ضد العمانيين لوحدهم، وبالتالي هزيمتهم، ورغم أن المعارك كانت تنشب بينهما بين الفينة والفينة إلاّ أنها لم تشهد أي حميّة أو شجاعة من البرتغاليين، وعلى العكس فإن العمانيين كانوا يملكون إرادة أكبر وتصميماً أكثر بالإضافة إلى قوة بحرية جيدة وبخاصة في العقود الأربعة الأخيرة من القرن السابع عشر الميلادي.

لقد كان لسقوط قلعة (يسوع) أكبر الأثر في نفوس المسلمين وإظهار تفوق الأسطول العماني على الأسطول البرتغالي. إن سنة ١١١٠هـ / ١٦٩٨م

---

1) Strandes, J, op.cit, p.267;

Owen, W.F, op.cit, vol, II, p.415.

٢) رويتي، عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان، ص ٩١؛ كيركمان، التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق إفريقية، ص ٢٩٥.

تعتبر سنة هامة في ساحل شرق إفريقية ليس فقط من حيث القضاء على السيطرة البرتغالية فحسب بل من حيث أهميتها التي أتاحت للإسلام الفرصة في الإنتشار دون أي عقبات، بل إن الاستيلاء على (ممباسه) مكّن العمانيين من المحافظة على السمة الإسلامية للقسم الشمالي من ساحل شرق إفريقية.

شدد الإمام (سيف بن سلطان الأول) على ضرورة استثمار هذا الانتصار لطرد كافة الحاميات البرتغالية وتصفية الوجود البرتغالي في ساحل شرق إفريقية، لذا فقد اندفعت القوات العمانية تساندها قوات أهالي الساحل، واستطاعت تحرير كل من مدن (بمبا، زنجبار، وبتّه، وكلوة) وطردت البرتغاليين من جميع المواقع والمعسكرات التي كانوا يحتلونها ولم يأت عام ١١١٢هـ / ١٧٠٠م إلاّ وقد سيطر العمانيون على جميع المواقع التي تقع شمال (رأس دليجارو Cape Delgaro)، كما حاول العمانيون أيضاً مهجمة (موزمبيق) ولكنهم عدلوا عن ذلك.[1] وبعد هذا الجهد أصبحت السيطرة العمانية شاملة وكاملة على القسم الشمالي من الساحل، وبادر السكان هناك بالاعتراف بالسيادة العمانية، وعاد شريان الحياة ينبض من جديد كما عادت الاتصالات بين الخليج وجنوب الجزيرة العربية وساحل شرق إفريقية إلى سابق عهدها، وبدأ الساحل يستقبل زخم الهجرات الجديدة من الجزيرة العربية، كما بدأت مرحلة أخرى جديدة من مراحل انتشار الإسلام هناك.

---

١) ابن رزيق، الفتح المبين، ص ٢٩٥؛ السالمي، تحفة الأعينا، ج ٢، ص ٨٤؛
Pearce, F. B, op.cit, p.87;
المغيري، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، ص ١٩٥ - ١٩٧.
رولاند اوليفر، جون فيج، موجز تاريخ إفريقية، ترجمة دولت أحمد صادق، بدون تاريخ، ص٣٩ - ٤٠.

بعد أن تم تطهير القسم الشمالي من الساحل، وتم تصفية الوجود البرتغالي فيه قام الإمام (سيف بن سلطان الأول)بتعيين (ناصر بن عبدالله المزروعي)[1] حاكماً على (ممباسه) ثم أعاد لكل مدينة من مدن ساحل شرق إفريقية حكمها، حيث قام بوضع (زنجبار) تحت حكم أسرة الحرث أو الحارث، بينما عيّن أحد أفراد قبيلة النباهنة والياً على (بتّه) كما أصبحت (بمبا) تابعة لوالي (ممباسه) بينما أبقى على ولاة المدن الآخرى، والذين كانوا يتعاونون مع العمانيين خلال فترة الصراع مع البرتغاليين، كما أن (مقديشو) أيضاً سارعت إلى الدخول في طاعة العمانيين.[2] وبهذا أصبح حكم المدن الهامة في ساحل شرق إفريقية بأيدي العرب الذين هم من أصل عماني، فوالى (ممباسه) (المزروعي) جاء من ضمن الحملة التي أرسلت لحصار المدينة، أما أسرة (الحرث والنباهنه) فكانوا يقيمون في الساحل ولكنهم ينحدرون من أصل عماني وهاجروا من عمان كما مرّ بنا في التمهيد، بل إن النباهنة كانوا حكاماً لعمان في فترة من الفترات الماضية كما ذكرناه أيضا.

---

١) تشير بعض المصادر إلى أن الشخص الذي عينه الإمام (سيف بن سلطان الأول) على ولاية (ممباسه) بعد فتحها هو (محمد بن سعيد المعمري) والواقع أن (المعمري) هذا عينه على ولاية (ممباسه) الإمام (سيف بن سلطان الثاني) عام ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م كما تشير إلى ذلك أهم المصادر وأوثقها. انظر المزروعي، تاريخ ولاية المزارعة في إفريقية الشرقية، ورقة ٢٢؛

Krapf, J.L, op.cit, p.539.

٢) المزروعي، تاريخ ولاية المزارعة، ورقة ١٦ - ١٧؛ عبدالله بن صالح الفارسي، البوسعيديون حكام زنجبار، ترجمة محمد أمين عبدالله، مسقط، وزارة التراث والثقافة بعمان، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ١١٤؛
المعمري، عمان وشرق إفريقية، ص ٦٧؛

Owen, W.F., op.cit, vol, II, p.415;

هلنجز وورث، ل. و، زنجبار ١٨٩٠ - ١٩١٣، ترجمة وتعليق حسن حبشي، دار المعارف، المطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م، ص ٣.

ومن الجدير بالذكر أن بعض المؤرخين أشاروا إلى أن ماقام به العمانيون من جهد لطرد البرتغاليين وتحرير ساحل شرق إفريقية من سيطرتهم كان بمثابة تأكيد للإدعاءات العمانية بالسيادة على تلك المناطق، أو أنهم كانوا مدفوعين كما قالوا بحق عمان بالسيادة على ساحل شرق إفريقية، والواقع أن العمانيين على عهد اليعاربة لم يكن لهم أية ادعاءات بحقوق السيادة على الساحل الافريقي، ولم يسبق لأي إمارة أو مدينة من مدن الساحل أن خضعت لعمان، بل أنه عندما تشكلت المراكز الحضارية ونشأت الامارات والمدن هناك كانت عمان تعاني من مشاكل داخلية وصراعات قبلية وتكاد تفقد السيطرة على أراضيها في بعض الأحيان، ولكن قيام اليعاربة العمانيين بهذا الدور ومساعدتهم لإخوانهم في ساحل شرق إفريقية يستند على أن العلاقات بين عمان وتلك المناطق تعود إلى روابط حضارية وتجارية تمتد إلى عصور موغلة في التاريخ، وإنما يمكن اعتبار ماقامت به عمان ليس إلاّ مرحلة من المراحل التي مرت بها العلاقات بين عمان وساحل شرق إفريقية، كما يجدر الذكر أنه يجب التفريق بين العلاقة التي كانت قائمة بين اليعاربة العمانيين وساحل شرق إفريقية، وبين البوسعيديين الذين خلفوا اليعاربة على حكم عمان وبين مدن وامارات ساحل شرق إفريقية، ففي الوقت الذي اكتفى به اليعاربة بالسيادة الاسمية[1] على تلك المناطق، أبى البوسعيديون إلاّ أن يكون لهم

---

١) يذكر (رودلف سعيد رويتى) أن العمانيين بعد أن طردوا البرتغاليين من ساحل شرق إفريقية بعد أن أبيد البرتغاليين بأعداد كبيرة (على حد قوله) أدى ذلك إلى تهيئة الفرصة لحكام عمان لتأسيس امبراطوريتهم الأفريقية التي كانوا تواقين إليها دوماً. ويضيف أن هناك من الأدلة مايفيد أن الإمام (سيف بن سلطان الأول) قد أدرك هذه الاحتمالات، وأنه لم يكن زاهداً عن الإستفادة منها، ولكن الأوضاع والضغوط التي حول بلاده أخّرت تحقيق هذا الحلم مدة من الزمن. انظر: عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان، ص ٩١.

السيادة الكاملة والمطلقة عليها،[1] في وقت مبكر من توليهم الحكم في عمان، ونعتقد أن ذلك ربما يكون هو الذي دفع بعض المؤرخين إلى ذلك الاعتقاد الذي قد يكون نابعاً من عدم تفريقهم بين السياستين العمانيتين المختلفتين وهما سياسة اليعاربة وسياسة البوسعيديين تجاه ساحل شرق إفريقية.

* ردود الفعل البرتغالية على سقوط ممباسة :

لم يفقد البرتغاليون الأمل في استرجاع ماكان لهم من نفوذ في ساحل شرق إفريقية، ففي منتصف عام ١١١٠هـ / مطلع ١٦٩٩م تحرك من ميناء (لشبونه) أسطول مكون من خمس سفن تحمل (١٩٠٠) مقاتل لتحقيق هدف محدد هو نجدة (ممباسه) ولكنه لم يصل(موزمبيق) إلاّ بعد سقوط قلعة (يسوع) وقد رفض الملاحون التوجه إلى (ممباسه) لمحاولة استرجاعها مدعين جهلهم بالساحل وأنه ليس مألوفاً لديهم، وبناء على هذا العذر تم تحويل الحملة حيث اتجهت إلى (جوا).[2] وقد علق نائب الملك البرتغالي في (جوا) على ذلك قائلاً : «إنه مع وجود الملاحين المدربين والبوصلات وهبوب رياح موسمية مواتية تدفعهم من الخلف باتجاه ممباسة مع ذلك كله فإن الشيء الوحيد الذي كان ينقص هذه الحملة هو الإرادة والعزيمة على بلوغ هدفها المحدد.[3]

لذا فقد تقرر أن تشكل هذه القوة الأساس لقوة أخرى يتم بناؤها عن

---

١) مزيد من التفصيل عن العلاقة التي كانت قائمة بين البوسعيديين وساحل شرق إفريقية، انظر : جمال قاسم، دولة البوسعيد في عمان وشرق إفريقية ١٧٤١ - ١٨٦١.

2) Strandes, J., op.cit, p.273;

العقاد، جمال قاسم، زنجبار، ص ٣٢.

3) Bathurst, R.D, op.cit, p.261.

طريق التعزيزات والإمدادات من (لشبونه) في محاولة لإعادة احتلال (ممباسه) ولكن الآمال التي كان يعقدها البرتغاليون على إتمام بناء هذه القوة عصف بها الإعصار المدمر الذي تعرضت له (جوا) عام ١١١٣هـ / التاسع من ديسمبر ١٧٠١م.[1] وبذلك تحطمت الآمال البرتغالية في العودة إلى ساحل شرق إفريقية ولو لبعض الوقت.

بعد مضي حوالي ثلاث سنوات من إجلاء البرتغاليين عن (ممباسه) وبعد أن تعذر عليهم القيام بعمل عسكري لإسترجاعها، آثر نائب الملك بالهند التريث والبدء بمساعٍ سلمية، حيث إن الموارد البرتغالية بالهند ستتعرض إلى إجهاد شديد لو أقدمت على منازلة العمانيين على كافة الجبهات - في ساحل شرق إفريقية أو الهند، والخليج العربي، والطرق أو الممرات البحرية المؤدية إلى البحر الأحمر.

لذا فقد سلم البرتغاليون بصعوبة هذا الأمر وبدأ تسليمهم جلياً في اقتراح سري قدمه نائب الملك إلى (لشبونه) عام ١١١٥هـ / ديسمبر ١٧٠٣م، حيث اقترح بأن المفاوضات مع إمام عمان قد تنجح في استعادة (ممباسه) عن طريق وساطة حاكم (سورات) إذا ماصاحبها عرض بتقديم دفعة نقدية سخيّة مقابل ذلك، كما أن القنصل البحري فوق العادة (كونسيلهو الترامارينو Conselho Ultramarino) قد وافق على ذلك شريطة أن يؤدي الالتزام الصارم بالسرية إلى حفظ ماء وجه البرتغال[2]

لقد كان كل من القنصل البحري البرتغالي ونائب الملك (كابتيانو دي ميللو دي كاسترو Captano De Mello De Castro) قانعين بأن فكرة الدفعة النقدية الواحدة من هذا القبيل ستكون أرخص وأقل تكلفة من الإستنزاف المتواصل بسبب تكلفة المحافظة على السفن الحربية

---

1) Coupland, R, op.cit, pp.68-69.

2) Strandes, J, op.cit, p.274.

البرتغالية وإبقائها في الخليج كي تحمي تجارتهم مع (كونج)، ولم ينس نائب الملك أن يؤكد جازماً عند تقديمه اقتراحه هذا بأن العرب هم أيضاً راغبون في التوصل إلى تسوية سلمية، كما أكد نائب الملك لحكومة (لشبونه) بأنه على يقين من رغبة العرب نظراً لمعرفتهم بمدى قدرة البرتغاليين على حرمانهم بسهولة من وارداتهم الأساسية من الأرز وقطعها عنهم[1]. والواقع أن آراء كهذه لايمكن تفسيرها إلا بأن نائب الملك في (جوا) والذي قدم تلك المقترحات كان قد عُيّن حديثاً في منصبه ولهذا فتجربته قليله، فقبل ذلك بأسابيع قليلة فقط كان أسطول عماني قد هاجم (دامان Daman) على ساحل الهند الغربي ومكث فيها سبعة أيام وحمّل خمس عشرة سفينة بالغنائم، أضف إلى ذلك أن الهجوم العماني الذي تعرضت له (مانجلور) في عام ١١٠٧هـ / ١٦٩٥م - والذي سبق ذكره - قد برهن على مدة قدرة العمانيين لا البرتغاليين - على قطع امدادات الأرز بسهولة، ومهما يكن من أمر فإن المفاوضات حول (ممباسه) والتي كان يأملها البرتغاليون لم تتم. وقد قضى الهجوم العماني الثاني على (دامان)[٢] قضى على أية محاولات نحو التعاون السلمي، وأصبح يتعين على البرتغاليين البحث عن وسائل أخرى في ظل تفوق عماني واضح.

في عام ١١١٧هـ / ١٧٠٥م يذكر (ستراندز Strandes) أنه وصلت شائعات إلى البرتغاليين بأن بعض أمراء ساحل شرق إفريقية وبعض الأهالي هناك سيرحّبون بعودة السيطرة البرتغالية لأنها ستوفر قدراً أكبر من حرية التجارة، ويضيف بأن البرتغاليين طلبوا من أمراء المدن بأن يحثوا شعوبهم على الثورة ضد العمانيين إلا أن الأمراء لم يستجيبوا للطلب

---

1) Strandes, J, op.cit, p.275.

٢) الهجوم الثاني على «دامان» الواقع على الساحل الغربي للهند وقع عام ١١١٧هـ / ١٧٠٥م. لمزيد من التفصيل عن هذا الهجوم انظر:

Bathurst, R.D, op.cit, p.205.

البرتغالي، كما ذكر أيضاً أن تلك الشائعات أدت إلى تعاظم الرغبة البرتغالية بالعودة إلى ساحل شرق إفريقية، كما بذلت الجهود للحصول على معلومات وافية عن الأوضاع هناك.(١)

ويعقب (باثرستBathurst) - الذي يبدو أنه أخذ بتلك الرواية - على ذلك بقوله: «إن التغيير في الاتجاه بالنسبة للشعوب السواحلية يبدو وكأنه جاء نتيجة لتناقص اهتمام العمانيين الذين كانوا يجدون أن القرصنة في أي مكان آخر أكثر نفعاً لهم.»(٢)

والواقع أن هذا التعليل من (باثرست) ليس غريبا منه حيث دأب في أكثر من موضع على وصف جميع الأعمال العسكرية التي كان يقوم بها العمانيون بأنها ضرب من ضروب القرصنة وليس دفاعاً عن حق من حقوقهم، فقد وصف الدور الذي كان يقوم به الإمام (سيف بن سلطان الأول) في جهاده ضد البرتغاليين بقوله: «لقد كان عهد سيف بن سلطان الأول من أكثر العهود نشاطاً فيما يتعلق بالمغامرات الخارجية، ومثّل ابتعاداً عن مفهوم الحرب تحت ستار أعذار واهية، والانتقال إلى العدوان السافر بدون أية أهداف أخرى سوى هدف السلب والنهب، وقد ساهمت جباية الرسوم الجمركية إلى جانب السلب والنهب في عهد هذا الإمام الذي كان آخر الأئمة الأقوياء ساهمت في جعل بلده عمان مزدهراً ومنتجاً.»(٣)

---

1) Op.cit, p.275.

2) Op.cit, P.264.

3) Ibid, pp.204-205;

ويجدر بالذكر - كما ذكرنا سابقاً - أن (باثرست) قد أفرد فصلاً كاملاً أجهد فيه نفسه ليثبت أن القرصنة هي الهدف الأول للعمانيين، وان حروبهم ضد البرتغاليين ليست إلاّ ذريعة لإخفاء هذا الهدف.

وقد ذكر (كيركمان) أن البرتغاليين لم يفقدوا الاهتمام والأمل بالعودة إلى الساحل كما أشار أيضاً إلى أن الطبقاتالحاكمة في الساحل ساخطة من وجود النفوذ العماني، وكانوا يبعثون برسائل إلى نائب الملك البرتغالي في (جوا)، وأن تلك المراسلات قد كتبت بلغة عربية ركيكة، ولكنه يذكر أيضاً أن هذه الروايات غير معروفة إلاّ في المصادر البرتغالية.[1]

والواقع أنه لايعلم على وجه الدقة طبيعة الاوضاع في ساحل شرق إفريقية خلال تلك الفترة باستثناء ماتذكره المصادر البرتغالية أو من اعتمد عليها، إلاّ أن المؤكد أن (ممباسه) وهي مفتاح القسم الشمالي للساحل ظلت على ولائها للعمايين وظل الولاة يعيّنون عن طريق السلطة في عمان حتى نهاية النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي.

وحتى أوائل عام ١١٢٢هـ / ١٧١٠م لم يقم البرتغاليون بأي عمل من شأنه إعادة سيطرتهم على ساحل شرق إفريقية رغم ما أثير من أن بعض أمراء الساحل قد وجهوا لهم الدعوة أو طلبوا منهم العودة، إلاّ أنه في هذه السنة انتعشت الآمال البرتغالية على إثر ورود وصف للقوة العمانية على الساحل في تقرير جاسوس من (موزمبيق).

وقد جاء في التقرير أنه يوجد في (كلوة) خمسون رجلاً عمانياً تحت قيادة (الشيخ ناصر) الذي يقال عنه أنه رجل شجاع ومقدام، وقد حوّل بيت أحد الأهالي إلى حصن، ولايوجد لديه سوى مدفعين من أخف العيارات ووهما يُحملان أيضاً عند اللزوم على ظهر السفن عند القيام بدوريات بحرية بمحاذاة الساحل، وأما في (بمبا) فقد كان يوجد ثلاثون رجلاً كانوا يتولون عملية الإشراف على قطع الأخشاب وأخذها إلى (ممباسه) حيث كانت تشحن

---

١) التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق إفريقية ص ٢٩٦.

من هناك إلى (مسقط) لاستخدامها في بناء السفن.[1]

أما في (زنجبار) ففيها حامية مكونة من خمسين رجلاً تقيم في إحدى المباني التي كانت كنيسة برتغالية والتي تم تحويلها إلى حصن، وقد وضع مدفع صغير في كل بوابة، وتوجد حراسة مشددة على حاكمة (زنجبار) والتي كانت حليفة للبرتغاليين حيث منعت من إرسال أية رسائل إليهم، أما (ممباسه) ففيها حامية مكونة من خمسين رجلاً أيضاً تحت قيادة (محمد رسول) وقد بقيت القلعة على حالها في عهد البرتغاليين وكانت تخلى نهاراً وتحرس ليلاً بواسطة عدد من الرجال.[2] أما الحصون الصغيرة الأخرى فبعضها خال تماماً من الحراسة وبعضها الآخر توجد به حراسة متواضعة، أما السلسلة التي كان العمانيون قد أحضروها معهم ليسدوا بها مدخل الميناء في (ممباسه) فإنها ملقاة ولم ستعمل لأنها قصيرة جداً، وأيضاً ذكر التقرير أن هذه الأعداد القليلة من العمانيين لاتحظى بالقبول من أهالي الساحل بسبب ممارستهم للسرقة وإعاقتهم للتجارة (على حد قوله).[3]

ولايعلم على وجه الدقة مدى حقيقة ماجاء في هذا التقرير ومطابقته للواقع حيث لانجده إلاّ في المصادر البرتغالية، وإذا إفترضنا أنه صحيح فإن وضع القوات العمانية المنتشرة على معظم أجزاء الساحل تعكس إنصراف السلطة العمانية عن شئون الساحل وانشغالها بالأحداث والمستجدات بالمحيط الهندي والخليج العربي كما سيأتي ذكره، ولكن الشيء الذي يصعب قبوله هو أنه من غير المعقول أن يتذمر أهالي الساحل من وجود العمانيين في هذه الفترة المحدودة التي أعقبت سقوط (ممباسه) في وقت لم تمارس فيه الإمامة العمانية سلطة مباشرة على الأهالي

---

1) Strandes, J, op.cit, p.275;

كيركمان، التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق إفريقية، ص ٢٩٦.

2) Strandes, J., op.cit, p.276.

3) Bathurst, R.D., op.cit, p.265.

هناك لكي يتذمروا من العمانيين ويقوموا بدعوة البرتغاليين إلى العودة للساحل وهم الذين قاسوا مرارة السيطرة البرتغالية وتسلطها على مدى قرنين من الزمان. ثم لماذا لم يُقدِم البرتغاليون في ظل تواضع القوات العمانية على الساحل وتفرقها على إستغلال هذه الفرصة وإعادة فرض سيطرتهم على الساحل، حيث لن يكلفهم ذلك كثيراً في ظل ترحيب من الأهالي وقوات عمانية قليلة على حد ماجاء في التقرير، ولكن المؤكد أن أهالي الساحل لايرغبون بعودة البرتغاليين، ولايزالون ينظرون إلى عمان على أنها حاميتهم وسندهم، ولايعني الموقف المعارض للعمانيين من أحد أمراء الساحل أن أهالي الساحل جميعهم كذلك، لاسيما وأن والي (ممباسه) معيّن من قبل العمانيين، وقد برهنت أحداث عام ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م - والتي سيأتي ذكرها - على مبالغة ماورد في التقرير المذكور بخاصة فيما يتعلق بتذمر الأهالي من العمانيين.

ومهما يكن من أمر فقد وصلت هذه الأنباء المشجعة إلى (جوا) في وقت كانت تنطلق من (لشبونه) نصائح متواصلة وحث وتحذير بعدم إغفال أية فرصة تتاح للعودة إلى ساحل شرق إفريقية، عليه فقد تشجع نائب الملك آنذاك (دوم رودريجو دا كوستا Dom Rodrigo Da Costa) - وكان قد عُيّن حديثاً - تشجع عل تجربة دوره فقام بإعداد حملة مكونة من أربع سفن عام ١١٢٢هـ / نوفمبر ١٧١٠م، ولكن تم التخلي عن القيام بهذه الحملة فجأة. ويعزو (ستراندان) سبب ذلك بأن البرتغاليين قد اكتشفوا في آخر لحظة عدم وجود مسحوق البارود لديهم.[1] ولكن (ويلش Welch) يذكر أن الإضطرابات بين بعض الفئات والطوائف الهندية باتت تهدد سلامة (جوا) الأمر الذي أجبر البرتغاليين على التخلي عن تلك المهمة، ويذكر أيضاً أن نائب الملك كتب إلى (لشبونه) أخبرهم فيها بإن إستعادة (ممباسه) ماهي

---

1) Op. cit, P-276

إلا مسألة صغيرة وتافهم ةإذا ماقورنت بسلامة وأمن أراضي (جوا).[1]

والحقيقة أنه إذا أمكننا الأخذ برواية (ويلش) والذي اعتمد فيها على سلسلة طويلة من المصادر البرتغالية، فإنه يصعب الأخذ برواية (ستراندز) والتي علل فيها أن عدم وجود مسحوق البارود قد حال دون إنفاذ تلك الحملة، إذ لايعقل أن السفن البرتغالية المنتشرة في الهند وموزمبيق والخليج وبخاصة مركز البرتغاليين في (جوا) تعاني من أهم أداة للحفاظ على أمنهم واستقرارهم لاسيما وأنهم يعانون من كثرة أعدائهم. مهما يكن من أمر فإن كلتا الروايتين تعكسان الوضع المتردي للوجود البرتغالي.

وفي تقديري أن تفوق البحرية العمانية والضعف العام الذي كانت تعانيه البحرية البرتغالية وفساد الإدارة السياسية والعسكرية، وهبوط الروح المعنوية للجنود البرتغاليين، إضافة إلى العجز المالي للإدارة البرتغالية في الشرق كلها أسباب أسهمت بعدم اقدام البرتغاليين على القيام بدور حاسم في ساحل شرق إفريقية بعد سقوط قلعة (يسوع) في (ممباسه) في تلك الفترة.

---

1) Portugues and Dutch in South Africa 1641 - 1806, (Cape Town, 1951) p.270.

نقلاً عن : Bathurst, R.D., op.cit. p.266.

*** الأوضاع في الخليج العربي والمحيط الهندي وأثرها على الجهاد العماني في ساحل شرق إفريقية ووفاة الإمام سيف بن سلطان الأول :**

ظل ساحل شرق إفريقية عرضة لمحاولات برتغالية متكررة لاستعادة سيطرتهم عليه مرة أخرى منذ سقوط (ممباسه) عام ١١١٠هـ / ١٦٩٨م في عهد الإمام العماني (سيف بن سلطان الأول)، ورغم المحاولات البرتغالية التي لم يكتب لها النجاح خلال فترة ولاية هذا الإمام، إلاّ أن الملاحظ تناقص الدور العماني تجاه تلك المناطق منذ استكمال استعادة القسم الشمالي من ساحل شرق إفريقية عام ١١١٢هـ / ١٧٠٠م ولم يعد للإمامة حضور قوي فيه أو سلطة مباشرة على كافة مدنه وإماراته، وباستثناء (ممباسه) التي تم تعيين والٍ عليها من عمان فإن حكم أهم المدن تمّ إعادتها إلى الأسر التي كانت تحكمها في السابق بينما عيّن أشخاص آخرين من الساحل حكاماً لباقي المدن لتكون كل مدينة مستقلة عن الأخرى وتخضع إسمياً لعمان. وقد أدى هذا النهج إلى عودة الخلافات بين زعامات المدن هناك ونمو الطموحات الشخصية لدى بعضها، وبخاصة بعد وفاة الإمام (سيف بن سلطان الأول) الأمر الذي هيأ الفرصة للبرتغاليين للعودة إلى السيطرة على الساحل مرة أخرى.

إذن ماهي الأسباب التي أدت إلى صرف الإهتمام العماني عن ساحل شرق إفريقية وتدعيم قوتهم العسكرية وفرض سلطتهم السياسية هناك رغم الانتصار الذي أحرزوه ضد البرتغاليين والذي نتج عنه طردهم من القسم الشمالي من الساحل إثر سقوط قلعة (يسوع) في (ممباسه) والذي سبق ذكره ؟ وللإجابة على ذلك نقول :

يعزو كثير من الباحثين صرف الإهتمام العماني عن تلك المناطق إلى ثلاثة أسباب رئيسة: أولاها وأهمها الأوضاع في الخليج العربي والمحيط الهندي في أوائل القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي،[١] وفي طليعتها الأخطار التي بدأت تتهدد عمان نفسها سواء عن طريق الممارسات التي كانت تقوم بها الشركات والتجار الأوربيين والتي تقف خلفهم حكوماتهم لأهداف استعمارية وذلك للحد من التفوق التجاري والعسكري العماني، أو من خطر التحالفات الفارسية الأوربية وذلك عندما ناشدت فارس جميع الدول الأوربية التي لها وجود في تلك المناطق لتقديم المساعدة لهم ضد العمانيين.[٢]

والسبب الثاني هو : أنه من المحتمل أن العمانيين قد استنفذوا معظم جهودهم في الجهاد ضد البرتغاليين ومطاردتهم في ميادين عدة لمدة طويلة بحيث لم يعد لديهم القدرة على ممارسة سلطتهم السياسية في ساحل شرق إفريقية بعد طرد البرتغاليين منها، فاقتنعوا بالفتح واكتفوا بالسيادة الاسمية على المناطق المفتوحة أكثر من كونها سيادة فعلية.[٣]

---

١) يناقض (باثرست Bathurst) نفسه فيما يتعلق بهذا السبب بالذات، فنراه تارة يقول : «حال الانشغال الكامل بأحداث الهند والخليج الفارسي في مطلع القرن الثامن عشر دون وجود حضور قوي لسلطة الإمامة العمانية في ساحل شرق إفريقية» بينما نراه في موضع آخر يقول : «إن التغيير في الاتجاه بالنسبة للشعوب السواحلية يبدو وكأنه جاء نتيجة لتناقص اهتمام العمانيين بهم الذين كانوا يجدون أن القرصنة في أي مكان آخر أكثر نفعاً لهم من تدعيم وجودهم في ساحل شرق إفريقية.» انظر : op.cit, pp. 260–64.

٢) انظر الصفحة ٤١٢ ومابعدها.

3) Krapf, L., op.cit, p.529.

وفي اعتقادي أن هذا السبب قد جانب الصواب، فالمعروف أن العمانيين بعد استعادتهم للقسم الشمالي من ساحل شرق إفريقية بعد طرد البرتغاليين منه أصبحوا قوة مرهوبة الجانب في المحيط الهندي، ولم تكن تنقصهم القوة العسكرية أو القدرة السياسية لممارسة دور قوي في تلك المناطق، لاسيما وأن ساحل شرق إفريقية لم يعرف بعد من قبل القوى الأوربية الأخرى.

أما السبب الثالث : فيعزوه أحد الباحثين إلى الاهتمام والعمل الشخصي للإمام (سيف بن سلطان الأول) في الأمور التجارية، وينحى باللائمة عليه حيث إنه أولى اهتماماً كبيراً للتجارة وأنه عمل شخصياً بها الأمر الذي جعله يعزّز علاقاته مع الهند ويسخر أسطوله لحماية تلك التجارة مما أدى إلى صرف اهتمامه عن ساحل شرق إفريقية وتركه عرضه للمحاولات البرتغالية التي تريد إعادة فرض سيطرتها على تلك المناطق.[1]

والواقع أنه يمكن الأخذ بما يقال عن الاهتمام والعمل الشخصي بالتجارة من قبل الإمام (سيف بن سلطان الأول) إلاّ أن الشيء الذي لايمكن قبوله هو أن يؤدي ذلك إلى صرف اهتمامه عن ساحل شرق إفريقية، حيث إن ساحل شرق إفريقية سيعطيه ويعطي عمان مجالاً كبيراً ورحباً للتجارة، لاسيما وأن تلك المناطق لم تشهد المنافسات الدولية بعد، ولاتزال مصدراً هاماً للتجارة وبخاصة (العاج والصمغ والأخشاب والجلود) وغيرها، إضافة إلى ماسيحمله التجّار والسفن العمانية من بضائع لتصريفها في أسواق ساحل شرق إفريقية.

---

1) Bathurst, R. D., op.cit, p.205.

لذا فإنه يظل - في تقديري - خطر الأطماع والتحالفات الأوربية الفارسية أقوى الأسباب وأهمها والتي صرفت اهتمام عمان عن ساحل شرق إفريقية بعد سقوط (ممباسه) وإجلاء البرتغاليين عن القسم الشمالي من الساحل عام ١١١٢هـ / ١٧٠٠م والتي عبّر عنها الأسقف العام الكرملي في فارس بقوله: «لايوجد أحب على قلب ملك فارس من الاستيلاء على مسقط أو رؤيتها تحت حكم عاهل مسيحي.»[١]

فقد شهد الخليج العربي في النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري مطلع القرن الثامن عشر الميلادي نمواً متزايداً للقوى الأجنبية وبعض القوى المحلية في نفس الوقت الذي بلغت فيه القوة العمانية أوجها، وأصبح من المحتم أن تصطدم القوة العمانية بتلك القوى التي تبحث عن ترسيخ نفوذها، وقد سبق أن ذكرنا أن أقوى الأسباب التي أعاقت مواصلة الجهاد العماني في ساحل شرق إفريقية هو انشغالهم بالأحداث والمستجدات في الخليج العربي، الأمر الذي جعل ساحل شرق إفريقية عرضة لمحاولات برتغالية متكررة للسيطرة عليه مرة أخرى.

والواقع أن أهم تلك الأحداث في الخليج هي المطامع والتحالفات الفارسية الأوربية ضد عمان، أو الجهود التي قادتها (فارس) لحشد التأييد وطلب المساعدة الأوربية للسيطرة على الساحل العماني وتدمير القوة العمانية، وتجدر الإشارة إلى أن فارس ومنذ عهد الشاه (عباس الكبير) قد حاولت أن تحقق لنفسها التفوق في الخليج، ومنذ بداية النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري - السابع عشر الميلادي تمكنت فارس من التغلغل في الخليج العربي جنوباً وغرباً، حيث تمكنت من تأكيد سيطرتها على تلك السواحل خلفاً للسيطرة البرتغالية مدعومة بتأييد

---

1) The Carmolitis, Vol.II, p.526.

ومساعدة سلطات شركة الهند الشرقية الإنجليزية والتي كانت تؤيد فارس في تغلغلها في الخليج، لأن الشركة الانجليزية كانت تمارس نشاطاً اقتصادياً وتجارياً في فارس وبخاصة في المقاطعات الجنوبية،[1] ولذا فإن الانجليز كانوا حريصين على تأكيد السيطرة الفارسية على السواحل الشرقية للخليج العربي الذي سينعكس بالفائدة الاقتصادية على الشركة الانجليزية، إضافة إلى أن التأييد الإنجليزي ذاك قد ساعدهم إلى حد كبير على منافسة الهولنديين، وإضافة إلى عامة الدعم الانجليزي فإن عدم وجود تنظيمات عربية قوية خلال فترة السيطرة الاستعمارية البرتغالية قد ساعد فارس على تحقيق السيطرة على تلك المناطق.[2]

لقد بدأت فارس في حشد التأييد ضد عمان في وقت مبكر من تولي الإمام (سيف بن سلطان الأول) وبالتحديد بعد الهجوم الذي شنه العمانيون على المركز البرتغالي في (كونج) عام ١١٠٧هـ / ١٦٩٥م - والذي سبق ذكره، حيث كتب الإمام (سيف) إلى شاه فارس في تلك الفترة (سلطان حسين) يطلب منه أن يقوم بتسليم جميع البرتغاليين الموجودين في فارس، وأن يسلم أحد التجار العرب الموجود في فارس والمشكوك في تعامله مع البرتغاليين، وأخيراً أن يمنح الشاه إمام عمان الإمتيازات التي يتمتع بها البرتغاليون في (كونج).[3] وقد تعهد الإمام (سيف) من جانبه بإعداد

---

١) لمزيد من التفصيل عن الدعم الذي قدمته شركة الهند الشرقية الانجليزية لحكومة فارس في عهد الشاه (عباس الكبير) انظر :

Saldanaha, J. A., East India Companys, op.cit;

جمال قاسم، الخليج العربي، ص ١١٦.

٢) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ١٨٦ - ١٨٧.

٣) انظر صفحة ٣٨٠ حاشية ٢ ، وانظر كذلك: أحمد شلبي، تاريخ عمان ونشاطها الداخلي، ص ٥٠؛ لوكهارت، التهديد العماني، ص ٩١؛ محمد عبدالله العزاوي،

أسطول عسكري يتكون من عشرين سفينة من أجل المحافظة على أمن الخليج العربي، وأنذر بأنه في حالة عدم الاستجابة لطلباته فإنه سيقوم بمهاجمة (جمبرون) (بندر عباس) الميناء الرئيس لبلاد فارس، والاستيلاء عليه.[1] وبالرغم من أن هذا الهجوم على (كونج) القصد منه تدمير المركز البرتغالي في هذا الميناء في المقام الأول، إلاّ أنه أيضاً موجه إلى الفرس لأن العمانيين قد ساءهم تعاون حكومة فارس الصفوية مع البرتغاليين منذ أمد بعيد، بل إن العمانيين ينظرون إلى حكومة فارس أنها بمثابة الثغرة الضعيفة في الجدار الإسلامي.

وقد كان من الطبيعي أن تتأثر التجارة الفارسية والبرتغالية على وجه الخصوص نتيجة ذلك لدرجة أن التجار البرتغاليين أخذوا يغادرون ميناء (كونج) وأقفلت عدة وكالات برتغالية أبوابها، أما التجار الفرس والأرمن فقد اضطروا إلى الإحتماء بسفن الشركات الأوربية وبخاصة الانجليزية والهولندية إما عن طريق تأجير السفن أو عن طريق تولي الشركات المذكورة نقل بضائعهم وبخاصة بعدما جدد الإمام (سيف) انذاره إلى الشاه بتلبية المطالب السابقة.[2]

وأمام هذه التطورات اتفق شاه فارس مع البرتغاليين على دعوة الإنجليز لمساعدتهم، وتوجه الشاه إلى «برنكوين Branqwin» وكيل شركة الهند الشرقية الانجليزية في فارس وطلب منه أن تقوم سفن الشركة بالدفاع عن (بندر عباس) في حالة هجموم العمانيين عليها مشيراً إلى

التحالفات الفارسية الأوربيّة ضد عرب الخليج (١٦٩٥ - ١٧٢٢)، مجلة الخليج العربي، المجلد التاسع عشر، السنة الخامسة عشرة، العدد الأول، البصرة ١٩٨٧.

١) المرجع نفسه، ص ٥١.

2) Kroell, L. La Perse et Mascate, (Paris, 1977), p.13;

العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج، ص ٩٩.

التحالف الانجليزي الفارسي (وهذا تلميح إلى العمليات المشتركة ضد البرتغاليين في هرمز عام ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م)، ولكن هذا الطلب قوبل بالرفض من قبل الشركة بحجة عدم التزام فارس بعلاقاتها التجارية مع الإنجليز، وأن فارس لم تف بالتزاماتها تجاه بريطانيا بموجب التحالف وذلك بامتناعها عن تسليم الشركة حصصها السنوية من جمارك (بندر عباس) منذ أكثر من ثلاث سنوات.(١)

ولكن الفرس كرروا طلبهم السابق للإنجليز، وحاولوا إزالة الشكوك لديهم وذلك بأن عرضوا عليهم خطة للاستيلاء على (مسقط) مؤكدين أنه في حالة موافقتهم على إرسال سفن للدفاع عن (بندر عباس) فإن الشركة سوف تتمتع في (مسقط) بالامتيازات نفسها الممنوحة لها في (بندر عباس)،(٢) ولاشك أن هذا العرض كان مغرياً للانجليز، إلاّ أنهم ترددوا في قبوله لسببين: فمن جهة كانوا يخشون من أن يقدم الفرس هذا الطلب لمنافسيهم الهولنديين فتتاح الفرصة لهم كي يتفوقوا عليهم في المنافسة التجارية، ومن جهة أخرى لايريدون الدخول في صراع مع العمانيين ماداموا لم يتعرضوا للسفن الانجليزية حتى الآن، ولهذا وقفوا على الحياد في هذه المشكلة.(٣)

---

1) Bruce, J., op.cit, vol. III, pp. 169-70.

العزاوي، التحالفات الفارسية الأوربية ضد عرب الخليج، ص ٥٢.

٢) جمال قاسم، الخليج العربي، ص ١١٧؛

الحمداني، مقاومة العمانيين للحملات الفارسية على بلادهم، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد السابع والثلاثون، الكويت ١٩٨٤، ص ١١٢.

٣) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ١٣٢ - ١٣٣؛ مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ٢١٠؛ العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج، ص ٩٩.

ولكن خوفاً من أن يتحول الفرس إلى الهولنديين فإن رئاسة الشركة في الهند حثت (لندن) على الموافقة على مايسمى عملية حفظ السلام في الخليج قائلين: «بأن ذلك سيعطيكم مكانة أكبر وسمعة لدى ملك فارس والمغول وذلك بإرسالكم سفناً إلى الخليج في هذا الوقت الذي تتعرض فيه التجارة هناك إلى الإضطراب من قبل العرب والقراصنة، ومن المحتمل أنه إذا ماساعدنا الفرس في حملتهم (التي نسمع أنها ستكون ضخمة ضد العرب) فإن المبالغ المتأخرة لسعادتكم عند ملك فارس سيتم سدادها كما أن تجارتكم المتعاظمة سوف يتم تشجيعها - إضافة إلى أنه سيتم القضاء على وكر للقراصنة.»[١]

وإزاء هذا التطورات، ونظراً لأن الإنجليز وغيرهم من الأوربيين أخذوا لايفرقون - وربما عن عمد - بين الهجمات العمانية ضد البرتغاليين، وبين مايمارس في تلك المناطق من قرصنة فردية، فقد كتب الإمام (سيف بن سلطان) رسالة إلى رئاسة الشركة الانجليزية في (بمباي) والتي نفى فيها الإمام إضطلاع الحكومة العمانية فيما تعرضت له بعض السفن الانجليزية من مصادرة، ومؤكداً أنه ليس في نية عمان الإضرار بالعلاقات مع الانجليز كما أكد أيضاً حرصه على بقاء الصداقة العمانية الانجليزية..[٢]
والواقع أن وقوف الانجليز على الحياد دفع البرتغاليون للمرة الثانية إلى ترويج شائعات بأن الإنجليز يساعدون العمانيين سراً، حيث يلجأ العمانيون

1) (10R). E/3/51, 6039, Letter Bombay to London 13 May 1695.

2) (10R). E/3/51, 6044, 16 May 1695.

رسالة من الإمام (سيف بن سلطان الأول) إلى رئاسة شركة الهند الشرقية الإنجليزية في (بمباي) في الخامس عشر من شهر شوال عام ١١٠٦هـ / السادس عشر من مايو ١٦٩٥م.

لمزيد من التفصيل انظر الملحق رقم (٣- ب)

إلى رفع العلم الانجليزي على سفنهم، وإن عدداً من الضباط الانجليز يقودون السفن العمانية لتجنب وقوعها في قبضة الغير وليتمكنوا من تحميلها بالبضائع المهربة، الأمر الذي أدى إلى هذا التطور السريع للبحرية العماينة.[1]

ونظراً لإحجام الإنجليز عن مساعدة فارس، فقد اتجه هؤلاء إلى الهولنديين للحصول على مساعدتهم العسكرية بهدف الإستيلاء على (مسقط) ولاشك من أن مشروع الشاه يعتبر مغرياً للهولنديين إلاّ أن أي من تلك القوى لايرغب بالدخول في حرب لايمكن التنبؤ بنتائجها، ويبدو أن الهولنديين آثروا المحافظة على مصالحهم في الخليج وعدم تعريضها للخطر.[2] ولاشك أن هذه التطورات قد أخرت القيام بأي عمل ضد البرتغاليين في ساحل شرق إفريقية، بل إنها لم تمكن عمان من تلبية النداءات المتكررة من المسلمين لطلب المساعدة من عمان.

ظل العجز المالي لدى حكومة فارس حائلاً دون تحقيق رغباتها، ففي الوقت الذي أبدى فيه البرتغاليون استعداداً للتعاون معهم ومدهم بالسفن الحربية وسفن نقل الجنود إلى (مسقط) مقابل مبلغ مالي كبير وتسهيلات في (مسقط) بعد الاستيلاء عليها، إلاّ أن ذلك لم يتم حيث لم تستطع حكومة فارس توفير المال المطلوب ولم تستطع أيضاً حشد العدد اللازم من

---

1) (10R). I/3/142, Documentos, Pombal. MS. 439, fol 48, Letter Viceroy to King 1 March 1697.

2) Bathurst, R.D, op.cit, p.195;

العزاوي، التحالفات الفارسية الأوربية ضد عرب الخليج، ص ٥٣.

الجنود.[1] وبهذا أخفقت خطتهم في جذب القوى الأوربية إلى صفهم ويعزى ذلك إلى أن سياسة تلك القوى وبخاصة الانجليزية والهولندية في تلك الفترة ترتكز على النواحي التجارية البعيدة عن الاحتكار، وتصرف جهودها إلى تأسيس الشركات والمستعمرات التجارية، إضافة إلى أن تلك القوى لاترغب في الاحتكاك مع العمانيين طالما أنهم لم يقوموا بعرقلة تجارتهم في الوقت الذي ينظرون فيه بامتعاض إلى تزايد القوة البحرية العمانية وكأنها باتت خطراً يهدد مصالحهم في المستقبل وبخاصة الانجليز.

عندما علم الإمام (سيف بن سلطان) بالنوايا البرتغالية الفارسية بالهجوم على (مسقط) عزم على توجيه ضربة للمراكز البرتغالية في الساحل الهندي، حيث شن هجمات متتالية على تلك المراكز، وركز على مقاطعة (منغلور) التي تعتبر السوق الرئيس للبرتغاليين في الساحل الهندي، وأسهمت تلك الهجمات في إجهاض الإتفاق البرتغالي الفارسي، ووجد البرتغاليون أنفسهم بحاجة إلى مساعدة لدرء الخطر عنهم وعدم خسارتهم لمراكزهم هناك.[2] وبذلك يئس الفرس من مساعدة البرتغاليين، وأصبح

---

١) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ٢١٠؛

Kroell; A., op.cit, p.14.

٢) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ١١٧؛ لوكهارت، التهديد العماني، ص ٩١؛

يعزو (هملتون) هذا الهجوم العماني على (منغلور) بأنه لايدخل ضمن الحرب الدائرة بين العمانيين والبرتغاليين، بل يعزوه إلى خلاف وقع بين التجار العرب، وحاكم (منغلور) الهندي، كما أنه يشير إلى أن هذا الهجوم وقع عام ١١٠٧هـ / ١٦٩٥م وليس عام ١١٠٨هـ / ١٦٩٦م، والواقع أن هذا الهجوم هو الثاني بعد الهجوم الأول الذي وقع عام ١١٠٧هـ / ١٦٩٥م، انظر:

op.cit, vol, I, p.175.

يتعين عليهم البحث عن قوة أخرى، ولم يتبق لهم إلا طلب المساعدة من فرنسا [1] التي تحاول في تلك الفترة أن تجد لها مكاناً بين تلك القوى، وبخاصة بعدما رفض الإنجليز والهولنديون التعاون معهم. وذلك عندما اتجه الشاه إلى فرنسا عام ١١١١هـ / ١٦٩٩م أي بعد سقوط (ممباسه) في ساحل شرق إفريقية مباشرة، اتصل الشاه بفرنسا عن طريق الأب (مارتن جوديروMartin Goudereao) مبعوث البابا (أنوسنت الثاني عشرInuo Cent

---

١) بدأ تطلع الفرنسيين بالتوجه إلى الشرق عام ١٠١٠هـ / ١٦٠١م عندما حاول أحد المغامرين الفرنسيين اجتياز رأس الرجاء الصالح، وتبددت أحلامه بتحطم سفينته أمام (جزر المالديف) بالقرب من سواحل الهند الجنوبية، ثم قام الفرنسيون بتأسيس شركة الهند الشرقية الفرنسية عام ١٠١٣هـ / ١٦٠٤م ولكنها بدأت أضعف من أن توجد لها مكانا في الشرق، وأبدى الفرنسيون بعد ذلك اهتماماً جدياً بتجارة الشرق وقاموا بإرسال بعثة إلى (الشاه عباس) شاه فارس لمحاولة عقد معاهدة تجارية معه، واتجهت البعثة عن طريق البر ولكنها انتهت (بالقسطنطينيه)، ولم تكتمل هذه الرحلة بسبب الخلاف الذي حدث بين رئيس البعثة «دي شيش De Shayes» والسفير الفرنسي لدى البلاط العثماني، وبعد ذلك وصل إلى فارس راهبان فرنسيان رحب بهما الشاه ولكن ذلك لم يتمخض عن إقامة علاقات بين البلدين، ومن ثم حاول الفرنسيون إحياء الشركة من جديد، كما قاموا أيضاً بإرسال بعثة إلى حكومة فارس عام ١٠٧٥هـ / ١٦٦٤م والتي نجحت في الحصول من الشاه على إعفاء البضائع الفرنسية من الرسوم الجمركية لمدة ثلاث سنوات، كما حصلت تلك البعثة أيضاً على امتيازات مماثلة لتلك التي يتمتع بها الانجليز والهولنديون، وأقام الفرنسيون بعد ذلك وكالتين تجاريتين إحداهما في (بندر عباس) والأخرى في (أصفهان)، غير أن علاقة الفرنسيين بالشرق لم تكن في هذه الفترة وثيقة إلى درجة كبيرة رغم أنهم نشطوا في بعث المنصرين الذين وصلوا إلى فارس و (بغداد) و (البصرة)، تباعاً منذ وقت مبكر أي في عام ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م، ولكن نشاطهم لم يسفر عن نتائج تذكر.
لمزيد من التفصيل عن بداية الإهتمام الفرنسي في الشرق انظر :
لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ٩١؛
عبدالعزيز عبدالغني، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، ص ٦٤ - ٦٥.

XII) إلى (أصفهان) لحل الخلافات الدينية بين الأرمن والكاثوليك.[1]

لقد كشفت الحكومة الفارسية لهذا المبعوث عن قلقها تجاه قوة العمانيين المتنامية كما طلبت مساعدة عسكرية فرنسية للاستيلاء على (مسقط) نظير أن تدفع حكومة فارس نصف عائدات جماركها لفرنسا إذا تم الاستيلاء عليها، كما ستمنح فارس لفرنسا امتياز حرية التجارة في البلاد الفارسية، واعفاءها من دفع الرسوم الجمركية في الموانىء الفارسية، كما أشار الشاه إلى أن هذا المشروع يحتاج إلى (٣٠٠٠٠) جندي فارسي وإلى أسطول فرنسي يحملهم إلى مسرح العمليات، وإضافة إلى ذلك تكون نفقات الحملة وكل غنائمها من (مسقط) مناصفة بين الدولتين بما فيها الحصون المطلة على البحر وكذلك الموجودة في اليابسة.[2]

قدم (مارتن جوديرود) هذه المقترحات إلى مسؤول شركة الهند الفرنسية في (سورات) (بيلا فوانPila Voine) الذي قدمها بدوره إلى الحكومة الفرنسية مشفوعة برأيه الذي عبر عنه بقوله: «إن عرب مسقط قد أظهروا نواياهم الطيبة تجاه فرنسا، كما أظهروا أيضاً تعاوناً جيداً خلال تعاملهم مع الشركة، وأن الحكومة الفرنسية سترتكب خطأ جسيماً إن هي وافقت على هذا المشروع الذي سيحتاج إلى قوة كبيرة ونفقات باهظة مقابل الفوائد المحدودة التي يمكن لفرنسا الحصول عليها في حالة نجاحه.»[3]

---

١) العزاوي، التحالفات الفارسية الأوربيّة ضد عرب الخليج، ص ٥٣.

٢) لوكهارت، التهديد العماني، ص ٩٢.

٣) علق (لوكهارت) على تلك المقترحات بقوله: «إن هذه الاقتراحات تعد صفقة جيدة أكثر سخاء من تلك التي سبق وأن منحت للإنجليز» ولم يذكر آراء (بيلافوان) مسؤول الشركة الفرنسية في (سورات) والتي علق بها على تلك المقترحات، بل أن (لوكهارت) ذكر أن تلك المقترحات لم ترسل أصلاً إلى الحكومة الفرنسية حيث ليس لها ثمة أثر

وبالرغم من أن الحكومة الفرنسية لم تستجب على الفور لطلب الحكومة الفارسية إلاّ أنه من المؤكد أن طلباً كهذا من شأنه أن يسبب إزعاجاً لإمام عمان وللعمانيين جميعاً نظراً لتجاربهم المريرة مع الفرس، ومن المؤكد أيضاً أن تلك الأنباء جعلت العمانيين يترقبون حدوث شيء ما ضدهم.

لم تقم فرنسا بأي شيء عملي تجاه المقترحات الفارسية، في وقت أخذت فيه تنمّي اتصالاتها مع حكومة فارس بشأن توثيق عرى الصداقة بينهما، ففي هذا الصدد وصل مبعوث فرنسي إلى (أصفهان) هو (جان بيلون Jean Billon) الذي قابل الشاه عام ١١١٣هـ / ١٧٠١م، حيث أبدى الشاه لهذا المبعوث امتعاضه من القوة العمانية، وعبر عن رغبته في توطيد علاقات بلاده مع فرنسان، كما سلم الشاه إلى (بيلون) رسالة إلى ملك فرنسا (لويس الرابع عشر) تتضمن إقامة علاقات صداقة بين البلدين وتبادل السفراء، وأكد فيها الشاه أنه سيولي التجار الفرنسيين عنايته الخاصة وحمايته، كما وعد أيضاً بأن حكومة فارس ستمنح فرنسا امتيازات خاصة وكبيرة إن هي قامت بإرسال سفن حربية كبيرة لحماية الشواطىء الفارسية من التهديدات العمانية، وقد قدم المبعوث الفرنسي تلك الرسالة إلى حكومته

في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية. والواقع أن تلك المقترحات قد أرسلت فعلاً إلى الحكومة الفرنسية ويؤيد ذلك (محمد عبدالله العزاوي) الذ ي أشار إلى أنه اطلع على تلك المذكرة في الأرشيف الوطني (بباريس) تحت الوثيقة رقم:

Archives Nationales. Colonles, C2 66. pilavaine a Pontchartrain, 15 Jan. 1700.

انظر :

لوكهارت، التهديد العماني، ص ٩٢؛ العزاوي، التحالفات الفارسية الأوربية ضد عرب مسقط، ص ٥٤.

عام ١١١٤هـ / ١٧٠٢م.[١]

لقد أثمرت جهود (بيلون) لدى ملك فرنسا عن إرسال سفير فرنسي إلى فارس هو (جان فابر Jean Fabre) عام ١١١٧هـ / ١٧٠٥م، حيث توجه إلى فارس ولديه تعليمات بتقديم طلب إلى الشاه بمنح فرنسا امتيازات تماثل الامتيازات التي يتمتع بها الإنجليز والهولنديون في فارس نفسها، ولم يقدّر (لفابر) أن يقابل الشاه فقد توفي قبل ذلك، ويعتقد بأن الإنجليز والهولنديين مسؤولون عن موت (فابر) حيث أنهم كانوا يعتقدون أنه لم يُرسل إلاّ لتقديم مساعدات فرنسا ضد العمانيين وبالتالي حصول فرنسا على امتيازات تجارية كبيرة على حسابه.[٢]

ونتيجة للإلحاح الفارسي ورغبة فرنسا بإيجاد موطىء قدم لها في الخليج فقد وصل إلى فارس (بيير فكتور ميشيل Pierre Victor Michel) عام ١١٢٠هـ / ١٧٠٨م مبعوثا من ملك فرنسا إلى شاه فارس حيث تم عقد معاهدة تجارية بين الطرفين، وقد كرر الفرس طلبهم السابق بالحصول على مساعدات عسكرية فرنسية ضد العمانيين.[٣] ويذكر (ميشيل) أن المفاوضين الفرس قد قالوا له: إذا رغبتم في تجنب دفع أية ضرائب فعليكم أن تتعهدوا بحماية سواحلنا من الأعداء، سنقوم بطرد الإنجليز والهولنديين والبرتغاليين وستصبحون أنتم الوحيدون الذين تمارسون

---

1) A.A.E. Mem. et Documents, Perse, vol, 8, p.27.

أنظر الملحق رقم (٤-أ).

٢) العزاوي، التحالفات الفارسية الأوربية ضد عرب مسقط، ص ٥٤.

3) A.A.E. Corr. pol. perse, vol.2, pp. 24-25. Michel Au Gauvernement Francais, 28 Aut 1708.

التجارة في فارس.[1] والواقع أنه رغم المكائد الانجليزية والهولندية فقد نجح (ميشيل) في إبرام معاهدة لم تتعرض إلى أي موضوع غير التجارة، إلاّ أن (ميشيل) قد وعد الحكومة الفارسية بإرسال قوات بحرية فرنسية إلى الخليج لحماية الشواطىء الفارسية من الهجمات العمانية المتوقعة، و رغم أن المعاهدة لاتشير إلى تقديم مساعدة عسكرية إلى فارس بإستثناء الوعد الشفهي الذي وعد به (ميشيل) إلاّ أنه تم اقرارها فوراً من قبل الحكومة الفارسية، بينما لم تصادق عليها فرنسا إلاّ في عام ١١٢٣هـ / ١٧١١م وذلك بسبب انشغالها بالأحداث في أوربا. وحتى مع ذلك فإنه لم يجر إرسال أي سفن عسكرية للحكومة الفارسية.[2]. [3] ويتراءى للمرء بأن الحكومة

1) A.A.E. Corr. pol. Perse, Vol.2, pp.35-40.

٢) يذكر جمال قاسم إستناداً على (عباس فاروقي Farroughy) أن هذه المعاهدة كانت تحتوي على بعض النصوص السرية التي تقضي بأن يقوم الفرنسيون بإرسال أسطول لمساعدة فارس في احتلال (مسقط). ويبدو أنه يشير بذلك إلى الوعد الشفهي الذي وعده به المبعوث الفرنسي للمفاوضين الفرس، ومابين أيدينا من وثائق تتعلق بهذه المعاهدة لاتشير إلى أي نص يتعلق بالدعم المذكور. انظر: جمال قاسم، الخليج العربي، ص ١١٨.

٣) دفع التباطؤ الفرنسي عن تقديم المساعدة العسكرية لفارس دفع الشاه إلى اتخاذ المزيد من الإجراءات لتحقيق التحالف العسكري مع فرنسا، وذلك عندما قرر إرسال (محمد رضا بك) حاكم منطقة (أريفان) مبعوثاً إلى فرنسا آملاً في تحقيق نتائج أسرع، وقد اجتمع (محمد رضا بك) مع ملك فرنسا (لويس الرابع عشر) عام ١١٢٧هـ / فبراير ١٧١٥م وقد تم إعداد ملحق معاهدة تجارية، وقد لفت المبعوث الفارسي انتباه وزراء الملك الفرنسي إلى الوعد الشفهي الذي قدمه (ميشيل) عام ١١٢٠هـ / ١٧٠٨م بأنه سيتم إرسال سفن حربية لمساعدة فارس في إحتلال (مسقط) وقد تم توقيع ملحق المعاهدة في أغسطس من العام نفسه والتي لم تتضمن أي بند يخص مسألة (مسقط)، وغادر المبعوث الفارسي فرنسا ومات منتحراً فور وصوله إلى فارس عام ١١٣٠هـ / مايو ١٧١٧م وذلك بعد أن شعر أنه قد تجاوز

الفرنسية تريد تحقيق مكاسب تجارية وسياسية على حساب تلهف الحكومة الفارسية للعون العسكري، ويؤخذ على حكومة فارس في هذا الصدد تطلعها الدائم إلى طلب المساعدة من الدول الأجنبية في وقت كان بإمكانها التفاهم مع القوى المحلية الإسلامية، الأمر الذي جعلها جسراً تعبر من خلاله القوى الأجنبية لتحقيق أغراضها الاستعمارية في المنطقة.

وقد واكب الجهود الرسمية التي بذلتها الحكومتين الفارسية والفرنسية في سبيل الوصول إلى تفاهم مشترك لضرب القوة العمانية واحتلال (مسقط) - واكبها - جهود فرديّة حثت فرنسا على الاستجابة

الصلاحيات التي منحت له، وعندما تم عرض ملحق المعاهدة على الحكومة الفارسية عام ١١٣١هـ / ابريل ١٧١٨م بواسطة المبعوث الفرنسي (جاردان Gardane) أكدت الحكومة الفارسية بأن المعاهدة لن يجر بحثها مالم تصل السفن الحربية الفرنسية أولاً، ولذا فقد فوضت الحكومة الفرنسية (بادري Padery) لبحث بنود معاهدة جديدة أو اقناع الحكومة الفارسية بالتصديق على المعاهدة السابقة مع تقديم وعد لفارس بأن تقوم فرنسا بإرسال ثمان سفن حربية تحمل كل منها من ٥٠ - ٦٠ مدفعاً للدفاع عن الشواطىء الفارسية واحتلال (مسقط)، وعندما وصل (بادري) إلى فارس عام ١١٣٣هـ / أغسطس ١٧٢٠م كان الخوف الفارسي من التهديد العماني قد زال، حيث تحول اهتمام العمانيين إلى الصراع على السلطة إثر وفاة الإمام (سلطان بن سيف الثاني) وأصبح الفرس من جانبهم أكثر انزعاجاً من خطر الغزو الأفغاني، فلم يستطع (بادري) الحصول على الموافقة لإقامة تحالف عسكري، وقد وصلت السفن الفرنسية التي طال انتظارها إلى (جمبرون) عام ١١٣٤هـ / صيف عام ١٧٢١م ولكن بعد أن أصبحت (أصفهان) تحت الحصار الأفغاني.

لمزيد من التفصيل انظر :

A.A.E., Corr. pol. perse, vol,3, pp. 386-88;

لوكهارت، التهديد العماني، ص ٩٤؛ العزاوي، التحالفات الفارسية الأوربية ضد عرب الخليج، ص ٥٦ - ٥٧.

لمقترحات وتطلعات الحكومة الفارسية فقد كتب أحد المبعوثين الفرنسيين تقريراً للحكومة الفرنسية تناول فيه شروط التجارة مع فارس بالدراسة والتحليل وخلص إلى التوصية بإحتلال (مسقط) كما قدم عرضاً تفصيلياً لمقترحات الشاه للحصول على التحالف العسكري، وقد أضاف إلى ذلك آراءه الخاصة حول فوائد التعاون مع فارس مشيراً إلى أن العمانيين يسيطرون الآن على (ممباسه) فإذا أمكن للفرنسيين السيطرة على (مسقط) فستسقط (ممباسة) في أيديهم وسيصبح لديهم (أي الفرنسيين) القدرة على فتح الطريق إلى (أثيوبيا) وسوف يصبحون حكاماً لسواحل شرق إفريقية الشهيرة، ويضيف أن الفرنسيين كحكام (لمسقط وممباسه) سوف تكون لهم المقدرة والسيطرة على التجارة مع الهند وفارس والبحر الأحمر، وستكون لهم المقدرة أيضاً على اضطهاد الممالك المحمدية (الإسلامية) والسيطرة على تجارة (مكه)، كما ستكون لهم القدرة كذلك على اقتداء الحجاج المسلمين إلى (مكة) وقبر محمد في (المدينة)، وسوف يقومون بإعادة فرض كل الضرائب التي كان يفرضها البرتغاليون على البضائع والسلع التي ترسل إلى أسواق (مكة).[1] والواقع أن هذا التقرير برغم الآراء والاقتراحات الاستعمارية الصليبية التي وردت فيه، إلا أنه يعطي صورة شاملة عن النفوذ الذي كانت عمان تمارسه في ذلك الحين، وكذلك عن القوة الكبيرة التي ستضاف إلى أي دولة أوربية تتمكن من السيطرة على الساحل العماني، وبالتالي السيطرة على واحد من أهم المحاور الرئيسة للتجارة في الشرق.

وفي عام ١١٢١هـ / ١٧٠٩م قدم أحد المبعوثين تقريراً آخر للحكومة الفرنسية ذكر فيه الأهمية الجغرافية لمدينة (مسقط) التي تمكّنها من

1) (I) A.A.E, corr. pol, Perse, vol, 5, pp, 123–126.

السيطرة على الخليج، والتي مكنت سكانها أيضاً من امتلاك قوة بحرية كبيرة، واستطاعوا بواسطتها الحصول على غنائم ضخمة يسلبونها من عدة دول بإستثناء فرنسا وهولندا، وقد تأثرت بلاد فارس بهذه الأوضاع نظراً لعدم امتلاكها قوة بحرية، وهي تود أن تتعاون مع فرنسا في الإستيلاء على (مسقط)، وستحصل فرنسا بإستيلائها على هذا الميناء على امتيازات تجارية كبيرة في الخليج.[1] وكما ذكرنا سابقاً فإن الإتصالات المكثفة بين فرنسا وفارس والتقارير التي حثت الحكومة الفرنسية بمساعدة فارس لم تستطع أن تقنع الحكومة الفرنسية بالتحالف العسكري مع الفرس، بل إنها تعكس منذ البداية بأن الفرنسيين لم يكونوا جادين بالقيام بعمل عسكري ضد العمانيين عن طريق التحالف مع الفرس، وإنما كانوا - باعتقادي - يرمون إلى تحقيق مكاسب سياسية وتجارية مقابل وعود شفهية يصعب تحقيقها، ولكن من المؤكد أن تلك الاتصالات والمشاورات قد سببت قلقاً للعمانيين جعلهم في وضع المترقب.

لم يقتصر الامتعاض من نمو القوة العمانية على الحكومة الفارسية والمبعوثين الفرنسيين، بل كان للإرساليات التنصيرية دورها في هذا المجال، فقد كان الأسقف العام الكرملي في فارس آنذاك يظن أن فارس يمكن لها أن تلعب دوراً في خطة لإعادة الأرمن إلى حظيرة الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية) فاقترح في تلك الأثناء أنه من الممكن أن يتحقق ذلك في خطوتين، الأولى: «إذا وافق ملك فرنسا أن يمنح حرية التجارة في ممالكه سواء إلى عائلة (شاريمان Shariman) أو إلى آخرين طالما شهد لهم بأنهم من الكاثوليك، أو أنهم يرتادون الكنائس الكاثوليكية، أما الثانية فهي (مسقط) التي هي ميناء هام على الخليج الفارسي وكانت بأيدي

---

١) للمزيد من التفصيل عن هذا التقرير انظر الملحق رقم (٤-ب).

البرتغاليين إلى أن أصبحت الآن بأيدي العرب، وهؤلاء قد أحدثوا خسائر جسيمة في الساحل الفارسي، ولكن إذا أعطى ملك فرنسا وعداً بمحاصرتها والاستيلاء عليها فسيتولى بنفسه تعيين بطريرك الأرمن وهذا بدوره سيرشح المطارنة الذين سيرشحون قساوسة الأبرشية، وعندها سيصبح جميع الأرمن كاثوليكاً وسنرى بعون الله تحقيق ماتعذر تحقيقه خلال قرون طويلة رغم المحاولات التي بذلت.»[1] ورغم أن تلك المقترحات لم تلق ترحيباً في الأوساط الكنسية أو الحكومة الفرنسية آنذاك إلاّ أنها تعكس بجلاء التحديات التي كان يواجهها العمانيون في تلك الفترة التي شهدت تنامي الأطماع الأوربية لاسيما أنه قد كان للإرساليات التنصيرية وبخاصة الكرمليين مشاريع تنصيرية في الساحل العماني إبان السيطرة البرتغالية.

لقد واكب المحاولات الفارسية للتحالف مع فرنسا لاحتلال (مسقط) والتي لاشك أن العمانيين يدركون مدى خطرها لو تحققت، بل سببت قلقاً كبيراً لهم جعلهم يركزون اهتمامهم بالخليج، واكب ذلك توتر في العلاقات بين العمانيين والانجليز نتيجة حوادث متفرقة، ففي عام ١١٠٩هـ /١٦٩٧م أثناء الحصار العماني لـ (ممباسه) هاجم قراصنة انجليز عدداً من السفن التجارية العمانية في المحيط الهندي مما دفع العمانيون إلى الإنتقام، حيث هاجموا سفينة إنجليزية وقتلوا أحد عشر رجلاً، كما هاجموا

---

1) The Carmelites, op.cit, vol. II, p.526;

من ضمن المشاريع التي كانت للمنصرين الكرمليين في الساحل العماني مشروع توطين (المندائين) الذين يعتقد بأنهم نصارى والذين كانوا يقطنون بالقرب من (البصرة) حيث حددت لهم منطقة كبيرة في شمال الساحل العماني، ولكن استعادة العمانيين لتلك المناطق من أيدي البرتغاليين حالت دون المضي في ذلك المشروع.

لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر :

الفصل الثاني صفحة (٢٣٤).

السفينة الإنجليزية (لندن) واستولوا عليها وسحبوها إلى (مسقط).[1] وفي عام ١١١٢هـ / ١٧٠٠م استولى العمانيون على سفينة انجليزية أخرى قادمة من (مدراس) بالهند، وأخذت إلى (مسقط)، وفي عام ١١١٣هـ / ١٧٠١م تعرض الأسطول التجاري الإنجليزي في (سورات) لهجوم عماني في أثناء عودته من ميناء (مخا) اليمني، الأمر الذي دفع حاكم (بمباي) الإنجليزي أن يكتب إلى (لندن) قائلاً: «إن العرب المسقطيين يستولون الآن على سفننا، فقد استولوا مؤخراً على سفينة تخص هذا الميناء، وانقطعت عنا أخبار سفن ذهبت إلى فارس ومخا.».[2]

لقد رفع مجلس (سورات) تقريراً إلى (لندن) لاتخاذ مامن شأنه الحد من تلك الحوادث، ونستطيع الوقوف على حجم التحديات التي كان يواجهها العمانيون في تلك الفترة من خلال تقرير مجلس (سوارت) الذي جاء فيه: «إن القضية آخذة بإكتساب طابع الضرورة الملحة، فالقرصنة المتكررة قد أضرّت بشكل متزايد بمصداقية سعادتكم لدى الفرس، كما أن التجار الآخرين أخذو يزدرون الانجليز ويسخرون منهم ومن قوتهم وهذا مايزيد في رضى القوى الأخرى في المنطقة مثل الهولنديين فهم ربما خلال فترة وجيزة سيتمكنون من احتكار أعمال الشحن من وإلى فارس مالم يتم عمل شيء ما يردع وقاحة العرب الذين لن يترددوا في الاستيلاء على أي سفينة من سفن سعادتكم.»[3] وقد وعد مجلس المدراء في (لندن) بأنهم لن يدّخروا

---

1) Biddulph, J., The Pirates of Malaber and An English Woman in India Two Hundred Years Ago, (London, 1907), P.35;

مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص ٢١٠؛ حنظل، المفصل في تاريخ الإمارات العربية، ج ١، ص ١٠٣ - ١٠٤.

2) Bathurst, R.D., op-cit, P-198.

3) (10R). E/3/91. 8693, Letter surat to company 30 June 1705.

جهداً حال استعادة السلام واستتباب الأمن في أوربا ليس فقط لتحسين أوضاع حامية (بمباي) بل ولتجهيز سفن مسلحة لتنظيف البحار واجتثاث أوكار القراصنة وعرب (مسقط).[1]

توجه أحد المسؤولين الانجليز إلى (مسقط) للتفاوض مع العمانيين حول تلك الحوادث ولدى مناقشته الأمر مع والي (مسقط)، أجاب الوالي بأن البرتغاليين والقراصنة وكل أعدائنا يتظاهرون بأنهم من دولتكم عندما يكونون خائفين منا.[2] ولعل في ذلك إشارة إلى القرصنة الأوربية التي إنتشرت في تلك المناطق، والتي تعرضت خلالها السفن العمانية للهجوم من بعض سفن القراصنة الأوربيين، والذين يرفعون العلم الإنجليزي في بعض الأحيان، الأمر الذي دفع العمانيون إلى مهاجمة السفن الإنجليزية إما عمداً أو لعدم التفريق بين سفن القراصنة والسفن التابعة للشركة.

ومما تجدر الإشارة إليه في شأن القرصنة الأوربية أن الكابتن (كيلهام Cilham) والكابتن (كيد Ked) كانا أنموذجين للقرصنة البحرية في بحار الشرق، واستطاعا أن يتزعما طائفة من القراصنة الأوربيين وأن يحيلا الجزء الغربي من المحيط الهندي وسواحل الخليج العربي والبحر الأحمر إلى ميادين صاخبة من السلب والنهب، وأن يسببا إزعاجاً للسفن التجارية والدول البحرية، ويذكر (بيدولف Biddulph) أن هذين وغيرهم من القراصنة الأوربيين قد أُعطوا الفرصة للإبحار تحت العلم

---

1) Bruce, J., op.cit, vol. 3, p.557.
2) Lokyer, C., op.cit, p.210.

الإنجليزي.[1] ويشير (لوريمر) الذي يتهم العمانيين على الدوام بالقرصنة، يشير إلى أن الخلاف بين الشركة الانجليزية القديمة والجديدة[2] قد سبب انشقاقاً بين العاملين فيها دفعهم إلى القيام بعمليات قرصنة في المحيط الهندي والخليج العربي، إضافة إلى بعض المغامرين الإنجليز الذين عاونوا الشركة الجديدة منذ بدايتها عم ١١١٠هـ / ١٦٩٨م الذين اتخذوا من القرصنة مهنة لهم.[3] وليس من المستبعد أن هؤلاء القراصنة الأوربيين قد اصطدموا بالعمانيين مراراً ، وفي الوقت الذي تصف فيه بعض المصادر والباحثين الأوربيين الجهاد العماني بأنه قرصنة تشرف عليها حكومة الإمام، إلا أن أغلب تلك المصادر لاتأتي إطلاقاً على ذكر القرصنة الأوربية في تلك المناطق، وهذا مايتطلب إثباته بغض النظر عن تجاهل المصادر الأوربية عن هذه الحقيقة.

والواقع أن الأوربيين أخذوا يتهمون العمانيين بالقرصنة بعد أن أصبح لايروق لهم أن تخرج عمان منتصرة في جهادها ضد البرتغاليين، كما لايخدم مصالحهم حسب وجهة نظرهم أن تكون لعمان القوة المهيمنة في المحيط الهندي والخليج العربي وشرق إفريقية، وهذا أحد الباحثين

---

١) يعطي (بيددولف Biddulph) تفاصيل واسعة عن نشاط القرصنة الأوربية في بحار الشرق. انظر :

op.cit., pp.8-14.

٢) تأسست الشركة الانجليزية الجديدة عام ١١١٠هـ / ١٦٩٨م، وأعطيت إمتيازاً مماثلا للشركة القديمة، وقد حدث نزاع بين الشركتين القديمة والجديدة حول مناطق النفوذ في الهند وتضارب المصالح خلال الفترة من ١١١١ - ١١١٤ هـ / ١٦٩٩ - ١٧٠٢م، إلى أن تم التوفيق بينهما ثم دمجهما بعد ذلك بقليل. انظر: لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ٩٠ - ٩١؛ ولسون، تاريخ الخليج، ص ١٤١ - ١٤٢.

٣) دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ٩١ - ٩٢.

الانجليز وهو (باثرستBathurst) يقول في هذا الصدد: «لقد ساهمت قوة الأسطول العماني وسجله العدواني والموقع الاستراتيجي (لمسقط) ساهمت هذه العوامل مجتمعة في نشر الخوف من العمانيين، وهذا بدوره قد أدى إلى نجاحهم في كبت منافسيهم التجاريين نجاحاً ماكانت تحققه لهم أي شهرة مبنية على الشجاعة والبراعة في القتال.».[1]

إن هناك مصادر كثيرة وصفت ماكان يقوم به العمانيون من جهاد ضد البرتغاليين وغيرهم بأنه كان نوعاً من القرصنة، ولعل هذه المصادر قد تجاهلت ما ارتكبه البرتغاليون في بحار الشرق من أعمال غير إنسانية، وربما يعود ذلك إلى أن القوى الأوربية في المنطقة لايروق لها أن ترى ظهور قوى عربية إسلامية لها تأثيرها على الساحتين السياسية والعسكرية، ومن ثم لم تفرق هذه المصادر بين عمليات الجهاد البحري التي كان يقوم بها العمانيون دفاعاً عن دينهم وتحقيقاً لسيادتهم وبين ماكان يحدث من تجاوزات فردية، ومع عدم التسليم بما جاء في تلك المصادر فإنه مما يدعو إلى الدهشة أن تكون القرصنة عملاً قومياً إذا ما ارتبطت بالأوربيين أما إذا ارتبطت بالمسلمين فإنها تعد عملاً من أعمال السلب والنهب.

ويمكن الإشارة بصدد ذلك إلى ماكانت تفعله انجلترا حين عهدت إلى بعض المغامرين الإنجليز لممارسة عمليات القرصنة ضد اسبانيا، وكان أولئك القراصنة يكرّمون من قبل الحكومة البريطانية ويمنحون الألقاب العظيمة والأوسمة باعتبارهم يقومون بأعمال وطنية مجيدة، وكما حفلت سواحل الأطلسي بعمليات قرصنة كتلك شهدت بحار الهند الكثير من تلك العمليات أيضاً، ولم تكن القرصنة الأوربية في الخليج والمحيط الهندي

1) op.cit, p.202.

هي التي تخشاها الدول الأوربية وإنما كانت عمليات الجهاد العماني هي التي تخيفها في حقيقة الأمر.[١]

وقد كتب (جاردان Gardane) القنصل العام الفرنسي في فارس إلى حكومته محاولاً إقناعها بعدم التورط في القيام بعملية عسكرية ضد العمانيين وذلك عندما ألحّت فارس في طلب المساعدة الفرنسية في الهجوم على (مسقط) وكذلك الشركات والتجار الذين كانوا يتهمون العمانيين بالقرصنة، وقد جاء في رسالته: «إنه ليس من السهولة مهاجمة مسقط، فالتحصينات التي حولها قوية، وسكان المدينة كثيرون، ولديهم عددٌ كبيرٌ من السفن التي تحمل أعداداً كبيرة من المدافع ... ويضيف قائلا: «إن عرب مسقط يعملون بالتجارة مع الهند والبحر الأحمر وشرق إفريقية، وهؤلاء العرب لايطاردون الأمم الأخرى التي تحاول أن تعيش في سلام معهم وتهدف في المقام الأول العمل بالتجارة.»[٢]

والحقيقة أن رسالة (جاردان) تلك تعكس الواقع، وأنه لاصحة للمزاعم التي تقول إن العمانيين يهاجمون السفن في عرض البحر دون تفريق، بل إنهم لايهاجمون إلاّ من تعرض لهم بالأذى، ويمكن الأخذ بما قاله (جاردان) إلى حد بعيد، أولاً لأنه يمثل دولة لها مصالح في الخليج والمحيط الهندي وأنه لو كان مايثار من اتهام للعمانيين فيه شيء من الحقيقة لكان (جاردان) أول من تحدث عنها وطالب بوقفها، والثانية أنه معاصر للأحداث وقريب جداً منها حيث كان يقيم في فارس وعلى اطلاع واسع لما يجري هناك.

---

١) جمال قاسم، الخليج العربي، ص ١١٥.

2) A.A.E.Corr. pol, Perse, vol. B, pp. 4-6, Gardane au conseil de Marine, 2 Jen 1721.

وجدير بالذكر أن القوى الأوربية التي كان له وجود في المحيط الهندي والخليج العربي بدأت حملة الصاق صفة القرصنة بالعمانيين بعد الانتصار الكبير الذي حققه العمانيون ضد البرتغاليين في ساحل شرق إفريقية وطردهم منه بعد سقوط (ممباسه) عام ١١١٠هـ / ١٦٩٨م، وذلك عندما قامت كل من إنجلترا وهولندا وفرنسا برغم مابينهم من منافسات تجارية قامت تلك الدول بعقد اتفاقية بينها عام ١١١٢هـ / ١٧٠٠م وصفوها بأنها خاصة بقمع القرصنة البحرية في المحيط الهندي والخليج العربي حماية لمصالحها التجارية، حيث تعهدت إنجلترا بحماية المحيط الهندي، وتعهدت هولندا بالمحافظة على أمن وسلامة البحر الأحمر، كما تعهدت فرنسا أيضاً بالمحافظة على أمن مضيق هرمز في الخليج العربي.[1] ويشير (جمال قاسم) إلى تلك الاتفاقية معللاً الدوافع الحقيقية التي أدت إلى عقدها بأنها لم تكن القرصنة الأوربية والعربية هي التي تخشاها الدول التي وقعت على تلك الإتفاقية، وإنما كانت عمليات الجهاد البحرية العمانية هي التي تخيفها في حقيقة الأمر ولعل ذلك مادفع الدول الأوربية إلى التكتل فيما بينها رغم ماكان بينها من تنافس وذلك لإضعاف القوة البحرية العمانية.[2] ولكن هذه الإتفاقية كما ذكر (لوريمر) كانت عقيمة لاجدوى منها.[3] ويبرهن على ماذكره (جمال قاسم) هو أن تلك الدول استبعدت العمانيين عند عقد تلك الإتفاقية ولم يكونوا طرفاً فيها في وقت كانوا يتمتعون فيه بالتفوق العسكري في الخليج والمحيط الهندي، ومن المؤكد أن الحكومة العمانية كانت تدرك أبعاد تلك الإتفاقية وأهدافها ومايمثله هذا التكتل من خطر عليها الأمر

---

١) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ٩١.

٢) الخليج العربي، ص ١١٥.

٣) دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ٩١.

الذي دفع الإمام (سيف بن سلطان الأول) إلى تقوية مركزه في الخليج الذي تم على حساب التواجد القوي للعمانيين في ساحل شرق إفريقية.

والواقع أن وصف العمانيين بالقرصنة ليس إلاّ ذريعة اتخذها الأوربيون الذين كان لهم وجود في تلك المناطق وعلى رأسهم إنجلترا التي لها سجل في خلق الذرائع، فإذا كانت قد اتخذت القرصنة ذريعة للضغط على العمانيين وتحجيم دورهم بعد أن كسروا شوكة البرتغاليين وأخرجوهم من المنافسة، فقد اتخذت محاربة تجارة الرقيق ضد العمانيين أنفسهم إبان دولة البوسعيديين.[1] في أوائل القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي ذريعة للتغلغل في المنطقة واضعاف الدولة، وقبل ذلك اتخذت ذريعة القضاء على القرصنة في الخليج ضد (القواسم)[2] الذين بذلوا جهوداً مشكورة في جهادهم ضد الكفار، وقد حطمت قوتهم وسيطرت على بعض مراكزهم، وبعيداً عن العاطفة فإنه لايعقل أن تُقدِم دولة تملك قوة بحرية كبيرة إلى جانب أسطول تجاري ضخم على القرصنة في وقت بإمكانها تحقيق أغراضها التجارية بدونها.

إن القرصنة في التعريف القانوني هي كل اعتداء مسلح يقع في عرض البحر من مركب لحسابه الخاص، أما غرض القرصان فهو سلب ونهب السفن أيا كانت هويتها أو خطف وسبي الأشخاص الموجودين عليها أو

---

١) لمزيد من التفصيل عن دور بريطانيا في الهيمنة على امبراطورية (زنجبار) العمانية وتفتيتها عن طريق محاربة تجارة الرقيق انظر :
سالمة بنت السيد سعيد بن سلطان، مذكرات أميرة عربية، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسى، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م ؛ حرّاز، إفريقية الشرقية والاستعمار الأوربي.

٢) عن علاقة بريطانيا بالقواسم انظر: جمال قاسم، الخليج العربي، ص ٢٦٥ ومابعدها، عبدالعزير عبدالغني، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، ص ١٣٤ ومابعدها.

الأمرين معا، ولذلك يعتبر القرصان عدواً للجنس البشري، أما مراكب التصدي فتختلف عن مراكب القرصنة حيث تعتدي الأخيرة لحسابها الخاص لتحقيق مغانم أو أغراض شخصية بينما تقوم مراكب التصدي باسم دولة محاربة تتبعها وتعمل لحسابها بالتصدي للمراكب التابعة لدولة العدو أو الدول المحايدة فتأسرها أو تغرقها لأسباب متصلة بالحرب القائمة، ولم تعتبر مراكب التصدي من الأعمال غير المشروعة إلاّ بعد تنظيم الحرب البحرية بموجب اتفاقية (باريس) عام ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م.(١)

ونحن إذ نأخذ بهذا التعريف القانوني لايمكننا أن نضع ماكان يحدث من العمانيين أو ممن يتبعونهم إذا افترضنا أنه قد حدث موضع القرصنة إذ أنهم في حالة حرب مع البرتغاليين ومن يعاونهم وغيرهم من القراصنة الأوربيين. إذن علينا أن لاننساق خلف مايقال عن قرصنة العمانيين، بل علينا أن نتنبه إلى أن ذلك لايعدو كونه حرباً ضد دولة إسلامية حققت إنجازات كبيرة في جهادها ضد البرتغاليين.

وقد أثبت بعض المؤرخين رسالتين تبودلتا بين العمانيين والبرتغاليين تظهران أن القرصنة كانت هي المحرك الحقيقي والدافع الأساسي عند البرتغاليين بينما كان دافع الجهاد هو الروح الطيّب الدي ساق أهل عمان في دروب الفداء وقد جاء في كتاب البرتغاليين إلى الإمام (سيف بن سلطان الأول) : «الحمد لله فاطر السموات والأرض، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، إعلم بأننا جنود الله مخلوقون من سخطه، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا، فالويل كل الويل لمن لايمتثل لأمرنا، قد ضربنا البلاد، وأهلكنا العباد، وأظهرنا في الأرض الفساد» إلى قولهم .. «قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، قد ملكنا الأرض شرقاً وغربا، وأخذنا كل سفينة غصباً، فأسرعوا برد الجواب قبل أن ينكشف الغطاء ولم يتبق لكم باقية وينادي

---

١) المرجع نفسه، ص ١٣٤ - ١٣٥.

عليكم بالفناء.»

ورد الإمام (سيف) عليهم بكتاب جاء فيه: «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، إن قولكم أن الرحمة قد نزعت من قلوبكم، فهذا من أقبح عيوبكم وأشد وأشنع، وذكرتم أنكم كافرون، ألا لعنة الله على الكافرين، نحن المؤمنون حقاً لايصدنا عنكم عيب ولايدخلنا شك ولاريب، والقرآن علينا نزل فهو رحيم بنا لايزل، وجنود لنا برية وبحرية، وهممنا سامية عليّة، إن قتلناكم فنعم البضاعة، وإن قتلتمونا فبيننا وبين الجنة ساعة: ﴿ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾.[1]

لذا نخلص إلى القول إن الأوضاع في الخليج العربي والمحيط الهندي في أوائل القرن الثاني عشر الهجري - الثامن عشر الميلادي والأخطار التي بدأت تتهدد عمان نفسها سواء من الفرس ومحاولاتهم لعقد تحالف مع الدول الأوربية لضرب القوة العمانية واحتلال (مسقط)، أو من الشركات والتجار الأوربيين وذلك للحد من التفوق العسكري والتجاري العماني، كل ذلك أسهم إسهاماً كبيراً في صرف إهتمام العمانيين عن شؤون ساحل شرق إفريقية، الأمر الذي جعله عرضة لمحاولات برتغالية متكررة

---

١) باستثناء السالمي فإن المصادر العمانية لم تأت على ذكر هذه الرسالة إطلاقاً، وأما غير المصادر العمانية فقد أوردها (فلبيس وندال) مع بعض الإختلاف في عباراتها ويبدو أن ذلك ناتج عن ترجمتها من العربية إلى الإنجليزية ومن ثم من الانجليزية إلى العربية مرة أخرى، حيث ان الرسالة الأصلية التي أوردها السالمي يتضح أنها أرسلت إلى الإمام (سيف بن سلطان الأول) باللغة العربية وليس من المستبعد أن كاتبها وصائغ عبارتها عربي نظراً لأنه ساق آيات من القرآن الكريم.
لمزيد من التفصيل عن تلك الرسائل انظر: السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٩٠ - ٩١، فلبيس وندال، تاريخ عمان، ص ٦٥، كما انظر الملحق رقم (٥).

لإعادة سيطرتهم عليه.

وفي خضم تلك التطورات توفي الإمام «سيف بن سلطان الأول) في الثالث من رمضان عام ١١٢٣هـ الموافق الخامس عشر من اكتوبر ١٧١١م بعد حياة مليئة بالجهاد، ودفن (بالرستاق)،[١] وقد قال عنه ابن رزيق: «فلم يزل سيف بن سلطان إماماً عادلاً، منصفاً بين الرعية، راداً قويهم عن ضعيفهم، وأذعنت له القبائل من عمان وغيرها من الأمصار، وحارب النصارى في أوطانهم، وأخرج بعضهم من قراهم فاستلم منهم (ممباسه والجزيرة الخضراء (بمبا) وبتّة وكلوة)، وغيرها من البلدان وعمّر عمان وأجرى فيها الأنهار، وغرس فيها النخيل والأشجار، وقويت عمان به وصارت خير دار[٢].» [٣]

---

١) الأزكوري، كشف الغمة، ص ١١٢؛ المعولي، قصص وأخبار جرت في عمان، ص ١١٩ - ١٢٠؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٨٥؛ المعمري، عمان وشرقي إفريقية، ص ٦٧.

٢) الفتح المبين، ص ٢٩٥.

٣) تولى الإمامة بعده ابنه الإمام (سلطان بن سيف الثاني ١١٢٣ - ١١٣٢هـ / ١٧١١ - ١٧١٩م) وقد وصلت الأوضاع في الخليج أعلى درجة من التعقيد، وبلغ الخلاف مع فارس حداً جعل هذا الإمام يكثف نشاطه البحري في الخليج، حيث سيطر على (البحرين) وعلى جزيرتي (قشم ولاراك) وفرض حصاراً قوياً على (هرمز)، ولكن لم يكن لساحل شرق إفريقية نصيب يذكر في سياسة هذا الإمام سوى التبعية الإسمية لأمراء وحكام المدن هناك إلى عمان ودفع المقرر السنوي عليهم، وقد أدت وفاته إلى حدوث واحدة من أسوأ الأزمات التي شهدتها عمان في تاريخها الحديث، فقد كانت بداية لحرب أهلية طاحنة، نتيجة انقسام في الرأي حول اختيار خليفة له بين شيوخ القبائل الذين يؤيدون السلالة اليعربية، وبين علماء الدين الذين يلتزمون بمبدأ الانتخاب، وقد تطور هذا الخلاف إلى انقسام بين القبائل (السنيّة) والتي عرفت (بالغافرية) نسبة إلى (محمد بن ناصر الغافري) الذي تزعم هذا التيار، وبين القبائل

والواقع أن الإمام (سيف بن سلطان الأول) هو آخر الأئمة العمانيين من أسرة اليعاربة الذين لعبوا دور بارزاً في تاريخ شرق إفريقية إبان السيطرة البرتغالية، بل يعود الفضل إليه بعد الله في تصفية الوجود البرتغالي هناك، وبدء مرحلة جديدة في إنتشار الإسلام في تلك المناطق.

وفي خضم هذه الأوضاع وفي ظل غياب عماني مباشر عن ساحل شرق إفريقية، أتيحت الفرصة للبرتغاليين في العودة إلى الساحل والسيطرة عليه[1] وذلك عام ١١٤١هـ / ١٧٢٨م، وهناك روايتان مختلفتان تتحدثان عن أسباب عودة البرتغاليين إلى الساحل، الأولى عربية إسلامية حيث ذكر

(الإباضية) والتي تزعمها (بنو هناءه) والتي عرفت (بالهناوية)، واستمرت الحرب سجالاً بين هذين التجمعين حتى تم قتل زعيميهما، فاستعاد (سيف بن سلطان الثاني) شخصيته من جديد حيث أن الخلاف أصلاً كان يدور حول هل يتولى الإمامة ام لا بعد وفاة والده عندما كان صغيراً، وأعلن (سيف) إماماً عام ١١٤١هـ / ١٧٢٨م، وقد شهدت البلاد بعد إمامته فترة قصيرة من الإستقرار إلى عام ١١٤٦هـ / ١٧٣٣م، حيث بدأت الإنقسامات من جديد ولكن بين اليعاربة أنفسهم ومؤيدي كل طرف منهم، الأمر الذي أتاح الفرصة للفرس بالتدخل في شؤون عمان ونصرة طرف على آخر، وهي فرصة كانوا ينتظرونها منذ أمد بعيد وذلك عندما قام (نادر شاه ١١٤٠ - ١١٦٠هـ / ١٧٢٧ - ١٧٤٧م) بغزو عمان عام ١١٥٠هـ / ١٧٣٧م، يحدوه الأمل بأن يصبح المتحكم الوحيد بالخليج العربي على أنقاض العمانيين، فدخلت عمان بذلك مرحلة شديدة التعقيد حتى عام ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م وذلك عندما بدأت أسرة البوسعيد تؤسس لها حكماً في عمان على أنقاض دولة اليعاربة. انظر: الأزكوري، كشف الغمة، ص ١١٩ ومابعدها؛ ابن رزيق، الفتح المبين، ٢٩٦ - ٣٠٠.

١) استكمالاً لموضوع تصفية الوجود البرتغالي في ساحل شرق إفريقية ولكي تتضح الصورة فإني سأتحدث عن عودة البرتغاليين إلى الساحل بعد طردهم عام ١١١٠هـ / ١٦٩٨م ومن ثم طردهم إلى الأبد بعد ذلك.

(المزروعي) أن واحداً من أهل (بته) اسمه (موني هندي بن كيباي) كان على خلاف مع حاكم (بتّه) آنذاك (بوانه تامومكو) والذي عيّن من قبل الإمام (سيف بن سلطان الأول) عام ١١١١هـ / ١٦٩٩م، فذهب هذا الرجل إلى (موزمبيق) لطلب المساعدة من البرتغاليين وترغيبهم بالعودة إلى الساحل، فوافقوا على ذلك، وجاء المذكور ومعه عدد من السفن، فلما وصل (بتّه) أرسل إلى الحاكم يخبره بقدومه ومعه البرتغاليون، فرأى الحاكم بأنه من العقل الصلح مع خصمه (موني هندي) حيث لايستطيع مواجهة السفن البرتغالية، فلما تصالحا تشاورا في وسيلة يمكن بها إبعاد البرتغاليين عن (بتّه)، فقال الحاكم أن أهل (ممباسه) في حرب مع واليهم (ناصر بن عبدالله المزروعي) وقد قبضوا عليه وحبسوه فلنرسل هؤلاء (أي البرتغاليين) إليهم ونضع لهم (ممباسة) في أيديهم، وبهذا نكون قد أبعدناهم عن بلدنا، وبالفعل تحرك أهل (بتّة) مع البرتغاليين حتى وصلوا (ممباسه) وهناك وبعد مناوشات قليلة اتفق البرتغاليون مع أهل (ممباسه) على محاربة (سيس رومبي)[1] وجماعته وإخراجهم من القلعة، وفعلاً أرسل البرتغاليون

---

١) يذكر (أوين Owen) استناداً على مخطوطة عربية محليه مكتوبة عام ١٢٣٩هـ / ١٨٢٣م أنه كان في قلعة (ممباسه) عدد من جنود الإمام، ففي أحد الأيام خرجوا عن الطاعة وقبضوا على الوالي (ناصر بن عبدالله المزروعي) وحبسوه، ثم عيّنوا عليهم أميراً منهم اسمه (سيس رومبي)، ثم طلبوا من أهل (ممباسه) الدخول تحت طاعته، فرفض أهل (ممباسه) ذلك، وطلبوا منهم الإفراج عن الوالي فرفض هؤلاء، ثم اتفق الأهالي على قتال هؤلاء الجند الخارجين عن الطاعة، فوقع القتال معهم واستمر فترة طويلة، فاستغل البرتغاليون ذلك وفاجأوا أهل (ممباسة) في عدد من السفن الحربية، ويتفق (فريمان جرينفيل Freeman Grenville) مع ماذكره(أوين) عن هذه الرواية. انظر:

op.cit, vol, II, pp. 420-40;

Grenville, F., Select Documents, op.cit, pp.214-15.

إلى هؤلاء يأمرونهم بتسليم القلعة، فلم يكن منهم إلاّ أن سلموها لهم وخرجوا منها،وأخلى البرتغاليون سبيلهم بإستثناء رئيسهم (سيس رومبى) الذي أرسلوه إلى (موزمبيق) أما الوالي (ناصر بن عبدالله) فبعدما خرج من السجن لبث قليلاً في (ممباسه) ثم سافر إلى عمان.[١]

أما الرواية الثانية فهي برتغالية وتتلخص في أن حاكم (ممباسه) قام بالهجوم على (زنجبار)[٢] فاضطر العرب الموجودون فيها[٣] إلى النزوح إلى (بتّه) فسمح لهم حاكمها بالنزول في المدينة شريطة

---

١) المرزوعي، مخطوط تاريخ ولاية المزارعة في إفريقية الشرقية، ورقة ١٨ - ١٩.

٢) يذكر (ريتشاد بيرتون Burton, R.) في معرض تعليقه على الرواية البرتغالية المذكورة، يذكر أن هجوم المزارعة في (ممباسه) على (زنجبار) والذي تحكمها قبيلة الحرث، يأتي إمتداداً للصراع المذهبي الذي كان دائراً في عمان آنذاك بين (الغافرية) السنة و(الهناوية) الإباضية، حيث (والحديث لبيرتون) أن المزارعة من الغافريين والحرث من الهناويين. والواقع أنه في تلك الأثناء كان المزارعة إباضية المذهب والحرث من أهل السنة، ويبدو أن (بيرتون) قد عكس المسألة تماماً، فمزارعة الساحل ظلوا إباضية حتى أواخر عهد السيد (برغش بن سعيد بن سلطان البوسعيدي ١٢٨٧ - ١٣٠٦هـ / ١٨٧٠ - ١٨٨٨) إبان سلطنة زنجبار العمانية، حيث تحولوا إلى طريقة أهل السنة على مذهب الإمام الشافعي، أما قبيلة الحرث والذين كانوا يحكمون (زنجبار) فقد كانوا أصلاً من أهل السنة قبل هجرتهم إلى ساحل شرق إفريقية في القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي. انظر:
Zanzibar, City, Island, and Coast, (London, 1872). pp.372-74;
المغيري، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، ٢٢٩؛ رجب محمد عبدالحليم، العمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام منذ ظهوره إلى قدوم البرتغاليين، ص ٣١٨.

٣) لم نعثر على مايدل على أن والي (ممباسه) قد هاجم (زنجبار) في هذا التاريخ، بل الذي ذكرته أغلب المصادر أن ذلك لم يحدث إلاّ في عام ١١٦٨هـ / ١٧٥٤م ابان ولاية (علي بن عثمان المزروعي) على (ممباسه) والتي تم فيها إعلان الاستقلال

أن يقوموا بمساعدته بطرد العرب الآخرين الموجودين فيها، وقد تم ذلك، ولكن الحاكم لمس أن ذلك لم يسهم في حل مشاكله فقرر مهاجمة هؤلاء المستوطنين، واستطاع في معركة معهم أن يذبحهم جميعاً، وهكذا وجد نفسه بعد أن استعدى كلا الحزبين وتحت طائلة خوفه من منافسيه وجد نفسه مضطراً إلى الارتماء في أحضان البرتغاليين طلباً للمساعدة، فأرسل مبعوثاً إلى (جوا) عام ١١٤٠هـ / ١٧٢٧م وسرعان ماتم التوصل إلى عقد اتفاقية كان من ضمن بنودها: أن تقوم قوات (بتّه) بمساندة البرتغاليين لاستعادة (ممباسه)، وقطع الصلات البحرية بين العمانيين وتلك المقاطعات، وعلى إثرها تحرك أسطول برتغالي من (جوا) بقيادة (لويس دي ميلو سمبايو Luis de Mello Sambaio) ويرافقه أمير (فازا) (بواناداود)، وصلت بعض سفن الإسطول إلى (بتّه) وبعضها الآخر تعرض لعاصفة بحرية ووصل فيما بعد، ولكن القائد البرتغالي فوجىء بأن معظم أهل (بته) لايؤيدون حاكمهم بدعوة البرتغاليين، وفي تلك الأثناء وصل عدد من السفن العمانية، فاشتبك البرتغاليون معها يساعدهم في ذلك أهالي (فازا) واضطروها إلى الإنسحاب، بعد ذلك التفت البرتغاليون إلى أهالي (بتّه) وأجبروا أعيانها على الولاء لهم، ثم جرى رفع العلم البرتغالي فوق المدينة، وقد أخبرهم حاكم (بتّه) أن قلعة (يسوع) في (ممباسه) تحت سيطرته، لأنه عندما غادر والي (مباسه) العماني إلى الحج، قام أخوه بتحريض الحامية التي كان معظمها من عبيد الإمام بالتمرد فوافقوا على ذلك ولكنهم لم يعترفوا بسلطته فيما بعد وطلبوا المساعدة من حاكم (بتّه) الذي أرسل ستين رجلاً

الفعلي بولاية (ممباسه) عن عمان إبان فترة حكم السيد (أحمد بن سعيد البوسعيدي) مؤسس أسرة البوسعيد الحاكمة في عمان والتي خلفت دولة اليعاربة. انظر: المزروعي، مخطوط تاريخ ولاية المزارعة في إفريقية الشرقية، ورقة ٣٣؛
Pearce, F.B., op.cit, pp.107-11.

لاحتلال القلعة، وأصبح حاكم (بتّه) الآن راغباً في التخلي عن القلعة لصالح البرتغاليين شريطة أن يتعهدوا باستئصال شأفة العرب كلهم من (ممباسه) وأن يتم إرسال منافسيه إلى (جوا) سجناً، فتحرك القائد البرتغالي بعد أن جمع خمسمائة من المرتزقة وبصحبة حاكم (بتّه) تحرك إلى (ممباسه)، ووصل إلى مرفأ (كليندينى) عام ١١٤١هـ / مارس ١٧٢٨م، وبعد اشتباك قصير تمكن من الاستيلاء على القلعة، ثم بعد قتال مع الأهالي استولوا على المدينة، وفي اليوم التالي دخلوا بمرافقة حاكم (بتّه) وأمير (فازا) قلعة (يسوع)، وبخضوع هذه القلعة أعلن القائد البرتغالي عودة الحكم البرتغالي إلى الساحل، وبعد أسبوعين حضر عدد من حكام مدن الساحل وأعلنوا الطاعة للبرتغاليين.[١]

والواقع أن هناك تبايناً بين الروايتين في الوقت الذي تتفقان فيه على أن (لبتّه) دوراً في ذلك، فالرواية العربية تنحي باللائمة على الجناح المعارض في بته) بدعوته للبرتغاليين؛ والرواية البرتغالية تشير إلى أن حاكم (بته) نفسه هو الذي قام بدعوة البرتغاليين ووقّع معهم معاهدة بذلك في الوقت الذي تحاول فيه هذه الرواية أن تبيّن أن حكام الساحل متذمرون من وجود العرب العمانيين، وأنهم يحاولون طردهم ولاسبيل إلى ذلك إلاّ بدعوة البرتغاليين ولم تأت على ذكر (سيس رمبي) وجماعته الذين تآمروا على والي (ممباسه) (ناصر بن عبدالله المزروعي). وأجدني أميل مع رواية (المزروعي) لأنها تتفق مع ما أورده (أورين وجرينفيل) حول واقعة (سيس رومبي) إضافة إلى أن الرواية البرتغالية قد ذكرت أن كبار أعيان (بتّه) لم يرضوا على توقيع حاكمهم معاهدة مع البرتغاليين، وإنما أجبروا على تقديم الولاء لهم فيما بعد، فكيف يقوم حاكم بدعوة البرتغاليين وهو يعلم

1) Strandes, J., op.cit, pp.278-79-81-82.

أنهم لن يلقوا قبولاً لدى الأهالي، كما أن ماحدث فيما بعد سيبرهن بأن الرواية العربية الإسلامية هي الأرجح وذلك عندما هب الأهالي على طول الساحل بمحاربة البرتغاليين.

ومهما يكن من أمر فقد ساء الأهالي عودة البرتغاليين مرة أخرى، فهبوا في ثورة عارمة بقيادة أهالي (ممباسه)، فتمكنوا بمساعدة قوة عمانية مكونة من أربعمائة رجل تساعدهم في ذلك بعض القبائل الإفريقية تمكنوا من إبادة جميع البرتغاليين خارج قلعة (يسوع) كما سيطروا على الحصن الصغير في (ماكوبا)، وتم طلب مساعدة عاجلة من عمان، كما ثار الأهالي والحكام على طول الساحل في (زنجبار، مافيا، بمبا) وغيرها وأخذوا يطردون البرتغاليين من مناطقهم، ولم يأت عام ١١٤٣هـ / يناير ١٧٣٠م إلاّ وقد تمكن الأهالي بمساعدة العمانيين من دحر الحاميتين البرتغاليتين في (ممباسه وبتّه) وتم رفع العلم العماني هناك، وبعد محاولات يائسة من قبل البرتغاليين لاستعادة نفوذهم هناك تم التخلي نهائياً عن أية أفكار باستعادة (ممباسه) وبقية المواقع على ساحل شرق إفريقية بعد ١٨ شهراً من الاحتلال البرتغالي.[1] وهكذا كانت نهاية الاحتلال البرتغالي لساحل شرق إفريقية، فقد قاموا باستغلال الفرصة التي أتيحت لهم بسبب انشغال العمانيين في أماكن أخرى، ولكنهم عجزوا عن استعادة سيطرتهم لأن أهالي الساحل لايريدون العودة مرة أخرى إلى سياسة العسف والجور.

ويقول المزروعي في هذا الصدد : "بعد طرد البرتغال من ممباسة سافر إلى عمان شيخ بن أحمد الملندي وموتي غوت بن موانزا الكلنديني

---

1) Strandes, J., op.cit, pp. 291-96; Coupland, R., op.cit, p.6%;
أحمد شلبي، تاريخ عمان ونشاطها الداخلي، ص ٦١.

وموشهال بن نداو التنجاني ومعهم من كل قبيلة من قبائل ممباسه شخص، ومن كل طائفة من طوائف الزنوج مندوب من قبلها، سافر هذا الوفد لعرض ماجرى في ممباسه على الإمام سيف بن سلطان،[1] ولما وصلوا هناك أنزلهم الإمام على الرحب والسعة وأكرمهم غاية الإكرام، وعند رجوعهم جهزهم ونقلهم في ثلاث مراكب وهي كعب الرأس والملكي والفلكي[2] مع الهدايا الفاخرة والجوائز، وأرسل معهم (محمد بن سعيد المعمري) والياً على ممباسه، وبعد وصولها نزل محمد بن سعيد في القلعة كعادة الولاة قبله، وأباح لأهل ممباسة جميع مافيها من الأموال التي خلفها البرتغال غنيمة لهم جزاء على جميل صنيعهم باستثناء الأسلحة والبارود.»[3] لقد أدرك أهالى (ممباسه) ضرورة استمرار تبعيتهم لعمان لحمايتهم من البرتغاليين، ولهذا انتهز الإمام (سيف بن سلطان الثاني) هذه الفرصة فقام بتعيين (محمد بن سعيد المعمري) والياً عليها الذي نجح أيضاً في تجديد تبعيةّ باقي مدن الساحل لعمان مثل (زنجبار وبتّة وبمبا).[4] وغيرها، وأخذت بدفع

---

١) المقصود به سيف بن سلطان الثاني.

٢) يبدو أن هذه السفن العمانية الثلاث هي التي شاهدها (لويس دي ميلو سامبايو) عندما أبحر للمرة الثانية لإنقاذ (ممباسه) في أواخر عــــام ١٧٣٠م، وذلك عندما رأى هذه السفن راسية في ميناء (كيليندينى) ورأى العلم العماني الأحمر يرفرف خفاقاً فوق القلعة، وعندما شاهد ذلك من مسافة آمنة قرر أن يواصل سيره إلى (موزمبيق). انظر :

Bathurst, R.D., op.cit, p.276.

٣) المزروعي، تاريخ ولاية المزارعة في إفريقية الشرقية، ورقة ٢١ - ٢٢.

٤) باستثناء (ممباسه) فقد قام العمانيون عشية تصفية الوجود البرتغالي من ساحل شرق إفريقية عام ١١١٢هـ / ١٧٠٠م بإعادة حكم بعض المدن في الساحل إلى الأسر التي كانت تحكمها قبل السيطرة البرتغالية مثل: النباهنة في (بته) والحرث في (زنجبار) وغيرهم في (بمبا) و (كلوه)، وفي تقديري أن هذه السياسة لم تكن موفقة إلى حد ما، حيث عادت تلك الأسر ومعها خلافاتها فيما بينها وتنافسها وتناحرها الأمر الذي

الزكاة المقررة عليها لعمان، وبذلك ظهرت السيادة العمانية بصورة واضحة في ساحل شرق إفريقية بعد الأضرار التي لحقت بها من جراء الاضطرابات في عمان وعودة البرتغاليين، ولكنها ظلت سيادة اسميّة.[1]

وهكذا رأينا كيف ساءت الأحوال في عمان بعد وفاة الإمام (سيف بن سلطان الأول) والتي امتدت آثارها إلى ساحل شرق إفريقية، الأمر الذي هيأ الفرصة للبرتغاليين من جديد بأن يمسكوا بزمام المبادرة، ويحاولون العودة ثانية إلى تركيز نفوذهم في تلك المناطق. ولكن ماحدث بعد ذلك من قيام الأهالي في ساحل شرق إفريقية يساندهم العرب بطرد البرتغاليين من تلك المناطق إلى الأبد، برهن على عدم صدق الروايات التي قالت بأن أهالي الساحل كانوا متذمرين من العمانيين ويريدون التخلص منهم. بل يمكن القول بعد تلك الأحداث أن مسألة الأمن في ساحل شرق إفريقية ظلت مرتبطة بإستقرار الأوضاع في عمان إلى حدٍ كبير في تلك الفترة، فمتى ماظلت السلطة قوية في عمان فإن ذلك سينعكس على أمن واستقرار الأوضاع في ساحل شرق إفريقية.

انعكس بآثار سلبية على الساحل وبخاصة بعد سقوط دولة اليعاربة وقبل أن يرسخ البوسعيديون نفوذهم في تلك المناطق في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي.

١) السيّار، دولة اليعاربة، ص ١٠٤.

* تصفية الوجود البرتغالي وأثره على حركة انتشار الإسلام وتركيز دعائمه في ساحل شرق إفريقية :

أدت السيطرة البرتغالية على ساحل شرق إفريقية والتي امتدت قرابة قرنين من الزمان إلى تعطل حركة انتشار الإسلام وتركيز دعائمه في تلك المناطق، وعدم إنتشاره إلى المناطق الداخلية إلاّ بشكل محدود، إضافة إلى توقف تدفق الهجرات من الجزيرة العربية إلى هناك بإستثناء بعض المراكب التجارية المحدودة التي تتعرض في كثير من الأخيان إلى المصادرة والحرق من قبل البرتغاليين، ولكن عام ١١١٠هـ / ١٦٩٨م يعتبر نقطة تحول في تاريخ الإسلام في ساحل شرق إفريقية، وذلك عندما استطاعت السلطة العمانية الراسخة في ذلك الوقت أن تهيىء الأساس المناسب لأرضية صالحة لانتشار الإسلام وتركيز دعائمه.

لقد بسط العمانيون سلطتهم على القسم الشمالي من الساحل بأكمله والواقع بين خطي عرض (٥ر١١) شمالاً و (١٠) جنوباً، وقاموا بتعيين ولاة المدن الهامة فيه، ولاشك أن تعيين الإمام والٍ على (ممباسه) جاء بمثابة أول أساس رسمي لظهور السلطة العمانية في ساحل شرق إفريقية بعد طرد البرتغاليين منها، ولكن أحداث المحيط الهندي والخليج العربي قد حالت دون حضور قوي لسلطة الإمامة هناك، ففي الوقت الذي استمر تعيين ولاة (ممباسه) من عمان اكتفى الإمام بالسيادة الاسمية على المدن الأخرى.

إن أكثر ماميّز هذه الفترة هو تدفق الهجرات العربية والإسلامية إلى هناك ونشاط الحركة التجارية بين المنطقتين، ولعل أهم الهجرات التي حدثت في أعقاب طرد البرتغاليين من ساحل شرق إفريقية والتي كان لها

أثر كبير، هي هجرة العمانيين والحضارمة، فالعمانيون بدأوا بالتردد على الساحل والإقامة فيه منذ بداية تجريد الحملات العمانية إلى هناك أي ابتداءً من عام ١٠٦٣هـ / ١٦٥٢م إضافة إلى من جاء منهم في ركاب تلك الحملات وفضلوا البقاء، ولكن الاتصال والهجرة الفعلية لهم بدأت منذ عام ١١١٢هـ / ١٧٠٠م عندما تم بسط السلطة العمانية الاسمية على القسم الشمالي من الساحل، وقد تركّز العمانيون في (ممباسه) وفي (زنجبار) رغم تفرقهم في المدن ولكنهم يكثرون في هاتين المدينتين،[1] وتعتبر هذه الهجرات بداية عهد جديد من الاتصال الحضاري بين الخليج العربي وساحل شرق إفريقية، وبدأ الساحل بإستقبال هذه الدماء الجديدة التي من المؤكد أنها تركت بصماتها على تلك المناطق.

لقد تميز هؤلاء المهاجرون الجدد أنهم تفرغوا للعمل بالتجارة، أو بالأعمال الإدارية، ولهذا فقد عاشوا في سلام بعضهم مع بعض لم يتدخلوا بالشئون السياسية للمدن والإمارات هناك، ولعل من أهم الأسر التي هاجرت منها أعداد كبيرة في تلك الفترة واستقروا هناك (المراجبه[2] النبهانيون) و (الخاتميون) و (اليعاربة) وغيرهم على مستوى الأفراد. وقد

---

1) Oliver, R., History of East Africa, vol. I, (London, 1962) p. 143-45.

٢) أسرة المراجبة : أسرة عمانية هاجرت إلى ساحل شرق إفريقية في أعقاب تصفية الوجود البرتغالي هناك، وهذه الأسرة هي التي ينحدر منها (حميد بن محمد بن جمعة المرجبي النبهاني) والمعروف بـ (تيبوتيب) والذي يرجع إليه الفضل في تأسيس الوجود العربي الإسلامي في الكنغو في منتصف القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلادي. انظر:

سليمان ناصر اللملكي، حميد بن محمد المرجبي فاتح الكنغو، ص ٥٧٢؛ ٥٧٣.

يواقيم رزق مرقس رزق، حميد بن محمد المرجبي والوجود العربي في الكنغو، ص ٣١.

كان لهم أثرهم من الناحية الحضارية، وماتميز به هؤلاء المهاجرون أيضاً أنهم لم يعيروا الناحية المذهبية الدينية اهتمامهم، بل عملوا تجاراً مسلمين رغم كونهم أو أغلبهم إباضية، ولكنهم يُعتبرون حتى ذلك الوقت أقلية مذهبية في ساحل شرق إفريقية.[١]

أما الحضارمة فقد كانوا على اتصال بساحل شرق إفريقية منذ القدم مثلهم في ذلك مثل سكان جنوب الجزيرة العربية، ومن الراجح أنهم على علاقة تجارية مستمرة في تلك البقاع، وتشير بعض المصادر إلى أن الفترة من القرن الثامن إلى الحادي عشر الهجري - الرابع عشر إلى السابع عشر الميلادي هي فترة هجرة جماعية من حضرموت، انخفضت إبان الإستعمار البرتغالي في ساحل شرق إفريقية، بينما ظلت مستمرة إلى بلاد الحبشة والصومال،[٢] وبعد طرد البرتغاليين شهد ساحل شرق إفريقية وصول العديد من الأشراف والسادة الذين أصبحوا يتدفقون باستمرار إلى تلك المناطق، والذين عملوا على نشر العلم والثقافة الاسلامية في تلك البقاع.[٣]

---

1) Salim, A.I., Progress Towards Mwa Mbo, (Nairobi, 1956) pp.63-4.; Martin, B. G., Notes on some Members of the Learned Classes of Zanzibar and East Africa, J.A.H., vol. II, (1971) p. 524.

2) Burton, R., First Steps in East Africa, (London 1894) p.54;
توماس آرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٨٧.

3) Serjeant, R.B., the Saiyids of Hadramawt, Inaugura-Lecture, S.O.A.S., (London University, 1957), p.24;
وللمزيد من التفصيل عن هجرة الحضارم إلى جميع أنحاء العالم وجهودهم في سبيل الدعوة إلى الإسلام انظر:
عبدالرحمن بن محمد بن حسين المشهور، شمس الظهيرة، حققه وعلق عليه محمد ضياء شهاب، عالم المعرفة، الطبعة الأولى، جزآن، جدة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

وعلى الرغم من أن الحضارمة لم يشاركوا في النواحي السياسية إلاّ أن الأشراف والسادة والمشايخ منهم كانوا يحتفظون بمكانة متميزة بين العلماء، وهناك على سبيل المثال: عشيرة آل أبي بكر بن سالم، وآل جمل الليل، وآل السقاف، والعيدروس، وباكثير الكندي، وآل سميط، وعدد آخر يظهرون في مراتب العلماء، وهذه الحقيقة تدل على أن معظم ساحل شرق إفريقية قد ظل تحت تأثير حضرموت فكرياً وثقافياً، ويظهر ذلك في الانتشار الواسع للمذهب الشافعي.[1] والواقع أن الأكثرية العددية للمهاجرين في أعقاب طرد البرتغاليين كانت من العمانيين والحضارمة إلاّ أن ذلك لايقلل من أنه كان هناك مهاجرون من أنحاء مختلفة من الخليج العربي والجزيرة العربية في تلك الفترة أسهموا مع اخوانهم في تركيز دعائم الإسلام وتهيئة المناخ الصالح لانتشاره.

ويجدر القول بأن تلك الهجرات الجديدة والتي أدت إلى تجديد الدماء العربية والإسلامية في ساحل شرق إفريقية، جاءت أثراً مباشراً للجهاد العماني ضد البرتغاليين، حيث أسهمت في تهيئة الأساس المناسب لإقامة حكم عربي إسلامي في تلك المناطق، وبداية مرحلة جديدة من مراحل انتشار الإسلام في شرق إفريقية، وذلك عندما بدأ ركاب الدعاة بالتغلغل إلى وسط القارة ومنطقة البحيرات.

لقد أدى قيام دولة البوسعيديين في عمان عام ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م على أنقاض دولة اليعاربة إلى أن يقوموا بالمطالبة بدور أكبر في ساحل شرق إفريقية، وربطه سياسياً بعمان إرتكازاً على الدور الذي لعبه العمانيون

---

١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩٢؛

Martin, B.G., Notes, op.cit, p.530.

اليعاربة في طرد البرتغاليين منه، وقد أدرك (أحمد بن سعيد ١١٥٧ - ١١٨٨هـ / ١٧٤٤ - ١٧٧٤م)[1] مؤسس هذه الأسرة كما أدرك الكثيرون غيره من الحكام المساوىء التي قد تؤدي إليها حدوث الإنفصال بين عمان وساحل شرق إفريقية، وذلك لما بين الإقليمين من روابط حضارية واقتصادية وثيقة.[2]

وتجلى ذلك عندما أقدم السيد (سعيد بن سلطان البوسعيدي[3] ١٢٢١ -

---

١) هو الإمام أحمد بن سعيد بن أحمد بن خلف بن سعيد البوسعيدي جد العائلة الحاكمة لعمان الآن، ولد في بلدة (أدم) بداخلية عمان، تولى الإمامة على أصح الروايات عام ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م بعد مواقفه البطولية أمام الإحتلال الفارسي، ويعد سياسياً محبوباً، أولى ساحل شرق إفريقية اهتماماً خاصاً، وعمل على ربطه بعمان ربطاً سياسياً مباشراً، كما استطاع أن يعيد لعمان مركزها العسكري والتجاري، توفي في بلدة (الرستاق) من عمان في شهر ذو القعدة عام ١١٨٨هـ / ١٧٧٤م. انظر: إبن رزيق، الفتح المبين، ص ٣٦٤ - ٣٨٦؛ المغيري، جهينة الأخبار، ص ٢٣٠.

٢) جمال قاسم، دولة البوسعيد في عمان وشرق إفريقية، ص ٤٦ - ٩٢.

٣) هو السيد سعيد بن سلطان بن الإمام أحمد البوسعيدي، ولد في بلدة (سمائل) في عمان، وكانت ولادته عام ١٢٠٤هـ / ١٧٨٩م تولى الحكم عام ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م، واستطاع أن يثبت أقدامه على عرش عمان ومن ثم (زنجبار) ثبوتاً راسخاً، يعزى إليه الفضل في تأسيس الامبراطورية العمانية في ساحل شرق إفريقية، واستطاع أن يعيد بناء الأسطول البحري العماني إلى سابق عهده، وذهب بعيداً في تشجيعه للتجارة والتجار، ويعتبر حليفاً أميناً للإنجليز على مدى نصف قرن من الزمان، نقل عاصمة حكمه إلى (زنجبار) التي أصبحت في عهده أهم ميناء تجاري على الشواطىء الغربية للمحيط الهندي، وشجع التجار العرب إلى التغلغل إلى وسط القارة الأفريقية، اتسمت سياسته الخارجية بالانفتاح على العالم، وكان من نتيجة ذلك أن ازداد التواجد الأجنبي الأوربي خلال عهده في ساحل شرق إفريقية، توفي في ١٩ صفر عام ١٢٧٣هـ / ١٩ اكتوبر ١٨٥٦م.

للمزيد من التفصيل انظر :

سالمة بنت السيد سعيد، مذكرات أميرة عربية،

الفارسي، البوسعيديون حكام زنجبار.

١٢٧٣هـ / ١٨٠٦ - ١٨٥٦م) على نقل عاصمة حكمه من عمان إلى (زنجبار)[1] عام ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م بعد صراع طويل مع المزارعة ولاة (ممباسه) والذين حاولوا الإستقلال بحكم المدينة عن عمان بعد سقوط دولة اليعاربة،[2] ومهما كانت الأسباب التي دفعت بالسيد (سعيد بن سلطان) إلى اختيار (زنجبار) عاصمة لحكمه والانتقال إليها إلاّ أن هذه الخطوة قد أدت إلى انجذاب عدد كبير من المهاجرين الجدد، سواء من جاء مع السيد (سعيد) نفسه، حيث شجع العرب إلى الهجرة هناك، أو ممن جاؤوا من أنحاء متفرقة من الخليج وجنوب الجريرة العربية، وإلى جانب ذلك فقد توافد إلى تلك المناطق طوائف أخرى من الفرس والبلوش، إضافة إلى الهنود بطوائفهم وفئاتهم المختلفة.[3] إذن فإن نقل السيد (سعيد) عاصمة حكمه إلى (زنجبار) يعتبر تطور جديد في الاتصال المباشر بين الخليج العربي

---

١) يعتقد كثير من الباحثين أن دولة اليعاربة في جهادها ضد البرتغاليين في ساحل شرق إفريقية وطردهم منه هيئت بذلك الأساس المناسب لقيام حكم عربي إسلامي في تلك المناطق، وحيث أن أئمة اليعاربة لم يستطيعوا أن يقوموا بذلك لأسباب تم ذكرها، فقد استثمر البوسعيديون تلك الجهود وقاموا بذلك عندما نقل السيد (سعيد بن سلطان البوسعيدي) عاصمة حكمه إلى (زنجبار)، ويعتقدون أنه لو لم يقم اليعاربة بهذا الدور تجاه ساحل شرق إفريقية لتعذر على البوسعيديين المطالبة ببسط سيطرتهم عليه. وعليه فإني أرى أن قيام سلطنة البوسعيد في ساحل شرق إفريقية ليس إلاّ أثراً من آثار الجهاد العماني التي قام به الأئمة السابقون في عهد الدولة اليعربية وان جاء ذلك الآثر متأخراً من الناحية الزمانية إلاّ أن مطالبة البوسعيديين ببسط سيطرتهم هناك جاء في وقت مبكر من قيام أسرة البوسعيد واضطلاعها بحكم عمان.

2) Coupland, R., op.cit, pp. 358-81 ;

جمال قاسم، عمان في شرق إفريقية، ص ١٠٠ - ١٠٤.

3) Burton, R., Zanzibar City, op.cit, vol. I, p.313;

المغيري، جهينة الأخبار، ٢٦١.

والجزيرة العربية وبين ساحل شرق إفريقية، حيث تزامن مع نقل العاصمة إلى هناك تدفق المهاجرين العرب والمسلمين الذين وصلوا إلى هناك بشغفهم التجاري واضعين الأسس العملية لفتح آفاق جديدة في المناطق الداخلية النائية عن الساحل.

لذا فقد نشطت تجارة القوافل، وأصبحت تصل إلى عمق القارة الإفريقية. ولاشك أن العرب هم الرواد في التغلغل إلى تلك المناطق، حيث استقر كثير منهم في الداخل مؤسسين بذلك المراكز التجارية، والمحطات التي يعتمدون عليها في تنقلاتهم في ظروف مناخية شاقة، حيث وصلوا إلى الكنغو وأوغندا، وأصبحت المراكز التجارية التي أسست على طول طرق القوافل[١] النواة لقيام مجتمعات إسلامية في الداخل،[٢] وفي هذا الصدد يقول (بيرسPearce) : «لقد كان الاستيطان العربي الإسلامي قبل تلك الفترة مرتكزاً في الساحل، ولكن العرب الذين جاؤوا بعد طرد البرتغاليين كانوا رواداً في استثمار واستغلال القارة السوداء، وقد أثارت القصص التي عادوا بها عن البحيرات والجبال المغطاة بالثلوج... أثارت اهتمام العالم الغربي بإفريقية.»[٣]

إن الطريق الجنوبي الذي يبدأ من (بجمايو Bajamoyo) والمواجه لجزيرة (زنجبار) يعتبر من أهم طرق القوافل، حيث يمتد على السهل

---

١) للمزيد من التفصيل عن مواقع الطرق والمحطات التجارية التي أسسها العرب والسواحليون المسلمون في داخل القارة الأفريقية والتي تمتد من الساحل انظر الملحق رقم (٦-و)

2) Soghayroun, I.E., The omani and South Arabian Muslim Factor in East Africa, (Riyadh, 1984), p.24.

3) op.cit, P-120

الساحلي باتجاه الداخل إلى (تابورا Tabora)[1] التي تعتبر أهم المراكز التي أسسها العرب في الداخل، ويتفرع من (تابورا) طريق آخر باتجاه الغرب حتى بحيرة (تنجانيقا)، بالإضافة إلى طريق يتجه إلى الشمال حتى بحيرة (فكتوريا)، وتنتهي بعض الطرق التجارية عند مركز (أوجيجي[2] Ujiji) حيث تنطلق منها عدة طرق تتجه إلى (بنيورو وبوغندا)[3] وكذلك (الكنغو)، وتعتبر مملكة (بوغندا) من أكبر وأقوى الممالك في وسط

---

١) تابورا : تعتبر أهم المراكز التجارية التي أسسها التجار العرب على خطوط القوافل في داخل القارة الإفريقية في تلك الفترة، وتبعد عن الساحل حوالي (٦٠٠) ميل، وتقع إلى الشرق من بحيرة تنجانيقا، وترجع أهميتها إلى موقعها الفريد على ملتقى عدة طرق تجارية القادمة من الساحل والمتجهة إلى مناطق أخرى مثل الأقاليم الأوغندية والكنغو، ولهذا فقد كانت عين المراكز العربية في داخل القارة، ولقد غصت بالسكان من العرب والأفارقة، وأصبحت مركز اشعاع اسلامي في داخل القارة الإفريقية، وتقع الآن في أواسط جمهورية تنزانيا، انظر:

Mellaud, F.H., op.cit, p.67;

بواقيم رزق، حميد بن محمد المرجبي، ص ١٦.

٢) أو جيجي : أسسها التجار العرب على مرفأ صغير من الشاطىء الشرقي لبحيرة تنجانيقا، لتكون منطقة لعبور البحيرة إلى الكنغو، وقد انقسم بناؤها إلى ضاحيتين هما (أوجي Ogoy) والتي سكنها العرب، و (كاولي Kawole) وسكنها اللوانجوانا الوطنيون والرقيق، ونظراً لأنها كانت منطقة التركيز العربي للداخل إلى الكنغو، فقد كانت كبرى المحطات العربية شرق بحيرة تنجانيقا، وقد سكنها العرب، وقد مكن وقوعها على البحيرة العرب من إيجاد حوض لتصنيع القوارب الشراعية التي تحمل البضائع والمسافرين إلى الكنغو. انظر:

Stanley, H.M., Through the Dark Continent, vol. I, (London, 1878). p.2;

جلال يحيى، التنافس الدولي في شرق إفريقية، دار المعرفة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م، ص ١٦.

٣) بنيورو - بوغندا : احدى مقاطعات جمهورية أوغندا الحالية، وكانتا في الماضي تعتبران مملكتين من أهم الممالك في وسط القارة الإفريقية. انظر الملحق رقم (٦-و)

إفريقية في ذلك الوقت، وهي المركز الرئيس الذي تفاعل مع انتشار الإسلام وبخاصة في بلاط (الكباكا)،[١] [٢] ومن الطرق التجارية التي أسسها العرب أيضاً الطريق الذي يبدأ من (ممباسه) والمنطقة المحيطة بها، ويتجه صوب الجزء الشرقي لبحيرة فكتوريا والأقاليم الشرقية من جمهورية أوغندا الحالية.[٣]

لقد انتشرت المراكز التجارية على طول خطوط القوافل، فبالإضافة إلى (تابورا) و (أوججي) أسس التجار العرب والسواحليون مراكز أخرى مثل (أوفيرا Ovira) التي تقع إلى الشمال من (اوجيجي)، وكذلك (واوزانزي Uzanzi) والتي تقع إلى الجنوب من (أوججي)، بالإضافة إلى (أوكاندي Ukandi) و (اورانجوUrango)، وأيضاً (مارينجوMaringo)[٤] والتي كانت مصدر إشعاع حضاري إسلامي في داخل المناطق الإفريقية.

إن هذه الطرق والمراكز قد قامت بدور رئيس في التوغل الإسلامي إلى داخل القارة، مما نتج عنه تزايد أعداد العرب والسواحليين

---

١) الكاباكا أي الملك.

2) Slade, R.I., King Leopold's Congo, (London, 1920) pp.84-5;

إبراهيم صغيرون، انتشار الإسلام في أوغندا، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السادس، الرياض، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ٢٠ - ٢١.

٣) المرجع نفسه، ص٢١،

وللمزيد من التفصيل عن دور التجار العرب والسواحليين الزنجباريين في انتشار الإسلام في أوغندا انظر :

Soghayroun, I.E., The omani and South Arabian Muslim Factor in East Africa, op.cit.

٤) يواقيم رزق، حميد بن محمد المرجبي، ص ٢١.

القادمين من الساحل بقصد التجارة في كثير من المقاطعات الإفريقية، ويبدو أنهم نجحوا في تنظيماتهم الاقتصادية وأخذوا بالاستقرار في المراكز والمحطات التجارية التي أسسوها على طرق القوافل مما حتم عليهم الاختلاط بالوطنيين الذين تأثروا بهم، وقد شكل وجود وإقامة التجار العرب في هذه المراكز نواةً لتجمع الوطنيين بشكل كبير.[1] وهذا دليل على مايتمتع به التجار العرب والسواحليون المسلمون من مكانة واحترام فتحت لهم آفاقاً جديدة للعمل على نشر الإسلام، وكانت تلك المراكز التي أسسوها على طرق القوافل مصدر إشعاع إسلامي في وسط القارة، فقد مكنت الإسلام من التغلغل في الأقاليم الأوغندية والكنغو،[2] وغيرها من المناطق التي امتد إليها نفوذ التجار المسلمين في داخل القارة، هذا التغلغل الذي لم يكن مصحوباً بغزو عسكري أو تنظيم سياسي، بل الإسلام مكن نفسه بنفسه من التغلغل الفطري المسالم.

---

١) صلاح العقاد، جمال قاسم، زنجبار، ص ٧٨؛ عبدالعزيز كامل، وجهة الإسلام في القارة الأفريقية، مجلة السياسة الدولية، العدد الثالث، فبراير، ١٩٦٦، ص ١٠٢.

٢) إذا كان الفضل يعود إلى (حميد بن محمد المرجبي) في انتشار النفوذ العربي والإسلامي في الكنغو، فإن أهم الدعاة من التجار المسلمين الأوائل الذين تركوا أثراً بعيداً وهاماً بالنسبة لانتشار الإسلام في أوغندا هو الشيخ (أحمد بن ابراهيم العامري)، ويعتبر وصول هذا التاجر من (زنجبار) إلى بلاط الكباكا (سُنا Suna) في بوغندا معلماً بارزاً ونقطة تحول في تاريخ المملكة، وسيظل أثره على الدوام ذا أهمية خاصة بالنسبة لموضوع الإسلام في أوغندا. وقد وصفه الرحالة (ستانلي Stanley) عندما قابله في كاراجوي في وسط القارة عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م بقوله: «هو رجل ممتاز يبدو مظهره حسناً، يستقبل الأصدقاء بصورة وديّة، متحرر مع عبيده، عطوف على نسائه، وقد بقي ثمانية عشر عاماً في وسط إفريقية، ولقد تعرف بـ (سُنا) ملك بوغندا وابنه (مويتسا) وقد سافر مراراً إلى بوغندا»انظر :

Stanley, H.M., op.cit, vol. I., p.453;

صغيرون، انتشار الإسلام في أوغندا، ص ٢١.

وقد يكون من المفيد أن نؤكد على حقيقة هامة وهي أن الجهاد العماني في القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر الهجري قد أعطى ثماره، حيث مهد لقيام سلطنة زنجبار العمانية والتي شملت معظم أجزاء ساحل شرق إفريقية، وأدى ذلك إلى أن العرب دخلوا في علاقات مع الشعوب الإفريقية، وسكنوا كثيراً من المقاطعات في داخل القارة، وذلك قبل أن يصل إليها الإستعمار الأوربي، والمؤكد أن كثيراً مما سجله العرب عن علاقاتهم برؤساء وشعوب المقاطعات الداخلية في إفريقية قد مسّته يد الضياع، ولذلك فإننا في أشدّ مانكون احتياجاً إلى دراسات مستفيضة عن دور العرب، وتأثيرهم الحضاري في أواسط القارة الإفريقية. وقد تفيد في ذلك الصدد كتابات وتقارير الرحالة والمستكشفين من رواد حركة التنصير، والكشف الجغرافي في إفريقية، خاصة، وأن معظم هؤلاء استفادوا فائدة كبيرة من المراكز التجارية والحضارية التي أوجدها العرب والسواحليون المسلمون على طول طرق القوافل، والتي كانت بمثابة مراكز حضارية هامة أسهمت في نقل المؤثرات العربية الإسلامية، كما أسهمت إسهاماً فاعلاً في تسليط الضوء على مجاهل القارة الإفريقية، حتى يمكننا أن نؤكد أن الحركة الإستكشافية التي شهدتها القارة الإفريقية في القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلادي لم تكن في حقيقة الأمر إلاّ تسجيلاً علمياً لمناطق وشعوب كان يعرفها العرب من قبل.

وإضافة إلى نشاط التجار الذين حملوا معهم الإسلام إلى داخل القارة كان هناك نشاط آخر قام به العلماء والدعاة، الذين تولوا حماية الدستور الإسلامي في معظم المستويات، والإشراف على النظام

الشرعي، وفي الوقت نفسه قاموا بتوجيه البنية التعليمية التي يقومون من خلالها بغرس المثل والقيم الإسلامية، وهذا يتم من خلال المدارس الإسلامية لهؤلاء العلماء المتمثلة بالمساجد أو في منازلهم الخاصة، كما قام الأدباء المسلمون بالإضافة إلى العلوم الشرعية بالإطلاع الواسع وابتكار الأدب الخاص بهم.(١)

لقد عمل العديد من هؤلاء العلماء بالتجارة، الأمر الذي أتاح لهم فرصة القيام بالدعوة إلى الإسلام إلى جانب عملهم الأساسي، وقد مكنهم هذا العمل من الاتصال بالأجناس المختلفة في شرق إفريقية، سواء من الأفارقة أو من غيرهم، مثل بعض الطوائف الهندية التي تعمل بالتجارة، وإلى جانب الدعوة كان هؤلاء العلماء يقومون بإرشاد العامة وتبصيرهم بأمور دينهم من خلال المحاضرات والدروس التي يلقونها على عامة الناس وبخاصة في شهر رمضان أو في موسم الحج، لقد كان دورهم في التوعية الإسلامية كبيراً ومؤثراً.(٢)

ويجدر القول إنه كان يوجد بين العلماء في ساحل شرق إفريقية تيّار واضح، وهو يتمثل في (الأثر الحضرمي)، حيث أقاموا اتجاهاً دينياً نراه واضحاً في طائفة من المعالم والسمات، مثل الإنتشار الواسع للمذهب الشافعي، وفي طرق التعليم والكتب المستعملة والمتداولة هناك، وكذلك في أصل محتويات الأحاديث والروايات السواحلية والأشعار التعليمية، وهؤلاء المهاجرون من الحضارم تمسكوا بالاستمرار في طريقة حياتهم الأصلية دون أن تشوبها تغيرات أساسية ووفّقوا إلى حد كبير في إبراز

---

١) ترمنجهام، الإسلام في شرق إفريقية، ص ١٦١.

2) Martin, B.G., Notes op.cit, p.544.

ثقافة أساسها عربي إسلامي.(١)

ويقضي الإنصاف أن نقول إن الأئمة والسلاطين العمانيين لم يقوموا في أي مرحلة من مراحل حكمهم بالتحمس لنشر المذهب الاباضي خارج عمان وبخاصة في شرق إفريقية،(٢) فالأئمة من اليعاربة لم يرتكز جهادهم في أي مرحلة من مراحلة على اتباع المذهب الإباضي، بل كان لأهل السنة فيه دور فاعل وكبير، وقد شارك فيه معظم سكان ساحل عمان بالإضافة إلى القبائل العمانية التي لاتتبع المذهب الإباضي، كما أظهروا تسامحاً دينياً كبيراً مع الطوائف المختلفة وبخاصة مذهب الإمام الشافعي نسبة إلى

---

1) Salim, A.I., Progress Towards Mwa mbo, op.cit, p.63-4;

ترمنجهام، الإسلام في شرق إفريقية، ص ١٣٩ - ١٤٠.

٢) يعزو أحد الباحثين عدم انتشار المذهب الإباضي في البلدان التي حل بها العمانيون أو تاجروا معها وبخاصة شرق إفريقية إلى عدة عوامل منها: أن العمانيين الذين ساهموا في بناء مدن وأمارات ساحل شرق إفريقية في المراحل الأولى ليسوا إباضية مثل إبني (الجلندي)، أما العمانيون الذين هاجروا إلى هناك فيما بعد فليس كلهم أباضية مثل (بني الحارث) أو غير متحمسين لنشره مثل (بني نبهان)، وكذلك فان العمانيين الموجودين على أرض عمان ذاتها لم يكونوا كلهم إباضية وبالتالي كان تجّارهم كذلك، إضافة إلى أن الدعوة للإسلام لم تكن قاصرة على العمانيين وحدهم، ولم تكن التجارة أيضاً في يدع العمانيين وحدهم، بل كان للشعوب العربية الأخرى في الخليج والجزيرة العربية نصيبها في هذين المجالين، وكانت هذه الشعوب في غالبيتها تدين بالمذهب السني، يضاف إلى ذلك أنه من غير المعقول أن يلقن التاجر أيّ داخل في الإسلام مبادىء أي مذهب من المذاهب، بل يكتفي منه بنطق الشهادتين وأداء الفرائض والشعائر، وهي أشياء قد لايختلف فيها أي مذهب من المذاهب عن الآخر، وأيضاً يضاف إلى ذلك أن المذهب الأباضي يشاع عنه أنه أحد مذاهب الخوارج ولذلك فإن التجار والدعاة العمانيين تجنبوا الحديث عن المذاهب في البلدان التي رحلوا إليها أو تاجروا معها. انظر: رجب محمد عبدالحليم، العمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام، ص ٣١٧ - ٣١٨ - ٣١٩ - ٣٢٠ - ٣٢١.

أنهم أكثرية، وبلغ تأثيره إلى الحد الذي أدى إلى تحول العديد من الاباضيين في ساحل شرق إفريقية إليه بما فيهم بعض الدعاة والقضاة من أهل العلم.[1]

لذا نخلص إلى القول إن الجهاد العماني الذي تمخض عنه طرد البرتغاليين من ساحل شرق إفريقية قد فتح آفاقاً جديدة من العلاقة بين ساحل شرق إفريقية والجزيرة العربية، وهيأ المناخ الصالح لأن يقوم الإسلام بدوره الحضاري في المجتمعات الإفريقية الحديثة والمعاصرة، كما أبرز الدور الرائد للجزيرة العربية وعلاقتها بشرق إفريقية وهي علاقة وثيقة ومتينة ومتصلة، وأيضاً أبرز قنوات الاتصال وبخاصة في المجالين الثقافي والفكري، بل أصبح ساحل شرق إفريقية مسرحاً حياً للنشاط العربي الإسلامي، إلى جانب النشاط التجاري الذي جذب العديد من الشعوب الإفريقية والعالمية.

---

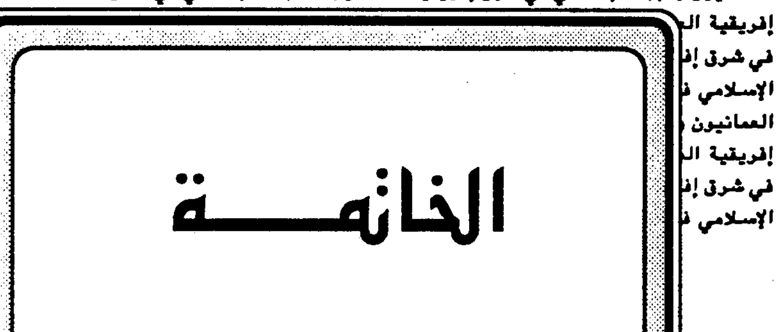
١) لمزيد من التفصيل عن دور العلماء والدعاة في تركيز دعائم الإسلام في ساحل شرق أفريقية انظر :

الفارسي، البوسعيديون حكام زنجبار.

وكذلك للمزيد من التفصيل عن انتشار المذهب الشافعي في ساحل شرق إفريقية وتحول العديد من أتباع المذهب الأباضي إليه، انظر :

Martin, B.B., Notes op.cit;

Martin, B.G., Muslim Politics and and Resistance to Colonial Rule Shaykh Uways B. Muhammad Al-Barawi and the Qadiriya Brotherhood in East Africa, J. A.H, vol. 10, No.3, (1969) pp. 470-90.


الخاتمة

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وماكنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله .

إنه من المفيد أن يكون لأي بحث خاتمة تتضمن أهم النتائج التي استخلصها الباحث من خلال دراسته، وتلك الخاتمة من الأمور المستحسنة في أي بحث، حيث تكون خلاصة لبحثه، وفي الوقت نفسه تكون مؤشراً لأهمية ذلك البحث ، من خلال الأهمية التي تكتسبها تلك النتائج.

واستناداً إلى محتويات هذه الرسالة التي اعتمدت فيها على وثائق ومخطوطات ومصادر أولية هامة، فإنني أوجز النتائج على النحو التالي :

* لقد أدت الاتصالات القديمة بين ساحل شرق إفريقية وبين الجزيرة العربية والخليج العربي، إلى نشأة المراكز التجارية، التي كانت بمثابة أماكن للتبادل التجاري بين التجار العرب والسكان الوطنيين، وكانت تلك المراكز بمثابة مأوى لهؤلاء التجار خلال الدورة التجارية التي تبدأ مع هبوب الرياح الموسمية، وظلت تلك المناطق على هذا الوضع إلى أن بزغ فجر الإسلام وبدأ يحدث تغييراً جذرياً في حالة العرب بوجه عام وفي ساحل شرق إفريقية بوجه خاص، حيث أصبح لدى العرب دوافع جديدة غير الدافع التجاري، وهي محاولة الاستقرار في تلك المناطق، وإقامة كيانات سياسية عربية إسلامية، وشهد الساحل نتيجة ذلك نشأة كثير من المدن والإمارات الإسلامية، كما زاد تدفق الهجرات التي لم تقتصر على عرب شبه الجزيرة العربية والخليج العربي فحسب، بل من كافة المناطق الإسلامية.

* بعد ظهور المدن والإمارات الإسلامية في ساحل شرق إفريقية وتطورها واشتهارها، أخذت تمثل ملاذاً للفارين نتيجة للمنازعات السياسية على مدار العصور الإسلامية، حيث انتقلت جماعات إسلامية وعربية وبخاصة من اليمن وحضرموت وعمان والأحساء وفارس، حاملة معها الدين الإسلامي الحنيف، الأمر الذي أدى إلى انتشاره في تلك المناطق، كما أدى إلى انتعاش المدن الإسلامية هناك، ولكن بالرغم من ذلك فقد ظل الإسلام مرتكزاً في الساحل ولم يتغلغل إلى الداخل بصورة فعليّة إلاّ فيما بعد.

* أدت الهجرات العربية والإسلامية المتعاقبة إلى ساحل شرق إفريقية إلى نشوء كيانات سياسيّة في تلك المنطقة أسهمت في انتعاشه وازدهاره تجارياً، وظل الساحل ينعم بدرجة كبيرة من الرخاء والرفاهية حتى قدوم البرتغاليين، الذين أدت سياساتهم التجارية والعسكرية إلى خراب تلك المنطقة وتدهورها، كما أن الاستعمار البرتغالي كشف هشاشة بنائها السياسي وافتقارها إلى القوة العسكرية.

* لقد برهنت الدراسة على أن العوامل الدينية والإقتصادية كانت أهم دوافع البرتغاليين بالقيام بحركة الكشوف الجغرافية البرتغالية، ورغم أن أكثر الباحثين يغلّبون الدافع الاقتصادي إلاّ أنه بعد التقصي والبحث اتضح ريادة الدافع الديني ودور البابوية في ذلك، والتي كانت قد خرجت مدحورة في الحروب الصليبية، وذهلت بالتقدم العثماني في أوربا وسقوط (القسطنطينيه)، ولذا فإن البابا تكفّل بالدعم المالي والمعنوي للبرتغاليين مستغلاً بذلك عزمهم على مطاردة المسلمين بعد سقوط الوجود الإسلامي في أسبانيا، وقد انعكس ذلك على أساليب البرتغاليين ضد المسلمين في الشرق التي اتّسمت بالقسوة والعنف.

إذن فإن العامل الديني شكل أثراً فعالاً في حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية، حيث إن القضاء على الوجود الإسلامي في الشرق والمحيط الهندي، كان غاية يطمح البرتغاليون إلى تحقيقها وتباركها بابوية روما، وليس كما قالت بعض المراجع الأوربيّة بأن حركة البرتغاليين هذه كانت علميّة بحتة ذات مضامين إنسانية.

أما الدوافع الاقتصادية فترتبط ارتباطاً وثيقاً مع الدوافع الدينية، وقد عبر عن ذلك الملك البرتغالي (عمانويل الأول ١٤٩٥ - ١٥٢١م) عندما قال: «إن الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر المسيحيّة والحصول على ثروات الشرق»، فقد سعوا إلى الحصول على ثروات الشرق من منابعها، والقضاء على وساطة المسلمين في تلك التجارة، ومن أجل ذلك عملوا على تقوية مراكزهم التجارية في الشرق، ومنعوا سفن المسلمين من مزاولة نشاطها التجاري، وكشفوا من خلال مواقفهم تلك أغراضهم الاقتصادية اللاإنسانية من خلال أعمالهم العدوانية ضد أهالي المناطق التي وصلوا إليها، وعمليات السلب والنهب التي كان التجار المسلمون يتعرضون لها على أيديهم. ولذا يمكن القول إن العامل الديني شكل الإطار العام للسياسة البرتغالية في الشرق ويندرج تحته العامل الاقتصادي، أي أن العامل الديني شكل مرتكزاً أساسياً لانطلاق السياسة البرتغالية في الاتجاهات المختلفة ولتحقيق الأهداف المتنوعة، في وقت يبقى الدافع الاقتصادي عاملاً عريضاً وكبيراً لايمكن تجاهله.

* لقد أوضحت الدراسة أن السيطرة على السواحل الإسلامية في شرق إفريقية والخليج العربي والمحيط الهندي تتطلب قوة بحرية كبيرة بسبب الطبيعة البحرية لتلك المناطق، ولذلك نجح البرتغاليون في تحقيق سيطرتهم على تلك المناطق استناداً على تفوقهم البحري الذي واكبه

هشاشة البنية السياسية الإسلامية والعربية، وعدم وقوفها جبهة واحدة ضد البرتغاليين، في الوقت الذي عجزت فيه القوى غير البحرية أن تحقق لها سيادة فعلية، ونعني بذلك الدولة العثمانية التي افتقرت إلى قواعد بحرية في بحار الشرق، رغم أن مركزها الديني كان يتيح لها قدراً كبيراً من النجاح، ولكن السبب - في تقديري - يعزى إلى تأخر إنزال الأساطيل العثمانية في البحار الشرقية، حتى تمكن البرتغاليون من تركيز وجودهم هناك إضافة إلى عدم كفاءة بعض القيادات العثمانية التي تصدت للبرتغاليين في المحيط الهندي، مثل القائد (سليمان باشا الخادم).

* كما أوضحت الدراسة مدى تأثير الصراع المذهبي بين المسلمين على مقاومة البرتغاليين، مثل الصراع بين العثمانيين والصفويين الفرس، الذي ساعد بشكل مباشر في إضعاف قوة المسلمين عامة، مما حال دون وقوف المسلمين جبهة واحدة ضد البرتغاليين والقضاء عليهم في المحيط الهندي، بل أدى هذا الخلاف إلى لجوء الصفويين إلى البرتغاليين لمساعدتهم ضد العثمانيين في وقت مبكر من قدوم البرتغاليين إلى البحار الشرقية، كما لجأ الصفويون أيضاً إلى القوى الأوربية الأخرى، مثل الانجليز والهولنديين للسبب نفسه، ولذا فإن الخلاف المذهبي بين الدول الإسلامية يمثل على الدوام ثغرة كبيرة في الجبهة الإسلامية ينفذ من خلالها الأعداء.

* إن نجاح البرتغاليين في بناء إمبراطوريتهم في الشرق وتحويلهم طرق التجارة من البحر الأحمر والخليج العربي إلى رأس الرجاء الصالح، أثار انتباه القوى الأوربية الأخرى لأهمية ثروات الشرق وخيراته، مثل الشركات الانجليزية والهولندية والفرنسية، الذين بدأت

أساطيلهم التجارية والعسكرية بالتوافد على المنطقة، وأخذوا في بناء مستعمرات خاصة بهم، ووجدوا بذلك مجالاً جديداً لتفتيت العالم الإسلامي ونهب ثرواته، ورغم أن قدومهم أسهم في إضعاف الوجود البرتغالي إلا أنهم بنوا على أنقاضه - فيما بعد - مستعمرات واسعة تستند على تفريق العرب والمسلمين ومحاربتهم ونهب ثرواتهم وبخاصة بريطانيا.[1]

* أدى تولي (ناصر بن مرشد اليعربي) منصب الإمامة في عمان مؤيداً من قبل علماء الدين وبعض زعماء القبائل الذين ملّوا حياة التنافر والتطاحن، أدى ذلك إلى ظهور تيار سياسي وديني في عمان استطاع أن يرفع لواء الجهاد ضد البرتغاليين الذين كانوا يسيطرون على

---

١) بدأت بريطانيا في تركيز تواجدها الفعلي في الشرق في القرن الثاني عشر الهجري / أواخر النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي وبخاصة في ساحل الهند الغربي والخليج العربي، وقد استخدمت كل مافي وسعها لمحاربة القوى العربية في الخليج وإضعافها، مثل العمانيين والقواسم. وفي منتصف القرن التاسع عشر بدأت الهيمنة البريطانية على ساحل شرق إفريقية من خلال سلاطين زنجبار البوسعيديين، وقامت بدور بارز في دق إسفين الخلاف بين أبناء السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي حاكم زنجبار، وفصلت الإقليمين عن بعضهما سياسياً، وهما عمان وزنجبار، ومهدت للدول الأوربية التدخل في شؤون ساحل شرق إفريقية مثل ألمانيا وفرنسا، وشجعت المنصرين والجمعيات التنصيرية على التوافد إلى هناك، والذين خاضوا حرباً ضد المسلين في أوغندا والكنغو، وقد ظلت تعمل على تهميش الدور العربي الإسلامي في تلك المناطق حتى بداية النصف الثاني من القرن العشرين عندما سقط الوجود العربي الإسلامي في زنجبار وساحل شرق إفريقية في مأساة مماثلة لسقوط المسلمين في الأندلس وفلسطين.

لمزيد من التفصيل عن الدور البريطاني في الخليج وساحل شرق إفريقية انظر :
جمال قاسم، الخليج العربي دراسة لتاريخ الأمارات العربية في عصر التوسع الأوربي الأول؛ -عبدالعزيز عبدالعني، علاقة ساحل عمان ببريطانيا؛ حراز، شرق إفريقية والاستعمار الأوربي .

السواحل العمانية، مما دفع الكثيرين من قبائل وأبناء عمان إلى الانضمام إليه على مختلف انتماءاتهم المذهبية والقبلية، الأمر الذي مكنه من توحيد جميع أجزاء عمان وتطويع القبائل وإخضاعها لسلطة الإمامة، وظهر عمان موحداً لأول مرة منذ مئات السنين، واستطاع هذا الإمام أن يوجه هذا التوحد والتماسك الوجهة السليمة، وذلك عندما بدأ مرحلة الجهاد ضد البرتغاليين. وتمكن خلال عقدين من الزمان أن يطهّر معظم أجزاء ساحل عمان من السيطرة البرتغالية، ولم يبق للبرتغاليين إلاّ نقط قليلة على الأراضي العمانية الساحلية.

* لقد كان للجهاد الذي قاده الإمام (ناصر بن مرشد) ضد البرتغاليين في عمان صدى واسع في ساحل شرق إفريقية، حيث ثار الأهالي هناك على البرتغاليين، وألحقوا أضراراً بالمراكز البرتغالية، مما يثبت قوة الروابط الأخوية الإسلامية بين تلك المناطق وعمان والخليج العربي، ولكن البرتغاليين استطاعوا قمع تلك الثورات بوحشية وقسوة.

* استطاع العمانيون خلال فترة الإمام (ناصر بن مرشد) وبخاصة بعد تحرير ميناء (صحار) عام ١٠٥٣هـ / ١٦٤٣م - استطاعوا - استئناف اتصالاتهم التجارية مع المناطق والأمم المختلفة وبخاصة ساحل شرق إفريقية، وكسروا العزلة التي فرضها عليهم البرتغاليون منذ حوالي قرن ونصف قرن من الزمان، وأخذوا في تطوير وتنمية ميناء (صحار) واستعماله منفذاً للتجار العمانيين، الأمر الذي أدى إلى إرباك البرتغاليين في (مسقط)، كما أن النجاحات التي حققها العمانيون ضد البرتغاليين في تلك الفترة، واستعادتهم لمعظم المدن والقرى الساحلية قد أحبط مخططات الإرساليات التنصيرية الطموحة التي كانت تسعى إلى توطين عدد من نصارى الشرق وبخاصة نصارى العراق

في الساحل العماني.

* إن الجهود التي قام بها الإمام (ناصر بن مرشد) في توحيد عمان واضعاف شأن القوة البرتغالية، قد مهدت الطريق لخلفه الإمام (سلطان بن سيف الأول)، ومكنته من طرد البرتغاليين من بقية أقاليم عمان وتحرير (مسقط)، مبتدئاً بذلك مرحلة جديدة من مراحل الجهاد العماني ضد البرتغاليين.

* قام الإمام (سلطان بن سيف الأول) بعد تحرير عمان بسنتين، أي في عام ١٠٦٣هـ / ١٦٥٢م بإرسال حملة بحرية لنجدة المسلمين في ساحل شرق إفريقية استطاعت أن تهاجم المواقع البرتغالية هناك وأن تمد يد المساعدة والعون إلى مسلمي الساحل، كما أدت إلى قيام ثورة ضد البرتغاليين وقتل العديد منهم، ومهاجمة مراكزهم وحامياتهم العسكرية.

ورغم تواضع هذه الحملة وعدم تحقيقها نتائج حاسمة، إلاّ أنها برهنت للبرتغاليين أن أهالي ساحل شرق إفريقية لن يكونوا وحدهم بعد اليوم، كما أعطت سكان الساحل اطمئناناً على أن ذلك مقدمة لمساعدات كبيرة، وهذا يعكس بجلاء الروابط الأخوية والحضارية بين ساحل شرق إفريقية وعمان.

* أدرك الإمام (سلطان بن سيف الأول) أن الصراع مع البرتغاليين سيكون صراعاً بحرياً، ولذا فلا بد له من تطوير وتعزيز الأسطول العسكري العماني في الخليج العربي والمحيط الهندي، حتى أنه لم يرسل أي حملة عمانية خارج الخليج إلاّ بعد أن عزّز بناء البحرية العمانية.

* أوضحت الدراسة أن وجود القيادة المسلمة والمخلصة في البلدان الإسلامية كفيلة بتوحيد الكلمة في المجتمع الإسلامي، أو في البلد الإسلامي والحفاظ عليه من الأعداء وقيادته إلى مراتب عليا من المجد والأزدهار، وقد تجلى ذلك في ماقام به الامام (سلطان بن سيف الأول) عندما وجه الشعب العماني ومعه أبناء الخليج العربي لجهاد البرتغاليين سواء في ساحل شرق إفريقية أو في سواحل المحيط الهندي المختلفة، فقد جرّد عدة حملات بحريّة على المراكز والسفن البرتغالية في ساحل شرق إفريقية والخليج العربي وساحل الهند الغربي، الأمر الذي أضعف الوجود البرتغالي وحجّم خطره وساعد المسلمين ودافع عنهم في ساحل شرق إفريقية.

* أثبتت الدراسة أن ساحل شرق إفريقية ظل معتمداً في أمنه وحمايته على العمانيين منذ تحرير (مسقط) ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م، ويتضح ذلك من تأثره بالنزاع على السلطة في عمان بين الأخوين (بلعرب بن سلطان) و (سيف بن سلطان الأول)، ذلك النزاع الذي أدى إلى انحسار الاهتمام العماني بشؤون الساحل، وسحب القوة العمانية التي كانت ترابط هناك، الأمر الذي أدى بالبرتغاليين إلى استعادة بعض المدن التي حررها العمانيون، والقيام بعملية تأديب وقمع لأهالي الساحل.

* إن استقرار الأوضاع في عمان والخليج في تلك الفترة ينعكس إيجابياً على ساحل شرق إفريقية، فهذا الإمام (سيف بن سلطان الأول)، هب مسرعاً إلى نجدة المسلمين هناك، وذلك عندما أرسل أسطولاً بحرياً كبيراً استطاع محاصرة (ممباسه) منذ أوائل عام ١١٠٨هـ / ١٦٩٦م حتى سقطت عام ١١١٠هـ / ١٦٩٨م، وقام بعدها بعملية تطهير واسعة، ولم يأت عام ١١١٢هـ / ١٧٠٠م إلا وقد تم تحرير كامل الجزء الشمالي من

الساحل من الاستعمار البرتغالي، ولم يبق للبرتغاليين من وجود هناك إلاّ في (موزمبيق)، وبذا يكون الامام (سيف) قد توج جهود الائمة العمانيين بهذا النصر المبين.

* أدى طرد البرتغاليين من ساحل شرق إفريقية إلى معاودة الاتصالات الحضارية والتجارية بين الساحل وبين الجزيرة العربية والخليج العربي، ووضع الأساس لقيام حكم عربي إسلامي هناك، امتد لفترة طويلة، وهيأ الفرصة لعملية انتشار الإسلام واتساع نطاقه ليشمل أواسط القارة الإفريقية، حيث تغلغل التجار والدعاة العرب والسواحليون المسلمون إلى مجاهل القارة الأفريقية، وقاموا بإنشاء المراكز والمحطات التجارية في أعماق القارة، والتي أصبحت مراكز إشعاع حضاري إسلامي.

* أثبتت الدراسة أن القوى الأوربيّة الأخرى وبخاصة الانجليز والهولنديين، ظلوا في موقف المحايد من الجهاد العماني ضد البرتغاليين، بل أنهم تعاطفوا مع العمانيين في كثير من مراحل الجهاد، لأن إضعاف البرتغاليين أو القضاء عليهم يخدم مصالحهم التجارية والسياسية، ولكن الوضع انقلب في أواخر عهد الإمام (سلطان بن سيف الأول)، عندما أصبحت القوة البحرية العمانية في المحيط الهندي قوة مؤثرة، وبدأ الانجليز خاصة يتهمون العمانيين بالقرصنة، وأخذ مسؤولو الشركات الانجليزية والهولندية يلحّون على سلطاتهم بضرورة وضع حدٍ للتفوق العماني، وأوشكوا على التعاون مع الفرس التواقين إلى كبح جماح العمانيين واحتلال (مسقط)، ولكن السلطات السياسية كانت تتريث في هذا الأمر، وبلغ ذلك ذروته في عهد الإمام (سيف بن سلطان الأول)، وذلك حينما دخلت فرنسا طرفاً في ذلك،

ووقع كل من انجلترا وهولندا وفرنسا على معاهدة عام ١١١٢هـ / ١٧٠٠م والتي سميت معاهدة حماية المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر من القراصنة، وهي في حقيقة الأمر معاهدة ضد القوة العمانية، وقد تطورت تلك الأوضاع في العقد الأول من القرن الثامن عشر الميلادي لدرجة انصرف العمانيون بسببها عن ترسيخ نفوذهم وتأمين انتصارهم في ساحل شرق إفريقية، وجعله عرضة لمحاولات برتغالية متكررة لاستعادة السيطرة عليه، ورغم تلك التحديات، إلاّ أن القوة والسلطة العمانية ظلت مهيمنة حتى وفاة الإمام (سيف بن سلطان الأول) حيث دخلت عمان مرحلة جديدة من تاريخها.

* انعكست تلك الأوضاع المتردية في الخليج على ساحل شرق إفريقية الذي ظل محرراً حتى عام ١١٤١هـ / ١٧٢٨م، وذلك عندما استطاع البرتغاليون السيطرة على (ممباسه) مرة أخرى، ولكن تم طردهم منها ومن القسم الشمالي من الساحل نهائياً، على يد العمانيين وأهالي الساحل بعد سنتين من ذلك، أي في عام ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م. لتبدأ مرحلة جديدة من تاريخ الإسلام هناك، تميزت بالازدهار والاستقرار، وأخذت الهجرات العربية والإسلامية بالتدفق إلى تلك المناطق.

* أوضحت الدراسة أن الرغبة في الجهاد هي المحرك الرئيس للعمانيين ضد البرتغاليين خلافاً لما ذكرته بعض المصادر الأجنبية، ومن نقل عنها من أن القرصنة هي الدافع الأساس لعمليات العمانيين البحرية، لأنه لا أحد يستطيع أن ينكر أنه كان بإمكان العمانيين وأبناء الخليج الآخرين الاتّجار مع المناطق المختلفة دون حرب، وهي مسألة ميسرة، ولأن المعارك البحرية التي جرت بين العمانيين والبرتغاليين أضرت أكثر من مرة بالتجارة العمانية، وقد حاول البرتغاليون خطب ود

العمانيين ومصالحتهم، وهذا يوفر مناخاً صالحاً لانتعاش التجارة العمانية لو كانت التجارة هي الهم الوحيد عند العمانيين، ولكن الثابت أن الجهاد ولاغيره هو الذي دفع العمانيين إلى ذلك.

* أوضحت الدراسة أن الأئمة العمانيين لم يقوموا في أي مرحلة من مراحل حكمهم بالتحمس لنشر المذهب الإباضي خارج عمان وبخاصة في ساحل شرق إفريقية، فالأئمة من اليعاربة لم يرتكز جهادهم في أي مرحلة من مراحله على اتباع المذهب الإباضي، بل كان لأهل السنة فيه دور فاعل وكبير، وقد شارك فيه معظم سكان عمان على اختلاف توجهاتهم الدينيّة بمن فيهم القبائل التي لاتتبع المذهب الإباضي.

* أوضحت الدراسة أن الجهاد العماني الذي أدى إلى طرد البرتغاليين من ساحل شرق إفريقية قد فتح آفاقاً جديدة من العلاقة بين تلك المناطق وبين الجزيرة العربية، وهيأ المناخ الصالح لأن يقوم الإسلام بدوره الحضاري في المجتمعات الإفريقية الحديثة والمعاصرة، وأصبح ساحل شرق إفريقية مسرحاً حياً لنشاط عربي اسلامي، لعب دوراً بارزاً في تاريخ إفريقية الحديث والمعاصر.

العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق
إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي
في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد
الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية
العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق
إفريقية ال
في شرق إف
الإسلامي ف
العمانيون و
إفريقية ال
في شرق إف
الإسلامي ف

الملاحق

ملحق رقم (١)

جدول خاص بفترات حكم أئمة اليعاربة العمانيون

الإمـــام	مدة حكمه
(١) الإمام ناصر بن مرشد	١٠٣٤ - ١٠٥٩هـ / ١٦٢٤ - ١٦٤٩م
(٢) الإمام سلطان بن سيف الأول	١٠٥٩ - ١٠٩٠هـ / ١٦٤٩ - ١٦٧٩م
(٣) الإمام بلعرب بن سلطان	١٠٩٠ - ١١٠٤هـ / ١٦٧٩ - ١٦٩٢م
(٤) الإمام سيف بن سلطان الأول	١١٠٤ - ١١٢٣هـ / ١٦٩٢ - ١٧١١م
(٥) الإمام سلطان بن سيف الثاني	١١٢٣ - ١١٣٢هـ / ١٧١١ - ١٧١٩م
(٦) الإمام سيف بن سلطان الثاني	(الإمامة الأولى - عام ١١٣٢هـ - ١٧١٩م)
فترة الحرب الأهلية	
(٧) الإمام مهنا بن سلطان	(أواخر ١١٣٢هـ - ١٧٢٠م)
(٨) الإمام سيف بن سلطان الثاني	(الإمامة الثانية - ١١٣٣هـ - مايو ١٧٢٢م)
(٩) الإمام يعرب بن يلعرب	(أواخر ١١٣٣هـ - أوائل ١٧٢٣م)
(١٠) الإمام سيف بن سلطان الثاني	(الإمامة الثالثة أوائل ١١٣٤هـ - ١٧٢٤م)
(١١) الإمام محمد بن ناصر الغافري	(أواخر ١١٣٤ - ١١٣٧هـ / ١٧٢٤ - ١٧٢٨م)
(١٢) الإمام سيف بن سلطان الثاني	(الإمامة الرابعة ١١٣٧ - ١١٤٦ / ١٧٢٨ - ١٧٣٣م)
(١٣) الإمام بلعرب بن حيمر	(١١٤٦ - ١١٥١ هـ / ١٧٣٣ - ١٧٣٨م)
(١٤) الإمام سيف بن سلطان الثاني	(الإمامة الخامسة ١١٥١ - ١١٥٥هـ / منتصف ١٧٣٨ - أوائل ١٧٤٢م)
(١٥) الإمام سلطان بن مرشد	١١٥٥ - ١١٥٦هـ / ١٧٤٢ - ١٧٤٣م
(١٦) فترة المنافسة بين أحمد بن سعيد البوسعيدي وبلعرب بن حمير	١١٥٦ - ١١٥٧ هـ / ١٧٤٣ - ١٧٤٤م.

المصدر : الأزكوري ، كشف الغمة ؛ السالمي ، تحفة الأعيان، ج ٢.

ملحق رقم (٢)

وثائق برتغالية مترجمة إلى الإنجليزية

أ - وثيقة مؤرخة في ١٠٥٨هـ / ٣٠ اكتوبر ١٦٤٨ وهي معاهدة الهدنة بين العمانيين والبرتغاليين.

المصدر : (10R) I/3/140, 59, fol.88. .

ب - وثيقة مؤرخة في ١٠٦٠هـ / ١٨ ديسمبر ١٦٥٠ توضح الظروف والملابسات التي أدت إلى سقوط مسقط بيد العمانيين والجهود البرتغالية التي بذلت لاستعادتها ومنع امتداد نفوذ العرب إلى المناطق الأخرى.

المصدر : (10R) I/3/140, 60, fol. 331. .

ج - وثيقة مؤرخة في ١٠٦٤هـ / ٢٨ يناير ١٦٥٣م تبيّن مدى الأضرار التي لحقت بالمراكز البرتغالية في ساحل شرق إفريقية من جراء الحملة العمانية الأولى إلى هناك عام ١٠٦٣ هـ / ١٦٥٢م والأثر الذي تركته تلك الحملة على سكان الساحل وإذكائها روح المقاومة والجهاد لديهم ضد البرتغاليين، كما تبين هذه الوثيقة المواجهات العسكرية التي حدثت بين العمانيين والبرتغاليين في الخليج.

المصدر : (10R) I/3/141. 56, fol. 466. .

Books of the Monsoons

Documents transmitted from India

Book 59

Fol: 88

1648 — October 30.

Articles of the Peace Treaty entered into between the Imam Nazar Ben Murzeti Ben Malique, and the Captain General of Mascate, Dom Jileanes de Noronha.

On the thirteenth of the Moon of Erale, which may God bring to a happy ending, 1058, and of the Era of the Portuguese 30th of October 1648, there being together on the shores of Reame the Xeque Sultan Ben Sefa Ben Malique el Morbi General of the whole Military Force and the Ale of the Imam Rayete Ben Salemo and another Ale of the Imam Aley bon Adula Rotaria, and the Xeque Sefo ben Aly Ben Sali el Basomy, all these being on the part of the Imam, and on the part of the Senhor Captain General and Comptroller of the Exchequer Valentim Correa, the Reverend Father Vicar of the Vara of the registry of this Fortress, Manuel Antunes, Manuel Varella, Captain of the rate of the married men, Antonio Barbosa, a married man of this Fortress, the Xeque Sultan Ben Sefa with all the Authority and orders he holds from the Imam, and the

1.0

said Comptroller of the Exchequer, with all the powers and commands of the Senhor Capitam General there was debated amongst them both which had this order to reinstate the treaty of peace on account of the war which existed between the Captain General and the Sultan Ben Sefo in these parts and Mascatt, and all that exists under the power of the King of Portugal the Senhor Dom Joao IV in these parts, and both these persons taking oath each in presence of the other which are the Legate Sultan Ben Sefo Ben Maleque in the judgement of God and upon the book of God Our Lord which is the law which God ordained, in the name of the Imam, and on his part and the Comptroller of the Exchequer Valentim Correa on the part of the King of Portugal and the Senhor Capitam General Dom Filippe de Noronha in his name, took oath on the Missal which is that of the holy Gospels which is the El nigil (sic ?) which God ordained through Jesus Son of Mary, in order that peace should be made between them to stand firm, and to be likewise kept, and held between them in friendship of great stability, without any default whatever, neither of them to be wanting to this peace,

nor do less than what is promised by the articles which are declared in this Contract of peace, each one to adhere to the oath and pledge word which each has given in this agreement in God, who is the best witness.

First Clause of the Peace Articles

That the Portuguese shall raze to the ground the Fortresses of Curiate and Doba and in the same manner the one held in Matura and that the Imam shall also raze to the ground the one he holds in Matura; and Matura shall not remain in the possession of the Imam nor in that of the King of Portugal; the ward shall remain for the one and the other and each shall take his artillery and his apparel.

That the ships of the Imam Nacer Murszeto shall freely navigate to any port they may please, and return also navigating with Charters of the King of Portugal, and all vassals of the Imam shall pay no dues in Mascatt, and shall have all merchandize free of duty, and will pay no dues in entering or leaving Mascatt.

That all traffic shall be free each one to sell freely, and there

1036

shall be no restriction of command ~~over~~ or power over purchases.

That the words (posts) which are under the power of the Arabians shall be razed to the ground by them, and the Portuguese shall erect no walls on their sites and by these means they will be friends with a pure friendship, the Imaam and the King of Portugal, friends of friends, and enemies of enemies and the Portuguese shall work no evil on the Arabians and the Portuguese shall erect no walls excepting on places which they hold in their power and similarly the Imaam will work no evil on the Portuguese and their vassals and these articles and what is therein declared they take their oath each one of them to keep faithfully according to their law and will put their signature with their hand both in their hand writing.

That when the arabian owners of the apparel which came in the vessel belonging to Martim Rodrigues, shall declare where it was left, in whose power, the Portuguese shall see that it be given to its owners.

Signatures

Present, to what was written -

Sultan ben Seyf ben Malique

Ali Yorty, by his own hand signed in presence of God as a sufficing Witness.
Present, to what was written, the servant of the Imam, and Servant of God Alibin Aluba ben Said Nostagi.
Present to what remains written Rayeb ben Saleme Ali of the Imam on the Vands Hismael who witnesses this.
He who had it written by his own hand, Sebo Esa Aliben Sale. =
It agrees with the original which remains with the Captain General Dom Gillianos de Noronha, by me Gonçalo de Lima, Scrivener of the Exchequer and Factory for his Majesty in this Fortress of Mascate, this day the 15th of December 1648.
Gonçalo de Lima. —

(15)

Books of the Monsoons

Documents Remetted

2

Book 60

Fol 331

Letter from the Viceroy of India, to the King.

1650. December 10
Copy.

Senhor = After despatching the Galleon "Santo Antonio" from Maza-cao bound for that Kingdom, there came to hand on the 18th of last Ja- a letter from the Captain Dom Francisco Gomez da Silva wherein he gave me an account of the arrival at that port of a vessel of his having on board 700 persons from Mascate, which persons he had been sent on board by the Captain General Francisco de Tavora de Athaide by reason of the Arabian entering the Town by night, and taking possession of the same with the loss of many men, this entry not having met with any defence nor even vigilance, although labouring under a siege by the said Arabian, and the rest only taking place in three days owing to which the General retreated to the Fort on the heights, whilst there remained at the Factory food supplies, gun powder, muni-tions and arms, and along with what subsequently followed, well might both the one and the other

Stronghold ~~could~~ have been supplied because it was in the Regiment that the food stores should be kept both in the fort and in the fortress, and so great was the hurry and fear that no considerable quantity was saved.

With such a news so different from what I had expected, viz. that Stronghold was well-provided, I at once summoned a Council and it was voted that Lopo Gomes de Abreu should go as Captain General, and therefore I appointed him to the post and in a few days time two galliots ~~were~~ made ready with 80 men water money and food supplies, gun powder and munitions (notwithstanding that a large quantity of these goods had been embarked in private patayos which had been sent to Barcelor to load) and on this relief being despatched, there were sent to the North some patayos with food and men, and I made Francisco Moniz to despatch in like manner four vessels well equipped of the Fleet of the North, under the command of the Captain in Chief of Diu, or some person of experience.

This relief would have amply sufficed, not only for the conservation of the Fortress and independent

but for recuperating the losses, but this was thwarted, however, because the Fortress and all else of that strait were found to have surrendered, the Fort on the 23rd, and the Fortress on the 26th of January, with small cost and strength of the Arabian at a time when the Stronghold was best provided and garrisoned, more so than at any other occasion: and so many were the causes that concurred to this loss, and were worked by those in whose charge was its defence for the same effect, that it can only be credited that the men had endeavoured at any purpose to deliver it up. the real Moors who were in the service of Your Crown by acting with very little loyalty and bravery...! who should as Vassals of Your Majesty have sacrificed their lives, and this is so greatly the case that the Arabian himself acknowledges that he never deemed to should see himself Master of the situation, inasmuch as the object of the war was nothing further than that peace should be held, or a Truce, and in truth this event was one of sorrow to some of the Vegues, with the result that one of them came here to solicit on the part of many others, that

we think return to Arabia, because some of the Cabildos (tribes) were ready to come to terms with us. This Senhor, makes the shameful event of to-day a subject of great regret, and of grief in view of a possible [illegible] -ment, and in order that individuals should employ themselves on similar occasions, it is necessary to act as I have represented to Your Majesty. The Soldiers, besides being few in number, are of a character which precludes expecting any improvement, at least from those I have at command, rather to the contrary, I experience great [illegible] of them for reasons which I cannot state but with deep sorrow for I love the service, and am zealous for the credit of Your Majesty, and am always personally vigilant, and not behindhand in spending my own means when the case demands it because the Exchequer of Your Majesty is in a very exhausted condition, and the way in which I attend to that Fortress and have always done, as well as to the [illegible] Fortresses that needed relief is well known and will have been made clear to Your Majesty by the road the Ca[illegible] "São [illegible]" and "Santo André," in which I gave Your Majesty an account of the first disturbance, and this at a season

when the State had been left without reinforcement of Ships for three years, but for my sins, this case will not repair one bad event.

An enquiry was instituted in the case, punishment meted to those who most greatly deserved it; for in truth all those who deserted that Stronghold, very soon after lost their lives, and even the dead, had they lived, would have shared the same fate. Thus, Francisco de Sarra, General of that Strait died a few days after surrendering to the Arabians. Francisco Delgado, Captain of the Forts also ended his life soon after; Bras Caldeira de Mattos, in whose Charge was the Fleet, came flying with it to Diu, without attempting to relieve Mascate in [illegible] as he could well have done, and which would have prevented losing her — by which event I also ordered an enquiry be made by competent persons, and the reason why he was not apprehended by Manoel Moniz da Silva. This Enquiry together with that on the loss of Mascate I forward to Your Majesty with another letter of this same via, as well as a duplicate copy of a letter which I wrote to Your Majesty in Cipher and that I sent by the English Ships which

-4

which departed from this bar in May last.

I proceeded to arrange the affairs of the Strait as soon as Muscate was lost, in order to make [illegible] to the Arabian for which purpose I wrote to Bartholomew Rodrigues de Faria, Assistant at the Congo for him to advise me of the States of the Persians and to have a conference with the Can of Sara who governs the low lands; and I likewise wrote to [illegible] Governor of Sinde, and to the Sodagres so that no disturbance take place, and in accordance with the advices received I made arrangements for despatching in [illegible] her last seven Galliots very well equipped, both of men as of all necessary engines of war to proceed to Sinde, and convoy the Convoy to the Congo, and there treat upon some means with the Persian in order to make war to Arabia and practically carry out the delivery of [illegible] in exchange for helping us to effect a free passage so as to acquire [illegible] lordship of Arabia, or through fear of its being occupied by the Persian, to reduce him to deliver up to us Muscate, or afford us a port in order to be able to take shelter; and whereas it became necessary that

some person of authority should assist at the Congo, I nominated Duarte da Costa Homen with the title of Administrator of the Exchequer of Your Majesty in Persia and Sinde, who took a Prescript with instructions as to what he should carry out.

The War of Arabia demands a larger power and some one to govern the Fleet which runs in that Strait, but which for the [illegible] I have not sent any one, both because the strength is inferior due to no more [illegible] having arrived from that Kingdom, as because I am not yet decided who would be the most proper individual, as there are so few who are competent, as I have signified to Your Majesty. Nevertheless I am resolved upon furnishing the seven Galliots, and add to the number as many more as time and the necessities of this State should permit, and should there be forces to do so for forming an adequate Fleet, I will go over to the Strait in person, and I would even consider it preferable to end my life there in it, than experience anything further from the individuals Your Majesty has in this State.

May God guard the Catholic

(22) 8

and Royal person of your Majesty
as Christendom and the vassals of your
Majesty have need.
Goa 18th December 1650.
Dom Filippe Mascarenhas.

(5)

Books of the Monsoons

Document transmitted from India

Book 56

Fol. 466

Letter from the Viceroy of India to the King

1653. January 28

Copy

Senhor = The former government Gave Your Majesty an account by letter of the 26th of December last 1651. of the Fleet which it sent to the Strait of Ormuz under the command of Antonio de Souza Coutinho and what after its arrival it had worked, and I judged proper to afford some information to Your Majesty of what was done: on departing from here on the 16th of March it entered the Strait of Ormuz and found the Arab so overbearing, that he came to encounter the Fleet outside the Bay of Mascate, the Fleet consisted of thirteen rowing vessels, four galliots two galleons, and one patacho, all fully supplied for eight months, manned and defended by a thousand seamen and war soldiers; but as the enemy perceived that he had small chance he retired into the bay beneath the fortifications, and some say that from whence the Fleets sighted one another, our ships might have opened fire before the enemy could have withdrawn to their great damage;

a patayo and a Caravel which had remained outside our men took with small resistance, and had our Fleet gone in pursuit, as is affirmed, most undoubtedly the Fleet of the Arab would have been burnt down within the Bay, and even had obtained the result of some good success, because the men abandoned the shipping. Antonio de Souza Coutinho [illegible] on to Cassapo endeavouring to make there a fortress on the one side [illegible] having the work was commenced because the natives (Vogue) offered to build it in our assistance, he set the artillery on there and at the news which arrived that the Arab was coming in demand of the fortress, our men left the port withdrawing the artillery and the (Vogue) came away with them from that place. Antonio de Souza despatched the two Galleons and one of the captured vessels to India, and he himself returned to Persia where he was very badly received, and there was taken for the Exchequer of Your Majesty 10 or 11,000 pardaos from a vessel which our men had taken as a prize; and were about to return to India without working more than the aforesaid, when it so happened that the Arab General

195

being a brave man, on understanding the way our men had acted, went to encounter them without being aware that the two galleons had come; the fleet of the Arab consisted of nine rowing vessels, five patachos, and eighty terradas. Antonio de Souza was at the Island of Queixome in the shallows of the river Lafeta of the Point of Bermeas, and when within musket shot of said fleet, our set sail and remained at anchor, because they could not take the patacho of Luis Coneâ de Sousa, and the galliot of Antonio Lobo da Gama. and Imand Aly (?) boarded the patacho of ___ Ga, believing her to be our flag ship, and with the fire which was made from side to side, the enemy's galliot was burnt and Aly, it is said, escaped with three wounds in the boat of our patacho. Three galliots of the said enemy made for the one of the Captain Antonio Lobo da Gama, who, on finding himself boarded, set fire to his galliot, dying in her, and solely six souls were saved, and with this event the whole of the fleet ran ashore in a disorderly manner, flying in terror along with three or four light vessels. One of the larger vessels which

had ran aground, placed herself on the defensive, and because our ships which approached her, slew one of the Captains and wounded some of the soldiers, sent a white flag to Antonio de Souza offering surrender, and shipping was given to proceed ashore.

I have made this report with all details to Your Majesty because I sought information from persons who were truthful and trustworthy and could afford me an account of what had really taken place from which resulted some despatches, and grants of investiture and patent of nobility, which I did not confirm, because I did not deem the action as worthy of them, but Your Majesty will be pleased to order on the aforesaid, what Your Majesty may deem right, considering that the event was very well for the occasion and time, but to God are thanks due for as much as He worked in a miraculous manner with repugnance on our part, for the enemy remained with abated power, and we are able with very little to man the Strait, which, owing to there being at the present time no other commerce, I have understood that the two vessels which Antonio de Souza left there, should be maintained

for which purpose I remain treating
about their relief as soon as I des-
=patch this vessel to the Kingdom.
For many years past Mom-
=basa has been left without relief,
The King of Pemba is in revolt, the
Islands are unquiet, the Arab went
to infest them with his vessels and in
Zanzibar slew some Portuguese,
and Religious of the Order of St Augustin
for which reason I am equipping six
vessels to send and which are
almost under negotiation to start
at the end of this month. I nomi-
-nated as Captain in Chief of them,
Nicolau de Moraes de Brito, a
fidalgo, and one who serves Your
Majesty with satisfaction. May
God guard the Catholic and royal
person of Your Majesty. Goa, on
the 22nd of January 1653 — The
Count de Obidos

ملحق رقم (٣)

أ - الصفحات ١ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، من وثيقة انجليزية مؤرخة في عام ١١٠٦هـ / ١٣ مايو ١٦٩٥م وهي عبارة عن رسالة من رئاسة الشركة في بمباي إلى إدارة الشركة في لندن شرح فيها مسؤولوا الشركة في الهند الأخطار التي بدأت تهدد التجارة والسفن الإنجليزية من جراء نمو قوة العرب العمانيين، ويقترحون ضرورة اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لكبح جماح العرب، كما أنهم حثوا الشركة على المشاركة في الحملة التي تسعى فارس لإعدادها لضرب القوة العمانية واحتلال مسقط.

المصدر : .(10R) E/3/51. No. 6039 .

ب - وثيقة عربية مؤرخة في ١٥ شوال عام ١١٠٦هـ ٢٠ مايو عام ١٦٩٥م. وهي عبارة عن رسالة من الإمام سيف بن سلطان الأول إلى رئاسة شركة الهند الشرقية الانجليزية في بمباي والتي أوضح فيها موقف العمانيين من الاعتداءات التي كانت تتعرض لها السفن التجارية الإنجليزية من القراصنة الذين كانوا يوجدون في تلك المناطق، وينفي قيام العمانيين بذلك، وكذلك يوضح فيها رغبته في استمرار العلاقات الحسنة بينه وبين الإنجليز.

المصدر : .(10R) E/3/151, No 6044 .

To the Hono^ble the Govern^r the Dep^ty Gov^r and Comitt: for the R^t H^ble Eng: East India Comp^a

6039

Your Hono^rs of the 6^th June by Shipp Benjamin ... Mocha ffriggatt & Tonqueen, wee Rec^d y^e 15^th May, to wch humbly answer.

2 For w^t in your Hono^rs first Parragraph ... the Late & Present President & Councill, wee humbly refer you to ... present Presid^ts Answer, the latter p^t thereof & y^e 2^d Parragraph wee have answered in ours of the 11^th ffebruary 169½, to wch desire to be referr'd.

3 Of your Hono^rs Small Shipping, the Hunter was sold ere John Gayer arrived here, the Josia ffriggat Since, and the Ruby was put to Sale by the Candle, but none bid for her, afterw... through the Non arrivall of your Hono^rs Shipping, wee were ne... ... to make use of her as a Guard Shipp. y^e Wm & mary, Emerald, Josia & Benjamin Yatch being all Imployed viz^t y^e Wm & mary for a Voyage to y^e Mallabar Coast & Persia, but on y^e Arrivall of y^e Thomas wee let your Hono^rs have her Cargo, else wee could not have Compli... with your orders in lading 200 Tonns of Pepper on board said Shipp wch wee fully designed to do till y^e Brokers altered her voyage, ... Hono^rs will Receive by our Letters to & from Surat, Graine growing ... dear in all Parts about us, and the exportacon thereof from ... ...geez Countrey prohibited. Wee were under a necessity ... ... Conjeemeer ... Tirrale pattam to convoy ... ... boats from thence & afterwards having no news of ... your Hono^rs Ships at Persia, wee Sent her thither for your ... Carmania Wooll. the Benjamin Yatch hath been imployed all y^e yeare to & fro on the Mallabar Coast, Canwar & Surat ... Yatch to Sindy on Freight, where wee expected to have ... good Quantity of Salt Petre & Salarmoniack, but of y^e latter ... could not procure above two or three Tun ... ... about 800 mds Surat, but it being but once boyled ...

Marginal notes: The Comp^s Letters of y^e 6^th June by y^e ... Tonqueen rec^d y^e 15^th May; ... the Late & Pres^t Presid^t & Council ...; Hunter & Josia friggat sold, Ruby offered to sale ...; Ruby ... Guard Ship; W^m & Mary sent to Mallabar ...; ... Cargo spared y^e Thomas to ... Pepper ...; The Emerald ... for Corn & ... boats ...; ... for Carmania Wooll ...; ... yatch ... on the Mallabar Coast ...; ... Salarmoniack ...

[margin: The Thomas ... to Persia ... to bring back ye produce of ... goods]

48 The Thomas (who sayld the 5th may from Surat Rivers mouth.) being gone to Persia ffreighted by these Countrey merchants, by wch shipp at her returne wee expect considerable of ye produce of the Cargoes of ye Nassau & Mary; wee are dispatching ye Mocho ffriggatt with all possible speed to try if she can save her Passage thither, that she may accompany ye Thomas from thence the better to secure your Honors estate, & a freight for both ships from thence, for what thro ye noise of this Pyrate, ye insolency of ye Arrabs, & ye rumour of ye ffrench [illegible], wee believe none will lade on a single shipp.

[margin: Mocho friggat going after her]

[margin: a french Pyrate that was in those seas 2 years ago ...]

49 There hath been a ffrench Pyrate in these seas about 2 years of ye force of ye above, wch was at Rajapore a little after ye last raines in order to her repaire, but being jealous of ye Savages having some designe upon them, did not stay, but put out againe although very leaky with a groab ye they bought at ye premenconed place sailed for Moheila, where they arrived and repaired their ship, but coming to saile from thence designed for Martanecca, ye Currant sett her on a ledge of rocks, where she bilg'd & sunk while Capt Edgcome &c lay at Johanna they being informed six of the ships men were on yt Island, forced ye Govr to deliver them up, by wch meanes ye Comand got 600 Venetians and Guilders that they had about them; they also took a small Countrey vessel that ye Pyrats had bo: for their use; & having spent about 7 dayes time at Johanna, proceeded to Moheila, where they were informed ye Ship lay sunk, and that ye men were all on a small Island yt lyeth some distance from ye Island Moheila, being arrived there ye Comanders informed themselves of ye Condition of ye Shipp, & then went to ye forest small Island, but ye ffrench were all gone from thence to Moheila where ye Captns spent about 10 dayes (as they say) to get ye ffrenchmen who were in number about 60 = to prevent their further piracy tho ye the 600 pss Gold got from ye other 6 was undoubtedly a great motive, but they finding all their endeavour to effect this insufficient, got wt possible they could out of ye wreck, & then burnt her. The Comandrs say they lost no time in ye doing all this, for yt if they had made ye best of their way from Johanna, they should not have arrived India sooner then they did by reason ye Nerly winds had not done blowing; but its well known that ships that have lost their passage by going within St Lawrence have arrived India in March & Aprill, & ye Nassau tho she went not

[margin: for Mohila & ... lost]
[margin: Capt Edgcombe &c tooke a small vessell ... with 6 of them men at Johanna]
[margin: where stayd 7 days]
[margin: then went to Mohila]
[margin: stayd 10 days more]
[margin: getting what they could ...]

with

within, fell so farr leewardly as to make Massera, notwithstanding she got to Persia about ye Last of January, & ye Mary wch went within was there soon after her; from wch port after ye Nassau was Laden, they both came away about the 12th of March, & ye Nassau arrived here ye Last of that month, having parted wth the Mary about three daies before; had the Benjamin, Mocho, & Tonqueen frigget arrived Surat by ye beginning of Aprill, their Cargoes in all probability had been immediately dispos'd of; ye two former wd have been Laden to Persia, & had good ffreights out & home, & then ye Thomas's Voyage wd not have been altered; but she wd have been dispatcht while the weather had been good for Engla & ye Nassau wd have had her freight; ye also wd have greatly rais'd your Honrs reputation with the King of Persia & ye Mogull by sending three Shipps into ye Gulf at this time, when ye trade there is so disquieted by ye Arrabs & Pyrats, & its probable if wee wd have assisted ye former in his expedition (wch wee hear will be great) against ye Arrabs, ye your Honrs Arrears wth that King might in a great measure been made good to you, & your enlarg'd trade much encouraged, besides a nest of Pyrats destroy'd, & ye also ye Tonqueen wd have gone to China in time, but now it's so late & ye weather so bad, its on ye wee feare very much whether she or ye Mocho ffriggat will be able to proceed as wee have advised. What accot wee have recd from ye Captn of what they took out of the wreck, is inclosed; its humbly referr'd to your honrs to determine to whom it belongs.

29 Wee humbly crave leave to represent to your Honrs ye wee are greatly concern'd ye after your affrs have so much suffer'd by Pyrats, there should not be one word in ye Captn Comissions to impower them to take them.

29 About the middle of March a ffrench ship of about 40 Guns belonging to ye F. Compa, who departed ffrance in may 1694 was plying up this Coast, and being anchored off Mangalore in the morning two great Arrabs Ships (as reported) one of 80 Guns ye other 50 with severall small vessells stood off to her, & being neare ye Great Shipp fir'd one Gunn without shot, wch ye ffrench answer'd presently, after that ye Great Shipp gave her a broadside with shot the ffrench quickly returned ye same, & then the two Great Ar[illegible]

Margin notes:

[illegible] left march [illegible] from [illegible] the 12 ... mary parted [illegible] 28

[illegible] follow'd ye [illegible] [illegible] ye mocho friggot

[illegible] arrabs [illegible] the arrabs [illegible] might [illegible] arrears [illegible]

[illegible] of what taken out of [illegible] inclosed

[illegible] Com[illegible] dont empower them to take Pyrates

great arab Shipps [illegible] a french ship [illegible] mangalore [illegible]

boarded him, between whom and the French was a sharpe conflict, in the French Capt. & 12 more were slayne, & about 16 wounded, but y^e French by cutting their cable got away; its reported the Arrabs lost a great number of men, the French shipp put into Goa where she remained by the last ... weeks from thence; and its probable she will be Laden there for ... haveing she hath already taken in ... that a Portugeeze shipp brought from Bengalle, its our present thoughts that her money & goods will ... to Surratt in a Portugeeze shipp & that y^e same will carry goods ... to compleate her lading.

21 The Arrabs have lately destroyed many of y^e Portugeeze mangalore rice fleete, and burnt their factory there and all else belonging to them, putting all of that Nation they found to the sword.

22 By the Coppies of our lres y^t accompanies this to & from all places, your Hono^rs will have a Prospect of your affairs.

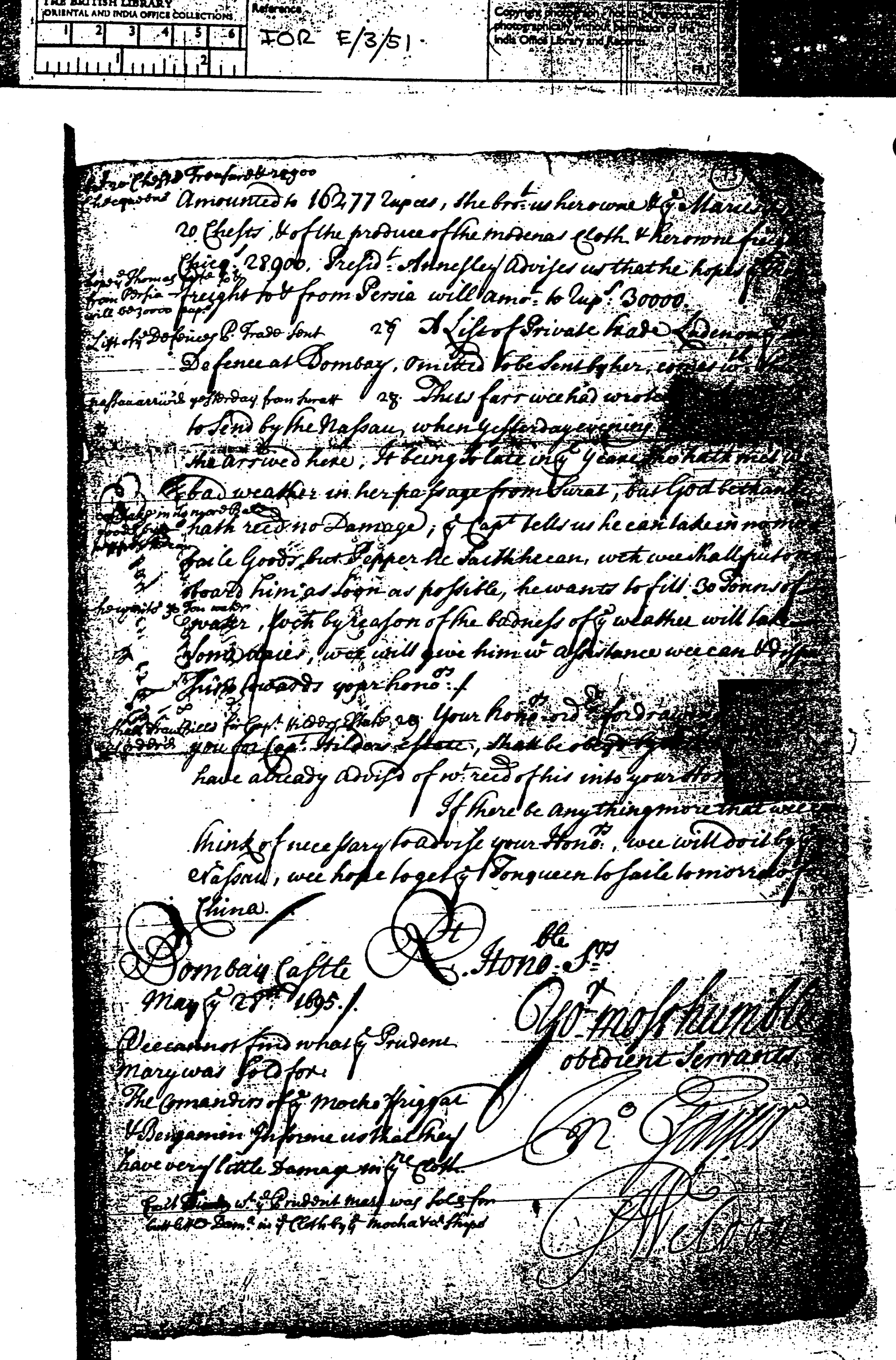
23 Wee have about 300 Candies Bombay Pepper on this Island, this commodity as wee have already advised is very ... in all places, & yet wee think it your Hono^rs Interest for us to ... what wee can, considering your Contract w^th the Owners of your ... of their Lading to be in y^t kind of Goods, to w^ch wee may ... endeavours of y^e Dutch to engross to y^m selves y^e peculiar benefit of y^t trade.

24 By these three shipps wee have rec^d 18 Souldiers, wee have long waited for a larger number, these small supplyes dont encrease our Stock; notwithstanding w^ch wee resolve God willing this muster to make a beginning to retrench our charge of outguard X^tian & Gentue Souldiers; wee have forborne hitherto for that the Inhabitants who are restored to their estates of w^ch ... consists were under a necessity of spending their whole time in their Ortas, to put them into a condition to produce fruite whereby to capacitate them to pay their fines and Pensions.

25 Our Muster Rolls of this month, with a List of your Hono^rs Servants on this side India, accompanyes this.

... Coppies of our lres & formans & Consultacon booke

... the Nassau fell when she came from Persia



Two Chests Treasure 28900 [illegible]

Amounted to 16277 Rupees, she bro.t us hereowne & ye Marie [illegible] 20 Chests, & of the produce of the modena's Cloth & hereowne [illegible] China 28900. Presid.t Annesley Advises us that he hopes [illegible] freight to & from Persia will amo. to Rup.s 30000.

Capt Thomas freight from Persia will be 30000 Rups

List of Defence Priv. Trade Sent

27 A List of Private Trade Laden on [illegible] Defence at Bombay, omitted to be Sent by her, comes [illegible]

Nassau arrived yesterday from Surratt

28. Thus farr wee had wrote [illegible] to send by the Nassau, when yesterday evening she arrived here, It being so late in ye yeare she hath met w.th bad weather in her passage from Surat, but God be thank[ed] hath rec.d no Damage; ye Capt tells us he can take in no more fine Goods, but Pepper he saith he can, wch wee shall put on board him as soon as possible, he wants to fill 30 Tonns of water, wch by reason of the badness of ye weather will take some time, wee will give him w.t assistance wee can & dispatch [him] towards your hono.rs.

Shall draw Bills for Capt. Hildes Estate

28 Your hono.rs ord.r for drawing [illegible] you for Capt. Hildes Estate, shall be obeyed [illegible] have already advised of w.t rec.d of his into your Hon[ours illegible]

If there be anything more that wee think of necessary to advise your Hono.rs, wee will doe it by ye Nassau, wee hope to get ye Tonqueen to saile tomorrow for China.

Bombay Castle
May ye 28th 1695.

Rt Hono.ble S.rs

Yo.r most humble obedient Servants
Jno. Gayer
J. Weldon

Wee cannot find what ye Prudent Mary was sold for.
The Comanders of ye Mocha Friggat & Benjamin Informe us that they have very little Damage in ye Cloth.

Can't find w.t ye Prudent Mary was sold for
little Dam.e in ye Cloth by ye Mocha & [illegible] Ships

من الفقير الى الله وبه الغني امام المسلمين سيف بن سلطان بن سيف بن [illegible] اليعربي

الى الشيخ الحبيب الكبتان الانجريز بمبي نسال الله سلامتكم من كل الحوادث [illegible]

وبعد فتكون ان شاء الله بخير مسرور وكتابك الشريف وصل وفهمنا معناه [illegible]

وسرنا حال سلامتكم الشريفه بحسن الطافكم والفاظكم اللطيفه وذكرت [illegible]

المحجور عليه وما صار من الامر والاحوال [illegible] الانفس الواصلين الى البندر

عن المسير والرجوع والمصدر وانتم اصحاب واصدقا من سالف الزمان بالمعاوده الينا

والحشمة والامان ونحن انشاء الله لا نعتمد على الاساءة والقبض للمحبين

بل نحب له الحشمة والرافة والاحسان كالرفيق لكنا لا نعلم الغيب لمعرفة حقيقة الباطن

الا بما يظهر من الاسباب والعلامات للمسافر والقاطن من الاحسان والاساءات

في رعيتنا وهم [illegible] اصحابنا وذوينا ومن يتعلق علينا ونعلم بعض الحوادث

التي تنقض العهد وتكدر القلب من التعرض وقطع السبل والكسب من مراكب الانجريز

وبتخليف العلامات وبكل وجه من التغيير بالحيل والاشارات وقد ظهر لنا

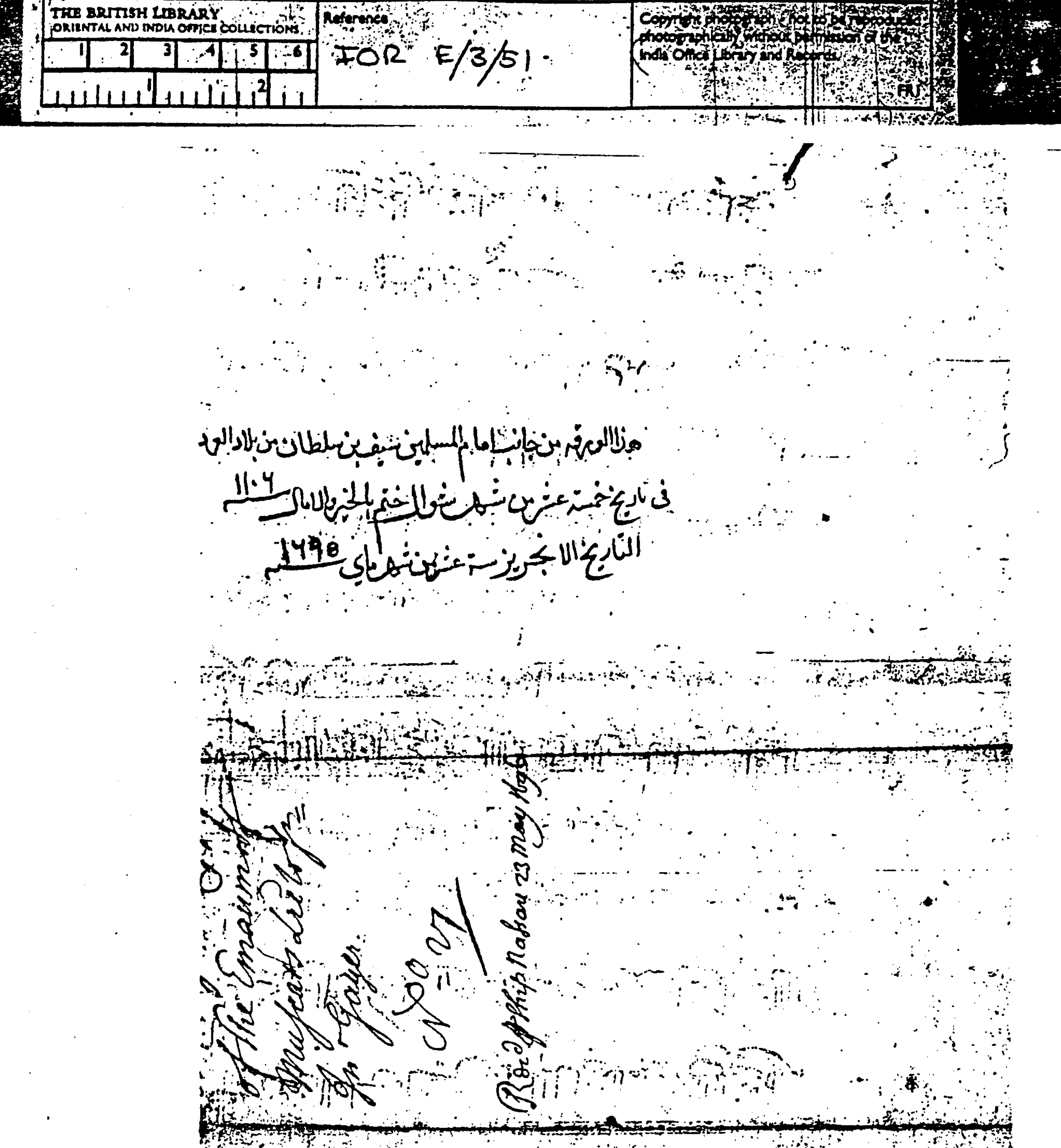
من الحوادث ما ظهر مما يخل ويحيل بكل الصفا وكدر لكنا لا نحب

العجالة والقطيعة فيمن كان محبا [illegible] لذلك [illegible] طلبنا

ان كان [illegible]

[illegible] لاجل المحبة السالفة فيما يرضاه الله من الصفا

والاحسان والمالفة لكل محب محسن كريم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم



هذا الورقه من جانب امام المسلمين سيف بن سلطان من بلاد العرب
في تاريخ خمسة عشر من شهر شوال ختم بالخير والامال سنه ١١٠٦
التاريخ الانجريز ستة عشر من شهر ماي سنه ١٦٩٥

Of the Emaum of Muscats Lett to Sr J Gayer
No 27
Recd p Ship Nassau 23 May 1695

ملحق رقم (٤)

أ - الصفحة ٢٧ من وثيقة فرنسية مؤرخة سنة ١١١٤هـ / ١٧٠٢م، توضح دور المنصرين والتجار الفرنسيين في تسهيل مهمة المبعوث الفرنسي (جان بيلون Jean Billon) لدى شاه فارس، كما توضح رغبة الشاه الملحة في معاقبة العرب العمانيين واحتلال مسقط، وفيها وعد الشاه بمنح الفرنسيين الكثير من الامتيازا والاعفاءات إذا ماتم التوصل إلى اتفاق مع فرنسا يتم بموجبه احتلال مسقط، كما توضح أيضاً الطلب الذي تقدم به الشاه إلى الحكومة الفرنسية لعقد اتفاق معها حول مسألة مسقط وإرسال سفير فرنسي للتباحث معه في هذا الشأن، وجاء فيها أن الحكومة الفرنسية أرسلت (فابر Fabre) سفيراً لفرنسا لدى بلاط الشاه.

المصدر :

A.A.E. mem et Documents, Perse, Vol. 8, p.27.

ب - الصفحتان ١٣٩ - ١٤٠ من وثيقة فرنسيّة مؤرخة سنة ١١٢١هـ / ١٧٠٩م وهما عبارة عن تقرير قدّمه للحكومة الفرنسية أحد المبعوثين الفرنسيين جاء فيه: يتمتع ميناء مسقط بموقع جغرافي بالغ الأهميّة مكنه من السيطرة على الخليج الفارسي، وسيؤدي إلى نجاح تجارة فرنسا مستقبلاً إذا ماتمكنت من السيطرة عليه، كما جاء فيه أيضاً وصف للقوة البحرية العمانية، ولمدينة مسقط من حيث مناعتها العسكرية، وأيضاً جاء فيه أن فارس قد تضرّرت نتيجة ازدياد قوة عرب مسقط وهي تفتقر إلى وسائل دفاعية بحرية وقد فشلت في اقناع الهولنديين والإنجليز بمساعدتها وهي تود أن تقنع فرنسا بمساعدتها في الاستيلاء على هذا الميناء وستحصل فرنسا على امتيازات

كبيرة للتجارة في الشرق ان هي استطاعات تنفيذ ذلك، إضافة إلى ذلك فقد اشتمل هذا التقرير على استعراض عام لحجم التجارة مع الشرق وأنواع السلع وكذلك القوى الأوربية التي لها وجود هناك، وعمد هذا التقرير على حث حكومة فرنسا لمساعدة فارس ضد عرب عمان.

المصدر :

A.A.E. Corr. Pol. Perse, Vol. 2, pp-139 - 140, momoire partuculiers qui Regardent la perse, 1709.

et Évêques des Pères Dominicains Italiens qui entretenaient à Ibrauer un couvent avec 12 novices nés dans le pays.

Hamadan était sans Missionnaires.

Ispahan renfermait une très belle maison de Jésuites, deux couvents de Carmes déchaussés, deux autres de Dominicains et de Capucins.

A Schiraz, il y avait des Carmes déchaussés.

Au Bender-Abassy la maison des Carmes était abandonnée depuis que les français ne fréquentaient plus ce port.

Ces détails sont importants, ils pourront servir à apprécier les chances de succès de la Société nouvelle dans ses projets de propagande en Perse.

§. II. Dispositions de la Perse envers la France.

Un désordre général régnait dans tout le royaume : l'autorité royale était sans force ; les gouverneurs des provinces n'obéissaient plus. L'Imâün de Mascate dominait sur le golfe Persique, ses corsaires pillaient sans pitié les marchands Persans et arméniens : les Portugais étaient trop faibles pour faire la police de cette mer, comme ils s'y étaient engagés ; les anglais s'en souciaient peu. Le Schah voulait châtier ces arabes rebelles, et son impuissance irritait son désir. Ne

marchands et nos Missionnaires flattaient cette faiblesse du Roi : ils lui dirent que le gouvernement français était prêt à s'unir aux Persans pour soumettre Mascate et son territoire. Le Schah ainsi bercé dans sa plus chère espérance promit à nos aventuriers „ toute espèce de privi-léges et d'exemptions si on l'aidait à exterminer le Gouverneur foudroyé d'Oman ; appelant un ambassadeur et des marchands pour convenir des conditions. „ (1)

§. III. Nouveau plan d'opérations en Perse.

1708.

Un particulier, le Sr Billon de Canserilles, avait mené heureusement à fin un voyage de Perse à Constantinople par la voie de Trébizonde et de la Mer noire. Les récits qu'il en fit en France échauffèrent les faiseurs de projets : on conçut l'idée de monopoliser par cette nouvelle voie tout le Commerce de Perse. Alors se trouvait à Paris un commerçant nommé Fabre, autrefois délégué du commerce de Marseille à Constan-tinople : il soutint chaleureusement ce projet ; les chefs des Missions de la rue du Bac y virent une occasion de se donner de l'importance ; quelques intrigants puissants en cour s'en firent les coryphées ; le gouvernement du Roi l'adopta. L'envoi de Fabre, comme Envoyé extraordinaire de Louis XIV au Roi de Perse, fut décidé ; on prépara des présents pour une

(1) Instruction du Roi de Perse Schah Hussein au Sr Billon. (1707).

Memoires particuliers qui regardent la Perse

Le Roy de Perse partit d'Ispaham vers le 15. de septembre 1706, pour aller à Mechet, ville celebre de la Perse, à 80. journées de la capitale, et ou sont les corps des Prophetes des Mahometans Persiens. Ce voyage n'aura pas manqué de donner beaucoup d'ombrage à Orangzeb, qui étoit alors encore en vie, et dont les enfans attendent la mort avec impatience pour partager ses états. Le Roy de Perse a de grandes pretentions sur la ville de Caboul, et quelques démeslez à vuider avec le Prince de Samarkand dans le Turquestan, et même avec les Moscovites, qui voudroient construire un fort à D'Erbent, qui appartient à la Perse; mais qui y ont depuis long-temps une demeure qu'ils auroient envie de fortifier. Le Roy de Perse est suivi de toute sa Cour, et d'environ trente mille soldats; le tout ensemble entre maitres et valets fait plus de cent mille hommes.

Le Port de Mascati est tres important par sa situation, et il seroit d'une extreme consequence pour le succez du commerce de France de s'en rendre maitre, s'il étoit possible. Son port se ferme toutes les nuits avec de grosses chaines, l'entrée en est defendüe par deux forts châteaux, qui sont comme des dardanelles. Il y a dans la ville un château tres bien fortifié, et situé sur le haut d'une montagne; il a été basti anciennement par les Portugais, sur qui les Arabes le prirent il y a environ cent ans. Il y a plus de cent vingt ans que les Portugais étoient maitres de toutes les places maritimes de ce pays-là; mais n'ayant pû les conserver, les Arabes firent sur eux plusieurs conquestes: les Hollandois s'emparerent d'un autre costé de toutes les villes ou se fait le plus grand commerce, comme sont Calique, Cochin au Malabar, l'isle de Ceylan ou l'on trouve le clou de girofle et la cannelle, Macao, port de la Chine, et quelques autres encore. Or la situation de Mascati donne à ceux qui l'habitent l'empire sur le ... vers Surate: ce qui rend les Mascatins

forts et puissants et leur donne le moyen d'achepter plusieurs vaisseaux. Ils en ont bien maintenant une trentaine, ils mettent sur chacun six à sept cens hommes d'equipage, et jusqu'à 50, 60 et 70 pièces de canon, et ils font avec ces vaisseaux des prises considerables dans toutes ces mers-là indifferemment sur toutes les nations à la reserve des François et des Hollandois. Or comme la Perse qui n'a point de vaisseaux y perd le plus, parceque ses marchands et ses voyageurs qui vont aux Indes, ou à Moca, port de la mer rouge pour aller à la Mecque, sont pris tres souvent; le Roy de Perse avoit voulu engager les Portugais de se joindre à luy pour luy aider à prendre Mascat. Depuis environ 12 ans l'armée Portugaise, qui ne consiste qu'en quatre ou cinq vaisseaux bons, mais mal servis, est venue à Bandar Congo, port près de l'isle d'Ormus: mais cette armée n'a pû rien entreprendre. Les Anglois y sont interessez, parceque les Mascatins n'epargnent pas les bâtiments de cette nation, mais comme les vaisseaux que les Mascatins ont pris sur eux n'appartiennent qu'à des particuliers, la Reyne d'Angleterre ne s'en met gueres en peine, nonplus que la Compagnie des Indes Orientales établie à Londres. Les Hollandois pourroient bien favoriser les desseins du Roy de Perse sur Mascat, mais comme les Marchands de cette nation ne cherchent que leur interest; on est persuadé qu'ils auront peine à faire sur cela aucun traitté avec le Roy de Perse; parcequ'ils seroient obligez d'envoyer des vaisseaux de guerre et des provisions et Munitions de Batavie. Or comme depuis environ un an les Mascatins ont fait pour plus de 40. millions de prises sur les marchands Persiens et Armeniens, ces marchands ont pris le party de présenter une grande requête contre les Mascatins, au Roy de Perse; ce Prince leur a repondu qu'il y penseroit. Les Mascatins ne se contentent pas de prendre les vaisseaux et les marchandises des nations ennemies de leur état, mais ils font encore esclaves toutes les personnes qu'ils trouvent sur les vaisseaux qui tombent entre leurs mains.

Le Roy de Perse a fait faire diverses propositions aux Hollandois ... Anglois, lesquels se sont tous imaginé que Mr. Fabre n'avoit ... maitre

au Sophi, afin de prendre Mascati, dans l'esperance d'établir à la faveur de ce secours une Compagnie Françoise en Perse avec de fort grands privileges pour y faire le commerce. et comme les Anglois et les Hollandois ne voudroient pas souffrir que la France pût conquerir Mascati parceque alors les François domineroient dans toutes ces mers là, il y a apparence qu'ils feront leurs efforts pour en faciliter la conquête au Roy de Perse, et qu'ils luy offriront des secours considérables, pour se rendre maître de ce poste important. Le fracas qu'a fait Mr. Fabre dans le Levant par plusieurs mauvais endroits, depuis qu'il y a passé de Marseille jusqu'a sa mort, a donné lieu à plusieurs reflexions qu'ont faites les Hollandois et les Anglois, lesquels peutêtre sans ce fracas auroient été plus tranquilles, et ils se seroient uniquement occupés de leur commerce, comme ils avoient fait jusqu'alors.

Aprés que les Portugais eurent perdu il y a 90. ans l'isle d'Ormus, le Roy de Perse dans le traitté qu'il fit avec eux leur assigna vingt cinq mille livres à prendre chaque année sur la doüane de ce port; à condition qu'ils le defendroient des insultes des Arabes: et comme ils ne le font pas, il y a quatre ans que le Roy de Perse ne leur a rien voulu laisser toucher de cette somme. Ce Prince dans le même traitté s'étoit engagé de donner une pareille somme de 25000 lt aux Anglois, qui luy avoient prêté des vaisseaux pour la conquête de l'isle d'Ormus, à prendre sur le port de Bandar abassy, voisin de celuy d'Ormus; et il y a deja plus de sept ans pour la même raison qu'il n'en a rien voulu payer aux Anglois: et c'est pour s'en plaindre que le Capitaine ou Directeur de la Compagnie Angloise fit au mois de Septembre dernier, comme Ambassadeur de la Reyne d'Angleterre, qui luy avoit envoyé des lettres de créance et des ordres à cet effet, de grandes instances à la Porte du Sophi pour l'obliger à executer les articles de son traitté avec les Anglois, mais il n'y a gueres d'esperance que cette Ambassade ait aucun succés, parceque les Persiens, tres avides d'argent, sont les gens du monde les plus habiles à trouver des raisons pour n'en point donner, et entendent parfaitement à eluder la [illegible] aucun tirer d'eux quand ils leur doivent.

Le Roy de France n'a dans ces mers là que la petite ville de Pondicher[y] près de S.t Thomé, qui n'a qu'une rade : ainsi durant la guerre nos vaisse[aux] François n'ont aucune retraite assurée.

Les Anglois et les Hollandois ont eu à Surate de grands demeslez. Les derniers plus resolus et plus forts que les autres ont tellement bloqué la ra[de] de Surate qu'ils ne laissent entrer ny sortir aucun bâtiment. Ils pretendent de la Compagnie de Surate de grosses sommes pour se dedommager, et bâtir à un coin de la rade une forteresse considérable avec des magasins, a fin de se rendre un jour les maîtres du commerce. Les François sont assez respectez et estimez à Surate, mais leur negoce y est interrompu. Les Hollandois sont tres puissants dans ces mers là ; ils font de tres grands gain[s] par leurs epiceries, cannelles, noix muscades, gingembre, clous de girofle qu'ils ont seuls. Ils sont maîtres des costes du Malabar, de l'isle de Ceylan, de toute celle de Java, des isles Celebes, au Royaume de Macassar &c. Ils travaillent sans cesse à conquérir plusieurs autres lieux. Les Anglois dans l'embouchûre de la riviere de Surate ont la petite ville de Bombaye avec un fort château. Les Portugais ont Damon, Bacoin, Goa et quelques autres endroits.

Les Anglois et les Hollandois ont fait dans les Indes de grandes réjoüissan[ces] des victoires qu'ils ont publié qu'ils avoient remportées en Catalogne et en Flandres ; ils firent la même chose au mois de Septembre dernier à Ispaham.

Le Roy de Perse dès qu'il sçût l'arrivée de M.r Fabre à Erivan, avoit envoyé des ordres pour luy faire rendre beaucoup d'honneur, il mourut peu de jours après que ces ordres furent apportez à Erivan. On a[voit] affecté de repandre en Perse que la scandaleuse du Hamel, concubine de M.r Fabre, étoit un présent que cet Envoyé étoit chargé de faire au Sophi de la part du Roy son maître : il est incroyable combien cette méchante femme a causé de scandale au Levant, et tous les discours que sa conduite et celle de M.r Fabre a fait tenir à toutes les nations repand[ues] dans l'Empire des Turcs et des Persiens.

ملحق رقم (٥)

١ - الرسائل المتبادلة بين الإمام العماني سلطان بن سيف الأول وإمام اليمن القاسم بن محمد، وتعكس هذه الرسائل طبيعة العلاقات التي كانت سائدة بين البلدين الاسلاميين، كما أنها توضح دوافع العمانيين من تكثيف نشاطهم العسكري في السواحل الجنوبية للجزيرة العربية.

٢ - رسالتين تبودلتا بين الإمام العماني سيف بن سلطان الأول وبين البرتغاليين، وتظهران أن السلب والنهب والعدوان ومحاربة المسلمين هو المحرك الرئيس عند البرتغاليين، بينما كان دافع الجهاد والدفاع عن النفس يتجلى بوضوح في رسالة الإمام العماني.

الرسائل المتبادلة بين الإمام سلطان بن سيف الأول [1]
وإمام اليمن القاسم بن محمد.

فقد وجه الإمام (سلطان بن سيف رسالة إلى إمام اليمن القاسم بن محمد جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

من إمام المسلمين سلطان بن سيف بن مالك رأس العرب اليعربي العماني إلى عالي ذروة الجناب المعظم الهمام المكرم اسماعيل بن القاسم القرشي العربي.. أما بعد : فإنا نحمد الله على آلائه وجميل صنعه وبلائه، ونسترشده إلى سلوك سبيل رضاه ونستزيده من خزائن مواهبة وعطاه إنه بيده مفاتيح كل خير وكفاية كل بؤس وضير، وإن سألت أيها المحب عنا ورمت كيفية الحال منا. فإنّا بحمد الله في حال يسر به الودود؛ ويساء به الحسود. ثم لتعلم أيها الملك أنه قد وصل إلينا في مدة أيام قد تصرمت وشهور قد تخرمت رجل من جنابكم يزعم أنكم أرسلتم بيده طروساً بها درر من رائق لفظكم وخطابكم غير أنه يقول إن المركب الذي أقبل فيه عابه الإنكسار فغرق في اليم، فأدرك الطروس المسطرة حكم التلف، ثم بيد أنه قد أفاه إلينا من نتائج لسانه، واتضح لنا من واضح نطقه وبيانه أنكم علينا عاتبون ومنا واجدون لأجل قطع خدامنا في العام الماضي مراكب رقاب المشركين على بابكم وأخذهم لسفنهم الواردة لجنابكم؛ ولعمري إنا لندري أن العتاب بين الأخلاء عنوان المودة الخالصة والصفاء وزائد محض المودة الصادقة والوفاء غير أنه يجب عند اقتراف الجرائم وانتهاك المحارم، فإنا نحن لم نقصد إلى انتهاك ذلك سبيلا؛ ولانجد لك على إلزام فعل ذلك دليلا، إذ كنا لم نجهز

---

[1] المصدر : الوزير، طبق الحلوى، ص ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧.
السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣.

مراكبنا ونتخذ مخالبنا لسيارة رعيتك ولا استباحة دم أهل حكمك وقضيتك؛ ولكن جهزنا الجيوش والعساكر؛ وأعددنا اللهاذم والبواتر لتدمير عبدة الأوثان وأعداء الملك الديان تعرضاً منا لرضاء رب العالمين، وإحياء لسنة نبيه الأمين، ورغبة في إدراك أجر الصابرين المجاهدين، وحاشا لمثلك أن يغضب لقتال عبدة الأصنام وأعداء الله والإسلام؛ ألست من سلالة علي بن أبي طالب الساقي للمشركين وبى المشارب، وأنت تدري بما جرى بيننا وإياهم من قبل في سواحل عمان وفي سائر الأماكن والبلدان من سفك الدماء وكثرة الصيال وتناهب الأملاك والأموال، وإنا لنأخذهم في كل موضع تحل به مراكبهم وتغشاه حتى من كنج وحمبرون بندرى الشاه، ولم يظهر لنا من أجل ذلك عتاباً ولانكيراً، وإن كنت في شك من ذلك فسئل به خبيراً أو لاتذكرك أيها الملك، والذكرى تنفع المؤمنين، وإنا لك من المنذرين وعليك من المحذرين. إنا لما ملكنا تلك الأيام بلدة ظفار وهي عنا نازحة الفيافي والقفار لم نر في ملكها صلاحاً لشيء أوجبه منا النظر وحاكته الأذهان والفكر، فتركناها لا من خوف قوة قاهرة ولا كلمة علينا ظاهرة ولا يد غالبة ولا كف سالبة؛ وحين ماخرج عنها عاملنا خلف خلّف بها شيئاً من مدافع المسلمين لغفلة جرت عن حملها في ذلك الحين؛ ولما ملكتم أنتم زمام عبسها واجتليتم ضوء بدرها وشمسها لم تدفعوا لنا تلك المدافع، كأن لم يكن وراءها ذائد ولا مدافع. فاعلم أيها الملك أن البعل غيور والليث هصور والحر على غير الإهانة صبور، ومن أنذر فقد أعذر، وماغدر من حذّر، على أن في اصطلاح ذات بيننا وبينكم راغبون طالبون وفي استبقاء صحبتك راغبون ولإطفاء الفتن وإخماد المحن بيننا وإياك مؤثرون، فإن كنت راغباً في الذي فيه رغبنا؛ وطالباً لما له طلبنا؛ فادفع لنا إياها ولاتحتس بسرعة الاعتداء حميّاها؛ وإن أبيت إلاّ الميل إلى اغتنامها والجزم على خبط ظلامها، ففي الاستعانة بالله على من اعتدى واسعة ومن كان مع الله كان الله معه، وحسبنا الله ونعم الوكيل

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وهذا جواب امام اليمن القاسم بن محمد :

بسم الله الرحمن الرحيم

من شمس سماء الخلافة العلية، ومضرب سرادقات الشريعة المحمدية إلى قاصية أرض الملك المالك سلطان بن سيف بن مالك اليعربي العربي العماني أراه الله نهج الهداية وجنبه مسلك الضلال والغواية.. أما بعد : الحمد الله والصلاة والسلام على نبيه الأمين وعلى وصيّه الأترع البطين الحاصد سيفه رءوس المارقين؛ وقد وصل كتابك الذي شحنته بالابراق والإرعاد وعدلت به من تحسين العتاب إلى تخشين الخطاب، وظناً منك أن هذيان وعيدك وطنين ذباب تهديدك يزعزع من بأسنا صخرة صماء أو يحرك من وقارنا جبلا أشماً فكيف يكون ذلك.

وأسيافنا في كل شرق ومغرب — بها من قراع الدارعين فلول

أين ذهب حجاؤك حتى طلبت منا المدافع بهذه الأراجيف والبقاقع

وإنما تقطع أعناق الرجال المطامع

أما علمت أن الليث إذا هيج على فريسة كان أشد إقداماً وأعظم جرأة واعتزاماً، لاجرم أنها لما نأت بنا وبك الديار وحالت دوننا ودونك الأمصار فاسترسلت لفظك فجاوزت في سوء المقدار حدك وانفردت بأرضك فطلبت الطعن والنزال وحدك.

ياسالكاً بين الصوارم والقنا — إنى أشم عليك رائحة الدم

فاقطع عرى آمالك عن هذه المدافع فهي أول غنيمة إن شاء الله من قطرك الشاسع؛ وقد دعوتنا على النزول على حكم الظباة والأسل

فالبث قليلاً تلحق الهيجا جمل

ونحن من القوم الذين سقوا قومك يوم النهروان كؤوس الحتوف،

وأنتم أتباع من سقى، فما بدأ به أوائلنا في سلفكم؛ ختمنا به من بقى والسلام.[1]

الرسائل المتبادلة بين الإمام سيف بن سلطان الأول والبرتغاليين

بعث البرتغاليون رسالة إلى الإمام (سيف بن سلطان الأول) جاء فيها :

هذا كتاب من النصارى للإمام سيف بن سلطان اليعربي :

الحمد لله فاطر السموات والأرض. أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اعلم بأننا جنود الله مخلوقون من سخطه مسلطون على من يحل عليه غضبه لانرق لشاكي ولانرحم عبرة باكي قد نزع الله الرحمة من قلوبنا، فالويل كل الويل لمن لايمتثل لأمرنا قد خربنا البلاد وأهلكنا العباد وأظهرنا في الأرض الفساد، فإن أعجبكم شرطنا كان لكم مالنا وعليكم ماعلينا، وان أنتم أبيتم وعلى بغيتكم تماديتم فالحصون منا لاتمنع والعساكر لدينا لاترد ولاتدفع لأنكم أكلتم الحرام وضبعتم الجمع فأبشروا بالذل والجزع، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تعملون فان أعجبكم كلامنا إننا كفرة وقد صار عندنا أنكم فجرة قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، كثيركم عندنا قليل وعزيزكم عندنا ذليل وقد ملكنا الأرض شرقاً وغرباً وأخذنا منها كل سفينة غصباً، قد أرسلنا إليكم هذا الكتاب فأسرعوا برد الجواب قبل أن ينكشف الغطاء ولم تبق لكم باقية وينادي عليكم بالفناء هل تحسن منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً؛ وقد أنصفناكم وأرسلنا عليكم جواهر الكلام والسلام.

وهذا جواب الإمام لهم قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير» قد حصل الوقوف على هذه الكتبة الشاهرة لقولكم قد نزع

---

١) المصدر : الوزير، طبق الحلوى، ص ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧؛ السالمي، تحفة الأعيان ، ج ٢، ص ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - .

الله الرحمة من قلوبكم فهذا من أقبح عيوبكم وأشد وأشنع وبغيتم وذكرتم أنكم كافرون ألا لعنة الله على الكافرين، من تعلق بالأصول فلا يبالي بالفروع نحن المؤمنون حقاً لايصدنا عنكم عيب ولايدخلنا شك ولاريب، والقرآن علينا قد نزل فهو رحيم بنا لايزل وخيولنا برية بحرية وهممنا سامية علية إن قتلناكم فنعم البضاعة وإن قتلتمونا فبيننا وبين الجنة ساعة ﴿لاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾، وقولكم قلوبكم كالجبال وعددكم كالرمال: الجزار لايبالي لكثرة الغنم الكثيرة وان الله مع الصابرين فنحن بالمنع عالية أمينة إن عشنا عشنا سعداء؛ وان متنا متنا شهداء؛ ألا إن حزب الله هم الغالبون، لقد جئتم شيئاً إذا تكاد السموات يتنفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا؛ فقل لصاحبك إذا رصع وشيد مقالته حصل الوقوف على هذا الكتاب كصرير باب وطنين ذباب: سنكتب ماقالوا ونمد لهم من العذاب مدا، والنار تكشف العار، والسيوف تشحذ على الأعناق، والسلام على من اتّبع الهدى، وخشي عذاب الجحيم وأطاع مالك الملك، وفضّل الآخرة على الدنيا، والصلاة والسلام على خير الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.[1]

---

١) المصدر : السالمي، تحفة الأعيان، ج ٢، ص ٩٠ - ٩١ ؛
فلبيس وندال، تاريخ عمان، ص ٦٥ - ٦٦ - ٦٧

ملحق رقم (٦)

أ - خارطة تبيّن الساحل الشرقي لإفريقية في العصور الوسطى.

ب - خارطة تبيّن الطرق البحرية التي سيطر عليها البرتغاليون والحصون البرتغالية الرئيسة.

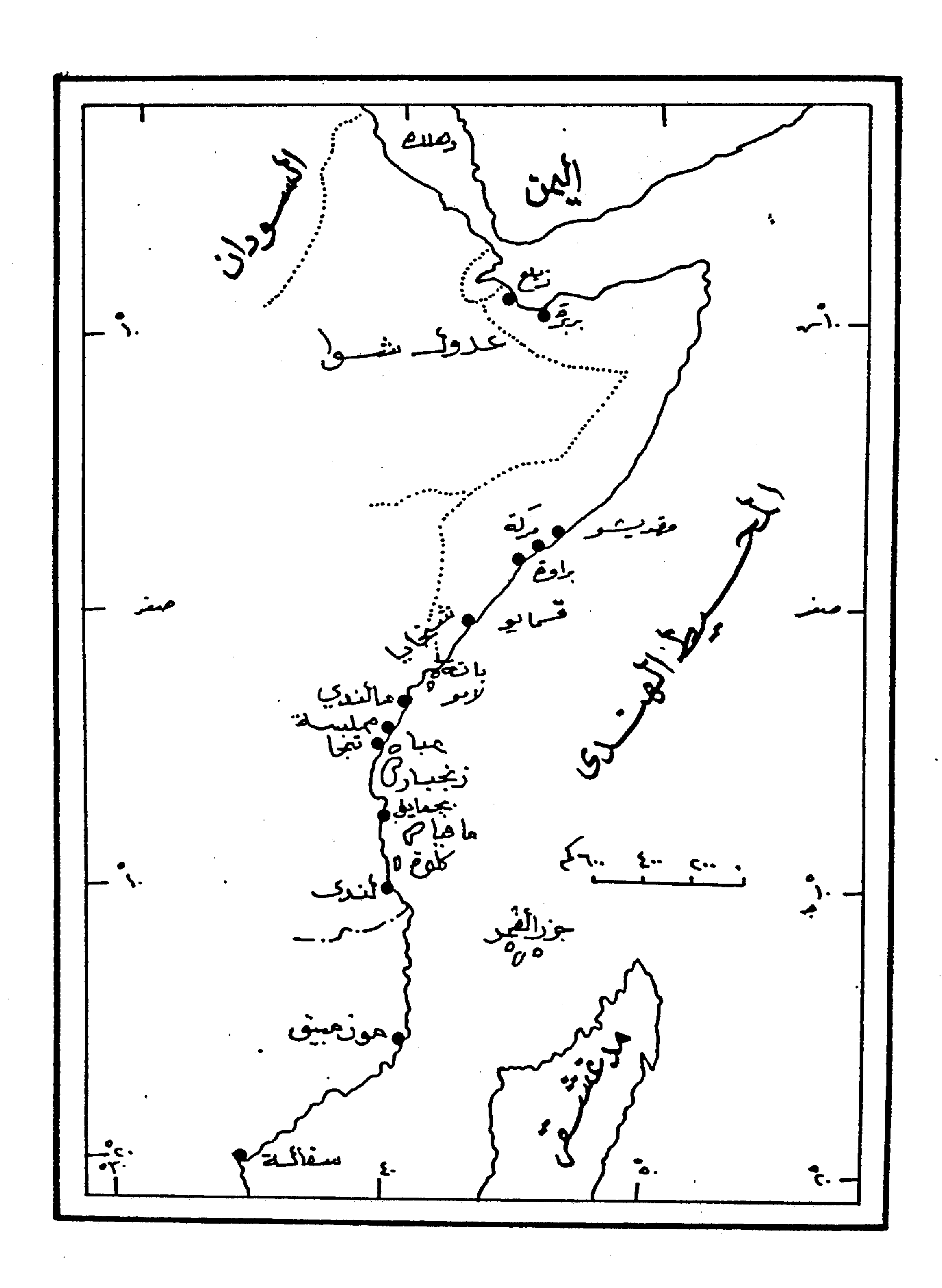
ج - خارطة تبين مراحل تحرير سواحل عمان من جلفار إلى رأس الحد من السيطرة البرتغالية خلال الفترة ١٠٤٢هـ / ١٦٣٢م - ١٠٦٠هـ - ١٦٥٠م.

د - خارطة توضح المدن والمناطق العمانية في عهد دولة اليعاربة.

هـ - خارطة توضح ميادين الجهاد العماني ضد البرتغاليين خلال الفترة من ١٠٦٣ - ١١٤٣هـ / ١٦٥٢ - ١٧٣٠م.

و - خارطة تبيّن الطرق والمراكز التجارية الرئيسة التي أسسها المسلمون العرب والسواحليون والتي تمتد من ساحل شرق إفريقية إلى وسط القارة الإفريقية وذلك خلال الفترة التي أعقبت تحرير ساحل شرق إفريقية من السيطرة البرتغالية.

(أ)

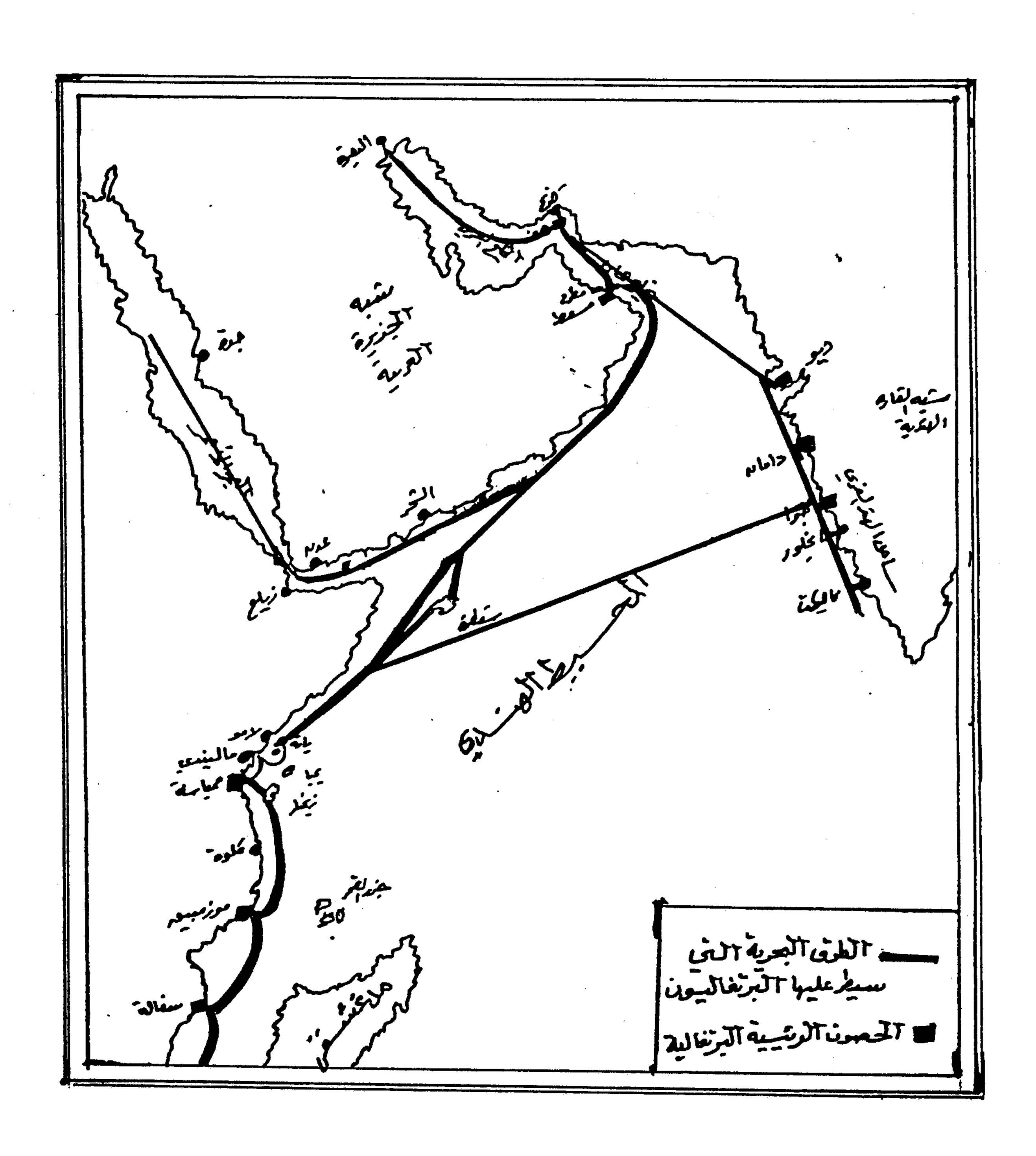


الساحل الشرقي لافريقيا في العصور الوسطى

المصدر :

Grenville, F, The Medieval, op.cit, p.244.

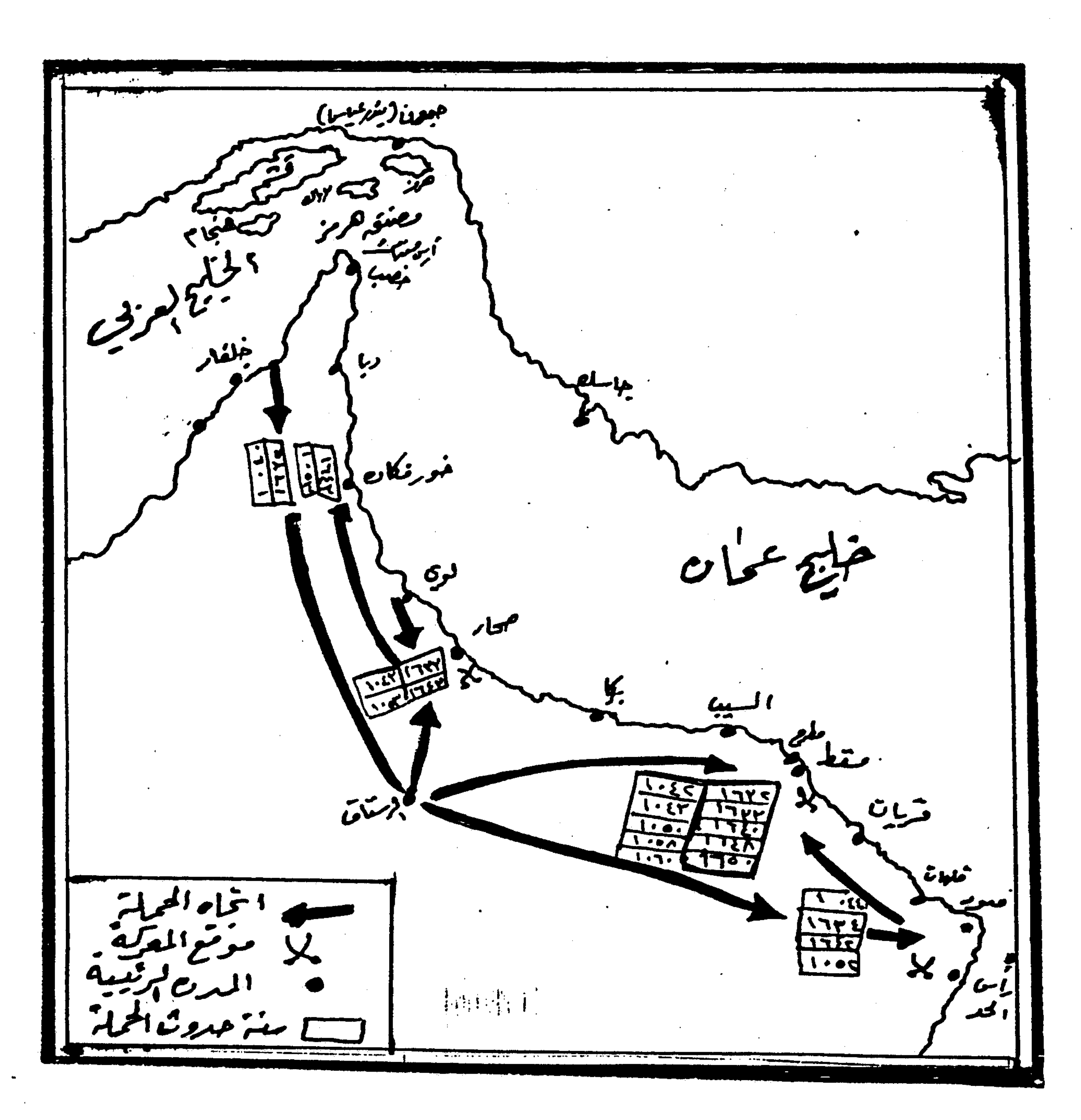
(ب)



المصدر :

مديحة أحمد درويش ، سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ص ٢٤٩ .

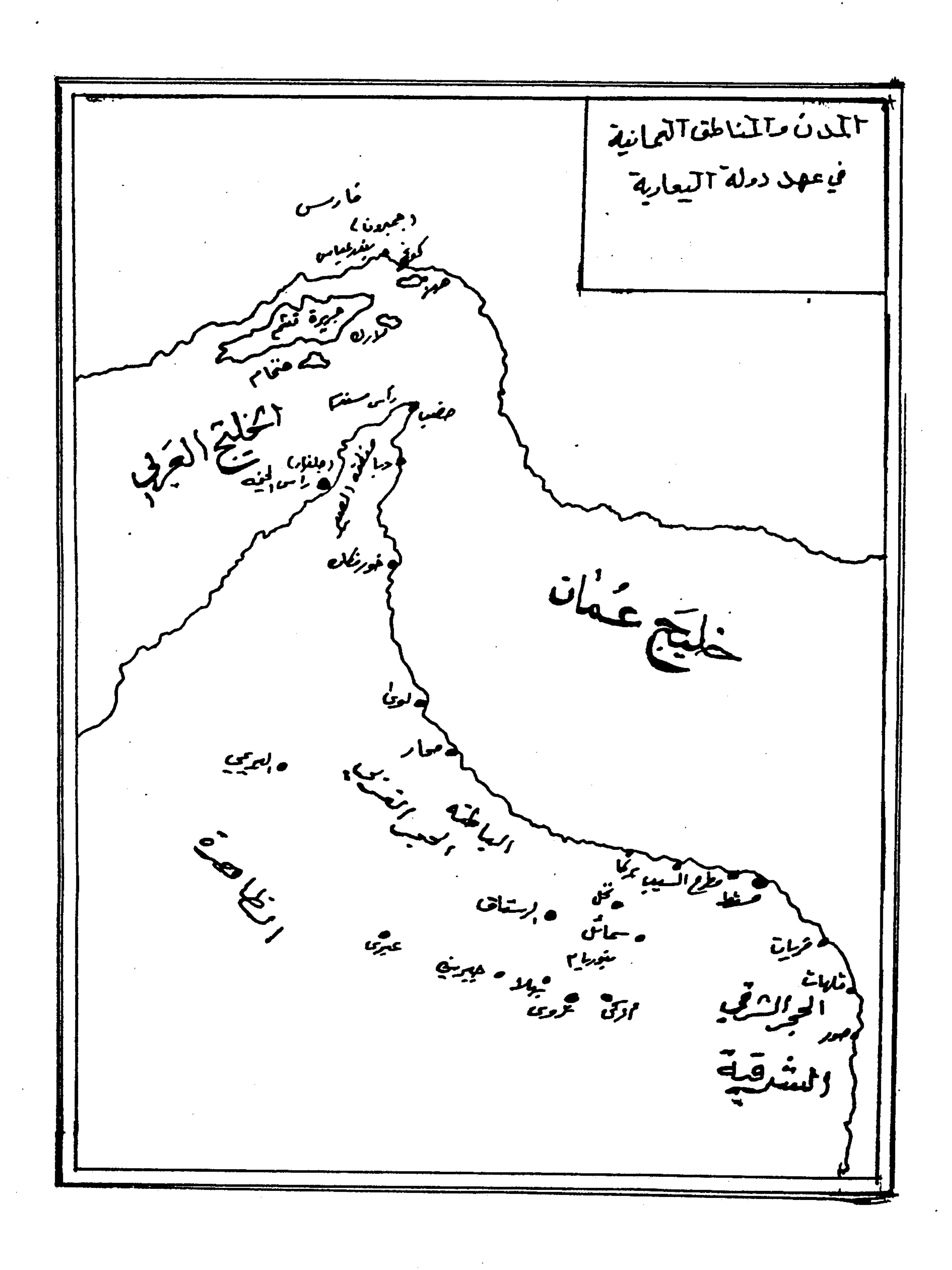
(ج)



تحرير سواحل عمان من جلفار الى رأس الحد

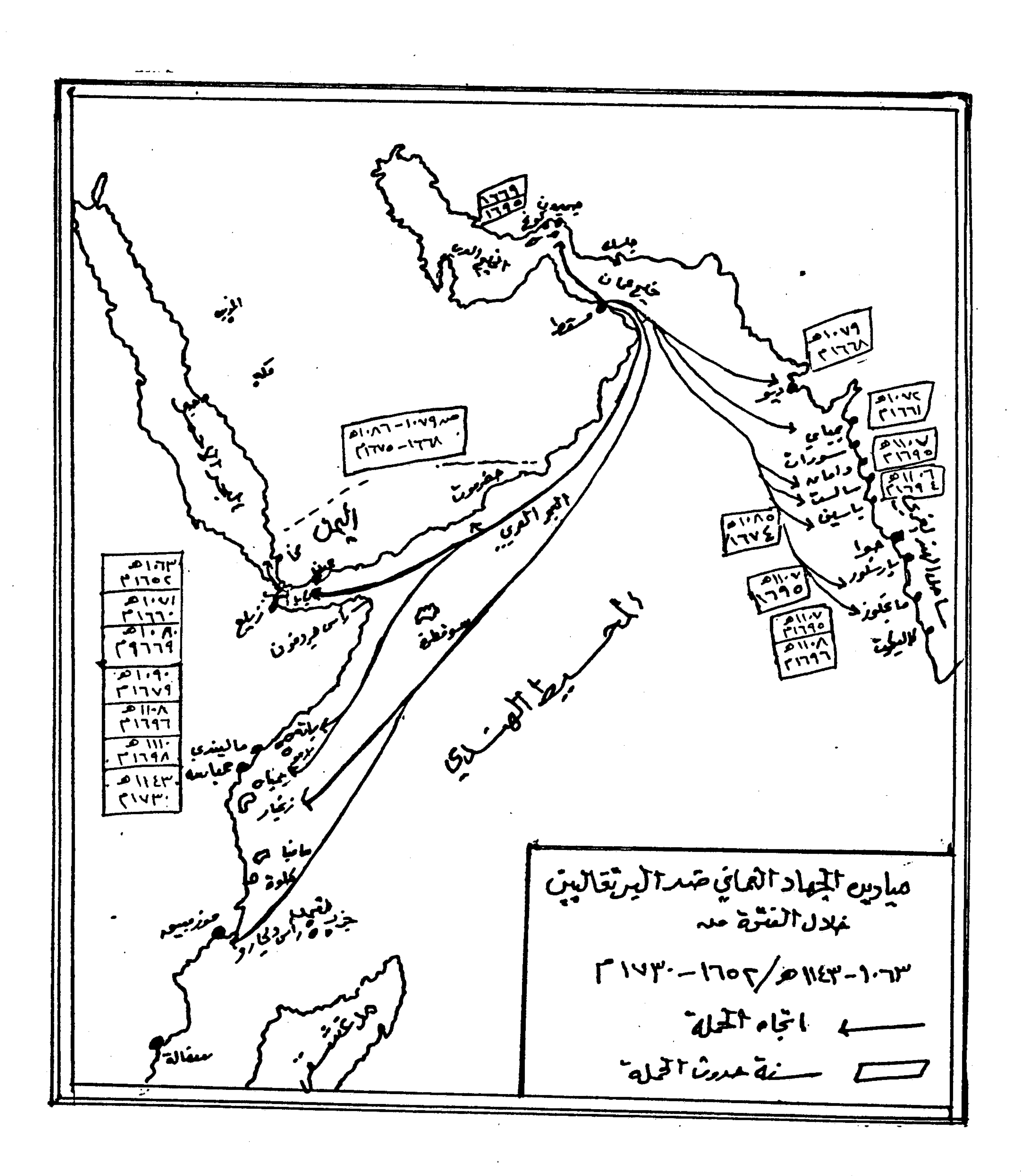
(١٠٤٢ هـ / ١٦٣٢ م ـ ١٠٦٠ هـ / ١٦٥٠ م)

المصدر : من عمل الباحث .

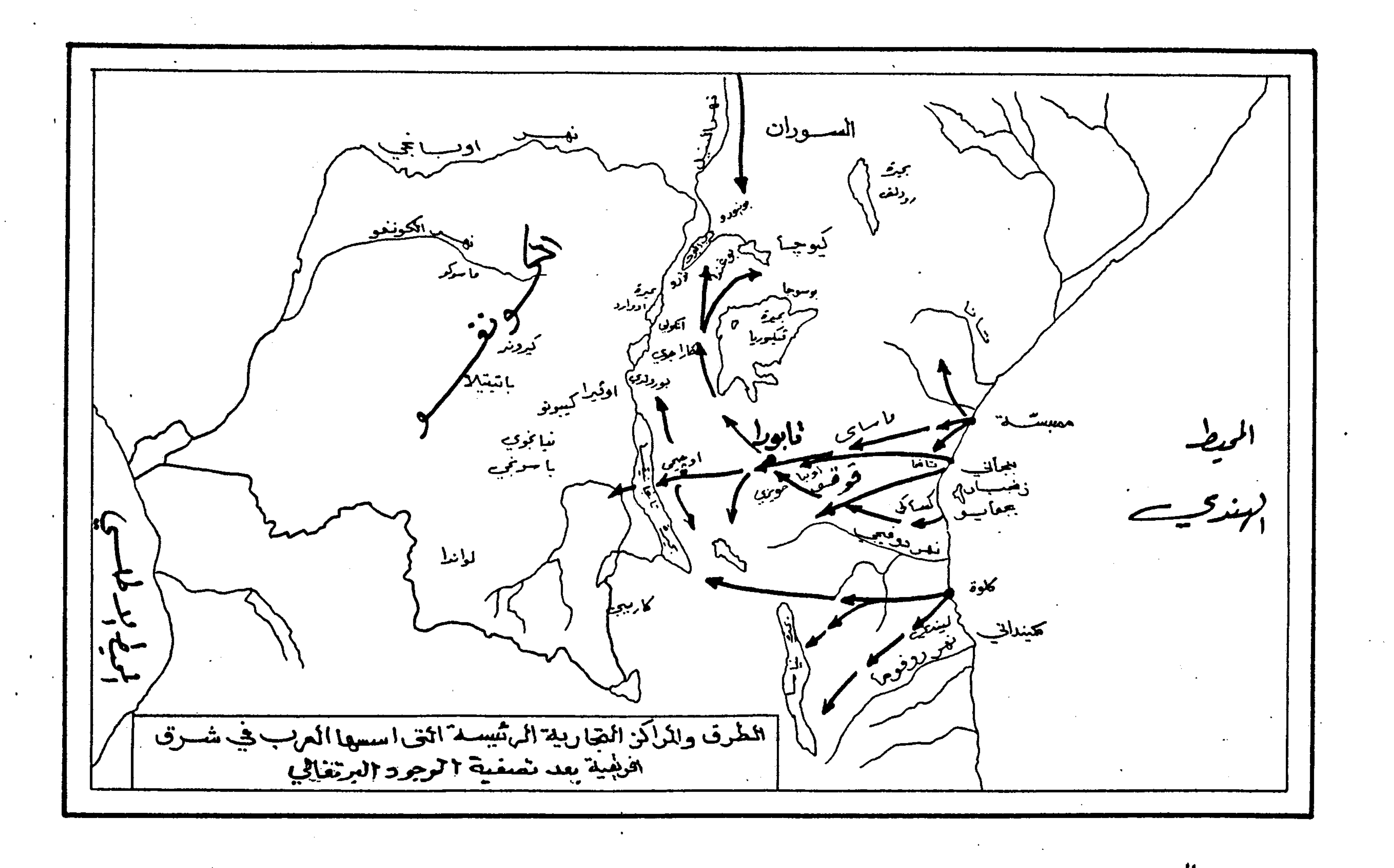


المصدر : من عمل الباحث .

(هـ)



المصدر : من عمل الباحث .



الطرق والمراكز التجارية الرئيسية التي اسسها العرب في شرق افريقية بعد تصفية الوجود البرتغالي

المصدر :

بتصرف عن : Lewis, I.m., Edit Islam in Tropical Arfica, (Oxford, 1960),P.25.

العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق
إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي
في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد
الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية
العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق إفريقية العمانيون والجهاد الإسلامي في شرق



الفهارس

فهرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

أولاً - الوثائق :

١ - وثائق غير منشورة من سجلات مكتب الهند (1oR) :

India office Portuguese Records :

أ - وثائق برتغالية تمت ترجمتها إلى الإنجليزية :

(1) I/3/139. Documentos, 48, fol. 290, Letter Viceroy to the king 15 February 1644.

(2) I/3/140. Documento, 59, fols, 68–70;

محضر اجتماع مجلس القيادة البرتغالية في مسقط لمناقشة مقترحات التفاوض مع الإمام ناصر بن مرشد في ١١ - ١٢ سبتمبر ١٦٤٨م.

(3) I/3/140. Documentos, 59, fol.88. 30 Octopr 1648;

معاهدة الهدنة بين العمانيين و البرتغاليين عام ١٠٥٨هـ / ٣٠ اكتوبر ١٦٤٨.

(4) I/3/140. Documentos, 59, fol. 74, Letter Noranh from Muscat to the Viceroy 7 December 1648.

(5) I/3/141. Documentos, 60, fol. 331, Letter Viceroy to the King 18 December 1650.

(6) I/3/140. Documentos, 61, fol. 578, Letter Viceroy to the king 26 December 1651.

(7) I/3/140. Documentos, 56, fol. 466, Letter Viceroy to the king 28 January 1653.

(8) I/3/140. Documentos, 56, fol. 491, Letter viceroy to the king 4 March 1653.

(9) I/3/141. Documentos, 156, fol. 481, Letter king to the Viceroy 2 January 1678.

(10) I/3/141. Documentos, 156, fol. 489, Letter Viceroy to the king 4 October 1687.

(11) I/3/141. Documentos, Pombal, 439, fol. 48, i March 1697.

(12) I/3/141. Documentos, 439, fol. 271, Letter Viceroy to the king 16 May 1698.

ب - وثائق انجليزية عبارة عن رسائل من الهند (الرسائل الأصلية)

Letter from India (Original Correspondence)

(13) E/3/14. 1492, Letter Sually to Company 27 January 1933.

(14) E/3/19. 1962. Letter Gombroon to surat 16 Novambr 1645.

(15) E/3/19. 1978. Letter Philip Wylde to surat 19 February 1646.

(16) E/3/21. 2089. Letter Gombroon to surat 4 December 1648.

(17) E/3/21. 2119, Account by Robrt Cocks of Voyage in Courteenship Friend ship.

(18) I/3/23, (19133), 2296, Letter Isfahan to Company 10 December 1652.

(19) E/3/24. 2337 & 2337, Letter Isfahan to Company 10 Sptember 1653; and Isfahan to surat 27 Sptember 1653.

(20) E/3/24. 2560, Letter Isfahan to company 20 August 1656.

(21) E/3/26. 2813, Letter Surat to Company 30 Sptember 1659.

(22) I/3/51 (19040), 6035, Letter Surat to company 13 May 1695.

(23) I/3/51 (18040), 6039, Letter Bombay to London 13 May 1695.

(24) I/3/51 (19040), 6044, 16 May 1695.

رسالة من الامام سيف بن سلطان الأول إلى رئاسة شركة الهند الشرقية الانجليزية في بمباي في الخامس عشر من شهر شوال عام ١١٠٦ هـ / السادس عشر من مايو ١٦٩٥م.

(25) I/3/91, (19134), 8693, Letter surat to company 30 June 1705.

ج - وثائق انجليزية عبارة عن تقارير سجلات الوكالات Factory Records :

(26) G/36/85, (19044), p.14, Letter surat to company 10 January 1660.

(27) G/36/104, (19045), p. 222, Letter Karwr to surat 14 March 1665.

(28) G/36/105, (19045), p.66, Letter Flower to surat 14 August 1668.

(29) G/36/105, (19045), p.76, Letter Gombroon to surat 26 Novambr 1668.

(30) G/36/105, (19045), pp. 112 - 117 - 118, Letter Gombraoon to surat 27 March 1669.

(31) G/36/105, (19045), p. 176, Letter Gombroon to surat 26 Novambr 1669.

(32) G/3/6, (19041), pp. 64 - 70, Letters Bomby to Company 7 and 17 February 1674.

د - وثائق هولندية منقولة إلى اللغة الإنجليزية :

Transcripts of Dutch Records :

(33) Duthc Records, vol. 29t, p.48, Letter from India.

(34) Dutch Records, A.Vol. 18t, p.11, Letter Governer Ganeral and conncil at Batavia to Directors, 24 December 1652.

(35) Dutch Records, vol. 23t, p.17, Letter Governer Ganeral and Cancil Indiato the Dirctors, 16 December 1659.

٢ - وثائق غير منشورة من أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية :

Archives de Affaires Etrangeres (A.A.E) :

(36) A.A.E, Memories et Documents, Perse, vol. 8, p.27, Precissur sur les Relatons de la France et de la Perse, 1702.

(37) A.A.E, Correspondance Politique , Perse, vol.2, pp. 24 - 25, Michel au Gauvernements Francais, 28 Aout 1708.

(38) A.A.E, Correspondance Politique, perse, vol, 2, pp. 34 - 40, popportade Michel au Gauvernements Francais, 28 Aout 1708.

(39) A.A.E. Correspondance Politique, Peres, vol. 2, pp. 139 - 140, Memoire Particuliers gul Regardentla Perse, 1709.

(40) A.A.E. correspondance Politique, Peres, vol. 5, pp. 123 - 126.

(41) A.A. E. Correspondance Politique, Peres, vol.3, pp. 386 - 388, Rapport de Gauderau, 25 dan 1715.

(42) A.A.E. corr. pol, Perse, vol. B, pp. 4 - 6, Gardance au conseil de Marine, 2 Jen 1721.

وثائق جمعية الكنيسة التنصيرية بلندن :

(43) C.M.S. Archives, G3A7/0. Tucker to Mr. Baylis, December 30, 1904.

٣ - وثائق منشورة في شكل ملخصات وكتب :

١ - أحمد بوشرب : مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي، مجلة الوثيقة، العدد العاشر، السنة الخامسة، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين ، جمادى الأولى ١٤٠٧هـ / يناير ١٩٨م.

٢ - لوريمر - ج - ج ، دليل الخليج ، القسم التاريخي والجغرافي ، ١٤ جزء ، ترجمة مكتب الترجمة ديوان حاكم دولة قطر ، الدوحة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

(3) A Chronicle of the Carmelites in Persia and the Papal Mission of the XVIIth and XVIIIth Canturies 2 vols, (London, 1939).

(4) Bruce, J., Annals of the Honourable East India Company, 3 vols, (London, 1810).

(5) Saldanha, J., :

Selections from State Papers Bombay regarding the East India Company Connection with the Persian Gulf 1600 - 1800, (Calcutta, 1908).

ثانياً - المصادر المخطوطة :

- ابن المطهّر عيسى بن لطف الله (ت ١٠٤٨ هـ / ١٦٣٨م) :

مخطوط روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، نسخة بقسم التصوير العلمي والميكروفلم بمعهد المخطوطات العربيّة بالقاهرة برقم ٢/٢٦٢.

- الجرموزي المطهر محمد بن أحمد بن عبدالله (ت ١٠٧٧هـ / ١٦٦٧م) :

سيرة الامام القاسم بن محمد، مخطوط مصوّر بدار الكتب المصرية برقم ٢٥٦٤٩، عن الأصل المحفوظ بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء تحت رقم ١٩ تاريخ.

- الدرجيني أبو العباس أحمد (ت في القرن السابع الهجري) :

مخطوط طبقات الإباضية، محفوظ في دار الكتب المصرية برقم ١٢٥٦ح.

- الشلّي جمال الدين محمد بن أبي بكر بن أحمد (ت ١٠٩٣هـ / ١٦٨٢م) :

السنا الباهر بتكميل النور الساهر في أخبار القرن العاشر، محفوظ مصوّر على ميكروفلم بمعهد المخطوطات العربيّة بالقاهرة برقم ٦٩٩.

- الصديّقي محمد بن أبي السرور البكري (ت ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦م) :

التحفة البهيّة في تملك آل عثمان الديار المصرية، مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٢٤ تاريخ.

- الكبسي محمد بن إسماعيل بن يحيى بن بدر الدين (ت ١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م) :

اللّطائف السنيّة في أخبار الممالك اليمنيّة، مكتبة القاضي محمد الأكوع الخاصة بتعز رقم ٢٣٦.

- المزروعي الأمين بن علي (ت ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧) :
مخطوط تاريخ ولاية المزارعة في إفريقية الشرقية، نسخة مصورة في قسم التصوير العلمي والميكروفلم بالمكتبة المركزية جامعة أم القرى بمكة المكرمة برقم ٢٩٠٤، مأخوذ عن الأصل الموجود لدى ورثة السيد علي جعفر الوهط السقاف العلوي الحضرمي بمكة المكرمة.

- الموزعي شمس الدين عبدالصمد :
مخطوط الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان، محفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٧٥ تاريخ.

ثالثاً - المصادر المطبوعة :

- ابن الأثير على بن ابي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) :
الكامل في التاريخ ، ج ١٢، نشر المطبعة الدمشقية والمكتبة التجارية، القاهرة ١٣٤٨هـ / ١٩٥٨م.

- ابن إياس محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) :
بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ج ٤ - ٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- ابن بطوطة أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) :
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق علي المنتصر الكتاني، جزآن، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- ابن الحسين يحيى بن القاسم (ت ١١٠٠هـ / ١٦٨٩م) :
غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عاشور، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨.

- ابن حوقل ابي القاسم محمد بن علي النصيبي (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٨م) :
كتاب صورة الأرض، مكتبة دار الحياة، بيروت، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

- ابن الديبع أبي الضياء عبدالرحمن علي (ت ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م) :
قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد علي الأكوع، ج ٢، القاهرة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

- ابن رزيق حميد بن محمد (ت ١٢٧٤هـ / ١٨٥٧م) :
الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبدالمنعم عامر ومحمد مرسي، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٣٩٧ـ / ١٩٧٧م.

الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

- ابن طولون شمس الدين محمد بن علي بن محمد الصالح (ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م) :
مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

- ابن الفقيه أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني (ت أواخر القرن

الثالث الهجري) :
مختصر كتاب البلدان ، نشر دي غوبة، ليدن ١٨٨٥م.

- ابن قيصر عبد الله بن خلفان (ت بعد سنة ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م) :
سيرة الامام ناصر بن مرشد، تحقيق عبدالمجيد حسيب القيسي، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

- ابن كثير عماد الدين أبي الفدا اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) :
البداية والنهاية، ١٢ جزء، مكتبة المعارف، الطبعة الخامسة، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م.

- ابن الوردي أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨هـ) :
تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، ج٢، دار المعرفة، الطبعة الأولى، بيروت ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م.

- أبو الفدا اسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) :
تقويم البلدان، ج ١، باريس ١٨٤٠م.

- الأدريسي أبو عبدالله محمد بن محمد (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م) :
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ١، عالم الكتب، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

- الأزكوري سرحان بن سعيد :
تاريخ عمان المقتبس من كشف الغمة الجامعة لأخبار الأمة، تحقيق عبدالمجيد حسيب القيسي، وزارة التراث والثقافة بعمان، الطبعة

الثانية، مسقط ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

- الأصطخري أبو اسحاق ابراهيم بن محمد (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) :
المسالك والممالك، تحقيق محمد الحيني، القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.

- الحكيم أبو الحسن علي بن يوسف (ت كان موجوداً سنة ٧٥٩هـ / ١٣٧٥م) :
الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، دار الشروق، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

- الحموي شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت (ت ٦٢٦هـ / ٢٢٨م) :
معجم البلدان، ج ٣، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- الحميري محمد عبدالمنعم (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م) :
الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٧٤م.

- جيان :
وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، ترجمه مختصراً يوسف كمال، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م.

- سالمة بنت السيد سعيد بن سلطان (ت ١٣٤١هـ / ١٩٢٢م) :
مذكرات أميرة عربيّة، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسى، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

- السالمي نور الدين عبد الله بن حميد (ت ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م) :
تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، صححه وعلق عليه أبو اسحاق ابراهيم طفيش الجزائري الميزابي، ج ١ - ٢، مطبعة الشباب، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م.

- الشوكاني محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م) :
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج ١، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م.

- الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) :
تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ١ - ٧، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- القزويني زكريا بن محمد (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) :
آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.

- القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) :
صبح الأعشى في صناعة الانشا، نسخة مصورة عن مطبعة الأميرية مطابع كوستاتوماس وشركاه، ج ١١، القاهرة، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.

ضوء الصبح المسفر وجنى الروح المثمر، مطبعة الواعظ، القاهرة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م.

- المقريزي تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢م) :-
السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٤٢م.

- المحامي محمد فريد بك :
تاريخ الدولة العليّة العثمانية، تحقيق احسان حقي، دار النفائس، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

- المقدسي محمد بن أحمد (ت ٣٧٥هـ / ٩٨٥م) :
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٩.

- المسعودي أبو الحسن بن الحسين (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) :
مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ١ - ٢، دار الفكر، الطبعة الخامسة، القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

- المشهور عبدالرحمن بن حسين (ت ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م) :
شمس الظهيرة، حققه وعلق عليه محمد ضياء شهاب، ج ١ - ٢، عالم المعرفة، الطبعة الأولى، جدة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

- المعولي أبي سيلمان محمد بن عامر :
قصص وأخبار جرت في عمان، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط، بدون تاريخ.

- المغربي أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٩م) :
كتاب الجغرافيه، تحقيق اسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.

- المليباري أحمد زين الدين عبدالعزيز المعبري (ت بعد سنة ٩٩١هـ / ١٥٨٣م) :

تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين، حققه وعلق عليه محمد سعيد الطريحي، مؤسسة الوفاء، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

- مؤلف المجهول (ت بعد سنة ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م) :
السلوة في أخبار كلوة، تحقيق محمد علي الصليبي، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

- مؤلف المجهول :
تاريخ أهل عمان، تحقيق سعيد عاشور، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- النجدي شهاب الدين أحمد بن ماجد (كان موجوداً في أوائل القرن العاشر الهجري) :
كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق ابراهيم خوري وعزه حسن، دمشق ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

- النهروالي قطب الدين محمد بن أحمد (ت ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م) :
البرق اليماني في الفتح العثماني، أشرف على طبعه حمد الجاسر، دار اليمامة، الطبعة الأولى، الرياض ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

- الهمداني حسن بن أحمد (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥م) :
صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، أشرف على طبعه حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

- الواسعي عبد الواسع بن يحيى :
تاريخ اليمن المسمى (فرجة الهموم والحزن في الحوادث وتاريخ اليمن)، الدار اليمنينة للنشر، الطبعة الثالثة، صنعاء ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- الواقدي أبو عبد الله محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م) :
الطبقات الكبرى، ج ١، دار بيروت، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- الوزير عبد الله بن علي (ت ١١٤٧هـ / ١٧٣٤م) :
طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى، تحقيق محمد عبد الرحيم جازم، جزآن، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- اليماني محمد بن مالك الحمادي :
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ.

رابعاً - المراجع العربية :

- ابراهيم شحاته حسن :

وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب، دار الثقافة، الطبعة لأولى، الدار البيضاء، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

- ابراهيم علي طرخان :

مصر في عصر المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.

- أحمد بوشرب :

دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسقي وأزمور ١٤٨١ - ١٥٤١، دار الثقافة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

- أحمد الساداتي :

تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، ج ١، مكتبة الآداب، القاهرة، بدون.

- أحمد السيد دراج :

المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.

وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م

- أحمد محمود صبحي :

البحرين ودعوى إيران، الطبعة الأولى، الإسكندرية ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م.

- أميره علي المداح :
العثمانيون والقاسم بن محمد بن علي في اليمن ، مكتبة تهامة، الطبعة الأولى، جدة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- أنور عبد العليم :
ابن ماجد الملاح ، سلسلة أعلام العرب ، العدد ٦٣، القاهرة، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

- بدر الدين عباس الخصوصي :
دراسات في تاريخ الخليج الحديث والمعاصر، ج ١، منشورات ذات السلاسل، الطبعة الأولى، الكويت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

- جاد طه :
سياسة بريطانيا في جنوب اليمن، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.

- جلال يحيى :
التنافس الدولي في شرق إفريقية، دار المعرفة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م.
المغرب الكبير العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، ج ٣، دار النهضة العربية، بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

- جمال حمدان :
استراتيجيّة الاستعمار والتحرير، دار الهلال، القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

- جمال زكريا قاسم :

الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

دولة البوسعيد في عمان وشرق إفريقية ١٧٤١ - ١٨٦١، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨٠م.

الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي الأول، دار الفكر العربي، القاهرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

- حسن إبراهيم حسن :

انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.

- حسن أحمد محمود :

الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.

- حسين علي الريسي :

اليمن الكبرى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م.

- حسين مؤنس :

رحلة الأندلس - حديث الفردوس الموعود ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

- حمزة لقمان :

تاريخ الجزر اليمنيّة ، بيروت، بدون تاريخ .

- راشد البراوي :

الرق الحديث في إفريقية البرتغالية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م.

- رجب محمد عبد العليم :

العمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام منذ ظهوره وحتى قدوم البرتغاليين، الطبعة الأولى، مسقط ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

- سالم حمود شامس السيابي :

عمان عبر التاريخ، أربعة أجزاء، وزارة التراث والثقافة بعمان، الطبعة الثانية، مسقط ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

العنوان عن تاريخ عمان ، مكان الطبع بدون ، التاريخ بدون .

- السيد رجب حرّاز :

إفريقية الشرقية والاستعمار الأوربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م..

- السيد مصطفى سالم :

الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥، معهد البحوث والدراسات العربيّة، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

- سعيد عبد الفتاح عاشور :

العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة

الثانية، القاهرة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.
تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ج ١، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة، القاهرة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

- سعيد علي المغيري :
جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق محمد علي الصليبي، وزارة التراث والثقافة بعمان، الطبعة الثانية، مسقط ١٤٠٦ـ / ١٩٨٦م.

- شوقي عطا الله الجمل :
تاريخ كشف إفريقية واستعمارها، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.
دور مصر في إفريقية في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

- صالح محمد العابد :
دور القواسم في الخليج ١٧٤٧ - ١٨٢٠، الطبعة الأولى، بغداد ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

- صلاح الدين حافظ :
صراع القوى العظمى حول القرن الإفريقي، عالم المعرفة، الطبعة الأولى، الكويت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- صلاح العقاد :
المغرب العربي ، مكتبة الأنجلوالمصرية، الطبعة الرابعة، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

- صلاح العقاد - جمال قاسم :
زنجبار، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م.

- عائشة علي السيّار :
دولة اليعاربة في عمان وشرق إفريقية ١٦٢٤ - ١٧٤١، دار القدس، الطبعة الأولى، بيروت ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

- عامر عمير الموهوبي :
عمان قبل وبعد الإسلام، وزارة التراث والثقافة بعمان، سلسلة تراثنا، العدد الخامس، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- عبد الرحمن زكي :
الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، مطبعة يوسف، القاهرة، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.

- عبد الرحمن صادق الشريف :
جغرافية المملكة العربية السعودية، ج ١، دار المريخ، الطبعة الأولى، الرياض ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

- عبد الرحمن العاني :
دور العمانيين في الملاحة والتجارة الإسلامية حتى القرن الرابع

الهجري، الطبعة الأولى، مسقط ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

- عبدالعزيز سليمان نوار :
الشعوب الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

- عبدالعزيز عبدالغني ابراهيم :
علاقة ساحل عمان ببريطانيا، منشورات دارة الملك عبدالعزيز، الرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- عبدالعزيز عبدالله الخويطر :
الملك الظاهر بيبرس ، دار الإصفهاني وشركاه، الطبعة الأولى، جدة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

- عبدالله عبدالكريم الجرافي :
المقتطف من تاريخ اليمن ، منشورات العصر الحديث، الطبعة الثانية، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

- عبدالمجيد عابدين :
بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربي، القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م.

- عبدالكريم رافق :
العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦، مكتبة أطلس، الطبعة الأولى، دمشق ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

- علي يحيى معمّر :
الإباضية في موكب التاريخ، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م.

- غسان علي الرمّال :
صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، الطبعة الأولى، جدة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

- فاروق عمر فوزي :
مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني، الطبعة الأولى، بغداد ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

- فالح حنظل :
المفصل في تاريخ الإمارات العربيّة، ج ١ - ٢، نشر لجنة التراث والتاريخ بدولة الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، أبو ظبي ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- فؤاد عبدالمعطي الصياد :
المغول في التاريخ، ج ١، دار النهضة العربية، بيروت ١٤٠٠ـ / ١٩٨٠م.

- قدري قلعجي :
الخليج العربي، دار الكتاب العربية، بيروت ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

- محمد أبو العلا محمد :
موقع عمان الجغرافي وعلاقتها المكانية، الطبعة الأولى، القاهرة

١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

- محمد أحمد مشهور الحداد :
حقائق تاريخيّة عن العرب والإسلام فى إفريقية، دار الفتح، الطبعة الأولى، بيروت ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

- محمد صفي الدين أبو العز :
إفريقية بين الدول الأوربيّة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م.

- محمد عبداللطيف البحراوي :
فتح العثمانيين عدن، دار التراث، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

- محمد عبدالله آل عبدالقادر :
تاريخ الأحساء المسمى تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، أشرف على طبعه وعلق على بعض حواشيه حمد الجاسر، الطبعة الأولى، الرياض ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م.

- محمد عبدالله السالمي - ناجي عساف :
عمان تاريخ يتكلم، الطبعة الأولى، دمشق ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م

- محمد عبدالله النقيره :
انتشار الإسلام في شرق إفريقية ومناهضة الغرب له، دار المريخ، الرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- محمد علي ديوز :
المغرب الكبير، ج ٣، دار المعارف، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.

- محمد محمد زبارة :
نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف، ج ٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٣٧٦هـ

- محمد متولي :
حوض الخليج العربي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.

- محمد مصطفى زيادة :
مصر والحروب الصليبيّة من رسائل الثقافة العسكرية، القاهرة، ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م.

- محمود رزق سليم :
الأشرف قانصوه الغوري، سلسلة أعلام العرب، العدد ٥٢، القاهرة بدون تاريخ.

- محمود طه أبو العلا :
جغرافية شبه جزيرة العرب، ج ١، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

- محمود كامل :
اليمن شماله وجنوبه تاريخه وعلاقاته الدولية، دار النهضة العربية، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

- مديحة أحمد درويش :
سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دار الشروق، الطبعة الأولى، جدة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- مصطفى عقيل الخطيب :
التنافس الدولي في الخليج العربي، دار الجيل، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

- نعيم زكي فهمي :
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

- نوال حمزة الصيرفي :
النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري، منشورات دارة الملك عبدالعزيز، الرياض ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- وليد محمد جرادات :
الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر، دار الثقافة، الطبعة الأولى، الدوحة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

- يسري الجوهري :
الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

- يوسف بن علي الثقفي :

دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب على مر العصور، الطبعة الأولى، مكة ١٤٠٩هـ / ١٩٧٩م.

خامساً - المصادر والمراجع الأجنبية المعرّبة :

- أحمد حمود المعمري :

عمان وشرق إفريقية، ترجمة محمد أمين عبدالله، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- آرنولد ولسون :

تاريخ الخليج، ترجمة محمد أمين عبدالله، وزارة التراث والثقافة بعمان، الطبعة الثانية، مسقط ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م.

- اندرو ويليامسون :

صحار عبر التاريخ ، ترجمة محمد أمين عبدالله، وزارة التراث والثقافة بعمان، سلسلة تراثنا، العدد الثاني، مسقط ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

- بازل دافدسن :

إفريقية تحت أضواء جديدة ، ترجمة جمال أحمد، دار الثقافة، بيروت ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

- بانيكار. ك. م :

آسيا والسيطرة الغربيّة، ترجمة عبدالرزاق جاويد، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م.

- توماس آرنولد :

الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م.

- جمس دفي :
الاستعمار البرتغالي في إفريقية، ترجمة الدسوقي حسنين المراكبي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.

- جورج فاضلوا حوراني :
العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمة يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م.

- دونالد وايدنر :
تاريخ إفريقية جنوب الصحراء، ترجمة علي فخري وشوقي الجمل، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م.

- روبرت جيران لاندان :
عمان منذ ١٨٥٦ مسيراً ومصيراً ، ترجمة محمد أمين عبدالله، مطرح ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

- رودلف سعيد رويتي :
سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي ١٧٩١ - ١٨٥٦، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسى، مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة البصرة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- رولاند أوليفر - جون فيج :
موجز تاريخ إفريقية، ترجمة دولت أحمد صادق، بيروت، بدون تاريخ.

- زيغريد هونكه :

شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة كمال الدسوقي وفاروق بيضون، دار النهضة العربيّة، بيروت ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

- سبنسر ترمنجهام :

الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، ترجمة محمد عاطف النوري، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٩٣هـ /١٩٧٣م.

- سونيا هاو :

في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م.

- شارل ديل :

البندقيّة جمهورية ارستقراطيّة، ترجمة توفيق اسكندر وأحمد عزت عبدالكريم، دار المعارف، القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م.

- صالح أوزبران :

الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي، ترجمة عبدالجبار ناجي، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

- عبدالله صالح الفارسي :

البوسعيديون حكام زنجبار، ترجمة محمد أمين عبدالله ، وزارة التراث والثقافة بعمان، سلسلة تراثنا، العدد الثالث، مسقط ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- غي دي بوشير :
تشريح جثة الاستعمار ، ترجمة ادورد الخراط، دار الآداب، بيروت ١٣٨٨هـ /١٩٦٨م.

- فليبس وندال :
تاريخ عمان، وزارة التراث والثقافة بعمان، الطبعة الثانية، مسقط ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- لوبينز - ر :
التأثيرات الشرقية والنهضة الإقتصادية في الغرب، ترجمة توفيق اسكندر، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.

- مايلز - س - ب :
الخليج بلدانه وقبائله ، ترجمة محمد أمين عبدالله، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- مبارك بن علي الهنائي :
العمانيون وقلعة ممباسة ، ترجمة عبدالمنعم عامر، وزارة التراث والثقافة بعمان، سلسلة تراثنا، العدد التاسع، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- هولنجرز وورث - ل - و :
زنجبار ١٨٩٠ - ١٩١٣ ، ترجمة وتعليق حسن حبشي ، دار المعارف، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

سادساً - الرسائل الجامعية والبحوث :

- ابراهيم الزين صغيرون :

انتشار الإسلام في أوغندا، مجلة كلية العلوم الإجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السادس، الرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- إبراهيم شعراوي :

يوسف الذي قال لا للإستعمار البرتغالي، صحيفة عمان، العدد ٥٥٨، ٣١ ديسمبر، مسقط ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

- إبراهيم العدوي :

التجار العرب في أوغندا، مجلة نهضة إفريقية، العدد التاسع عشر، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م.

- أحمد بوشرب :

مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، مجلة الوثيقة، العدد الرابع، السنة الثانية، مركز الوثائق التاريخيّة بالبحرين، ربيع الآخر ١٤٠٤هـ / يناير ١٩٨٤م.

- أحمد جلال التدمري :

الصراع الدولي حول الخليج، قراءة في الوثائق الهولندية، مجلة الوثيقة، العدد الثاني عشر، السنة السادسة، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، جمادى الأولى ١٤٠٨هـ / يناير ١٩٨٨م.

- أحمد شلبي :

(٦) تاريخ عمان ونشاطها الداخلي من مطلع الإسلام حتى الآن، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٢، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- أحمد علي أحمد محمد :

كلوة تاريخها وحضارتها من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، مكتبة جامعة القاهرة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- أحمد العناني :

البرتغاليون في البحرين وماحولها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، مجلة الوثيقة، العدد الرابع، السنة الثانية، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، ربيع الآخر ١٤٠٤هـ / يناير ١٩٨٤م.

- بشير حمود كاظم :

الكشوف الجغرافية البرتغالية، مجلة الوثيقة، العدد الثاني عشر، السنة السادسة، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، جمادى الأول ١٤٠٨هـ / يناير ١٩٨٨م.

- التاجر علي :

الربان أحمد بن ماجد ، دفاع وتقييم ، مجلة العرب، الجزء الثالث والرابع، السنة الخامسة، رمضان وشوال ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.

- جمال زكريا قاسم :

استقرار العرب في ساحل شرق إفريقية، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس ، العدد العاشر، القاهرة ١٩٨٧هـ / ١٩٦٧م.

أثر الاستعمار الأوربي في تفكيك الروابط بين الخليج العربي وشرق إفريقية، مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، ج ٢، الدوحة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

الإدعاءات الإيرانية في الخليج العربي، أصول المشكلة وتطورها، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد العشرون، القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

الأوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي، ندوة رأس الخيمة التاريخية، ج ١، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

الإستعمار البرتغالي وأثره على العلاقات العربية الإفريقية، بحث في كتاب (العلاقات العربية الإفريقية - دراسة تاريخية للآثار السلبية للإستعمار)، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

الصراعات المحلية والدولية في البحر الأحمر في النصف الأول من القرن السادس عشر، ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، جامعة عين شمس، القاهرة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

الروابط العربية الإفريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية، بحث في كتاب: (العلاقات العربية الإفريقية، دراسة تاريخية للآثار السلبية للإستعمار، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

عمان في شرق إفريقية، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٣، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- جلال يحيى :

العرب في شرق إفريقية، مجلة نهضة إفريقية، العدد الثاني والعشرون، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م.

- حامد ربيع :

النظام الدولي الإقليمي في منطقة الخليج خلال فترة الاستعمار البرتغالي، مجلة الوثيقة، العدد الرابع عشر، السنة السابعة، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، جمادى الثانية ١٤٠٩هـ / يناير ١٩٨٩م.

- حسام الخادم :

إبن ماجد ودوره في اكتشاف طريق الهند البحري ومظاهر التفكير العلمي في كتاباته، مجلة الوثيقة، العدد الثاني عشر، السنة السادسة، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، جمادى الأولى ١٤٠٨هـ / يناير ١٩٨٨م.

- حسن أحمد محمود :

التهديد البرتغالي لسواحل جزيرة العرب، مجلة المؤرخ العربي، العدد الثاني عشر، بغداد ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- حمود محمد النجيدي :

النظام النقدي المملوكي ٦٤٨ - ٩٢٢ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م ، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

الموارد المالية لمصر في عهد الدولة المملوكية الأولى، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

- خولة محمد شاكر الدجيلي :

العلاقات العربية الإسلامية مع الساحل الإفريقي الشرقي، رسالة دكتوراه غير منشورة، المكتبة المركزية جامعة بغداد رقم ٧١١، بغداد ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- دولة أحمد صادق :

شرق إفريقية - دراسة جغرافية الإسلام، بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، لجنة انتشار الإسلام، ج ١، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

- رأفت غنيمي الشيخ :

دور عمان في بناء حضارة شرق إفريقية، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٣، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- السّر سيد أحمد العراقي :
الإسلام والصليبيون في ساحل شرق إفريقية، مجلة الوثيقة، العدد الثالث عشر، السنة السابعة، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، ذو القعدة ١٤٠٨هـ / يوليو ١٩٨٨م.

- سعاد ماهر :
الإستحكامات الحربيّة بسلطنة عمان، مجلة دارة الملك عبدالعزيز، العدد الثالث، السنة الثانية، الرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- سعد زغلول عبد ربه :
البرتغاليون والبحر الأحمر، مجلة دارة الملك عبدالعزيز، العدد الثاني، السنة السادسة، الرياض ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

البحر الأحمر في العهد العثماني، ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، جامعة عين شمس، القاهرة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- سعيد عبدالفتاح عاشور :
أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الرابع عشر، القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

- سيّد حامد حريّز :
المؤثرات العربية في شرق إفريقية، مجلة البحوث والدراسات العربيّة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، العدد الحادي

عشر، القاهرة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

- سليمان الخروصي :
دولة اليحمد في عمان، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ١، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٠هـ /١٩٨٠م.

- سليمان محمد الغنّام :
الوجود البرتغالي في عمان في المصادر العمانية، مجلة العرب، العدد الحادي عشر والثاني عشر، الرياض جماديان ١٣٩٧هـ

- سليمان ناصر اللمكي :
حميد بن محمد المرجبي فاتح الكنغو، مجلة الهلال، يوليو ١٩٠٦م.

- الشاطر بصيلي عبد الجليل :
الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال في المحيط الهندي وشرق إفريقية والبحر الأحمر، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الثاني عشر، القاهرة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥ - ١٩٦٦م.

الكارميّة، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الثالث عشر، القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

- شوقي عطا الله الجمل :
الصراع العربي البرتغالي في المحيط الهندي والتحرر الإفريقي من الإستعمار البرتغالي، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، ج ١، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

دور العرب الحضاري في شرق إفريقية، مجلة الوثيقة، العدد الثالث عشر، السنة السابعة، مركز الوثائق التاريخيّة بالبحرين، ذو القعدة ١٤٠٨هـ / يوليو ١٩٨٨م.

- صالح محمد العابد :
تحرير ساحل عمان وانهيار الامبراطورية البرتغالية في الشرق، مجلة آفاق عربيّة، العدد الثالث، بغداد ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

- صلاح العقاد :
دور العرب والفرس في مكافحة الإستعمار البرتغالي - دراسة مقارنة - حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٤ ، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- طارق نافع الحمداني :
دور عمان في إقصاء البرتغاليين، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، العدد الثالث، بغداد ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

مقاومة العمانيين للحملات الفارسية على بلادهم، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد السابع والثلاثون، جامعة الكويت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

- عامر الحجري :
تاريخ العلاقات العمانية الإفريقية، بداية التواجد العماني في شرق إفريقية، مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، ج ٢، الدوحة

١٣٩٦هـ / ١٩٦٧م.

- عبدالأمير أمين :
نظرة جديدة للإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية في آسيا - دراسة في عوامل تدهور وانحطاط الامبراطورية البرتغالية، مجلة الوثيقة، العدد الثالث عشر، السنة السابعة، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، ذو القعدة ١٤٠٨هـ / يوليو ١٩٨٨م.

- عبدالرحمن عبدالرحيم عبدالرحمن :
النشاط التجاري في البحر الأحمر في العصر العثماني، مجلة دارة الملك عبدالعزيز، العدد الثاني، السنة السادسة، الرياض ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

- عبدالرزاق عثمان :
البرتغاليون في شرق إفريقية، مجلة الوثيقة، العدد الرابع عشر، السنة السابعة، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، جمادى الثانية ١٤٠٩م، يناير ١٩٨٩م

- عبدالعزيز الشناوي :
المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية، مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربيّة، ج ٢، الدوحة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

- عبدالعزيز كامل :
وجهة الإسلام في القارة الإفريقية، مجلة السياسة الدولية، العدد الثالث، القاهرة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.

- عبد العزيز محمد عوض :
الإحتلال البرتغالي لموانئ الجزيرة العربية، مجلة المؤرخ العربي، العدد التاسع والعشرون ، بغداد ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م

- عبد اللطيف ناصر الحميدان :
التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، العدد السادس عشر، السنة الرابعة عشر، البصرة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية ٩٣١ - ١٢٨٨ هـ / ١٥٢٤ - ١٨٧١م، مجلة كلية الآذاب جامعة البصرة، العدد الثامن عشر، السنة الخامسة عشرة، البصرة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

- عبد الله الحبيد :
مؤلفات الجرموزي عن الدولة القاسميّة، ملجة العرب، العدد الحادي عشر والثاني عشر، جماديان ١٣٨٧هـ.

- عبد الوهاب القيسي :
المجابهة البرتغالية العثمانية في المياه العربية، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخيّة، ج ١، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م

- عدنان الزبيدي :
عمان وسياسة نادر شاه، رسالة ماجستير غير منشورة، المكتبة المركزية

جامعة بغداد رقم ٦٨٤/ب، بغداد ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- علي أحمد الزبيدي :
أصداء الغزو البرتغالي في أدب الخليج، مجلة الوثيقة، العدد الرابع عشر، السنة السابعة، مركز الوثائق التاريخيّة بالبحرين، جمادى الثانية ١٤٠٩هـ / يناير ١٩٨٩م.

- علي عبدالرحمن أباحسين :
تاريخ البحرين من خلال المخطوطات والوثائق، أبحاث الحلقة الرابعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية، أبو ظبي ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

- علي غنّام :
أحداث فاصلة في احلال النفوذ الأجنبي في الخليج، مجلة الخليج العربي، العدد الثالث، البصرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

البرتغاليين والدين في غزوهم للشرق، مجلة الخليج العربي، العدد الثالث، المجلد العشرون، البصرة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

- عوض خليفات :
دراسات في النظم والعقائد الإباضية، مجلة المؤرخ العربي، العدد السابع، بغداد ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

- غانم محمد رميض :
الصراع البحري العماني البرتغالي في البحار الشرقية، مجلة

الوثيقة، العدد الثالث عشر، السنة السابعة، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، ذو القعدة ١٤٠٨هـ / يوليو ١٩٨٨م.

معركة تحرير مسقط، مجلة الوثيقة، العدد الثاني عشر، السنة السادسة، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، جمادى الأولى ١٤٠٨هـ / يناير ١٩٨٨م.

- فاروق عمر فوزي :
حول طبيعة الإمامة لدى الخوارج الإباضية في عمان، مجلة آفاق عربية، العدد الرابع، بغداد ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

- محمد أمين صالح :
تجارة البحر الأحمر في عصر المماليك الجراكسة، ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، جامعة عين شمس، القاهرة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- محمد أبو الفتوح الخياط :
أهمية البحر الأحمر كبحيرة إسلامية عربية، مجلة دارة الملك عبدالعزيز، العدد الثاني، السنة السادسة، الرياض ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

- محمد حسين الزبيدي :
هجرة العرب والمسلمين إلى شرق إفريقية، مجلة المؤرخ العربي، العدد الثالث والعشرون، بغداد ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- محمد عارف الكيّالي :
الأسس الإقتصادية للإستعمار البرتغالي في الخليج العربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر، مجلة الوثيقة، العدد الرابع عشر، السنة السابعة، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، جمادى الثانية ١٤٠٩هـ / يناير ١٩٨٩م.

- محمد عبدالله العزّاوي :
التحالفات الفارسيّة الأوربيّة ضد عرب الخليج ١٦٩٥ - ١٧٢٢م ، مجلة الخليج العربي، العدد الأول، المجلد التاسع عشر، السنة الخامسة عشرة، البصرة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

- محمد علي الداود :
تاريخ العلاقات الهولندية في الخليج، مجلة كلية الآداب جامعة بغداد، العدد الثالث، ١٣٨٤هـ / نوفمبر ١٩٦٤م.

- محمد الغول :
الصراع بين العرب والبرتغال في شرق إفريقية، مجلة العربي، العدد الرابع والأربعون، الكويت ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م.

- محمد محمد أمين :
تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى، بحث في كتاب (العلاقات العربية الإفريقية - دراسة تحليلية في أبعادها المختلفة) معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

- محمد محمود محمدين :
علاقة الجزيرة العربية بشرق إفريقية، مجلة دارة الملك عبدالعزيز، العدد الثاني، السنة الثانية، الرياض ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

- محمود طه أبو العلا :
التأثيرات العربية في شرق إفريقية، مجلة الجمعية الجغرافية المصرية، مايو ١٩٦٠م.

- منى إبراهيم عبدالرحمن :
السفارات الأجنبية في مصر في عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة رقم ١٤٣٦، القاهرة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

- مهدي طالب هاشم :
الإباضية في المشرق العربي، رسالة ماجستير غير منشورة، المكتبة المركزية جامعة بغداد رقم ٦٧٢، بغداد ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

- نوّار عبدالوهاب القيسي :
(٧٧) الخليج العربي الأهمية الاستراتيجيّة وملامح السياسة البرتغالية، مجلة الوثيقة، العدد الرابع عشر، السنة السابعة، مركز الوثائق التاريخية بالبحرين، جمادى الثانية ١٤٠٩هـ / يناير ١٩٨٩م.

- وزارة الإعلام بعمان :
عمان وتاريخها البحري، مسقط ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

- وزارة التراث والثقافة بعمان :
عمان تاريخاً وعلماء ، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
عمان في أمجادها البحرية ، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- يوسف بن علي الثقفي :
موقف المماليك ودول الخليج العربي من النفوذ البرتغالي في القرن السادس عشر الميلادي، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

- يوسف فضل حسن :
الصراع حول البحر الأحمر منذ أقدم العصور حتى القرن الثامن عشر الميلادي، مجلة دارة الملك عبدالعزيز، العدد الثاني، السنة الثامنة، الرياض ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- يوقيم رزق مرقس رزق :
حميد بن محمد المرجبي (تيوتيب)،رسالة ماسجتير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية رقم ٢٣٠، جامعة القاهرة، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

سابعاً - البحوث الأجنبية المعرّبـة :

- أريكو - د - اى :

المباني التاريخية الحربيّة في عمان منذ القرن السادس عشر، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٥، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- باتيبو - هـ - م :

إسهام اللغة العربيّة في إنماء اللغة السواحلية وتطويرها، مجلة الإسلام اليوم، المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، العدد الثاني، السنة الثانية، الدار البيضاء ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

- بكنجهام - س :

بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٦، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- بوكسر - س :

ملاحظات جديدة عن الصلاة بين العمانيين والبرتغاليين، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٦ ، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- سلوت - ج - ب :

سطور من تاريخ البحرين والخليج اعتماداً على الوثائق الهولندية، مجلة الوثيقة، العدد الحادي عشر، السنة السادسة، ذو القعدة ١٤٠٧هـ / يوليو ١٩٨٧م.

- سارجنت - آر - بي :

النشاط الملاحي العماني على الساحل العربي الجنوبي ، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٦، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- كيركمان - جي :

التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق إفريقية، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٥، وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

- لورنس لوكهارت :

التهديد العماني ونتايجه في أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، ترجمة علاء الدين حسين، مجلة الخليج العربي، العدد العاشر، البصرة سبتمبر ١٩٧٨م.

- ولكسون - د - جي :

نشأة الأفلاج في عمان، حصاد ندوة الدراسات العمانية، ج ٨ وزارة التراث والثقافة بعمان، مسقط ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

ثامناً - المصادر والمراجع والبحوث الأجنبية :

- Albuquerque, Afonso, :

The Commentaries of the Great Afonso De Albuguergue, 4 vols, Translated from the Portuguese Edition by Walter De Gray Birch the Hakluyt Society, (London, 1884).

- Alvarez, F., :

Narrative of the Portuguese Embassay in Abyssinia During the years 1520 - 1527, translated. F. Staniy, (London, 1881).

- Badger, G.B, :

History of the Imams and Seyyids of Oman and Original Sources by salil Bin Razik From A.D. 661 - 1856, (London, 1871).

- Barbosa, D., :

The Book of Durate Barbosa : An Account of the Countries bordering on the Indian ocean About the year 1518 A.D. Translated from the Portuguese text by Mausal Iengwrth Dames, 2 vols, the Hakluyt Socity, (London, 1918).

- Bathurst, R.D, :

The Yarubi Dynasty of Oman, Submitted for the Degree of Doctor of Philosophy, Linacre College, (Oxford, 1967).

- Biddulh J, :

The Pirates of Malaber and An Englishwoman in India two Hundred years Ago, (London, 1907).

- Boxer, C.R, :

Portuguese Congluest and Commerce in Sowthern Asia, (London, 1985).

= = Four Centuries of Portuguese Expansion, (London, 1961).

= = Fort Jesus and the Portuguese in mombasa 1593 - 1729, (London, 1960).

- Budje, , :

A Histoyry of Ethiopia, 2 vols, (London, 1928).

- Burton, R, :

Zanzibar, City, Island, and Coast, (London, 1872).

= = First steps in East Africa, (London, 1894).

- Carre, A, :

The Travels of the Abbe Carre in India and the Near East 1672 to 1674, transl by Lady Fawcett ed charles Fawcett, Hakluyt Society, 3 vols, (London, 1947).

- Coupland, R, :

East Africa and its in vaders, (London, 1938).

- Della Valle, p, :

The Travels of sig pietro Della Valle Anoble Roman, in to East Indies and Arabia Deserta, (London, 1665).

- Dennis, R, :

Obock Muscat, Bauchair, Bassorah, (Paris, 1883).

- Denvers, F.C, :

The Portuguese in India , 2 vols, (London, 1894).

- Eliot, C. N, :

The East Africa Protectorate, (London, 1950).

- Foster, W, :

The English Factories in India 1618 - 1669, 13 vols, (Oxford, 1927).

- Fryer, J, :

New Account of East India and Persia being Nine years Travels 1672 - 1681, ed W. Crook, Hakluyt Society, 3 vol s, (London, 1915).

- Granvill, F., :

The Medival History of the Coast of Tanganiyka, (Oxford, 1962).

= = Select Documents the East African Coast, (Oxford, 1962).

- Gray, J, :

Early Portuguese Missionnries in East Africa, (London, 1960).

= = History of Zanzibar from the Middl Ages to 1856, (London, 1962).

- Guillain, C, :

Documents sur l'histore, la geographie, et le commerce de l'Afrique orientale, 3 vols, (Paris, 1856).

- Hamilton, A, :

A New Account of the East Indies ed W. Foster, 2 vols, (London, 1930).

- Hollingsworth, L. W, :

A Short Hisory on the East Coast of Africa, (London, 1929).

- Jackson, M :

European Powers and South East Africa, (London, 1942).

- Jayne, K.G, :

Vasco De Gama and His Successors 1460 - 1580, (London, 1974).

- Knappert, J, :

Swahili Islamic Poetry, (London, 1971).

- Krapf, J. L, :

East Africa Travels and Missionary Labours, (London, 1860).

- Kroell, L, :

La Parse et Mescate, (Paris, 1977).

- Lockyer, C, :

An Account of the Trade in India, (London, 1711).

- Low, C.R, :

History of the Indian Navy 1613 - 1863, 2 vols, (London, 1877).

- Marharat, M, :

Fort Jesus Mombasa, (Neirobi, 1934).

- Martin, F. A, :

Memoirs de Frencois Mertim Fondateur de pondichery

1665 - 1696, 3 vols, (Paris, 1931 - 1934).

- Martin, B.G, :

Notes on Some members of the Learned classes of Zanzibar and East Africa, J.A.H, vol. 11, (1971).

= = Muslim Poltics and Resistance to Colonial Rule Shaykh uways B. Muhammad Al-Barawi and the Qadiriya Brothehood in East Africa, J.A.H, vol. 10, No. 3, (1969).

Mellaud, F. H, :

Through the heart of Africa, (London, 1912).

- Oliver, R, :

History of East Africa, 2 vols, (London, 1962).

- Ovington, J, :

A Voyage to surat in the year 1689, (London, 1696).

- Owen, W.F, :

Narrative of voyages to Explore the Shores of Africa, Arabia and Madagscar, 2 vols, (London, 1833).

- Pearce, F.B, :

Zanzibar; The Island Metropolis of Eastern Africa, (London, 1920).

- Reush, R, :

History of the East Africa, (London, 1954).

- Salim, A.I, : Progress Towards Mwa Mbo (Neirobi, 1956).

= = The swahili speaking peoples of kenya coast (Neirobi, 1973).

- Schoff, W.H, :

The perplus of the Erythen, (Newyork, 1912).

- Sergeant, R, B, :

The Portuguese of the South Arabian Coast, (London, 1967).

= = The Saiyids of Hadramawt, Inaugural-lecture, S.O.A.S, (London University, 1957).

- Slade, R.I, :

King Leapolds's Congo, (London, 1920).

- Soghayronn, I. E, :

Islam in Uganda : Traders and trade Routes and the Establishment of Islam in Buganda kingdom, (Riyadh, 1979).

= = The Omani and South Arabian Muslim Factor in East Africa, (Riyadh, 1984).

- Sousa, F, :

The Portuguese Asia or the Hisory of the Discovery and Conquest of Inda by the Portuguese transl, into English by cap. John Stevens, 3 vols, (London, 1695, 1894).

- Stanley, H.M, :

Through the Dark Continent, vol. I, (London, 1878).

- Stigand, C.H, :

The Land of Zing, (Cambridg, 1913).

- Strandes, J, :

The Portuguese Period in East Africa, transletd J. F. Wallwork, ed J. S. Kirkman, (Nairobl, 1961).

- Strong, A., :

The History of Kilwa, (London, 1877).

- Stripling, G.W, :

The Ottoman Turks and the Arabs 1511 - 1574, (Urbaa : The University of Illinois Press 1942).

- Sykes, P, :

A History of Persia, 2 vols, (London, 1951).

- Trimingham, S, :

Islam in Ethiopia, (London, 1952).

- Texeira, P, :

The Travels of Padro Texeira, Translated and annoted by Wiliam. F. Sinclar Hakluyt, (London, 1902).

- Warner, A, :

A Swahili History of Pata, J.A. H, No. 14, (January 1941).

﴿ فهرس الموضوعات ﴾

الفصل الثالث

جهاد الإمام سلطان بن سيف الأول

الفصل الرابع